



الدكتور شوقي ضيف

عصر الدولة والمعارضة

الجزائر - المغرب الأقصى
موريتانيا - السودان

تاريخ
الأدب
العربي



عصر
الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

عصر
الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ یدیل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

| | |
|---|-----------------------------|
| اسم الكتاب : | تاريخ الادب العربى (ج ١٠) □ |
| المؤلف : | شوقى الضيف □ |
| الناشر : | ذوي القربى □ |
| الطبعة : | الأولى □ |
| تاريخ الطبع : | ١٤٢٨ □ |
| الكمية : | ١٠٠٠ نسخة □ |
| المطبعة : | ستاره □ |
| شابك ج ١٠ : | ٠ - ١٩٣ - ٥١٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨ □ |
| مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ + | |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربى خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأت بالحدث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقى منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية فى تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة فى فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهديّة . وتحول المعز العبيدى بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينب عنه فى تونس والبلاد المغربية بلكين الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويطعن المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سُلَيم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع بُناؤه أن يداوروا بنى هلال وتَسَلَّم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولاته دولة الدولة الحفصية فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، ويفضّب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرّر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتحرر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعث الجزائر الدولة العثمانية وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر - مع أهلها من البربر - عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الخفيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التي انتظمت في جيوشهم . وظل ينزلها في المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان في صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمي الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوروبا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت في الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة في الجزائر زراعة القمح والشعير ورعى الأنعام ، وتكثر بها أشجار النُقل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلي وأولى الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحمرية ، ومعاصر الزيتون كانت منتشرة في بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والحيثان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرّ إلى رفه في الملابس والمأكّل والسكن ، حتى لشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتم هذه الحضارة وما طوى فيها من رفّه عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن - بعد الفتح - حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكنوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر في محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكسب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفي في عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت في الجزائر نُرعة صوفية ، ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفي الأندلسي وفي مقدمتهم أبو مدين شبيب ، غير أن التصوف السني هو الذي ساد في الجزائر وانتشرت طريقته القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندي الفاتح بمجرد أن يضع قدمه في بلدة أو قبيلة يأخذ في تحفيظ معتقّي الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعض كُلم العربية في التخاطب وفروض الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية في الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتابات والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تُلقَى محاضرات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة في النمو تأسيسُ المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفي المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التي نشأت في الجزائر ، الدولة الإباضية في تاهرت ودولة بني حماد في بجاية وقلعتها ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في تلمسان ، وكان من العوامل القوية في نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف في القرن السابع الهجري والحادى عشر . وعرضت علماءها الأعلام في علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفي الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل علم من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كُتبه ، ومع كل علم ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آبائه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى ألسنة البربر ، لأنها لغة دينهم الخفيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل ينجذب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية . وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبي على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثر شعراؤه ، وذكرت أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفضل الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى (قاضى ميلة) وابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوفا ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبو حمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء المهجاء ، ومن كبار المهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر التعليمى ومن أفادهم عبد الرحمن الأخرصى ناظم السلم المرونى فى علم المنطق . وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأربسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمة فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لملمة : محمد بن على بن حماد القلمى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمىة وفى بجاية وتلمسان مع الإمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبو حمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان وأبو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحللت رسالة ابن الريب المشهورة ملاحظا شيوع السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهمذانى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذة الأدبية .

وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن الفالسي والوهراني وأبو الفضل بن عشرة .

٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به في الأعوام السبعين المتتمة للقرن الأول الهجري وجند الولاة العظام حينئذ بعض الشباب المغربي في الجيش العربي فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية في القرن الثاني الهجري انحرفوا عن هذه السياسة التي يأمر الدين الحنيف باتباعها في الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهز الفرصة الصفريّة من الخوارج وأرسلوا دعائهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفريّة المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قضى على ثورتهم في الشمال وانسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفريّة ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن علي بن أبي طالب أن يكون في فاس دولة إداريّة ، وهي أول دولة إسلاميّة عربيّة في المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلاميّة والعربيّة ، وقضى عليها في القرن الرابع الهجري . وتطلّ دولة المرابطين المغرب الأقصى في أواسط القرن الخامس الهجري ، وتحدثت به نهضة علميّة وأديّة ، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتشر الإسلام في ربوع إفريقيا المداريّة ، وتخلفها دولة الموحدين محاولة أن تنشر لزيعيها لمن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادئ الشيعة والمعتزلة ، وتبلى هذه الدولة بلاء حسنا في إنقاذ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من التورمان والتنكيّل بنصارى الإسبان في غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التي سَحَقُوا فيها سَحَقًا . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم في منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تخاذلت في أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالي لبعض الموانئ على المحيط والزرقاق . ونوهتُ بشاين مغربيين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون وعقوا البرتغاليين محقا في معركة وادي المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانئ التي استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد المباشي محرر الرناش ولزموهم والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والرناش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة ، ويحتل عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضاريّة وفكريّة ، وفي رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث في المغرب الأقصى .

وعناصر السكان فى المغرب الأقصى هم البربر سكنته منذ العصور السحيقة ومن استقر
بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم فى جيوشهم من
الشعوب الإسلامية الآسيوية والإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى فى عهد
الحكم الرشيد بالقرن الثانى الهجرى ومن هاجر بعدهم فى القرنين السابع الهجرى والحادى
عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب فى عهد الفينيقيين والرومان والعهد الإسلامى ،
والنصارى وظلت منهم بقايا فى المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى
حرصا من الروم عداوه خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى
أوربا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر
ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من
الحيوانات الوحشية : النعام والوعول والبرغ الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف
والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصباغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا فى بنى بازعة
« تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مما هبأ لبناء بعض المدن والمنشآت
العمرية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش
حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس فى المدن الكبيرة
والموانئ ، وكان بفاس مائة خيام ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمأكل ولعب التسلية
وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وغنوا بالموسيقى عناية واسعة .
وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تغطى بمكائة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالقات وأديبات
وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلقين فيها الشعراء ويحاورنهم وينقدن بعض
أشعارهم ويمنحنهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء
فيه الطلاب ، وألمت بشيوع المذهب المالكي الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصغرية
والمعتزلة اللتين انتشرتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة
الموحدين ، وألمت بمركبى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن
الفاتحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتابات والمساجد
والمدراس والزوايا والمكبات وعن إثماء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين
فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضت علوم
الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة
والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه
والكلام والتاريخ ، ومع كل علم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ،
ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأُسست دولة

الأدارة فى فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعلت - بقوة - على تعريب المغرب الأقصى ، وعُتبت بفتح الكتائب فى المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم ونُشأت فى المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام فى المغرب الأقصى . وتحدثت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . وبدور الزمن ، ويدخل المرابطون المغرب الأقصى ويظهرونه من الروافض ومن نخلة برغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون فى عهد تلك الدولة يندمجون فى سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره فى تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب فى الجزائر : من قبائل الأثبيج وزغية ورياح وقرة ، امتزجوا بسكانه ، وفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد فى الأندلس ولبّاه كثيرون ، ونفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأثبيج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط فى الشمال وأزغار فى الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسة فى الغرب والأثبيج فى منطقتى دكالة وتادلة ، وانساح كثيرون من هؤلاء الأعراب فى ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة فى عصر دولة المرابطون وما تلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين فى كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس فى فن التوشيح وظهور وشاحين مفاربة نلهين ، وترجمت منهم لابن غُرلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأزجال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازى . وعرضت شعراء المديح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجرأوى وابن عبد المنان والهوزالى وأحمد بن القاضى والدغوغى والبوعنتى ، كما عرضت شعراء الفخر والمجاء وترجمت للشاذلى ولأصحاب الشعر التعليمى وترجمت لعبد العزيز المازوزى وابن الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبى الربيع الموحدى ولعمر السلى ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالى ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شبيب الجزائى ونفى على اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن الهللى ، وشعراء المذاهب النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتبه ، وبدأت بالخطب والمواظع مع بيان أهم الخطباء والمواظع ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتبها مع عرض بعض الرسائل فى مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتبها ، وعرضت

الرحلات المهمة وفى مقدمتها ر. بن رشيد ورحلة العبدري ورحلة العياشى ، وأُملت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الفستلى ورحلة محمد بن عثمان المكاسى ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : الفاضى عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن على الفشتالى ومحمد بن الطيب العلمى .

٣

وتحولت إلى موريتانيا فعرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عتبة بن نافع وقيام إمارة لهم فى أودغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطون ودفعه لهم للجهاد فى السودان الغربى وتطهير قائلهم أبى بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المداوى لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطون أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإيبان. وضّمها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإفقاد الأندلس من برائن نصارى الإيبان ، ونشر الإسلام فى شعوب السودان بإفريقيا المداوية . ويبدو أن دولة المرابطون فى موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبى بكر بن عمر ، وتبع بعض مدنها غلة ، وبغى بعض الفقهاء من عاصمتها كومي صالح إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكو حين غزتها مالى . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدى فى غزوه للسودان المداوى ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع فى موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشأ بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزها كثيرا من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية ، ويعيش السكان على زراعة الشمر والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلاً ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقننوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعى . ولهم مع أهل السودان المداوى تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذهل لها ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان الغربى فى إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم ، وأنه هو الشيء الوحيد الذى يحفظ الماء فى الجسم فلا يتجشّر سريعا . وتلى تجارة الملح فى الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترى بهما ما يريدون قدموا

للبائع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعين القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعى مالكي ، والصدقات والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتابيب ، وتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الخفيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن أتعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكانت النساء هن اللاتى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتابيب يتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبي بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقه وكبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قرأة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقه وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا - وربما أيضا فى ولاته - كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعريبها ولكنها لم تنطق العربية ، إيمانطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعره الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعره المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد البدالى الديمانى وحرمن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهزاء ، وترجمت للمختارين بون ومحمد بن سيدى الأثيرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد ييب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحول الحسى ومحمد بن الطلبة اليعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديا ، وعن شعراء المذاهب النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ومحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسى ، وبالمثل تحدثت عن الشعر والشعر التعليق ومنظوماتهم العلمية .

ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضي السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبة شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٦٥٢/هـ أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وإلى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتشب حروب بين النوبة والماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة ٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضاؤل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشر هناك تجار الكاثم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى وادان ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصووع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشئ خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويشارك السودانيون فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل يكرثم غردون الإنجليز حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالي النيل . ويقوم المهدي بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدي سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى ويتصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليمساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يفوده كشنر الإنجليزى ، وتتصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان ، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثانى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جُمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءا لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانية

مكنة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنظم بين مريديهم وتشد أحياناً فى حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد فى العهد الذى يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذى يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قريمة . وشجع محمد على الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعائها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفى المكى أحد دعائه إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغى ، فنشر طريقته من وادى حلفا إلى دنقلة وفى كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السماتية ، وهى فرع من القادرية . وظهر المهدي بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادئ هى : الزهد ، والعمل بالشريعة المحمدية ، والأخذ بالبساطة فى الحياة ومتاعها ، ونبد جميع الطرق الصوفية ، ونبد كعب الحبل الدينية وكعب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادئ حية فى عهد خليفته التماشى وانتهت الدعوة بوفاته . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة فى السودان تحفظ القرآن الكريم فى الكتاتيب والخلوات ، وتنقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية فى عهد دولة الفرنج نشطة بل مزدهرة وأرخ لها ود ضيف الله فى كبله الطبقات ، وفيه ترجم لحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض فى ذكر من درسوا من علماء السودان فى الأزهر والمدينة بالبحار كما أفاض فى ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد على السودان شجع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المتديان ، وأثنى الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهداً دينياً كبيراً على غرار الأزهر ، وأثنى خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاعة الطهطاوى ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديرية ومدرسة سادة فى مدينة سواكن . ووقف المهدي هذا النشاط التعليمى حتى إذا قام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عاد وزداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشئ معهد دينى فى أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشئ نادى للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان فى حلة وجه بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح وإلى الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة - كما ذكرنا - حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجة في شرقي السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودي في القرن الرابع الهجري ، وظل الإسلام - ومعه العربية - ينتشر في قبائل البجة ببطء ، وبالمثل في بلاد النوبة . أما في الغرب فكان العرب سريعا بفضل الكلفة الضخمة من قبائل زواوة البربرية وشاوة العربية النازلة في دارفور بالقرن الخامس الهجري . ونشرت دولة الفونج العربية في ربوعها ، وبالمثل مملكة تغل في جبال النوبا وسلطنة دارفور وفي كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حتى يكون السودان تعرب ما عدا بعض الجبال الشاهقة في أقصى الغرب ومنطقة الغابة في الجنوب وقبيلة الأمرار البجاوية . وعرضت شعراء المدبح وترجمت للشيوخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحمامة وترجمت للشيخ يحيى السلاوي السوداني ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسي وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبي القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبدالله البنا وصالح عبدالقادر ، وعرضت شعراء الصوف وشعراء المدايح النوبية ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبدالله الرحمن . ولم أؤرخ للنثر الأدبي السوداني قبل العصر الحديث إذ تكرر فيه الألفاظ العامية في عصر الفونج ، وكُتبت بعض رسائل فصيحة في القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا يتيح لباحث دراسة خصية فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السوداني حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى في تأليف هذا الجزء ، وخاصة ما كبه الأعلام المعاصرون في كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه ، إذ كان لي منارات تهديني الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربي وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعيت بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلك أعلام الفلاسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ في كل بلد عربي على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبي والفلسفي والعلمي والحضاري قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولي المدي والتوفيق .

القاهرة في أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقي ضيف

القسم الأول

الجزائر

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

توسط الجزائر فى الشمال الإفريقى بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترا ، وهو ساحل صخرى حجرى ، ولذلك ثقل عليه - بل تنعدم - الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانئ الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة (بونة قديما) فأسككدة ، فجيغل ، فبجاية ، فدلّس ، فالجزائر (المدينة) فشرشال ، فتنس ، فأزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أهدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبى تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلى يادئة بجبال مجردة ، فجبال الباور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيان جنوبا ، فجبال تيطرى وشمالها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريس ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمرانا ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغلاتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة فى الشرق ، ومليانة جنوبى شرشال وتلمسان فى الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلى هضبة كبيرة ، وهى قفار واسعة ينبت بها شجر الحلفا وعشب كثير فى الربيع فتزورها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

لاين حوئل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدنى
(طبع الجزائر) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الخلى (طبع
الجزائر) ص ٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر فى دائرة
المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية الجزائر كتاب المغرب فى ذكر
بلاد إفريقية والمغرب لأبى حيد البكرى وصفة المغرب
وأرض السودان ومصر والأندلس (مقتبس من نزهة
المشائق للإدريس) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض

الحضنة ، وأُنشأ في أحد سهول «خليفة الفاطمي المهدي مدينة المَسيلة (المحمدية قديما)
وشرقي سهلها خرائب مدينة طَبْنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب
من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا في سلسلة
جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه
السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التليّ وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدروا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقي
منها أرض تُقَرّت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وبيعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب
من هذه القسم الصحراوي الشرقي أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهي أكثر جندا من
القسم الشرقي ، وإليها هاجر الإبااضيون حين دالت دولتهم في تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف
الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا
فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ في الجزائر منذ شهر أكتوبر وتزفر في شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة
الأطلس التليّ ، وتأخذ في القلة بالمضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ،
وتكاد تنعدم في أكثر أجزاء الأطلس الصحراوي وجنوبه في الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار
داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ،
وهي جميعا لا تجرى إلا في الشتاء فضل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تنجه
إلى البحيرات المالحة في الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب في طبقات الرمال . وأهم أنهارها
مجردة في الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنرجات في مجراه
الجبلي ، ويخترق شرقي الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجة في
البحر المتوسط ، وبعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة في الديار التونسية . وأطول
أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي ، ويتجه إلى
الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التليّ ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه
إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبى شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب
في خليج أزرو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها
نهر سيوز النابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب في البحر المتوسط بالقرب من عنابة ،
ونهر العروش ومصبه بالقرب من إسككدة ، ونهر الرمل أو الوادي الكبير ويرفده بومرزوق
المخترق لقسنطينة ويصب شرقيّ جيجل ، ونهر الصمام ومصبه بالقرب من بجاية .، ونهر
حميز ومصبه في خليج مدينة الجزائر ، ونهر الحراش ويخترق سهول التيجة ومصبه قريب من
مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة . والنهيرات الداخلية ، منها

نهر جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغيل، ونهر ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتوجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تتبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

وراء المواتى على الساحل سهول تُعبد لنمو أشجار النارج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والفروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تشارك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفة ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تترأى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بسكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بمحرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارة جافة . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والثلوج تنوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والصحراوية قارى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحي الجنوبية المنحدرة منها والمرتامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

٢

التاريخ^(١) القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آمام بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشّامين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الحلى : الكتاب الأول فيه وأقواله الثمانية .

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لحمد هل ديوز (طبع بالقاهرة) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المنى (طبع دار المعارف بالقاهرة)

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عرفا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرفون على المواقع التي تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالى الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة (غلبة الحالية) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكنتها جميعا إدارات تدعى لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها - من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنفل ، وعلموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التى نشروها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نحب ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فثف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خاتمه وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن روماني ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذوا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريتانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، واتخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تدعى لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما أسسوه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الروماني نيفسته ، وفى شمالها الشرقى واحة بسكرة ، واسمها الروماني فيسكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقيين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التى أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها أغدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخرّبت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) . وسموها قسطنطينة وسمّاها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة في مدن الجزائر الداخلية . وأرقت الرومان الجزائريين طوال حكمهم بصورة شتى من العنف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمي أخذت في نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التي استوطنت المدن الجزائرية ، فبنيت الكنائس والأسقفيات في غير مدينة لا في المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا في المدن الداخلية مثل قالمة جنوبي عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر في تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة في القرن الرابع الميلادي ، ويُعدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة وعواظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادي تكسح البلاد موجات الوندال التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب في الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشآت العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطي المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر - من حيثئذ - تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هي المسيطرة في البلاد طوال العهد البيزنطي . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاة تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرُغتين في تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلق طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

٣

الفتح والولاة - الأغالة - الإماضية - تلمسان (أ) الفتح^(١) والولاة

بينما جرمجوريوس غارق في حلمه بتكوين دولة له مستقلة في البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والي مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربي مجاهد في سبيل الله لتعقب الروم في برقة وديار المغرب تأمينا لحدود مصر في أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غربا

للبلادري ومقدمات كتاب رياض النفوس للملكي،
والجزء الثاني من تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دوز
وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الحلي.

(١) انظر في الفتح والولاة: فزوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم والمكامل في التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب لابن عذري، وتاريخ ابن خلدون، وفزوح البلدان

فتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . ويعود عمرو إلى مصر ويوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م واستولى على مدينة قابس . وكان جرجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يهزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحمى بمحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سبيلة خوفاً من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشاً ضخماً من الروم وغيرهم استعداداً لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وضحت بلدانها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبي سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعادها إليها معاوية بن أبي سفيان ، فنازل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فأرغن ، وولاهها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائداً حريصاً متماراً بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقراً له وداراً لا يرحها ، وأخذ توا فى بناء مدينة القيروان أى المسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٦ م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودوراً لقواده وجنوده ، وبنى حولها سوراً منيعاً ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل وولى المغرب بعده أبو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبوالمهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى موريتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبوالمهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهت فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبوالمهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبوالمهاجر سنة ٦٢ هـ/٦٨٣ م وتولّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائداً حريصاً بامسلا ، غير أنه لم يكن سيوسا ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصر على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاتحهم بلاد الزاب فى وسط الجزائر بمخالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وضع السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط قبل قواته فرسه منه ، ونادى ربه قائلاً : « اللهم إني أشهدك نبي وصلت برأية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشه وبقى في جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣ هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكاً على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظراً لمدد ضخم ، وكان قد توفي يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً وولاه على المغرب سنة ٦٩ هـ / ٦٩٠ م وواقع كسيلة ، وأُقر الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتل في الواقعة كسيلة المرتد الباغي الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو في نفر قليل من أصحابه عند برقة - وقيل عند طرابلس - إذ هو يرى بعض سفن الروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنزلهم وكسبت له عند ربه الشهادة .

وفي سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام في القرن الأول الهجري ورأى في بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ ما دامت قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التي تنزها ، والتي تتجسس منها لحساب بيزنطة والتي تميت وتفسد في البلاد موجرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وفرت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها مختبئين مرة ثانية ، وطهر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ، وفرض الجزية على من بقى على دينه المسيحي منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زناتة بجلال أوراس في الجزائر بزعماء كاهنة هناك ، ونازها بجيش جرار قرب باغاية شمالى جبال الأوراس وتمهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت في ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتعل مع الكاهنة في حرب ضروس بجلال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة جيشها ، وولت وجهها نحو تبسة هاربة ولحقها كتيبة فتكت بها ، واستأنم إليه من بقى من جيشها على الإسلام فأنتمهم وأنس سكان أوراس الجزائريين جميعاً على أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه ، فأنجلبوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيماً إدارياً ومالياً محكماً إذ دون الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للرى ، وأقام لإفريقية التونسية ميناء جديداً ليكون قاعدة لأسطول لها يحمى السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشئ مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولاً ضخماً وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بمحلمة الكبرى فأكسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربرى . وكان يترك فى النواحي التى لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر فى أيامه . وأتم التنظيم الإدارى لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربى المغرب الأوسط (الجزائر) عاصمته تلمسان ، وشرقى المغرب الأوسط (إفريقيا التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها فى إقليمها الجنوبى والأوسط المسمى - فيما بعد - باسم الأندلس ، وهو شرف للبتلين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربى للربوع المغربية ونشر الإسلام فى جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة - كما يقول الرقيق القيروانى - عادلا رفيقا كل الرفق بالربة . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم فى الدولة ، ويوصل إلى إفريقيا والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف فى الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد ثمى المهاجر والى القيروان بن فترتى عقبه بن نافع الذى فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوى فيها - كما أمر عمر بن عبد العزيز - بين البربر والعرب ، وعمل بقوة - مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر - على نشر الدين الحنيف فى المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم فى جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن ثمى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فسل المغرب بسياسة الحجاج الغاشمة التى قامت على التفرقة بين العرب والموالى المسلمين فى العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا فى سلك الجيوش التى أتمت فتح المغرب الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية فى الجيش الذى فتح إيبريا وأدخل الشطر الأعظم منها فى الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا - بالقياس إلى العرب - رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولى على المغرب فى نفس السنة بشر ثمن صفوان الكلبي ، وكان رءوفا بالربة ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بخنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صفلية وعادت في ربيع عاصفة ففرقت كثرة منها . وتولى بعده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذي بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله في جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا - في إصرار غريب - التسوية بين العرب والبربر في الشئون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادي وسفهو أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعماً أنهما آثما فتىء للعرب وغنائم حرب لهم . وكان طبيعياً أن يثور البربر على هذه السياسة الفاشحة الظالمة ، وكان دعاة الخوارج صُغُرىة وإماضية قد أخذوا ينشرون في المغرب مبادئهم التي تحتم التسوية بين العرب والموالي المسلمين في جميع الشئون المالية وفي الخلافة فهي حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعاً عرباً وموالى . واعتنق البربر في جيل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التي لا يكفر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُغُرىة الذين يكفرون غيرهم من المسلمين ويوجيون على أنفسهم حربهم ، وترغم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضفرة التبرئة يدعى ميسرة ، وبإيمه البربر واتخذوه إماماً لهم ، وكون منهم جيشاً ضخماً احتل به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادي . ولم يلبث أن هزم في بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ، وولت الصُغُرىة في المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣هـ إماماً لها وقائداً ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به في الجزائر على نهر شلف شمال تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصُغُرىة وقُتل فيها كثيرون من أشراف العرب ، ولذلك سُميت معركة الأشراف . وبزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولى المغرب كلثوم بن عياض القشيري وشدّ أزره بلبن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى في جيش ضخم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصُغُرىة جنوبى طنجة معركة ضارية ، وبهزمان ويتوفى كلثوم ، فينسحب بلج ببقيّة جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصُغُرىة فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر في المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدّه بجيش جرار . وعرف أن قائدين صُغُرىين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشداً جموع الصُغُرىة في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا في طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع لبلقاء عكاشة ومزق جيشه ، وأخذ يستعد في القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلأ الجيش حمية ، ودارت المعركة فسحق جيش عبد الواحد

وَحُمِلَتْ رَأْسُهُ إِلَى حَنْظَلَةَ فَخَرَهُ اللَّهُ سَاجِدًا . وَقُتِلَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ سَنَةَ ١٢٦ فَأَحْسَنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَبِيبٍ حَفِيدَ عَقِبِهِ بِدَنُوءٍ أَجَلَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةَ فَأُعْلِنَ الثَّوْرَةَ سَنَةَ ١٢٧هـ/٧٤٤م وَكَانَ حَنْظَلَةُ تَقْبِيًا فَكَّرَهُ أَنْ يَتَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادَ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَلَمَّا أَصْبَحَ صَوْلَجَانُ الْخِلَافَةِ يَدُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ سَنَةَ ١٢٩هـ/٧٤٦م أَقْرَ وَلايَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ عَلَى الْمَغْرِبِ ذَرَّةً الْفَتْنِ هُنَاكَ ، وَلأنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِ بِشُئُونِهَا إِذْ هِيَ دَارُهُ وَدَارُ جَدِّهِ عَقِبُهُ بْنُ نَافِعٍ ، وَثَارَتْ الْإِبَاضِيَّةُ بِطَرَابُلُسَ سَنَةَ ١٣٠ بِقِيَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودِ التَّجِيبِيِّ وَأَتَّخَذَ الثَّوْرَةَ ، وَبَايَعَ الْإِبَاضِيَّةَ هُنَاكَ الْحَارِثُ بْنُ تَلِيدٍ بِالْإِمَامَةِ وَأَتَّخَذَ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ قَيْسِ الْمَرَادِيِّ وَزِيرًا لَهُ وَمُسْتَشَارًا ، وَأَدَارَا الْحَرْبَ مَعَ جَبِيْشِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَاغْتِيلَا سَنَةَ ١٣٢هـ/٧٤٩م . وَفِي نَفْسِ السَّنَةِ تَحَوَّلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْعَبَّاسِيِّينَ فَأَقْرَأُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَبِيبٍ فِي وَلايَتِهِ ، وَسَمِعَ بِتَجَمُّعٍ لِلصَّفَرِيَّةِ بِتَلْمَسَانَ فِي الْجَزَائِرِ سَنَةَ ١٣٥ فَفَاجَأَهُمْ وَكُتِبَ لَهُ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ . وَأُرْسِلَ حَمْلَةٌ إِلَى صَقْلِيَّةٍ رَجَعَتْ بِكَثِيرٍ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى جَزِيرَةِ قَوْصَرَةَ الَّتِي تَبْعِدُ عَنِ الشَّاطِئِ الْتُونِسِيِّ نَحْوَ ثَلَاثِينَ مِيلًا ، وَتَنَازَلَ عَنْهَا - فِيمَا بَعْدَ - أَبُو زَكْرِيَا مُؤَسِّسُ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ بَنُو نَسْرِ لِفَرْدَرِيكِ الثَّانِي إِمْرَاطُورُ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ «مَلِكُ صَقْلِيَّةٍ» سَنَةَ ٦٢٨هـ/١٢٣٠م . وَتَأَمَّرَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخُوهُ الْيَاسُ وَعَبْدُ الْوَارِثِ فَقَتَلَاهُ سَنَةَ ١٣٧ وَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْيَاسُ ، وَقَتَلَ ابْنَ أَخِيهِ : حَبِيبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَتَوَلَّى مَكَاتَهُ ، وَلَمْ تَلْبَثْ قَبِيلَةُ زَرْفُجُمَةَ النِّفَرَاوِيَّةِ الصَّفَرِيَّةِ الْغَالِيَةِ أَنْ هَاجَمَتْهُ وَاسْتَوَلَتْ عَلَى الْقَيْرَوَانِ وَاسْتَبَاحَتْهَا سَنَةَ ١٣٨هـ/٧٥٥م وَحَاطَلَ حَبِيبٌ أَنْ يَسْتَرِدَّهَا سَنَةَ ١٤٠هـ/٧٥٧م فَفَتَكَتْ بِهِ وَرَفُجُمَةُ . وَكَانَتْ قَدْ اسْتَحَلَّتِ الْحَارِمَ فِي الْقَيْرَوَانِ فَغَضِبَ لِأَهْلِهَا أَبُو الْخَطَّابِ عَبْدُ الْأَعْلَى إِمَامُ الْإِبَاضِيَّةِ بِطَرَابُلُسَ وَجَبَلِ نَفُوسَةَ ، فَهَاجَمَ وَرَفُجُمَةَ وَخَلَصَ مِنْهَا الْقَيْرَوَانُ سَنَةَ ١٤١هـ/٧٥٨م وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رَسَمٍ أَحَدَ قَوَادِهِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ وَالِي مِصْرَ أَنْ قَدَّمَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ ضَخْمٍ ، فَاشْتَبَكَ مَعَ أُمِّي الْخَطَّابِ فِي مَعْرَكَةٍ ضَارِيَةٍ قَتَلَ فِيهَا أَبُو الْخَطَّابِ ، وَفَرَّ وَآلِيهِ عَلَى الْقَيْرَوَانِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رَسَمٍ إِلَى الزَّابِ فِي الْجَزَائِرِ وَأَسَّسَ فِي شِمَالِيهِ دَوْلَةً لِلْإِبَاضِيَّةِ بِمَدِينَةِ تَاهَرْتِ ظَلَّتْ بَعْدَهُ حَتَّى سَنَةِ ٢٩٦ . وَوَلَّى ابْنُ الْأَشْعَثِ عَلَى الزَّابِ الْأَغْلَبُ بْنُ سَالِمِ التَّمِيمِيِّ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَوَلَّى عَلَى الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى سَنَةَ ١٤٨هـ/٧٦٢م وَيَقْتُلُ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ سَنَةَ ١٥٠هـ/٧٦٧م وَيَتَوَلَّى عَلَى الْمَغْرِبِ عَمْرُو بْنُ حَفْصِ الْمُهَلَّبِيِّ (هَزَارْمَد) بَاتِي طَبْنَةَ بِالزَّابِ ، وَنَازَلَ فِي الْجَزَائِرِ الصَّفَرِيَّةِ وَالْإِبَاضِيَّةِ بِتَاهَرْتِ ، وَثَارَتْ عَلَيْهِ الْإِبَاضِيَّةُ طَرَابُلُسَ وَحَاصَرَتْ الْقَيْرَوَانِ وَخَرَجَ إِلَيْهَا وَاسْتَشْهَدَ فِي الْمَعْرَكَةِ سَنَةَ ١٥٣هـ/٧٧٠م . وَخَلَفَهُ ابْنُ عَمِّهِ يَزِيدُ بْنُ حَاتِمِ الْمُهَلَّبِيِّ سَنَةَ ١٥٤ وَيَقُولُ عَنْهُ الرِّقِيقُ الْقَيْرَوَانِيُّ : « كَانَ كَثِيرَ الشُّبْهِ بِجَدِّهِ الْمُهَلَّبِ فِي حُرُوبِهِ وَدِهَانِهِ وَكِرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَكَانَ خَبِيرًا بِشُئُونِ الْإِدَارَةِ فَرْتَبَ الْقَيْرَوَانِ وَسَوَّقَهَا ، كَمَا كَانَ خَبِيرًا بِشُئُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ ، فَقَلَّمَ أَظْفَارَ الصَّفَرِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ وَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ نَشَاطٌ إِلَّا فِي دِيَارِ زَنَافَةِ بِالصَّحْرَاءِ ، وَقَلَّمَ بِالمَثَلِ أَظْفَارَ الْإِبَاضِيَّةِ ، فَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ نَشَاطٌ إِلَّا فِي تَاهَرْتِ وَجَبَلِ نَفُوسَةَ ،

وهذأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أدبيا ، وأسبغ عطايها على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث فى القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر فى عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونومديا أو شرقى الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحكمة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب فى أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفى عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية فى ولىلى جنوبى طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العقظام ، ونشر فى الاقليم التونسي والطرابلسي الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليا إبراهيم بن الأغلب التميمي ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل المكي إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفا سىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكون به أسرة حاكمة له حكما مديدا كحكم المهالبة المذكورين آفا .

(ب) الأغالية^(١)

كانت الجزائر تحظى حينئذ فى شرقها (نومديا القديمة) بدولة الأغالية المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسي إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شمالا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طينة . ونعم هذا القسم من الجزائر فى عصر الدولة الأغالية بهنضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فى ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقّق لحكامها الأغالية من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الخفيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فحما عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها فى الإقليمين التونسي والجزائري ، فرحل منهم كثيرون إليها يتعممون بما فيها من طبيات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالية بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

لمبارك بن محمد الطل والجزء الأول من كتاب وركات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أمراتها .

(١) انظر فى الأغالية المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيرة لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون ويقاع إيطالية كثيرة جنوبها ، واستولى على مملكة سنة ٨٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٨٢٦١هـ/٨٧٤م - ٨٢٨٩هـ/٩٠١م) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملاً الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغلبية على رعى كبير بالسياسة وتدير شئون الحكم ، فكثرتا يولون على شرقى الجزائر فى طَبَنَة ولاية يحسنون إدارة الحكم ، وكثرتا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاء زهين ثقافة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لمهد الأغلبة - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

(ج) الإباضيون^(١)

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى مورتانيا الشرقية ، أسسها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذاً مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أن كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادئ الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يؤلى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويتابع الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماءه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعين القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوصياتها وتطوف فى المدينة أوالقبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على ديوز والأزهار الرياضية فى آئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للمبلى ص٣٦ وما يبعدها .

(١) انظر فى الدولة الإباضية جاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن خذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المننى والجزء

بالمقالة والتفوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثي ، وأدّى ذلك إلى انشقاق فى صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية فكثرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمردت عليه فى شمالى الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبة إلى زعيم المعتزلة فى البصرة وأصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنتها ، وانضم إلى مذهبه الإباضى جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أنفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاق جماعة الإباضية شاعة السلاح فأدار معها حربا انتهت بقتل قائدها ونشأت أنصاره فى البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبو اليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة فى الضعف وتفاقم فى عهد ابنه أبى حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعى داعية المهدي الفاطمى قد نشر الدعوة الفاطمية فى قبيلة كمامة وأيده فى القضاء على الدولة الرسمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م . وما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المديارية فى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا وإلى السودان النيل فى مناطق كردفان ووادى . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت فى الواحات وفى كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام فى كل البقاع التى كانت تنزلها القوافل ، وهى خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قضى على الدولة الإباضية فى تاهرت انحاز الإباضيون فى الجزائر إلى الجنوب - حتى اليوم - فى أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرسمية سيطرة المذهب السنى - وخاصة مذهب مالك - على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا فى الصحراء الإفريقية المديارية والسودان النيل .

(د) تلمسان

فى أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة فى حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . ونزاهم فى سنة ١٤٨ يايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرعة اليفرنى الزناتى ، ويُعدّ فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمى فى ولايته على المغرب الأدنى (الإقليم التونسى وشرقى الجزائر) ويبلغ النبأ الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اترب منه هرب وتفرقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ فى إعداد جيش لمنازلة أبى قرعة ويحصن طينة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرعة أعد جيشا كفيفا للملاقاة ، وتقدم إلى طينة ، غير أن خلافا دبّ فى جيشه ، وتفرقت عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هواراة بطرابلس عليه ، وانتهاز أوبرة غلبه عن طينة فهاجمها ، وكان عمر بن حفص ترك بها المهنا مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبي قرة فهزمه وولّى الأديار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبي قرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بنى يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى ولى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكة رأى الزحف على تلمسان وماجاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم يزحفه محمد بن خزر المغراوى فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وبأيمه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعينه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى ولى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظم فيها شئونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزها - كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين - عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أوابنه محمد تركها له فسلكتها وبأيمه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه بُناؤه وأحفاده إلى أن أخذها منهم موسى بن أبي العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد (أ) الدولة العبيدية^(١)

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تنقسم الجزائر : دولة الأغلبية فى شرقها ودولة الإباضيين بتاهرت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدي الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهدية التى بناها بجوارها عاصمة له ولبن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأمانا واتمشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأبضا بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب على بن حمدون الزناتى بسهل الحفنة مدينة المسيلة (المحمدية) سنة ٣١٥ ، وتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ ناثر ببرى من الخوارج يمد العدة فى الجزائر للانتفاض عليه والثورة يُدعى فابيزيد مخلص بن كيداد ،

١) انظر فى الدولة العبيدية انحطاط الحفنة بأخبار الخلفاء
للمفريزى وكتابه المخطط والبيان المغرب لابن عدلى
وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم
لابن حماد وفتح الدعرة للقاضى النعمان وكتابه
المجالس والمسائر وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث
لمبارك بن محمد الليل ص ٥٠٢ وما بعدها .

١) انظر فى الدولة العبيدية انحطاط الحفنة بأخبار الخلفاء
للمفريزى وكتابه المخطط والبيان المغرب لابن عدلى
وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم

أصله من مدينة توزر التونسية في بلاد الجريد ، وكان في أوائل حياته يحفظ الصبية والفلمن
 القرآن الكريم في مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت في أواخر أيام الرستميين ،
 ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية الشكافية ، وأخذ يجمع إليه كثيرون من قبيلة زناتة
 ومن البربر الخوارج الإباضيين وصرفيين ، وكون منهم جيشا لقي به قبيلة كمامة في الأرس
 وغير الأرس وهزمها مرارا . وكان يبيع لجيشه نهب البلاد وحرقها وسبى النساء وقتل الأطفال
 مما يؤكد أنه لم يكن ياضى العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك
 كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويدور أنه
 قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سبى النساء وقتل الأطفال ، فاعتدى
 بهم ، وشس القدوة . وماتوا في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م حتى يحمّد جيشا ضخما يستولى به على
 كثير من البلدان في الجزائر والإقليم التونسي ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من
 القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدي خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها
 وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكاتها يريدون الانتقام من العبيدين لمحاولتهم فرض عقيدتهم
 الإسماعيلية عليهم وعمر مذهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة
 المهديّة عاصمة العبيدين وحاصروها . وتوفي الخليفة العبيدي القائم في أثناء حصاره لها سنة
 ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور ، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا ،
 واستصرخ زيري زعيم صنهاجة في الجزائر ، فلبى صراخه ، وانهمز ابن كيداد هزيمة ساحقة ،
 وولّى الأديار إلى الجزائر ، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه في باغاية بجبال الأوراس وغير
 باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، فقتل به سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته
 انتهت ثورات الخوارج في الجزائر .

(ب) الدولة^(١) الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كمامة الجزائرية هي التي لعبت الدور الأول في نصرة أبي عبد الله الشيعي
 على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة في تلمسان والإباضيين في تاهرت والأغالبية في القسم
 الشرقي من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هي التي كان لها الدور الأول في القضاء على ثورة أبي
 يزيد مخلد بن كيداد الصُفْرى ، والقيليتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كمامة إلى الشرق
 وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البربر المستحضرة .
 وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البُئر المشيخة ، وكانت شعبها

ترجم ياديس والمير ويسم وتاريخ الجزائر في القديم
 والحديث للملك بن محمد الللى ص ٥٢٩ وما بعدها .

(١) نظر في الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان
 للغرب لابن حنبل وأعمال الأعلام لابن الخطيب
 والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن حطّان في

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبي الإقليم التونسي وطرابلس شرقا .
وروى الخليفة الفاطمي المنصور زيري الصنهاجي على المنطقة الغربية في الجزائر وحين تولى
لمعز الخلافة البيدية سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ألقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة
ويتضح ذلك في بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقي من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م واتخاذها
عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين - فيما بعد - لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط
ومدينة مليانة جنوبي شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي
من مليانة . وساعد زيري جوهر الصقلي في سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م في حملته التي استولى بها
على جميع بلدان المغرب الأقصى ماعدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن
الناصر الخليفة الأموي في قرطبة . وكان جوهر الصقلي قد استولى على مصر للمعز سنة
٣٥٩ هـ / ٩٦٨ م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدي المعز سترك عاصمته المهدية في إفريقية
التونسية إلى مصر ، وسيوئى زيري على المغرب جميعه نائبا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن
علي بن حمدون الزناتي والى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م وكانت بينه وبين زيري صفاتين
وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة
ولايته التي بناها أبوه في ولايته عليها كأمراً بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالفا طاعة المعز ،
واحتفت به قبيلته وملكته عليها ، واستطاع في سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف
به على أراضي صنهاجة ، وعلم زيري فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان
ورجحت كفة جعفر بن علي زناتة وقتل زيري في المعركة . وكان ابنه بلكين في أشير وجاءه
نبأ مصرع أبيه ، فأعد العدة سريعا للأخذ بأثر أبيه ، والتقى زناتة ومزق جموعها ونكل بها
تنكيلا شديدا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقره على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت
وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب
جميعه في ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغي أن
يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسؤوليات الحكم في المغرب ويرتب شؤنه ، وهو يهرى مغربى من
صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبنائه ، وهي أول مرة
في التاريخ الإسلامى تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل
حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى
زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعى إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ،
يتدبرون قرونا - طوال الحكم العربى - على النظم الإسلامية في إدارة الدولة وأخذوا يحكمون
أقاليمها المختلفة . وأن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه
في كتابه : « البربر المسلمون في العصور الوسطى » وكتبه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول في المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيقا لآمال البربر في الاستقلال عن العرب. ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح، إنما الصحيح أنه تطور طبيعي لتحرر البربر على أساليب الحكم وبناء الدول، وأيضاً بناء المدن، ومرتبطاً بآفاق بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيري لمدينة أشير وبناء بلقين لمدينتي الجزائر ومليانة.

واتخذ بلقين القيروان عاصمة له، وتوفي الخليفة العبيدي المر سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م وتولى ابنه العزيز وثنته في ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها. وثارت في أوائل عهده بالجزائر تاهرت وبأغاية وتلمسان واستسلمت له سرهما، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توزع لزنانة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلقين، وقاد في سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٩ م جيشاً كبيراً إلى تلك الأنحاء، واستسلمت له جميعاً. وتوفي في أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة، وخلفه ابنه المنصور في أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م ففقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة. وكان المنصورين أبي عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعي المؤيد قد أعلن زيري ابن عطية زعيم زنانة على بسط سلطانه على سجلماسة، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له، فأمر المنصور أن يحارب أن يطوفت أن يغزو جيشاً إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيري، وصدع بأمره، غير أن زيري هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة. وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيري زنانة فلا يعودوا إلى القتال، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التي أنهكت قواماً طويلاً. وعرف العزيز الفاطمي في القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائياً، فأرسل إلى كتامة في الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراساني سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور، وظل سنة يثير الكمامين ويجمعهم حوله، ولقيه المنصور هو وجموعه في سطيف شرقي تاهرت وقضى عليه. وأدت سياسته الحكيمة مع زنانة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزرون فولاه على طينة، وتوفي سنة ٣٨٢ فولى ابنه فلان مكانه. وعم الجزائر الأمن والهدوء في بقية أيامه وتوفي سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس في الثالثة عشرة من عمره فقدر له أمور الدولة في إفريقية التونسية والجزائر أعماهم، وخاصة يطوفت في تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧. وماتوا في سنة ٣٨٩ حتى يُعيد زيري بن عطية صاحب فاس جيشاً ضخمًا ومحاصر يطوفت في تاهرت، وينجده سرهما حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبي العرب، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوماً على زنانة، وتدور عليهم الدوائر، ويولي جيشهم الأديار تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزنانة وزيري. وبلغ باديس الخبر فخرج على رأس جيش للقاء زيري، وعلم به فعاد إلى فاس، وخرج عليه فلان بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده، وفر إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها. وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ماكن وأولاده ورحيل زاوى بن زوى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زوى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتفتت صنهاجة وحماد الصمدلى ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زوى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

(ج) بنو حماد^(١)

كان حماد - كما يقول لسان الدين بن الخطيب - نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كعب « الجدل » وفكر جاداً فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه ببناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعرف فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة (الممهدية) وأحاطها سريعا إلى مدينة تكثظ بالأحياء والفنادق والمساجد توسطها قصبة أو بعبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرابتها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمم حماد على إعلان استقلاله . وماتوا فى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتقدا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشاً ضخماً لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبر له شئون الحكم أعمامه ورجال دوله ، وانتهاز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفر على وجهه إلى القلعة محميا بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتم ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبنائه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وتقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتعدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبنائه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

القلعة وبجاية لإسماعيل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للملك الملى ص ٦٠٢ وما بهما وراجع مادة : « بنو حماد » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان للغرب لابن عشارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك

وآلف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإلهية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر ويوتهم العريقة فى صنعها ، وبذلك كانت دولة بربرية بحتة ، وأيضاً فأنها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت - بكل وسيلة - على نشرها لافى العاصمة فحسب ، بل أيضاً بين القبائل ، وعملت أيضاً - بكل ما استطاعت - على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هاتنا بقلته ودولته حتى سنة ٤١٩ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المزعز سنة ٤٣٢ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلْكَيْن بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المزين باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيدين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنَّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقيا التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكسحوا بركة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المزين باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهديّة سنة ٤٤٩ وبقي بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين يتهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وأصبَّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثيج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة أبى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثيج وعدى الأرياف يتهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوى وهران وقتله ثأراً لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقاً له ، وأعلن نفسه حاكماً للقلعة وصنهاجة مكثه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحكمة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المزين باديس وابنه تميم إلى المهديّة وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوغر إلى أمراء بنى رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونزلهم فى سبية شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان فى الاقليم التونسى حتى القيروان . وكان يحدث شغب فى كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصاته زناته ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إبتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البها جرجورى السابع بتكريس قيس يسمى سرفند أسقفا لأبرشية بونة واغدى جميع الأسرى المسيحيين فى بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب فى نفس البها فأجابه إلى تكريس سرفند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بآله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدي العربان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بنى بجاية على البحر المتوسط فى الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعنى بتخطيطها وتشييد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وفى أول حكمه ازداد ضغط القبائل الملالية عليه واضطرتته إلى أن تقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م . وخلال الستين اللتين قضاهما فى القلعة شيد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار فى بونة وقسنطينة ، وعادنا إليه ، واشتبك مع زناته فى الجنوب الغربى ورد المرابطون إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة واملو الزناتية وتزوج بنت زعيمها مانوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدياء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البلبور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الملالية فى التخريب والقضاء على العمران فى الجزائر وخوفا على ما فى القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ هـ للهجرة .

دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد (أ) دولة^(١) الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراکش ، واتسع في إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد في الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا في الفلعة وبجاية وعاصمتيهما نهضة في الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأواً عظيماً ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان في الجنوب ومع أوروبا في الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمتد عاب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس ، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمتد بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكساحهم للزاب يلهمهم ويخيلهم ورجلهم في القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل في إفساد الزاب ، وحدثت الطامة في القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البليور وامتدوا شرقاً حتى سهول بونة (غلبة) وأصبح بنو حماد وبجاية فى حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين فى مراکش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد ، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقاً وطارد فلولهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتمتد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين فى الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتفرغون أو يصبحون جزءاً من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن فى حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة فى معركة الأرك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلها من عبد المؤمن النجدة ، فصار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم فى الجزائر وإفريقية التونسية أظفار الأمراء المستبدى بالبلاد ، وحاصر المهديّة ثم طرابلس براً وبحراً سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق فى الأقليمين التونسى والجزائرى ما اتخذته فى المغرب من التراتيب المخزنية فى إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة فى عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

الدولتين الموحدة والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى التقديم والحديث المبارك الملى وعصر الربيعين الموحدين لحمد عبد الله حنان .

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لآمن عفاوى وكتاب المصباح للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب للى بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ

سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م. وفي عهده ثار عليه بنو غانية ولاية المرابطون في جزيرة ميورقة، ونزل منهم على أخوه في الجزائر والإقليم التونسي محاولان أن يقيما فيها دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ويمددا جيشا لحربهم. وأحدث على قلاقل كثيرة في الساحل الجزائري بين بجاية ومليقة وكذلك في الساحل التونسي، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه في بلدان الجزائر وتونس بين المساجد كما بينى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقي مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته. وخلف على في شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الحلالية، ومرة يتصر مرة يهزم حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١.

(ب) الدولة^(١) الحفصية بجونى

في هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية، واستطاع أن يخضع الجزائر، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفا شديدا، فاستقام له حكم البلدين حكما رشيدا يقوم على نشر العدل والأمن في البلاد، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تملن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ/١٢٥٨م وكذلك لابنه محمد، وكان التار قد قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعمل بعض أتباعه على أن يتابعه مكة بالخلافة وبابته، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله، وكان عهده في الجزائر شرقا وغربا - كعهد أبيه - عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ/١٢٥٨م. وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربي الجزائر كما أخذ المرينيون ينخلصون من الولاء لهم، واقتحم الجزائري أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١م ودخل بجاية وخرّب يستلها المسئى بالبديع وعاد أدراجة. وانتهى من حيثذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر، فلم تعد تمتد سلطتها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر، إذ تراجع حكمها - حتى نهاية أيامها في القرن العاشر الهجرى - إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب. وفي الأكثر كانت تفرض تلمسان في عهد بنى زيان سلطتها على الجزائر الغربية وأحيانا كان يفرض عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية. وحاول الخليفة الحفصى أبو عصيد تلافى هذه الخصومة سريرا، فأرسل في سنة ٧٠٣ وفدا

الحفصية لآين الشجاع والقارسية في مبادئ الدولة الحفصية لآين قنص وتاريخ الجزائر في القدم والحديث لمبارك بن محمد الللى .

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لآين علوى وتاريخ آين علوى والاستعصا لأشهر دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الدولتين الموحدة والحفصية للزركشى والأمة آينة القروانية في مفاتير الدولة

إلى السلطان المريني لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، مما جعل السلطان المريني أبا الحسن يحتاج تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ويظل بها ستين ، ويعلم بثورة أبي عنان ابنه عليه في المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم في طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان - بعد توليه الحكم - الاستيلاء من جديد على تونس ويكسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها في الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها في الجزائر الشرقية وتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها في عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز فيعد سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربي الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المريني رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطتكم وجميع ماتأمرونا به ننتله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، واثارت عليه تلمسان فاستردّ ولاءها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين الموحدين ، وتوفي سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده في التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد في إقليم الجزائر الشرقية .

(جـ) بنو عبد^(١) الواد بلمسان

لم تفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدراسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أنضموا لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ناروا عليها ، مما جعل صنهاجة يزعمه ولكن تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويأرون لأنفسهم يزعمه زيري بن عطية سنة ٣٨٩ وتهمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مهيمنة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية بمراكش سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، وتبع بطهم دولة الموحدين . وقرّبوا منهم بنو عبد الواد الزناتيين . وفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ولوا منهم جلي بن يوسف

ساجيت وكتاب الاستنفا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حو موسى القرطبي للدكتور عبد الحميد ساجيت وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد اللؤلؤ

(١) انظر في بني عبد الواد أوبني زيان كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التسي تحقيق د. محمود بوعباد وكتاب بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لمحي بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد

على تلمسان فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفي سرعاً ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَفْرَاسَن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصب نفسه أميراً للمسلمين ، وسير إليه بُوزَكْرِيَا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاية ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه بفمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدراً خطرها ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المديّة فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه بُوزِيَان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفي السلطان المرينى يوسف وفكّ المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيال سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولما بتشديد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصحابه فتشفع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غربىها لسكانها المنصورة وضيق عليها الحصار وشدّ الخناق ستين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عانان على تلمسان ومحاصر إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها ما يقرب من ستين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمت ، وجاءته أخبار بأن أبا عانان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سرعاً إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلها السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزيبنى أبا حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المبرين وأعادها إلى أسرته . ولم تسم الدولة حينئذ دولة بنى عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بنى زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبر أبو حمو أمور الدولة تدبيرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لما نظاما شبيها بنظم الخلافة فى الشرق فصل القول فى الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذى يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبو حمو موسى الثانى سنة ٧٩١ وتنازع أبنائه وتقاتلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكى برفوق وقتل سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م بيد أخيه أبى محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ . وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م وأخذ يكثر فى الأسرة القتل والخلع ، وتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفى سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصى على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية فى تولية حكام الدولة الزيانية ، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصى أبى مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبى حمو وتولاها التوكل بعده سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالبية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بنى زيان بتلمسان وغربى الجزائر تدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية فى شرقى الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستألف الحروب الصليبية بتعقبهم فى تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمى ثغورها على البحر المتوسط ، واستولى فى الساحل الغربى للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربى من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستنقعات ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى فى الساحل الشرقى للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكثما أصبح الساحل الجزائرى جميعه غربا وشرقا فى قبضته ، إذ أعمل التلمسانيون والحفصيون الرهانات والمخارس الساحلية التى أكثر الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

وفي هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين (بربروس) وكلاهما قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية، وغضبا غضبا شديدا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إيقادها منهم، واتفقا مع الخليفة أبي عبد الله الحفصى أن يتخذوا جزيرة جربة في تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسباني وتحرير الساحل الجزائري. ولم يلبث أن استولوا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأخذوا يديرون منها معارك حامية مع الإسبان، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتررون من فرديناند والإسبان، وحميت المعارك وأخذت بعض الموانئ الساحلية تسقط في حجر البطليين، وتوفى عروج قبل الأوان، ومضى خير الدين في حملاته، ورأى - بشاقب نظره - أنه لا يستطيع إقامة ملك تركي مستقل بالجزائر، فأرسل إلى السلطان العثماني بولائه له هو وفنوحاته في الساحل الجزائري، وقبل منه ذلك، وسماه: «بايلاريك»، أي أمير الأمراء، وأمه بجند وأسطول، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين، واستطاع خير الدين (بربروس) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحرق الساحل الشرقي والغربي من الجزائر ما عدا المرسى الكبير وهران، ودمر الأسطول الإسباني في مواقع عديدة. وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية، وأُخذ الإسلام في إفريقيا، وأُسس بقوة السلاح - في الجزائر - دولة إسلامية عثمانية. وظلت الملمحة الحربية دائرة في الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثلها الترك. ويخلف خير الدين (بربروس) ابنه حسن، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه، وكان على شاكلته بطلا مقداما. وشق شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستمد لها طويلا، وما إن ألم بأسطوله بها حتى سُحق سحقاً أمام المدينة، وغنم البايلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد. واستولى البايلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه، كما استولى عنوة على كل المواضع التي كان يحتلها الإسبان هناك ما عدا وهران، فقد بقيت في يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن في عهد الباشا محمد بكداش فتحها وطرد الإسبان منها، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طردوا.

القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري للذكور
أبي القاسم سعد الله ومادة الجزائر في دائرة المعارف
الإسلامية.

(١) انظر في المعهد العثماني بالجزائر كتاب الجزائر
لأحمد توفيق النفي وكتاب تاريخ الجزائر
لمحمد الرحمن الجيلال وكتاب تاريخ الجزائر العثماني من

منها نهائيا فى عهد الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ١٢٦٥هـ/١٥٥٧م وأدبروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى للرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وماورله ، وهو ما حدث للأسطول الدنماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م وحملة أدركى الإسبانية آخر القرن الثانى عشر الهجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والدانخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون ينأرونه - كما نأوروا بأه خير الدين - فخارة معه وثارة مع الإسبان ، وشتم أهلها من هذا الصنيع ، وأقضى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى غيه ، وأظلم الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكنت نحدث أحيانا مناقشات حرية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى ستنى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ بلغت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزاع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدولوين وقدر الرواتب ، وخلف حلوية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأنأصول أو من رعاياها . وفى الأكرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباء فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضربت البسكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك (أمير الأمر) حتى سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م ، وكانوا أشبه بمحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التلى وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشاوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية وروساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمدة الحكم ولم يعد للباشاوات إلا بعض المهام التشريعية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وانخفضت الباشاوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى يتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونوه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالي ، ويلغوا حتى الاحتلال الفرنسي ثمانية وعشرين دابا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد فى فسادة أن القرصنة التى كانت مصدر دخل كبير للدولة فى القرنين السادس عشر الميلادى والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوض ذلك الدبابات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثماني فى هذا العهد - وخاصة فى أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الداي - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه فى الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والتقودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخول وهو جللى الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباشا كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف . وجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكرية ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضي الخفى ، وكان فى أول الأمر يأتى من الأستاذة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبي الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تطبرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البابلياريك أو الباشا أو الأغا أو الداي ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثماني فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين ينبغى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالمثل فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : فسا تفاوتت تبعته للداي أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضرريته تسمى لازمة ، وقسا مواليا للدولة معنى من الضرائب ما عدا الرسوم القنوتية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالمهارين وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظون على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضى ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحمايات العسكرية ،

ورفضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مر بنا ، وبالمثل كانوا يجعلون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية . وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها يطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسباني ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لديهم معا ، فكان يتبعنى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولي مناصب الدولة الرفيعة . ونسب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المتصهر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آبائهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون مناصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداي الحاكم للبلاد باستثناء البيلارليك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لب الثورة كان ينطفئ سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقضى عليها حين جندت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد منيت - منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموال عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات يبعدون عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثملى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تنجس الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد لإزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القرصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بثنائهم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغرى مثل السويد والدانمارك وهولندا وناپولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلاف من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكبظ موانئ الساحل الجزائري بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون - حسب تعاليم الإسلام - معاملة كريمة ويؤدون شعارهم الدينية في حرية تامة ، في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأفئداهما حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء في الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعاني من أزمة اقتصادية خائفة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) بسبب تضائل موارد القرصنة إذا شركان يهوديان ليهودي يسمى نقتال تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة قتلوه مع كثيرين من إخوانه في الدين . وفي سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م حطم الداي على خوجه النفوذ التركي باعتماده على الجند الزواوي الجزائري الوطني ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية في الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة في نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين في الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين داليا ، وفي هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشليل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزي فرنسي لإقناع الداي بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصر على إبقائها مع كل دولة لا تؤذى للجزائر إتابة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركان اليهوديان المذكورتان أقبا مدينتين للداي والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكلتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشتريتها ، وقررت في سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م أن تدفع للشركين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداي بلغها ماله على الشركين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تمر اثنتان مما أثار غضبه ، وفي استقبال الداي لرجال السلك السياسي بليريل سنة ١٢٤٣هـ/ ١٩٢٧م تناحر مع القنصل الفرنسي ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة في يده مسها طرفه وطرده . وعُدت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداي اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفي يونيو من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت في الإعداد لحملة عسكرية ، وفي مارس سنة ١٨٣٠هـ/ ١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا في خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسي فيه فاتكة للمسيحية ، وكله عدو حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفي آخر مايو سنة ١٨٣٠م أطلع وزير الحرب الفرنسي دي بورمون بـمطول حربى ضخم أرسى بسيدي فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداي بمداه إلى الاستسلام في الخامس من

شهر يولييه وأُجبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين في الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسي الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدي المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة في شرقى الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سى سليمان وبيته من عشيرة سيدى شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقراني وأخوه في منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكنتها في صحف تاريخ الأدب الجزائرى في العصر الحديث .

الفضل الثاني

المجمع الجزائري

١

عنصر^(١) السكان

البربر هم العنصر الأول الذي ملأ بقائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر، مثله في ذلك مثل بقية أقاليم المغرب، واختلف المؤرخون طويلا في نسب البربر من الأمم القديمة، ف قيل إنهم أحلاط من اليمن في آسيا، وقيل إنهم من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا في أرجائها، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقس من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا، وقيل هم قبائل شتى من حير اليمنية ومضر العدنانية والقيط والعمالقة والكنعانيين، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، وكان مازيغ أخا لفلسطين، وبارح أبنائه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون. ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال في تأساب البربر وما يماثلها بقوله: إنها «أحاديث خرافة»، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جنب الأرض لا تكون منتقلة من جنب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذي يوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم، ولا يحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويذكر ابن خلدون أن من النسلين البربر من يزعم في بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة، ثم يقول: الحق الذي شهدت به الرطاة والعجمة (في ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون يحق في قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة، ولا حاجة - أي حاجة - للبربر به، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم، عاشت

تاريخ المغرب لرشد الناصري وتاريخ المغرب في القديم والحديث لمبارك الحلي وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وكلمة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية.

(١) انظر في تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وبيان المغرب لابن عذاري والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ المغرب للكثير للبعيز والجزء الأول من

قباثله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور حقيقة ، وهم لا يمتون إلى السامين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينفى التحويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجمه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعل وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكا أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سما أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تسم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدا ، لتزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعندهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده بقليل - أخذ الشعب الفينيقي اللبنتى - وكان شعبا يحترف الملاحة - تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة (عنابة) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غريبها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويظنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وصمحو لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالتزول فى مدنها . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائرى والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائري والثونسي في سنة ٣٩٠ للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد
يزنطي سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفونهم الإغريق . ومعنى
ذلك أنه كان يعيش في الجزائر بالقرن السادس الميلادي سبع سلالات : سلالة أساسية من
البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان
واليونان .

ويفتحهم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تقنحها جيوش عربية
لإكمال الفتح وللقتل على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجري ، وتستجيب
الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام في هذا القرن الذين سورا فيه بمتهى العدل بين
الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر في جميع الحقوق والواجبات : في الضرائب
وفي دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثاني الهجري ولاية طعنة بغاة
أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التي شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتقدون مذهبي
الإباضية والصفرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب في الخراج وغير الخراج
وحتى في الخلافة فلا يصح أن تقصر على قرش وحدها ، وهبت ثورات متعاقبة منذ سنة
١٢٢ هـ / ٧٣٩ م يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى
(١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ولما ذكر ذلك لنذل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر
منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ،
ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن
كل هذه العناصر استقرت سلالات في الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا
بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل في المدن الساحلية بعض المسيحيين
واليهود لما رأوا في الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجري تحدث هجرة قبيلتي بنى هلال وسليم إلى الإقليمين
الثونسي والجزائري انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة البعيدة الفاطمية وخلع طاعة
الخليفة وأقضى تحت لواء الخليفة العباسي ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم في
أيدى القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أقرت لهم في القفار بين النيل والبحر
الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك
ديارهم ، فانقضوا عليها واكسحتها سيولهم اكساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره
إلى الانسحاب من القبروان إلى المهدية ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أتيج ورياح
وعامر ومعلل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دباب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ،
وكتفوا بدرا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر ، غير أنها أفادتنا فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت في التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادئ العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائري ، بل التفت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربري صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكثيرة من الجزائريين عربا فى اللغة والزىّ وعادات المآثم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م حتى يستول النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم - إن لم يكن جمهورهم - من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها . وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتنا فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتنا فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٩ م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين - كإخوانهم السابقين - فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حلوا من الأندلس إلى الجزائر من مدينتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان وطمشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحمايات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر - كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى - بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوّجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلوا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملئون قلوب البحارة الترك حاسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانياً وفرنسين وإيطاليين ويونانيين وكريتين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدُّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولفة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أُم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعاتها . وكان كل من يترها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن يفصل عن موطنه ويؤايل صيته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهووية الراسخة .

٣

المعيشة^(١)

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر وما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يعوج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحي الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زبرجدى بالقرب من مصب نهر سيوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق اللبني .

(١) راجع فى المعيشة كتاب أمى عيد البكرى : للسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان (وصفة المغرب وأرض السودان ومصر - مقتبس من كتاب نزعة المشتاق) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد جقيق إسماعيل العربى ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتسى

يسمونها هيون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفف ويصدر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضي ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيبل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء فى الساحل الجزائرى ، ويقول الإدريسى : الخنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهى ثغر روماني جدّد بناءه بنو مزغنة ، ثم زبرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضي المزروعة بأشجار مشرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقى نهر نُصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولا سيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربها مدينة شرشال وهى ميناء فينيقى روماني ويقول الإدريسى : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق الفرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت فى أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفلس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقط غرناطة بأيدي النصارى فى عام ١٤٩٢/٨٨٩٧م فقصدها كثير من الفرناطيين (الأندلسيين المسلمين) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربها مدينة تنيس ، وهى ميناء فينيقى قديم ، ويقول الإدريسى : بها من الفواكه كل طوبفة ومن السفرجل الطيب المعنى ما يفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرُبت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الفرناطيون العمران والزراعة مثل أُنعتها شرشال . وغربها مدينة وهران ويقول الإدريسى : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها فى خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثلثين البشير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزها كثيرون من الفرناطيين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالى إلى ماوراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قلالة جنوى بونة أو عنابة وهى مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى إنها اشتهرت بترية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود فى الجزائر ، وبه صفات لا توجد فى غيره ، ويذكر أنه يوجد بقرها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهى تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية .
ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز
على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس
سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقا مدينة قسنطينة وهى مدينة فينيقية رومية ، جدد
بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهى - كما يقول الأستاذ المدني - أم المدن بالناحية
الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت
لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضي الزراعية الواقعة حول
المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما يذرع فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى
السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء
من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهى مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان
إن منطقته ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربها جنوبا مدينة
المسيلة (المحمدية) وهى مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ،
كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيول ، ونهرها سمك صغير مردان بخطوط حمراء ،
ويقول الإدريسي إنه لم يرقى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طينة عاصمة الزاب
الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهر يسقى بساتينها وزروعها وحقول الخنطة والكتان
ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طينة والمسيلة مدينة سطيف وهى مدينة رومانية وتوسط
منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى
بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها بإاضيون اغتازوا إليها
بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسة ،
وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وينوه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبه . وإلى الجنوب
الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا
وكان بها قديما أسقية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل
الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا
إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية ، وهى على سفح جبل
يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله :
« فيها جنين الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما » وينوه الإدريسي
بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيول ، ويقول إنها وافر الفسل والسمن .
وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهى مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين
زاهرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسي عنها : حسنة البقعة كريمة
المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجنتاتها ولها أرواح على نهرها . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخصائل النظرة وسهول مكشوفة بالزروع والبساتين الخلابة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أزرحة وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد في خارج تلمسان عدة كور بدبعة بها منازل غاية في الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكثر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعلاها من كل الألوان وذات نكهة رائحة ، وكروا من كل نوع تبلغ وفرة حد لم أر له مثيلا في أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجف ليؤكل في الشتاء ، ودراقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهريها العديد من طواحين النمح . وإذا توغلنا جنوبى تاهرت لقينا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن وراثتها ست قرى واحة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا يماضيون وكان آبائهم حين قضى على الدولة الرستمية في تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة (ورجلان) في الجنوب الشرقي من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم في تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقى بلاد ميزاب وادي سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضي ميزاب إلى أراضي الجريد في تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديما . وطبيعى أن تغطي الهضاب الصحراوية الكثيرة في جنوبى الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، وينتقل البدو فيها لرعى أغنامهم وليلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل طعنهم وهم المجاورون لتخوم جبال أطلس والجبل التلى ، وبدو أو رعاة رحّل وهم المتنقلون في الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحداثة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة (غلبه) تشتهر بمصانعها ، ومنها الرصاص والزنك في جبال الونشريس ونواحي سطيف ، وكان بجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغوا الجودة يجلبان إليها من أنقاليمها كما يقول الإدريسي ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربى بجاية بأن أكثر سكهة - كما يقول الحسن الوزان - من الصباغين لكثرة ما فيها من النيليع والجداول ومثلها في ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين - أو الكثرة - من سكنتها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يعيشون حياة هادئة ممتة وينعمون بأوقات راحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثياب ويلبسون أحذية تصمد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسي : « منها تُخَمَلُ أُلُجَمُ الخيل والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر في أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريمية ، واشتهرت بونة (عنابة) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحائك . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون في هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : في مدينة ميله عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون في نسج الأقمشة من الصوف التي تصنع منها أغذية الأسيرة . ويطلق الحسن الوزان في تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنها وضعت عليها بالأسس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحائك ، وقلما يذكرون ما يقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحائك ومن الخراطين الذين يصنعون أولى جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أولى جميلة من الخزف الملون والجص المجزّع ، ولابد أن تفننوا طويلا في صناعة الحلى لإرضاء للمرأة ، وبالمثل في صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون متشرة في بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولابد أن صناعة الورق من الكتان كانت متشرة وخاصة في المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبما تبث في الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد في الجزائر المنشآت العمرية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدي المهدي سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيري الصنهاجي والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدي المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقي من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبي شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي منها ، وبنى حماد بن زيري قلعة ضخمة شمالي المسيلة عاصمة لدولته وجدّد الناصر الحمادي مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة في عاصمته على نحو ما نفّر في دولة بنى زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن لمى تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ) فقد كان مولما بتشيد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظفرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبطلن للخرف وزوآقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودلر السرور ولها فھر وغيرها والصھريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ عمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بناوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء (الموزايكو) فى المحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبينة فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدراس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليمكن السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جبلها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجص المجزّع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البيان ذاته . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتفاع صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتفاع فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلقت بروعتها وحسنها لبّ الحسن الوزان كما خليه جمال البيوت وعمارته وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيّد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيّا هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلولات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكثانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتبّير والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانئ والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

تجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون (تجار جنوة) الذين يترددون على مينائهم . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكلدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غريبها أنه يوجد به الكثير من شجر الحوز واللين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجارية كبرى ، وفيها يقول الإدريسي : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية في عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسي عن ميناء تونس : « به فواكه وخشب وإقلاع وحط ، وبه الخنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق في المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطلونيين (الإسبان) والجنويين (الطليان) ولا زال فيها - لعصره في القرن العاشر الهجري - بيت يُدعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة في الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحرير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويبيع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين في العام في قافلة تجارية ، ونظرا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس (إذ كانت جزءا من مملكها) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن متجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب متجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنويين .

ولانتماء بيان وجوه المعيشة والكسب في الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانئ الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة مايساحلها من المرجان ، وهو شجر في البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمرا وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق في صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطيء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنوين أو غيرهم في احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم في احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ماسوّل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

الثراء^(١) - الرفه - الموسيقى

(أ) الثراء

طبيعى أن أهلت التجارة الواسعة في موالي الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكل ثراؤه حسب قدرته في التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التي كان يتجر أهلها مع الجنوين في الشمع والجلود كما مربنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد على الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهي ترمخ من تجارتها مع الجنوين (تجارجنوة) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعي في الجبال المجاورة لها البضائع التي جلبها الجنوين وتجنى من ذلك كسبا ضخما . ومثلا في هذا الاتجار والغنى بقية المواني الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارة كثيرة كأن يقول البكرى عن بونة (غلبة) إنها كثيرة اللحم واللبن والمسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددا كبيرا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشى كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومربنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخما وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المفطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يفلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم في العهد العثماني اتساعا كبيرا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثناء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدا بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوه - كما مربنا - بالصناع وثلهم اللائقة ، ويقول أفضل الناس كساء في تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقي التجارى بين تجار مدينتي بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة وُرُقلة (ورجلان) الداخلة في الصحراء

الساعة ٤٠/٢ ونقلها عنه التنسى في تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسى المقرئ في فتح الطب وأزهار الرياض . وراجع في الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المننى .

(١) انظر في الثراء المصادر السالفة في المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع في الرفه وراجع معها كتاب بنية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد في وصف المكناة أو

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية - على مر العصور - تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قرصنة الجزائر من يتخذ بونة (عنابة) فى عهدهم مركزاً ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : « كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكثرتا يسلحون مراكب وسفن حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء » وكثير منهم كثروا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى المولى الشمالية حين استقر بها الفرنايطون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع للمجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوه من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين (بربروس) وعنهج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانئ التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يظهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر وهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسباني . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم يبنى أن نعرف أنه كان يُجلبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقرصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

(ب) الرُفَّة

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرُفَّة ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبلهنية وسعة من العيش تتيج لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نفقوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن ينفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جمعا لا فيحيا جدا ومجهزا بكل ما تمس الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهن أبيض ، وشعرهن فاحمة ولا معة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، ويوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أليفة جدا وبهجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرياحان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تنسج منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكمية بديعة تغطي فى الصيف ظلًا ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيها حينا طويلا من الدهر وبأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيافين من حفاوة وترحاب . « ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عنب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانئ الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ما تنتجه سهوها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكثفة بالأزهار العطرة وتكعبته التى تتيح لسائكه فى الصيف ظلا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوسا من فراديس الجنان امتلا برفاهية لاحد لها ولا نهاية ، وإنه لأسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطنتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن - أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضا الداخلية يضرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانيتها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البناء » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستات والحمامات والفنادق . ويفض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، وما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البناء جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . « ومرُّنا ما ذكره من أن سكاتها يقضون الصيف فى كرور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودرقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينو بملابس أهلها من صناعات وغير صناعات ومن أساتذة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورؤس التشريعات ، وكأنا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل ببلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن علي بن أحمد الملقب بلبن الفحم من صنع منكة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها في خزانة كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيقنة - أو شجرة ملتفة - تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختاله فيها ثعبان نافذ من كوة بجذر الأيقنة يحاول الصعود ينتظر غفلة ، ويصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية - إذ كانت توضع في الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوي زمن أبي حمو موسى الثاني (٨٧٦٠/ ١٣٥٩ م - ٨٧٩١/ ١٣٨٩ م) - ويصاقب (يجاور) طرفي هذه الأبواب بلبن مقلدان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكمل يسير على خط استواه سير نظيره في الفلك ويسامت (يوازي) أول كل ساعة بلهاا للترنج (الملقق) فينقض من البلبين الكبيرين غفلبان بظفرى كل واحد منهما صنجة من الصفر يلتقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرن وينقض الثعبان على أحد الفرخين فيصفر له لبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة (الحالية) وتبرز منه دمية على هيئة جارية ينصرها حزام كأظرف مائت راء ، يمتاها صحيفة فيها رقم ساعتها (العاشرة مثلا) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكثما تلعن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سياخذه مرافقه السويسرى قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفي الجزء العلوى منها مهرج يرق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفي الحال يصبح ديك على اليسار ويمحرك أحد جناحيه ، ويواجه تماثل أسد مائزال يمرك رأسه وتماثل عمدة يمرك عصاه وتدور مجموعة من الدبة ، وفي الساعة الثانية عشرة تماثا تدق الساعة ويصبح الديك ويمحرك أحد جناحيه كئبه بهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التى يفتخر السويسريون باختراع أحد مواطنهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبعد من ساعة لبن الفحم التى اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصلبه الجزائريون فى تلمسان من رفه من جهة ثانية .

(ج) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء فى الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « مبالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن سكان ميناء دلس الواقعة غربى مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحبون حياة مريحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آلى العود والقانون الموسيقيين اللذين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يخنونها دائما أو فى بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلاً تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على لسان بسيطة ، حتى إذا كتبت هجرة الفرناطين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة في أبدي فردنلد وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التي استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُفْم مضبوطة (أى نُوت جمع نوتة) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثملى عن طريق الطاقم الموسيقى العسكرى الذى كان يلازم الرألى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تسمع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التثقيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمنا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتألّفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر المجرى الموسيقى الجزائرية بطولبعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون فى ديوان موسيقاهم مصطلح الشرف وهى كلمة تركية معناها الافتاحية ولا ينشد معها أوفى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوتة ، ولكل نوتة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناي والعود والرباب والقانون والكمنجة والطبل والدريكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضر فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنّى بها وإشباعها من آباتهم فى الجزيرة العربية ، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا يتنقلون فيها ، وأخذوا عنهم جيرانهم من البربر المتبدلين مثلهم ، وكانوا ينشدونها مع طبل وزمر أحياناً فى أسفارهم وحفلات أعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

٤

الدين - المالكية والحنفية - الإباضية - المخرلة (أ) الدين^(١)

كان البربر فى القطر الجزائرى - مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية - وثنيين

كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العرى وفى نشاط القرصنة وصف إفريقيا لدapper وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام ونحوهم إلى شعب عرى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان للغرب لابن علفرى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للمرك الملى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة التاصرير علفس الحمادى بالها جريجولر السليح

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلداني يختصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور نيتوس هيكلهم بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودي بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون في جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التي اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفي ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم في المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف في قسنطينة والجزائر وغيرها من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، وما زالت المدن الجزائرية تنسح لهم في المعيشة بها ، حتى إذا كانوا في أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائري فخنقوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك في الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر في الجزائر منذ القرن الثاني للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس في المدن الساحلية وفي الداخل فقد كان لهم أسقفية في بونة (عنابة) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت في قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك في باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل في الجنوب إذ توجد بعض كلمات في لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحي مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا - قبل الإسلام - لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصوره لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهراً وبطشا شديداً ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهرياً دون أن تحل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية . جاهدن في أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون ممن

اعتنقوها يعتنقون الدين الحنيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبطاشته ولحريره الشعوب من كل عبودية وإسترقاق وظلم مع عوه لجميع الفوارق الطبقة والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سوله فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى القطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحيتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حرمتهم الدينية . وظل ذلك لافى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلمة يرسل - كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى - خطبا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتي ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطبا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على لُبرشية بونة (غلبة) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه اخذ جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشرف روما لهذا العمل النبيل عينا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين - كما يقول - فى الاعتقاد بإله واحد خالد . وإنما سفت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدينتها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم - مثل اليهود - مقابر خاصة . ومُرَّ بنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدَّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط (إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكرتيين وصقليين ويونان) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دالبر Dapper فى وصف إفريقيا أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتُرَدَّ إليهم حرياتهم ويكونون أسرا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الحنيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد نُمى المهاجر دينار (٥٥ هـ / ٦٧٤ م - ٦٢ هـ / ٦٨١ م) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الحنيف فيها وكثرت قد فُتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتى ذلك كله ، متخذاً له جيشاً جراراً من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميله إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فانزلهم واحل البلدة واتخذها مركزاً لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة في الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستمد اعتمادا واسعا للقاء أمي المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه - كما مر بنا في الفصل الماضي - الدوائر ، ووقع أسيرا فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل - وتدخل معه قبيلته أوربة - في الدين الحنيف . وخلف أبيا المهاجر في ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٣ م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعا ، وأعد جيشا ضخما أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسي . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أذناها إلى أنصافها بلادا إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربي معاملة أغضبه وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائدا بالجيش في المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طبة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنال كسيلة في موقعة ضارية خرق صريعا فيها وتفرق من معه في البلاد والجبال . وعاد زهير فتولى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتح قرطاجة التي كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقي منهم فرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تزعم البربر في جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقبها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأثناء المدد سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م فنالها وسحق جيشها سحقا ذريعا وأمن من بقي منه وأمن سكان أوراس في الجزائر جميعا وولى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة في جيشه عداها اثنا عشر ألفا . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربة إسلامية تعتق الدين الحنيف وتجاهد في سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حسانا على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر في الجيش وحكم المدن وفي جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوج ذلك بالبعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه في البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر - مثل بقية البلاد المغربية - عربية إسلامية ، وحقا ولي على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثاني الهجري ولاية أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءا شديدا فلم يسروا بينهم وبين العرب في الحقوق وظلموهم في الخراج والضرائب ظلما شديدا ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب في كل الحقوق حتى في ولاية الأمة وخلاتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشيا بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبداً جشياً ، وسارع إليهم دعاة مذهبي الإباضية والصفرية ، وكان المذهب الأول معتدلاً وقرياً من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعائه جبل نفوسة في طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة في تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخسها فيما طل بمحدث مستقل ، أما فرقة الصفرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستيح دماء المسلمين ، وتأسست في سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحياناً من مرور جيوشها بأراضي الجزائر في ذهابها لحرب ولاية المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وبقاع محدودة في الجزائر هي التي شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور في الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر داراً كبيرة للمذاهب السنية .

(ب) المالكية^(١) والحنفية

ظل شرقي الجزائر طويلاً جزءاً لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت - كما مر في القسم الخاص بالإقليم التونسي - إلى الاعتماد في الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفي وخاصة في عهد الأغالبة الذين تابعوا بغداد في اتخاذ القضاة غالباً من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، إذ خيمت - حيثذ - العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائري والتونسي ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السني المالكي والحنفي حتى إذا فارقوا المهديّة إلى القاهرة في أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكي ، وتولى المعز بن باديس شئون القيروان وشرقي الجزائر سنة ٤٠٦ هـ واشتد في عهده تدمير أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيدين والدعاء لهم في خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجاً على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذاري إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، واتصرف ، فصلّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة في القيروان زماناً ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وفي نفس هذه السنة قُتل العامة من أنصار العبيدين خلقاً كثيراً رجلاً ونساءً ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تتور بهم العامة في القيروان وأيضاً في المهديّة عاصمة العبيدين ومديتهم المنصورة حتى إذا كانت

المغرب لابن عذاري والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر في تمليحه لأتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدّم في الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفي في العهد العثماني بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثنائي في العهد العثماني لأبي القاسم سعد الله .

(١) انظر في المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكي والديهاج المذهب لابن فرحون وفي المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن الحضرة للسيوطي وراجع في قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحل أهل المغرب على مذهب مالك البيان

سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء فى الحواضر والبادى ، ولم يتمكن المزم من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانية وخلع طاعة خلفائها فى القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م وقيل بل فى السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حيثئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى السنى الذى تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها لافى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر فحسب ، بل فى جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا فى طرابلس وبرقة وأخذ يدرس فى كل بلد مغربى وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون - فى المقدمة - إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كاللذهب الحنفى والمذهب الشافعى لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفى رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سئرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال فى الجزائر - ومثلها المغرب الأقصى - ومعروف أن البصرة هى التى وضعت دون الكوفة لأن عقلها - كما قلت فى كتاب المدارس النحوية - كان أدق وأعظم من عقل الكوفة لانتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليونانى ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلل إيتارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويوزرون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته فى المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثانى للهجرة وحملوا عنه موطأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كاتدارسوه على تلاميذه المصرين النابهن بتقديمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرغ على المذهب فروعا فى مدونة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها فى طلابه ، وأصبحت فى البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمًا للمذهب المالكي مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتصمون بالمذهب المالكي عند أئمتهم المصرين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ م وخلفه على إمامة المذهب المالكي بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م وإمام المالكية بعده فى الفسطاط أصبح بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود فى المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يترودون من تلامذة سحنون فى ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية فى الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ للمذهب الحنفى وفقهاؤه ينشطون فى المعهد العثمانى إذ كتلت الدولة العثمانية

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفى ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثماني حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضى المالكي قاضيا حنفيا ، وكان يأتى فى أول العهد من إستقبال . وكان حكم القاضى المالكي لا يصبح نافذا إلا إذا وقع عليه القاضى الحنفى ، وتبع هذا القضاء الحنفى مدارس تعنى بالفقه الحنفى ، وأخذت تنشأ فقه كبيرة من فقهاء ومدريسيه ، وبعد أن كان القاضى الحنفى يأتى فى صدر العهد العثماني من إستقبال أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت للمذهب فى الجزائر .

(ج) الإباضية^(١) والصفرية

الإباضية - قديما - من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذى ارتضاه على بن أبى طالب فى الحرب الدائرة بينه وبين معاوية فى صفين ، وقالوا إن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لا يصح أن تقصر على قرشي ، إذ ليست حقا لها ، بل هى حق لله ، وينبئ أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبدا حبشيا ، وحاربهم على بن أبى طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفرية والأزارقة الذين عدوا دار المسلمين دار حرب ينبئ حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفرية كثيرون فى سبيل ماساة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وغاضوا معهم حربا طاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموى والعباسى ومن بعدهما الحاكم العبيدى لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتق العقيدة الصفرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة فى مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيد الله الشيعي داعية المهدي العبيدى انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا فى غرداية وقرى ميزاب ، ولا يزالون إلى اليوم فى كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو - من قديم - غلو فرقة الصفرية ، فهى لا تعد دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دماهم مثل الصفرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهى لا تمد - مثل الصفرية والأزارقة - مرتكب الكبيرة كافر ملق يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبئ قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

لأحمد توفيق المدنى والجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير
للبوز .

(١) انظر فى الإباضية والصفرية كتاب الملل والنحل
للشهرستاني وراجع فى الإباضية السير للشامسى
والأزهار الرباضية لسليمان البارونى وكتاب الجزائر

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الخفيف وتعاليمه إمامهم فرقة إسلامية كانت - ولانزال - ترى أن تكون الخلافة - أو إمامة المسلمين - جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم - إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم - مثل المعتزلة - ينفون تشبيه الله بالمخلوقين نفيًا مطلقًا ، والآيات القرآنية التي قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوّل كما أوّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كلاً مطلقاً ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خُلد في النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوض إلى مشيئة ربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمناً إلا إذا أدى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة في قريش ، بينما يرى الإباضية - كما أسلفنا - أنها حق للمسلمين جميعاً يتولاها أصلحهم لها . وكلها خلافاً يمكن عدّها خلافاً فرعية لفرقة إسلامية .

(د) المعتزلة^(١)

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق - في أواخر العصر الأموي - في عملين كبيرين : وعظه المؤثر في الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه في الاعتزال ومبادئه التي كان يدعوها ، وفي مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمناً أو كافراً ، وكانت المرجحة تعدّه مؤمناً وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدّونه كافراً وكان أهل السنة يعدّونه مؤمناً فاسقاً ، وعذه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنّه في منزلة وسطى بين منزلي الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ في الاعتزال أربعة مبادئ أخرى هي وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومبدأ أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالي ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث اتفاد الوعد بشواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العاصين الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به في المجالين شباب موطنه البصرة إعجاباً شديداً ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نخلته الاعتزالية ، في أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصاري في مدحته له التي تشدها الجاحظ في أوائل الجزء الأول من بيته قائلا :

مجادلاتهم للإمام الإباضي عبد الوهاب وعلماء الإباضية
وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب
الكبير للعز .

(١) انظر في مبادئ المعتزلة الملل والنحل للشهرستاني
وكتابتها عن العصر العباسي الأول ، وراجع في قصيدة
صفوان الجزء الأول من البيان والبيان ، وانظر في

له خلفَ شُعب الصِّينِ في كلِّ نَفْرةٍ
رجالَ دَعَاةٍ لا يَفْلُ عَزِيمَتِهِمْ
إلى سوسها الأقصى وخلفَ البربرِ
نَهْكُمْ جُبَارٍ ولا كَيْدُ ماكرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بَلَدَةٍ
ومو ضَع قِيَّامُها وعِلْمُ الشَّاجِرِ

ويصفهم صفوان بالقدرة على الشاجر والجدال وقرع الحجة بالحجة اليُنة ، ويصفهم في أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعائه وحاملو مبادئة الاعتزالية إلى أطراف الأرض في أقصى الشرق حتى الصين وفي أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نخلة الاعتزالية جماعات في الجزائر شمالا بين ميناءى مستغلم وهران وجنوبا في وادى ميزاب بمدينة العطفنا ، ولا تزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محندمة في تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شمالها وكثروا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات في عهد إمام الإباضية عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١هـ) ونزله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة في طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدي ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت في الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة في التاريخ العربي . ويبدو أن الدعوة الشيعية التي قضت على الدولة الإباضية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجري قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لا في الجزائر وحدها بل أيضا في المغرب الأقصى .



الزهد^(١) والتصوف

أُنْعِذَتْ تشيع في الجزائر نزعة مبكرة للزهد في متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله في الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى في نفوس الجزائريين الوعاظ في أيام الجمع بالمساجد وفي غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينقرون الناس من ملذات الدنيا مذكرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتقاة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بأهات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التي تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على الفاقة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هي الوجهة المفلحة

في ذكر الأولياء والعلماء بتلسان لآين مرهم تراجم عن أعلام الصوفية ، ونظر في صوفية الأندلس للذكورين كتابا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

(١) تفيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين في كتاب عنوان العراية للفرنبى والديباح المذهب لآين فرسون بأخبار زهد الزهاد . وفي كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لآين الزيات التادلي وكتاب البستان

والصفقة الراجعة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد في البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن يمت العديد من الفقهاء والمحدثين بالزهد في خيرات الحياة وإثارة التقشف والرضا بالقليل .

وتنقل موجة الزهد حادة في الجزائر ، وتدافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) وبنائه على الساحل التونسي لرباط المنستير الذى أوى إليه كثرة من العباد لحراسة الساحل التونسي ، وأخذت تبنى رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزها كثير من السالك والفقهاء للإسهام في هذه الحماية قايماً بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قروناً إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض السالك لهم في المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يُلقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ التالسك وقصّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لافى المدن فحسب ، بل أيضاً في سفوح الجبال وفي الهضاب والصحارى البعيدة الفاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت في المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان في جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية في الجزائر أكثر عدداً . وتصوف الطريقتين جميعاً تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما في المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسس المتوفى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن تلميذ عبد الله الشاذلى الإشبلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م بمكة . وهم جميعاً من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعاً فى تلمسان ، وبها تلمذ ابن دهاق على تلميذ عبد الله الشاذلى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتوجلا فى بعض مدن الجزائر ، ونزها قبلهم جميعاً الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شعيب وسترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمنه طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

نبي الحسن علي بن عبدالله الحسنى الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٩م ولم يكذب بدعو إليها في شاذلة بالقرب من تونس وفي تونس نفسها حتى تكاثرت أتباعه في البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبي العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لا في مصر وحدها ، بل أيضا في الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم في الجزائر منذ القرن الثامن الهجري ويعني بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفي مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه في كتابه « بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف في القرن التاسع الهجري ويزدادون زيادة مفرطة في العهد العثماني ، لنتائجه بالتصوف وتقريه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويوزرون أضرحة المتوفين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التي اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومي ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هي والطرق التي اشتقت منها مثل المليانية والزيتية والرحمانية والدراقاية أهم الطرق التي استوعبت جماهير الجزائر في المدن والقرى والمضارب والصحارى . ولا بد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة لندس بينها كثيرون في الحقب الأخيرة من هذا العصر يدعون لأنفسهم التقوى وهي منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، وندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو في ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المتقدمين بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليهم أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثاني في التشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث في المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثاني والثالث مليان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفي أو ما يسمى بالذكر والتفنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصبح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين فى السرعة التى انتشر بها الإسلام فى الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجرى ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطاراً إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا - وحدهم - فى البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالى ، وحاولوا نشر المسيحية فى تلك المدن ، ولم يمتنعوا فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقى ، وكان تأثيرهم فى المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعمامة محافظين على دينهم الوثنى ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثانى هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمتيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح فى الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمتيتهم أن ينتظموا فى جيوش المجاهدين فى سبيل الله لبتغاء نشر دينه الخفيف فى أرجاء الأرض .

كان الجندى فى الجيش العربى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة جزائرية أو مغربية أو فى أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدخل فى الدين الخفيف من يأتسون إليه من البربر ، فيحفظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية فى التخاطب . وأخذت الكتابات تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتغنيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان (٧١-٨٦هـ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قادته قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمت ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلغام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جند حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجنود العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فُتحت صلحا لا غُوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضاً ليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاعمين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويهفونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم مال للفاعمين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسنا موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فوثق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاسى خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلف معلمين يحفظون الناس القرآن ويعلمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاية من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولانبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام ومانقوم عليه من الإيمان بوحدة الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضاً مانقوم عليه من العبادات والقرائن ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الرأى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقتهم على يديه » وعلى أيدي معاونيه من الفقهاء الثمينة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحلبى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سودة

الجدامي وجعل بن عمير وموهدين حتى المعارى وطلق بن حبان وسعيد بن مسعود النجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ولئى أئوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن لئى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كُتبا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُمتدّون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاة المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدين الخفيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

(ب) دور العلم : الكاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

الكاتيب

أخذت تتأسس عقب الفتح الإسلامية فى بلدان الجزائر كاتيب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وترفيفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروع الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكاتيب تُبنى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكاتيب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادئ الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارس الحساب وغيره من مبادئ العلوم ، وكانت الكاتيب منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تمتد بالعثرات فى طينة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادئ العربية والعلوم فى الكاتيب تنجى إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقه

وما يصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدم في دروسه أوليات المواد والعلوم في الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشء وفقهها حتى التفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقرءون - ويشرحون - بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقهم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ومحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقرءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرءون لهم بعض كتب الشعر والنثر يحاولون أن يقرءوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم التقليدية والعقلية . وكانت تلحق به وبعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعد لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنْفَقُ على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يمحسون عليها من عقارات . ومن التوليع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصليح المضيفة والميضاات للوضوء والطهارة .

المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعاً لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عنى بعض حكامها بتشييد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . ولأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبوحمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) للفقهاء أبى زيد وأبى موسى بنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣١هـ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبوحمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) المدرسة اليقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافاً جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالمباد صاحبة تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا (لعلها المدارس السابقة) ومزدانة بالبلاط الملون وسوله من الأعمال الفنية . وأخذت

للمدارس تتكاثر فى العهد العثماني بالجزائر لا فى العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا فى المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس فى مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة فى العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفى أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذور اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغراء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث وبمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن المجرى الزوايا فى أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدّى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغراء والفقراء (الزهاد) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغراء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فيصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المستول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتغول كثير منها - وخاصة فى المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كالتعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

المكبات

فى كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ للمكبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذور اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تحبس لطلاب العلم وشيوخه ، واشهر لإبراهيم الثانى الأعلى باتخاذها فى عاصمة رقادة بقرب التيروان بينا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكثما أراد بها أن ينافس الدولة الرسمية فى تاهرت التى عيّنت منذ إمامها عبد الرحمن بن رسم (١٦٠-١٧١هـ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب (١٧١-٢١١هـ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين فى البصرة بألف دينار ليشترؤا له كتبها ، فاشترؤا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول البارونى فى الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب فى الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت لها عبيد الله داعية العبيدين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ماعدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا فى عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا فى عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان فى زاوية إبراهيم التازى بالقرن التاسع الهجرى من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت - طوال القرون المختلفة فى العصر - الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع فى المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء فى كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف فى المشرق ولا فى تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : فى القراءات والتفسير أو الحديث النبوى أو الفقه المالكي أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسى . فالتيار العلمى فى الأقطار العربية كان جارفا ، وكانت كعبه شرقا وغربا تصب فى مكتبات كل بلد عربى جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التى كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكون فى قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب بنفقون فى جمعها أموالا طائلة ، وكانوا منبئين لافى المدن فحسب بل أيضا فى الواحات والصحارى ، ويذكر العياشى فى القرن الحادى عشر الهجرى برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمت مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

(ج) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو فى الجزائر منذ القرن الثانى الهجرى ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها فى شرقى الجزائر فى بونة (عنابة) وقسنطينة وطينة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة فى غربى الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرسمية الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعد الأستاذ محمد على ديز فى الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قاتلا إن الدولة الرسمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنها وقراها ، حتى

ليعدون بالثبات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطانها ، فشمّل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلي بالقرب من المسينة (المحمدية) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر فى القلعة من المساجد والفتادق فاستجرت فى العمارة واتسعت فى التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت - من حينئذ - مركزا كبيرا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادى منها سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم منازلات فى مجالسهم ويعثوا فى القلعة ثم فى بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمدىس مادح المصورين الناصرين عئناس (٤٨١ - ٤٩٨) بالنصائذ الطنائة فى مدحه ووصف قصوره ، واشهر ابنه العزيز (٤٩٨ - ٥١٨هـ) بأن يلاذه كانت سلاما وأما وأن العلماء - كما يقول ابن خلدون - كانوا يتناظرون فى مجالسه وقد بذل جهودا خصبة فى إسماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخما لا يعلماتها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المتنقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكتبة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية فى علماء ببجاية للغربى إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء ببجاية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغربى عن أبى على المسيلى المتوفى سنة ١١٨٤هـ / ٥٨٠م أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغربى على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة فى القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنسك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ / ١٢٤٠م تنشأ فى تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثت فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التتسى فى كتبه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغْمُرُاسَن (٦٣٣ - ٦٨١هـ) إنه كان له فى أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أيضا كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهل له ، ومن استقدمهم لإبراهيم بن يخلف

التنسي وأنططه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبوبكر بن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسي عن حفيده نبي هو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان عباً للعلم وأهله محتيماً به قائماً بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمد بن عبد الله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالي للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التي سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيراً من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيماً مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبو موسى عمران المشدالي الزواوي احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ) في رعاية العلم والعلماء، وكان أدبياً وشاعراً بارعاً وله كتاب نظم السلوك في سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بلبلة المولد النبوي، وبلغ من احتفائه بالفقيه نبي عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي أن بنى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسي بنبي زيان محمد بن نبي هو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلاً إنه «كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجنفته، فلم تخل حضرته من مناظرة ولا عمرت بالإبذكرة ومحاضرة، وكب يده نسخاً من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخاري ونسخاً من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ووقفها جميعاً بخزنته في مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان، وألف كتاباً نحا فيه نحو التصوف، سماه «كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة» ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة . وينوه التنسي بنبي مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلاً: «في أيامه نفق (راج) سوق الأدب، وجاء بنوه إلى بله ينسلون (يسرعون) من كل حدب (موضع) فينقلبون بجزر (معلوث) الحفائب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر المطايا). ونرى يحيى بن خلدون في كتابه وبنية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبدالواد يعدد من أنجته تلمسان أو استقر بها من العلماء الصالحين وبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك في عهد يحيى بن خلدون المتوفى في أول وسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشك - تضاعف بعده، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم في أوائل القرن الحادى عشر الهجرى في كتابه : «الستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» مائة واثنين وخمسين عالماً . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تراجع علمياً وثقافياً في العهد العثماني، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مشغولين في عاصمتي بنى حماد وبنى زيان وبونة ويسكره وغيرها، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها في العهد العثماني نشاط علمي غزير .

ولم أحدث - حتى الآن - عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحدين في واقعة العقاب بالأندلس سنة ١٢١٢هـ/١٦٠٩م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر بمرحان كفة الإيبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل بهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يتجىء إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط في حجر الإيبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجري ، وسقطت جواهرهم الكبرى قرطبة ، وتبعتها في السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالي في الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون في السهول والوديان - وربما نزلوا في سفوح الجبال كما كانوا ينزلون في الأندلس - وكانوا يمتون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكثف بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة (عنابة) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية بالقرن السابع الهجري سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبا ، وكانوا من العوامل الفعالة في نهضةها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالي مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرا من الفرنساويين فسدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يوما بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطنوها مثل إخوتهم في المدن الجزائرية الأخرى ، وبنوا كثيرا من سفن الملاحاة لمطاردة السفن الإسبانية في البحر المتوسط والاستيلاء على مافيهما من غنائم انتقاما من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى انتهى ١٠١٦ - ١٠١٧هـ/١٦٠٨ - ١٦٠٩م فينفى ملك إسبانيا كل من بقى في إسبانيا من المسلمين ، وتوجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ودينيتهم مما كان له تأثير واسع في الجزائر أثناء العهد العثماني . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإتفاق على فقراتهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين في مدينة الجزائر ، ولا بد أن كتبت لهم مدارس في المدن الأخرى ، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإتفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتبه العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكتبوا يمينون منهم كبار المعلمين في المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .

علوم^(١) الأوائل

اهتمت الجزائر - كما اهتمت البلدان العربية المختلفة - بدراسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصبت عناية علمائها خاصة على ماسمونه علوم التعاليم، يقصدون بها علوم الرياضيات وما يتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك. ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى نخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أو يقال إن فلانا بدأ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نموت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا ما يجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب «المعدة فى صناعة الشعر ونقده». وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه: «البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة ولتنتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيضا نفع». وظل الجزائريون ينمون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه. وكعب عالم قسنطينة المشهور ابن قنفذ التوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية. ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الأسطرلاب الفلكى عُدَّت - منذ زمنه - ألفية لعلم الأسطرلاب كآلفية ابن مالك فى النحو. وقد شرحت مرارا ومن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى التوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تدارس حتى نهاية هذا العصر. ومن الأعمال الفلكية بعده

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدرابة للغيربى وتريف الخلف برجال السلف للحنفاوى وسفمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى المبة والممد وبنة الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيمة ورويات ابن قنفذ

والستان فى ذكر الأولياء والعلماء بلسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثنائى من القرن المشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل توبعش.

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخضرى التى ألفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مراراً وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتاباً فى علم الإسطرلاب سماه : « الفلادة الجوهريّة فى العمل بالصفحة العجمية » جعله فى مقدمة وخمسة عشر باباً وخاتمة ، ولعبد الرزاق بن حامدوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ١٢٠٤هـ/١٢٠٤م منظومة الياسمينية فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون الصلابة للطلاب ويشرحونها ، وللفقيه سعيد العقباني التلمساني المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولمعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سعى أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمهيد فى شرح التلخيص » وسعى التالى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب » . ومن شرح التلخيص معاصرها على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعراً . ونزل البلاد المغربية الفلصادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضياً كبيراً وظل المغاربة يتداولون كنهه وخاصة كتابه : « كشف الجليلاب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عنى عبد الرحمن الأخضرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيها منظومة سماها « الدرّة البيضاء » طبعت مع شرحها بمصر .

ويدور أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن عالماً تلمسانياً رياضياً ومهندساً كبيراً فى زمن أبى حمو موسى التالى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجبية فى أعلاها أبكة تحمل طائراً معه فرخاه احتضنها تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يخائله فيها ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقضى منه عقبان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتراءى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق . ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلاً وأحقها عملاً وأخفها حملاً ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكّرة لنفسى ولئن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة عشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى فسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حداد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعينت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعا أن تنعى بالطب ، وبلغنا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى ، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليلح ويقول العماد الأصبهائى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب . وتلقى فى قلعة بنى حداد بصيدلى هو أبو جعفر القلقلى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة ، ومن مؤلفاته حواشى على كتاب القاتون فى الطب لابن سينا . ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر السنين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغبريني إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القاتون ، وكان يحضر دروسه نهاء الطلبة ويشير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانها ، وكان متوليا لطلب الولاية ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدوية ، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعمل ، وكان مزاولا له بمعالج المرضى . وانتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التللسى أحد أطباء أبى حوموسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا . ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيين : طبيبا مسلما هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تلمسان والطب ومزاولة المهنة ، وطيبيا يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بلبن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازما لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى ، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثرى وله معجم صغير فى الطب . وتلقى فى المعهد العثمانى بعد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ / ١٧٦٥م وله كتاب الجواهر المكون من بحر القاتون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز .

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية الثقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرال على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مرسية المتوفى

سنة ١٢٤١هـ/١٢٤١م ويقول الغريزي إنه كان أعلم الناس بالطبيعات والإلهيات ، ولله كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقذه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ١٢٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فائحه إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران الملياني المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالي ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضا كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فلتقى بالشريف الحسنى التلمستى المتوفى سنة ١٣٦٩هـ/١٣٧١م والذي انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقل ولا نفلي ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقرأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقى من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع المجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوداك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحمل عمل ذلك فنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف بترك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصالحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهائ مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطا أو شطرا من الزمن فى العهد العثماني ازدادت موجة التصوف - كما مر بنا فى الفصل الماضى - حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأتباعه وفرة .

على أن فرعا من فروع الفلسفة ظل مزدهرا فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر وتقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالي المار ذكره كتابا سماه « المعقولات الأول » . وألف الخونجى المتوفى سنة ١٢٤٨هـ/١٢٥٠م كتابا فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سرهما يدرسون للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع المجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ١٢٨١هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمستى المار آقا شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء اتفقوا به وأكبوا عليه قراءة ونسخا . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد القبايى معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الخفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل فى شرح الجمل للخنوجى . ومحمد بن يوسف السنوسى المحدث المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ثلاثة أعمال فى المنطق : مختصر له فيه شرح مرارا ، وشرح على الجمل للخنوجى ، وحاشية على شرح إيساغوجى فى المنطق للبقاعى . وللفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى المتوفى سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا فى المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخنوجى ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطى المصرى المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ماقاله العلماء فى ذمه ، فكتب إليه قصيدة بدعية يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس فى الأزهر كما يدرس فى الجزائر وشغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضرى القسنطينى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وسماها السلم وشرحها وهى فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها فى الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول فى مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضرى على منظومته كالتذييل لما أغفله فى شرحه ، مظهرًا لمفاصله ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم فى الجزائر مختصر السنوسى فى المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضرى وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

٣

علوم^(١) اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ أُلِّم بها فبوعلى القالى فى طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسى وقد حمل عنه كتابه الأمالى ومحاضراته فى اللغة ، ونجد مدينة طينة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارسها ، وينبغ فيها زيادة الله بن على الطنبى نزىل قرطبة فى عهد المنصور بن أبى عامر وزير

الخلف برجال السلف للحضواى . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وراجع فى النهشل الأنسوز لابن رشتين ص ١٧٠ وكتابه العمدة فى مواضع متعددة . ونشر الدكتور النجى الكمى كتابه المتح .

(١) انظر فى علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباه الرواة للقطبى ونبية الوعاة للسيوطى وعنوان الدرابة للبربرى ونبية الرواد لحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نوبهض ، وتاريخ الجزائر الثقافى لأبى القاسم سعد الله ، وتعرف

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذه نديمه إذ كان من أمتع الناس حديثاً وأصعبهم ظرفاً ، وأحذقهم باللاطفة وأخذهم بالقلوب ، وكان عالماً لغوياً يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علماً كثيراً ، وكان كثير الإغراب » ، توفى سنة ١٠٢٤هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك - وكان محدثاً - تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البنية إنه كان إماماً فى اللغة له رواية وسماع . وانهض الدولة الحمادية بالقلمة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ هـ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجذبان كثيراً من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلاً عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبلى المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتاباً ضخماً فى ثمانية عشر مجلداً سماه الحاروى ضاهى به كتاب الغريين فى القرآن والحديث للمهرورى . وللغريب التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجماهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بقرراً للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحرورى ومتخبات من شعر أبى تمام والمنشى ، وكان شاعراً ونحوياً كبيراً مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللبلى نزير ببجاية المتوفى بها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح للعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب المتع لابن عصفور . ومن لغوى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلق الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمنشى والأشعار الستة برواية الشتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرئ القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزومات والحامسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية . ولعل فى عمل ابن يخلق اللغوى ببجاية ما يبدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمداينة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عنى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقابى المتوفى سنة ٨١١ هـ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح الفلصادى المتوفى سنة ٨٩١ . وتمتلك الشروح اللغوية فى العهد العثماني ومن أهمها شرح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بئى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القلوب على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشيه على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوتين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيويه . ولعبد الله النفزى الشاطبى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ١٢٤٤هـ / ١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتفنن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نخبة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشري ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م أو منته النحوى المنتضب الذى أخذه عن ابن بَرى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلمى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبريني فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويمرض من المعاني والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نواذر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف وعبا للتحليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، ونقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبريني من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلمى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيويه والمفصل للزمخشري وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نخبة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزيل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتب سيويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبريني ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشري وقانون أبي موسى الجزولي فكانا عنده من المبادئ دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ومحمد بن عبد الرحمن الخزرجي قاضى بجاية المتوفى سنة ١٢٩٢/١٦٩١م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللغني الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطيني المتوفى سنة ٨١١/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادئ علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يُقرأ عليه - كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح لأبي على الفارسي والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولعاصره إبراهيم بن فائد القسنطيني المتوفى سنة ٨٥٧/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألف ابن آجرؤم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣/١٣٢٣م منه البديع فى النحو المسمى الآجرؤمية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلسمان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثماني يعنون بشرح متن الأجرؤمية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرؤمية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعي من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمتها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إته « برقص لها البتدى لسلالة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنقَتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطيني المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، ويحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجهمرة . وينظم ضياء الدين الخزرجي السبتي فى عصره للموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمّنها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأ لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بـط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه :
« المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله يجلب شرحها
مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثملى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد
التوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس التوفى فى أوائل القرن الثانى
عشر الهجرى .

وكانت الجزائر - فيما يبدو - تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق التوفى سنة
١٠٦٣هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لا فى
القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة
للتون البلاغية وشرحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنفه أو كتابه المفتاح
وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه
الخطيب القزوينى وصنع لقرض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح
تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياه فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة
العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعَوِّنونَ عناية واسعة بكتابه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ
أخذ يتجرّد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسنيان
ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسنى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى
المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهم
بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ،
فحضرا دروسه وحللا عنه مصنفيه البلاغيين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعهما فى
موطنهما ، وكان الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ،
ونرى الشريف الحسنى التلمسنى محمد بن أحمد التوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص
والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير
ابن مرزوق الحفيد التوفى سنة ٨٤٢ هـ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع
لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك التوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولماصره إبراهيم بن
فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المخلّى . ويضع
عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثملى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا
فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشرح
مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثرى التوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه :
« موضح السر المدفون فى الجوهر المكون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين
حاشية على شرح السعد التفتازنى لمتن التلخيص .

وتَهْدِي مدينة المسيلة (المحمدية) في الجزائر إلى الفيروان ناقدًا مبكرًا في أواخر عهد
المصورين بلكين (٣٦٨ - ٣٨٦ هـ) هو عبد الكريم النهشل ، وكان شاعرا يحسن الكتابة
كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م .
وله في النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية في البلاد المغربية هو كتاب للمتع في علم
الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجي الكعبي اختيارا منه لأحد الأديباء السابقين يقع في خمسمائة
صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدًا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشل بنى الكتاب على متشجعات
شعرية وثرية تخللها نظرات نقدية ، ووزع المتشجعات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق
في تأليفه للكتاب : « العملة في صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجي في
هوامش التحقيق ببيان ما يلتقي فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من
الممتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب
ذلك واحتاجت إلى الفناء بأنعالمها وذكر سابقتها ووقائمه وتضمن مآثرها ، إذ كان المنطق هو
المؤدى عن عقولهم ، وألستهم خدم أفدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله
منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الفناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » .
ويعتقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا في فضل الشعر ، ويتلمعه ابن رشيق بفصل مماثل يرد فيه
ما يقوله (انظر صفحتي ٢٤ و ٢٥) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن في مواطن معدودة
من العملة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو في العملة (تحقيق
محيى الدين عبد الحميد) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذهبهم به عن الأعراض ص ٢٢٠
وهو عند ابن رشيق في ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب
التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجي في الهامش : « وتجد عند ابن
رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز
في الجزء الثاني من العملة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطه الهجاء ص ٢٤٣ وهو
عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن
رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل في كل باب وفي كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية وثرية
بديعة تدل - دلالة واضحة - على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشل من ذوق أدبي مرهف مع
حسن العرض . ويدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع
المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد في الجزء الأول من
العملة فصلا للقدماء والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة في أنه ينبغي أن لا يقدم في الشعر
القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ الموعول في ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ،
ولا يلبث أن يقول : « ولم أر في هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم (النهشل)
فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويُستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعر له الحذاق تغلب كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد ألقاها لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم . قال : والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غلبه على الدهر ، ويعد عن الوحش المستكره ، ويرتفع عن المولد المتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصعب والاستعارة الحسنة . »

فبعد الكرم يرى أن الجودة في الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحداثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولدا سفسافا غثا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البازعة . ونمضي مع ابن رشيق في الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا في الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكرم قوله : « الشعر أصناف ، فشر هو خير كله ، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول في الأوصاف والنموت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أغراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يخل إلى كل سوق ما يتفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه . »

وهي أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخير الذي يهدي إلى السنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفاني، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعاني الطريفة، ومنه ما هو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذي ينتهك الأغراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذي يعود على صاحبه بالنفع في كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لبيد الكرم قوله : « يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المرائي والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرود والخمر والمخمور . وفنون الشعر الأربعة التي ذكرها عبد الكرم نقلها عن ابن وهب في كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمدح منه الرثاء إذ هو مديح لبيت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذي نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضل ، ومن السهل إدخال الذم في الهجاء أما العتاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشيء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال في الحكمة كما يدخل فيها

التزهد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل في مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء في الآخرة ، ويدخل في اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالفلز أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفهرّ الثلاث السالفة التي نقلها ابن رشيّق عن كتاب الممتنع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي جانباً من نظراته النقدية التي ضمنها كتابه ، ونظن ظناً أنه كان في الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهمّ لها - كما ذكرنا - صانع هذا الاختيار الذي حققه ونشره الدكتور منجى الكمّبي . ولم يظهر بعد عبد الكريم في الجزائر نقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيّق الناقد الفذ مواطنه الذي ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنّعه وهي الصياغة وهاجر في سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدّب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطنًا لها بقية حياته بحيث عدّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تعدّنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي عنه وعن كتابه العملة في صناعة الشعر ونقده الذي يُعد بحق أروع عمل نقدي أنتجه البلدان المغربية طوال هذا العصر .



علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يمكّن للمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يعملها عن أتمتها في المشرق مقرّون كثيرون في المغرب ولا بد أن

والخشي والرياض للملكي وما ذكر من مصادر الإباضية والدياج المنع لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر في المحدثين ، وعلم الفقه في مقدمة ابن خلدون . راجع في الملعب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبه عنهما في الصريحين المبشرين الأول والثاني وكذلك ما كتبه في تونس وانظر في مبادئ الإباضية ديوز في تاريخ المغرب الكبير ، وراجع في الاعتزال ونشره في المغرب والجزائر لمهد وأصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المحرلة بحقيق فؤاد سيد . وانظر في المناظرة بين إباضية تلعت والمحرلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرسميين لابن الصخير ، وانظر في تأليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعرف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافي ، وراجع في كتابات الإباضيين في علم الكلام كتاب الجزائر لأحد توفيق المدني .

(١) راجع في القراء غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجوزي وعنوان الدراية في علماء بجاية للفرّيسي وبنية الرواد لبسّين بن خلدون والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعرف الخلف برجال السلف للحنفاوي وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور سعد الله . وانظر في المفسرين عنوان الدراية وبنية الرواد والبستان وتعرف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحد توفيق المدني في الحالة العلمية في الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع في المحدثين طبقات أمي العرب والدياج للملعب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام في أسرة بني الطنّبي وعنوان الدراية وبنية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعرف الخلف وكتاب الجزائر للمدني وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله . وانظر في الفقهاء طبقات أمي العرب

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكيم بن إبراهيم نزىل بجاية تلميذ ابن عيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقى ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئاً من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخاً . ومن قرأه القرن السادس ابن عفره محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلمى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبريني إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانضموا به . وكان يعاصره ببجاية المقرئ أحمد بن محمد المعافى قرأ عليه عالم واستفاد منه خلق كبير ، وله مختصر كتاب التيسير للدقاتى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قرأه القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكتلى المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٧م ولحق إقامة القريضة والخطبة بجامعة بجاية الأعظم ماينف على ثلاثين علماً ، وكان مع إلامته القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشري ودواوين الأشعار الستة ولحق تمام والمتسى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكتلى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقي ببجاية ، وكان يقرئ القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرئ قسطنطينية ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرئ ببجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدئ القراءة المحكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المحكى ونافع المدني ، ومن معاصره محمد بن شقرون الوهراني وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر (طرق الروايات) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أنس قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زاوية فى العهد العثماني بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولابد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط في التفسير مماثل لنشاطها في القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجري ، وفيه نلتقى يوسف بن إبراهيم الورجلاني الإباضي المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر أنه كان له في التفسير كتاب كبير في ٧٠ جزءاً . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم علي بن أحمد الحرالي نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبريني : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفاً وحرفاً » ومن مفسري القرن السابع بتلمسان ابن أبي العيش الخزرجي محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد : له مشاركات في فنون العلم وكان مؤلفاً متقناً فسر الكتاب العزيز . ومن مفسري القرن الثامن الهجري الشريف الحسني التلمساني محمد بن أحمد إمام المغرب قاطية ، وفيه يقول ابن مريم : « فسر القرآن في خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجيب ، وكان عالماً بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسري القرن التاسع سعيد العقبلي المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاحة أتى فيه بفوائد جلييلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . ونلتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الشعالي التلمساني المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وله تفسير دوت شهرته في عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطية الأندلسي ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول في مقدمته : « ضمت - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عولت ، ولم أقفل شيئاً من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل » وقد سمي تفسيره : « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع في التأليف إلى مائة تفسير يدل - بوضوح - على أن المشرق لم يؤلف تفسيراً مهماً إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمي المشرقى إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث في القراءات والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسى مختصر حاشية التفنازلى على تفسير الرزمخشري المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الشعالي محمد بن عبد الكريم المغلى المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر المنير في علوم التفسير » . ونلتقى في العهد العثماني يحيى الشاوى المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م وله في

التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيطة على عبد الحق بن عطية والزمرخشى . وبأخرة من هذا العصر تلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثر بها المحدثون من أنبائها والناحزين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصالحى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح الثلبين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أنس كثيرون فى طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى منكبر فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . ومن بكروا فى الزواج إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزىل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائي كتابه السنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسمع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طلبة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطنبى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطنبى نزىل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بخرية فى الأندلس ثابعا على الصدفى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبلى نزىل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبلى نزىل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا على الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإياضيين يوسف بن إبراهيم الورجلاني المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإياضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سن عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التي اعتمد عليها اليوناني في إخراج صحيح البخاري وتحقيق نصّونه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبي الحسن الداودي عن ابن حموية عن محمد بن يوسف القُرَظري عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري . وهو سند عال لصحيح البخاري ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخاري عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلي نزيل بجاية المتوفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكنت له في الحديث رواية عالية . وكان يعاصرها حسن بن علي بن قنّذ محدث بلده : فسنّطية المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضي الجماعة ببجاية أحمد بن محمد النبريني صاحب كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية .

ومن محدثي القرن الثامن المجرى محمد بن يحيى الباهلي البجائي المتوفى سنة ٧٤٤هـ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنّذ في كتابه الوفيات : كان له طريق واضح في الحديث وأسَمَنًا حديث البخاري وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام في الحديث ، وأيضاً شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض . وفي سنة ٧٨٤هـ توفي محدث قسنطينة وقاضيهما حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين في القرن التاسع المجرى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علماً عقلياً ولا نقلياً إلا ألف فيه ، فهو يؤلف في المنطق كما مر بنا وفي النحو وفي الفقه وينظم في علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود وعمدة الأحكام في الحديث سوى الأمهات في الفقه المالكي والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخاري وشرح على صحيح مسلم . وتلتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسي ، وله مختصر لشرح الأُهي على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخاري ومختصر لشرح الزركشي عليه . وتلتقى في العهد العثماني بأسماء علماء كثرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخاري ، وكانت تقام المهرجانات لختمه في رمضان . وكان ابن أبي جمرة قد عُني بوضع مختصر لصحيح البخاري فشرحه عبد القادر المجاوي . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثميني الإياضي مختصراً لحاشية مسند الربيع بن حبيب في ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخاري .

ومنذ الفتح الإسلامي يتجدد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام في الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومرُّنا في هذا

١٠٠ الفصل كيف أن موسى بن نصير (٨٦-٩٦ هـ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك في كل بلد مغربي في الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويقفونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قاطنين بذلك طوال القرن الأول الهجري ، وكان عمر بن عبد العزيز في آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر في القيروان - عاصمة المغرب جميعه حينذاك - الدراسات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمنونها ليحسنوا معرفة الفقه ويثروا في بلدتهم ، وكان منهم - من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهائه الكبار في الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩ هـ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوي . وتلتقى مع أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة بفقيه جزائري هو إبراهيم الطنبي الذي كان يشارك أسدين الفرات في القضاء .

وكانت الدولة الرسمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثاني وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ ديوز في تاريخ المغرب الكبير كتابا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاء مالكية في أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون في بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضي القيروان : عاصمة الإقليم التونسي وشرقي الجزائر حينذاك منهم حدون قاضي طبة وعلى بن منصور قاضي ميلة ويحيى بن خالد السهمي قاضي الراب ، وكتابوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكي الذي درسه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عبد الملك بن سباح أستاذ فضل بن سلمة البجائي التوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرَحَّلُ إليه للسمع منه ، أقرأ - ودرس - بالمسجد الجامع في بجاية ، وله مختصر لمؤنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكي المصري ابن المواز . وتلتقى في القرن الخامس بمروان بن علي نزيل بونة (عنابة) التوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوّه به ابن فرحون .

وفي نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادي ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذي أسس هيئة العزلة في بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور التوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر ممر في كتبه الإباضية في موكب التاريخ ، وهي هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجمع الإباضي في كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتي

وناصر الأوقاف ومؤدب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبيين أعمال العباد . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى قنون التوفى سنة ١١٦٢هـ/٥٥٧م وله المنتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للزلى . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الزهراني الظاهري المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة التوفى سنة ١١٨٩هـ/٥٨٤م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار العالم والمقاصد للزلى ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى التوفى سنة ١٢٠٤هـ/٦٠١م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الورجلاني التوفى سنة ١١٧٤هـ/٥٧٠م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين - المحدثين ، وله كتاب المدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى التوفى سنة ١٢١٥هـ/٦١١م ومنهم محمد بن عبدالحق التلمساني التوفى سنة ١٢٢٨هـ/٦٢٥م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المتقضى للبايجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بلبن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدونة سحنون وكتاب التلغين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفرع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . ومنهم إبراهيم بن أبى بكر التلمساني التوفى بأخرة من سنة ١٢٩٧هـ/٦٩٧م وكان فقيها ناهيا ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقبت بلفظ « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والحباك .

ومن فقهاء بجاية المهين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكي آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام التوفى سنة ١٢٤٣هـ/٧٤٣م وأبو موسى بن الإمام التوفى سنة ١٣٤٩هـ/٧٤٩م نزلا تلمسان أيام أبى حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كامر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالى التوفى سنة ١٣٤٥هـ/٧٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصولا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبى زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدونة المنسوبة إليه خطأ وهى من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان في عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران
إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لما لك في كثير من المسائل . وولتقى في القرن الثامن
بالإمام العالم الفذ فارس العقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسن التلمسني المتوفى سنة
٧٧١هـ/١٣٧٠م ومُر ذكره في علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهي
المالكي في عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول
في بناء الفروع على الأصول طبق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملا
المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسي المتوفى سنة
٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء في بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة في الأحكام الفقهية
على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجري أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضي قسطنطينة
المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي وشرح ثانٍ
على كتاب التفرغ لابن الجلاب المالكي وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة
الرائض في مبادئ الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره في
علوم الأوائل وبين العرويين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر
خليل بن إسحق الفقيه المصري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب
الموجز وشرحه تتكاثر في الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصري المالكي
المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمسني المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ،
ومن تأليفه شرح التلمسانية في الفرائض .

ونلتقى بعبد الرحمن الثعالبي كبير المفسرين في مصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن
الحاجب الفرعي في سفرين ، وجواهر المدونة وعيون مسائلها في سفرين ، وجامع الأمهات
في أحكام العبادات . ويلقنا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازوني المتوفى سنة
٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من
أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين . ونلتقى في أواخر القرن التاسع
الهجري وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل
لواء المذهب المالكي في أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعي
ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعي والقواعد في الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار
المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب في ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب
الفقه في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضى إلى العهد العثماني في الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولاتهم قضاة

أحنافاً ، وعادة كانوا يعودون مع الولاية بعد حكمهم نحو ستين ، وبأى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاية يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستنبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائماً كان بجواره فى المدن قاض مالكي ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أخذَ بفنائه وقد يمزلان معا ويؤلى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلاً يمتكون ستين فى الجزائر ويعودون إلى استنبول فلم تهيأ لهم الفرصة حيثذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إبتا تهيأ ذلك حين أصبح القضاة يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنالى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعمل شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثنى عشر ولكنه غنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكي فظل التأليف بالمعهد العثمانى متصلاً به وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم التون ، ولمصطفى الرماضى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيراً لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون (الحفيد) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراسانى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمته سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب الثيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكي وشروحه وحواشيه . وأكملة بكتابه : الورد الباسم فى رياض الأحكام ، وله مختصر التهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرّ بنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي وما كان يتبعه من شرقي الجزائر أن كل ما كان يحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة تنتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديما في البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحنفي في حربه لأبي جعفر النصور الخليفة العباسي سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه عمده النفس الزكية في المدينة الدوائر ، وأخذ النصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوها إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأعانتها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة وأصل بن عطاه رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم في كورنى طنجة والبيضاء أتباع كثيرين ، فوضعوا أيديهم في أيدي إدريس ، وأعلنوه في تأسيس دولته كما أعلن - من قبل - معتزلة البصرة أخاه إبراهيم في ثورته على النصور ، ونزاهم بتكاثرون في شمال الجزائر الغربي لمهد عبد الوهاب أمير الدولة الرسمية (١٧١ - ٢١١هـ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك في الجزائر قائمة . وطبيعي أنهم كانوا يعتنقون مبادئ المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهي التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسما ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحمية وعد الله - جلّ شأنه - بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأُغلب ، ونفذوا في مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الربيع وهو أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذي اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعلي الداعية الإسماعيلي العبيدي كما قضى على الدولة الرسمية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجري قضى أيضا على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تمتنعها في الجزائر والمغرب ، إنما يلقاها من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتنقونها .

وكان أبو الحسن القليسي التوفي بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حلل مذهب في الحسن الأشعري الكلامي إلى القبريوان وأشاعه فيها وشاع في الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر في أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذي يخلق أفعاله قال إنها لله خلقا وتقديرا وللإنسان كسبا وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أنزل غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فأفاضله دلالات على كلام الله الأزلي والدلالات مخلوقة محدثة والمذلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراءه مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعري الماتريدي السمرقندي المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعري في التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه في العالم العربي إنما الذي شاع مذهب الأشعري حتى في يقة الماتريدي في خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذي رأس المدرسة النظامية في نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد في أصول الدين في تراجم عنوان الدراية للغيريني في القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا في علم الكلام - أو كما يسمى أحياناً علم التوحيد - وخاصة منذ القرن التاسع الهجري ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحداً لم تثل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا في علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر في زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائري قصيدته في علم التوحيد المسماة باسم « القصيد في علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضاً شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضي في نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك » ، ثم رأى أن يؤلف في نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت في مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وَصَّيْها وطوال العهد العثماني لا في الجزائر وحدها بل في بلدان المغرب والعالم الإسلامي ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح لتلميذه محمد بن عمر الماللي وشرح عمر الوزان في قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم في المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الآخرين ومن كتب أخرى في علم الكلام أو علم التوحيد .

وللاباضيين نشاط واضح في هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافي الورجلاني في القرن الخامس الهجري ، إذ له « الموجز في علم الكلام » كتاب في جزئين ، ولتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلاني « الدليل والبرهان » في علم الكلام ، ولعمروين جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنى به علماء الإباضية وشرحوه مراراً ، ولعبد العزيز الشميني كتاب « معالم الدين » في علم الكلام وأصول الدين .

التاريخ^(١)

لتلقى فى التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستمين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة لإباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم ولبنائه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد أُلْمنا بها فى حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم أمى حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤هـ) . ولم يكن ابن الصغير لإباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها منفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان فقد عُنى بتاريخها وعرض حكامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنىسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بقية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحاتها وترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة بضمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أمى هوالتانى حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م .

وكتب ابن قنفذ القسطنطينى المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتابا مجعلا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنىسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٩م كتابا تاريخيا أديبا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدّم فى ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى فريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

(١) انظر فى التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهي القسم الأول في الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام في السياسة وفي طرف من الأخبار والنوادر من نشر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بني زيان حتى عصر التوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) المذكور محمود بوعباد عمقاً له ومعلقاً عليه ومقدماً له .

ونمضى إلى العهد العثماني فيكتب إبراهيم المرنيسي الجبالي كتاب عنوان الأخبار فيما مر على بجاية من الأخبار في القرن العاشر الهجري مؤرخاً مامراً بها من الأحداث في استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كلبا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين (برباروس) عليها ويتحدث عنه وعن خلفه من ولادة العثمانيين في القرن العاشر الهجري . والكتاب المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستول محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فيكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كلبا باسم : التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، ويستعملها الإسبان سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م ويستردها الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ وتظم في ضحاه ما قصائد كثيرة .

وتكتب في السيرة النبوية مؤلفات كثيرة في العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار في آيات النبي المختار لعبد الرحمن التعلبي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وتظم في الرسول مدائح كثيرة تتناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البزني في العصر العثماني سيرة نبوية بديعة باسم تنوير السيرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجري تتكاثر كتب التراجم عن العلماء في البلدان الكبرى بالجزائر ، وما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبريني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م وينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرزوقة المتوفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م كلبا عن السلطان أبي الحسن المرنيسي باسم « للسند الصحيح الحسن في مآثر وعلمان مولانا أبي الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م لخص فيه تاريخ الدولة المرنيسية ثم أرخ لأبي الحسن تاريخاً مفصلاً . ولا نبأغ إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون في التراث العربي التاريخي والحضاري كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبي الحسن علي الخوازمي التلمساني المتوفى سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٨ م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية في أقدم عهودها وما يتصل بها في عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر في العصور الماضية .

^١ ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استعمله بتفان سيد الأولين والآخرين محمد بن يحيى إلى الرقيق الأعلى ، ثم رتبته على العقود أو على العشرات في كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو عبارة أدق إلى قبيل وقاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب في طبقات علماء قسطنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد القاسي وأدولف فور كتابه في الفقر وعز الحقي في رجال من أهل التصوف كثنى مدين شيب وأصلحله . ومن حيث يتكاثر تأليف الجزائريين في المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد التوفى سنة ٨٤٢/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي . وكان الشيخ محمد السنوسي التوفى سنة ٨٩٥/١٤٩٠م محدثا وفقها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه ومن ترجم له منهم أحمد العبادي ومحمد بن عمر اللاتني وسمى ترجمته : « المواهب القدسية في مناقب السنوسية » ولابن سعد التوفى سنة ٩٠١/١٤٩٥م كتاب النجم الثاقب في الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة السرين في مناقب الأروسة المتأخرين : محمد الحواري وإبراهيم التازي والحسن النركان وأحمد الغماري .

ويكتب العلماء في العهد العثماني على الترجمة لمشايع الطرق . ومن أهم كتب التراجم التي تجمع في هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح ولربتياض « وكتاب نفع الطيب في أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقرئ التوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم في القسم الثاني من أزهار الرياض لحافظ سبة وفقبها : عياض كما يترجم في القسم الثاني من نفع الطيب لابن الخطيب أما في القسم الأول في الكتالين فيفيض في أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتالين موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب فقدت أو فقد الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت في سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقي من أوراق كتاب المغرب في حلل المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد في مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفع الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة في التعريف بالأندلس وتاريخها الحضاري . ونلتقي بعده في العهد العثماني بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا في كتب وأراجيز على نحو ما يلقاها لأحمد بن قاسم البوني بأوائل القرن الثاني عشر الهجري في أرجوزته : الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة (غلبه) وهي أرجوزة طويلة . وللبنوني كتاب في تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين في تراجم بعض مشاهير النحاة والمؤلفين » .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب^(١) الجزائر

ذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزحوا بديارهم من الفينيقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزحوا العرب ومن انتظم في جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزحها في المهدين الأموي والعباسي ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر في البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسي محتلفة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التي حررت البربر من ظلم الدول السابقة التي احتلت ديارهم قرونا متزاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع المصف والبيهي الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رآوه ديناً قويمًا يسوّي بين أتباعه في جميع الحقوق ، والعامل الثاني سياسة ولائه وخاصة في القرن الأول الهجري وما كفّلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق : في الجهاد وفي غنائم الحرب وفي الولاية على القبائل والمدن . وعُني موسى بن نصير الوالي هناك (٨٦-٩٦ هـ) بأن يمهّد في الأنحاء التي لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعمده في الدين الحنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه في فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعُني عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة - كما مر بنا - لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجري . وينحرف حكام بني أمية - منذ أوائل القرن الثاني - عن جادة الإسلام الرشيدة في حكم الشعوب التي اعتنقت ، ويشور البربر في الجزائر وغير الجزائر ، وتقدّم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة في ديارهم . ويحدث ذلك نفسه في أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولي يزيد بن حاتم المهلب (١٥٤-١٧٠ هـ) هدأت المغرب في الجزائر وغير الجزائر وعمّ الأمن والرخاء في البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه انخفضت شوكة البربر واستكلوا للقلب وأطاعوا الدين ، فضرب الإسلام بجره » أى ثبت واستقر نهائيا في الديار المغربية .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمّ تعرب البربر في الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحول الدعوة فى ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخلع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤلّزهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدّثان غير قليل من الإضرار بسكاته ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يقرّيهما بالمجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعملا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للمجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المتشرلا يعمرون بشيء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للمجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخربوا المبلى وطمسوا معالم الحسن والروث فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت يابا ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكسحت سيولهم الجزائر واتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل البربرية هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرهما حتى عجزوا عن مدافعتهما ، ونازلوا الناصرين علناس الحمادى صاحب القلعة وخربوا جنباها وجنابت طينة والمسيلة (المحمدية) وغيرها . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضيايع حتى أصبحت قاعا صافصا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصرين علناس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيق هؤلاء الأعرس ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم وتسموا السهول خصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمال

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنزلهم فى الأرمينية من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصطلمهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندلوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وألبوا فيها بلاء عظيما ، وأفلوا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمرآش ، واستوطن كثيرون منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطبائه بصيغة عربية كاملة ، وبصور ذلك لمن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يفرن إذ يقول عنهم « نسوا رطلنة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتخلوا بشعائهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هواة عنهم صاروا فى عداد الناجمة (طلاب المرامى) من عرب بنى سليم فى اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم قد نسوا رطلنة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر وملنها إلا من اعتصم بالجال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأسايب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسة ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور برويته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع أنحاء المغرب شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمنية والمضرية وتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوغر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحبيبتهم للدين الخفيف .

ولانبلغ إذا قلنا إن الجزائر - منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى - أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة (عنابة) والمدن الساحلية التى سكنتها هؤلاء الأعراب . والمطلون أنها ظلت فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى فى ألسنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكنت كثيرتهم فى الجزائر من القبائل الحلالية ، ونزلت منها الأتيج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة (عنابة) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحي جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحي تلمسان ، ونزل بنو رياح الحلالون فى قسنطينة بينما نزل بنو عامر فى وهران وأغماها . ويسهب لمن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل الحلالية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ول هؤلاء الحلالين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكرين لئى الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بنى هلال الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، ولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مناضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحثالوا عليه فى استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثا أن ارتحلوا به وبها وكسما عنه مقصودهم من رحلتهم بموهين عليه بأنهم يآكرون به للصيد والقنص ثم يعودون إلى منازلهم ، وآهم يعمدون فى ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارتهم إلى دار ملكه فى مكة وبين جوائحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومتها فى مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعنى على أخبار قيس (صاحب ليل) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية بحكمة الملبى متفنة الأطراف ، وفيها الطبع والمتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، ولما أخلوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يؤثق به ، ولو صحت روايته لكنت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحرورهم مع زناتة (فى المغرب) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكن لا تنق يروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وجهه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل . والحكاية التى يتحدث عنها ابن خلدون هى حكاية اللالاية المعروفة فى الملحمة المشهورة باسم « سيرة بنى هلال » وتعرف أيضا باسم قصة لئى زيد اللالاي ، وكانت إلى عهد قريب يشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربلبة فى مقامى مصر وبلداتها المختلفة . والتاريخ الحقيقى للرحلة اللالاية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية اللالاية بشكرين لئى الفتوح أمير مكة الحسمى (٤٣٠-٤٥٣هـ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدا الذى خلفه فى الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبويها وعشيرتها حين كانوا ينوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتروى على لسانها أشعارا بدعية ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مرشدة :

ولا خير فى الطفل الصغير إذا نشأ وكتبه رقاذا كثير هَمائِدة
وإما يمت يرتاح من عيشة الرُدى ولا يَمُدْ كالصَّغر سالى مخالبه

وهى تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن يشأ نولما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج فى طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا فى ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة الصصة الضنك ، وإما أن يموت كالصغر

الجراح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بني دريد الهلالين من عشيرة
الجازية مفخرةً بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها في أول قدمهم إلى الإقليم واما
لها بصرة التي بناها في جنوبها المنصور العبيدي :

دريد سراً البدو للجود منقَع كما كل أرض منقَع المساء خيأها
وهم غرَّبوا الأعراب حتى تعرَّفَتْ بطرُقِ المسالك ما يؤفَى قصارها
وطرَّوا طريقَ البَرامين ثِيَّة وقد كان ماتقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشرف البدو ومنقَع الجود ينهل منه كل ظامئ ، وهم
أصحاب الفضل في قيادة الهلالين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالي المفرطة الطول
الشاقة وقد طرَّوا أى مهدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات
في الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة مابه من الحجارة والصخور ،
فأصبح مهدداً ذلولاً . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية في الإعراب ، ولا ندرى هل
أشعار القصص في الهلالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وضعت غير
معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار في المغرب مباشرة ، بل وضعت
بعد ذلك حين أخذت تسود العامية في الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار
البليلة بما تحوى من العبارات الرصينة والشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن
الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ في
بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية
لهذه في القرن الثامن الهجري فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستجمعون عن لغة
سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم
المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح
والرثاء والمجاء ، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ، وربما هجموا على
النقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ،
وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي
راوي العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر في كلامهم كثير التداول في نظمهم يجيئون به
معصياً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله في رويهم ويلتزمون القافية الرابعة في كل
بيت (دور) إلى آخر القصيدة شبيهاً بالربعات والمخمسات التي أحدثتها المتأخرون من
المولدين . ول هؤلاء العرب (البدو) في هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

(المتخلفون) . والكثيرون من المتحليين للعلوم لهذا العهد - وخصوصا علم اللسان - يستكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أشيد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمه الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يكي الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضى بن مقرب وثناء بعض شعرائهم للزنتي خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بآيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا في الزمن بعد عصر ابن خلدون في القرن التاسع الهجري يتكاثر هذا الشعر العامي أو الشعبي . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح في العهد العثماني ، وكان ينظم في المولد النبوي وفي الجهاد الحربي للأجانب وفي الأزمات الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسي مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنى بها غير شارح ، ومن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان في القرن الثاني عشر الهجري ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكي والزنتي ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم - كما في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي - من رحلة حجازية منظومة .

ومن الحق أن الشعر العامي الشعبي في الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفته على كفة الشعر الفصيح ، والجزائر في ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعنى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعربية الكبرى إلى الجزائر استطاعت - منذ القرن الخامس الهجري - أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادي وسفوح الجبال والسهول والحواسر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر في المعاش وعن طريق المصاهرة ودفعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتفقر وتراجع أمامها إلى الجبال والماعقل النائية الميعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر - منذ أواسط القرن الخامس الهجري أو بعد ذلك بقليل - يعدون شعبا عريبا تاما في دينه الخفيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من مبيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم في حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الرسايات .

كثرة الشعراء

طبيعى أن لا نلتفى بشعره كثيرين فى الجزائر طوال القرن الأول الهجرى وشطر غير قليل من القرن الثامى إلا ما كان يجرى على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرسمية فى تاهرت (١٦٠-٢٩٦هـ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشئ يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمهم ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمى (٢١١-٢٤٠هـ) وله فصيحة طويلة فى الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكنت الأسرة الرسمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر فى عهدها أكبر شاعر عرفه فى القرن الثالث الهجرى ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزال تاهرتى .

وكان للقسم الشرقى من الجزائر - حينئذ - تلبا للدولة الأغلبية فى القيروان ، ثم تبع الدولة الميمنية مع الجزائر جميعها ثم أصبح تلبا للدولة الصنهاجية وحكامها فى القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تتفتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية فى الدولة ، وقد يظلمون بها ويتخذونها موطناً لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرماه الأدبى تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرماه الأدبى تكامل فى الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطنبى الذى هاجر بأسرته الطنبية إلى قرطبة فى الأندلس واستقر بها . ومن نزل القيروان بعد نضجه الأدبى فى موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشل المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة (المحمدية) ومنهم ابن قاضى ميلة المعاصر للنهشل ، والحسن بن محمد التميمى المعروف باسم ابن الربيع المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله على بن أبى الرجال الفلكى المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتى .

وكان حماد بن يلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتى أشير والمسيلة (المحمدية) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر فى الاستقلال عن باديس والقيروان واحتط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتم له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مر بنا فى الفصل الأول ، واستكثر حماد فى القلعة من المساجد والفسادق ، واتسمت فى التمدن ، وكان متقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ، وعنى فى قلعة بالحركة العلمية ، ورحل إليها من النور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه تبارزه وأحفاده فى الدولة الحمادية بالقلعة ثم يجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس (علاء الناس) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمي والأدبي حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لِبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء في عهد الدولة الحمادية ، وداعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حديد الصقلي الذي أقام في بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى (٤٨١-٤٩٨هـ) وله فيه وفي وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته في مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسي ، وبها تصدر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهائى ترجم فى كلبه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، ومن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمره تلك الدولة ، وابن تيمى الملبح الطليبي شاعر الأمير الحمادى : العزيز (٤٩٨-٥١٥هـ) وطيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وقشد له مقطوعة فى مدح قاض ، والفتية عمر بن فلفول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز (٥١٨ - ٥٤٧هـ) وقشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م قوّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدثت على بن غلّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتملسان سنة ٥٩٤ . ومنهم أبو عبد الله الشاذلى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا يحيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبامدين شعيب الصوفى فترة ممجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الصكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن علي بن جبل الوهراتى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور للموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمسلى المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن على بن حماد القلمى المشهور بمراثيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتنقسم الجزائر - منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى - الدولة الحفصية فى الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليها ، ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزىل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششتري ، ويقال إنه تلمذ لأصحاب أبي مدين شبيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوخ الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق فى موجات التصوف التى عمت فى البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ونلتقى - منذ هذا القرن - بشعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيرية تنقلان فى الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لمهدما فى القرن السابع الهجرى عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسي وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلمى المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد التلمسلى نزىل ببجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة فى المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبي دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمسلى الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله فى التصوف شعر كثير .

ويفتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره فى تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره فى مليانة أحمد بن على المليانى المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكشى من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبي حجلة التلمسلى نزىل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبي هو موسى الثانى ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى فى نفس السنة . ويظهر شعر المولديات الذى ينشد فى مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبي جمعة التلاسى . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزياتي أبو هو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . ونلتقى فى القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثماني بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن فنفذ القسطنطيني المتوفى سنة ٨٠٩ . وله أشعار دينية ، وابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفي الكبير إبراهيم التازي المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضي المشهور محمد بن أحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية في الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة في علم التوحيد ومرتبة بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبي ، ومحمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان في علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسي مؤرخ دولة بني زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة في الأمير الزياني المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوفا القسطنطيني المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان ، وعاصرها محمد بن عبد الرحمن الحوضي المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بعرية له في أستاذه السنوسي ، وله غزل ومدح نبوي وغير نبوي ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة ٩٠٩ وله - كما أسلفنا - قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطي في الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفعيجي صاحب قصيدة في الصيد مشهورة ، وعني ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد في تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها في غير هذا الموضع . ونمضي إلى العهد العثماني ونلتقي في القرن العاشر الهجري بمحمد بن علي بهلول المجاجي المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفي كثير ومنظومات علمية ، وتلميذه أحمد الماتجلائي مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللماتجلائي مدح نبوي كبير وديوانان وموشحات . وتلتقي بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة في الحث على الجهاد وفي الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البوني المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير في الخمر ، وتلاههم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبي راشد وله أشعار في الجهاد وفي وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالي سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والمزل والمجون . وجاء في إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية في نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان في المدح النبوي . وكان يعاصره محمد الفوجيلي المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مدح وثناء وغزل . وبلغنا في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن أحمد البوني المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثيرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن علي مفتي الجزائر الحنفي وله شعر كثير في جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وفتح لوهران سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م وقد قلت فيه وفي هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون في كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعره هذا القرن أيضا أحمد بن عمار الفتى المالكي المتوفى في أوائل

القرن الثالث عشر الهجري ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباي محمد الكبير صاحب الفتح الثاني لوهرا ن بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م وتنتهى بهذا الفتح النهائى لوهرا ن كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجملى » .

٣

شعراء المدح

يُعَدّ المدح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول الثغنى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم ساداتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وساداته وأمرأؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحرية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرسمية الإباضية ، وكان من أمرائها من يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أطلع بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠هـ) وله قصيدة - كما مر بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقنا من مبكرى شعرائها أحمد بن فح التاهرتى وابن حراز ، وأهم شعرائها - حيث - بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت - مثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدي العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة (المحمدية) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طينة سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدي العبيدى وخلفائه العبيدين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طينية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطنبى ويوحب عبد الرحمن الناصر به ومن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وطلته ، ويكثر من مدحه ، حتى ليقول ابن حبان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقره بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥هـ) حين استولى على صولجان الخلافة بعده ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جمية مهبها الناس لما كان يريده المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له (١) :

(١) نظر المتنبى لابن حبان (تحقيق د . عبد الرحمن المحجى) ص ٨٣ .

حَصَنَ بِهِ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
لَجَّتْ بَيْتَهُ النَّفْسُ فَأَخَذَهَا
عَوْدَ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ أَصْلَهُ
وَارْثُ الْمَشَارِقِ بِاسْمِهِ فَلَقِّنَتْهُ
وَأَقَمَ بِهِ أَوْدَ الرِّسَالِ الْأَعْوَجِ
مِنْ وَاجِبِ الْأَشْيَاءِ لَوْ لَمْ تَلْهَجْ
وَالْفَرْعِ مِنْ تِلْكَ الْعُرُقِ الْوُشَجِ^(١)
مَا بَيْنَ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرُّجَجِ^(٢)

وواضح أنه كان يضع نفسه في خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب في حبها إلى أن توفي سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣ م. وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه علي وتجب لبنا له هو أبو مضر زيادة الله، وعنى بتريته وأصبح - فيما بعد - نديما للمنتصرون في عامر حاجب هشام المؤيد ثم ولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجل، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به^(٣) :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلْأَمْرِ
اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ يَحْفَظُهُ
وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ
وَخَصَّهُ بِعُلُوِّ الْقَدْرِ وَالْهَمِّ

وكان صنع شنجل المذكور سببا في القضاء عليه وفي فتنه قضت على الدولة الأموية في الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يترث وأن لا يكيل التناء لشنجل، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عني بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له في كتابه المغرب إنه كان إماما في علم الحديث وكان شاعرا وأشعر منه ابن أخيه علي بن عبد العزيز، وفيه يقول الحجازي إنه أشعر بنى الطنبى وأشد له ابن سعيد أشعرا في الخمر والزلزل.

وإذا كانت طلبة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطنبى في القرن الرابع الهجري وكل ما نظمه أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى السبلة عاصمة الزاب الحديثة واليها من قبل العبيدين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥ م جعفر بن علي بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذي أسسها - كما مر بنا - وكنا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء، وعن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها الفذ ابن هاني، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه، ومن قوله فيه^(٤) :

لِلْمُشْرِقَاتِ النِّهَارَاتِ ثَلَاثَةٌ
الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمُنِيرُ وَجَعْفَرُ

بولاية العهد في أصال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢
وسامعها ولقب الشاعر محرف .
(٤) رابع أشعر ابن هاني في ديوانه المطبوع بالهند .

(١) الوجع : للفتنة للشباكة .
(٢) بلاد الرجع : بلاد بالقرب من مدينة كافي في أفغانستان .
(٣) انظر البيتين التاليين وأمثال أخرى في تهفة شنجل

ويقول مخاطباً له في إحدى مدائحه :

لَمْ تُدْنِي أَرْضَ إِلِكْ وَإِنَّمَا جِئْتُ السَّمَاءَ فَفَتَحْتُ أَبْوَابَهَا
وَرَأَيْتُ حَوْلِي وَفْدَ كُلِّ قَبِيلَةٍ حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْمِرَاقَ الزُّبَابَ^(١)
أَرْضٌ وَطَعْتُ الدَّرْمَ مِنْ حَصْبَاتِهَا وَالْمَسْكَ تَرْتَابًا وَالرَّيَاضَ جَنَابًا

وسمع بالشاعر ومدائحه في جعفر الخليفة المميز العبيدي الفاطمي فطلبه منه ، ولم ينقطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحسن حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصور ذلك في إحدى قصائده منشداً :

خَلِيلُ أَيْمَنِ الزُّبَابِ مَنَى وَجَعْفَرُ وَجَنَاتُ عَذْنٍ بَنَتْ عَنْهَا وَكَوْثَرُ
وَقَبْلِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ آدَمُ فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ مَنَظَرُ

وهو يتحسر على فراقه للزباب وجعفر ، فقد فارق جنة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد في الأرض ولا منظر . وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربي شاعرا كبيرا في القرن الثالث الهجري هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه في النصف الثاني من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخي المعروف باسم ابن قاضي مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة فسطاطية ، واشتهر بمدح فائده مدح بها وإلى صفلية يوسف ثقة الدولة وسنخسه بترجمة . والثاني عبد الكريم النهشلي المسيلي شاعر المنصور الصنهاجي وابنه باديس ، وسنفرده له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية في القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجري حركة أدبية وعلمية نشطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء لينحوهم الجوائز والصلوات من أمثال ابن الفكاه أبي القاسم عبد الخالق القرشي القيرواني مادح الناصر بن علناس (٤٥٤ - ٤٨١ هـ) وفيه أنشد^(٢) :

قَالَتْ سَمْعَادُ وَقَدْ زُمْتُ رَكَائِبُنَا مَهْلًا عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِعُ الْغَادِي
فَقُلْتُ نَأْفَهُ لَا أَنْفَكَ ذَا سَفِيرٍ تَجْرِي بَيْنَ الْفَلَكَ أَوْ يَحْدُو بَيْنَ الْحَادِي
حَتَّى أَقْبَلَ تَرْبُ الْعَزْ مُتَصَرًّا بِالْناصِرِ بْنِ عَلْنَاسِ بْنِ حَمَادِ

وكان ابنه المنصور (٤٨١ - ٤٩٨ هـ) كاتباً شاعراً وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة وجدد قصورها وشيد جامعا وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صفلية الفذ فقلده صلات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

(١) الزاب : أرض سهول في وسط الجزائر وراء جبال الأورلس شرقا .
(٢) يُعْمَلُ الْأَعْلَامُ لِابْنِ الْخَطِيبِ (طبع الدار البيضاء) ٩٦/٣ زمت ركايبنا : شئت بالزمام استمداذاً للرحيل .

منها رائية بديمة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسد المذهبة تجم المياه البلورية من أفواهها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصع أغصانها بطيور بمناقيرها مياه كنتائر اللآلئ الصافية ، يقول^(١) :

قصر لولئك قد كحلت بنورو
أذكرتنا الفردوس حين أرتنا
فلك من الأنلاك إلا أنه
وضراغم سكت عرين رثا
وكنما غشى النصار جسومها
وبدعمة الثمرات تعبر نوحها
قد صرحت أغصنها فكنا
خرس تعد من الصفاح فإن شدت
أعنى لعماد إلى المقام بصيرا
غرنا رفعت بناءها وقصورا
حفر البدر فاطلع المنصورا
تركت خصر الماء فيه زئيرا^(٢)
وأذاب في أفواهها البلورا^(٣)
عيناي بحر عجائب مسجورا^(٤)
قبضت بهن من الفضاء طيورا
جعلت تفرد بالميا صغيرا

وأيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقرئ بعد إيشاده لما في كتابه « نفع الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير » . ومعلوم أن العماد الأصمهلي ترجم في كتابه الخريدة لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري ، وقد ترجم لنفر^(٥) من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشرون المهدوي القيرواني مع نعتة لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : علي بن الزيتوني الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبي الملبح الطيب ، وقال عن علي بن الزيتوني إنه شاعر المغرب الأوسط (الجزائر) وأديبه ، والمعني وأريه ، وهو صاحب توشيع وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأشد له قطعة من قصيدة في مدح قاض ، وفيها يقول :

نهاه عن محاربه نهاه
وشد به عرى الإسلام حتى
أمين عدله غمر البرايا
لقد ظفرت يد غلفت نداءه
ورقره لخالفه نقاه^(٦)
رأينا النجح وانعقدت غراه^(٧)
فما يخشى على أحد قضاءه
ومن نأواه قد تبث يده^(٨)

المغرب) طبع تونس ١٨٠/١ وما بعدها .

(٦) المعنى : القتل .

(٧) عرى الإسلام : موافقة التي لا تنصل عنه .

(٨) تبث : خسرت خسرا كبيرا .

(١) ديوان ابن حمديس (تحقيق د. إحسان عيسى) .

(٢) عرين الأسد : مأواه .

(٣) النصار : الدعب

(٤) مسجورا : مملوئا .

(٥) انظر فيهم وفي الأشعار التالية الخريدة (قسم

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله فى بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكم إلا همائم حوى مناقبا جلى ومجدا صراح^(١)
وتبدلون الرغد يوم الندى وتسرون الحرب يوم الكفاح^(٢)
وترفضون الجار فوق السها وتكرمون الضيف مهما استباح^(٣)
لا زلتم تجنون زهر الملا فى معرض العز بمحض الصفاح^(٤)

أما ابن أبى المليلح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جالية للحب سائلة للـ ولم يرو منها شيئا له ، إنما روى قطعة من قصيدة يهنيء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله ، يقول:

وجالت به جرد المذاكى كئها عذارى ولكن نطقهن تحمحم^(٥)
وصفراء كالنير العتيق صقيلة ودماء يتلوها كميث وأذهم^(٦)
وأشقرلو يجرى مع البرق جهده لكان له يوم الرهان التقدم
وحام كسواء النصر يتبع رايه بها العز معقود عليها مشم^(٧)

وترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قديما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلى الأصم وعلى بن إسماعيل القلى ، أما محمد فينقل عن كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان للرشد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه : « كان جيد الشعر ، وارى^(٨) زناد الفكر » وتشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مدح كرامة بن المنصورين الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحاكبة بالماء لون اضطرابه قواما وحنا حين يبدو ويوبص^(٩)
قضيـب لجين ألمع الصقل منته وأخلصه فى السبك من قيل مخيلص^(١٠)
تسامى قليلا ثم عاد كئها جمان حوالياها على الماء يرقص^(١١)
كان نوالا من يمين كرامة

(١) جل : عظيمة ، صراح : خالصا .

(٢) الرغد : العطاء . تسرون : ترفدون .

(٣) السها : كوكب صغير غفى الضوء . استباح :

استبح فى الطلب .

(٤) الصفاح : السيوف .

(٥) المذاكى : الخيل اللدنية . التحسم : صوت الخيل

دون المال .

(٦) كميث : آخر ضارب إلى السواد .

(٧) حام : دلو .

(٨) وارى : متقد .

(٩) يوبص : يرق ويلمع

(١٠) لجين : فضاء .

(١١) جمان : لؤلؤ .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان ميخوس الجدة^(١) وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (القسطنطية) وأقام بهما زمنا لا يجد من يروى ظماته ويسد خلته^(٢) ، وعاد إلى المغرب ونزل بيني الأشقر في طرابلس الغرب ، واستدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جازته ، ومن قوله في مدحهم :

وفى ذا الحيتى المأسول بأمن خائف وفى ذا الندى الموصول ينفع حائس^(٣)
عقدتكم على أحاسيكم بفالككم كما عضدت لسر البناء الدعائم^(٤)
على كل أرض من نذاكم مياهم وفى كل نادر من نذاكم مواسم^(٥)

وأما على بن إسماعيل القلمى فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمال ، وكان هو وأبوه وجده سنيين ، ويدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة : « حى على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن على بن إسماعيل القلمى نظم فى هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليل صحت السيف يرعد حده وقد شاب فيه مفرق الصعدة السمر^(٦)
إلى أن بدا وجه الصباح كنه لحافظ دين الله آيته الكبرى

ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية فى بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حينئذ شاعران : الحسن بن على بن عمر القسنطينى المعروف باسم ابن الفكون وسنخسه بترجمة ، ومحمد^(٧) بن على بن مروان بن جبل الممدنى الوهراتى الأصل الناشئ بتلمسان ، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمرآش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل فى أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاد ابنه الناصر إلى أن توفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

(٦) الصعدة : قلعة .

(٧) انظره فى بنية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١

والمعجب للمراكشى ص ٢٦٤ و ٣١٢ والكلمة

لاين الأهار رقم ١٠٦٣ .

(١) الجد : الخط .

(٢) خلته : حاجته .

(٣) ينفع حائس : يروى ظمائه .

(٤) عضدت : أعمت .

(٥) مياهم : جمع ميم : علامة وأثر .

أَسْلَمْنَا يَا بَنِي الْإِيمَانِ أَمْرَكُمْ مَنْوُوطٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا عَنَهُ مَعْدَلٌ
نُصِرْتُمْ لِأَنَّ الْحَقَّ أَنَّ ظَهْرَهُ وَنَاصِرَهُ فِي اللَّهِ مَا كَانَ يُخْذَلُ
مَلَأْتُمْ بِسَاطِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَمَا بَقِيَ فَأَنْجَارَكُمْ فِيهِ تَسِيرُ وَتَنْقَلُ

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتجمعها بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، واكلوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاية حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجري ثم خلفتها قسنطينة أو بجاية أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت في كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا في شرقي الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بني حماد في بجاية التي قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيباتيين في تلمسان التي سلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام في صديقه علي بن سيد الناس وعشيرته (١) :

شَسَّ السَّعَادَةَ لَأَسَا النَّبْرَاسِ حَلَّتْ بِأَفْقَى عَلَى بْنِ سَيْدِ النَّاسِ
مِنْ مَعْشَرٍ بِذُلِّ النَّوَالِ شِعَارِهِمْ وَهُمْ الْأَسْوَدُ لَدَى احْتِدَامِ الْبَلَسِ
فَالْبَسَ رِداءَ الْفَخْرِ جِرْرَ ذَيْلُهُ وَانْعَمَ بِطَيْبِ الْعَيْشِ وَالْإِنْسَانِ

وأهم شاعر مديح أُنْتُجِهَ شرقي الجزائر في عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطيني شاعر السلطان أبي عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسس بتلمسان الدولة الزيباتية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يُغْمَرَسَانِ مؤسسها وأبنائه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمدحهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يُغْمَرَسَانِ حين هاجمه السعيد الموحدي صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنتا له بالانتصار (٢) :

بُشِّرِي بِمَا جَلَّ فَتَحَ أَوْجِبَ الرُّسَا وَأَسْفَرُ الدُّهْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا (٣)
فَتَحَ تَبَجَّسَتْ الْأَنْوَاءُ صَادِقَةً بِوَدْفِهِ وَمَحَسَتْ أَتَوَارُهُ الْغَلَسَا (٤)
فَتَحَ تَفْتَحُ بَابُ السَّعْدِ عَنْ كَتَبِ عَنْهُ وَتُنْجِزُ فِيهِ الْيُمْنُ مَا التَّمَسَا (٥)
فَتَحَ جَرَى فِي الْوَرَى مَجْرَى الْحَيَاةِ فَقَدْ سَرَى فَمَازَجَ مَنَا النَّفْسَ وَالنَّفْسَا

(١) عنوان الدرابة ص ٣٤٣ .
(٢) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتسي (تحقيق محمود بوعباد) ص ١١٩ .
(٣) أسفر : انكشف . عس : قطب وجهه وتجهّم .
(٤) تبجست : تضرعت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شده . الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٥) كتب : قرب .

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث في الحرب ومقتل السعيد الموحدي ويشيد بشجاعة الجيش التلمساني ويأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التي استولى عليها يَمُراسن من حلة الأمير الموحدي السعيد والتي بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسي المقدُّ النعيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون في تاريخه، وعضاد^(١) الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذي خطه يمينه ، وكان قد صار إلى بني أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل في قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم في مواضع منها لآلئ نيفسة وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم في أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يمراسن أن حظى به ، إن صح ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارح ابن خعيس كاتب أبي سعيد عثمان الأول ابن يمراسن (٦٨١-٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرد له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبي حجلة الذي ترجمنا له في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل في بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أي إثناء السكر ، وديوان الصلبة أهداهما للسلطان حسن المملوكي ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله في الكتاب الأخير :

ملكٌ أسودُ الغاب تحذرُ بأسَهُ لأن ملوك الأرض طُرّاً تحاذرُهُ
وأى كساةٍ لم يرعهم نزالُهُ وأى مكانٍ ما علتُه منابرُهُ

ولعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما يمدح أبوحمو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) الذي خلص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أدبياً فذاً وشاعراً ماهراً ونهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبتدائحها فيه التنسي في كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبوحمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتبه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامي ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضا محمد بن أبي جمعة التاللي أحد أطباة ، وفيه يقول في قصيدة^(٢) :

| | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| مطاع شجاعٌ في الوُغى ذو مهابةٍ | حسامٌ على الباغين في الأرض قد سُلَا |
| له راحةٌ كالنيث ينهلُ وذَقُّها | وصارمٌ نصرٍ مرهفٌ الحَدُّ لأفلا |
| إسماءٌ حباهُ اللهُ ملكاً موزَّرا | فلا مَلِكٌ إلا لمرزئِهِ ذَلَا |
| من الزَّبابِ وافئسا عزيزا مظفرا | يجرُّ من النصر المنسوط به ذَمَلَا |

(١) العضاد : الحلة توضع في العضد .

(٢) بنية الرواد / ١ - ٩٠ .

لطاقته كل الأنعام تبادرت
فيلتمد من وافي وبأونج من ولى
لقد جبر الله البلاد بملكه
به ملكنا أنا به ملكنا عدلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلاسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير فى مدين شيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مدح أبى حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية فهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أشدها للمقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مدحه ومدح الرسول الكريم ، ومن مدحه له فيها^(١) :

مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو إِلَى الْعَالَى كُلِّ حِينٍ
ذَلِكَ أَبُوْحُوسُو لِلدُّلَى أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ
طَاعَتُهُ غَنَمُ نَبَا بِهَا دُنْيَا وَدِينُ

وكان أبوحمو استمر فى تلمسان الاحفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفل بإشاد مدحه النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفِعَ إليه من مدائح شعره البلاط فى أبى حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف النقرى . وعن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبويزان محمد الثانى (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وكان كلنا بالعلم والأدب - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، ونهادى مع السلطان الملوكى برفوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) والطريف أنه وجه إلى برفوق مع هديته قصيدة من نظمته استهلها بتصوير أشواقه وحبينه إلى زيارة المصطفى والباقع المقدسة ، ومن قوله بها فى مدح السلطان برفوق^(٢) :

مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنْسَامُ وَأُنْتُ سَبِيلُ الْمَخَافِ، لَا يُخَافُ سَبِيلُ
وَالْمَلِكُ ضَخَمٌ وَالْجَنَابُ مَوْئِلٌ وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلٌ
وَالصَّنْعُ نَجْمٌ وَالْفَخَارُ مَوْئِلٌ وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلٌ^(٣)
بِاخْدَامِ الْحَرَمِينَ حَقَّ لَكَ الْهَنَاءُ وَحَبْلُكَ مِنْ رَوْحِ الْإِلَاسَةِ قَبُولُ

ومن أتمش الأدب فى أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزيلعى (٨١٤ - ٨٢٧ هـ) ويقول التمسى إن الأدباء جلهوا إلى بابه يَسْلُونَ من كل حَدَبٍ^(٤) فينقلبون بُجَرٍ^(٥) الحقائق ، ظافرين

(١) نوهل الرهنى ٢٤٧/١ .
(٢) تلخ بهى زهان التمسى ص ٢٢٥ .
(٣) موكل : أصيل .
(٤) يسلون من كل حدب : يسرعون من كل طرف .
(٥) بهر الحقاب : مملوئى الحقاب ، كناية عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لما دحه من غير التلمتين قصيدة لشاعر فاسي يسمى على
الشَّاب يهته فيها بعض فتوحه قائلا^(١) :

ملك تجلّل بالمهابة وارتدى وسما فدان له الزمان الأستد
كم يبتّ آراؤه من مشكلو والله يكفل ملكه ويؤد
ملك نبي الرحمن إلا نصره فمن الذي يخفي سنأه ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيني بتلمسان بعده المتوكل (٨٦٦ - ٨ هـ) ويعني الفقيه النسي
بوضع كتاب أرخ فيه له ولأسرته - كما مر بنا - سماه نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني
زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة في مدح مديح وأبنائه الستة ، وفيه يقول^(٢) :

حوى في عباه من وثاقه وأبيه مع الحزم ما لم تحوه اللّم الشنط^(٣)
هو البحر جوداً من جميع جهاته فمروفيه لجّ واحسنه الشط
وكل بني الآمال ساعون غموه كذا كل من أضناه من دهره قنط^(٤)
وبرز من بين الملوك مجلياً وأعطاه رب العرش فوق الذي أعطوا

وتضعف الدولتان الزيرية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجري ويستولى فردينند
ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين
(بروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م وما يزال خير
الدين ينازله مستولياً منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير وهران ، ويضيف إقليم
الجزائر إلى الدولة الشمالية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على
منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى
من وهران ، ويهته الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله^(٥) :

هنيئاً لكم باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قُرَى الكلب
وإفكاً ربي فاتحاً لحصونهم وكهفاً منيماً ذا عتوٍ وذا ضَرْب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ،
فحقها البابلياريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة
العثمانيين في فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذي يستحث الداى « باب حسن » على
فتحها في حماسة طويلة منشداً :

(١) قسط : جور وظلم ، وهي من ألفاظ الأضداد .

(٢) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بلسان لابن

مريم ص ١٣٢ .

(٣) النسي ص ٢٣٨ .

(٤) النسي ص ٢٦٥ .

(٥) اللّم الشنط : المخطأ فيها سواد الشعر بياضه .

نادتك وهران فلبس بنداها واتزل بها لاتقصدن سواها
واستدع طائفة العساكر نحوها بغزونها ولينزلوا بفناها
أضحى الصليب مؤيدا والدين قد درست معاله فلست تراها
فاذع الفزاة لغزوها مستجدا واتهض إليها واتزلن مرها

وعلى شاكلته عمد القوجلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى عمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل في نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم في فتح وهران ، ويهتبه يحيى بن أبي راشد مشيدا به في مثل قوله :

ملك تفرّد بالكمال ولم يكن لكماله في السالفين مثال
دلت له الأيام طرأ مثلما دلت للبشر الغلبة الأشبال
خضعت لسطوته الملوك وسلّمت لجلاله الأمراء والأقبال^(١)

ويكثر الشعراء من استشارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أدبيا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب في نهشته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته في كتابه « التحفة المرضية في الدولة البكداشية » وجمله في ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم الزيوني ومحمد القوجلي والمستغامي وابن علي الذي هنأ تهته حارة مصورا كيف يسحفهم سحفا لا يفي ولا يذر بمثل قوله :

إسام سقى الكفار كأس منية لهم شبة بالنمل والسيف حاطم
ومزقهم في الأرض كل ممزق فزعمهم - بعد العماره - طاسم^(٢)
وعاد لوهران السنية فخرها وعاد إليها عهدهما المتقادم

ويتوفى بكداش سرهما سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل في حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لمهد الباي محمد الكبير ، فيفتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لمهده والنف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومي ومحمد بن الطيب المازري وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله في فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمدا لمن آزر نصر الدين ودان ناصريه أسنى الدين
وفتح الأقطار بالجهاد حتى غدت لينة المهادر

وشرح الأرجوزة شرحا أدبيا تاريخيا سماه : « النثر الجماني في ابتسام النثر الوهراني » وصف فيه الفتح وسيرة الباي والشعراء الذين مجّدوه وبعض أشعارهم في تهنته بالفتح ،

(٢) طاسم : دارس .

(١) الأقبال : جمع قبل : ملوك اليمن .

ووصف منشأته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شاده والمدرسة الملحقة به وفيها يقول^(١)
أحمد القروى :

وترى المدرس قد علا كرسه يلقى على العلماء حب الجوهر
نحوه مدرسة غدت آثارها تحيه بالعلم الشريف الأشعر

وكانت عقيدة الأشعرى قد شاعت فى البلدان المغربية - مثل العراق والشام ومصر - منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن سحنون فى « الثغر الجمالى » بضعف الشعر فى زمنه لقلبة العجمة على الألسنة ، فصار الناس يتفنون بالملاحون (العامى) وبه يهجون ويمدحون ، ويضيف أن الشعر الفصحى شاع فيه الكسر فى الأوزان والاختلال فى المباني والمعاني .

ويكثر فى العهد العثماني مدح التلامذة لشيخوهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجلى فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى ، وسنفرد له ترجمة عما قليل . ويكثر الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس والمغرب الأقصى ، وحرى أن نتوقف لترجم لبعض شعراء المدح .

عبد^(٢) الكريم النهشل

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة (المحمدية) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب ، وفيها كان مرباه وتلمذته لشيخوهم فى الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن يتنظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصورين ولكن من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرها . ومربنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه المتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه المتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ١٠١٤/٥٤٠٥م وتشد له قياتا من قصيدة فى مدح المنصورين ولكن وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثنائى للدكتور فى القاسم
(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشل المراجع التى
سبق ذكرها فى ملحق ص ٨٩ .
سعد الله ٢٧١/٢ .

الخيّل الكريمة والإبل البخاتىّ النجبية وحمارا مخططا من حرّ الوحش وفلا ضحما ، ووصفها
 النهشل جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هَتَكَ أَمِيرُ الْجُودِ خَيْرُ هَدِيَّةٍ تَقْدُمُهَا الْإِيمَانُ وَالْيَمَنُ وَالْفَخْرُ

ومضى يصف الهدية ، وكان حربا بلبن رشيق أن يشد شيئا من مديحه الذى كان يبرع فيه
 براعة فائقة كما تشهد بذلك بآلية له فى المنصورين ولكن أُنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه
 المنع ، وفيها بصور هية مجلسه منشدا :

ومجلس موقور الجلالة تنشئ عيونُ الورى عنه وينبو حطائها
 ترى فيه رفع الطرف خفضا كلّما لحاظ الرجال رية تستريها
 إذا حكمتها ظلت نواسجُ عبقر حواسد مدسوسا إلى عنائها
 على ملك تَهْدَى إلى مَكْرَمَاتِهِ عفاثلُ أشعار ترف شباها
 مام دعت كفاء قاصية العلاء فلباه منها صفوها ولباها

فهو مجلس مخفوف بالجلال حتى لتنشئ عنه العيون مهابة وتبتر الكلام فى الأقواء وينخفض
 الطرف رية يستشرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه
 فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار ترفّ إليه ، وله لهما تستجيب إليه
 ذروة العلاء فينال منها صفوها ولباها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصور أرضا تهلّت وجسوه رُساها واستهلّ رَباها^(١)
 إذا اغرمت الآفاق بِلْت سماءه نراها بأيدٍ ما يجف رَغبها^(٢)
 كأن العوالى الزرق عنه مضارها وخضر السحاب من نداء عَجبها^(٣)
 فمن يولسو سدا ينله ومن يُرد به شِفوة تُخلّغ عليه ثابها
 يحلّ بنا - ما حلها - البر والتقى ويخضر من بعد اصفرار جنبها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلئ رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغبر
 الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سمائه ما يروها ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول
 كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداء
 وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحلّ بها
 يحلّ فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

وما بلدٌ لم يوثك الطُوع أهلها بآمنة أن لأنتك هضبا
 تحط بها الأسد الضواوى خواضيا لديك ولون الكواكب غلبا

(١) الرباب : السحاب .
 (٢) العوال : الرماح .
 (٣) العوال : السحاب .
 المنهرة .

(١) الرباب : السحاب .
 (٢) الرُباب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .

ولو أنها عاصتك غير مجيبة
تهلك آفات الخطوب فتتهي
أجابتك من تحت السيوف رقابها
ولا تنهى عن خبطة فتها بها
وماحك أحناء الضلوع بقافها
وخيلك تلمور النفوس شرابها^(١)

وهو يقول للمصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدك هضابها
دكا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحط لديك خواضع مهما
كان غلبها وغلبها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خاتمة ،
وإن الخطوب - مهما عظمت - لتهلك ، بينما أنت لتهاب خطة ، إذ لا تزال ترم الخطط ،
وتلك رماحك لا تزال تضرب في أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والنقصيدة
مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تفرغ الأذان قرعا بموسيقاها اللدبة ، وكثما تمتلىء برعد
قاصف . ويدون ريب كان عبد الكريم النهشلي شاعرا مبدا .

عبد^(٢) الله بن محمد التوخي (ابن قاضي ميلة)

نقع ميلة في الشمال الغربي لقسطنطينة والجنوب الشرقي من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن
محمد التوخي في بيت علم إذ كان أبوه قاضيا ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضي ميلة ، ويقول
ابن رشيق إنه صاحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاقصده عن طريقه بواليتها ثقة الدولة
(٣٧٩-٣٨٨ هـ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيته سياسة عادلة حبته إليها ،
ودوخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كريما فياضا فقصده كثيرون من كل
فج ، فأكرمهم وفي مقدمتهم قاضي ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة
قافية بارعة ، فحرف منزله ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكنا طويلا بصقلية .
وأشاد بلبن قاضي ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لسن مقتدر يؤثر
الاستعارة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات ، وله في الشعر
قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ في الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهج بذلك
طالب له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب في الأدب بأعلى قدح واضر عنه على أوضح
صبح » . ونوه ابن خلكان بغايته في ثقة الدولة ، ويقول أحببت إثباتها لحسنها وغربتها ،
وأشدها . وهو يستعملها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين في الحج ، وهو غزل بديع
سذكر طرفا منه في غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة وإلى صقلية في يوم
عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

ص ٢٠٩ . ولبن خلكان ١٥٩/٦ وراجع ٨٤٣/٥

والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

(١) اللغاف : مضرب الرماح . تلمور : دم .

(٢) انظر في ابن قاضي ميلة نموذج الزمان لابن رشيق

أَغْرُ قُضَاعِيْ بِكَادِ نَوَالِهِ
سَتَى وَسَتَى الْأَمْلَاكُ فِي طَلَبِ الْعُلَا
وَيَقْظَانِ شَابِ الْبَطْشِ بِالْبِرِّ وَالتَّقَى
حَسَامٌ عَلَى مَنْ نَاصَبَ الدِّينَ مَصْلَتَ
يَسَائِرِهِ جَيْشَانِ : رَأَى وَقِيلَ
مَطْلٌ عَلَى مَنْ شَاءَ فَكُنْتُمَا
لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف^(١)
فَقَارَ وَأَكْذَرَا إِذْ أَحْفُ وَأَنْقَطُوا^(٢)
بِكُنْيَسِهِ مَا يُرْجَى وَمَا يُخْشَوْ
وَسَتَرٌ عَلَى مَنْ رَاقِبَ اللَّهَ مُعْدِفٌ^(٣)
وَيَصْجِهَ سَيْفَانِ : عَزَمَ وَمَرْهَفُ
عَلَى حَكَمِهِ صَرْفُ الرَّدَى بِتَصْرِفٍ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تُكَلِّفُ من الشكر ما لا يكاد يطاق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله في طلب العلا ففاز وخيلوا إذ أسرع فسيبهم وأبطئوا فتخلفوا ، وإله ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففي كفيه ما يرجى من الجود وبخشى من البأس العنيف ، وإله للحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكُنْتُمَا ينزل صرف الملاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعوه الله أن يرعاه :

رَعَى اللَّهُ مَنْ تَرَعَى حِمَى الدِّينِ عَيْنُهُ
وَمَنْ وَعَدَهُ فِي مَسْرَحِ الْحَمْدِ مَطْلُ
وَمَنْ يَضْرِبُ الْأَعْدَاءَ هَبْرًا فَتَشْتِي
رِمَاهُمْ بِمَجَرٍّ ضَعْفَ الْأَرْضِ رَزَهُ
كَانَ الرُّدْبِيَّاتُ فِي رَوْسِ الضُّحَى
يَعُودُ الدُّجَى مِنْ بَيْضِهِ وَهُوَ لَيْضُ
ويحمي حِمَى الإسلام والليلُ أَعْظَفُ^(٤)
وَأِعْمَادُهُ فِي ذِمَّةِ الْحَلَمِ مَوْفُ
صَنَادِيدُهُمُ وَالْبَيْضُ بِالْهَامِ تَنْقُذُ^(٥)
كَانَ الرُّوْلَى مِنْهُ بِالْبَيْضِ تَنْقُذُ^(٦)
أَرَامُ فِي طَامِرٍ مِنَ الْآلِ تَرْحِفُ^(٧)
ويبدو الضحى من نَفْعِهِ وَهُوَ أَكْلَفُ^(٨)

وهو يدعو الله أن يحمي حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والمسلك بوعده يسلك به حلمه ، وإله لضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تنقذ بالرهوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكان الرولى تقدم إليها ، وكان الرماح أرقام ترحف في أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا في احمرار لكثرة النفع وغبار الحرب ، ويقول :

- (١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .
(٢) أكثروا : خلووا . أحف : أسرع . أنقطوا : هبطوا .
(٣) مصلت : مسلول . معدف : مسبل .
(٤) أعظف : مظلم شديد الإظلام .
(٥) هبرا : ضربا . البيض : السيوف .
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تذل : تسير مطعنة .
(٧) الردييات : الرماح . أرقام : حبات . الآل : السراب .
(٨) النفع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فِيَانْفَةَ الْمَلِكِ الَّذِي الْمَلِكُ سَهْمُهُ
 هِنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي مِنْكَ حُسْنُهُ
 بِدَا مُتَعَلِّمٍ الْأَرْجَاءُ يُزْهِى كَثْمَا
 أَنِّي بَعْدَ حَوْلٍ زَاهِرًا عَن تَشَوُّفِ
 فَطَرْتَهُ عِزًّا وَشَفْتَهُ بِمِ
 وَلَا زِلْتَ تُسْتَجِدِّي قَوْلِي وَتُرْتَجِي
 بُرَاشُ الْأَكْبَادِ وَيُوصَفُ (١)
 يَرُوقُ وَمِنْ تَوْصَافِكَ الْفَرْ يُوصَفُ
 عَلَى عِطْفِهِ وَشَى الْعِرَاقُ الْمَشْفُفُ (٢)
 وَقَدْ كَانَ ذَا طَرْفٍ لِلْعِيَاكِ يَطْرَفُ
 فَلَاحَ لَنَا وَهُوَ الْحَلَّى لِلْمَشْفُفِ (٣)
 فَتَكْفِي وَتُسْتَدْعَى لِحَظَبٍ فَتُكْشَفُ

وهو يقول له يا ناقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدُّ إلى أكباد الأعدى فينغذ فيها ويصمها
 وهنيئًا لك العيد الذي يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلئ زهوا بما على جواربه
 من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحلت بطوق
 رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستجدي فتعلم وترتجي فتكفي وتستدعي لخطب فتكشف نوازله .
 وتشد ابن رشيق من مديحه قوله :

طَبَّبُ بِأَدْوَاءِ الْجِهَادِ إِذَا صَدَمَ التَّجَاجُ قَوَادِمَ النَّسْرِ
 وَإِذَا احْتَبَى فِي شَمْلَةٍ ضَرَبْتُ بِيضُ النَّوَالِ جَمَاجِمَ الْفَقْرِ
 يَنْدَى وَأَبْدَى الْمَرْزُوجَامِدَةَ وَيَلِينُ عِنْدَ قِسَاوَةِ الدَّهْرِ

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشد الحرب وتحتدم ويصدم عجاجها
 وغبارها الكثيف قوادم النور وأجنحتها المخلقة . هذا شته في الحرب أما في السلم فلا تزال
 سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودا متصلا حين تشع أبدى
 السحاب ، وإن جانبه ليلين لوارديه عند قساوة الدهر وشدة . وواضح ما يتميز به ابن قاضي
 ميلة من التعمق والبلد في التصاوير .

ابن (١) خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميري الحَجَرِيُّ الرَّعِينِي التُّلَسَاتِي ، ويتضح
 من نسبه أنه ينسب إلى حمير من عرب اليمن في الجنوب ، وبالذات من حَجَرِ ذِي رَعِين ،
 وذكر ذلك في شعره مفاخرًا به قائلًا :

عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن
 حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر عنه وخاصة
 الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونفع الطب وأزمار
 الرياض للمقرئ ٣٠١/٢ وما بعدها .

- (١) بُرَاشُ وَيُوصَفُ : يسد .
- (٢) الْمَشْفُفُ : الرقيق .
- (٣) شَفْتَهُ بِهِ : زينته بقرط .
- (٤) لَهْطَرُ فِي شِعْرِ ابْنِ خَمَيْسٍ وَتَرْجَمَتُهُ دِهْرَانَهُ بِاسْمِ
 الْمُتَخَبِّثِ نَفْسٍ مِنْ شِعْرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَمَيْسٍ مِنْ

وإن انتسبُ فَيُنَى من دوحية
تَنَبُّ الأنسابُ بَرْدَ ظلالها
من حميرٍ من ذى رُحَيْنٍ من ذُرَا
حجرٍ من العظماء من أقبالها^(١)

ولد تلمسان سنة ١٢٥٠هـ/١٣٥٣م أوقبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومراه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرِف بين أقرنه بذكائه . وتفتح موهبته الأدبية ، وبصبح من كتاب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان التلمسانى يَمُورَاسَن ثم فى عهد ابنه أبى سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ) وقد التقى بالمعبرى الرحالة وأكثر المعبرى من مجالسته ورواية أشعاره فى رحلته وأثنى عليه . وحدث فى أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبدالحق المربنى تلمسان ومات سلاطنتها أبو سعيد فى أثناء الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م . ونجد ابن خميس ينادر تلمسان فى نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان وعقفه اللقمة له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول فى طاعة المربنيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون فى قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغسروا بنفسى طلائها
سيرا فاجاءوا لقتلى صراحا
فشاورت نفسى فى ذافما
رأت لى بغير الفلاة فلاحا

وقد فرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمراثها من أسرة بنى العزفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نواهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكرين من شيوخها دسوا عليه أسئلة نخوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجرَّ الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة أواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث (٧٠١ - ٧٠٨هـ) ووزيره أبو عبد الله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطائهم ، وأخذ ابن خميس يضى على مدائحه ، وجال فى المربة وغير المربة بعض جولات غير أن استقراره كان فى غرناطة بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرئ فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة فى الجزائر بل فى المغرب عامة ، وفيه بقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان فى الطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، بصرف العريض ،

(١) حجر ذى رعين : قبيلة سبتة . أمثالها : أمراؤنا وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافي ، ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة النباج الذى لانظير له ، ويقول محققه إنه « يمتاز فى شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغلبة الألفاظ ، وقل من شعراء القرن السابع من يضارعه فى قوة المعارضة وخصب الفريضة وفيض الخاطر وطول النفس ، ونادر من يماثله فى سلاسة المبنى وسلاسة المعنى ». والقصص عنده قصص تاريخى ولذلك يحتاج قارؤه فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قاتلا فى بعض شعره :

ما ذاق طعمم بلاغية من ليس للوحشى ماضع

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنا كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية القديمة إمعاناً فى العروبة . ولم يكن يفرغ إلى الغريب دائماً إنما كان يفرغ إليه فى مخاطبة بنى العزفى ولبن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره فى بنى العزفى خاتمة طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف المربى منذ سنة ٦٩٨ وتعمل معاهد أمه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن نصحوهم بالدخول فى طاعة المربى حتى فكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج إلى مدح سبته وبنى العزفى منشداً :

| | |
|--|---|
| تَرَكْتُ لِمَنْ سَبَّهْتُ كُلُّ نَجْمَةٍ | كَأَنَّ تَرَكْتُ لِلْعَزْ أَعْضُلَهَا الشُّنْغُ ^(١) |
| وَأَبَتْ أَنْ لَا أَرْتَوَى غَيْرَ مَائِهَا | وَلَوْ حَلَّ لِي فِي غَيْرِهِ الْمُنُّ وَالْمَذْخُ ^(٢) |
| فَأَمْلَاكُهَا الصَّيْدُ الْمُنَاوِلَةُ الْأَكَى | لَعَزَّهُمْ تَعْنُو الطَّرَاخِمَةُ الْبَلْخُ ^(٣) |
| كَوَاكِبُ هَذِي فِي سَمَاءِ رِيَاةٍ | تَضَىءُ فَمَا يَذْجُو ضَلَالٌ وَلَا يَطْخُو ^(٤) |
| بَنُو الْعَزَفِيِّينَ الْأَكَى مِنْ صُدُورِهِمْ | وَأَبْدِيهِمْ تُمَلَّا الْقَرَاطِيسُ وَالطُّسْرُخُ ^(٥) |
| رِيَاةُ أَحْبَابٍ وَمَلِكُ أَفَاضِلٍ | كَرَامٍ لَهُمْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ رَضْعُ ^(٦) |

وهو يقول إنه ترك لبناء سبته كل ما يرجى من نجمة ومعروف ، كما تركت للعز ودبياتها الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بخير مائها حتى لو عرض له فى غيرها غسل لمن المذكور فى القرآن وغسل الرمان ، فحسبه أن ينعم ببقاء ملوكها المقام الذين يخضع لهم الأشراف الزهرون ، وإلهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلئ القراطيس والطوامير

(١) النجمة: المروء والكلأ . أعضلها : مضى بها .

(٤) يطنخو : يظلم .

(٥) الطرخ : القنطة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها

الشوخ : العالية .

(٢) لمن والمذخ : نوعان من الممل .

كثت تصنع من ورق العروى .

(٣) الصيد للقنطرة : السادة المقام . تنو : نقل .

(٦) رضع : عطاء .

القراخمة البلخ : الأشراف المذكورون .

بعلمهم ، أختيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضى أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنَى التَّرَفُّيْتِ لِبُلْفُوا مَا أَرَدْتُمْ فَمَادُون مَا تَبْغُون وَخَلَّ وَلَا زَلَّجُ^(١)
وَلَا تَقْعُدُوا عَمَّنْ أَرَادَ سِجَالَكُم فَمَا غَرَّكُم جَفُّ وَلَا غَرَّفَكُم وَضْغُ^(٢)
وَعَلُّوا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةَ وَتَبْهُوا عَلَى مَنْ رَامَ شَاوَكُم وَانْخَرُوا^(٣)
وَلَا تَذَرُوا الْجُزْءَ تَعْلُو عَلَيْكُمْ فَنَى رَأْسِهَا مِنْ وَطْءِ أَسْلَافِكُمْ شَذْخُ^(٤)

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتغى مفاخرتكم بأعماله ، فما ذلوكم خال ولا غرركم قليل ، وعملوا وراءكم كل طالب غاية وتبهاوا وامتنعوا امتناعاً على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجزاء تشرب بأنما تملو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شذوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الفرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة هزلية يستهلها بخمسين وشوق ظامئ إلى تلمسان ويخلص إلى مدح الوزير منشدا :

وَلَوْلَا جِوَارُ ابْنِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٍ لِمَانَاتِ نَفْسِي مِنْ بَنَى الدَّهْرِ إِقْمَاءُ^(٥)
حَمَلِي فَلَمْ تَنْشَبْ عَلَى نَوَائِبِ بِسُوءٍ وَلَمْ تَرْزَأْ فِرَوْدَى أَرْزَاءُ^(٦)
دَعَانِي إِلَى الْمَجْدِ الَّذِي كُنْتُ أَمْلَا فَلَمْ يَكْ لِي عَنْ دَعْوَةِ الْمَجْدِ لُطَاءُ^(٧)
وَبَوَّأَنِي مِنْ هَضْبَةِ الْمَجْدِ تَلْعَةً يَسْجَى السُّهَاءِ مِنْهَا صُعُودُ وَطَّاءُ^(٨)
يَشْجِي مِنْهَا إِذَا سَرْتُ حَافِظُ وَبِكُلُّوْنِي فِيهَا إِذَا نَمْتُ كَلَاءُ^(٩)
وَلَا مَثَلُ نَوْمِي فِي كِفَالَةِ غَيْرِهِ وَلِلذَّنْبِ إِلَاءُ وَلِلصُّلِّ إِلَاءُ^(١٠)
إِذَا كَانَ لِي مِنْ نَائِبِ الْمَلِكِ كَافِلُ فَنَى حَيْثَمَا هَوَمْتُ كَيْنُ وَإِنْفَاءُ

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الفرناطى عليه من منة مشكورة ، فلولا لساقي إليه الناس ما يشمره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر ومحنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتحنى من مجد وأثرله من هضبة مكاناً علياً يتأجى منه نجم السُّهَاءِ صعوداً وهبوطاً ، وحافظ يشجيه إذا سار وحافظ يكلؤه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكين مريح يرد البرد ودفء ما بعده دفء . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصوراً بارعاً ، وكان يخف عليه الجناس

(٥) إقماء : إذلال .

(٦) لم تَرْزَأْ أَرْزَاءُ : لم تصب مصائب .

(٧) تلعة : ربوة . ططاء : هبوط .

(٨) يكلؤنى : يرعانى ويحفظنى . كلاء : حافظ .

(٩) إلاء : انتفاض .

(١) زلج : ترحلن .

(٢) السجال : المغامرة . الغرب : الدلو الكبير .

جف : خال . وضغ : قليل .

(٣) شأوكم : مفاكم وغايكم . انخروا : تبهاوا وتكبروا .

(٤) الجزاء : كوكب معروف . شذخ : شرخ وجرح .

والطباق حين يريد هما ، وهو يعد في الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسنشد له أشعارا في الطبيعة وفي التزعة الصوفية إذ كان فننا كبيرا في كل ما ألم به من موضوعات .

محمد^(١) بن يوسف القيسي الثغري التلمساني

أهم شعراء الجزائر في المائة الثامنة لعهد أبي حمو موسى الثاني، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبي جمعة التلاسي وعبد المؤمن بن يوسف المديوني ومحمد بن صالح الشقرونى وابن ميمون السنوسى ومحمد بن على العصامى ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبى للثغرى ، غير أن بيته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبى يختار للعمل فى دواوين الدولة ، واختير الثغرى وأصبح كاتب الإنشاء لأبى حمو الثانى، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) يرمى الأدباء والشعراء لعهد وأُن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوى منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفى مقدمتهم الثغرى ، وكانوا يستطردون فيها من مدح الرسول ﷺ إلى مدحه ، وسلم بذلك فى حديثنا عن المدح النبوى إما تهمنا الآن مدائح الثغرى فى أبي حمو موسى الثانى ولبنيه أبي ناشفين وأبى زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أباهم :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ياإمام الهدى وشمسَ المعالى | وغمام الندى ويدّر التّوايدى |
| لك بين الملوك سِرٌّ خفى | ليس معناه للمقول يبادى |
| وكأنّ البلادَ كفكُ مها | كان فيهما من يتمى لعناد |
| لم تنزل دائما نحنُ إليكم | كحنين السّقيم للسّواد |
| قد أطاعتكمُ البلادُ جميعاً | طاعةً أرغمتْ نَفْوَ الأعادى |
| فأرغموا الجيادَ أتعبتموها | وأزفروا السيوفَ فى الأغمار |

وهو يشيد به ، فيجمله إمام الهدى وشمس المعالى وسحاب الكرم والبدر المضىء الهادى ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكُنّا يقبض على البلاد بكفه ، بل هى كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ، وإنها لاتزال نحن إليكم حنين السقيم للمواد ،

فهارسها) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفع الطب
وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

(١) انظر فى محمد بن يوسف الثغرى التلمساني كتاب
نيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٢٩٤ ونية الرواد لبحى بن
خلدون وناريخ بنى زيان لمحمد بن عبد الله التلى (انظر

فَأَتَتْ بِلِسْمِهَا الْمَدَاوِي الشَّافِي . وَيَقُولُ إِنَّ الْبِلَادَ جَمِيعًا تَطْلِعُكَ فَأَرْجُ الْجِيَادَ الَّتِي طَالَمَا أَمْعَيْتَهَا
وَأَقْرَبُ السِّيَوفِ فِي أَغْمَادِهَا وَعِشْ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَطْمَئِنِّ الْبَال . وَلَهُ فِيهِ مِنْ أُخْرَى أَشَادَ فِيهَا بِلِمْسَانِ
وَمَشَاهِدُهَا إِشَادَةٌ بِدِيمَةٍ ، وَفِيهِ وَفِي قَبِيلَتِهِ بَنَى عَبْدُ الْوَادِ يَقُولُ :

| | |
|---|---|
| فُرْسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعْصَى | حَامُوا الذَّمَّارِ أُولُو الْفَخَارِ الْأَطْوَلِ |
| وَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَأَيْتَهُ | فَالْتَمَّ ثَرَى ذَاكَ الْبِسَاطِ وَقَبْلَ |
| بُشْرَى لِعِبْدِ الْوَادِ بِالْمَلِكِ الَّذِي | خَلَصُوا بِهِ مِنْ كُلِّ خُطْبٍ مُفْضِلِ |
| وَكَفَاهُمْ سَعْدًا أَبُو حَمْرٍو الَّذِي | يَحْمِي حِمَاهُمْ بِالْحِمَامِ الْفَيْضِلِ |
| وَيَحْمِنُ نَيْتَهُ لِمَنْ وَجَدَهُ | وَيَسْمَعُهُ وَبِغْيَةِ التَّنْقِيلِ |
| ذُو الْهَمَّةِ الْعَلِيَا الَّتِي آثَارُهَا | حَلَّتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ |

وهو يشيد بفُرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون
الحصى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم
الذي خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمر حامي حماهم
بشجاعته الباسلة وهمة القساء التي حلت به فوق نجم السماك المصعد في السماء . وكان
ما يزال ينظم مولديات في احتفال أبي حمر بليلة المولد النبوي وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما
بمثل قوله في إحداها :

| | |
|---|---|
| ظَفَرُ الثَّقَى وَالْمَذَلُّ مِنْ مُوسَى الرُّضَا | بِالْجَوْهَرِ الْفَسَدُ الَّذِي لَا يُتَأَمُّ |
| يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الثَّقَى وَمَنْ لِسِهِ | شَرَفٌ عَلَى سَمَكِ السَّمَاءِ مَخِيَمُ |
| أَعْطِيَتْ بِالْعَدْلِ الْخِلَافَةَ حَقُّهَا | فَمُلُوكُهَا فِي حَقِّهَا لَكَ سَلَامُ |
| جُودٌ وَإِحْسَانٌ وَقَصْدٌ فِي الْمَدَى | حَسَنٌ وَعَقْدٌ فِي الثَّقَى مُسْتَحْكَمُ |
| وَتَوَاضَعٌ بِعَمَلٍ وَقَدَرٌ بِمِثْلِ | وَنَذَى يَدُ تَهْمَى وَبَشَرٌ بِسَمِ |
| وَالْحِلْمُ أَوْسَعُ وَالْجَنَابُ مُؤَثِّلُ | وَالْعَزْزُ أَمْنَعُ وَالسَّجِيَّةُ أَكْرَمُ |

وهو يقول إن الثقي والعدل جميعا ظفرا من أبي حمر بالجواهر الفرد الذي لا نظير له ،
وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماك الأعلى ، وبالمثل عدله الذي يسبح على
الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلّمون لك عن يد ، وهذا تمت جود وإحسان وهدي
وتقى وتواضع ومكفة كبيرة وكرم يهيم ويهطل وبشر يسم وحلم أوسع وكف مؤثّل وعز
منيع وسجايا كريمة . ويظل يوصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبي حمر
الثقي شاعرا لانه أبي تاشفين (٧٩١-٨٧٩هـ) وينشد مولديات يستطرد فيها إلى مديحه
من مثل قوله في الاحتفال بليلة سلهقة ليلية المولد الشريف :

إِسْمًا تَوَلَّى اللَّهُ تَشْيِيدَ فَخْرِهِ
يَعُدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ كُلِّ كَيْفَةٍ
يُهَابُ وَيَرْجَى فِي جَلالِ جَمَالِهِ
فِي مَالِكَا يَحْمِي الرُّعْيَةَ رَغْبَةً
وَيَكْفُلُهُم بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالنَّدَى
فَمَا شَتَّ مِنْ مَجْدٍ وَمِنْ كَرَمٍ عُدَّ
بِهَا الْجُرْدُ تَزْدَى وَالْقَوَارِسُ كَالْأَشْدَى
كَلِيبٌ وَغَيْبٌ فِي وَعِيدٍ وَفِي وَغْدٍ
وَيَحْيِيهِم بِالْبَذْلِ وَالْعَيْشَةِ الرُّغْدِ
وَيَشْمَلُهُم بِالْجُودِ وَالرَّفْقِ وَالرُّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء ككاتب تضرب خيلها الأرض بمخايرها الصلبة ويضرب فرسائها الأعداء ضربات مصيبة ، وإنه ليهاب كلث في وعيده ويرجى كغيث في وعده ، ودائما يحمي الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المدار . ويلحق الشاعر عصر أبي زيان (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لَنْ كَانَ بِحِصْرٍ فِي الْعِلْمِ فَإِنْ فِي
وَمَاهُ إِلَّا كِثَابٌ وَسَنَةٌ
فَسَنَخُ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ
وَمَنْ كَانَ يَحْتَدِ الشِّفَاءَ شِفَاءُهُ
وَلَمْ أَدْرِ وَالْأَوْرَاقُ رَاقَتْ بِخَطِّهِ
أَلَا هَكَذَا فَلَيْسَ لِلْمَجْدِ مَنْ سَمَا
بَنانٌ يَدِيهِ لِلنَّدَى أَمْحَرَا عَشْرًا
يَسْخُهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الْفَخْرَ وَالْأَجْرَا
وَنَسَخَ الْبِخَارِي ضَامِنًا لَهُ النُّصْرَا
فَمَنْ عَلَّلَ الْأَوْرَاقَ فِي نَسْخِهِ يَبْرَا
أَسْكَأَ عَلَى الْكَافُورِ يَنْتَرُ أَمْ جَبْرَا
وَيُجْرَى لَأَسَادِ الْفَضَائِلِ مِنْ أَجْرَا

وكان أبو زيان كلنا بالعلم كما وصفه التنسي ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة وعاضرة ، وكان غيا مدرا في الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغري والتنسي - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحفظ الخزقة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهي على رق غزال وعلا بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب . وكتب نسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض . وبحق ما يقوله الثغري من أن من يحد شفاء القاضي عياض شفاء له يرا به من جميع الأوزار فما بالك بمن يحد بالبخاري وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغري إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منثورا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه نفسه أبو زيان ، وهو مجد خلقي بأن يتسابق إليه التسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفي الثغري ، وأكبر الظن أنه توفي في آخر القرن الثامن أو في أوائل التاسع الهجري .

الشهاب^(١) بن الخلف

هو شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الخلف لقباً الحميري نسباً ، ولد لأبيه في قسطنطينة سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م وقصد بلده بعد ولادته ترواً لأداء فريضة الحج ، وظل مجاوراً بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفي سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، حفظ القرآن واختلف - بعد حفظه - إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيراً مما عندهم ، وشُغف - منذ صباه - بالأدب شعراً ونثراً كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه في مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال في إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت ممن ولع بعصفوري النظم والنثر في الصبا ، مستوحياً من دوحتهما نسجتي القبول والصبأ ، مقتطفاً لزهريتهما من رياض الآداب ، ملتقطاً لذريتهما من أصداف الطلاب^(٢) » ، لأسلك وادياً لم يترنم فيه حمامها ، ولا أعكف على حديقة لم يطر فيها غمامها ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرها^(٣) ولا أخوض بحراً لم تتكون فيه جواهرها إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحويت من كتابتيهما^(٤) على كل سهم مصيب . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأثقل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحته بالمجرة إليها في تاريخ غير معروف ، وبظن أنه هاجر إليها في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدياء ، مما أتاح له وهو في السادسة والعشرين أن يكون في مقدمة المهتمين لسلطان تونس عثمان الحفصى (٨٣٨ - ٨٩٣ هـ) باقتران ابنه وولي عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش في حاشيتهما واتخذ المسعود كاتباً له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب في حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مراراً وتكراراً في مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله في الكلية بديوان المسعود الشاعر محمد الخير الملقب الذي كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤذيها ويظل في القاهرة نحو أربع سنوات تتعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع في الأدب ومتعلقاته »

الديوان الدكتور هشام بوقمرة (طبع تونس) وله طبعة
قديمة في القرن الماضي غير محققة .
(٢) الطلاب : المطلوب .
(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم للمضيء .
(٤) الكفة : جمجمة السهام .

(١) انظر في ترجمة الشهاب بن الخلف رحلة
عبد الباقى بن خليل المصري إلى المغرب ودرة المجال
لاين القاضى والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع
للسخاوى وشذرات النعب لابن العماد ونيل الانتهاج
للتبكي ورائف أهل الزمان لابن أبي الضياف وتاريخ
الأدب التونسي لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتلة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضى عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتباً له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفى نفس السنة توفى السلطان عثمان الحفصى ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنا به طويلاً فقد ثار منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل غريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمّة الحكم ، وصوّر ذلك ابن الخلف فى رائية له يمدحه بها قائلاً :

حَزَتْ الخِلافةَ عاصباً لا غاصباً والحسَنَ ورَثَكَ النَفيسَ المدْحَرَ

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصباً أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصباً عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضاً توفى فيه الشهاب بن الخلف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المدح والثناء والزل والخرابات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيراً من الشعر التعليمي وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المغنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضاً منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للغزوينى ، وله بديعة صور فيها ألوان البديع وعسائه لعصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آتفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جَنّا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المدح النبوى ، ويبدو أن له كثيراً من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاماً يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

| | |
|---|--|
| إِسْمَ بَرَاهِ اللّهِ أَوَّلَى عِبَادِهِ | بِحَقِّ وَأَمْدَاهِم لَأَوْضَحَ حُجَّةٍ |
| تَوَكَّلْ نِعْمَاءَ وَيُخَشِّى اتَّقَاءَهُ | لَطَالِبِ سِلْمٍ أَوْ لَطَالِبِ قِتْنَةٍ |
| بِصَوْلِ وَيَحْمَى شِرْعَةَ نَبْوَةٍ | بِسُورِ رِشَاقٍ أَوْ بِيضِ جَلْبَةٍ ^(١) |
| لَهُ دَوْلَةٌ أَرَسَتْ عَلَى كُلِّ دَوْلَةٍ | بِتَأْيِيدَارِهِ وَتَأْيِيدِ نَصْرَةٍ |
| يَحْنُ إِلَى الْمَعْرُوفِ حَتَّى يُبْلَى | كَأَحْنٍ مُشْتَاقٍ لَوْصَلِ الْأَحْيَةِ |

(١) السر : الرماح . البيض : السيوف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماءه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويذود عنها بالرماح والسيوف المصممة ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

| | |
|---|---|
| تَمَلَّكْ رِقَّ الْجُودِ وَاسْتَخْذِ الْفَنَى | فَلَمْ يَسِقْ عَانٍ يَشْتَكِي أَلَمَ الْفَقْرِ ^(١) |
| إِذَا مَادَعَاهُ الْعُسْرُ بِأَعْيَى الْوَفَا | بَدَا فَدَعَاهُ الْيُسْرُ يَا قَاتِلَ الْعُسْرِ |
| رَوَى الْفَضْلُ أَحْبَابَ التَّقَى عَنْ كَالِهِ | كَأَنَّمْ عَنْ طِيبِ الرَّيِّ طِيبُ النَّشْرِ ^(٢) |
| لَقَدْ ذُكِرْتُ لِلأَوَّلِينَ فَضَائِلُ | وَلَكِنْ هَذَا الْفَضْلُ لَمْ يَجْرِ فِي ذِكْرِي |
| سَخَاءٌ يَدِ تَرَوِي الْجَدَاوِلُ مَاءَهَا | عَنِ السَّيْلِ عَنْ قَطْرِ الْغَمَامِ عَنِ الْبَحْرِ |
| وَمَجْدٌ كَمَا تَرَوِي الْأَشْعَةُ نُورَهَا | عَنِ الْبَرْقِ عَنْ زَهْرِ النُّجُومِ عَنِ الْبَدْرِ |
| وَحَسْبُكَ يَا فَرْغُ الْمَكَارِمِ وَالْعِلَا | أَصُولُ زَكَتْ فِي رَوْضَةِ الْمَجْدِ وَالْفَخْرِ |

وهو يصفه بأنه استرق الجود وامتلكه وأصبح الفنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى ألم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه بما يحى الوفاء ، ولم يكذب يدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتفوق ينمان عن كاله ونيل خلقه وشمالته كما ينم الشذى العطر عن طيب الرئی وأزهارها الأربعة ، وينزه بفضلته ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يعاتله ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكثما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تدفق أمواجه ، وهى مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التى نمت فى روضة المجد والفخر الذى ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد فى إحدى مدائحه :

| | |
|---|--|
| مَلِكٌ إِذَا هَزَّ الْحَسَامُ بِكَفِّهِ | خَرَّتْ لِبَارِقِ رَعْدِهِ الْخُرْصَانُ ^(٣) |
| لَوْ فُرِّقَتْ عِزَّمَاتُهُ وَهَبَاتُهُ | فِي النَّاسِ لَمْ يَكْ بِأَخْلَ وَجْبَانُ |
| وَيَرَى الْعَوَاقِبَ فِي صَحِيفَةِ فِكْرِهِ | فَكَأَنَّمَا أَفْكَارُهُ كُتُوبَانُ |
| تُغْزَى إِلَى الْفَيْثِ السُّكُوبُ هَيْأَتُهُ | هَيْهَاتَ أَيْنَ الْفَيْثُ وَالطُّوفَانُ |
| يُضْنَى الزَّمَانُ لَأَمْرِهِ وَلِنَهْيِهِ | وَتَطْلُعُ الْإِنْسُ لِحُكْمِهِ وَالْجَنَانُ |

(٣) الخرصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

(١) علان : بالنسبة .
(٢) النشر : الرابحة الذمكة الساطعة .

وتراه ما بين الأُسنة سافرا
نُت الإمام وَمَنْ عداك رعيةً
كالبدر دارتْ حوله الشُّهبانُ^(١)
نُت المُقدِّم والسَّوْرى أعوانُ

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال في ميادين الحروب وهزُ حسامه سقطت السيوف من أيدي أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر في مبالغاته فلورزعت هباته وعزماته في الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكان تنبؤاته أفكار كهان يصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجنان ، وإنه ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفَّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله في مديحه موشحة بدعية ، يقول في تضاعيفها :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| قابل النورُ ظلمة الخلكِ | بمُصباحٍ منيرٍ ^(٢) |
| ورقا النجمُ ذروةَ الفلكِ | خائفًا مستجيرٍ |
| بلمى عمرو الرضا الملكُ | من سَعرِ المجير ^(٣) |
| مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرٍ | بطريقِ الصُّحاحِ |
| وسرى في النُّهى على قدرٍ | بمُطايَا الفلاحِ |
| لورأى البدر وجهه الطُّلُفا | لاعتراه السجودُ |
| لورأى الغيث جوده العُدفا | لاشخى أن يجود |
| فاق خلُقًا وقد حوى خلُقًا | قارنُوه السُعود |
| بِوَأ الملكِ رتبةَ الظُّفْرِ | بمِوالِ الرُّمُاحِ |
| ومحى غَزْمُه دُجَى التَّيْرِ | بمُصباحِ الصُّفاحِ ^(٤) |

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطيعة وصفا بدعيا ويخرج منه إلى مدح أبي عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبى عمرو المحبوب من نار المجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المتسين إلى عمرين الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى في مبالغاته فلورأى البدر وجهه المبشر لخر ساجدا ولورأى الغيث جوده المردار لملاء الخجل والاستحياء ونوّه به خلُقًا وخلُقًا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم للضياء والشملة
الساطعة .
(٢) المجير : نصف النهار في القبط .
(٣) الصُّفاح : السيوف . الفجر : الأحداث .
(٤) الصُّفاح : سواد الليل

له أن يقترب هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوفاً اتضح لنا اتضاحاً تاماً ، وهو صوت يحفظ بالمذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمثالية ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال تمتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح الثام كل الوضوح .

محمد^(١) الفوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدها الشمالى ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لدائه ، حتى إذا أتقن حفظه وجوَّده على قرائته أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أَعَدَّه ليصبح قاضياً من قضاة الدولة . وشغف مبكراً بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما توجه إلى المشاركة فى الشؤون السياسية والتعبير عن أملى أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمالها فى بواكير شبابه تخلص وهران من أيدي الإسيان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م يهتبه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسيان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فراراً ، بل حتى يسحقهم سحقاً لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرحتُ جزائرنا بكم وثقتُ بمقامكم فيها بحال حُبور^(٢)
فلتفتنَّ نحو الجهاد بقوة والكفر فاقطعْ أصله بذكور^(٣)
وبغريتنا وهران ضيرتْ مؤلم سهلُ اقتلاع فى اعتناء بسير
فانهضْ بهزمك نحوها مستنصرا بالله فى جد وفى تشهير
بساكر مثل السيول تراجعتْ للسبق تحت لوائك المنصور

ونرى الفوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسيان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراء وكتبا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاية الشمالين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يتون برجال الدين فضلاً عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم - حيثذ - كان تركيا خالصاً ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل الفوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تنتكس الحركة العلمية والأدبية ، ولله ليهتف بالوالى الشمالى :

(٢) حور : سرور .
(٣) المذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

(١) انظر فى ترجمة محمد الفوجيلى كتاب أشعار
جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه
فى كتابه تاريخ الجزائر الثاقب (انظر فهرس) .

العلم ميراث النبوة ناله
كم في بلادك من نجيب حافظ
ومحقق ومدقق ومناظر
لكنهم فقدوا الإغاة واغتدوا
صاعوا وجاعوا لا محالة وأبتلوا
قوم لهم حظ من التوسر
ومشارك في النظم والمثور
من كل درك الحجي نخبر
ما إن براعيهم ذور التأسير
في ذا الزمان الصعب بالتغير

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكفى في البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل تخبر حاذق في عمله كل الحذق ، غير أنهم فقدوا ما يبد رمقهم ، وأبتلوا في العصر بالتغير والتضييق عليهم في النفقة ، إذ لا براعيهم أمراؤهم أو ذور التأسير .

ويصبح القوجلى قاضيا في تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكب على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة في مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويدور أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة يحاول فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

إنما أبا عبد الله بخطبة
والأرض قد فرحت بما خولتم
وعمركت أرجائها طربا بكم
بل إنما ماتت لذلك نخوة
جاءتك وهى لدى الزمان جمال^(١)
مرحت بساطتها ومال جبال^(٢)
ما منها رجف ولا زلزال
حتى لقد رقصت بنا الأطلال^(٣)

والآيات تدل على أن ملكه الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه غس أو شوم فالأحسا لفرح وسرور وحياة هنية طيبة . وتعمدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣١م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ / ١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

(١) برهد بالخطبة منصب الفتوى .

الأرض .

(٣) ملت : اختالت .

(٢) عولتم : أعطيت . ويريد بساطتها : المنبسط من

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرة في إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلي يمدحه بقصائد متعددة . وهي ظاهرة كبرى في العهد العثماني بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقل منهم من فتح أبوابه للشعر إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبقونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلي في إكثاره من مدح الحفاظ الفقيه على بن عبد الواحد الأنصاري ، يمدحه - كما يمدح أمثاله من الشيوخ - لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مدح القوجيلي للشيخ الأنصاري قوله في إحدى مدائحه :

| | |
|------------------------------|---|
| أبو الصلاح على في الكرام غلا | من لا يمثاله في الناس من أخذ |
| بحر طمى فرمى ذرا للتنقيط | غيث همتي فتما نفعا لمجهت ^(١) |
| أكرم بمجلسه السامي فقد ظهرت | لنا به نفحات القون والسدد |
| تلاطم فيه أنوار العلوم كما | تلاطم البحر بالأمواج والزبد |
| من يحرم الرؤى من صافي مشاره | بعض من ندم في شفة ويد |

وهو ينعت الشيخ الأنصاري بالصلاح حتى يجعله آياه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يمثاله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمي وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد في البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافي علومه يندم ندما شديدا . وله يقول في مدحة ثانية :

| | |
|------------------------|-------------------------------------|
| علامة أحياء العلوم وقد | خفيت معانيها على الكثر |
| باطالبا للعلم هل لك في | رشد وفي الإكثار من خير |
| انصد لمجلسه تنل شرفا | وتغوز فخرأ أيما فخر ^(٢) |
| إن جئت مجلسه تجد عجا | منه العلوم تفيض كالبحر |
| بدراية ورواية ثبتت | بصحيح إسناد عن الفخر ^(٣) |

وهو يشيد بعلمه وتنايه فيه أو بلوغه متناه ، حتى ليعده محيا له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأستيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات في

الأمر لضرورة الشعر .

(٣) الفخر : القاتل .

(١) طما : امتلا . حمى : سال .

(٢) وضع تحوز ولم يجرها عطف على فعل تنل في جواب

العقد الحادى عشر المجرى وظن أن الباب العالى فى إسطنبول سيعين على الجزائر واليا جديدا ، ونرى القوجلى يذهب إلى إسطنبول على رأس وفد جزائرى سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م ملتصبا من السلطان - وكان حينئذ محمد خان الرابع - موافقة على إصدار فرمان بتولية يوسف باشا ، وما إن يضع القوجلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطنبول تسمى سعيد ، يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفدهم لدى الخليفة العثمانى فى قبول ملتصبهم ، ومن قوله فيها :

| | |
|---------------------------------|---|
| سعدت فدم فى العز واستكمل العليا | ودم فى اقتناء الملوات مدى المخيا ^(١) |
| وكن ملجأ للوافدين فمن عين | أخا فهو فى عون الذى كونه الأشيا |
| شكايتنا مما دهنا بقطرنا | توالست علينا أعصر أورثت غيا ^(٢) |
| وكم من أمير ظن بكشف ضره | فلم يلف ما قد ظن بل قد وهى وهيا ^(٣) |
| وأولاهم فى العزم والحزم والوفا | سمى الذى فى السجن قد عبر الرؤيا |
| فكن عوننا عند الخليفة وامضين | بنا بين أيدينا لحضرته العليا |

وهو يدعو للمفتى تسمى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سعى الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبه أى أنه يوسف باشا سعى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأمرون . ولا نعرف شيئا عن القوجلى بعد هذه الوفاة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أتبه شراء العهد العثمانى .



شراء الفخر والهجاء

(أ) شراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال المصور التالية إلى اليوم مثالياتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبيتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(٣) بلقى من لطفى : وجد . وهى : ضعف .

(١) الملوات جمع مطورة : الرفعة والشرف .

(٢) لطفى : الضلال .

٥٠ يلقانا فى الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبى الرجال الشيبانى وزير المزمين باديس مفتخرًا بقومه^(١) :

يآل شيبان لا غسارت نجومكم ولا خبت ناركم من بعد توقيد
أنتم دعائكم هذا الملك مذ ركضت قبل الخيول لإبرام وتوكيد
المنعمون إذا ما أزيمة أزمست والواهبون عتيقات المزاويد^(٢)
سيوفكم أفقدت كسرى مرآته فى يوم ذى قار إذ جاءوا للموعود

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة فى سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تطفئ أبدًا ، إذ هم دعائم الملك العربى منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد الميثاق ، وقد اشتهروا بما ينعمون فى الأزمان وبهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذى نكلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا : متقة عظيمة لقيته شيبان فى الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ . ونرى الحسن بن الفكون الفسطينى المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى يفتخر ببلده « بجاية » ومسقط رأسه قائلا^(٣) :

دع العراق وبغدادا وشامهم فالناصرية مامن مثليها بلد
بر وخز ورج للعيون به مارج بان عنها الهم والنكد
حيث الموى والهواء الطلق مجتمع حيث الثنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر والبحر كالمرآة وهو يد والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
إن تنظر البر فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطرد
يا طالبا وحفها إن كنت ذا نصف قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثليها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مرج بأشجاره ونباتاته البديعة التى تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهواء الطلق الذى يستروجه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجرى كصل أو أنعمان ، والجنات تحفه من كل جانب ، وكلما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهى - يضاف - جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد^(٤) بن على المليتى المتوفى سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٦ م :

(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .

(١) المتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .

(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

(٢) المزاويد جمع مزود : رعاء الزاد .

العزم ما ضُرِبَتْ عليه قبلى
والزهر ما أهداه غُصْنُ يراعى
فالمجد يمنع أن يزاخَمَ مؤردى
وإذا بلوت صنعة جازيتها
وإذا عقدت مسودة أجريتها
والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والسك ما أبدها نَقْشُ كتابى
والعزم يلى أن يُسامَ جنلى
بجزيل شكرى أوجزىل ثوابى
مجرى طعامى من دُمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالزم ما ضُرِبَتْ عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ،
والزهر كلماته مما كتبه قلمه ، والسك نقش كتابه ، وبلغ من المجد أن لا يزاخمه أحد فى موده
كأبلغ من العزم أن لا يُرعى جنبه ، فحماء لا يسام ولا يضام ، وإذا اختير صنعة أو معروفا
بأدر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى
الطعام من دمه وشرابه . ويفخر ابن خميس

إنا - بنى قحطان - لم نُخْلَقْ لِف
بسيوفنا البيض اليمانية التى
تلى لنا الإحجام عن أعدائنا
أنصار دين الماشى وحزبه
وحماته بنفوسهم ونفيسهم
من التبابعة الذين يلبهم
ولأمرهم كانت تدن ممالك
أبوابهم مفتوحة لضيوفهم
ير غياث ملهوف ومنعة لاجى
طُبت لحز غلاصم ووداج^(١)
يوم اللقاء طهارة الأشماج^(٢)
وحماته فى الجحفل الرجراج^(٣)
من غدر متال وسورة هاج^(٤)
كانت تسيخ جبة كل خراج^(٥)
لدينا بلا جبر ولا إخراج
لدينا بلا قفل ولا مزلاج

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمنيين الذين إنما خلقوا لغياث الملهور وحماية اللاجىء
لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن تسلبهم لتلى لهم الإحجام عن لقاء
أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمتن أو من
أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأتهم كانوا حماه حين تنشب الحروب حموه
بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر متال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره
من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهائجهم . ويفخر
بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأمرأها فى الجاهلية الذين كان يُجَبِّى لهم الخراج من
أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدن لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

(١) طبت: صحت. الغلاصم جمع غلصة : الحلق .
الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المذبح .
(٢) الأشماج جمع مشج : النطفة .
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير
لكثرة
(٤) سورة : حدة
(٥) تسيخ : تنزل .

أبولهم مفتوحة لضيوفهم دائماً لا تغلق أبداً . ويحتل عرش دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر في الجزائر على مر العصور ، وأقصد أباحو موسى الثاني ، وحرى أن أنف قليلاً لأترجم له وأعرض أطرافاً من فخره .

أبو حو^(١) موسى الثاني

ولد أبو حو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن في أواخر مقامه بفرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (٧١٨ - ٧٣٧ هـ) ولجوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبي حو موسى ومرابه الأول في تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيخها أتم أبو حو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عمه أبي سعيد وأبي ثابت سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م حتى إذا فلك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م رأينا أباحو موسى يقصد تونس ولسطانها أباحو إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كالت سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي ، واضطرت الظروف لأعنان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصي وأبو حو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شعبة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد المالالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاء عقبها بأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م فصمم على أخذ تلمسان ، وبابه جميع من كان معه في الخلس من محرم سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وجد في السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان في طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولي عليها ابنه محمداً وترك معه حامية ، فحاصره أبو حو مدة كالت فيها مناقشات ، وثيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبي حو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبابه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسي إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاً عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاق يرضيه ، وسيف لحماية الدين يَنْضيه ، وسبيل إلى رضا الله تعالى ورسوله يقضيه » . وقد غيّر اسم الدولة ، إذ

ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسي ص ١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حو موسى الزبني : حياته وأثره للدكتور عبد الحميد حاجات .

(١) انظر في ترجمة أبي حو موسى الثاني تاريخ ابن خلدون والجزء الثاني من بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لبعض بن خلدون وتاريخ بني زيان

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزياتية نسبة إلى زيان والدبغراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزها وسلطانها واسترد لها بلداتها في الجزائر : وهران والجزائر وتونس ، وكثرت الحروب في أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبي سعيد . وقصص له قبيلة علمر واستولى على مدينتي المدية ومليقة ، ونشبت بينه وبين أبي حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته في أواخر سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م . ولتتهز السلطان عبد العزيز المريني فرصة تضعض جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل في الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المريني سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وبدأ منافسات بين ابنه وولي عهده أبي تاشفين وإخوته ويُنْتَخَل يحيى بن خلدون كاتب أبي حمو ومؤرخه في مؤامرة ضُرِبَها ولي العهد سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المريني - واستولى - على تلمسان ، غير أن الأحداث في عاصمته فاس اضطرتته إلى العودة إليها سرعاً ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتساء العلاقات سوءاً شديداً بين ولي العهد أبي تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبي تاشفين سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غيّر رأيه ، وأتجه إلى تلمسان ، واستأجر كل من كان في طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلتحق بفاس واستعان بسلطانها المريني ، وأعته بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتلوا قتالا شديداً وكبا الفرس بأبي حمو وتوفى . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزياتية وقد نهض بالعلم في دولته واشتهر بها كثير من العلماء في مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذي بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف وربب فيها الجرايات للشيخو والطلاب . وكان نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتبه وشعره محمد بن يوسف الثغري الذي مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن علي العصامي ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوي احتفالا عظيماً ، كان يُدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدعى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وتعرض لذلك في حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أدبياً بارعاً وله كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك ، وسلم به في حديثنا عن الشر في الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه في الجزء الثاني من كتبه بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيراً الدكتور عبد الحميد حاجيات في كتبه عن أبي حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبوءات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره في تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آياه وكيف أخذ يمد جيشا لحازلة المرينيين من قبيلة علمر واقحامه للزبا وريخ وورقلة والحمادى

والتفاته بالجنود المربين ويطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

| | |
|-----------------------------------|------------------------------|
| نظمتنا شَيْتَ الملك بعد افتراقه | وكم بات نهبا شمله دون ناظم |
| شَدَدْنَا له أزرًا وشِدْنَا بناءه | بأوثق أركانٍ وأقسوى دعائم |
| فصارَتْ ملوك الأرض تأتي مطيعة | إلى بلنا تبني التماس المكارم |
| وجاءت لنا من كُلِّ أوب ووجهة | تبايعنا طوعا وفود العمام |
| وقمنا بأمر الله فى نصر دينه | وفى كف مأند أخذت من مظالم |

وهو يفنخر بأنه أعاد للملك الزياني المنهوب نظامه وسلطانه ، وشد أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بله معلين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه يقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرتيئون من مظالم ، ويفنخر فى قصيدة ثنية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

| | |
|----------------------|-------------------------|
| فزلتْ الناس منازلهم | وتركت الظالم فى وجل |
| أحمى المظلوم وأنصره | وأقيم الحق على عجل |
| وأنا للحرب كُنتَها | وأنا فى السلم أخو جدل |
| وأنا موسى وأبو حمز | أصلحُ للملك ويصلح لى |
| سيفى إن صُلّت بقائمه | أذنى المُرَاق إلى الأجل |
| وكذا كُفَى إذا تبطتْ | من كان مقلًا عادَ ملى |

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عتترين شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمز موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه ليعزل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مبدّر وإن كفيه لتتثران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليا ثريا ، ويقول مفاخرًا :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| وما يسرى القلياء هُنا جلاله | إذا هام قومٌ بالحصان التواعم |
| بروق السيوف المشرفيات والقنا | أحبُّ إلينا من بروق المباسم |

وَأَحْسَنُ مِنْ قَدْ الْفَتَاةُ وَخَذَهَا
وَأَمَّا صَهِيلُ السَّابِجَاتِ لَدَى الرُّغَى
إِذَا نَحْنُ جَرَدْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ تَعُدْ
قُدُودُ الْعَوَالِي أَوْخَدُودُ الصَّوَارِمِ^(١)
فَأَشْجَى لَدُنَا مِنْ غِنَاءِ الْحَمَائِمِ
لَأَعْمَادَهَا إِلَّا بَحْرُ الْفَلَاصِمِ^(٢)

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمنون بالحسان الجميلات فإنا لا نهيم إلا بالعلاء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفتاة ، وأحسنُ عندنا من قَدْ الفتاة وقوامها وخدها الجميل قُدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل في الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترثنا في الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأعمادها إلا بحرُ الفلاصم والرقاب ، ويمضى في القصيدة قائلا :

أَلَا أَيُّهَا الْآتِي لَطِئْ جَنَابِنَا
وَقَوْلَيْتَ مِنَّا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
بَهْمَتْنَا الْعَلِيَا سَمُونَا إِلَى الْعَلَا
نَزَلَتْ بِرَحْبٍ فِي عِرَاصِ الْمَكَارِمِ^(٣)
وَفَاضَ عَلَيْكَ الْجُودُ فَيَضُ الْغَمَامِ
وَكَمْ دُونَ إِدْرَاكِ الْعَلَا مِنْ مَلَا حِمٍ

وهو يشير من ينزل بجانبهم وفي كفهم أنه ينزل برحب أو واسع في عرصات أو ساحات المكارم ويفعلُ بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الماطل . ويقول إتهم لذورهم عالية سميت بهم إلى العلا وكَمْ دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرًا في انتصار له على الدولة المربنية :

لَقَدْ نَهَضْتُ بِمَوْنِ اللَّهِ مُشْكَلا
بِعَسْكَرٍ لَجِبٍ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِهِ
مَنْ كُلِّ لَيْثٍ شَجَاعَ فَارِسٍ بَطْلٍ
عَلَى سَوَابِقِ خَيْلٍ ضَمُرَ غَرْبٍ
بِهَا وَطِنُنَا بِلَادًا لَا سَبِيلَ لَهَا
عَلَى الْإِلَهِ وَمَنْ يَرْجِسُوهُ لَمْ يَخْبِ
كَالْبَحْرِ أَعْظَمَ بِهِ مِنْ عَسْكَرٍ لَجِبٍ
حَامِي الذُّمَارِ مِنَ الْأَعْجَامِ وَالْعَرَبِ^(٤)
تَرْهَى بِمَلْبَنَاتِهَا كَالْخَرْدِ الْعُرْبِ^(٥)
وَمَا أُرْدُنَا تَتَاوَلْنَاهُ مِنْ كَتَبٍ^(٦)

وهو يقول إنه نهض لحرب المربنيين مستعينا بربه متكلًا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجاءه ، وقد نازلهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكثته بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من المعجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجبية

(١) العوال : الرماح . الصوارم : السيوف .
(٢) الفلاصم جمع غلصمة : ملغى اللهاة والمرى .
وهى تقطع مع الرقة .
(٣) عراص جمع عرصة : الساحة .
(٤) الذمار : الحسى وما يحبه الإنسان من الأمل والولد .
(٥) الخرد جمع خريفة : الجميلة . عرب : معجبة بنفسها .
(٦) كتب : قريب .

تزهى بجملها زهو الجميلات للمعجبات بحسنهن. ويقول إلهن يطلون بحوافرها بلادا بعيدة يذلّونهن تذلّلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها واتقادت إلينا اتقادا . وجمع الحافظ التسي فيه كتابا سماه : هراح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح .

(ب) شعراء المهجاء

المهجاء قديم فى الشعر العربى ، وكان فى الأصل لعنات بصيها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلى ، فماترجعون من حروبهم حتى يسلّ شعراؤهم على أعدائهم ألستهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال المهجاء فى العصر الأموى على لسان الفرزدق وجريز إلى ما يشبه مناظرة حادة فى بيان فضائل ومساوئ عشيرتهما وقبيلة تميم التى كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التى كان يدافع عنها جريز . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسى الأول من المهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوئ القردية والاجتماعية فى المهجوع مع التهوين منه والإيلام إيلاما شديدا ، وطار شر كثير من هذا المهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائرى بكر بن حماد التاهرتى وهو أول شاعر جزائرى له أهاج مختلفة ، وسترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتى فى القرن الثالث الهجرى ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالى تاهرت على البحر المتوسط ، فقال بأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها^(١) :

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| نأى النوم عنى واضمحلت عرى الصبر | وأصبحتُ عن دار الأحبة فى أسر |
| وأصبحت عن تاهرت فى دار غربة | وأسلمنى مر القضاء من العُذر |
| إلى تنس ذات النحوس فإبها | يُساقُ إليها كل متفص العُمر |
| بلاد بها البرغوث يحمل راجلا | ويأوى إليها الذئب فى زمن الجُر |
| ترى أهلها صرعى ومن أم يلدّم | يروحون فى سكرٍ ويغدون فى سكر |

فالنوم بُعد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كئده فى أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى تنس ذات النحوس التى لا يدفع إليها إلا متفص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتسلأ عرصاتها صيفا ، أما أم يلدّم أى الحسى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإبها لتخدر عتولهم وكثنتهم فى سكر دائم . ولمحمد بن الحسينى الطنبى فى أحد قصوده^(٢) :

(٢) الجذوة للمحمدي ص ٥٠ .

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٤٧ .

وَوَغِدَ إِنْ أُرِدْتُ لَهُ عَقَابًا عَفَى عَنْ ذَنْبِهِ حَسْبَىٰ وَدِينِي
يَوْمُنِي بَنِيَّةً مُسْتَطِيلَةً وَهَلَفَتَنِي بِصَفْحَةٍ مُسْتَكِينَةٍ
وَقَالُوا قَدْ هَجَاكَ فَقُلْتُ كَلْبًا غَوَىٰ جَهْلًا إِلَىٰ لَيْثِ الْعَرِينِ

وهو يقول عن خصمه إنه رَذُلٌ دَنِيءٌ إِنْ فَكَرْتُ فِي عَقْلِهِ عَفَا عَنْ ذَنْبِهِ شَرَفِي وَدِينِي ،
يَأْكُلُ لَحْمَهُ غَائِبًا وَيَلْقَاهُ خَاضِعًا ذَلِيلًا ، وَمِثْلُهُ إِلَّا مِثْلُ كَلْبٍ يَعُودُ إِلَىٰ أَسَدٍ فِي عَرِينِهِ وَمَأْوَاهُ .
وَكَانَتْ أَسْرَةُ هَذَا الشَّاعِرِ قَدْ هَاجَرَتْ إِلَىٰ قَرْطَبَةِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَمِنْهَا عَبْدُ الْمَلِكِ الطَّبْنِيُّ
الْمُحَدَّثُ جَلِيسُ النُّصُورِينَ أُمِّي عَامِرٌ ، وَيُرْوَى أَنَّ الْمَنْصُورَ عَدَا عَلَىٰ شَخْصٍ يُسَمَّى الْخَذْلَى فِي
مَجْلِسِهِ وَضَرَبَهُ ضَرْبًا مُوجِعًا ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ مُتَشَفِّيًا فِيهِ وَهَاجِبًا (١) :

شَكَرْتُ لِلْعَامِرِيِّ مَا صَنَعَا وَلَمْ أَقْلُ لِلْخَذْلِيِّ لَمَّا لَمَعَا
لَيْثُ عَرِينٍ عَدَا لِعَزَّتِهِ مَفْتَرَسًا فِي وَجَارِهِ ضَبْعَا
وَوِدِدْتُ لَوْ كُنْتُ شَاهِدًا لَهَا حَتَّى تَرَى الْعَيْنُ ذَلِكَ مَنْ خَضْعَا
إِنْ طَالَ مِنْهُ سَجُودُهُ فَلَقَدْ طَالَ لِعَبْرِ الْجُودِ مَارِكَمَا

وهو يشكر العامري ولا يقول للخذلي : لَمَّا أَمَى أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَكَ ، وَيَصُورُ الْعَامِرِيُّ لَيْثَ
عَرِينٍ اقْتَرَسَ ضَبْعًا فِي وَجَارِهِ أَوْ يَتَنَ وَمَأْوَاهُ ، وَيَقُولُ لَيْثُهُ كَانَ حَاضِرًا لِيَرَى مَا رَكِبَ الْخَذْلَى
مِنَ الذِّلِّ وَالْهَوَانِ ، وَيُرِيدُ بِهِ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا رَكِعَ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ عَاهَرِ الْخُلُوعَ ، وَهُوَ
هَجَاءٌ مُقَدَّحٌ . وَكَانَتْ الْجَزَائِرُ وَغَيْرُ الْجَزَائِرِ مِنَ الْبِلَادِ الْمَغْرِبِيَّةِ تَعْتَنِقُ مَذْهَبَ الْأَشْعَرِيِّ غَالِبًا ،
وَيُلَاحِظُ مِنْ تَغْلُغْلِ عَقِيدَتِهِ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ نَزْرَ ابْنِ مَرْزُوقٍ الْخَطِيبِ الْجَزَائِرِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ
٧٧١هـ / ١٣٧٠مَ يَغْضَبُ حِينَ سَمِعَ قَوْلَ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي كِتَابَةِ مَعْزُومٍ بِأَهْلِ السَّنَةِ بَلَّ هَاجِبًا
هَجَاءً قِيحًا قَاتِلًا :

وَجَمَاعَةٌ سَمَوْا هَوَاهِمَ سَنَةٍ وَأَرَاهِمُ خُمْرًا لِعَمْرِي مَوْكَفَةٍ
قَدْ شَبَّهُوا بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شُعَ السَّوَرِ فَضَمُّوا بِالْبَلْكَفَةِ

وهو يقول إِنْ جَمَاعَةٌ سَمَتْ هَوَاهَا الَّذِي تَعْتَنِقُ سَنَةً ، وَهِيَ خُمْرٌ ، عَلَيْهَا وَسْكَفُهَا أَوْ
بِرَادْعُهَا ، إِذْ شَبَّهُوا اللَّهَ بِخَلْقِهِ ، فَقَالُوا إِنَّهُ يُرَى مُتَسَتِّرِينَ بِالْبَلْكَفَةِ أَوْ يَقُولُهُمْ إِنَّهُ يَرَى بِالْكَافِيَّةِ
حَتَّى يَنْفُوا عَنْهُ التَّشْبِيهَ بِالْأَدَمِيِّينَ ، وَرَدُّ عَلَى الزَّمْخَشَرِيِّ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَزَائِرِ وَغَيْرِهِمْ ،
وَرَدُّ ابْنِ مَرْزُوقٍ الْخَطِيبِ مَعْنًا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ جَمِيعًا قَاتِلًا :

(١) الذخيرة لأبي نعيم تحقيق د. إسماعيل عيسى ٥٤٣/١ .

وجماعة عُرِفَتْ لمعمرى بالسَّفة
وتمسكت بضلال أهل الفلسفة
عدلت عن النهج القويم فَلَقَبَتْ
غَذِيَّةٌ وعدولها عن معرفه
صَلَّتْ وقالت لن يُرى ربُّ الزُّرى
يوم الجزاء وألْزَمَتْ نَفَى الصُّفة
وكذلك أسلمت الأمور لنفسها
هيهات تنفذ نفسها من مثله
كيف السبيل لصرْفها عن غيها
والعدل يمنع صرْفها والمعرفه

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جلُّ شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينسب على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هي عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنفاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادئ أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثماني ونلتقي فيه بلبن على الفتى الحفى فى القرن الثلى عشر الهجرى ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نصبا حباثل مكرهم وتعرضوا
بسهامهم للنجم فى كيوينة
من كل أهوج أرغى الأخلاق قد
أزى على فرعون مع هامه
أجلاف هذا المصر حقا لو رأوا
حسان ما جنحوا إلى إحسانه
إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم
فالدرد ليس يعز فى أوطانه

وهو يقول إنهم نصبا حباثا مكرهم وأرسلوا على سهام هجائهم ولكن قى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان فى بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرّون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فى روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمايرهم ، فالدر لا يُعرف فضله فى وطنه . وكان ولاية العثمانيين يطمشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبي على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسى ، وهو حرى بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتى الذى مر بنا ذكره .

بكر^(١) بن حماد التاهرتى

تقع تاهرت مسقط رأس حماد فى الجنوب الغربى من مدينة الجزائر ، ومر بنا فى غير هذا

والحديث المبارك إلى ١٥٣/٢ . وقد جمع ديوانه وشرحه وقدم له محمد بن رمضان شارش باسم الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتى .

(١) انظر فى ترجمة بكر رياض النفوس للملكى ومعال الإيمان للباغ ٩٢/٢ والأزهار الرهاضة لسليمان البارونى ٧١/٢ وما بعدها وتاريخ الجزائر فى القديم

للموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يحتق مذهب الخوارج الإباضية ، وأنته جموع الخوارج من كل مكان في المغرب . وكان أئمة هذه الدولة - على شاكلته - يفسحون لأهل السنة والمعتزلة في مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن ياضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بُشّتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكه مبكرة ، كما شُغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل في سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد الشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل في رحلته حتى البصرة وفيها تلمذ على مسدد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي ، وسيمنى فيما بعد بإذاعته في الديار المغربية . وتلمذ على شيوخ البصرة في اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابي ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته في الشعر ، ففسحوا له في مجالسهم ، وتعرّف على دعلج هجاء الخلفاء : المعتصم العباسي وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائري مدح المعتصم وأجزل له في العطاء مما جعله يخاصم دعلجا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أبهجو أمير المؤمنين ورّهطه ويمشّي على الأرض العريضة دِغِيلُ
أما والذي أرسى ثيبرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تُزْزَلُ
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهْمُ فيعفو أو يفسول فيفعل

وكأنه في الكلمة الأخيرة من أبياته يحرّض المعتصم على الفتك بدعلج ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتله يا بكر ، وكأنا أعجبت كلمة أئى تمام - حبيب بن أوس - فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أئى تمام قائلا :

وعاتني فيه حبيبٌ وقال لي لسانك محذور وسُكٌ يقتلُ
وإئى - وإن صرّفت في الشعر منطقي - لأنصف فيما قلتُ فيه وأعدلُ

ولم يطل ببكر المقام في بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر في القيروان عاصمة المغرب الأدنى (الإقليم التونسي) واختلف إلى حلقات شيخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة في فقه مالك الذي كانت شهرته تدوى في المغرب ، والثاني محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعي وكان قد تلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ في البصرة مسند مسدد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب في القيروان ، وقد نال في دراسته للحديث النبوي شيئا من

الشهرة في زمنه ، إذ يقال إن الحافظ الأندلسي الكبير قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠ هـ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتّاب المذكورين قفا أو هما معا .
 وكان بكر مع تدرسه الحديث النبوي يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوما الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٩٠ هـ) في قصره حاملا إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواربه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكذب بكر ليأتا في رقعة ، وتلطف إلى الحاجب في إيصالها إليه ، وفيها :

خُلِقَ الفسوقى للرجال يَلِيَّةُ فهنّ موالينا ونحن عبيدا
 إذا ما أردنا الورْدَ في غير حينه أتنا به في كل حين خدودها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصرّة بها مائة دينار ، ولما رويها هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويشيونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها في عهد أميرها الرستمي الإباضي أبي حاتم يوسف بن محمد بن الأملح (٢٨١ - ٢٩٤ هـ) ويدور أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له في مدحه :

أبا حاتم ما كان ما كان بِفَضَّةٍ ولكن أتت بعد الأمور أمور
 فأكرهني قومٌ خشيتُ عقابهم فداريتهم والدائرات تدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة في المغرب الأقصى وينال جوائزهم ، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبى نداء ربه سنة ٢٩٦ للهجرة .

وديون بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاول استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تتناول من أغراض الشعر العربي المهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والثناء ، وذكر في المهجاء المقطوعة السالفة في دجيل التي يخرى فيها الخليفة المعتصم على الفتك به . ويدور أنه لم يكن مسلم من لسانه أحد ، حتى المحدثون ، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧ م قتالا :

| | |
|--------------------------------|--------------------------|
| لقد جئت الأتلام بالخلق كلهم | فمنهم شقّ خائب وسعيد |
| أرى الخير في الدنيا يقلّ كثيرة | وينقص نقصا والحديث يزيد |
| ولابن معين في الرجال مقالة | سبّال عنها والمليك شهيد |
| فإن بك حقا قوله فهو غيبة | وإن بك زورا فالتقصا شديد |
| وكل شياطين المهاد ضعفة | وشيطان أصحاب الحديث مرید |

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمتهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير فى الدنيا أخذ فى القلة والنقص ، والحديث فى ذلك يطول . ويتعرض ليحى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هباً بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم عُص رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راوياً للحديث يكون مغتاباً له أو يكون قد أولاه شرفاً رفيحاً ؟ ومعاذ الله أن يكون يحى بن معين قد زور على راو صدوق للحديث تجريحاً أو اتهاماً بسوء ، ومعاذ الله ثلثة أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحى بـ شيطان مريد أو خبيث للمحدثين ، نصر الله وجه يحى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حطان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعته له يقول (١) :

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
بلى لأذكره حيناً فأحببته ألوفى البرية عند الله ميزانا

وسمع - أوفى - البين بكر بن حماد السنى فاستشاط غضباً وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعارض البين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريواً مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام لبين مدى جنابة ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول :

قل لآين ملجم والأقدار غالبية هدمت - وملك - للإسلام أركانها
قلت أفضل من يمشى على قدم وأول الناس إيماناً وإسلاماً
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتبلياً
صهر النبى ومولاه وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهاناً
وكان منه - على رغم الحسود له - مكان هرون من موسى بن عمران
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت سبحان رب الناس سبحاناً
أشقى مراد إذا عدت عشائرها وأخسر الناس عند الله ميزاناً
يا ضربة من شقى أورثته لظى مخلداً وأتى الرحمن غضباناً

وبكر يصور فضائل الإمام على لجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركناً ضخماً من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيماناً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . ولته ليفرق عليه الدمع مدراراً ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قاتله مراد وأخسر البرية ميزاناً عند ربه ، وبإلها ضربة أوطنة تستعلي نار جهنم خالداً فيها مع غضب الله عليه غضباً شديداً . وواضح أنها أهجية مريوة لسنى ضد قاتل

(١) انظر كتابنا : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن

حطان ص ٣٠٧ .

الإمام علي . ولعل في كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما يتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب .

سعيد^(١) النداسي

هو سعيد بن عبد الله النداسي الأصل التلمساني موطناً ومنشأً ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته ، ولابد أن نشأ مثل لداته يعني بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » في نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان في شبهة تغلي دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد النداسي ، وكثيرا ما كان يذكي ثورة التلمسانيين بشطائيا من شعره الشعبي ، وأحيانا يفرغ إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوفه كثيرا من مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجن سجن محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد النداسي بمحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن النداسي مدحه بفصائد شبيهة كثيرة وإنه أعاد عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد ، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقره ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع في الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلّص كثيرا مما كان منها شمالا يد الإيبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدا النداسي يتغنى طويلا بمدائحه في شعره الشعبي ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه ، حتى يقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفى الشاعر في عهده بسجن سجن ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد النداسي سواء الشعر الشعبي والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والنزل

(١) انظر في ترجمة سعيد النداسي وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ راجع بونار (طبع الجزائر) .
وراجع ديوان النداسي في الأدب الشعبي لعمد بخروشة .

ونظر في الدولة العلوية وعلاقة النداسي بها الاستقصا في مواضع مختلفة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء - قبل مبارحته تلمسان - للعثمانيين ، ومن قوله في وصف أهاجيه :

كأن قسوانى الشعر منى جنادل وكف الزمان منجنيق بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبة لحاكم تلمسان العثماني ، إذ سلب جنده على بعض أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم وذريعتهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوغ لهم ذلك في فتوى جائرة ، فصب عليه وعلى العثمانيين في أهجته سيلط هجائه غاضبا غاضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل قوله :

وأكبر شئ أفسدته أكفهم تلمسان عمن الغرب علما وإيمانا
وكانت لهم لما أرادوا فسادها أرادل منهم كالبطارق أعوانا

وهو يقول إن أكبر شيء أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أرادل كبطارقة النصارى العتاة ، وبلغت للفقهاء ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سولت للحاكم العثماني جريمته الآثمة فيقول :

فقل لابن زاغو للضلال أئمة تدبر - لحاك الله - ما قال مولانا
ولا تركوا - والركن منك سجيئة - كنتك لم تسمع من الله قرآنا
قلت فحول العلم صبرا ولم نزل على عهدك المعلوم فى الزينغ هيمانا
فأبمت بالفقوى نساء كريمة وبمت بالفقوى المضلل ولدانا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى الأرض ، وبتجه إليه قائلا : تدبر - فبحك الله - ما قال الله فى كتابه : ﴿ ولا تركوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبس الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزينغ والضلال ، لقد أبمت نساء وجعلتهن تكلى فائدات لأزواجهن الذين يعملونهن باقيات عليهم نادبات وبمت أطفالا صفارا لا تخاف الله ولا تشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء وما حملوا من رهوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكسب التوحيد من مثل السنوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويهود إلى تصوير فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اخلوا بالقتل نَزَعْ غيرهم
تعالوا تروا ضَيْلٌ في زِي ناسك
وقد قَدْ ذاك الثوب من كل موضع
إذا شيم منه الخير فالبرق كاذب
ولا رَقْ ذاك القلب من ولا لانا
يطول من ثوب الضلالة أُرْدانا
ومرُّ ببصار الخلائق عَرَبنا
وإن حال من الرعد يهلك بَلْدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لاجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكُنْما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالجحر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطول من ثوب الضلالة أُرْدانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قَدْ وشَقَّ ومزق حتى أصبح - رغم لبسه له - عربنا ، وحتى لو رُؤى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أُرعد فهلاك للبلاد والعباد . وبهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قاتلا :

أيا آلَ دين الله مالى أراكمُ
أما تذكرون الأهل والزمن الذى
نيامًا وكان الطَرْفُ من قبلُ يفظنا
عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرنا
وهلا سألتم عن يتامي تفرقتُ
فقل لاین زاغور رأس كل خطيئة
قَلِي تَحْبسون الفتنك بالأهل سلوتنا
تأهب لزور الله فالحينُ قد حانا
إلا إنك الدجال للناس فتنة

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل وينودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويَتَموا أبناءهن وتفرقوا في البلدان مِرْقًا قاتنا وذكورا ، ويقول لاین زاغو رأس هذه الخطيئة قَلِي ويفضا لك حين تتخذ الفتنك بالأهل سلوتنا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبلي ، وإن فاته أن يحمل السلاح فى وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامى سهاما بسلطانها على جباه العثمانيين ويقذفها على رؤوسهم وصدورهم معاولا - بكل جهده - أن يستير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذهبهم نكالا ووبالا .

الشعراء والشعر التعليمي

مرُّ بنا فى الجزء الخاص بالمصرع المباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيأ لاستحداث الشعر التعليمي الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كيلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك القرس وأيضا له منظومة في الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم في هذا الفن التعليمي الأصمعي في الملوك والأمم البائدة كما نظم إبراهيم الغزالي منظومة طويلة في الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسي الأول رسخ هذا الفن في الشعر العربي وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلاح أبان وأصحابه في العصر المذكور على أن يُنظَّم من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربي أنما ومن أكثرها قبولا للتغير في تقاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية . وأخذت الأقاليم العربية تسهم في هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكرر علماءها ، إذ يرون أن يضموها في علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع في هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تأخر قليلا أو كثيرا ، ونلتقي في القرن الخامس للمجرى ببلن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م وله أرجوزة في الفلك والتنجيم ، ويلقنا في القرن السابع بحسب^(١) بن عبد المطلب المولود سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ في بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو الشعر على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبي في الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدّر لإقراء الطلاب في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وكان يقرأ لهم ألفيته التي نظمها في النحو ويفسر آياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك ومازال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة في النحو . ونمضى في القرن السابع ونلتقي بلقي إسحق^(٢) إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م وقد نظم في الفرائض (علم الميراث) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسية ، وهي أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجبية الوضع لم يصنف في فيها مثلها وقد طارت شهرتها في الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . ومن كثر نظمهم في الشعر التعليمي ابن^(٣) مرزوق الحنفيد وله ألفية في القراءات في محاذة ألفية الشاطبي : حرز الأملى ، وأرجوزتان في علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة في تلخيص كتاب المتناح في علوم البلاغة للفروني ، وأرجوزة في الميقات أو الفلك

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته في الدياج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحدي أبو النور

٢٧٤/١ ونسخة الرواد لحسب بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته في البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع

تاريخ الخلف برجال السلف للحنافى ١٢٨/١ ونيل

الانتهاج بطريق الدياج لأحد بها ص ٣٠٥ .

في ألف وسبعمائة بيت سماها المفتح الشافي ، وله أرجوزة في تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة في نظم كتاب الجمل في المنطق للخونجي . ومن ناظمي الشعر التعليمي في القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة في الأسطرلاب كانت ألفية هذا العلم في العهد العثماني ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بنية الطلاب في علم الأسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الأسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمي هذا القرن أحمد^(٢) بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة في علم التوحيد أو علم الكلام استهلها بقوله :

الحمد لله وهو الواحد الأزل سجلته جل عن شيء وعن مثل

نظمها في مقبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسي فأعجب بها وشرحها ، وقد دوت شهرتها في الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسي أرجوزة في نفس العلم لتلميذه محمد^(٣) بن عبد الرحمن الحوضي، سماها واسطة السلوك انتحتها بقوله :

الحمد لله الذي دلّ عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه

وبعد فالتوحيد أشرف العلوم وهو أساسها الذي به تقوم

ولابن^(٤) زكري معاصرها المتوفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أرجوزة في نفس الموضوع شرحها الورتلاني . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب - كما قلنا في غير هذا الموضوع - كانت تحتق مذهب الأشعرى في قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضي في القرن العاشر الهجري ونلتقي بالفقيه أحمد^(٥) بن الحاج البجائي المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسي كتابين في علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى في أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمد لله الذي عرفنا بنفسيه وبالمهدي شرّفنا

وبعد فالمقصود من هذا النظام

من غشٍ تبديل ولا تغيير سوى اختلاف اللفظ والتعبير

وله منظومات في مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز في علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخضرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(١) نظره في البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثاني لسعد الله ١٠٩/١ وما بعدها .

(٢) راجع تعريف الخلف ٣٨/١ وسعد الله ٨٤/١ .

(٣) نظره في البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ٩٠/١ .

(٤) نظره في ابن زكري البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ٨٥/١ .

(٥) راجع ابن الحاج في البستان ص ٨ - ٢٤ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولمحمد بن علي يهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء^(١) :

سَنَ يَتَنَحَّ الْعِزُّ بِرُضْمَنْ هِمَّةُ بِالضَّمِّ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَرَى عَجَبَا
وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ تَهَيَّيْنِ مِنْهُ يَفْتَحُ بَابَ الْكِتَابِ الْمَوْتِ قَدْ نَصَبَا
وَيَخْفِضُ النَّفْسَ لَا يَتَغَيَّرُ لَهَا شَرَفَا بِكَسْرِ شَهَوَاتِهَا يَنَالُ مَا طَلَبَا
بَذَا يَجْرُلُهَا التَّفَنُّعُ مِجَاهِلَهَا فَإِنْ عَصَتْهُ رَمَى بِسَهْمِهِ عَطَبَا
وَأَجْزَمَ عَلَى اللَّهِوْ نَفْسًا طَالَمَا اضْطَرَّتْ وَبِالسَّكُونِ يَكُونُ الْجَزْمُ خُذْ أَدْبَا

رواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الآيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة نسي اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن أجيروم الصنهاجي . وملتقى بأحمد^(٢) البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ م والتوفي سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، وما يتعلق بالقرآن الكريم نظم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض (علم الميراث) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسية في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفي ببجاية سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفي سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقي أو مغربي إلا نظمته ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعزيرين عبد السلام والتفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسوسى وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرى بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأعخرى أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد^(٣) الرحمن الأعخرى

وُلِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَخْضَرِيُّ فِي بَنْطِيُوسَ مِنْ قَرْيَ بِسُكْرَةَ فِي الزَّوَّابِ حَوَالِي سَنَةِ

(١) راجع ترجمته هند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعدها

و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ وما بعدها .

(٢) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .

(٣) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف

٥٢٢/٢ .

١٠٢٠ هـ/١٦١١ م وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكي . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقره من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وأدب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد ترجموه برسوخه فى المعقول والمنقول ، وظل يربى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألف مجموعة من المتن يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سحنون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرة البيضاء فى الحساب وعلم القرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض (علم الميراث) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونصَّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخضرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حين الورتلاى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخضرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقرئوبى وسمى منظومته الجواهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعنى والبيان والبديع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمنهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخضرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المروتن فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| الحمد لله الذى قد أخرجنا | نتائج الفكر لأرباب الحجا |
| وحطَّ عنهم من سماء العقل | كل حجاب من سحب الجهل |
| حتى بدت لهم شمس المعرفة | رأوا مخدراتها منكشفه |
| نعمه جلَّ على الإنعام | بنعمة الإيمان والإسلام |
| من خضنا بخير من قد أرسلنا | وخير من حاز المقامات العُلا |
| عمدٌ يبد كل مقننى | المربى المشامى المصطفى |

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والشاء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين التالى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شمس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إتمامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربي القرشي المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلًا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالي خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحح الأفكار ويهتدى فيها إلى الصواب . ويضع عنوانًا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراك مفرد تصورًا عِلْمٌ ودَرْكُ نسبةٍ بتصديقٍ وُيْمٌ
وقَدُمُ الأول عند الوضع لأنه مقدَّم بالطَّبع
والنظرى ما احتاج للتأمل وعكسه هو الضرورى الجَلَى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورًا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقًا مثل « العالم حادث » نسبة الحادث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحادث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفي كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقيني مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أو وهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بداهة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويكمل الأخضرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالة اللفظ على ما وافقه يدعونها دلالةً المطلقه
وجزئيه تضمنا وما لزمت فهو التزامٌ إن بعقل الترم

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفرادهِ . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُ حكمنا على المجموع ككل ذلك ليس ذا وقوع
وحيثما لكل فردٍ حكمًا فبه كليةٌ قد علما
والحكم للبعض هو الجزئيه والجزء معرفته جليّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون »

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد في المجموع كقولك : « كل إنسان قليل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزء ما تركب منه ومن غيره كالسوار والخيوط للحصير والمبتدأ والخبر للجملة الاسمية . ويعقد فضلا للتعريفات والحدود قائلا :

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| معرّفٌ إلى ثلاثة فَمِمَّنْ | حدٌّ ورسمٌ ولفظٌ عَلِمَ |
| فالحدُّ بالجنس وفصلٌ وقصا | والرسم بالجنس وخاصةٌ معا |
| وناقص الحدُّ بفصلٍ أو مَعَا | جنسٌ بعيدٌ لأقربٍ وقصا |
| وناقص الرسم بخاصة فقط | أو مع جنسٍ بُعِدَ قد ارتبط |
| وما بلفظٍ لديهم شهرا | تبديل لفظ يردف شهرا |

والأخضري يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌّ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التي لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أي ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهي صفة غالبية غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسائيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظي أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضري للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمتهى الوضوح ومتهى الدقة في الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد في طليعة المجيدين لنظم العلوم لا في الجزائر وحدها بل في العالم العربي جميعه . وقد أكتب كثيرا على شرح هذا المتن البديع في علم المنطق فشرحه سعيد قدورة في الجزائر وشرحه في مصر الملوي شرحين كبيراً وصغيراً ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٦ م وطبع مع تقرير عليها للشيخ محمد الأنجلي سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م . وشرحه الشيخ أحمد الدمهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضري سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م وهي صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرّ بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخليل بن إسحاق المصريين في الفقه المالكي .

الفصل الخامس طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يُعَدُّ الغزل من أهم الموضوعات التي شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بماطقة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحمران ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكثرتها الفردوس الذي حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادي يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويراً حسباً صادراً فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادي ، ونوع عذري طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذي يهتلى بناره في دخائله وبلوغاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامناً إلى رؤيتها ظمناً متصلاً متضرعاً ، وكثتها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائماً يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثاني من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائري مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهنشلي^(١) :

يشكو هواك إلى الدموع نَيْسٍ لم يبق فيه للمراء نَيْسٍ
لولا الدموع تحرقَتْ من شوقه يوم الوداع قِلبكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودَّع صاحبه ولم يمد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يمد فيه إلا نيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرق بنار حبه قلبها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الطاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حاتم وسمعها تترنم وتنوح ، فتأثر وتشد^(٢) :

(٢) نفس المصدر والصيغة .

(١) نموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .

لَوَاجِدَةٌ وَجَدَى حَمَامٌ أَيْكَةً
نَشَاوَى وَمَا لَتْ بِخَيْرِ رَقَبِهَا
أَعِيدَى حَمَامَتِ اللَّوَى إِنْ عَلِمْنَا
تَمِيلُ بِهَا مَيْلَ الزَّيْفِ غَصُونَهَا
بِوَالِكٍ وَمَا غَاضَتْ بِدَمْعِ عَيُونَهَا
لَتَجُوكَ أَمْسَالًا يَمُودُ حَنِينُهَا^(١)

ويتساءل النهشل أهدى الحمام تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتمايل بها ميل الزيف أو السكران المتشى ، وإن الحمام نفسها لنشاورى سكارى وما شربت خمرا ، وإنما لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعبد بكاءها ونواحها فإيها تثير فيه نفس الشجر وما يعتاده من الحين والشوق . ولتلقى بلبن قاضى ميلة وقصيدته الغالية التى نوه بها لبن خلكان والى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بنزل حيوارى على طريقة عمر بن لى ريمة أبدع فيه كل الإبداع ، ونفتطف منه الآيات التالية^(٢) :

وَلَمَّا التَقِينَا عَحْرَمِينَ وَسَيْرُنَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالْمَطَى كَتَمْنَا
فَقَالَتْ أَمَا مَنَكُنْ مَنْ يَتَرَفُّ الْفَتَى
أَرَاهُ إِذَا سَيَرْنَا يَسِيرُ حِذَاءَنَا
فَقُلْتُ لَتَرِيْنِيهَا أَبْلُغَاها بَلْنَى
وَقُولَا لَهَا بِأَمْ عَمْرُو أَلَيْسَ ذَا
وَفَى عَرَنَاتٍ مَا يَخْبِرُنَنِي
فَأَوْصَلْنَا مَا قُلْتَهُ قَبِئْ مَن
وَقَدْ تَنَذَرُ الْإِحْرَامُ أَنْ وَصَالَنَا
بَلَيْكُ رَا وَالرَّكَائِبُ تَنْفِي^(٣)
غَوَارِبُهَا مِنْهَا مَعَالِيسُ رُغْفُ^(٤)
فَقَدْ رَلْبَنِي مِنْ طُولِ مَا يَنْشَوُفُ^(٥)
وَنَوَقَفُ أَخْصَافُ الْمَطَى فَيَوْقِفُ^(٦)
بِهَا مَسْتَهَامٌ قَالَتْ تَنْطَلِفُ^(٧)
بُنَى وَالْمَنَى فِى خَيْفِهِ لَيْسَ تُخَلْفُ^(٨)
بِعَارِفَةٍ مِنْ عَطْفِ قَلْبِكَ أَسْتَفُ^(٩)
وَقَالَتْ: أَحَادِيثُ الْعِيَاةِ زُخْرُفُ^(١٠)
حَرَامٌ وَلَمَّا عَنْ مَزَارِكُ نَصْدَفُ^(١١)

ولبن قاضى ميلة يذكر التفاهه بصاحبه وهما عحمرمان يلبيان ربهما قاتلين لييك اللهم لييك ، وكل منهما يركب مطية مجهزة كبقية مطايا الحج والعرق يسبل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبه ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقف ، فقال لصاحبتها وقد دنا منهما أبلغاها بلنى هاتم بها ، وقولا لما إتنا سنترول منى ، وينبى أن تحقق لى فى خيف

- (١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطعه .
(٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأُسُودَج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص ٥٣٣ .
(٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . نصف : نسر فى الطريق على غير هدى .
(٤) معاليس جمع معلى : الألف . رُغْفُ جمع راعف : تسبل . الغارب فى البحر : ما بين الشام والمغرب .
(٥) ينشوف : يشرف وينظر .
(٦) أخصاف : جمع خف وهو للبحر كالخافر للغرس .
(٧) ليريهما : المائلين لما فى السن . مستهام : هاتم أى مشغوف حبا .
(٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحاج فى أيام التشريق . خيف منى : منعطرها .
(٩) عارفة : الجميل والإحسان . عرقات : جبل به موضع وتوقف الحاج .
(١٠) العيافة هنا : التفاضل .
(١١) نصف : تعرض وتسبل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقاة ، وحدناهما عنه فلبست
وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتناول مزخرف . ولنا حرمان والإحرام يحرم وصلنا ،
ولمى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قدنا للجرمات لبخبرك بأن كلامنا
سيقننه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغريبي فى كبله « عنوان الدراية » غزليات
طريقة لشعره بجاية ، منها قول^(١) محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بلّى من لا أرى فى الموى سوى محياه شمساً أو سناً فَنَسَرَ بَرَقَا
ولا خمر إلا من لَمَاهُ ولَحْظِهِ ولا غُصْنَ إلا القَدْ لا ما ارتقتْ وَرَقَا
لئن لدغْتَ قلبي عقاربُ صُدْغِهِ فربفنه التَّرياقُ لى وبها أَرْقَى
تعلّست من عينيه عشقى لحسنِهِ فَلِلَّهِ الحَظُّ تعلّنى العِشْقَا
ولو أن هاروتاً رأى سحرَ طَرْفِهِ أَقْرُ بأن الحر من لحظه اشْتَقَا
فيا طامعاً فى الوصل منه نسلُ حلٍ سمعت بأشراكٍ تُصاد بها العِشْقَا

وهو ينوه فى أول الأبيات بهجمال صاحبة التى يرى وجهها شمساً وضوء نغرها برقاً ،
ولا خمر مسكرة إلا من سمره شفتيها ولحظ عينيها . ولاحسن غصن إلراشاة قدّها
لا ما ارتقت الورقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لئن لدغت عقارب شعرها المتلوى
على صدغها فإن ربفتها الترياق والبلسم الذى يرقى به لشفاها ، ويذكر أن جمال عينيها هو
الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى القرآن الكريم
رأى سحر عينيها لأقر بأن السحر مشتق منه . ثم يُلقي اليأس فى قلوب من يطعمون فى
وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان
يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأرسى وله غزليات رقيقة ، وسترجم له عما قليل .

ونهضت الدولة الزيرية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة
الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله^(٢) :

نظرت إليك بمثل عَيْنِي جَوْدَرٍ وتبست عن مثل سِنْفِي جَوْدَرٍ^(٣)
عن ناصح كالدر أو كالبرق أو كالطلع أو كالأحسان مؤشّر^(٤)
تجرى عليه من لَمَافَا نُفْطَةٍ بل خمرة لكنهما لم تُعَصَّرَ^(٥)

والقلادة .

(٤) مؤشّر : منلج .

(٥) ألسى : الشفتان . نفطة : ماء صاف .

(١) عنوان الغرابة للنرجسي ص ٣٤٢ .

(٢) الديوان ص ١١٠ وأظهر بنوة الرواد لبسى بن
خلدون ص ١١١ .

(٣) الجودر : ولد البقرة الوحشية . السط : العند

لو لم يكن خمرا سلاقا ريفها تُزرى وتلعب بالنهى لم تُحظر^(١)
وكذلك ساجى جفنها لو لم يكن فيه مهند لأخطها لم يُحذر^(٢)
لو عجت طرفك فى حديقة خدّها وأمنت سطوة صدغها المتسر^(٣)
لرمت من ذلك الحى فى جنب وكرعت من ذلك ألما فى كثر^(٤)

ابن خميس يشبه عيني صاحبه بعيني جوزف وأسناتها فى ثغرها بعقدى جوهر ويقول إنه
نصر ناصع البياض كالدر أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كرمه الأتھوان الأبيض
الملج الأوراق كأنسان هذا الثمر المفلجة ، وهو ثمر يجرى عليه من شتى صاحبه نطفة
(قطرات) سائلة من الريق بل خمرة ، وإن لم يعصرها خمرا ، -خمرة تلعب بالعقول ، غير
عمره ، ولو لم يكن فى فاجر جفنها سيف لحظها يحميها ما حذرت ، ولو أتيح لك أن تعطف
طرفك فى خدّها وجمالها المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأمنت بطش عقرب صدغها المتسر
لنعمت بجنة رائعة ، ونهلت من لآلئها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس
فى هذا الغزل قائلا :

طرفك وهنا والنجوم كأنها حصياء ذر فى بساط أخضر^(٥)
يضا إذا اعتكرت ذواب شرها سقرت فازرت بالصباح للسفر^(٦)
طرحت غلاتها فقلت سبكة من فضة أو دمية من مرمر^(٧)
منحك ما منحك بقطنا فلم تخلف مواعدها ولم تغير^(٨)
هاجت بلابل نازح عن إلفه متشوق ذاكى الحشا متسر^(٩)

وهو يقول إن صاحبه طرفه أو زارته فى منتصف الليل والسماء تشر لآلئ نجومها فى
بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أحتت بكافة شرها وكشفت عن وجهها أوزت بالصباح
المضى الجميل ، أما إذا خلعت غلاتها فثما تدر كأنها سبكة من فضة أو دمية من مرمر ،
ويقول إنه لم ير شيئا منها يقطان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق
تنقد أحشائه وتشتمل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحہ يصف فيه
لوعات حبه وما تكن ضلوعه من مواجعه ، وقد يحمله غزلا صوفيا بدما . ولمحمد^(٩) بن عمر
المللكشى البجائى المنسب إلى مدينة الجزائر والتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة
٧٤٠ للهجرة قوله :

- (١) سلاقا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .
(٢) ساجى : فاجر . الهند : السيف .
(٣) عجت : عطفت .
(٤) رمت : نمت . كرت : نهلت .
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذواب : ضفائر . سفرت :
كشفت وجهها .
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .
(٨) بلابل : حوم وشجون . متسر : متقد .
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رَضًا نلت ما تَرْضَيْن من كل ما يُهَوِّى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه
قضى أَتَشْكِي لوعةَ التَّينِ ساعةً
قضى ساعةً فى عَرْمَةِ الدار وتظرى
وكم قد سألتُ الرِّيحَ شوقاً إليكم
فياربِّ حتى أَنتَ ممن يفسارُ بى
خلقتُ ولِى قلب جليدٌ على النوى
فلا توقينى موقف الذلِّ والشكرى
كفاه الذى يلقاه من شدة البلى
ولا يك هذا آخرَ العهد بالتَّجوى
إلى عاشقٍ ما يستفيق من البلى^(١)
فما حنَّ مَسْراها على ولا ألوى^(٢)
ويتجندُ حتى أَنتَ تهوى الذى أهوى
ولكن على فقد الأحبة لا يقوى

وهو يلتمس رضا صاحبه وأن لا تقفه شاكيا من حبه مثذلا ، وأن تصفح عما قد
نظن من تجبه فكفاه ما يلقي من عنة الحب ، ويسألها أن تغف ليشكو لها لوعة الين والبعد
ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقاءها ونجواها ، بل إنه يسألها أن
تغف لحظة فى ساحة الدار وتظنر إلى ما اعتراه فى عنة الحب وبلواه ، ويقول إنه يسأل
الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها
أُعت ليل معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهاوا وتهيم بها ، ويقول إن قلبه
يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلسان أبو عبد الله
محمد بن البناء ويقول يحى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من
غزله^(٣) :

عِيدٌ وَغِيدٌ وَعُودٌ وابنةُ العودِ
وشادنٌ غَيْثُ الأعطافِ من ترفِ
يَجْنِي قَمَحَ جَنابِهِ عائِهُ
لما سَأَلناه عن خَمَصٍ يَرِفُفُهُ
يَالَيْلَةَ جَمَعْتَ شَخْلِي بِهَا عودِي^(٤)
عَلَّقْتَهُ بِذَرْبِمُ فَوْقِ أُمْلُودِ^(٥)
وللجمال شَفِيعٌ غَيْرُ مُردودِ
يَحْمِيهِ بِالْبَيْضِ مِنْ أَجْفَانِهِ السُّودِ^(٦)
هَذِي الْمَدَامَةُ مِنْ تِلْكَ الْعَنَائِدِ^(٧)

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها خيات حسان والعود يترنم وابنة العود يبريد الخمر بنت
شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش فى ترف ونعيم شغف بها وبقلدها الرشيق
وكلُّها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه وعاسنها تشفع لجناياتها شفاعا لا ترد ، ويتمنى
لوارثشف من خمر ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفانها السود وغفري

(٥) شادن: ولد الطيبة. عنت: لين وناعم. الأعطاف:

الجواب. بدرتم: بدر ككل. أملود: غصن ناعم لين .

(٦) البيض: السوف .

(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

(١) عرصة الدار : ساحتها .

(٢) ألوى : عطف .

(٣) بنية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .

(٤) عهد جمع غادة : الفتاة الناعمة .

صدغها وصفحتي جيدها الجميلتين ، ويقول لهنم لاسألوهما عن خمر ريقها قالت لم مدلة
إن هذى الدامة من تلك العنايد . وينشد يحيى بن خلدون للشاعر موشحة بحكمة الصنعة
مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

| | |
|------------------------------------|----------------------------|
| بدرٌ أُرْزَرَاهُ تَبَدَّتْ فَلَكَا | قلبي ملكا |
| عيناها مع المهرى دمي سفكا | فيه اشتركا |
| قد أشبهت المها لحظا فثكا | والخال حكى |
| مسكا متمسكا على سوسان | غضٌ عَيْنِي ^(١) |
| يُهْدَى كَسِيمُ جَنَّةِ الرضوان | لِلْمُتَشْرِيقِ |

هو يقول كأنها بدر وأرزارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عيناها مع المهرى في سفك
دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشي حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على
سوسان يُبْضَغُ غُضٌّ غَطِيرٌ ، يُهْدَى كَسِيمُ الْفَرْدُوسِ الذَّكِيُّ لِلْمُتَشْرِيقِ . وللشهاب بن الخلود
غزليات كثيرة وهي تشغل في ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات
مدائحها من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله^(٢) :

| | |
|---|---|
| إِذَا الْقَمَرُ غُرْدَ فِي الْفُصُونِ | أَعَانَ الْمُسْتَهَامَ عَلَى الشُّجُونِ |
| وإن نَاحَ الْحَمَامِ يَكِي وَجَدًا | يُزِنُ سَحَابَ الدَّمْعِ الْهَوْنِ ^(٣) |
| وَقَدْ لَلَّ هَلْ أَبْصَرْتَ صَبًا | حَزِينَ الْقَلْبِ مَقْرُوحِ الْجَفُونِ |
| تَطَارَحِهِ الصَّبَابَةِ بِالصَّلَى | وَتَلْمَحِ الْأَمَلَى لِلْمَنُونِ ^(٤) |
| يَسْرُوحُ عَلَى الدِّيارِ وَسَاكِنِيهَا | إِذَا مَا التُّوقُ سَارَتْ بِالظُّمُونِ |
| وَيَكْمُ فِي حَشَاهُ الْوَجْدُ سِرًّا | فَتُظْهِرُهُ الْمَدْمَعُ فِي الْيَمِينِ |

وهو يقول إن قمرى الحمام يترنم في الفصون بتناريده يثير الشجون في قلوب المحبين ،
وحين يتوح الحمام يكي وجدا ويدرف الدموع مدرارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب
وأوصله ، ويسأله أرايت مغرما حزينا القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمينه الشوق أن
يُصْنِي صاحبه ، وما يزال يتننى ذلك حتى الموت . وترجل صاحبه مع أهلها وتسير التوق
بالظنون أو الموداج ، ويكم نار وجده وحيه في صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلة
الغزيرة . وتنمضي إلى العهد المنملي وعن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلي من مثل قوله^(٥) :

(١) غض : حديث . عين : عطر .

(٢) (٤) الصلبة : الحب والشوق .

(٥) أشعار جزائرية ص ١٣٠ .

(١) غض : حديث . عين : عطر .

(٢) الديوان ص ٣٥٧ .

(٣) مزن جمع مزنة : مطرة . المنون : الغريم .

الحبُ صعبٌ والرقيبُ أعقَبُ والدمعُ باعٌ بِذَا المَوى وَلَبَنهُ
والحبُّ يستدعي القلوبَ إلى المَوى فحَبُّهُ مَنفَادَةٌ وَلَهْفَةٌ
وبجسمي المُنْصَنِي قِصَاةٌ غَاظَلْتُ قلبَ الكُيِّبِ بِأَعْيُنٍ قَتَانَهُ
خَرَجْتُ مَعَ الْأَتْرَابِ بَيْنَ أَزَاهِرٍ فَكَأَنَّهُمَا بِسَدَرٍ تَكَلُّلُ بَنَانِهِ^(١)

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يوح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعي القلوب إلى العشق قلبيه خاضعة ولهفة وقد غاظله قِصَاة جميلة أفضته وشغفته حبا يسحر عيونها حين رآها مع أترلها الفاتنات وكثما وجهها بدر يتوج قاتمها الرشيق . والسعيد المنداسي معاصره قصيدة نبوية يستهلها بزل وبطيل فيه طولا شديدا . وهي منسوبة في كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضي وبالمثل في تاريخ الجزائر الثقافي والغالب أنها للمنداسي لوجودها في ديوانه ، وفيها يقول^(٢):

أَرَاذُ الْمَزْنَ مِنْ عَيْنِي نَزَلَ أَمْ دَمَوْعُ الشَّوْقِ إِذْ رَقَّ الْغَزَلُ^(٣)
فَبَيْنِي دَيْمَةً وَكَأَنَّهُ أَمْ شَجِبَ لِلنَّوَى مِنْهَا فَبَزَلَ^(٤)
دَعْ - عَذُول - اللَوْمَ إِنِّي شَاقٌّ رَقَّ طَبْعِي حِينَ صُنْعِي فِي الْأَزْلِ^(٥)
مَا الْمَوَى إِلَّا عَذَابٌ لِلْفَتَى أَوْ يَخْفَى إِنْ بَقِلْبَ الْمَرْءِ خَلَّ
لَا تَلْمِزْنِي دُونَ عِلْمٍ - عَاذِلْ - فَيَسْمَعِي صَحْمٌ عَمَّنْ عَاذِلْ
كَمْ دَمَوْعٍ مِنْ عَيْنِي لَتِهَمَرَتْ لِمَيُونٍ مِنْ عَذَابٍ لَا تَمَلْ
مَنْ دَعَلَنِي الْبَيْنَ وَالْدمْعُ عَلَى صَحْنٍ خَلَى وَلَيْلَ يَهْمِي وَطَلْ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المتخفية الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع للنهمرة من عينيه أهي قطرات سحب هائل أم دموع شوق تتفاطر متوالية ، وهل حقا بينه سحابة سائلة أو سيل للنوى تشق ، ويقول لعاذله لا تلمني فبقي رفيق الطبع منذ صُنْعِي فِي الْأَزْلِ ، وهل الموى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر على لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأنني وَفَرَ لَا أَسْمُك ، وكثما تخاطب حجرا أصم ، وكَمْ أَسْرَابِ دَمَوْعٍ سَالَتْ مِنْ عَيْنِي وَصَاحِبَتِي لَا تَمَلْ هَذَا

(٣) دَازِل : قطرات .

(٤) دَيْمَةٌ : مطر . وَكَأَنَّهُ : سائلة . شَجِبَ : سيل .

فَبَزَلَ : تشق .

(٥) الْأَزْلِ : القدم ، أول الزمان .

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصنّاف

تشبه به الجميلات في الطول واللين .

(٢) الديوان النحوي للمنداسي نشر محمد نجوش

ص ٨٣ . وديوانه الفصح تحقيق ربيع بوتار ص ٣١ .

العذاب . ومن دعاه الفراق والدمع يجرى على خديه وكفه مطر منصّبٌ وطلّ ما بيني بتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعره الغزل في الجزائر الأريسي ولين على وحرى أن نخصر كلا منهما بترجمة مفردة .

محمد^(١) بن أحمد الأريسي

من شعره بجاية في القرن السابع الهجري ، ولا نعرف شيئاً عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسي فقيهاً بجاية وكان اعتماد قاضيهما أبي محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبي علي بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد في كتاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ في موطنه دارساً عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وفتحت موهبته مبكرة في الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان بجاية ، وكما كان يتفنن الكتابة والنثر كان يتفنن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبي بينما كان صاحبه أبو عبد الله محمد بن الحسن التميمي القلعي يسلك طريقة أبي تمام ، كما يقول الغبريني ، وكنا يترسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبريني عن الأريسي : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير في كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبريني مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفي المطلع يقول :

| | |
|--------------------------------|---|
| ونادى خطيبُ الورق يدعو هديله | وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين ^(٢) |
| وذكر أيام الصلبة والصبا | ولذة عيش كان لي غير ممتنون ^(٣) |
| فيا ساكني نجد أطرق حيكم | وأرجع مغلوباً بصفقة مغبون |
| ويا ساكني الجرعاء إن كان عندكم | نصيب من الصبر الجميل فواسوني ^(٤) |
| تركت فؤداي عند خيمة زينت | وما سحر عينيها على بمأسون |
| أغارت عليه حين لم يلف ناصرًا | وأغرته بي حتى تعلم يجفوني |

فخطيب الحمام دعا للمدبل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبه من ساكني نجد متذللًا ، وأطرق حيهم ويرجع مغلوباً مغبونًا ، وبالمثل نادى ساكني حبيها في الجرعاء بنجد هل عندهم

(٢) الورق جمع أوراق وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .
(٣) ممنون : منقطع .
(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

(١) انظر في محمد الأريسي ترجمته في عنوان البداية ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبي عبد الله محمد بن الحسن التميمي في ص ٧٢ وراجع في الشاعر تعريف الخلف ٣٠٩/٢ .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العنين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه ولَّى الرجل معه . ويقول الأريسي في قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجر تسمع يا بدرُ
أيتُ كما ترضى الكلبة والأسى
إذا قطعتُ نفسى ينادى بها الرجا
ولا أقسَ يوماً للسرور ويتنا
ووالله ما أدري لطيب حديثها
خليلُ قولا إن بدا لكما الحمى
على مَ تناسيم حديث عهدكم

والأريسي يتذلل لمحبهته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهق ولله لبيت كئيبا محزونا ويضحى مفكرا مهموما ، وينادى الرجاء عليه لا بد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبه كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمهر أو أشد ، ومع ذلك لا يدري لجمال حديثها أضمن سحرا أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبه إن ألما بالحمى أن يقولوا لأهلها إن المشغوف بفنائكم منه الضر وأصابه الضنا ، وقد نسيت عهدكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهل الحمى هل لكم عن قصنى خبرُ
وفى ضلوعي نيرانٌ يضرُّهما
لما رأيتُ بدور الحمى سافرةً
ولا عوامل إلا من قدودهم
سألتك الله يا حادى المطى بهم
عزَّجَ على قل قلبٌ يميلُ إلى
ولت - يا سعد - إن غئت ظباؤهم

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لللى يشغل قلبه حتى لبيت مسهدا ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحمى سافرة فعرف أنها تستمد للسفر ، وتراءت له قدودهن كثتها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال ،

السيف .

(٤) بنظر : يشفق .

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .

(٢) قطعت : جئت .

(٣) العوامل : أسنة الرماح . اتضى الصارم : سلَّ

وكنّا حَوْرَ عيونهن يملّ سيوف مصمية ، وبسّال حادى المطى يرفق به لعل الصّدع الذى أحدثته صاحبه فى فؤاده ينجر ، كما يسّاله أن يميل بالركب عليه قلبه يتمنى لو سمع حديث من قتل منهم ومن أسرن ، وإن تثنين فقف ليرى فؤاده كيف ينظر ويتصدّع ألما . وبهرض حوارا لصاحبه معه منشدا :

| | |
|---------------------------------|--|
| تقول والحسنُ يطنّفيها تظلمنى | ولا مؤثّرَ إلا صارمٌ ذكراً ^(١) |
| دَع الحسامَ وضعْ حمل السلاح فما | فى كل وقتٍ يفيد الحزم والحذرُ |
| ما للمهندِ حكيمٌ فى علّتنا | بل للمهندِ فيها الحكم والنظرُ ^(٢) |
| فإن طمعت بلين فى لـواحظنا | فحنّ أهلُ قلوبٍ مثلها الحجر |
| وإن حلت لك ألفاظُ نردّها | ما بيننا فهناك الصّابُ والصّيرُ ^(٣) |
| فأرحمَ شبلك وارحلّ دون مَنّليّة | واقبل من الحسن ما أعطاكه النظر |

حدثته صاحبه كما يقول وهى شاعرة بحسنها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يعمل سيفا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفناء ، وإن أطمعتك لين فى نواظرنا فحنّ أهل قلوب كالخجّارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراءها الصّاب والصير شديدا المرارة مرارة لا تطاق ، فأرحمَ شبلك وارحلّ دون قهر ، واكف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأربسى على لسان صاحبه لثملا نفس قارته إعجابا بخصب شاعريته .

ابن^(٤) على

هو محمد بن محمد بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج ، وذكر العلج فى آياته يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العلج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آياته كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى لباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسمى غوث الغرب من مجاجةٍ وافتاك من ربّ الملا إقبال

ويريد الشباح بسمى غوث الغرب من مجاجة محمد بن على المجاجى ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على لباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

سجد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها
وكتابه تاريخ الجزائر الثقافي ٣١١/٢ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .

(٢) المهند : السيف . المهند : التامد : الفناء .

(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصير : حصاره شجر مر .

(٤) نظر فى ترجمة ابن على ما كبه د . أبو القاسم

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف فنى مجموعة أشعار جزائرية
 نبأت له فى الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدي قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء
 إسطنبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضاً فإن بيته كان بيت فقه حنفى
 وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدي عيّن مفتياً للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/
 ١٦٣٥م ولقب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد
 العثماني وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى.
 وطبعى أن يكون والد الشاعر فقيهاً على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ضربت بحسن صنيعه الأمثال

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر ، كما قال الدكتور
 أبو القاسم سعد الله ، مستدلاً على ذلك بأنه كان أحد من هتأوا محمد بك دأش والى الجزائر بفتحته
 لهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م ومن قوله فى قصيدته :

وعهدى بحور الشعر عني أذودها زمناً وفكرى مؤجّه متلاطم

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن سنه كانت حينئذ فى نحو العشرين
 من عمره على الأقل . وكان يكبّ على حلقات فقهاء المذهب الحنفى والحديث النبوى وتفسير
 الذكر الحكيم مما أهله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير والحديث والفقه الحنفى ، وليصبح
 خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة ، ويختار سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٨م
 مفتياً حنفياً للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلاً هذا المنصب حتى وفاته سنة
 ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . وبعد لمن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثمى عشر الهجرى ،
 وكان ينظم فى المديح والمنشآت ووصف الطبيعة والرياء ، وأكثر من شعر الغزل إكثاراً يسبق
 فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديواناً ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آباءه
 ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره -
 أو كثيراً منه - مبثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه
 أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين ولى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، وولّى منصب
 الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قاتلا :

لولا - وحققك - خطّة قلّدتها زهرت بها فى الخافقين شموعى
 ومنسّلت فيها رقيت إلى العلا وقد استدار بها كيف جموع
 لنحوت منحنى العاصرى صلبة ولكن من حرق الجوى مشفوعى

وهو يقول لولا خطّة الفتوى - على المذهب الحنفى - التى تقلدتها وتلاأت وتأقت بها
 شموعى فى الجزائر ، ولولا منسّلت فيها صعدت بها إلى العلا بوعطى الجموع الكيفة من أهل

الجزائر لظلمتْ نُظْم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيس العامري مجنون ليلي كله صلبة وهيام
وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتنزل :

يمينا لقد عزتْ على الطالبُ ولى أبدا من سحر عينيك طالبُ
فسبحان من سواك في الحسن صورةُ لما اعترفت بالحسن حورُ كواعب^(١)
مراشفُ من شكل العقيق مصوغة ومبسم درُ للعقيق مناسب^(٢)
وصدرٌ بدت رؤيتاه كحقتي لجسني ونحمر مشرق وثرائب^(٣)
تحموم عليها الشمس غيرى كية تجاذب ثوبا لنا وتجاوب^(٤)
وقد حاولوا منى التلى بغيرها لقد أخفقت تلك الظنون الكواذبُ
وهل يستوى الصباح والشمس في لنا وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عيني صاحبه في البيت الأول وبجمالها في البيت الثاني الذي تعترف
به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلثم بها مبسم
الآلاء البديعة ، ويتوه بجمال صدرها ونحمرها وثرائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها
وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورها منها
بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أنني أستطيع التلى عنها بغيرها وخلت ظنونهم جميعا ،
وهل يمكن أن يتساوى الصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر في تمه وكاله بالكواكب
والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصون تأودتْ أم قدودُ أم ورودُ تفتحتْ أم خدود^(٥)
أم وجوه بدت لنا أم بدورُ طالمات يحفهن السعودُ
في سماء الجمال تسطع نورا وقلبي منها - الزمان - وقود
كم لها في الأسود من فتكاتٍ وبروق - من صدها - ورعودُ
سحر تلك العيون فيه تناهتْ وتفسأت زيباتٍ وهنودُ
جثا وجثيه عذُ يتلنى وجثا الجثين عني بعيد^(٦)

وهو لا يدرى أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تنثنى دلالا ، وهل يرى
خدودا فاتنة بمحمرتها أم ورودا تفتتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورا يحفها السعد بل
سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع في سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود ما بيني مشتعلا ،
وكم لها في الأسود من فتكاتٍ وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(١) كواعب : جمع كاعب : الفتاة الشابة .

(٢) المبسم : الضمير .

(٣) لجر كريم أحر تنخذ منه الفصوص .

(٤) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

(٥) تأودت : تنثت .

(٦) الجثين : فضة .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنو أو القرب من وجنتها فضلا عن أن يقتطف منها شيئا ، وهو لذلك يتمنّب عذبا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين في عصره .

٢

شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بما تقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يرووهم من مشاهد الحياة المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف . وملتقى يكرين حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م ومقطوعة له في الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد في بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرسمية قائلا^(١) :

ما أُنشِنَ البردَ وَرِيَمَةٌ وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِنَاهِرَتْ
تبدو من الغيم إذا ما بدت كَأَنَّمَا تَنْشُرُ مِنْ تَحْتِ
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الرُّجُحُ عَلَى السَّمْتِ
نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذئب باللب

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجة دائما من وراء الغيم وكأنا ننشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، ولنا لشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودي يوم السبت يوم عيده الأسبوعي . وليكر مقطوعة حزينة يكي بها بلدته تاهرت حين خربها في سنة ٢٩٦ لبايعيد الله داعية العبيدين وقضى على الدولة الرسمية بها ، وفيها يقول^(٢) :

زُرْنَا مَنَازِلَ قَوْمٍ لَمْ يَزُورُوا إِنَّا لَفِي غَفْلَةٍ عَمَّا يَفْأَسُونَا
لو ينطقون لقالوا الزادُ وبِحْكُمُ حلُّ الرِّجْلِ فما يَرجو المقيمونَا
الموتُ أَجَحَفُ بِالدُّنْيَا فَخَرُّهَا وَفَعَلْنَا فَعَلَ قَوْمٌ لَا يَمُوتُونَا
فَالآنَ فَابْكُوا فَقَدْ حَقَّ الْبُكَاءُ لَكُمْ فَالْحَامِلُونَ لِمَرْشِ اللَّهِ يَكُونَا
ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها لو كَانَ جُمُعَ فِيهَا كَثَرُ قَارُونَا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم في قبورهم قضى عليهم لبايعيد الله ولا نعرف ما يفتلون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حل بالمقيمين الرحيل عما قبل ، وقد استأصل الموت أهل

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر (٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربها، ونحن لانتعظ كلنا لن نموت، والآن فليكوا فالحاملون لعرش الله يكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كثر قارون فكل شيء فيها صار إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المدح في وصف عود وما صار إليه من النغنى عليه^(١):

جاءتْ بعود يُناغيها ويُسمدها انظرْ بدائع ما يأتي به الشجر
غنتْ عليه ضروب الطير ساجدةً حيناً فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه - أو به - طربٌ يهيجهُ الأعجمان: الطيرُ والوترُ

فقد كانت ضروب الطير وصنونه تغنى على هذا العود، وهو موصل بشجرته، فلما قطع منها وذوى غنى عليه البشر بما شذوا عليه من أوتار، وكثما يهيجه طوال حياته أعجمان: الطير قديما والوتر حديثا. ويدعو أن سمك القرش المنترس كان يترأى أحيانا في مياه تونس فقال ابن قاضي ميلة يصفه^(٢):

وأشقى بفكيه مثل المدى طويلُ القرا مُدمجُ الأعظم^(٣)
نصرته في ضمان الماء ومهجنه في يد الخضر^(٤)
يخاف الهواء ويخشى الضياء وإن كان أجراً بين ضيق^(٥)
له داخل اليم بطش الأسود وتصحبه بشية الأرقم

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل المدى أو السكاكين وإته طويل الظهر مدمج الأعظم واللحم، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء والضياء، وإن كان أجراً من أسد فائق، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله متلويًا في مشيته كالأنعمان. وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخسه بترجمة. وأهدى زرار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصورين بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل وليل وحمار وحشى مخطط وفيل، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول^(٦):

ويلقى تقاسم الدجنة والضحى فمن هذه شطر ومن هذه شطر
وصغر كأن الزعفران خضابها ولا فمن ماء العقيق لها قشر
وشهب من اللج استعيرت متونها ومن صور الأقمار أوجهها قمر^(٧)
عليها السروج المحكمات إذا مشت بها خيلاء الخيل رنحها كثر

والخيل بينها بلقى يلتقى فيها السواد بالياض، وكان الظلمة والضحى اقتسما لونها فلكل

(١) ابن خلكان ٥ / ٣٤٨.

(٢) الأسودج ص ٢١٣.

(٣) أنشئ: متخالف الأسنان. القرا: الظهر.

(٤) الخضر: البحر. معاطم الموج وملاطمه.

(٥) ضميم: الأسد الواسع الشدق.

(٦) الأسودج ص ١٧٣.

(٧) قمر: مشرقة كالقمر.

منهما نصب ، ومنها صغر كأنما خُصِبَتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يخلط فيها يياض الشعر بسواده ، وكأنما استعمرت ظهورها من لُجَّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجها فمضيئة ضياء الأفتار الساطعة ، وتمشى مزهوة مشية خيلاء متعالية ، ويقول في الفيل الذي كان مصاحبا للهدية^(١) :

وأخضمُ هندی النجار تبعه ملوكُ بنى سلسانٍ إن رلها أمرُ
يجىءُ كطودٍ جاتلٍ فوق أربع مضيرةٌ لُتتْ كما لُتتْ الصخرُ^(٢)
له فخذان كالكتيين كُيدا وصدرٌ كما أوفى من الحضبة الصنُرُ
ووجهٌ به أنفٌ كراووقٍ خمرة ينال به ما تُدرِكُ الأنملُ العُشرُ^(٣)

والهشلي يقول عن الفيل إنه ضخم هندی الأصل ، كانت تمدد ملوك الفرس حين يريها أمر . ويشبهه بجبل يتحرك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامت أجزاءها تضامً أجزله الصخر ، وله فخذان كأنهما كتبان متراكان وصدر عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طول عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بتمامه العشرة . وملتقى فى بلاط بنى حماد بيجاية بالطبيب ابن أبي المليلح شاعر الأمير العزيز الحمادى (٤٩٨ - ٥١٥ هـ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيدة منشدا^(٤) :

وجالتُ به جردُ المذاكى كأنها عذارى ولكن نطفهن تحشمُ
بصفراء كالنبر العيسقو صفيلة ودهماء يتلوها كميّتْ وأدهمُ
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جهده لكان له يوم الرهسان التقدّمُ
وجاء لولهُ النصر يتبع رايةً بها المرُ معقودٌ عليها متممُ

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تركب لأول مرة : صفراء كالنبر ودهماء كالليل يتلوها كميّتْ وأسود وأشقر ، ولو أن الأشقر سبق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلسان الثغينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابن خميس ، وكان قد بارحها إلى الأندلس ، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدتها ومتنزهاتها فى مثل قوله^(٥) :

(٤) الخزينة ١ / ١٨٤ .
(٥) الديوان : النسخة المصورة من ٨٥ .

(١) الأمودج ص ٧٥ .
(٢) مضيرة : مكتنزة اللحم
(٣) الراووق : إبريق الخمر .

تلمسان جادتها السحاب الذوالج
ففى كل شفر من جفوني ماتح
كمت هولاءم برح بي الأسى
لساقية الرومى عندى مزينة
وكم لى عليها من غدو وروحة
ظباء مغتبا عواط عواطف
تقتلهم فيها عيون نواظر
وإن قس لا قس الوربط ووقفة
مطلا على ذاك القدير وقد بدت
أماؤك أم دمعى عشية صدقت
لئن كنت ملانا بدمعى طافحا
ولئن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغزل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته
بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديهما الرياح الملقحة المتجة ، ويقول
إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملا دلاء بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فواده قاذح
لنيران الوجد والحب ، وكم كم حبه ووجده غير أن دموعه تقضحه ، فلم يعد بذ من إعلانه ،
ويذكر مشهد القناة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الرولى من حولها ، ويذكر كم له
فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحشاها يدين له العطف ،
والطير من حوله ترقص وتصيح وتنغى ، وهن يقتلن بجمالهن من بطليل النظر إليهن ، وينصرفون
عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى منتزه الوربط وما كان ينافحه
فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح القدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية
صفائح الدروع ، وبسأله أباك ماؤك أم دمع عيني عشية صدقت عتبة ما قال العذول المعادى ،
ولئن كنت ملانا بدمعى طافحا به فبئى سكران طافع بحمى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر
قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر (١٠) :

(٥) مغتبا : منازل . عواط : لا تنصمب .

(٦) نواضح : جمع ناضح تزف كل ما بها من دموع .

(٧) الوربط : منزله . أنافع : أستخرج نفعه وشغله
وكذلك أفارح .

(٨) صفاء : يبرد ماءه الصافى .

(٩) المكشاح : الخبض .

(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

(١) الدوالج : الثقلة بالأمطار . اللقحة بما

تحمل من أمطار وغير أمطار .

(٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدمع من
البر . قاذح : أى للناز .

(٣) ساقية الرومى : قناة جميلة يشاهد الزروع حولها .

السواغ : المخرقة .

(٤) اللاتح جمع منحة : العطية .

لقد بَلُّ أُرْدَانُ الثُّرى دَمْعُ مَرْئَةٍ
وَجِرُّ عَلَى هَامِ الرُّبَى ذَيْلُ وَبَلِّهِ
وَحَطَّ بِطُرْسِ الْجَوِّ سَطْرًا مَذْهَبًا
وَشَابَ لَجِينِ الطَّلِّ عَسْجَدُ بَارِقِ
وَدَارِ بِسَاقِ الْفَصَنِ خَلْخَالُ جَدُولِ
تَسَاثُرَ فِي أَسْلَاحِهَا فَتَنْظُمًا^(١)
فَدَبِيجُ أَثْوَابِ الرِّبْعِ وَسَهْمًا^(٢)
فَنَقَطُهُ قَطَرُ الْغَمَامِ وَأَعْجَمًا^(٣)
فَدَنَرُ أَزْهَارِ الرِّبْعِ وَذَرْهَمًا
كَأَنَّ سَوْرَ التَّجْمِيدِ لِلنَّهْرِ بِمُقَصَّمًا

وهو يقول إن دموع السحابة بَلَّتْ أَكَامَ الرُّبَى وتناثرت في أسلاكها وانتظمت ، وسحب المطر على رؤوس الرُّبَى ذَيْلُ وَبَلِّهِ فزَيْنُ ثِيَابِهَا وخططها تخطيطًا بديعًا ، وخط على صفحة الجو سطرًا مذهبًا نَقَطُهُ قَطَرُ الْغَمَامِ ، وشابَ لَجِينِ الطَّلِّ المتلألئ عَسْجَدُ الْبَرِّقِ ، فاستحالت أَزْهَارُ الرِّبْعِ دَنَائِرَ وَدَرَاهِمَ ، واستحال ما في الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيفان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتُها للنهر أساورَ تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار النجيجي التلمساني بأخيرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة في مائتي بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضي إلى العهد العثماني ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبي راشد لمدينة الجزائر في الربيع ، وفيه يقول^(٤) :

سَقَى الْمَطَرُ الْمَطَالَ أَرْضًا تَشْرُفَتْ
بِمَرْغَةِ الْفِيحَاءِ تَظْهَرُ مِنْ مَدَى
وَحَيْثُ الرِّبْعِ الْغَضُّ تَمَّ شَبْلُهُ
تَرِيكَ احْمَرَارًا فِي لِيضَاضِ كَثْمِهَا
دَوَالِيهَا تَسْقَى الْغُصُونُ فَتَنْثَنِي
تَحْبِرُ أَغْصَانُ الْحَدَاقِ سُجْدًا
وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ قَدْ تَارُجَتْ
بِمَصْرِ غَدَتِ لِلْفُضْلِ وَالْفَخْرِ جَامِعَةٌ
تُزَى كَسَقِطِ الثَّلَجِ بِيضَاءَ نَاصِعَةٍ^(٥)
تَرَى أَرْضَهَا تَبْدَى النُّضَارَةَ يَاقَمَهُ
دَمَاءٌ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الثَّلَجِ وَاقَمَهُ
حَمَائِمُهَا تَشْدُو عَلَى الْقُضْبِ سَاجِمَهُ .
تَمِيدُ مِنَ الصَّوْتِ الْحَنُونِ وَرَاكِمَهُ
مَبَاخِرُهَا بِالطَّيْبِ وَالْمَسْكِ سَاطِعَهُ

ولبن أبي راشد يدعو بالسُّقْيَا لمدينة الجزائر التي أصبحت مصرًا وعاصمة لقطرها في عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مَرْغَةِ الْفِيحَاءِ ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مَبَاتِيهَا جميعًا بِيضَاءَ بِيَاضِ الثَّلَجِ الْمَسَاطِطِ النَّاصِعِ ، وإنها تُرَى في الربيع وقد لبست ثوبًا من رفاة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بمائتيها والحمام يشدو على الغصون مبتهجا ، وكثما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجي ، فماتزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، ومادينة الجزائر

٣٠٧/٢

(٥) مَرْغَةُ: القيلة التي بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

(١) لردان جمع رَدَن : كَمْ .
(٢) دَبِيج : زَيْن وَنَقْش . سَهْم : مِخْطَاط .
(٣) طُرْس : صَفْحَةٌ . أَعْجَمُهُ : أَزَالُ عَجْمَتَهُ بِنَقَطِهِ .
(٤) تاريخ الجزائر الثقاتي للدكتور أبي القاسم سَعْدَانِ

الإلحقة ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نفرّد
ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .
عبد الله بن محمد الجراوى^(١)

شاعر جزائرى من جرولة بين مدينة قسنطينة وقلمة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جرولة
داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان - كما يقول ابن رشيق - فى أوائل العقد الرابع من حياته ، وتعلق
بخدمة المعز بن باديس . ويقول ابن رشيق : كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخطر ، تحسب
بديهته رويته ، يتحدر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن
يطوفت أحد رجالات صنهاجة : أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك ما فى الأرض
يبت فكيف يكون لى برج فى السماء ، فضحك ، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه :
توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفا وأربعين سنة ، وكتابوا قد أغروا به القائد
حماد بن سيف (العزير بالله) فدى عليه من قتله ليلا ، وعرف خطاه فأسف عليه . وقد أشاد به
ابن رشيق كأربابنا فى الشعر إشادة رائعة ، ومما تشد له قوله البديع فى وصف ديك :

| | |
|-------------------------------------|---|
| وكائن نَفَى النَوْمِ عَنْ عُرْفَانِ | بديع الملاحه حلو المعاني ^(٢) |
| بأجفان عينية يا قوتان | كأن وميضهما جمرتان |
| على رأسه التاج مسترقا | كاج ابن هرمز فى المهرجان |
| وقرطان من جوهر أحمر | يزينه زين قرط الحصان |
| له عُنُقٌ حولها رونق | كما حوت الخمر إحدى القناني |
| ودار برائله حولها | كما نورت شفرة الزعفران ^(٣) |

والجراوى يقول إن النوم انتهى عن الديك وظل مسهدا طوال الليل بديع الجمال حلو
المعاني وأجفائه باقوتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عُرْفَه كاج ابن هرمز
فى احتفال يوم المهرجان ، وله قرطان من باقوت أحمر يزينه كما يزنان المرأة العفيفة الطاهرة ،
ويستدير حول جيده رونق من الجمال الرائع : وله ريش بديع زاو زهو الزعفران ، ويتم
وصفه للديك قائلا :

| | |
|---------------------|--|
| ودارت بجوجيئه حلة | تروق كما راقك الخسروانى ^(٤) |
| وقام به ذنب معجب | كباقه زهر بدت من بنان |
| وقاس جناحا على ساقه | قيس سيتر على خيزران |

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنسوج ص ٢١٦ .
(٢) برائله : ريش يستدير حول عقه .
(٣) الجرجور : الصدر . الخسروانى : الطليان .
(٤) العنرفان : الديك .

وصَفَّقَ تصْفِيقٌ مستهترٌ
بمحمرةٍ من بنات الفُئانِ
وغرَّدَ تغريدَ ذى لوعةٍ
يسوح بأشواقه للغولتى

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدرة كما يروق الطيلسان الخسروائى ، وبدا له ذيل زاه كبقعة زهر ، ورغرف بجناحه على ساقه وكثفه مقيسٌ عليه كستر يُنْذَلُ على خيزران ، وصَفَّقَ به تصفيق مخمور ، وغرد تغريد ملثاع يوح للغولتى بأشواقه الحارة .

إبراهيم^(١) بن عبد الجبار الفجيجى الطلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غرارهِ يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فارس وتلمسان ولقى علماءها وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد لابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطلوته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والزهادة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هية . ويصف الصقر بمثل قوله :

جناحٌ وعُنقٌ ثم طالت أصابع^(٢)
وما بين منكيه والصدر واسع^(٣)
ومِنْسَرَّةٌ لجزرٍ ما هو صارع^(٤)
شديدٍ سوادها ، جِدَادٍ ، لواسع^(٥)
من الفضة البيضاء كالسيف لامع^(٦)
تلسون بالإبريز أنصرُ فاقع^(٧)

طويلٌ ثلاثٍ لا كطول بُغائِها
رحيبٌ ثلاثٍ وهى ما هى كفه
عظيم ثلاث : رأسه ثم فخذُه
له عُدَّةٌ من نفسه فى مخالب
يُمنَاهُ بارقٌ محيطٌ بزئده
كذلك فى مُسَرَّةٍ ثانٍ وجُلُجُلٍ

(٢) رحب : متسع .
(٤) النسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر .
صارع : قاتل .
(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلح كالقرب .
(٦) بارق : خلخال لامع .
(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب الخالص .

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى التفريد فى تفريد الشريد وتوصيد الويد بتحقيق الدكتور عبد الحادى التازى ، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى رلى شرح عليها باسم الشقائق العماتية فى شرح الروضة السلوتية .
(٢) البغاث : من ضعاف الطير .

إذا انقضَّ خلتَ البرق والرَّيح عاصفاً ورعداً به رَجَزٌ على الصَّيد واقع^(١)
دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق جناح كل ذلك فاجع

والفجيجي يقول إن صفه يرمز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين التكيين عظيم الهامة تمتلئ الفخذين صلب التقار لجَزْر مايفتك به ، وعُدْنُه مخاليه الشديدة السواد القاطعة التي تلسع لسع العقارب ، وفي يمانه خلخال لامع من الفضة يزنده ، وفي يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظنت البرق والريح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجي انقضاضه على طائر الجبارى منشدا :

ولجأ لآت حين يَأْوِيه ملجأً فلا الأرضُ تنجيه ولا الجو مانعُ
ذُوئته في كفٍّ لا يُقْبِلُه باق بها للموت وهو يوادعُ
وتندبُه حَبَارِيَاتُ الْفَنَةِ بفيء مَجْهولٍ وهنٌ جَوْلَعُ^(٢)
نوائِحُ أعرابٍ على الطُّبْلِ خَلَقَتْ يحاجِلُنَّ مجنوننا لمن تواجع
شَقَقْنَ جِوِيًا ناشراتِ الرءوس قد جرحسنَ خدودا ما لهنُّ براقع

والفجيجي يقول إن الجبارى كان يطلب ملجأً حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضافت عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحُبَتْ ، وأخذ الصقر بذؤبة رأسه وربشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصاً ولا خلاصاً منه فهو يوادعه مودعة اليأس من الحياة ، وتندبه حباريات ألفنه منجرات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجي بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بمحرة الحزن ، ويحاجلن نذابين الذي يزيد في حزنهن ويشعله في نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجي متنيا لو عادت أيام الصفر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة في الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحركه بهجة الربيع ولا تمتعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض في عرض فقه الصيد وما أحله الشارع منه وما حرّمه وواجبات القتل إزاء ذلك وأجناس صيده في البر ، وينتهج إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتي بيت قائلا :

أتيتك بالتحقيق نظما فخذ به ودع عنك ما سيواه فهو جماععُ
فدونكها من بحس فكري ذرةً تفجر منها للعلوم ينابيعُ
فمن كان ذا جدٍّ وعيٍ خصبَ حكمةٍ ومن يتغ الإحماض فالترجُ واسعُ

(٢) فناء : صراره ولسة .

(١) رجز : شدة في الصوت .

فقل روضة السلوان إن شئت في اسمها
ولا تغدُونْ عينك عنها لكونها
وكم رمية لغير رمل فخرطست
فأغصوا على ما كان واغصوا وسامحوا
وقل رَجِمَ الرحمن من هو ساجع
بدت بدويّة وثى واضح
وأخرى لرامي أخطأت هل تنازع ؟
وإن كان خسرَق فليدركه رافع

وهو يقول لقارئ قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه
بملا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجماجم التي لا فائدة فيها ولا طائل وردها ،
وقد غصت عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تنفجر بكثير من المعارف عن الصيد
وفقهه ، فمن كان صاحب جدّ وثى منها حكمة ، ومن كان صاحب لحو وجد فيها مبتغاه ،
وسمها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تتناول
موضوع الصيد البدوي وثى ناظمها ، وكم رمية خرطست وأصلبت الهدف وكم رميات أخرى
انخرقت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله بمنّ به على من يشاء . ويطلب من
قارئه في تواضع أن ينض الطرف عن هفواته ويغفو ، وإن كثرت في قصيدته زلة فليتداركها
بلفظه .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويكيه ويتوجع
لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يكي فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى
ذلك تليّنا ، وإما أن يفضى إلى ذكر الموت وأنه حوض لا بد للحي من وروده ، ويسمى ذلك
عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقنا الرثاء
مبكرا في الشعر الجزائري على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجري ،
وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره^(١) :

قِفْ بالقبور فنادِ الهامدين بها
من أعظم بليّت فيها وأجساد
قومٌ تقطعت الأسباب بينهم
من الوصال وصاروا تحت أطواد
كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا
هيئات هيئات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو وفي لعب
حتى تراه على نَشْر وأعواد

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال
بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

(١) الديوان ص ٨١ .

وينسا المرء لآء عنه فى لى وفى لى إذا هو محمول على نعى وأنعود وآلة حبلآ تقذف به فى مآوى القبور . ويكى لى طويلا بمثل قوله^(١) :

بكيتُ على الأحبة إذ نولوا ولو نئي هلكتُ بكوا عليا
فيا رلىدى بىاؤك كان ذخرآ وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كنى حزنا بئى منك خيلو وفك هئت وبقيتُ حيا
ولم لك يأسا فيئتُ لى رمتُ التراب فوقك من يديا

وهو يكى أجه ولفظة كبه بكاء حارا ، وقد كان بقاء لى ذخرآ لا يمثله ذخر له وقد كوى فقده كبه كيا مؤلا أشد الألم ، ويقول إيه يكنيه حزنا أن مات لى وآه عاش بعده يتلظى موجلة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يده عليه التراب فأظلمت الدنيا فى عينه . ولأين الربيب يرئى خمسة من القواد فى عهد باديس (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) غامروا بأنفسهم فى معركة خاسرة بالزأب ، وفيهم يقول مصورا بأنهم^(٢) :

بئت لهم أن يرتضوا الضيم أنفس كرام رأئت رميا بها الموت أخزنا
فهبروا وما هابوا الردى خدرعوا على خطر قطعنا من الليل مظلمآ^(٣)
وهون وجلى أنهم خمسة مضوا وقد أقتصوا خمسين قرما مسوما^(٤)
وكان عظيما لو نجوا غير أنهم رأوا حسن ما أبقوا من الذكر أعظما
أبوا أن يبرأوا والقنا فى غورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فرأوا لفرأوا أعسرة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالعة والكرامة بحيث ليت لهم أن يفروا بها عن الحرب فرموا بها فى أنونها وضرامها غير هائين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدما وحتى تقطعت السيوف فى أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكتابوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب فى الأعداء حتى النفس الأخير فإن فى ذلك ذكرا عاظرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفروا خشية الموت ، ولو فروا لفرأوا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والطمع ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا فى ميدان الحرب ، لبناؤا شرف التضحية بالنفس . ويقول لى قاضى ميلة فى وصف غريق بالبحر^(٥) :

وما زلتُ أستقى له القطر دأيا وأستودع الريح السلام المجدآ

(١) الديوان ص ٨٥ .

(٢) أنقصوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوما : معلما .

(٣) الأنسودج ص ٢١٥ .

(٤) الأنسودج لآن رشق ص ١١٣ وما بعدهما

(٥) الردى : الموت . قطعنا : طائفة .

فكان الذى استسقيتُ أولَ خاتلٍ له والذى استودعتُ من أعظم العبد^(١)

حتى قناظَ بين الماء والريح روحه وما زاره أهنَ ولا زارَ ملُحدا^(٢)

وهو يقول إن الذى كان يستقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أولَ خاتلٍ غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج أمواج البحر ولم يَبْنِ له أثر . وتلتقى فى بجاية بمحمد بن عل بن حماد فى القرن السابع ومراثيه للدولة الحمادية ، وسنخصه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) شاعراً وممرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرنى أباه^(٣) :

قد كان لى فى الدنى أبٌ يساعدى فصار تحت الثرى فى لحده اكتفا^(٤)

مددتُ فى ظل نَعْماء يدي زمتا ونلت من رِفْدِه فى دهرى الثُخفا

يا فقدَ يوسفَ ما لَبِيتُ لى جلدًا يا فقدَ يوسفَ إن الصبر عنك غفا

ما مثل يوسفَ مفقودَ لفاقده ولا كموسى أخو فقدي إذا وُصِفا

يا قبرَ يوسفَ لا تعدوك هامة من النعمام ولا زال الثرى وجفا^(٥)

وأبو حمو موسى ييكى أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسما ، ويذكر كم مثله يده فيملؤها له نعمًا وتخفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أنقذه موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به -أبا مثاليا ويدعو لغيره أن تظل السحب وافدة عليه تهيم وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خائفا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تلثيه مواسيا أبا حمو موسى^(٦) :

أسفا لمن فأن الملوك جلالةً وديانةً وبكل فضلٍ حوى

أنظمتُ به من زاهدٍ ومجاهدٍ ومنيل رَفْدٍ تارةً ومنيبٍ

هوتِ النجومُ الزاهراتُ لفقده وذوى من الأزهار كل رطيبٍ

وتغيرتْ شمسُ النهار له أسيَ وتبدلتْ من نورها بشحوبٍ

بدمٍ ، بماءِ فَرْنِيها مخضوبٍ بدمٍ ، بماءِ فَرْنِيها مخضوبٍ

ولقد بكته جياده بصهيلها وغدتْ تحنُّ له حينَ النَّبِ^(٧)

مَنْ للفسود إذا لَوَتْ لجنايه بملقاهمُ بالبشر والترحيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلالةً ومهابةً وديانةً وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

جانب.

(١) خاتل : غادر .

(٢) قناظ : مات . ملحدا : لحدا .

(٣) كتاب أبو حمو موسى لمحمد بن حبيب ص ٣٣٦ .

(٤) قطر الجزء الثانى من بنية الرواد لحيى بن خلدون .

(٥) التنى : جمع دنيا . اكتفه اللحد : أساطه من كل

(٦) التنب : الإبل المعروفة بحنينها إلى أولادها .

وكرم وقلبة لله ، وكثما هوت النجوم الثلاثة لفقده وذوت الأزهار الغضة ، وحي شمس النهار تغيرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف المند التي طالما شهرها على أعدائه لتبكيه بدم مخضوب بما يلعب على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتتظفر مؤلمة بصهيلها التي تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سبلى الوفود الكثيرة التي كانت تقف على بلبه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوفاً شاعر السلطان عثمان الحفصى يبكى لبنا له مات صغيراً^(١) :

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمْدِ وقد أعضتَ جناحَ المجد فاقمِدِ^(٢)
 ناجزتَ في صَرَفِ آجالٍ قد اقترتِ إذ لا تسلمُها إلا يداً يسدِ^(٣)
 كم زدتَ في تفصكِ العَلْيَا جَوَى كبدِ خَرَى فيا ليت لم تنقص ولم ترد
 وكم تركتَ بُكَا يبكى على ولدِ أذنته طعممَ نُكَلِّ الأُم للولدِ
 بُنَى لبتك لم تُخلق لِسَوْرَى بلى يا ليتنى لم أَسْم بالصبر عن شَهْدِ^(٤)
 سقى الحَيَا فبك الزاكى وواصله سحابُ عَفْوٍ وغفرانٍ مدى الأبدِ^(٥)

وهو يخاطب الموت لحزونا ويقول له اتد ، فقد أصبت عين الأم بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدتهم وحطمت جناح المجد وناجرت في حدث الموت وأليت إلا أن تسلم ابني يدا بيد ، وكم نقصت العلياء وزدت الكيد حزنا وحرارة ، وكم أذنت أبا فقده لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليت لم يخلق للى جسده وعظامه حتى لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيخوخهم الأعلام في تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان في القرن التاسع الهجرى محمد بن يوسف السنوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حسن بن ذرية الحسن بن على بن أبى طالب ، وفيه ألف تلميذه الملاالى كتابا سماه « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » وكان فقيها ، بل كان إماما فى الفقه وفى علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م بقصيدة بدعية ، وفيها يقول^(٦) :

(١) ورى على : اكتم على . أسم : أكلف .
 (٢) أعضت : حطمت .
 (٣) الحيا : الفيت . الزاكى الطاهر .
 (٤) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
 (٢) أعضت : حطمت .
 (٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .

ما للمنازلِ أظلمتْ أَرْجَاؤُهَا والأَرْضُ رُجَّتْ حينَ غابَ رجاؤُهَا
هذا الذى ورثَ النُّبىُّ فأصبحتْ عِلَلُ الضلالِ به استُفيدَ دواؤُهَا
ودعا إلى التوحيدِ دعوةً مخلصِ وإلى الشريعةِ فاستنارَ ضياؤُهَا
يا أُوحدَ العلماءِ يا علماَ بهِ كلُّ العلومِ بدتْ لنا أنحاؤُهَا
مَنْ للتآليفِ التِّسَى أَلْفُهَا يَدْرِى بها ما استنكلتْ قُرُؤُهَا
مَنْ للعلومِ على اختلافِ فنونها يَدِى لها نكثاَ يروقُ سناؤُهَا
بَارَبُ قَدَسٍ رَوْحُهُ وَضَرْيَعُهُ وَمِنْ الْجِنَانِ نَحْفُهُ نَعْمَاؤُهَا

والحوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كُتِّمتا زلزلت زلزلا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكُتِّمتا علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا . وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المصنئ ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيخهم فى المهد الشملى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لثن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجابى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول^(١) :

مصابَ جسيمٍ كاد يُضنى مقاتل ورزّةً عظيمٌ قاطعٌ للمفاصل
ومَنْ لفتون العلمِ نَحْوًا ومنطقًا وفقها وتوحيدا وضوى لسائل
لمنزلهِ كُنتَ تُشَدُّ رِجَالُنَا فمن رَاكِبٍ يَسْتَنِي إِلَيْهِ رَاجِلُ
أَحَقًّا قُلْتَ الأَلَمَى عَمِيدَا على قولِ حقٍ لا على قولِ باطل
قُلْتَ امرؤًا من شأنه العلمُ والتقى فيما خَيْرَ مَقْتُولٍ وما شَرُّ قَاتِلٍ
ومالِكِ يومَ القَرَضِ إلا جَهَنَّمَ نَقَادُ إِلَيْهَا صَاغِرًا بالسلاسل
عليه من الرحمنِ أَوْسَعُ رَحْمَةٍ وأزكى سلامٍ فى الضُّحَى والأصائل

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحوًا ومنطقًا وفقها وتفسيرًا وتوحيدًا ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكبٍ وراجلٍ ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعدده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعلية من ربه أوسع رحمة وأظهر سلام وأعطره . وتوقف قليلا لترجم لشاعر بجاية محمد بن علي بن حماد .

محمد^(١) بن علي بن حماد القلمي

من أهل قلعة بني حماد وفضلاتها ، قرأ بها وتفق على علماتها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شبيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ للمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ في بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان يترع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيَّنه - في رأينا - قاضيا بالأندلس في مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سلا في المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . وكان شاعرا بارعا ، وله قصائد أو مرثى مختلفة يرثي بها دولة بني حماد التي أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وفي إحداها يقول^(٢) :

أمن العروسان لا رَسَمَ ولا طَلَّلُ فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارة أودى الزمانُ به فأين ما شاذ منه السادة الأولُ
وما ورا الكوكبِ العلوى معنصم وقد عَرَ الكوكبُ التغيرَ والبدلُ
وقد عفا قصر حمادِ فليس له رَسَمٌ ولا أثرُ باقي ولا طَلَّلُ
وإن في القصرِ قصرَ الملكِ معتبرا لمن تغرَّره الأيامُ والدولُ
وما رسومُ المنارِ الآن ماثلة لكنهما نَبَذَ يَجْرِي بها التلُّ
حتى المصلى امحَّتْ آياته وعَفَتْ إلا جدارا وما طَلَّتْ به الطللُ^(٣)
كرجلك الطرفَ كانت كلُّ أبدة مما تراه كذلك العمرُ والأجلُ

وهو يقول أمن القصران العروسان المبهجان ، لم يمد حتى رسم ولا طلل ولم يمد إلا الفضاء ، وقد امحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، واعى قصر الكوكب العلوى وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن في ذلك لعبرة أى عبرة لمن يفتخر بالأيام والدول ، وأمن قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يشتمل بها الناس ، وحتى المصلى الذى كان يملح بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقياء أطلال إذ سرعان ما زابته النعمة سرعيا وزابلت كل أبدة

(١) انظر في ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية

ص ٢١٨ وتاريخ الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر

في القديم والحديث للمبلى ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب

الجزائري للأستاذ محمد الطمار ص ١٢٣ .

(٢) المبلى ص ٦٣٤ والطمار ص ١٢٣ .

(٣) الطلل : جمع طلل .

وغرية مما كان في القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجلك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول^(١)

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة
وهل أستمعن تلك الطيور عشية
وهل أرددن عين السلام على الصدى
ونظير طيقان « المنار » مطلة
تجاوب في تلك الفصوص البلال
فأبرد من حرّ الضلوع النواهل^(٢)
على الوجنات الزاهرات الخمائل^(٣)
نجوم تبث في سعاد المنازل
ونزلتني في غير تلك المنازل
ستبقى بقاء الطالعات الأوافل

وابن حماد يمتنى في غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادي بجاية :
وادي الهوى والحب بين جدالها يسمع إلى الطيور وهي تجاوب البلال في المساء ، ويتمنى
أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفى ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار
وهي مطلة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا
القصر التي كانت تشرف على ما حوله نجوم مئعدة . ويمتلئ شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول
إن ثنت الأيام أعتى عنها إلى سلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فأزفزع إلى الصبر
الجميل ولكن صلبتي يلبدي وموطنى منتظر جائمة في فؤادي ما حييت ، وستظل باقية بقاء
النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول في عين السلام^(٤) :

على غين السلام سلام صب
نأود أليكها وجرت صباها
وأبرد ما يكون الجو فيها
وقد قام المنار على ذراها
غذاه ماؤها العذب النير
وشم لها كما فتح العير
وتدنى حين يستخدم الهجير
كما قام العروس أو الأمير
لديهم والخورنق والسدير

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التي طالما نهل من مائها العذب الصافي الزاكي ، وإن
أليكها أو شجرها ليتنى بفعل الرياح ويهب صباها عليلًا حاملًا منها شذى عطرا ، وحين
تشتد حرارة الهاجرة وراء بجاية في الصحراء تصبح بجاية أبرد وتندى ما تكون ، وإن
قصر المنار ليقف في أعاليها وكنهه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وله

(١) انظر في الأبيات التالية المجلد ص ١٢٤ والطمار
ص ١٢٣ .

(١) المرجعين السابقين .

(٢) الصدى : المعش .

(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .

لقصر مشيد يُؤدّرى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا لملوك الحيرة فى الجاهلية .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد قديم فى الأمة منذ العصر الإسلامى وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون فى أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة فى البيان والتبيين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده فى الكتابة عنهم ، ويلقنا بينهم فى المغرب كثيرون فى كتاب رياض النفوس للمالكي ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حنابلة وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرفته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غرة أو غفلة ، وفى ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت^(١) :

| | |
|---------------------------------|--|
| لقد جمحتُ نفسى فصَدْتُ وأعرضتُ | وقد مَرَقْتُ نفسى فطال مَرُوقُهَا ^(٢) |
| فيا أُنْفى من جُنحٍ ليلٍ يفوقها | وضوء نهارٍ لا يزال يسوقها ^(٣) |
| إلى مشهدٍ لأبدٍ لى من شهودِهِ | ومن جُرْعٍ للموت سوف أذوقها |
| سحاب النايابا كلُّ يومٍ مظلةٌ | فقد هطلتْ حولي ولاحَ بُروقُهَا |
| تجهمتُ خمسا بعد سبعين حجةً | ودام غروبُ الشمس لي وطلوعها |
| وأبدي النايابا كلُّ يومٍ وليلةٌ | إذا فتقتْ لا يستطيع رتوقها |
| تَصَيَّحُ أقواما على حين غفلةٍ | ويأتبك فى حين اليأس طروقها |

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصبنا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكثما زمامها بليل مظلم مما يؤسفها وإنها لا تطلع إلى ضوء نهار مشرق يربها المشهد الحقيقى من الموت وجُرْعَه وما سيَحْسُرُ منه ، وإن سحاب الموت ليظله ، وأنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأبدي الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتَصَيَّحُ أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تسميهم ، وما أحرنا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ومحدثنا صاحب

(٢) جنح الليل : ظلامه .

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

(٣) جمحت : نفرت . مرق : خرجت وعصت .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى محمد بن الحسن بن ميمون القلمى البجائى ،
 وكان كثير التلامذة والطلاب وقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك
 فى شعره طريقة فى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمدح
 النبوى ، ومن قوله فى الزهد^(١) :

| | |
|--|--|
| الخَيْرُ أَصْدَقُ فى الْمَرْأى من الْخَيْرِ | فَمَهْدُ الْمُنْزَلِ لَيْسَ كَالْأَثَرِ |
| وَأَعْمَلُ لِأُخْرَى وَلَا تَبْخُلُ بِمَكْرَمَةٍ | فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى حَدٍّ إِلَى قَدَرٍ |
| وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَتْ سَلَاتُهُ | يَنْتَالُهُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ |
| هُوَ الْحِمَامُ فَلَا تَبْغِ زِيَارَتَهُ | وَلَا تَقُلْ لِيَتْبَعَ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ |
| يَاوِجُ مِنْ غَرِّهِ دَهْرٌ فَسَّرَ بِهِ | لَمْ يَخْلُصِ الصَّفْوُ إِلَّا شَيْبَ الْكَدْرِ |
| تَنَافَسَ النَّاسُ فى الدُّنْيَا وَقَدْ عِلِمُوا | أَنَّ الْمَقَامَ بِهَا كَاللَّنَجِّ بِالْبَصْرِ |
| نَظَرُوا لِمَنْ بَادَ تَنْظَرُ آيَةً عَجَبًا | وَعَبْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَابِ وَالْعَبْرِ |

وهو يقول إن التجربة أَصْدَقُ من الخبر إذ ما يُرى بالعين ليس كالأثر ، وأعمل لآخرتك
 ولا تبخل بصالحها ، فكل شيء مقدر ، وكل حى وإن طالَّت سلاته سيخاله الموت فجأة بين
 ورده لشيء وصدره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستطبع عنك ، ولا تظن أنك تستطيع
 أن تكون على حذر منه ، وياوِج من غرِّه زمن سرِّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياوِج
 الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيتها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا
 سرعة اللحم بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن
 ميمون البجائى الملوك المالكين : دارا الفارسى وذابزون اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم
 أنفاهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الانبهايات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على ألسنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى
 العهد العثماني ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثته^(٢) محمد بن
 حواء المستغنى بربه ، وسميت الفريضة الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ،
 بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى
 دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال^(٣) :

| | |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| يا سَامِعَ الدُّعَاءِ يا قَدِيرُ | يا مَنْ إِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ |
| يا مَالِكَ الْمُلُوكِ يا جَبَّارُ | انصُرْ ذَلِيلًا مَالَهُ انْصَارُ |

^(١) سعد الله ١٤٨/٢ .

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .

(٢) نفس المرجع السابق .

ولعبد الكريم الفكيون ، صاحب رسالة في التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ، قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها^(١) :

بأسمائك اللهم أبدأ توسلا فحقق رجائي يا إلهي تفضلاً

وكرر التوسل في هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعا ، وللمفتي المالكي محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسل مطلعها^(٢) :

بأسمائك الحسنی فتحتُ توسل ومنك رجوتُ العفو أسمى مطالبی

(ب) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري يتقدمهم أبو مدين شعيب^(٣) المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حزمهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقه على يد الشيخ أبي عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبي يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل في طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضي إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقره بالعباد في جوارها ، ومن قوله : « بى قل ، وعلى دُل ، فنا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالانحداد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفيا . ومن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله^(٤) الشوذى الإشيلي من كبار العبّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعها للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود^(٥) . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محيى^(٦) الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والنّاشئ فى إشبيلية ، وعلى متصوفيه تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولا فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . ومن نزل بجاية ابن^(٧) سبعين عبد الحق وأبو^(٨) الحسن الششتري ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششتري أن يتركه إلى أصحاب أبي مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فاهلم إلى . وكأنه لم يبق فى القرنين السادس

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

(٢) انتصح الغرنبى كتابه عنوان الدرباة بترجمة ضافية لأبى مدين ونظر نفس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ وانشرف للتادل رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ ونهضة الرواد لحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سبعين

للتنازلى ٧١ - ٧٥ .

(٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدرباة ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع فى ابن سبعين عنوان الدرباة ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدرباة ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستموا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجري ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبريني في عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشاذلي نزيل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون في تعداد من أئجه تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعي أن يكون أكثر التأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التي نزل بها أبو مدين في القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلي بن أحمد الحارثي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وفيه يقول الغبريني : « العالم المطلق الزاهد الورع ، بمن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستوى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ، وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا . وله في التحقيق أو التصوف ^(١) :

| | |
|----------------------------|--|
| ما لنا منا سوى الحال العدم | ولبارنا وجود وقدم ^(٢) |
| نحن بنينا بته حكمة | وخلق بالبنا أن ينهدم |
| أشرقت أنفسنا من نوره | فوجود الكل عن قبض الكرم |
| فرق النفس عن عالمها | باختباء ليس تدنيه الهمم |
| ليس يدري من لنا إلا لنا | ها هنا الفهم عن العقل انهم |
| كلما رمت بذاتي وصلة | صار لي العقل مع العلم جلم ^(٣) |
| يقطعني بخيالات الفنا | عن وجود لم يقبذ بقدم |

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جتنا وإليه نمضي ، ولبارنا وجود أزلي وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهامى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضي باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سوى يدري حقيقتي حتى ليغمض الفهم وتغار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتي تصلني بربي وقف العقل مع العلم في طريقي يمزقتني بخيالات الفناء دون وجودي المأمول مع ربي الذي لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يماصره أبو العيش الخزرجي محمد بن أبي زيد المتصوف التلمساني وسنخه بترجمة . ومن تلامذة الحارثي أبو زكريا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .

(٢) الجمل بالتص يخص به الصوف .

(٣) بارنا : عاقتنا .

يحى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ومازال به الحرف الى ظهره حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد - كما يقول الغبريني - جادة الطريق ، وتشده لئلا يزكيا - فى معنى ما ظهر له وبين له الحاق فيما لم يظهر له - هذه الأيات ^(١) :

| | |
|------------------------------|--|
| جلت لك كلى من شئ تغلبها | طريقا وأبدت لمة من جمالها ^(٢) |
| فطبت بها عشا وتهت لذاة | وقياك الإلماغ برزة ظلالها ^(٣) |
| فكيف ترى لى إذا هى أسفرت | ضحاء وأبدت وارفا من دلالها |
| وكيف بها إن لم ينب عنك شخصها | ولم تغل وقتا من نسال وصلها |
| وكيف يكون الأمر إن أت كتها | وكانتك تحقيقا فحللت لخالها |

وهو يكى عن الذات الإلهية باسم لى ، ويقول إنها كشفت قليلا من شئ تغلبها وأبدت لمة من جمالها فطاب بها عشا وتاه لذة وكثما أظله الإلماغ بجمالها برد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم ينب عنا شخصها ومثال وصلها ، واتحدت بها وأصبحت كائنى هى وتبدلت حال . ويدون ريب تصوف أستاذ الحرفى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والحس ، ولا تصبح الذات العلية لى ولا غير لى بمن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذ الحرفى به وانتفى منها طائفة من آياتها من مثل قوله ^(٤) :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| سفرت على وجه الجميل فأسفرا | وبدا هلال الحسن منها مقفرا |
| ودنت فكاشفت القلوب بسرها | وسقت شراب الأنس منها كوفرا |
| ورأيتها فى كل شئ أبصرت | عيناى حتى غدت كل مبصرا |
| وسمعت نطق الناطقين فكلهم | بالحمد والتسبيح عنها أنصرا |
| وبها فبت عن الفناء وغصت فى | ماء الحياة مسرندا ومدفرا |
| إنصاح قول لا ينهى بمواجدى | ويقه لا يستغل بما جبرى |
| لو كان سر الله يكشف لم يكن | سرا ولكن لم يكن ليذكرا |

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كته البدر فى تمه واكتماله ، ودنت ففرت القلوب سرها وسقتها كوفرا من شراب الأنس . وأحسن كته يراها فى كل شئ من حوله (فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية) وكان

(٣) غاك : أظلك .

(٤) عنوان الدرابة ص ٥٩ .

(١) عنوان الدرابة ص ١٠٣ .

(٢) شئ : متعطف .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرّح بأن إنصاحه لا يقى بمواجهه وكذلك بيانه ، ويقول إن سرائه فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعيد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذة الحارثى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحارثى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله^(١) :

| | |
|-------------------------------------|---|
| روضُ المعارفِ حَضْرَةُ العُرْفَاءِ | وَجَنَّا التَّفَكُّرِ جَنَّةَ العُقَلَاءِ |
| ونعيمُ أهلِ الحقِّ ذَرْكُ حَقَائِقِ | لاحتْ بأفقِ القلبِ حالَ صفاءِ |
| فاقرأ سطورَ الكونِ فى منشورها | بِعِيَانٍ عَنِّي أَوْ بِفَرْطِ ذِكَا |
| وانظر إلى الأكوانِ كيف تمايلتْ | طَسْرِبَا لِسُرُوحٍ عِنْدَ خَفَا |
| وأفاضِ عن بحرِ الجمالِ أهْلَةً | بِهَرَّتْ بِعَاسِنِهِ بِدَرِّ سَمَاءِ |
| وتذكرتْ نجدا فهاج لذكره | وَجَدْتُ ونَادَى الشوقُ بِالرَّحَا ^(٢) |
| ورأتْ به كُلَّ العوالمِ أَحْكَمَتْ | فَتَرَيْتْ وَتَوَشَّحَتْ بِضِيَاءِ |

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجنّات الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاع وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وترينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد^(٣) الله بن الحجاج محمد بن أحمد بن محمد اللخمي وأعظم أهل زمانه ، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل ما بطرق أذنه ، استقله المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتيه ، ويجهز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماء حجة الحافظون وحجة الواعظون ، توفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، وما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

| | |
|-----------------------------|--|
| غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريبِ | عليلُ القلبِ من حُبِّ الحبيبِ |
| إذا ما الليلُ أظلم قام يحكى | ويشكو ما يكنُ من الوَجيبِ ^(٤) |
| يقطعُ ليله فِكْرا وذكْرا | وينطقُ فيه بالعجبِ العجيبِ |

وتعرف الخلف ٣٦١/٢ وفيه فقه ابن اللحام لا الحجاج .

(٤) الوجيب : الخفلقان .

(١) عنوان الغرابة ص ٢٢١ .

(٢) البرساء هنا : شدة الحب ولواصيه .

(٣) انظر فيه بنية الرواد لحيى بن خلدون ١٠٢/١

بِهِ مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِ غَرَامٌ يَجْلُو عَنْ التَّطَبُّبِ وَالطَّبِيبِ
وَمَنْ يَكُ هَكَذَا عَبْدًا مَحْبًّا تَطِيبُ ثِيَابُهُ مِنْ غَيْرِ طِيبٍ

وهو يصف نفسه بنزلة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهدج ليلا وهو ييكي ويشكو ما يكن من خفقان قلبه ، وما يزال يقطع ليله فكرا وذكرا لربه سبحانه مستغفرا وبه من حبه غرام يزع على التطيب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لآلئها بره تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . ونلتقى بعد ابن الحجام في تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجري لابن أبي العيش وسترجم له . وتضمن علينا كتب التراجم بشعر صوفي في القرن الثامن حتى إذا كنا في القرن التاسع الهجري التقينا بصوفي كبير هو إبراهيم التازي نزيل وهران وسترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخرى قصيدة في التصوف وآدابه يسميها القدسية .

ونمضي إلى العهد العثماني فتكثر المنظومات في الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح وتمثل لذلك بسنية ابن باديس في طريقة عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م ومطلعه^(١) :

أَلَا سِرٌّ إِلَى بَغْدَادَ فَهَيَّ مَنَى النَّفْسِ وَحَدَّثَ بِهَا عَمَّنْ تَوَى بَاطِنَ الرَّئِيسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائي التلمساني قاضي بجاية وسمى شرحه : « أس الجليس في جلّو الخناديس عن سنية ابن باديس » . وشرحت أيضا المنظومات في التصوف وأحواله وفي مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخرى ، شرحها الورتلاني وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية في شرح ألفاظ القدسية » . ويتكاثر في العصر التصوف الشعبي والدرابوش وتدخل عليه شعوزات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبي العيش وإبراهيم التازي .

أبو العيش^(٢) بن عبد الرحيم الخزرجي

هو محمد بن أبي زيد عبد الرحيم (وفي بعض الروايات عبد الرحمن وفي بعضها عبد الحق) بن محمد بن أبي العيش التلمساني إشبيلي الأصل وكان فقيها جليلا ، روى يلبه تلمسان عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م وعن أبي عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م وعن أبي محمد بن حوط الله

٣٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذيل
والكلمة لكتابي الوصول والصلة محمد بن عبد الملك
المراكشي (طبع المغرب) ص ٣١٣ .

(١) سعد الله ١٣٦/٢ - والرس : الفهر .
(٢) انظر في أبي العيش الخزرجي وشعره بنية الرواد
ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الانهاج ص

التوفى سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٦ م وعن أبي عبد الله بن عبد الحق التوفى سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنف كتابا فى أصول الفقه وعقائد أصولية فى الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله فى التصوف نظم كبير وكذلك فى الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه البارى جلّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتى ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله فى التصوف :

| | |
|---|--|
| اللَّهُ قُلٌّ وَدَعِ الْوَجُودَ وَمَا حَوَى | إِنْ كُنْتَ مَرْتَادًا بِلَوْحٍ كَمَالٍ |
| فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ | عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ |
| وَالْعَارِفُونَ فَنُوا وَلَمْ يَشْهَدُوا | شَيْئًا سِوَى التَّكْبِيرِ الْمُتَعَالِ |
| وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكَا | فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْآسِقَالِ |
| مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ | فَوَجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ |
| فَالْمَحْ بَطْرَفِكَ أَوْ بِعَقْلِكَ هَلْ تَرَى | شَيْئًا سِوَى فَعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ |
| وَتَنْظُرُ إِلَى أَعْلَى الْوَجُودِ وَسُفْلِهِ | نَظَرًا تَوَيْدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ |
| تَجِدُ الْجَمِيعَ يَشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ | بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالٍ |
| وَجِبَ الْوَجُودُ لِدَاتِهِ وَصِفَاتِهِ | فَرَدًا عَنِ الْأَكْفَاءِ وَالْأَمْثَالِ |
| يَقْبَى وَكُلٌّ بِضَمَلٍ وَجُودُهُ | مَا وَاجِبٌ كَمَقْيَدٍ بِزَوَالِ |

والأبيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس فى الوجود سوى الله فتعلق به ودع ماسواه ، فالكل - كما يقول فى البيت الثانى - عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا فى ربهم ، ولم يشهدوا فى الوجود سواه ، ويقولون إن من لا وجود لذاته من ذاته كربّ العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بقه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثله شىء فى الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

| | |
|---|---------------------------------------|
| هُوَ مُنْشِكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ غُلُوٍّ إِلَى | سُفْلٍ وَمَتَدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالٍ |
| فَالْكُنْ إِلَيْهِ بِهَيْئَةٍ غُلُوبَةٍ | مُنْتَرِحًا عَمَّا سِوَى التَّقْصَالِ |
| وَهُوَ الَّذِى تَرْتَجَى وَيُخْشَى لَا تَلْدُ | بِسِوَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ |
| فَالشَّرْعُ جَاءَ بِذَا وَقُورِ الْهُدَى | قَدْ أَبْدَنَهُ فَعِشْ خَلَى الْبَالِ |

وأين أُنبي العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تَلذَّ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسك بذلك تعش رضى النفس على البال . وله آيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| تعت بما رُزقتُ فليستُ أُنسى | لدار أُنبي فلانٍ أو فلانٍ |
| وآثرتُ المقسَامَ بِكسرِ بيتي | ولا أحدُ أراهُ أو يراى |
| ولا ألقى خليلاً غيرَ صَبْرٍ | مُعِينٍ فى المصارفِ أو معلى |
| وقد أبغنتُ أن الرُّزقَ آتٍ | وإن لم آتِه سَعياً أُنسى |
| وقد حققتُهُ فهما وعِلماً | وقد شاهدته رأى اليانٍ |
| فلازمَ ذا بإخلاصٍ تَمَكَّنَ | هنا وهناك من أُنسى مكانٍ |

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رزقِ الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إني قنع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أُنبي فلان ، إذ تكفينى كِسرة بيتى ولا أحد يراى متذللاً لأحد ، ولا أبحث عن خليل يمينى ، غير صبر أَسْتعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعلى ، وقد أبغنتُ أن رزقى آتٍ سمعت إليه أو لم أسمع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعِلماً وخبرة . واعمل بذلك تحظ بأرفع مكان .

إبراهيم^(١) التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكبَّ على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيخوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف وليس الخرقه من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى نبي مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الموارى لقاء حسناً ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، ومن تلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبه الخرقه الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده محتباً بكلام شيخه الموارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه - والجاهل لا تصافيه - والأحقى لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ذكر ذلك

(١) انظر فى ترجمة الهازى تعريف الخلف ١١/٢
والجنان ص ٥٨ .

غير واحد من ترجموا له . وشعره الصوفى والنبوى كثير وبموج الأول بالدعوة إلى الهبة
الرهبية من مثل قوله :

| | |
|--|--|
| نَعْدُ الْأَرْبَعِينَ تَرُومُ هَزْلاً | وهل بعد العشيّة من عَرَارٍ |
| فَحُلْ حَطُوطَ نَفْسِكَ وَاللَّهُ عَمَّا | وعن ذكر المنازل والديار |
| نَمَا الدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا بِشَيْءٍ | وما أبانها إلا عَوَارِي |
| قُبْ وَاخْلَعْ عِذَارَكَ فِي هَوَى مَنْ | له دارُ النِّمِيمِ وَدَارُ نَارٍ ^(١) |
| جَمَالَ اللَّهُ أَكْمَلَ كُلِّ حُسْنٍ | فَلِلَّهِ الْكَمَالُ وَلَا مُمَارَى |
| وَذَكَرُ اللَّهُ مَرَهُمْ كُلُّ جُرْجِرٍ | وَقَفَّعُ مِنْ زَلَالٍ لِلْأَوَارِ ^(٢) |
| وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا | فَدَعُ عَنْكَ التَّمَلُّقَ بِالشَّنَارِ ^(٣) |

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلاً بعد سن الأربعين ، والشطر الثانى شطر بيت للصمة
القشيري ، والمرار نرجس يرى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إليه لن يتمتع بعد
العشيّة بمرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازي ، ويقول دع
ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم
ودار الجحيم ، فنجّله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال
بارد لكل عطش متقد ، إليه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعدّ قبيحا
منك أى قبح . وله :

| | |
|--|---|
| حَسَامِي وَمَنَاجِي الْقَوْمِ وَشَرِيعِي | ومنجاي في الدارين من كل فتنة |
| عِيَّةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَذَكَرُهُ | على كل أخيلى بقلبي ومهجى |
| وَأَفْضَلُ أَعْمَالِ الْفَتَى ذِكْرُ رَبِّهِ | فَكُنْ ذَاكِرًا يَذْكُرُكَ بَارِي الْبَرِيَّةِ |
| وَمَا مِنْ حَسَامٍ لِلْمَرِيدِينَ غَيْرُهُ | وَكَمْ حَسَمُوا ظَهْرًا لَزَلٍ وَبَاهِتٍ ^(١) |
| وَكَمْ يَهْدُوا شِمْلًا لَذَى جُزْءِهِ وَكَمْ | بَادُوا عَدُوًّا مِنْهُمْ بِمَضْرُوءِ |
| وَكَمْ دَافَعَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِذِكْرِهِمْ | عن الخلق من مكروهة ومبيرة ^(٢) |
| وَأَفْضَلُ ذِكْرٍ دَعْوَةُ الْحَيِّ فَتَكُنْ | بها لهجاً في كل وقتٍ وحالةٍ |
| فَكثرةُ ذِكْرِ الشَّيْءِ أَبَدُ حُبِّهِ | وَحَبُّ الْفَتَى تَشْرِيفُهُ بِالْمُجْبَرَةِ |

هو يقول إن شجاعتى ومنهجى القويم فى الحياة وشريعتى ومنجاي فى الدارين من كل

(١) زل : حالب . باهت : متعش .

(٢) مبيرة : بخلصة ، مهلكة .

(١) خلع الملل : أُرَادَ بِهِ الشَّاعِرُ الْإِهْمَاكَ فِي الْحُبِّ .

(٢) الأول : حرارة العطش .

(٣) الشنار : الحب والتميع والعار .

فتنة كل ذلك في محبة رب العالمين ولئلي لأذكره في كل حين بقلبي ومهجتي ، وهل في الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فأذكره دائما ، اذكر خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حاسم سواه ، وكل قضا على زار هازي وباهت متعجب وكل بدؤوا جمعا جريئا وكل بآدوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكل دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكر دعوة الله فكرها في كل وقت وإن كثرة ذكر الشيء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أي شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت في الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مرادى من المولى غاية آمالي دوام الرضا والقنوع عن سوء حالي
واسقاط تديري وحولي وقسوتي وصدقني في الأحوال والفعل والقالي

والتأزي يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر في شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له في حال ولا في فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلمى في القرن العاشر الهجرى بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالاً للسجدة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر في ترجمته له . ومنها في وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفى وتابعه :

وعنم مريد في انقيادٍ لكامل له خيرة بالوقت والعلم والحال
هو السر والإكسير والكيمياء لمن أراد وصولاً أو بنى نيل آمال
وقد عديم الناس الشيوخ يقطرنا وآخرهم شيخي وموضع إجلال
وقد قال لي : لم يبق شيخ بقرنا وذا منذ أعوام خلون وأحوال^(١)
يشير إلى أهل الكمال كمثل عليه من الله الرضا ما تلا نال

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة في يد شيخه الخبير بزمه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكلية ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظم الشيخ الصوفى إذ يجعله السر الإلهي والإكسير والكيمياء اللذين يحولان المعلن ذهاباً ، ويده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نؤثر أن يرفع الشيخ التأزي عن مثل هذه الدعاوى في شيوخ الصوفية ، التي جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعد ذلك لظهور دجاجة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفى سنى كبير . والتأزي يستمر فيقول إن الناس عدمو

(١) خلون : مضين . أسوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحفيقيين. وآخريهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحفيقيين .

5

شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلمى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله^(١) :

| | |
|--|---|
| وَقَلْبُكَ خَفْصَاقٌ وَدُمُوعُكَ بِمَنْجُمٍ ^(٢) | أَمِنْ أَجَلٍ أَنْ يَأْتُوا فَوَادِكَ مُفْرَمٌ |
| وَقَلْبُكَ مَعَ مَنْ سَارَ فِي الرِّكْبِ مِنْهُمْ ^(٣) | وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ جَمْعَكَ مَنجَدٌ |
| فَوَادَى بِتَذْكَارِ الصُّلْبَةِ يُضْرَمُ | وَمَا ضَرْهُمْ لَوْ وَدَّعُوا يَوْمَ أَوْدَعُوا |
| عَسَى أَنْظُرَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَأَتَمُّ | وَلَيْسَ لِأَدْعَاؤِهِ دَعْوَةٌ مَذْنِبٌ |
| وَمَا شَدُّ مَا يَلْقَى الْفَوَادَى وَبِكُمْ | فِيَا طَوْلَ شَوْقِي لِلنَّبِيِّ وَصَحْبِهِ |
| فَأَنْتَ شَفِيعُ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ هَيْمٌ ^(٤) | إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ أَرْفَعُ حَاجَتِي |
| وَلَكِنْ عَفْوُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمُ | وَقَدْ أَثْقَلْتُ ظَهْرِي ذَنْبًا عَظِيمًا |

وهو لا يخفى صابته بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارته الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أجد جسمه وفارق قلبه منهما مع من يرودون نهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقي الذين ستكحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعوني يوم رحيلهم حين أودعوا فى فَوَادَى نَارِ الصُّلْبَةِ مضطربة ملتجة ، ولئى لأدعو الله دعوة خاشع بل دعوة مذنب أن يتاح لنظري أن يكحل بنور البيت العتيق وأقبل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فَوَادَى وَأَكْظَم . ولئى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام أخذ بخناقهم ، وقد أثقلت ظهري ذنوبى ، ولكن أملى فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الفسلى فقيه مدينة الجزائر وأديها وشاعرها فصاحة لسان وإحكام بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشر الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله^(٥) :

(١) عنوان الدرر ص ٧٠ .

(٢) هيم : عطاش .

(٣) يسجم : يسيل .

(٤) عنوان الدرر ص ١١٢ .

(٥) منجد : فى نجد . منهم : فى نهامة .

لكل نبي دعوة مستجابة
إلى يوم لا ينفي عن المرء منطق
ويوم يفر المرء من وليد له
وكل نبي سأل الله نفسه
خلا شافع فينا كريم مشفع
فيا ربّه بَلِّغْ عَيْدَكَ قـِـبره
وجازِه عنا بالذي أنتَ أهله
وسئلهم طسراً غيباً لأئمة
فصيح ولا يذلسي البليغ بحججه
حيب ولا يجزى أب بؤوسه
ويضرب صمخاً عن سؤالي لأئمة^(١)
به يشمل الله العباد برحمته
ليحظى بتقبيل لظاهر تربته
أعز السورى أنت الكفيل بعته

وهو يقول إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبا دعوته إلى يوم القيامة الموصوف في سورة عبس بقوله جل شئت : إنه يوم الصاخة التي تصخ الآذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أمهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها في هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يلفه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير السورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . ونلتقي إبراهيم^(٢) بن أبي بكر التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م والذي انتخب به أبو القاسم الحفناوى كخلفه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها - كما ذكر من ترجموا له - للمشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أدوار ، وله مدحة في المولد النبوى ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره في مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطلع القرن الثامن عند بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصصه بترجمة.

وكان المشرق قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوى في ليلة الثمانى عشر من ربيع الأول في القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان فى إربل لأوائل القرن الثمانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبي والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس^(٣) العزفى الشريف إلى سبعة مدبته ، وعنها شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أنشاعه فى

(١) يضرب صمخا : يمرض .

(٢) له ترجمة فى مجلة الرواد لبحى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٢٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف

١٣/١ .
(٣) تومل الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية لها هو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) . يقول أبو عبد الله النسي في كتابه^(١) : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها في احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق (وسائل) مصفوفة ومجالس مبثوثة وبسط مشاة ، ووسائل بالذهب مشاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالمالات ، وتفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، وتب فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخز الملون ، بأيديهم مبخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . ويعقب ذلك يدا المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون في كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزنة المنجاة « الساعة الدقاقة » الموصوفة في الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمائية ، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حبلها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة ويدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مدح في أبي حمو^(٢) :

أمولاي يا بن الملوك الألى لهم في الممالي سنى الرتب
تولت ثلاث من الليل ألفت لك الفخر في عجبها والعرب
فدُم حُجة الله في أرضه تسأل الذي شئت من أرب

ولا يزالون في هذا الحفل النبوي إلى قبلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حي على الفلاح يشر بصلاة الصباح . وكانت كل ليلة في المولد النبوي لكل عام تبدأ بمدحة نبوية ، وتسمى المدحة في مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت في مولده ، ومن قول أبي حمو في إحدى مولداته^(٣) :

حياتي وموتى في هواكم وإني أعلى نفسي فيكم بالأمس
فيا أهل نجد أجدوني على الهوى فبني في بحر من الشوق لجي^(٤)
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى وحالي على حكم النوى غير مخفى

(١) الرياض ٢٤٣/١ .

(٢) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لأبي عبد الله النسي

ص ١٦٦ .

(٤) لمي : متراكم الأمواج .

(١) زاهر الرياض ٢٤٣/١ .

حي زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان

لأبي عبد الله النسي ص ١٦٢ .

(٢) نظر في ليات المنجاة طوال ساعات الليل أزهار

تَنَاسَيْتُمْ عَهْدِي وَحَفِظْتُ مَوَدَّتِي
وَمَا أُرْتَجِي إِلَّا شِفَاعَةَ خَيْرٍ مِّنْ
بِي يُرْتَجَى الْعَاصُونَ غُفْرَانِ ذَنبِهِمْ
بِمَوْلَدِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ كُلُّهُ
وَجِئْتُكُمْ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ بِحَنِيفٍ
أَتَى بِالْهَدَى يَهْدِي بِيَدِي حَنِيفِي^(١)
وَمَا عَمِلُوا فِي الدَّهْرِ مِنْ عَمَلٍ سِوَى^(٢)
وَكُلُّ شَيْءٍ شَمْسٍ وَتَدْرِي وَتَدْرِي

فحياة « أبو حمزة » وموته في هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لثمناء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، وبسبب بآهل نجد أن ينجده على الهوى فإنه غارق من الشوق في بحر لجي كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب في تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتنبأ لحظة شك ، فيقول : تناسيت عهدي ومودتي ونار حبكم في قلبي لا تخمد ولا تنطفئ ، وإن كل رجاء أن يشفع لي خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنيفي مستقيم لا عرج فيه ، وإن العاصين ليقفون بيله آمليين في شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب دري . وللغري مولدة في نفس السنة التي قال فيها أبو حمزة مولدته السالفة وفيها يقول^(٣) :

شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْهَدَى
هُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي يَهْمِي بِهَا
يَا مَنْ لَهُ قَبْلَ الْوِلَادِ وَبَعْدَهُ
أُنْزِلَتْ لِلسَّبْعِ الطُّبَاقِ فَأُقْبِلَتْ
وَتَرُمُكْتَ بِصَلَاتِكَ الْأَرْسَالَ إِذْ
رُفِئَتْ لَكَ الْحُجُبُ الْعَظِيمَةُ فَاعْتَلَى
حَتَّى سَمِعْتَ صَرِيرَ أَقْلَامٍ بِمَا
تِلْكَ الْمَرَاتِبُ لَمْ يَكُنْ لِيُنَالَهَا
بَدْرُ الْجَلَالَةِ نَوْرُهَا الْمُجَسِّمُ
فِي الْخَلْقِ بِالْحَقِّ الْمِينِ وَيَحْكُمُ^(٤)
آيَاتُ إِرْشَادٍ لِمَنْ يَتَوَسَّمُ^(٥)
أُمْلَاكُهَا طُورًا عَلَيْكَ تَسَلَّمُ
صَلَّتْ وَأَمَّتْ إِمَامُهَا الْمُتَقَدِّمُ
بِكَ لِلْعَالِي ذَاكَ الْمَقَامُ الْأَعْظَمُ
فِي اللَّوْحِ مَحْفُوظًا تَخْطُ وَتَرْسُمُ
إِلَّا النَّبِيَّ الْهَاشِمِيُّ الْأَكْرَمُ

والغري يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة المنير ونورها الدرر المجسد ، إنه رحمة الله التي لا تزال تنصب في الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذي سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير وبأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافون به مسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس قائم به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهي تكتب في اللوح المحفوظ ما خط للناس ورسوم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(١) حنيفي : مستقيم لا عرج فيه .

(٢) سى : سى ، وخفف للثانية .

(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .

(٤) يهيم بها : يصب بها ويهش .

(٥) يتوسم : يفرس ويقتل .

بها أحد إلا النسي العربي الهاشمي العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون في الجزء الثاني من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدي أبي حوموسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سَيِّدُ الْعَالَمِينَ دُنْيَا وَآخَرَى أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِي الْمَلَأِ وَالسَّاحِ
صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَرْفَعُ الرُّسُلِ قَدْرًا وَسَرَّاجُ الْمَدَى وَشَمْسُ الْفَلَاحِ
مَنْ رَفَعَنِي فِي السَّمَاءِ سَبَقًا طَبَاقًا وَرَأَى آيَ رَبِّهِ فِي انْتِضَاحِ^(١)
وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا ظَانِسِرَا فِي الْمَلَأِ بِكُلِّ اقْتِرَاحِ
مَنْ يُجِيرُ الْوَزَى غَدًا يَوْمَ يُجْزَى كُلُّ عَاصِرٍ وَطَاسِعٍ بِاجْتِرَاحِ^(٢)
مَنْ إِلَى حَوْضِهِ وَظِلُّهُ لِسَوَاهِ يَلْجَأُ النَّاسُ بَيْنَ ظِلَامٍ وَضَاحِ^(٣)

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وآخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج المدي وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كما جاء في سورة النجم ودنا منه أي من جبريل (قاب قوسين أو أدنى) أي قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من حجة الله له أنه سيكون المجير لا للطائفتين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر : يوم الحشر الموعود ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التي تلقى في الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوي يستطرد يحيى بن خلدون في مولديته - كما استطرد الثغرى أيضا في مولديته - لمديح أبي حوموسى . وعادة يتقدم المديح النبوي في المولدية نسب يكتظ بالوجد والصبلة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكري الصوفي معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعره النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وله في مديح المدينة قوله^(٤) :

دَارُ الْحَيِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا وَتَحْنُ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا
وَعَلَى الْجَفُونِ مَتَى مَمَعَتْ بَرْزَوْرَةٌ بِمَا بَيْنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا
فَلَا تَنْتَ أَمْتُ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةٍ وَظَلَّلْتَ تَرَفُّعُ فِي ظِلَالِ رَبَاهَا^(٥)
مَعْنَى الْجَمَالِ مَتَى الْخَوَاطِرِ وَالَّتِي سَلَبَتْ عَقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا

الشمس .

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .

(٢) تعريف الخلف ٢٤٠/٢ .

(٣) اقتراح : اكساب السيفات والمناجات .

(٤) طية : المدينة .

(٥) ظام : في أشد العطس . ضاح : أصله حريرة

لا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذِّكْيَ كَثْرَتُهَا هيها! أين المسك من رَيّاها^(١)!
طابتْ فَإِنْ تَبَغَّ الطَّيْبُ بِمَا فَنَى فأدوم على الساعاتِ لَتَمَّ ثَرّاها

والبسكرة يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهولها ويملاكَ الحنين شوقاً إلى ذكرها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حللت بها وتقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حلّاه عقول عاشقها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيها ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغّ الطيب والتعطّر فأدوم تقبيل ثراها الذكي العطر . وتلقنا شروح كثيرة لبردة البوصيري في المديح النبوي ، من ذلك شرح لسعيد^(٢) العقباني المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة^(٣) شروح لآمين مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة في شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب ، وشرح قصيدة الشقراطسي التونسي النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطسية . وتلقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجري ، وله ديوان جميعه مديح نبوي ، ولم يُنَجِّ لي أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المديح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديها بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول^(٤) :

يا أرحمَ الراحمين ارحمَ وجُدْ كرمًا يا أرحمَ الراحمين ارحمَ وجُدْ كرمًا
واغفرْ بطله ذنوبًا ليس يغفرها واغفرْ بطله ذنوبًا ليس يغفرها
وتجنّى واغفرْ عني وأتبنى مِنَعًا وتجنّى واغفرْ عني وأتبنى مِنَعًا
وصلْ ربُّ على المختار من مُضَرِّ وصلْ ربُّ على المختار من مُضَرِّ
روحِ العوالم سِرُّ الكون أجمعه روحِ العوالم سِرُّ الكون أجمعه
عليه صلّى إليه القُرْش ما اتضحت عليه صلّى إليه القُرْش ما اتضحت
وآله القُرْ والأصحاب ما خطرت وآله القُرْ والأصحاب ما خطرت

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفرع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربي خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسیر المال الذى يرفعها إلى الذرى وعلة الملل فى الوجود

(١) الإكسر : مادة تحول المعدن ذمبا .

(٢) العارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى

الربيع .

(٣) الحضل : الخضراء الندية .

(١) رَيّاها : راحها الذكية الطيبة .

(٢) البستان ص ١٠٦ .

(٣) البستان ص ٢١٠ .

(٤) الديوان ص ٦٦ .

(٥) الأوزار : الآثام .

أجميمه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيرى وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعكس ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أوتنة الريح أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريلة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثماني ، وفيه يكثر المدح النبوي كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون التوفى سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المدح النبوي وقد رتب على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشغنى بجله محمد أمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا فى قافية المعزة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسلى الذى ترجمنا له فى شعراء المهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصحى ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرة الأفيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عتوته الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ راجح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أمتدنا قطعة من غزل أولها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مدحها النبوي^(١)

| | |
|---------------------------|--|
| هل رأيتم أو سمعتم حسنا | فى الورى من حُسنه الحسن اكتمل |
| أحمد المبعوث فىنا رحمة | خير من قام بحق وكفل |
| آية الله أمين صادق | وحبيب الله بر متفضل ^(٢) |
| قد تغلى - إذ تجلى - بذرة | بالبها من ربه عز وجل |
| فامتطى متن جوارى للعلا | خافتي كالبرق للوصل زفل ^(٣) |
| ثم رُسل الله ليلًا وارنقى | للنى يطوى من الساح الكليل ^(٤) |
| آدم المبرور صلى خلقه | وأولو العزم مصايح الملل |
| قد رأى من ربه مالا رأى | قبله طرّف نبي مرّسل |

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعة التورقية ؟ إيه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظم من رعى الحقوق وأداها ، آية الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنداسى تحقيق الأستاذ راجح بونارس ٤٠.

(٢) رقل : زما وتبحر فى سيرة

(٣) الساج : يمدح السموات . الكليل : يمدح الطبايق .

(٤) متضل : شجاع .

الصادق وحببيه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حنَّ الله بهالة من البهاء ، فسخرَ البراق له يهرج به إلى السموات السبع ، وأمَّ الرسل ليلاً تكريماً له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعاً تكريماً لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثالثة قائلا^(١) :

| | |
|---|--|
| طَهَ الْأَمِينُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ | يَوْمَ التَّلَاقِ وَطَى الْخَلْقَ مَنْشُورُ ^(٢) |
| مَنْ سَبَقَ الرُّسُلَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَرْزِلِ | فَضْلاً وَلِلْخَلْقِ بَعْدَ الرُّسُلِ تَأْخِيرُ |
| وَانْقَضَ إِيَّوَانُ كَسْرَى عِنْدَ مَوْلَدِهِ | وَعَابَ مِنْ نَارٍ وَنَطَرَ الْقُرْسُ تَسْمِيرُ ^(٣) |
| وَجَلَّلَ الْأَنْقَ مِنْهُ النَّوْرُ فِي سَحَرِ | كَأَنَّ فِي الْفَجْرِ هَذَى الصَّبْحِ مَنْحُورُ ^(٤) |
| وَفِي السَّمَاءِ خَيُولُ الشُّهْبِ رَاكِضَةٌ | كَأَنَّهَا فِي وَغَى الْجَوِ الزَّنَابِيرُ ^(٥) |
| وَفِي الْمَنَازِلِ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ عَلِمْتُ | بِمَوْلِدِ الْمُصْطَفَى الْوَلَدَانِ وَالْحَوْرُ |
| تَزِينَتْ وَازْدَهَشَتْ وَسَاغَ مَشْرِئُهَا | وَطَرَّتْهَا مِنَ الطَّيْرِ الزَّمَامِيرُ ^(٦) |
| حَوْلَ الْخِيَامِ الْغُصُونُ اللَّذْنُ سَاجِدَةٌ | وَالْمَلَائِكُ تَهْلِيلُ وَتَكْبِيرُ |

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرْجَى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشوراً تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزل كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقضَّ إيوان كسرى وانطفأت نار القرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قروناً ، وعم الأنق منه نور فى السحر ، حتى ظنَّ أن هذى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشاراً به . أما فى السماء فإن الشهب - ملائحتها - زنابير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت وامتلات زهوا وسرورا وغتها الطيور بمخلف الأغصان ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لرهبها شكراً . وهللت الملائكة وكبرت تكبيراً .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد^(٧) بن عمار بترجمته أن مجلى حلية المولدات ومقدم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صلابها ومذلها عاشق الجنب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد المتجلاتى ، أغنعه الله بمتفهق رضوانه ، وألحقه مطارف (حلل) التكريم فى

(٥) الزنابير جمع زنبور : حشرة تلسع .

(٦) الزمامير : يردد أصوات الطير وألحانها .

(٧) قطر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .

(٢) طى الخلق : الكتاب الذى كان مطوياً عن الخلق .

(٣) تسير : اشتغال وترويح .

(٤) الهدى : ما يضيى به من الإبل وغيرها نسكا .

أعلى جنته ، ويقول الحفناوى أثبت من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه^(١) :

بِاللّهِ حَادَى الْقَطَارُ قِفْ لِي بِتِلْكَ الدِّيارِ واقْصِرَ السَّلامُ
سَلِّمْ عَلَى عَرَبِ نَجْدٍ واذْكُرْ صِلَةَ وَجْدِي كَيْفَ يُلامُ
مَنْ بَادَرْتَهُ الدُّمُوعُ شَوْقًا لَتِلْكَ الرِّبُوعِ مَعَ الْمَقَامِ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب وبقرته السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقا لتلك الربوع وسكانها ومقامه العظيم . والمتجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجله مصليا خلفه (تالياله) سبحانه البلاغة وقسُ الرعاة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وتُشد له موشحاً نبوياً على غرار موشح المتجلاتى وفيه يقول :

بِاللّهِ طَاوَى الْقَفَارِ عَرُجْ بِذَلِكَ الْمَزَارِ حَيْثُ الْكَرامِ
عَرُجْ بِرَبْعِ الْمَعَالِ وَاِبرِدْ بِذَلِكَ الْوِصالِ حَرَّ الْفِرامِ
حُبُّ الْمَشُوقِ الْكَيِّفُ أَنْ شَتْلُهُ بِالْحَبِيبِ لَهُ الشَّامِ
نَأَتْ عَلَيْنَا الدِّيارُ وَفَى الْفُؤَادِ جِمارُ لَهَا انْقِصَامِ

وابن على يقول : بالله يا فاطم القفار عرُجْ نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالي وبرد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملتهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يا نسيما بات من زهر الرُّبى يفتنى الركبَانِ
احملين منى سلاماً طيِّباً لأخيل البانِ
افتران منى سلاماً عَيْباً إن بدت نَجْدُ
إن لى قلباً إليها شَيْباً شَفُّهُ وَجْدُ

وموشحه يهبط أسلوبها درجة عن الموشحين السلفتين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن التالى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . وتحدث الآن عن نبي عبد الله محمد بن عبد الله المطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المقطوعة التالية وتاليفها تعرف الخلف

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلنا عنه في آخر ديوانه النبوي الذي سماه : « نظم الدرر في مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذي اشتهر به الديوان لأنه أخف وأطرف ، وجاء في ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع فصائد ، فلما تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بني مرزغة من أقصى إفريقية من أرض متيجة » . ومتيجة هي الإقليم الذي تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ويقول المقرئ : « ليس هو بلبن العطار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموي [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربي وذلك مشرق فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى في اشتراكهما بلبن العطار » . ويذكر المقرئ - وتبعه في ذلك الحفناوي - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأشهرى روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر في ذى القعدة أوآخر عام سبعة وسبعمائه . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرئ على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران يتهيان بحرف يلتزم فيهما بكل دور كقوله في تسديس له^(٢) :

| | |
|--|--|
| صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْأَكْمَلِ | صَلُّوا عَلَى الرَّوْضِ الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ |
| صَلُّوا عَلَى الْمَادَى النَّبِيِّ الْأَخْفَلِ | المصطفى الْأَرْقَى الْأَنْزَهْ عَجَلِ |
| فيه تقدّم وحده تقدّما | صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا |

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهي العاطر المادى لأنته الخاتى عليها واختمتني بهداها ، المصطفى الذى صمد به ربه لأنزه وأروع مقام - تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجى ربه ، صلوا عليه وسلّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر في كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًا بديها للتسديس . ويذكر المقرئ للعطار تسديسًا ثلثيًا ، نذكر منه هذا الدور :

(١) الخلف لأبي القاسم الحفناوي ٥٥٠/٢ .
(٢) نفس المرجعين السابقين .

(١) انظر في ترجمة العطار نفع الطب للمقرئ (طبعة
د. إحسان عباس) ٤٨٠/٧ وما بعدها وكتاب تعريف

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَامَى فَخْرُهُ صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَأَرَّجَ نَشْرُهُ صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَلَسَّقَ دُرُّهُ
عَقَدَ السَّنَاءَ لِمَجْدِهِ إِكْلِيلًا صَلُّوا عَلَيْهِ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلًا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم في نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره بفوح من كل جانب ، ومن لآله تعالىمه تطرد لأتباعه في أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجاً عظيماً ، صلوا عليه بكرة وأصيلًا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامي قبله . ويثُ العطار في قصيدة له حيناً ظاناً إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشداً :

أَهْدَتْ لَنَا طِبِيَّةَ الرِّوَاثِ يَثْرِبُ فَهَبُوهَا عِنْدَ التَّنَسُّمِ يَطْرِبُ
رَقَّتْ فَرْقٌ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالْأَسَى قَلْبٌ بِبِزْرَانِ الْيَعَادِ يَعْذِبُ
شَوْقًا إِلَى أَسْنَى نَبِيِّ حُبِّهِ يَحْلُو عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَعْذِبُ
فَرْنَا بِهِ بَيْنَ الْأَنْبَاءِ يَدِيمَةُ بُدَا عَلَيْنَا بِالْأَمَانِيِّ تَسْكِبُ
حَازَ السِّيَادَةَ وَالْكَمَالَ عَمْدُ فَإِلَيْهِ أَشْنَاتُ الْحَمْدِ تَنْسَبُ
عَمِيُونَا وَنَبِينَا وَشَفِيعُنَا يُدْنِي إِلَى وَرْدِ الرِّضَا وَيَقْرُبُ
إِنْ طَلَبْتَ الْأَنْفَاسُ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّ رَمَاهُ أَذْكَى فِي النَّفْسِ وَأَطِيبُ

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيباً ، واختلطها في هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طرباً ، ويقول إنها رقت ورق معها قلبى المعبذ بالصليبة والوله شوقاً إلى أعظم نبي حبه دائماً عذب مستحب مهما كان الزمان مرّاً كريهاً ، ويقول إنا فرنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الري لا يقاس في شيء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى في النفوس وأطيب في القلوب . ومن قوله منشوقاً إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

بُدَا تَشْوَقُكَ أَوْ تَرَوْكَ يَثْرِبُ فَلِإِذَا مَتَى يُفْصِلُكَ عَنْهَا الْمَرْبُ
هِيَ جَنَّةٌ فِي النَّفْسِ يَعْذِبُ ذِكْرُهَا وَالْقَرَبُ مِنْهَا وَالْتِدَانِي أَعْذِبُ
وَالشَّوْقُ يَشِينَا إِلَيْهَا كَلِمَا وَقِفْ الْحَمَامَ عَلَى الْأَرَاكِ يَخْطِبُ
يَا حَبْدًا فِي رَيْعِ طَيْبَةٍ وَقَفَّةً بَيْنَ الرِّكَائِبِ وَالْمَدَامِخِ تَسْكِبُ
حَتَّى يَرْقُ لِلْسَّوْعَتِي وَصَبَابَتِي وَدَمُوعَ عَيْنِي كُلِّ مَنْ يَثْرِبُ
شَوْقًا لِمَنْ زَانَ الْوُجُودَ وَحُبُّهُ يَدْنِي إِلَى رَبِّ الرِّضَا وَيَقْرُبُ
خَيْرُ السُّورَى عَمِيُونَا وَنَبِينَا حَزْنَا بِهِ الْجِسَاءَ الَّذِي لَا يُسْلَبُ

فدائما تشوق العطارَ يثرب ودائما يقصبه عنها المغرب ، إنها الجنة التي يحلو له ذكرها ، والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . ولنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة في ريع الأحبة ودموعه تهطل صبًا ملتناغا حتى ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذي زان الوجود بطلعته السنية ، والذي يندى حبه من رضا رب العباد ، غير الوري ، محبوب أمته ، ونبيها الذي حازت به جاهها ومكاتها العالمية . ويشيد بالرسول ويعمل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ،

مشندا :

أَشْفَى النَّبِيْنَ قَدْرًا نَسْرُهُ لَهْدَا يَزِيدُ حُسْنًا عَلَى الْأَقْمَارِ بَاهِرُهُ
وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ مِنْ غَرْبٍ وَمِنْ عَجْمٍ أَرَبْتُ عَلَى الرُّمْلِ أَضْعَافًا مَآثِرُهُ
رَوْضٌ مِنَ الْحِلْمِ غَضٌّ رَاقٍ مَنْظَرُهُ بَحَرَ مِنَ الْعِلْمِ عَذْبٌ فَاضٍ زَاخِرُهُ
إِنْ جَادَ صَاحِرٌ بِلِقَايَا الزَّمَانِ فَعِلْ إِلَى مَقَامِ حَبِيبٍ نَتَّ زَائِيْرُهُ
وَصِفْ لَهُ حَالِ صَبٍّ مُغْرَمٍ ذَيْفٍ رَامَ الدَّنْسُ فَاقْصَتْهُ جِرَارُهُ^(١)
وَإِذْكَرْ هُنَاكَ بَعِيدَ الدَّارِ غَرْبُهُ غَرْبٌ فَمَا غَائِبٌ مِنْ نَفْتِ ذَاكِرُهُ
أَهْدِي السَّلَامَ بِلَا حَدٍّ وَلَا أَمْدٍ إِلَى عَمَلٍ رَسُولُ اللَّهِ عَامِرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأقمار حين تكون بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء وعذا ، ولنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتمنى إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صلاته بزيارته وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه ولبعده فتنوه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز عن الوصول إليه . ولنه ليهدي السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه وقد اكتحلت عناه بطيبة وترلها ، فينشد مبهجا :

وَلَمَّا بَدَتْ أَعْلَامُ طَيْبَةٍ فَصُرْتُ مِنْ الشُّوقِ مَا قَدْ طَوَّقَتْهُ السَّابِيبُ^(٢)
وَقَفْنَا وَسَلَّمْنَا وَفَاضَتْ دُمُوعُنَا وَحَنْتُ إِلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الرِّكَابِ
نَزَلْنَا وَقَفْنَا مِنَ الشُّوقِ تَرْبَهَا وَطَلَبْتُ بِذَلِكَ التُّرْبِ مَنَا التُّرَابِ^(٣)
فَلِلْمَعِينِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَادِ نَزْهَةً وَلِلْقَلْبِ فِي تِلْكَ الرَّسُومِ مَآرِبُ
حَوَتْ سَيِّدَ الرُّمْلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ لَهُ فِي مَقَامِ الْقَرَبِ تَقْضَى الْمَطَالِبُ
تَرْقَى إِلَى السَّعِجِ الطَّبَاقِ وَمَا بَدَا لَهُ فِي تَرْقِيهِ مِنَ الْحُجُوبِ حَاجِبُ

(٢) التراب : عظام الصدر .

(١) مفرم ذنف : أشفى على الملاك . جرائره : فتنوه .

(٢) السلب جمع سب : للفاضة والغلاة .

لقد أشرقت شمسُ النهار بنوره
 وأعلل قلبي بالوصولِ لقبره
 وإن غبتُ ما قلبي - وحَقْلُ - غائبُ
 وإني تُناديه وإن كنتُ نازحاً
 نداءُ غريبٍ غُرْبَهُ المغاربُ

والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصرتُ خطا الشوق التي كانت قد طوَّنتها مغازات الطريق في إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته - كما يقول - فقد وقفوا وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحتت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم نزلوا وقبَّلوا تراب طيبة العطر وطلبت به صدورهم وأخذتهم ، ونعمت العيون بمشاهد تلك المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد ميد الرسل الذي تجاب عنده المطالب ، والذي صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإته لنور خالص ، نور أزل ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأما يفتق العطار من حلمه ، فيرى نفسه لا يزال في مدينة الجزائر لم يرحها ، ويقول إنه يحنى نفسه بزيارة الرسول ، وإن غبت عنه فإن قلبي ليس غائباً ، وإني تُناديه ، وسأظل تُناديه نداء غريب ظامئ أشد الظمأ لرؤية خبره العطر الشريف .

الفصل السادس

الشر وكتابه

١

الخطب والوصايا

طبيعى أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرسمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م إذ كانت دولة لياضية ، وكان أئمتها لا يزالون يدعون رعيتهن فى عيظها بتاهرت وخارج عيظها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم فى بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولائهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١ - ٢١١ هـ) حين ولى على تاهرت فى غيته عنها السمع بن لمى الخطاب نائباً عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قاتلاً^(١) :

« قد علمتم - معشر المسلمين - أن السمع وزيرى وأخص الناس بى وأجهم إلى وأصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد أثرتكم على نفسى ، تنميماً لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كتبت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠ هـ) وهى تطرد على هذه الصورة^(٢) :

« أبى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالانتماء لما أمر الله به من طاعته ، والانتفاء عما نهى عنه من معصيته ، فاتقوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

(١) نظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ راجع (٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للكتور أحمد مختار عمر

ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلِّهِ ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ورسالت مصرافاً . فاتفقوا
الله إخواني واحذروا مخالفة آثار أئمتكم في القليل والجليل .. وعليكم بالحذر من الانهماك
في الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب
منه وقال : أنتمكون أئمت فيها (أى الدنيا) بعد ما جئكم بها (أى الرسالة) يضاء نفية
حنيفية سمحة سهلة .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى
من الابتداع ، ولفته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوي ملوحاً بهما من بعيد على
صححة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبي اليقظان محمد بن
أفلح بن عبد الوهاب (٢٤١ - ٢٨١ هـ) وجهها إلى جميع رعاياه في تاهرت وجبل
نفوسة ، وفيها يقول^(١) :

« إن أفضل ما تواصى به العباد ويتحاضون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزجر عن
معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر
المسلمين بالتهنيء للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار ويتغير فيه
الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل
حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا - رحمكم
الله - أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد افترضوا وقلّت الخلوفاً منهم ، فرحم الله امرأة
مسلمة احتسب نفسه ، وأرصدها الله في طلب العلم والنقض على من ضاد الله وعدل عن
منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضاد المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله
صلى الله عليه وسلم هي العليا والباطل زهوقاً . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من
أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فافتقوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ،
واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم . »

وواضح أن الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح يدعو في عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية
أن يردصوا أنفسهم ويحتسبوا للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا في رأيه عن منهاج
رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من
مبادئ آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبي حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤ هـ) عظة بدعية
كان يخطب بها الخوارج الإباضية في عهده أيام الجمعة وفيها يقول^(٢) :

عمر ص ١٧٩ .

(١) الأزهار الرياضية للباروني ص ٢٤٠ .

(٢) النشاط النقاشي في ليبيا للدكتور أحمد مختار

« الحمد لله الذى ابتدأ الخلق بنعماته ، وتعمدّهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكُن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً فالتا أتينا طائعين﴾ فقدّرها أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدة تُذكرُ بالمعانيه ، ولم يستعن عليها بأحد استكباراً عن الشراكة والمعاونة ، وزيّنها للناظرين ، وجعل فيها رجوماً للشياطين (فبارك الله أحسنُ الخالقين) جعل القرآن إماماً للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأً للمتنازعين ، وحكماً بين المتخالفين ، ودعاً أوليائه المؤمنين إلى اتباع تنزيهه ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطاً عند الإمام أبى القىظان محمد بن أنفاج ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقلبلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالناية فى الخطبة والعظات ، وتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلاً إن فلاناً ولى خطبة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكرُوا شيئاً من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلاً إن بآ تمام الواعظ الوهرانى سكن ببجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواظله . ويمكن أن نجد صوراً من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونفتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالى عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاه مترهما ويردد بعض أقوال له منها^(١) :

« سبحانه من سبقت رحمته غضبه ، سبحانه من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبّت القلوب ثبّت قلبى . العقل أصل دينى ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كثرى ، العلم سراجى ، الصبر رداى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرصى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرء عني فى الصلاة » .

والثبات بل الآلاف من مواظظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تفرع أسماع الناس كل يوم فى ببجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحياناً

(١) عنوان الدرابة ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهلهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرَمِيّ المتوفى بفلسطين سنة ٦٣٦ وفيها يقول^(١):

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد نبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصيرّ ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرّا إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطوّله (أنفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لا ينفل ، الجواد الذى لا يخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لا يزال ولا يتحول » .

والألفاظ الوصية مثل ألفاظ الخِرائى ألفاظ متخية مصفأة ، وقد يجيء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن التثنية كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإتاعا للسمع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بنية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها وعواظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجّام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ وسميه يحيى بن خلدون فى البنية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له - كما مر بنا - كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين وعجدة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكّرهم صاحب بنية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبلى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلمسان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا - ولو قليلة - من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالَت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) ابنه أبا تاشفين وصفاها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والأبواب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والأبواب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحاكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السباسة والعناية بالمال والجيش ، والأبواب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرّح فى خاتمة الكتاب بأنّه وضعه لابنه أبا تاشفين لينع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، وتنتظف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة^(١) فى الحروب .

« يا بُنَى إِذَا كَانَ الْمَلِكُ شَجَاعًا ، كَانَ مَنْصُورًا مَطَاعًا ، تَرْهَبُهُ الْأَعْدَاءُ ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْأَوْلِيَاءُ ، يَعْتَدِبُهُ بِجَيْشِهِ فِي مَوَاقِعِ الْحُرُوبِ ، وَيَخَافُ سَطْوَتَهُ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . وَإِذَا اقْتَحَمْتَ الْقِتَالَ ، وَاخْتَلَطْتَ الْأَبْطَالَ بِالْأَبْطَالِ ، فَغَايَتُكَ أَنْ تَكُونَ حَاكِمًا عَلَى نَفْسِكَ ، صَابِرًا ثَابِتًا فِي جَأَشِكَ^(٢) ، نَاضِرًا إِلَى سَاقَتِكَ الَّتِي هِيَ قَلْبُ جَيْشِكَ ، فَلْتَلْزَمْ بِهَا الثَّبَاتَ ، وَلَا تَتَرَحَّزْ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَلْتَشُدَّ ثَبَاتُكَ الْأَنْجَادَ^(٣) وَالْحِمَاةَ ، وَالْمَقَاتِلِينَ الْكُفَّةَ^(٤) ، وَإِنْ انْكَسَرَ أَحَدُ الْجَنَاحِينَ مِنْ جَيْشِكَ فَلَا تَهْتَمُ بِهِ ، وَلَا تَتَقَلَّ بِسَبَبِهِ ، فَإِنْ انْكَسَرَ الْجَنَاحِينَ مَعَ ثِبَاتِ الْقَلْبِ لَا يَضُرُّ ، وَالصَّبْرُ فِي مِثْلِ هَذَا عَائِدٌ عَلَيْكَ بِمَا يَسُرُّ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ رَايَاتُ الْقَلْبِ تَخْفِقُ وَطَبُولُهُ تَزْأَرُ كَانَ ذَلِكَ حَصْنًا لِلْجَنَاحِينَ ، وَأَمَانًا لِلْعَسْكَرِ مِنَ الْحَيْنِ^(٥) ، وَأَرْجَى لِلظَّفَرِ بِالْعَدُوِّ عِنْدَ رَجُوعِ الْجَانِبِينَ . »

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من المساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظَنُّ أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه أن تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبوله تزارر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى السديد ، أما بدونه فكون مذمومة بل قد تصبح نهورا يؤدى إلى الملك وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولنظ متخبط رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعًا محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب (٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .

واسطة السلوك . (٤) الكفامة جمع كفى : القدامى المسلح .

(٢) جأشك : قلبك . (٥) الحين : الملاك .

وأبضا ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجنس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثملى سمعنا - كما سمعنا فى الحقب السابقة له - عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب عمداً بن ميمون فى القرن الحادى عشر المجرى بخطبة الشيخ مصطفى بن عبد الله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشد ، والإلقاء الذى تميل إليه الموادى (الأعناق) وتمتد ، والسكينة (الوفار) التى تجذب إليها الأصار فلا ترتد ، ولم أر منذ عقلتُ بسى ، وعلقت خطبته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطبة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبلها - وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمثل »^(١) . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شيء من خطبته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطبة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواظب أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

٢

الرسائل الديوانية

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرسمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرسمية تدون وتنقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكثروا يوالونه ، وكان واليه السماح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية^(٢) :

« أما بعد فإني آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتفاء عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثغافى للدكتور سمداه ٢١٣/٢ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص ١٨٠ .

بلفنى ما كتبتم إلى به من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس « خلفا » له وردَّ أهل الخير ذلك ، فإن مَنْ ولى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن لى توليته فقد أصاب ، فإذا اتاكم كلنى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عماله التى ولى عليها إلا خلف بن السمح ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارتكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تغفحون . »

والرسالة مع إيجازها تؤدى الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين وبسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمح بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعرفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ليه أنفلج طويلا (٢١١ - ٢٤٠ هـ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نفلت بن نصر من جبل نفوسة إذ كان بطن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول^(١) :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله اللة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أئصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يلفنى من عملنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاء لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عملنا ، أمرتهم فيه بخلق كل مَنْ خالف سيرة المسلمين . ولبتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكبت إلى كتابك كلفك تسخط ذلك . أترى أنى أؤازر من لبتدع فى ديننا ؟ ما كتبت بالذى يفعل ذلك ، ولا أؤازر من يسعى فى خلافتنا ما كنا على الهدى . ثم قلت إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عملنا فأت محقوق بالبراءة (منك) ومقصى من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من لبتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة (منه) ومقصى من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأت الذى أئحت لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لا بد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانثناء منه ، وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... ولئى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحب ، فنترك من أنفسنا بحيث نحب ، والله المستعان . »

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن ليوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسة القيادة ،

(١) الأزماع الرياضية ٢ / ١٩٥ .

وهو بصرفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفث عليه خروجاً على طاعة الله وعصيماً لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حكمته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والترهيب مفتوحاً على مصارمه حتى يدخل إليه نفث منه راضياً إذ ينزل منه بميث الود والحب . ولأفصح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة^(١) :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، ولقنا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرمة التى جعلها الله أمةً وسطاً شاهدةً لنبئها بالتبليغ ، ومصدقةً لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منّا من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيّه محمداً ﷺ بالهدى ، ووعدنا بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعدنا بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلِّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فأذى - عليه السلام - ما أمره الله به ، ونصح لأمة ، ودعا إلى سبيل ربّه ، وجاهد عدوّه ، وغلظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم - كما وصفه الله - رءوفاً رحيماً ، حتى انتفضت مدته ، وفيت آياته ، واختار له ربّه ما عنده ، فقبضه بمحمود السّقى مشكور العمل ﷺ ، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الملكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيراً . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاه عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع الظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأييد الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب . »

وأفصح يقول فى عظمته إن الرسول ﷺ بَلِّغْ الرسالة كما أمره به على خير وجه فبين لأمة الأوامر والنواهي الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمة وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدي على الدولة الرستمية سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ولم

(١) الأوامر الرضاوية ٢ / ٢١٤ .

تقم في الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الرابع الهجري وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بني حماد في قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧هـ) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وولاده وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بلبن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادي وقد فر من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستجد فيها ببعض أمراء العرب القريين من دولته ، وفيها يقول^(١) :

« كلبنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسر ، رضا وتسلما للقدر ، وتعوila على جزائه الذي يجزى به من شكر ، وتصلى على النبي محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لا ح نجم بسحر ، وبعد فإني لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار من خان في دولتنا وضيع ، استغفر أهل موالانا الشان^(٢) ، وأغزى من اصطنعناه وقمعنا عليه الكفران^(٣) ، فاتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يصرون ، فكنا في الاستمعة بهم والتوكل عليهم كمن يستشفى من داء بلاء ، ويفر من صيل^(٤) حيث إلى حية صملاء ، حتى بُيئت مكرهم ، وأعجل عن التلافي أمرهم ، ورد وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا علة الفتنة ، وملنا إلى مظنة الأمانة ، وبعثنا في أحياء هلال نستجد منهم أهل النجدة ، ونستغفر من كنا نراه للمهم علة ، وقتم في هذا الأمر أول من يلهم الخاطر ، وتثنى عليه الخناصر » .

وبن دفرير في رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلد الأسجاع حين تصفى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد في الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقلالي الذي اتخذ عبد المؤمن سنة ٥٤٧هـ كتابا له ، وظل يكتب له ولأبيه يوسف من بعده إلى أن توفي وسنخصه بترجمة ، وكان يخدمه في عمله الكتلي عند الموحدين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفي كتب مكرهه لسلطان الموحدين يوسف ثم لأبيه يعقوب حتى وفاته ، وسنفرد له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهراني ، وسنفرد

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (نشر الدار التونسية) (٣) الكفران : الجحود وإنكار المروء

(٤) صيل : أنى .

١ / ١٧٩ .

(٢) الشان : الحقد والضغينة .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوبا^(١) .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية برعاية يُعْمَرُاسَن منذ سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أدبيا من أفرع الأدياء الأندلسيين كتابا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمره غرناطة ونزل تلمسان فاتخذة كاتباً^(٢) له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ولم يعم المؤرخون بذكر كتبه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المدح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتلى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتلى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط^(٣) سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بنية الرواد أن أباحو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) اختار لكتبة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن^(٤) محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالى والوهراتى وابن عشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتبه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمراء الزيانيين فإنيهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

وننضم إلى العهد العثماني ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(٣) بنية الرواد ١ / ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٤) بنية الرواد ١ / ١٢٣ .

(٢) بنية الرواد ١ / ١٢٩ والإحاطة ٢ / ٢٧٥ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذفون العرية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية في المعاملات الرسمية ، ويدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتبة الديوانية العرية التي كانت تلتف حولها طبقة من الكتاب المتنازعين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه في براعته الأدبية ، أما في هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركافة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى عمداً القائل قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول^(١) :

« جَلَّ اللهُ تعالى مالك الملك ومقيم قسطي العدل بما أَرَادَهُ من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز الشريف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأحمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد ، فسكنت بهم السُّلُ وأمنت بهم البلاد ، لطفنا منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يقي جنباهم السعيد عالياً على كل جناب ، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وتقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشرائع والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذي أطلمه الله في سماء الجلالة بدرأ ، ورفع له في درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرنا ، فأصبح الدين متهجاً بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضاً بمعظم صولته » .

وواضح ما يجرى في الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجمة : « للعباد » واستعصت عليه سجمة الرأء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحّل في الرسالة ، وكثما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

الرسائل الشخصية

يدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

(١) تاريخ الجزائر الثقافي ٢ / ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الدبلوماسية لحكام الدولة الرسمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة نُمِي على ابن الريب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيقي في كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وفيه توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة ، إذ قال في ترجمة نُمِي المغيرة عبيد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو علي بن الريب رقعة يقول فيها^(١) :

« إِنِّي فَكَّرْتُ فِي بِلَدِكُمْ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ ، إِذْ كَانَ قَرَارَةٌ كُلِّ فَضْلٍ ، وَمَقْصِدُ كُلِّ طَرَفَةٍ ، وَمُورِدُ كُلِّ نَحْغَةٍ ، إِنْ بَارَتْ تِجَارَةٌ أَوْ صَنَاعَةٌ فَإِلَيْكُمْ تُجَلَّبُ ، وَإِنْ كَسَدَتْ بَضَاعَةٌ فَعِنْدَكُمْ تَنْفَقُ^(٢) ، مَعَ كَثْرَةِ عِلْمَانِهِ ، وَوُفُورِ أَدْبَانِهِ ، وَجَلَالَةِ مَلُوكِهِ ، وَمَجْتَمِعِهِ لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، وَزَفْمِهِمْ مَنْ رَفَعَهُ أَدَبُهُ ، وَكَذَلِكَ سِيرَتُهُمْ فِي رِجَالِ الْحَرْبِ ، يَقْدُمُونَ مَنْ قَدَّمْتَهُ شِجَاعَتُهُ ، وَعَظَمْتَ فِي الْحُرُوبِ نِكَائَتُهُ ، فَشَجَّعَ عِنْدَكُمْ بِذَلِكَ الْجَبَانَ ، وَأَقْدَمَ الْهَيَّانَ^(٣) ، وَنَبِهَ الْخَامِلَ ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلَ ، وَنَطَقَ الصَّمِيَّ ، وَشَرَعَ الْبَكِيَّ .. وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي الْعُلُومِ ، ثُمَّ هَمَّ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ التَّقْصِيرِ ، وَنَهَايَةِ التَّغْرِيطِ مِنْ أَجْلِ أَنْ عِلْمَاءُ الْأُمُصَارِ دُونُوا فَضَائِلَ أَعْيَانِهِمْ ، وَقَلَّدُوا الْكِبَ مَآثِرَ أَقْطَارِهِمْ وَأَخْبَارَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْكَتَابِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَالْقَضَاءِ وَالْعِلْمَاءِ ، فَأَبْقُوا لَهُمْ ذِكْرًا فِي الْغَابِرِينَ ، وَ (لِسَانًا^(٤) صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) . وَعِلْمَاؤُكُمْ مَعَ اسْتَظْهَارِهِمْ عَلَى الْعُلُومِ ، كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ قَائِمٌ فِي ظِلِّهِ لَا يَبْرَحُ ، وَثَابَتْ عَلَى كَعْبِهِ لَا يَتَزَحَّجُ ، يَخَافُ إِنْ صُنِفَ ، أَنْ يَنْفُتَ ، أَوْ (تَخْطِفَهُ^(٥) الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) لَمْ يَنْبَغِ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَفْسًا فِي [جَمْعٍ] مَفَاخِرِ [أَهْلِ] بِلَدِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ نَفْسًا (مَدَادًا) فِي فَضَائِلِ مَلُوكِهِ ، وَلَا يَلُّ قَلَمًا بِمَنَاقِبِ كِتَابِهِ وَوُزَرَائِهِ ، وَلَا سَوْدٌ قَرِطَاسًا بِمَحَاسِنِ قَضَائِهِ وَعِلْمَانِهِ . عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُطْلِقَ مَا عَقِلَ الْإِغْفَالُ مِنْ لِسَانِهِ ، وَسَطَّ مَا قَبِضَ الْإِهْمَالُ مِنْ بَيْتِهِ ، لَوَجَدَ لِلْقَوْلِ مَسَاغًا ، وَلَمْ تَضَيِّقْ عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ هُنَاكَ .

ولكن هم كل أحد منهم أن يطلب شأور^(٦) من تقدمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قَصَبَ السَّقِّ ، ويفوز بِقِدْحِ^(٧) ابن مقبل ، ويأخذ بِكَلْمِ^(٨) دَغْفَلٍ ، ويصير شَجِي فِي خَلْقٍ

(١) شأور : غاية .

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .

(٢) تنفق : تروج .

(٢) تنفق : تروج .

(٣) دغفل : نسبة كبير عند العرب ، يأخذ بكلمته :

(٣) الهيان : المالب الخائف .

(٤) مماثلة في علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكلمته

(٤) اقتبس من سورة الشعراء .

الإسك على ما عند المرء من العلم وغيره .

(٥) اقتبس من سورة الحج .

أُمِّي الْعَمِيْلُ^(١) ، فإذا أدرك بغيته ، واخترت - بعد - منيته ، دُفِنَ علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . وَمَنْ قَدَّمْنَا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألقوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألقوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحٌ راکب ، أو رحلة قارب ، لو نفث^(٢) يلدكم مصدور ، لأسمع بيلدنا مَنْ في القبور ، فضلاً عَنْ مَنْ في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سَمَّاهُ بالعقد^(٣) . على أنه يلحقه فيه بعض اللُّوم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة^(٤) عَفْده ، ومناقبَ ملوكه بتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطولاً ، وأخطأ المِفْصَلَ^(٥) ، وأطال المَرْبُوفَ بسيف غير مِفْصَلَ^(٦) ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيه ، وإغفال ما يهمهم . فأُرْسِدَ أنحك - أرشدك الله - إن كان عندك في ذلك الجلبَّةُ ، ويبدك فَصْلُ القضية ، إن شاء الله .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة ، حتى ليقرب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجمة عفواً سرعان ما يعدل ابن الرِّيبِ عن مثيلة لما إلى التعادل والترادف في العبارات . ونشعر بجلب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاتباسين القرائين فيها ، مع الإطراف في الكنايات والاستعارات ، كصيره في تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرئ منهم قائم في ظله لا يرح ، وثابت على كعبه لا يترحزح » ويقول عمن أهمل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم يبل قلماً بمنابهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه في مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلاً : « على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته في التعبير عن الغور والظفر ، إذ يقول : وليستغل قَصَبُ السَّبْقِ ، ويفوز بقُدْحِ ابن مقبل الذي تغنى في شعره بفوزه ، وبأخذ بكنظم دَغْفَلِ كُنْما يساويه في قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شَجْوً وَغَصَّةً في حلق أُمِّي الْعَمِيْلِ على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريوة حين ردَّ عليه ردّاً مفحماً . وتلطّف ابن الرِّيبِ لمخاطبه أُمِّي المييرة بن حزم الأندلسي حين قال له :

(١) أُمِّي الْعَمِيْلُ هو الذي ترضى لأبي تمام يقول له

لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وقتً لماذا

لا يفهم ما يقال .

(٢) نفث : نفخ .

(٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .

(٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة في وسط العقد .

(٥) المِفْصَلَ : كل مفتاح عظيم في الجسد ويضرب

التعبير مثلاً للخطأ الجسيم .

(٦) للمفصل من السيف : القاطع .

« لو نفت بيلدكم مصدر (مريض بصدرة) لأسمع بيلدنا من فى القبور فضلا عن فى الدور والقصور . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم فى الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسى ألف كتابا أدبيا فى مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا فى أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأديبة فى المشرق ، ولم يمن فيه بالحدث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسى يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعل الصاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وابن الريب عرق فى اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الريب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عتوا يعرض أخبار ولانهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتبه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرزى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، وابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ انتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقنا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيدالة طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الريب ، وسيكترون بعد زمن ابن الريب من كتبه للمجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الريب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذت تزدان بالجمع منذ ازدادت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تلقى بطائفة من صفوة كتبتها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها - على الأقل فترة طويلة - غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأقدنهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرا كبيرا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبرني الذي ترجم فيه للعلماء والأدباء بيجاية في القرن السابع وشطر من القرن السادس يحس أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأقنون في كتابتهم الأدبية ولدمج ذوقهم في الذوق الأندلسي الأتيق وأصبحنا يلزأ كتابة ثيقة عامة في الرسائل الشخصية والديونية ، وحتى في كتب التراجم كما نجد في صدر كثير من تراجم الغبرني في كتابه عنوان الدراية ، وفي التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التتسي .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع في الجزائر - منذ القرن السادس الهجري - بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حلى من المحسنات البدعية لم تكن مبالغين . ونمضي إلى العهد العثماني ونظّل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب راسل عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميراً للحج عن بلده والجزائر عامة ، وكان المقرئ أرسل إليه بمنظومة في علم الكلام يتحنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردّ عليه برسالة أثبتتها المقرئ في نفع الطيب قتلا في ديارجتها إنها كتاب وإناه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وقبيلها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كائرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون^(١) :

« إني أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فبني أحوج الناس إليه ، وأشدهم في ظني إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأثارة ، واستبطنت من دغيلاتها المثمرة على حب الدنيا الفرارة ، كنما عميت عن الأحوال التي أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فتراها في لُجج هواها خائضة ، وفي ميدان شهواتها راکضة ، طفت في غيها وما لانت ، وجمحت فما لقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسن الألفاف ، والسُر عما ارتكبناه من التمدي والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الجسمى العظيم ، وعن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سننا سيدنا ومولانا وشفيضا النبي الرؤوف الرحيم .. وقد اتصل يدي جوبكم ، أطال الله في العلم بقاءكم ، فرأيت من عنوبة ألقاظكم وبلاغة خطبكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجنوة^(٢) لسماعه سؤلها ومأمولها .. وقد ذُيتموه بليات لنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على نبي غير قائم بفرضها ونفلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته بمحضرتة .. وظننا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاعة الدجنة » تقيدا

(١) نفع الطيب ٢٢٨/٣ ويظهر تعريف الخلف (٢) الجنوة : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقاً وتسديداً بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . ووضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف ومما تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجمات ، ويقول إن نفسه عمت عن الأحوال التى أشابت رهوس الأطفال وقطعت أعناق كُمل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها ، وقد اجتلبت من أجل السجمات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثملى بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التحزية ، على نحو ما نجد فى تحزية للمفتى محمد بن حسين عزى بها عبد الرزاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه ^(١) :

« بلغنا ما أحرار الأذهان وأشجاءها ^(٢) ، وأطار النوم من الأجناف وأبلاها ، وأضرمت لواعج الأشواق ، وأذكى ^(٣) زواجع الاحراق ، بالذى صدع أعشار ^(٤) القلوب ، وأفاض على صحن الخد الدموع من الغروب ^(٥) .. حتى أدركتني محنتك وموت ولذلك فأخذتني الصدمة ، وهيجت لى المحنة ، فلقد رمنا الدهر بسهام صروفه فأصمنا ^(٦) ، وتمهدنا خطبه فهد عروشا وأركنا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاء وأغصه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتيها بلواعج الأشواق ، ومكاتها فى التحزية قلق وأشد منها قلقا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قطع قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزاً قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

٤

المقامات

يدو أن الجزائر - مثل بقية البلدان العربية - عرفت المقامات مبكرة ، إذ كتبت فنا جديدا أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، ونلتقى فى القرن السادس الهجرى

(١) أنشار : قطع .

(٢) الغروب : الماتى .

(٣) فأمصنا : أصابنا فى الصميم .

(١) تلرخ الجزائر الثمانى ٢٠٥/٢ .

(٢) أنشجما : أصعبنا .

(٣) أذكى : أوقد .

بجزائري يكتب في هذا الفن هو الوهراني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسفرد له ترجمة ، وبذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريري للطلاب طوال القرن السابع الهجري مثل عبد الله بن نعيم الحضرمي ويوسف بن يخلف وعبد بن الحسن بن ميمون القلعي ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثماني لم يحاولوا محاكاة الوهراني في مقاماته ولا محاكاة كتبها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمداني والحريري . أما في عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البوني ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ/ ١٦٩٤ م مقامة^(١) في أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بقرائب الوقائع والأخبار» وهي في بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذي جعل للمصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنوابض فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقي إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، وانقضت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا في الناس الزور والبهتان ، وأملت أحكام الشريعة ، وتصدّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن في عيش ظله وريف ، وفي أهنأ لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سعى في تشنيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وغيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقه ، بما هو لافيه ، واعتدّى في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم - والله - أوباش أراذل . وما كفاه بث ذلك في كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدبة والشحاذة الأدبية وأفاقيص الأدباء السيارين الذين يجولون في البلاد متفاصحين بأدبهم ، محتالين على الناس حيلة شتى في أخذ دراهمهم وذنابهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس الثمامين لذوى السلطان للوقفة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية ، وجعلها فى ستة

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر المتخفى ٢١٨/٢ .

عشر فضلا ، وسمى كل فصل مقامة تحكى جلبا من سيرة الوالى العثماني محمد بكداش (١١١٧-١١٢١ هـ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعاً ، وقدما كب العنى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعاً فى كتابه عنه الذى سماه اليمى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهائى فى كتابه : « الفتح القسسى فى الفتح القدس » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعاً . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضاً ألفاظاً لغوية وترواعاً بديعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائرى المتوفى بأخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول (١) :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل فنى رأيت غُرْبَيْن ، كل واحدة فى أنحوصها (٢) فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبنا غطاس وطيوراً أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكتلا (٣) ، ينون به أنحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمس بيضهم الماء ، وإن مسه الماء فسد ، وهو يتنى بناء صحيحاً جداً . وأتونا ببيض الغر ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل (٤) ، إلا أنه أشد يابضاً من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب بصطادون بها السمك والطير ويضه ، ويعتدون (يجتازون) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حزم البردى (٥) ، يعتقدون حزمة بحال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطى ، ويعقدون حزمين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يميناً وشمالاً ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عوداً طويلاً يكد (٦) به ولا يقذف » .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى (طبع المكتبة الوطنية بالجزائر) ص ٧٣ .

(٢) أنحوص الطائر : مكان بيضه وورقاده عليه - والغر نفس الطائر المعروف فى مصر .

(٣) الكتلا : العشب .

(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .

(٥) قوارب النيل والبحرات فى الدلتا كت صنع أيضاً من البردى أيام الفراعنة .

(٦) يكد بالورد : يدفع القارب يرد فى يده وحل صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

ولبن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه فى طريقه من تطوان إلى مكناشة طائرات من الفر فى بركة بأحد المروج ، والفر معروف فى مصر بنفس الاسم ويُرى كثيرا شتاء فى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق فى البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبنى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلا ، ولقته ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يفسد الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه فى نفس المروج وبركته من قوارب صيد السمك والطيير وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُصنَم حزمه بعضها إلى بعض بحبال الدوم الرقاق ، وهى بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراغة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى فى المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التى رآها لبن حمادوش تنفذ بعياها أى أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى فى مصر عند صياديهي وملاحيهي باسم يذرى . وهى عود طويلة من خشب يدفع به التوتى القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدرة بمتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس فى المقامة كذبة ولا شحاذة أدبية بل هى وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث لبن حمادوش أن يورد فى رحلته مقامة ثائية باسم المقامة المركلية ، ويستهلها قائلا^(١) :

« الحمد لله حدا بى حادى الرحلة إلى أن دخلت فى بعض أسفارى حركة^(٢) ، فنزلت بها فى خان^(٣) كته من آيات النيران ، أو كتاتس الرهبان ، بل لا شك أنه من آيات العُصيان ، فلذلك لا يُسرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فانحصت منه بحجرة ، أو نقرة فى حجرة ، وكثى وقعت من السماء فى حفرة ، أو تبت أنفوقا فدخلت جُحره ، فغلقت بابى ، لأحفظ حياتى وأؤمن جنائى ، من شدة أتعلّى .. حتى مدَّ الليل جناحه ، وألوقد فى السماء مصباحه ، وهدأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت فى حباتل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، ونهيت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهى أضعف من صاحبها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد حركة ولعله يريد هرجلة لما سمع فى الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد فى رحلته مقامة ثالثة لكن لا فى وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما فى وصف زوجته التى كانت تتلّاه عليه سخطا كما يقول فى رحلته حين تجده يخسر أمواله فى التجارة ، وكذلك حين

(٢) خان : فندق .

(١) رحلة لبن حمادوش الجزارى ص ٧٨ .

(٢) حركة : هيلة .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تصد إلى مغاضبته ، وفيها يقول في مقامه الثالثة التي سماها المقامة الحالية واصفا لها^(١) :

« قُرِنْتُ بِجَارَةٍ غِرَّةٍ^(٢) ، عِشْتَهَا مَرَّةً ، آمَالًا ظَنُّونَ وَرَغْبَتَهَا فِيمَا لَا يَكُونُ ، الدَّهْرُ كُلَّهُ سَاخِطَةٌ ، وَمَطَالِبُهَا شَائِطَةٌ^(٣) ، تَخْزِيكَ أَوْ تَخْرِجُكَ أَوْ تَحْزِنُكَ ، لَا تَطْلُبُ إِلَّا الْعَنْقَاءَ^(٤) ، وَلَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي الرُّخِّ^(٥) ، وَلَا تَتَعَذَّى إِلَّا بِيَضِّ^(٦) الْأُنُوقِ ، وَلَا تَجْنِي إِلَّا ثَمَرَةَ الْخِلَافِ ، وَلَا تَرُكُنْ إِلَّا لَدَمَ الْإِسْحَافِ .. غَذَّتْهَا أُمُّهَا لَبِنَ الْقُرُودِ ، فَشَبَّتْ لَا تَأْلَفُ الْمَقْصُودَ .. يَدُ أُمِّهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ ، وَتُصْنِبِي السَّامِعِينَ ، يَصُبُّ إِلَيْهَا الْحَلِيمُ ، وَيَرْزُقُ إِلَيْهَا الْكَرِيمُ .. أَشْبِهَتْ فِي الْقَدِّ الْغُصْنَ الْقَوِيمَ ، وَالسَّمْهَرَى^(٧) الْمُسْتَقِيمَ ، وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَسِيلَاتُ لُبْدَانٍ رِقَاقٌ خُصُورُهَا وَثِرَاتُ مَا التَّائَتْ عَلَيْهِ الْمَآزِرُ^(٨)

كُنْهَا دُرَّةً مَصُونَةً ، أَوْ جَوْهَرَةً مَكُونَةً .. فَلِذَا اخْتَرْتَهَا أَمَّا لِلْأَوْلَادِ ، وَمُنْفَقَةٍ^(٩) لِلطَّارِضِ وَتَلَادَى عِلْمًا مَنِ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ كَدَرٍ ، وَقَلِيلٌ فِيهَا مَا يَسِرُّ ، نَظَرًا لِقَوْلِ الصَّادِقِ الصَّدُوقِ :
« اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل لبين حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصْنِبُهُمْ فِيهِنَّ مِنْ حَسَنِ وَجَمَالٍ كَمَا أَصْحَى لَبِنَ حَمَادُوشَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهَنَّاكَ زَوَاجَاتٍ كَثِيرَاتٍ جَمِيلَاتٍ خَلَقَةً وَخُلُقًا لِأَنَّهُنَّ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ . وَقَدْ صَوَّرَ لَبِنَ حَمَادُوشَ زَوْجَتَهُ غِرَّةً يَسْهَلُ انْخِدَاعُهَا ، بَلْ جَمَعَتْ السُّوءَ كُلَّهُ إِذْ عِشْتَهَا مَرَّةً ، وَدَائِمًا غَاضِبَةً سَاخِطَةً تَطْلُبُ مَا لَا يَنْتَاقِي وَلَا يَكُونُ ، وَلَا تَرُكُ وَسِيلَةَ لَحْزَى زَوْجِهَا وَاحِرَاجِهِ إِلَّا تَقْتَرِفُهَا ، وَدَائِمًا تَطْلُبُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ مِنْ مِثْلِ طَيْرِ الْعَنْقَاءِ وَالرَّخِّ الْأَسْطُورِيِّينَ وَيَبِضُّ النُّوقَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ . وَدَلَّيْنَاهَا دَائِمًا الْخِلَافَ بَلْ لَكُنَّا تَجِدُ فِيهِ لَذَّتَهَا فَهِيَ تَجْنِيهِ وَتَقْطَعُهُ مِنْ كُلِّ وَادٍ وَمِنْ كُلِّ طَرِيقٍ ، وَلَكُنَّا غَذَّيْنَاهَا أُمُّهَا بَلْبِنَ الْقُرُودِ فَهِيَ مَا تَنِي تَقْفُزُ مِنْ خِلَافٍ إِلَى خِلَافٍ وَمِنْ نَكْدٍ وَغَمٍّ إِلَى نَكْدٍ وَغَمٍّ . وَقَدْ يَكُونُ لَبِنُ حَمَادُوشَ أَرَادَ أَنْ أَنْ يَدَاعِبَ زَوْجَتَهُ ، فَجَرَّتْهُ الْمَدَاعِبَةُ إِلَى هَذِهِ الْمَيَالِفَاتِ الَّتِي اسْتَحْدَمَ فِيهَا مَحْفُوظَاتِهِ مِنْ مِثْلِ الْعَنْقَاءِ وَطَائِرِ الرِّخِّ وَيَبِضِّ الْأُنُوقِ وَثَمَرِ الْخِلَافِ أَوْ شَجَرِهِ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ عَادَ يَصِفُهَا بِصِفَاتٍ جَمَالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَيَجْعَلُهَا دُرَّةً مَصُونَةً أَوْ جَوْهَرَةً مَكُونَةً . وَوَضَحَ

(١) رحلة لبين حمادوش ص ١٦٤ .

(٢) غِرَّة : يسهل أن تخدع .

(٣) شائطة : متجاوزة الحد .

(٤) العنقاء : طائر عراقي لا وجود له .

(٥) الرخ : طائر عراقي .

(٦) البيض : البيض .

(٧) السمهرى : ناقصة .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريري ، وكان حريّا بلبن حمادوش أن لا يسمي تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكأنّ الجزائر لم تعرف فن المقامة برسوم ونقائده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أدبها سمى عملاً له مقامة أو سمّاه له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .



كبار الكتاب

أبو القاسم عبد^(١) الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المفصل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبّه إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكر أنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاية هذه الدولة إليه فأعجب بكتابه ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن - كما صحب يحيى - إلى مراكش ، وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيه بالنصارى فى ضواحي قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الملالين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسائة حتى اقتدعوا فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيشون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله^(٢) :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونه - إلى الطلبة والشيخ والأعيان

(١) رسائل موحدية (طبع الرباط) رسائل .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

(١) انظر فى القالمى كتاب الغرابة ١٨٠/١ وكتاب المحب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع

والكافة من الموحدين من أهل فارس ، أعزهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسنه - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تتم مقاصد أولياته فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ، وتأنف^(١) بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب . ولتنبهم فى أعدائهم - الذين ولوا أمر الله - وقد استقبلهم - جنب الإعراض والإدبار ، و ﴿ بدكوا ﴾^(٢) نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار التوراة ﴿ - أمتى الظافر الغالب . ووكّل بهم أئمةً ولجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النصر المحالف المصاحب ما يكون لعامة أكتافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنُ الحافظ المراقب . ومكن لهم إتقانا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب الثقل فى أفياء^(٣) الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم^(٤) نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا^(٥) بشرف الفتح الجسيم^(٦) ، واحتقاب^(٧) الحظ العميم ، ولتفتوا ﴿ رضوان ﴾^(٨) الله والله ذو فضل عظيم ﴿ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشرق والمغرب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر^(٩) العاقب^(١٠) ، الصادر^(١١) بنوره الثاقب^(١٢) ، ليلية^(١٣) الانتخاب وسلالة الانتجاب من لوى بن غالب ، المنبت لتتيم مكارم الأخلاق بما خصه من الضرائب^(١٤) المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى الزم العاكف الدائب ، والجدّ الثابت للارزب^(١٥) والأثرة (المنزل) المشتملة على شرف المنصب ، وزلف المنصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفت حجب الغياب ، وتفرقت سبل المذاهب ، وخيط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاء ولا مخلص لذهاب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب^(١٦) ، وأتقذ به من هوة العائر وثقا العاطب .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تغميدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ، وكثته يجعل ذلك استهلالا وإرهاصا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الملالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التوحيد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجمات المقدمة جميعها فى التوحيد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

-
- | | |
|------------------------------------|---|
| (١) تأنف : أنشرف . | (٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الهاشد . |
| (٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم . | (١٠) العاقب : اسم من أسماء الرسول ومعناه غاتم الرسل . |
| (٣) أفياء : ظلال . | (١١) الصادر : مبلغ الرسالة . |
| (٤) أحظاهم : أتاح لهم حظوة . | (١٢) الثاقب : المصيب . |
| (٥) فاءوا : رجعوا . | (١٣) ليلية : خلاصة . |
| (٦) الجسيم : العظيم . | (١٤) الضرائب : الطوائع والشماتل . |
| (٧) احتقاب : ادخار . | (١٥) للارزب : التسلط . |
| (٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران . | (١٦) اللاحب : البهين . |

لاين تومرت مهدي الموحدين . وهذا الطول في السجعات قصد إليه قصدا ، لكي يضمن كل سجعة في داخلها سجتين أو أكثر . وهو يتدنى ذلك منذ السجعة الثالثة : « ولئنهم في أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإديار ، و (بدؤوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) أمتي الظاهر الغالب . والسجعة بآية وفي داخلها سجتان راثيتان حتى تشابك الكلمات في داخلها وتعلق ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزيه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكّل بهم آية ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامة أكافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عَن المحافظ المراقب » . وفي داخل السجعة البائية سجعة جيمية في أولها ثم سجعة ميمية ، وكان الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعلق عن طريق هذه الإرنات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة اختيارها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتباً بارعاً حقاً .

والرسالة طويلة ، غير أنها - بجانب بلاغتها - ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحي من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة في الجزائر ذكر بسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتبع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألبته نفحة ضَرَمَ (شرر) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتسل بالذكر الحكيم : (أينما تُقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألّقا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا في سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة^(١) الغزو ومصلرة الجهاد . وأما قبيلة جُشَم فهم بمحلات أهل التوحيد مسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرون ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفَيَاح^(٢) ، وكل من هذين الحيين : الجشمى والفخذ المحمدي الرياحي عَزَم - وعَزَم به - على أن تُخَطَّ إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويؤا هنا لك قرارهم ويُفصر على خدمة هذا الأمر العزيز (يقصد دعوة الموحدين) جوارهم . فالحيان الأعريان الكيران : فخذ بنى محمد الرياحي اللال وفخذ جشم سيختط لهما منازل في الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأتيج وزغية فيقول القالمى عنهم إن أعينهم وصلوا مراكز عاصمة الموحدين بمدون يد الاستبلة ، ويطلقون ألسنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بمساء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب الفلاس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما في أيديهم ، حتى ككت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(٢) الفياح : الفلاح ، الولع .

(١) مضافرة : معاونة .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . سي حر ميب' القاملى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلم أظفار أعراب اهلالية فى المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمتا إلى جنبه وختت لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته فباتل الأنيج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحدا بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القاملى . ورسالته لذلك بجلب أنها وثيقة أدبية تُعدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوهراني^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر الزهراني ، منشؤه ومرياه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها - مثل بقية بلدان الجزائر - حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الزهراني الأدبية مبكرة ، ورأى - بعد نضجه وشهرته بالأدب - أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومنّ حوله من نهاء الكتاب ، وأحسّ أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتلة الأدبية الجادة إلى الكتلة الأدبية المزلية . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك - أو لعله هو الذى رحل إليها - فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحي دمشق ، وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق المزل وعمل المناومات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدي الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا النام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلالة ، ولولا طوله لذكرته .

والنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من التقطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزل غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن ناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويلييه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلطين والأدباء والشراء والعلماء من العرب والعجم والفلساق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقله كل من يلزم به أو يمر

الوهراني ومقدمات ورسالته نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

(١) انظر ترجمة الزهراني عند ابن خلكان ٢٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها فى القاهرة بإمرام شعلان وعهد نشر باسم : ملفات

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار وبخاورة ، ويرى الرسول مقبلا في موكب عظيم من المقام المحمود يؤمُّ مورد الحوض الذي يسنى منه أمته . يقول^(١) :

« لما انتهى إلى شاطئ المشرقة^(٢) تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفي أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلّى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقبل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المأش وأقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فيماذا كانوا يفعلون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقبل له : والله ولا بشيء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر^(٣) الخيزوع في البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان . »

وهو نقد مغربي مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشهرهم وخلال لأستانهم ولا عمل لهم يفعلون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والسك في المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبي طالب في حرب صفين ومن الحسين في مقتله بكرلاء ، بينما نراه ينوه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولمله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام المرئي ، وهو يستهلها بقوله^(٤) :

« لما تعذرت مآربي ، واضطربت مغاربي ، ألقيت حبل على غاري^(٥) ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ، ومن أخلاف الأدب وضاعتي ، فما مررت بأمر إلا حلتل ساحتها ، واستمطرت راحتها ، ولا وزير إلا قرعت بهله ، وطلبت ثوبه ، ولا بقاض إلا أخذت سيئه^(٦) ، وأفرغت جبيه ، فقلبت بي الأعصار ، وتفاذنتي الأمصار ، حتى قريت من العراق وشمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام^(٧) ، لأقضى حجة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضر ، و مكابدة العيش المر .. وتائق نفسي إلى محادثة العقلاء ، واشتاق إلى معاشره الفضلاء ، فدلّني بعض السادة الموالي ، إلى دُكان الشيخ أبي المعالي ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأي مصيب ، ويضرب في كل علم ينصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلي ، ورأى أثر السفر علي ، بدأني بالسلام ، وبسطني بالكلام ، وقال : من أي البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(١) انظر منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ٤٩ . (٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه : ذهب .

(٢) المشرقة : المورد .

(٣) شجر رزقه كورق الثين ثمرة مر . (٦) سيئه : عطاءه .

(٤) منامات الوهراني ومقاماته ص ١ . (٧) مدينة السلام : بغداد .

ومن تركته وراء ظهره . وسأله عن دولة الملثمين ثم عن دولة الموحدين قائلا : ما تقول فى عبد المؤمن (أول ملوك الموحدين) وأولاده ، وسيرته فى بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلط على من فوق الماء ، خضع له ذرو التيجان ، وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إسماعيل ، تأملت ، وظلمت ، ولأنشدتك فى الملا^(١) قول الشيخ نبي العلاء^(٢) :

جَلَوْا صَارِمًا وَتَلَرًا بَاطِلًا وَقَالُوا صَدَقْنَا فَقُلْنَا نَعَمْ^(٣)

ولكن السكوت عن هذا أتمجح ، ومسألة الأفاعى أصلح .

وأول المقامة شبه بمقامات الحريرى ويديع الزمان فى تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدرامهم وذنائبهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صفية النورماتدى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضىء الخليفة حيث ذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه انتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعهم بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصلة .

(ج) أبو الفضل^(٤) بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بترتيبه علميا وأديبا ، مما جعل الغبريني ينعت فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السنيّ القدر الكاتب البارح . وينعت عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراعة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبريني : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) إلى حضرته بمراكش وكان يجله لحسن سمته وروايته ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم الغالى

(١) إسماعيل : إسماعيل بن .

(٢) للأ : الجساسة .

(٣) نبي العلاء : نبي العلاء المرى .

(٤) جلوا صارما : صغفوا سيفا وشحذوه .

(٥) نظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب

للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٢٨ وسجوع رسائل موحدية

ص ١٤٩ - ٢٢٨ .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القائل - لا الخليفة يوسف - هو الذى استدعاه - ربما لمعرفة المظنونة بئيه القاضى موطنه أو لمعرفة فضله . ويقول الغبريني إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كتابا له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة^(١) أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٤٠ م وكان هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبريني .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيخ والأعيان والكافة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوى تونس وقضى على نثار بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغرامهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتوح الإسلامية ، وأنهم لبوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه^(٢) :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الحلالية) فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم والآله الجزيلة ومنته الجسم ، ونهبوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعرفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استئراؤهم^(٣) ، وأمل الله لهم فزاد عليه اجترأؤهم . ونُذِروا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضئهم وقضيضهم^(٤) ، نفرة من أبت^(٥) عن الوطن ، وبُذِ علق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسّت أولا جلودهم ، وقضوا فيها من الشباب عهدهم ، فالذى يتقلون إليه من الرُّباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أنضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلّغت^(٦) فى بواطنهم ، فحركت إلى ذلك حفاظهم^(٧) ، ومارت^(٨) لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سألت بهم

(١) التكملة (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) استئراؤهم : اشتداد شرهم ونفاقه .

(٤) بقضئهم وقضيضهم : بجسمهم بقض أعزهم على

أولهم وينفذ .

(٥) أبت : قنطع ، وفى الأصل : أبت .

(٦) تغلّغت : تملكت ، وفى الأصل : تغلّغت .

(٧) حفاظ جمع حفيظة : الحمى والغضب .

(٨) مارّت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح^(١) ، وانتلأت بجمعهم الموائى^(٢) الفسائح .. وإن جموعهم لتكثر الحصى^(٣) ، وتماد^(٤) الدنى ، وتملاً النيطان^(٥) والرئى .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوى من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورسالة ألفاظها عامداً في أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التي يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فزيدها إيضاحاً وبيانا كقوله في أواخر ما أتيس من رسالته : « وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أنفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت في بواطنهم ، فحزرت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » . والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين المحصية ، إذ لم يكنوا بأن يستشر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم في الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير في رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى في وقتهم معهم ، واستمر تلك السنة الخليفة يعقوب الموحدى مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر في موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م . ولم تنقض هذه السياسة إلى انتصار الموحدين في الأندلس لمهد يوسف ويعقوب فقط فقد أنفضت أيضاً إلى كف أيدي الأعراب عن العبث لمدة قرن في بلاد المغرب وخاصة في الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها - كما مر بنا - سنة ٥٨٦ هـ على لسان يعقوب الموحدى إلى الطلبة - الموحدين - الأعيان والأشياخ والكافة بسنة يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصرانى في غربي الأندلس وتكيله بمن معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طرُش . وهو يستهل الرسالة بقوله^(٦) : « الحمد لله الذى أرغم لهذا الأمر العزيز شَمَّ المعاطس^(٧) ، وألان بأيده قَبَاح^(٨) الجاح الشامس ، وأخضع لعزته وسطوته كل جيل متناول ، وأخشع كل لحظ مشاوس^(٩) ، وحكم بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقَّل^(١٠) في الشُمِّ الشوامخ وتوغَّل في اليد الباس^(١١) » ويسر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزماني البركة والسعادة ، ما تجاوز^(١٢)

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان التاسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى .

(٢) الموائى جمع مواء : المغارة الواسعة ، وفي الأصل : الموائى .

(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفي الأصل : الحصى .

(٤) تماد : تفاخر في كثرة العدد ، والدنى : الجراد وفي الأصل : تماد الرئى .

(٥) النيطان جمع غبط : اللطيف الواسع من الأرض .

(٦) الرئى جمع ريو : ما ارتفع من الأرض .

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .

(٧) المعاطس جمع مطس : الألف والمراد بشم المعاطس الأعداء المتعلون .

(٨) قَبَاح : عيب . الشامس : الجاح المستحى .

(٩) مشاوس : متكبر .

(١٠) توقَّل : صدق .

(١١) الباس : القفر الخالية .

(١٢) تجاوز : راد عن .

تقدير المقدر وقياس القياس ، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ، ورسوله الأكرم المجتبي ،
للخيار من أشرف المخلوقات^(١) وأطيب المغارس ، المسكت بفرقة المعجز ، وبيته الموجز ، كل
نافس ، والمأحى بنور نبوته الخاتمة للملل ، وشرعته الناصخة للأديان والنحل ، مظلمات
الغياهب^(٢) ومد لمحات الخنادس .

ولبن عشرة في هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين
لسجعاته فيها ، وبدءاً من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتوازن العبارات أو التعبيرات
داخلها بحيث تشابك ألفاظها وتتماق في سجمات داخلية ، ليدل على مدى قدرته في السجع
وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عنابة واضحة بالتصوير كما في قوله « ألان بأيده قباح أو عضد
الجامع الشاس » وتتوالى كتابات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس
ومما بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلمحات الخنادس . ويقول - على لسان يعقوب - إن
صاحب قشالة المسيح في الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بمعهد
مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع
صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصراني في الغرب .
ويصف ابن عشرة انتصاف الجيش لزرّوعه في شترين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربّوعه ،
ويصور استيلاء جنوده على قلعة طرُش المنيعه ، بقوله^(٣) :

« نهدوا^(٤) إلى قلعة للأعداء تسمى « طرُش » على هضبة منيفة^(٥) المراقب ، مسامية
للكواكب ، قد تقطعت حافاتها ، وبعدت قذائفها^(٦) من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمها
ومكائنها من نفوسهم أنشوها^(٧) بالبناء الشامخ وحصونها ، وألقوا بها جموعهم المؤتشة^(٨)
ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم واتمنوها ، واعتدوها^(٩) قفل بلادهم ، فخانتهم -
بحمد الله - آمالهم التي أملوها^(١٠) ، وكذبتهن ظنونهم التي ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث
لا تُرام ، ولا يُهْتَضَم^(١١) المتوكل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربتها - لوعورة مراقبها^(١٢)
وجوانبها - الأقدام . لولا سحود هذا الأمر^(١٣) الذي تؤيده الأقدار وتجنده الأيام ، والحمد لله

(١) المخلوقات جمع مخلد : الأصل .

(٢) الغياهب جمع غيب والغنادس جمع جنس وهما
الظلمة .

(٣) انظر مجموع رسائل موحدة ص ٢٢٣ .

(٤) نهد : نهض .

(٥) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .

(٦) قذائف جمع قذفة : جانب بعيد .

(٧) أنشوها هنا : حرّوها .

(٨) المؤتشة : الملتفة .

(٩) اعتدوها : عدوها وفي الأصل : اعتدوا .

(١٠) بعد أملوها كلمة زائدة : هـ في استقصائه : خُيفت .

(١١) يهْتَضَم المتوكل : يفقر القيم فيها . يستضام :
يظلم .

(١٢) مراقبها : أماكن الصدور فيها وفي الأصل :
مراقبها .

(١٣) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُستنجز به المن وتستدام ، لا رب سواه . فإزالتها الموحدون - أعزهم الله -
أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صيال^(١) .. وعندما عشتهم الحرب الضروس^(٢)
بنلها^(٣) ، وجرعتهم أكوؤس مرها^(٤) وصلبها .. رُغموا^(٥) فى أن يخرجوا بحشاشتهم ، ومن
معه من نسلهم وذرياتهم ، ويخرجوا للموحدين - أعزهم الله - عن كل ما اشتمل عليه
حصنهم من أموالهم وأقواتهم .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات متخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا
الحصن وعدوه قتل بلادهم ، فخانتمهم آمالهم وكذبتم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التى
تؤيدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعشتهم الحروب الضروس بنلها وجرعتهم أكوؤس مرها
وصلبها ، فولوا على وجوههم خاشعين مدحورين إلى غير مآب .

(٤) فى الأصل : مرقها .

(٥) فى الأصل : رغبوا .

(١) فى الأصل : مصال .

(٢) الضروس : العضوض للمهلكة ..

(٣) فى الأصل : بها .

القسم الثانى

المغرب الأقصى

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

المغرب الأقصى يُعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتعدّه الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرغ منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع عاذه له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتتفرغ منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغي أن نعرض مناطق ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة المحيط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسي ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسي غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول المحيط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البوادل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصباد وكتاب
وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع حلقة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات نبي عبيد
البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية
الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصباد وصورة
الأرض لابن حوقل وملاح المغرب العربى للدكتورين

بطولات بطل شعبي من أبطالهم يسمى « هُلولا » ويطوكه في المغرب الأقصى تماثيل البطولات التي تحكي في فرنسا عن أبطالهم رولان في ملحمة المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هُلولا » . وجنوبي هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهي سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تمون مدينة فاس ، ويؤلف شبلها زهرة الجيش الفاسي . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهي مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م وخطت في الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهي تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سلا وهي ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبي هذه المنطقة منطقة تامسنة وهي منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعدُّ بالمعشرات . وتنتهي في الجنوب بجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أفنة وخلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أفنة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهي ميناء على المحيط في وسط سهل كبير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها في العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفي . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتمتد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهي منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتردحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهي هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوي . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوي جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتبوت في الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقي بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة المحيط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التي تخاذى نهر الوردغة الواقع في منطقة فاس ، وهي منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس في الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان في مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعشاب والزيتون والتين والكان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهي عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذة جبال منطقة الحوز شرقي فاس وطولها نحو خمسين ميلا في أربعين ميلا عرضا ، وهي منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولاً ومائة وأربعين ميلا عرضاً ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازة وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى ديبج الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها نفزة وأنزرة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دكالة وتمتد شرقى منطقة مراكش ويتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضاً محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغرداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعلة مناجم للححاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوباً إلى مسافة مائتين وخمسين ميلاً . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوباً إلى مسافة مائة وعشرين ميلاً حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علواً شامخاً ، وهو علو هياً من جهة لتكوّن الثلج على قممها وذراها الشامخة ، كما هياً من جهة ثلثة لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتنزل فى الشتاء . وكثرة الجبال على سطحها هياً لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترباً منطقة فاس وحوضه بعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكاناً ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوباً ثم غرباً حتى المحيط ويندى مناطق تادلة وتامسة ودكالة، ونهر تنسيف ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترباً شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاء المهيأة للزراعة كثيرة ، وهى أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى معدودة المساحة وكثافتها فى بعض الأنحاء أشد ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانئ على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهريّة وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . وربما تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلتفك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنخل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ^(١) القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتداد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطبيات الخيرات والسلع يؤمنون بها سفنهم ليجادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : ويعرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجنة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يحثون لتجارنتهم عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرعى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنخل . واتسحوا فى اتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارنتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبي الشرقى لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قانس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول لعمد على ديز - (طبع القاهرة) وكتاب مدينة المغرب العربى للأستاذ أحمد صفر .

المغرب الأقصى ، وأعجيبهم موقع غريب مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو فى صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأتمنا اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية . واختاروا فى آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إتليهما الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكنوا شعبا عريقا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج اللون وغيره ، وشوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن ثوا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى - مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين - يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيتان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نفلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من الحضرة ، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغرس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرها وصنع الأوتى وحلى الزينة وحياكة الملابس والدباغة ، وعرفوا منهم - فيما يظن - صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهن مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعمهم اليونان - فيما بعد - وأسسا لهم مراكز فى شرقى صقلية بيسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشمين أو الفتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجع كفة إحداهما رجحا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ - ١٤٦ ق م) وهكسب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء ميرما ، ويهدم مبناها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقيا

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتها نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسماها سيجيلوم ماسة ، وحُرِّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكاتها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعنتهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بوبا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القرية من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكتف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر لئى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسة ، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن ، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب . وجلس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى ، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال ، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وليلي ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة . وأرهب الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة ، وكانوا يهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية ، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية ، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية . وظل البربر يقومون بفنن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى ولبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوروبا الشمالية فى اقتسام أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كتبت سنة ٤٣٤ للميلاد اكسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقيا التونسية والجزائر وتوابعها ورحب بهم المغاربة وأعانواهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الروماني ورفعه عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على مجموعهم القائد البيزنطى : « بلزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعباً حربياً فلم يخلفوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كمهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شىء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعاها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر ، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا - سلا - أنفة بنوا مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكّالة كما بنوا مدينة مراير فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الوندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولاية - ثورة الصفرية - بنو مدرار - الإدارة - بعد الإدارة والمدرايين

(أ) فتح^(١) المغرب الأقصى وعصر الولاية

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فخر البلدان والأمن فى أخبار دول المغرب الأقصى والكمال لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان للمغرب لابن خلدون .

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فخر البلدان للأفريقى وفتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار
 العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه
 عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
 فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاتحهم
 به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم
 التونسى يسمى « سبلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ،
 وفتح جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبي سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية .
 وتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة
 ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة
 للجيوش العربية الفاتحة للمغرب ودارا لحكومه وتدير شئونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة
 للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وغُزل ،
 وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها
 من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقبه قبيلة أوربة
 ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وغُزل
 أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى
 لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب
 الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدي البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ،
 وأعلنت له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والميط ولأهأ وهادته وسالته ،
 وأخضع ولىلى فى منطقة فارس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة
 ونازلها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه
 حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلايب (طوق) الفرس وهتف
 قائلا : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبدَ رب سواك » .
 وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصه فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر
 وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م
 واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارا
 للدد يأتيه ، وأنه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل
 فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان
 سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدون دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، واتبع قرطاجة
 وطرد منها جالية الروم التى كانت تنجس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية
 خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطولوه ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت في أيامه ثورة عنيفة لقميلة جراوي الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الانسحاب إلى « سرت » انتظاراً للمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت في أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالي عليهم وأن يجندوا منهم اثني عشر ألفاً ليكونوا جزءاً لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رقاء سلاح وأصبح منهم ولاية لا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع في المغرب الأقصى وفي كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالاً في طنجة وجنوباً في إقليم السوس ، وخلف في النواحي التي لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم في أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإداري للديار المغربية ، فولاية لبرقة هي عاصمتها ، وولاية ثاية لإفريقية التونسية وشرقي المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربي المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس في المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليه عاصمتها طنجة ، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربرياً هو طارق بن زياد ، وأكثر من ذلك جعله قائداً لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية في حكم المدن وفي قيادة الجيوش وفي الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره في أطباق الأرض طلباً لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أى فارق بين العربي والبربري ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم في القرن الأول الهجري وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاطميين العظميين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحاً حرياً بل جعلوه فتحاً عقائدياً أخوياً لأمة وثنية أصبحت تدعى بوحدانية الله ، وأصبحت تستثمر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين ، فهي تشاركهم في العمل تحت لوائه جهاداً في سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطلين العظميين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما في الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربي في شمال إسبانيا وجنوبي فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم في الدولة ، وولى على القيروان وديار المغرب فقيهاً هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد نبي المهاجر الوالي في فرتى عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سرهما ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م . وبدأ عهد جديد فى المغرب لولادة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر فى جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الولي الجائرة فقتلوه فى السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولّى عليهم بشرين صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م عبدة بن عبد الرحمن السلمى ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . وتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعصفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أزهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسوروا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طبخة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم قتلوا للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانشأ إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجو مهبطا لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنا وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحسن مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملا نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تفرقان من التسوية حتى فى تولي الخلافة فلا يصح أن تقصر على قریش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفأهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه - كما يقول ابن خلدون - عيّنهم في أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المظلمين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعياً أن ينتشر في المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضفرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زناتة وتغلغل في بعض المدن في جماعات السودان الفاطنيين جنوبي الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضفرة ، وبوع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي ، وعين عليها والياً من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودلت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهري فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أنبأه من الصفرية ، فنجّوه عن قيادتهم وولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م وأخذ يعد جيشاً للقاء خالد الفهري ، ونصب له ولجيشه كميناً على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهري قضاء مبرماً وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكثرتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه المزيمة الساحقة ونحى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولّى عليه كلثوم بن عياض القشيري ، وأعانه بلبن أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشاً ضخماً عداده ثلاثون ألفاً ، وزحف بلبن أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقىا جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بمشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر في جميع الديار المغربية ، وولّى هشام بن عبد الملك عليه حظظة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وتطايّر شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغربين الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون في المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزناتة ، ويفاجأ حظظة بقاتدين صفرين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد المواري يحشدان جموع الصفرية في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حظظة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح في استمالة أهل القيروان وفي مقدمتهم الفقهاء ، ووزع عليهم جميعاً السلاح ، وبث القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان ففقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزم على القتال واستسعلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتله ، فامتلاً الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثلاثون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حيد الزناتي ، وخلفه على إمارة الصفرية وزعاتهم أبو قرّة المخلبي ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهواري معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجاً سنة ١٣٩ هـ/ ٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستول على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيرواني إذ ربطوا دوابهم في المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهي فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعائها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع الماعري زعيم الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة حين علم بما يرتكبون من المآثم في القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والي القيروان العباسي الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب الماعري في موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية في تاهرت. وعلى أثر ما حدث من هزيمة الصفرية في القيروان نجد أبا قرّة الصفري يكون له إمارة مستقلة بتواحي تلمسان. وفي الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبو القاسم سمكون واسول ينشئ للصفرية دولة في سجلماسة، ولم ينشئها في طنجة ولا في المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى مما يدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ما شاع عنهم في احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم في المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرّة يعدّ العدة في تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل في سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمي على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه في الزاب ، واضطر أبو قرّة إلى الانسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م ونازل الصفرية في الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا ففرض على الصفرية في المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا في القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبل مستقل . ونشر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر في المغرب الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) فإن من بقي منهم اتسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بني مدرار .

استقر في أذهان كثيرين من الصفرية - وخاصة صفرية مكناة - بعد إخفاق حملتي عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفري أنه ينبغي أن ينجسوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منغلزين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م لأنها تقع في أقصى مكان بالجنوب الشرقي من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذي اختارها زعيم من زعماء الصفرية بمن أسهموا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامي الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكون واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناة ، وكان من حملة العلم وارتحل في سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكون ، ورجع إلى قومه في مكناة يشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالثبقة وأن من حق الصفري أن يعلن أنه مع الجماعة في الظاهر ويطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يمد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعاش معهم ، والصفري لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح في وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التي خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسل المسلم السيف في وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان القبايلي والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكون الملقب بمدرار صالحا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام في هذه الدولة سودانيا من رهوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارثتته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه - ويتجرون فيه - من السلع مع السودان . وظلت الصفرية - مع السنين - تنقم على عيسى بن يزيد - بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/٧٧١ م

(طبع لندن) ص ٦٠ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٦ وما بعدها .

(١) انظر في دولة بني مدرار بسجلماسة كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للبكري ص ١٤٨ وما بعدها والبيان للمغرب لابن عسلى (طبع بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإندريسي .

نخه عن الإمامة ، ونصبت مكانه نيا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م وظلت الدولة في أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بني مدار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أسس المبدئين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعملهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفرين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعمر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بني الأغلب التي قامت باسهم في القيروان . وبهذا الموقف الذي وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفرين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدارا كان يخطب في عمله لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (١٣٦-١٥٨ هـ) ولبنه المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ) . وتوالى أبنائه وأحفاده من بني مدار يدعون في خطبهم لخلفاء بني العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم . واتخذت الصفرية في سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجمع أمرها في سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م على خلمه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكري أنه هو الذي دبر أمر خلع أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعد جيشا قويا وسع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبني بجانب سجلماسة مدينة شيد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثني عشر بابا ، وأصهر بانه مدار للحاكم الرستمي عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) في ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية في الجزائر ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدار ، وطالت ولايته ورزق بلنين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يولي مكانه سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفى أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م وظل هو إلى الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م وخلفه ابنه اليسع ، وفي عهده نزل أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الإمام العبيدي كرامة في الجزائر وظل فيها سنوات يث دعوته ، ونجح في بنها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية في القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدي ، فأرسل إليه يستقدمه ليشترك في الأحداث الأخيرة ، ولأنه المهدي واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م والتزم التخفي من عمال الدولة العباسية في طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقائه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدي الشيعي ، فانتظر حتى انتصر على الأغلبية سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدي من السجن ورد حرته إليه ، وعلم اليسع بقدمه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناة ودارت معركة كسب فيها النصر لأبي عبد الله الشيعي وجيشه ،
وقتل اليسع في المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدي ورفاقه من عيسهم ،
وبابنه أبو عبد الله الشيعي ، وبابنه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع
داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتفضت على والي المهدي الكتامي وقتله هو ومن معه من
كتامة سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م وبابعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفي سريعا فخلفه أخوه
أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة
٣٠٩ هـ / ٩٢١ م فانتصت سجلماسة وقبض على أحمد وولاه ابن عمه المعتز ، وتوفي سنة
٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وبابعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال في المهدي ، فثار عليه ابن عمه
محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقب بالشافر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ
بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه
بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبني العباس ، وأنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم
سجلماسة حكما عادلا رشيدا إلى أن اكسح جوهر الصقلي بجموعه الشيعية من كتامة
وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى - فيما استولى - على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السني
محمد بن الفتح أسيرا إلى رقادة بإفريقية التونسية ، وتوفي بها سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . وثارت
الصفرية على والي جوهر الصقلي سريعا ، وبابعت أحد أبناء الشافر لله ، وارتضى ذلك المزعز
العبيدي ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناة في
الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة في التآلق والسطوع . وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب
مفراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدهتهم زحف حزرون بن فلفول من أمراتها إلى سجلماسة سنة
٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفرين من مكناة ، وقتل وهزم قومه هزيمة
ساحقة لم تقم لهم بعدها في سجلماسة قائمة ، وأقام حزرون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ،
وكانت أول دعوة أقيمت لهم في المغرب الأقصى .

(د) الأدراسة^(١)

معروف أن الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ثار على العباسيين بمكة
أيام الخليفة العباسي المهدي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وثار معه أهله وفي مقدمتهم

١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها
والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي
ودولة الأدراسة ملوك تلمسان وتونس وقرطبة لإسماعيل
المريني (طبع بيروت) .

(١) انظر في دولة الأدراسة كتاب المغرب للبرقي وصفة
المغرب للإدرسي وروض القرطاس في أخبار ملوك
المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع (طبع الرباط)
ص ١٩ وما بعدها وأخبار المغرب لابن عشاري ٢٩٩/١
وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب

عمه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسي في مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فح » ودارت الدوائر على الحسين ومُنَّ معه قُتِلَ في المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الديلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدهما يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاة راشداً فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدي وعيونه ، وأخذاً بنصيحته ، ونزلا في ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م في مدينة وليلي بجبل زهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي شيخ قبيلة أوربة ، وعرفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونفزة ومكاسة وكافة البربر بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم اليهوديين والمتنصرين فدثروا له وأسلموا على يديه . وفي سنة ١٧٣ هـ/ ٧٨٩ م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مفراوة الزناتية وأميرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مفراوة فأثنته وأمن سائر زناتة وبنى مسجداً بتلمسان ونظم شئونها ورجع إلى عاصمته « وليلي » ولم يلبث أن توفي سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، ففره منه ، ولتتهز فرصة فندس إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، ولنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاة راشد ، وتوفي راشد سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م فجعلوا مكانه في الوصاية عليه ولاشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبي الحادية عشرة بايعوه في جامع وليلي ، وشبَّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدى وأخذ يستكثر في بطائه من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغلبية حكام تونس وشرقي الجزائر . ورأى أن مدينة وليلي تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ توارى في بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ ناظرين على الحكم الرضوي لانهماكه في ملذاته وفي اللهو والملاهي فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحضروه سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م وقاتلهم فقتل عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس في أول بناء إدريس الثاني لما أو في أثناء بنائها ، إذ نراه يتم شطرا منها سنة ١٩٢ هـ ويسمى المَدَوَّة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا في بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفي العام التالي بنى شطرا ثانيا مقللا للشطرن الأول وسمي عدوة القرويين أي المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسمي الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثاني قبيلة مصمودة

ودلت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/ ٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدتها ومنيره وأقام بها ثلاث سنوات يدير شئونها ، وعما منها دعوة الصغرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالة والعلبيين ، ولم يستطع الأغالة منازل الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثاني ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والمهبط بما فيه من ستة وطلوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هواراة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعراتش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزموور وتامسة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والمهبط وتامسة وهو جد المحموديين الإدريسيين المملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاستع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنى بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هواراة - هى أم البنين الفهرية - ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذريها ، واعتزمت إتفاقها فى وجوه الخير ، فاخطت سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بدعوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مثلثته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى الدولة الأندلسية ، وبعد لبثتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثاني .

وثارت الصغرية ببجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة البيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدي وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكانة على رأس جيش ضخم لتنازلة حكمه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونال مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدي وخلع نفسه وإنفاذ البيعة فلبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكانة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبي العافية يحيى فاستنصر أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختلطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة المبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبي العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايخته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلبقن ، فدخل فى دعوة العبيدين مما جعل المستنصر الأموى يمد جيشا لحربه ، ونزله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى إقليم المبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زنقة ودانت له وتركها له إدريس الثانى . وتملك أنعام من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه عمه واتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستنصر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما يدهم ، جزء أخذه ابن أبي العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقيل أن ترك الدولة الإدريسية لابد أن نشير إلى أنها أول دولة أسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعينت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراءة والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماءها بتعليم اللغارة العربية وأصبح فى المغرب مؤيدون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وضحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءت من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطاقة إدريس الثانى - كما أسلفنا - خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الرضى - كما أسلفنا - سنة ١٩٠ للهجرة وقتلهم وتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس^(١) وسجلماسة^(٢) بعد الأدارسة والمدرايين

انتهى حكم الأدارسة في فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيدون لموسى بن أبي العافية كبير مكانة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموي بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيدين سنة ٣٢٣ هـ/٩٤٥ م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المبرأوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مثناة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وانتحها جوهر الصقل باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموي في قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيدين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المبرأوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أمعاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فاناروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سلا على المحيط ، ولبنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت في قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكرر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن

عقارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب

١٥٣/٣ وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣

وما بعدها .

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجلاسة كتاب الأعلام

لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وخلفه ابنه فوح ، وفى أيامه ظهرت لثونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخانها فترك مدينة فاس عاصمته لمعصر بن حماد المفاوى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معصر فغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهر الصقل حين انتحها ولّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م فتولاها ابنه بصلتين الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجلبوا إليهم قبيلة مفاوة وكبيرها حزون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن نى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المفاوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لثونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكذب إليه فقهاء سجلماسة أن يمزوها ليرفع عنها العسف والجور ويظهرها مما بها من النكرات ، ولئاهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المركة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لثونة واتصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون - الموحدون - بنومرين

(أ) المرابطون^(١)

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أعمامهم فى الرمال الصحراوية المترامية بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورا متبذنين العمران يعيشون على الأنعام وألبتها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارا لهم بين

دول المغرب الأقصى للسلامى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين يوسف إشاخ ترجمة محمد عبد الله حنا . وقام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها ولبن حذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار

الأُم ، وكرروا فى منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولطة وجزولة ولتونة وهى أهمها جميعا . وكان دينهم فى جاهليتهم الجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون فى دين الله متأخرين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا فى سبيله أُم السودان ودوؤخوهم وحلّوهم على اعتناقهم فذلت به كثرتهم ، وأدّى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم - بسبب اتساع منطقتهم - ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وكان على شىء من التقوى فتجهز لأدله فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م وفى عودته منه لقي بالقيروان ثوبا عمران الفاسى شيخ المذهب المالكي ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش فى الناس هناك وحيدا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم فى الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكذب له رسالة إلى تلميذ له فى سجلماسة هو وجاج بن زولو اللمطى لعله يقل تلك المهمة ، فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نلها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، وما إن نزل فى قبائل صنهاجة الشديدة حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأتكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على التسك وعادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لتونة أن يتسك معه فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن فى قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه فى رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدّتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أى المجاهدون فى سبيل الحق وحمل كافة الناس عليه ، ولذلك سما بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملتئين ، وبحق ظلت هذه الدولة - طوال عهدها - دولة رباط وجهاد فى سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر الممتونى ، وأخذ يُعيد العدة للجهاد فى سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الدينى بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربى واتجه شمالا فاستولى - كما مر بنا - على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغير ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالى الذى كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل فى الجنوب فهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال واتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبى الذى كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الحنيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفى فى نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين فى سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطون للجهاد في بلاد المغرب الأقصى فزوا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدتها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس وعما أبو بكر منها دعوة الروانض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحمس أنصاره من المرابطون للجهاد برغواطة الفلسفة ، وكانت موطنها في ساحل المحيط في سلا بإقليم فاس واتفق وآزموور في تامسنة وآسفي في إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد مسيرة الصفري ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبنائه يتنوّون ويشرّعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيدون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازلهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطون في وقائع سحقهم فيها سحقا ، واستشهد عبد الله بن ياسين في بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأنهم كما يقول ابن خلدون وعماهم من الأرض عوا . وبلغه خلاف عيف بين قبيلته ومسوفة في موطنهم بالصحرى ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ليصلح ذات يئتهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطون العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد فى إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة فى رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر فى بلدتها وأراضها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدم حتى استشهد فى إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطون فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون - قبل يوسف - وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعا حازما مدبرا للملك على خير وجه ، مجاهدا فى سبيل الله طوال حكمه لبتفاء الثواب من ربه ، وكان يحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يتنى فى السهل الواسع شمال أغمات وجنوبى تهرتسيف مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ فى بنائها سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وهى مدينة مراكش ، وقد شيدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جند يوسف الأجناد حتى اكمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م استولى على بلاد غصارة فى منطقة الريف إلى

طنجة ، وضع مدينة فاس الفتح الثماني سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م وعاد إليها في السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م فرّق عماله على بلاد المغرب وفي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفي سنة ٤٧٢ أرسل قائده مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفي سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفي السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفي سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربي نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغي أن يتوحد تحت راية واحدة هي راية الخليفة العباسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . وما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الراضة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والزاهة ، وضمّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تمشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون . وكانت الأندلس - فى القرن الخامس الهجرى - قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سمي عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم - قهرا - إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرها من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يتلهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه - مستغيثين - نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الحنيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عبر الزقاق سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقون أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازله فاستغلت بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وإلبا في روما وجاءته حشود من الفرسان ، والتقت الفتان في موضع يُدعى الرّلاقة شمالي بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُرّق فيها جيش ألفونس شر ممزق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومتى ألف راجل ، فنكّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة في شردمة قليلة من الفرسان مشخا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين ، ولو أنّه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفي سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لبيط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكعب إلى من سواه من أمرء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضدّ ألفونس ، ولم يلبّ سوى أمير مرسية وأسرّها في نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبّ الخلاف والشقاق بين أمرء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيري أمير غرناطة فعبر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيري وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبي بكر ليخلع أمرء الطوائف جميعا ومن أبي قاتله أو أخذه أسيرا ، وقتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونزله المعتمد أمير إشبيلية وأسرّه ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفرّ ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين - بنظره الثاقب - رأى أنّ تظل مع أمرائها من بني هود ، لتكون نفرا حريبا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفي سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م وقيل بل في سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه على . وفي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م توفي البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبيع لابنه على بمراكش .

وكان على مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م وجّه أخاه نعيما الوالي على غرناطة بجيش إلى إقليس شرقي طليطلة ، ولقبه ألفونس وهزمه نعيم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولي عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى نعيم على حصن إقليس وشترية . وفي سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م عبر على بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طليطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط ووادى الحجارة . وفي السنة التالية فتح سير بن أبي بكر مدن شريش ويطليوس وبرتغال وبليرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م توفي سير بن أبي بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفي السنة التالية ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م توفي القائد مزدلي غازيا ببلاد النصارى . وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ على بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماها بني هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شتمرية . وفى سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقبه . وأجلُّوا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنازله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م أخذ البيعة بمرakash لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م .

وخلف تاشفين ثباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى بمرضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنگال وغير السنگال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نخلة البجيلة من السوس ونخلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، وروحدته بتجديده المعروف بها إلى اليوم ، وصالت الأندلس من الضياع ، فقد كتبت سفينة توشك على الفرق ، فأتقذتها ورددتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم - على اتساع أرجائها - عدالة وأمن لم يحظ بهما قطر فى أزمتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنگال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مفرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدى الموحدين واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون^(١)

نشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

الوحيدة والحفصية للزركشى (طبع القاهرة)
والاستنفا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلامى
وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إيشاخ ترجمة عنان
ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب
الصلاة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمصعب
للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان
للمغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع
وتاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها وتاريخ الدولتين

وكانت تنتشر في منطقة ، المبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر في كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التي قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة في مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة المثلثون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل في السفح الجنوبي لجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من أسفى في منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهتانة وتينمل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت المرغى حول سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرّ بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجّ ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا فوض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركناً أساسياً فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعياً من المهديّة والعصمة ، أما المهديّة فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلعب نفسه بالمهدى أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموفات والمعاصي ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سمى نفسه - وسماه أتباعه - الإمام المهدي المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدي ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت فى هذه الصفات التى خلعها على نفسه مستمداً لها من الإمامية الشيعية كتباً فى الإمامية انتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدي معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رئاستها إمام وتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعائهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد - مذهبه المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تزول ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . ولما دعنا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صوره . وكان يتهم المرابطون وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتلهم ، ومماذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فعبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة وكان لهم جيش فى موريتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة - كما رأينا - تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى التوفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م وقد فسح فيه - كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالمراق فى هذه السلسلة - للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية .
 ومبدأ ثان من مبادئ المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءاً لا يتجزأ من دعوته ،
 وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ،
 فإن لم يستطع قبلته ، وإلا فبقليه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعاراً
 للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل
 تقدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،
 ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعبد المؤمن بن
 على الكرومي من قبيلة كومية ، ويقال إنها زناتية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ،
 والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى
 منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى
 فى المسجد بأمر المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى
 تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تزبيبه ونفى التشبيه
 عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماه بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ،
 وكأن ذلك كان تمهيداً لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهري الذى يأخذ بالكتاب والسنة
 فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغمت ثم بقبيلة هتانة المصمودية وشيخها
 أبي حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ/١١٢١ م وبنى بها رباطاً للعبادة ، وانتالت
 عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينمل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ
 ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحبة الرسول ،
 وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفظة المذهب وفقهاء
 الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعد جيشاً عداة
 ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين
 فهزموهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأتخنوا فيها قتلاً وسبياً وسميت هذه
 المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدي أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م ،
 وكم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يمؤون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا
 للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين
 على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينمل سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ،
 ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس في المغرب الأقصى إلى دعوته وانتفض البربر في سائر أنحاء المغرب على المرابطين .
وتحاشى عبد المؤمن مقلبتهم في مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة
٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها بحر تازا إلى تلمسان
ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن علي بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ،
وفى هذه الأثناء توفي أبوه علي بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة
وامتعت عليه ، وكان القاضي عياض هو الذى دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ،
وظل عبد المؤمن يتلعب تاشفين حتى حصره في مدينة وهران بالجزائر وبها توفي سنة
٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط في حجر الموحدين
مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتي فاس ومراكش . وقد ظل
عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهى تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن علي بن يوسف
وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا في شوال سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ولم
يق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن علي بن يوسف ، واتمحي - كما يقول
ابن خلدون - أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى
شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن في بلاد المغرب عند هذا الحد ،
إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس
 وإفريقية التونسية وشطرا كبيرا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمره الطوائف في إفريقية
التونسية مثل بنى خراسان في تونس وبنى جبارة في سوسة وبنى جامع في قابس وبنى الرند
في قفصة . وكان بنو حماد في بجاية ، وكان المرز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهديّة على
البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل
طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقلبة لقابس ، وسرعان ما استولوا في
سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م على المهديّة وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس
والمستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها في
قبضة واحدة ، حتى لا تسول للملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة
٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م في جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها
واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى في إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل
ما كان بأيديهم من مدن الساحل في طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة
المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفي تاشفين بن علي بن يوسف وانتقل صولجان الحكم في المغرب الأقصى
إلى الموحدين اختلت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك في عهد علي بن يوسف
منذ شغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلداتهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلدانهم من ولاية المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثماني ، وفى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بأبن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل أبن مردنيش يقارم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وأبن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن وألى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يفته دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثلثي ملك نصراني يقضى عليه المسلمون بعد فضاءتهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أتبليش وقتل ابنه فى معركةها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسي إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار الصنارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفا فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذها إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه أبن تومرت أثارا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهري فى المشرق وأبن حزم فى الأندلس . ومربنا أن من مبادئ التوحيد وسعوا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشبهة الذات العلية للمخلوقين نفايا بآنا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما مربنا ، مع الإيمان بأن أبن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب ديني أو سياسى واضح لأنه غلبت عنهم معرفة المبادئ التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة أبن مردنيش وكذلك فتنة أبن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب أبن الرين وهو صاحب قلعة شمال نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشترين وقصر

نبي دلتس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس في سنى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م
و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على
أصحاب المذاهب الأربعة فى الشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده نحو مذهب مالك من
المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراشوش
لإحداث قللا فى طرابلس وتونس عليهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ،
وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانية (أهمهم من غلة) ولاية الرباطين على
جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه
القللا والفتن بمحلة كبيرة اتجه بها إلى تلك الدبار سنة ٥٨٣ وأنتم القضاء عليها نهائيا الولاية
بعده . ووضع نصب عييه الاستعانة بالملالين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم
لمنازلة نصارى الإيبان من جهة ، ولينفذ فى جيشه من بسائتهم المشهورة وليبعد عيئهم وغاراتهم
عن المغرب من جهة ثنية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه
ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء
على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ،
وأخذ يعد لمركة كبرى ، واستنفر العرب الملالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس
الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوروبا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول
حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلة ومزقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولأد ألفونس الثامن
بالفرار نحو طليطة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطة لاستولى عليها ، ولكنه
صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بندق موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بمقد معاهدة بينه وبين ألفونس
بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . وما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة
باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة
٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ،
وتسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان
ألفونس الثامن يعد لمركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عباد
الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب
الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر
بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف
الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذور رحمه فى الأندلس والمغرب

واضطربت في الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م. وفقدت في أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحمايتها، فبين سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م وسنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م سقطت في حجور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى: قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م.

(ج) بنو^(١) مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت في حوض ملوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمال سجلماسة، وكنوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها «معيو» في موقعة الأرك المشهورة، وقدمه المنصور الموحدي على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك في المعركة، وأصابته في الموقعة جراحة مات منها شهيدا. وخلفه على الإمارة في قومه المرينيين ابنه عبد الحق، وكان يطمح أن تصبح لقيته دولة مثل دولة لتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية: دولة الموحدين. ودخل بجموعه لعهد المستنصر في وادي تازا وشرقي وادي سبو، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وهزمهم، وتوفي فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنو رياح الهلالية وتوفي فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون في مكناسة فهزمهم، وتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٩م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه، وهو المحقق لأملتي بنو مرين في تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى، إذ ناصب الموحدين العدل، واستولى منهم على مكناسة، وهي أول قاعدة ملكها بنو مرين، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين، وعادوا فتقصدا يبعثهم، وتحدها يحميهم أمير بنو عبد الواد، والتقى، وانتصر بنو مرين، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه اليهود فقبل منهم وصفح عنهم، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها، ونازل جيشا لبني عبد الواد في طريقه إلى درعة وهزمه، ودخل أهل درعة في طاعته، وعاد إلى عاصمته فاس، وتوفي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وبعد - بحق - المؤسس لدولة المرينيين في المغرب الأقصى.

ورلى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

التلمساني (طبع الجزائر) وزهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزائلي (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن أبي زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوي.

(١) انظر في دولة بني مرين روضة السمرين في أخبار دولة بني مرين لابن الأحرار (طبع الرباط) والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (نشر ابن أبي شيب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسدد الصحيح الحسن في آثار وعلم مولانا أبي الحسن لابن مرزوق الخطيب

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وسطت الدولة المرينية سلطاتها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارس المذهب الظاهري ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذي كان يعتنقه الفقهاء في المغرب منذ حياة صاحبه في القرن الثاني . وقد عادوا إليه وإلى مدارس كتبه الموطأ ومدونة سحنون التي أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعي الصقلي والواد والزيادات لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الفقه المالكي ومطولاته التي كان يجمع منها يعقوب الموحدي الأحمال ويحرقها يريد نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هي اشتقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكي من العوامل في تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلحح الحروب بين بني مرين وبني عبد الواد وسقطت تلحح على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بني عبد الواد واقعة بأسلى قرب وجدة في الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفي سنة ٦٧٢ هـ هاجم سجلماسة واستخدم في حصارها البارود لأول مرة في المغرب الأقصى وأذغنت له ، وفي سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويسر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثاني للنهر يتفرع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثاني سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سماها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديما ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى في عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكي دارسك العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصنع من فضة أو ذهب في فاس بمنقاش ، وكان أهل فاس عرفوا - منذ هذا التاريخ على الأقل - بنظام الدمغة . وتجهز يعقوب في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لمبوره الثاني للزقاق على رأس جيش مريني لجهاد النصارى في إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفي سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن في ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لهجازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى الإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفي سنة ٦٨٥ هـ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبلة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونزالث دى لارا nuno gonzalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لا يقفون بجهادهم غنما. إنما يخون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب - بمهد منه - ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فغير الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرها لما ثلثى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمسكرو ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يفراس سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولابد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان يدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة وهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأبدوه ، وتم له الأمر ، وفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعد بناء المنصورة لسكناء وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ هـ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ربع المفرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبى الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبائها

فنه كان فى جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع فى المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وباهمه الناس . وفى شهر شوال من سنة ٧٥٠ هـ أبحر فى أسطول ضخم إلى الجزائر ، وغطم أسطوله بساحل زواوة فى الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده ، وشغل الابن ببلية حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م وكان بليها عثمان الثانى وأبو ثلث فاستولى عليها وقتل عثمان وفر أخوه أبو ثلث إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على مسكره بكل ما كان فيه ، وفر أبو ثلث ثلثاً وقتل فى فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفى أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وهو آخر حكام بنى مرين العظام ، ويومع لابنه نفي بكر السعيد وكان طفلاً فظل فى الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة ستين . وطبىح وقد اضطرت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بنى عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضفاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة ترداد اختلالاً بتولى ناس غير أكفاء ، وإزدادات الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتتة بين بنى مرين وبنى عبد الواد وكثيراً ما تقلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضفاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام فى سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة بمحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المربية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، فقيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بنى عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون فى الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلّوه على إخوانهم ، وإنما يسلّونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين فى الأندلس نزالاً ضارياً . ومن الحق أن بنى مرين أدوا دوراً عظيماً فى الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين فى غنم أو أى كسب مادى . ولا نمضى طويلاً فى القرن التاسع الهجرى حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على ستة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو ألقه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدىتي أصيلا والمراش سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف فى الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس فى الجنوب ، ولابد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المربية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالى الواسع لمولى المغرب على الزقاق والمحيط فانه كان هناك من الشباب العربى دائماً من يستبلسون فى مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة فى الأرواح ، من مثل

نبي الحسن^(١) على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى ، وعز عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فتمسح إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط . وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكمية الصغيرة بمنزلة منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهب قواهم فى أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا ستره من الصوف وينامون ليلا مقيدىن بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب^(٢) إدريسى ذهب إلى غرناطة واتخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجربا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينزل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونهم باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسى على بن موسى بن الرشيد . ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسى والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومر بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فتتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن يدهم شيء من السلطان الحقيقى . وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م فأخوه بوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م . وكان الكلبوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م وعلى أزموور سنة ٩١٩ هـ وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقمون فى كل مدينة حاكما عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وره الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولابد أن نذكر أن الوطاسيين لم ينفوا مكشوفى الأيدى إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعوا ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراكش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستغدت كثيرا من طاقاتهم الفتن الداخلية الكبيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طيبيما أن تسقط فاس فى أيدي الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٥٠ م وسلطانها - فى الواقع - انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان (٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .

السعديون - الطرق الصوفية - العلويون

(أ) السعديون^(١)

السعديون ثلثي دولة عربية علوية تقوم في المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا يتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكان السبب في قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجري للقبائل للخالس عشر الميلادي يكثر من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى في الشمال على الزقاق وفي الغرب على المحيط الأطلسي واستولوا على كثير من الموانئ المغربية خلال هذا القرن ، وتصادوا يستولون على مدن في القرن العاشر الهجري كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء لزداد غضب الشعب ولزادت حينه اضطرابا لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالي . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطنيين قوة يستطيعون بها إقناذ البلاد ، وظل يبحث عن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم في شخص من أصل حسني شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بـ"لقب القائم بأمر الله" ، ونهض تورا لجهاد البرتغاليين ونودي به سلطانا في منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ في محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأخرج ، وتبلغ سياسة أبيه في جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبأمره المسيطرون عليها من قبيلة هنتاة للمصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى في أسفى وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبي وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلاوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة المحيط عليهم ، وتوفي سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م وخلفه أخوه محمد المهدي وطرد البرتغاليين من أسفى وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ هـ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطنيين وأرسل بهم إلى تروندنت في السوس ، غير أن

(١) انظر في دولة السعديين كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية لمبد الكريم كرم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا في أخبار الملوك الشرقا للفتنثال (تحقيق عبد الله كون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأفرقي والمتقي المتصور على

مآثر الخليفة أبي العباس المصور لأحمد بن القاضي (تحقيق محمد زروق) طبع الرباط ، ولأبي القاضي أيضا جذوة الأضلى (طبع الرباط) وكتاب نشر الثاني لأهل القرن الحادى عشر والثاني (تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

واحدًا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك في الجزائر واستعان بهم في الاستيلاء على مدينة فاس فأعاثوه واستولى عليها ونودي به سلطانًا ، فحاصره محمد المهدى واستولى منه على فاس وقتله . وأدَّى صنيع بوحسون بمحمد المهدى إلى تخلصه من الوطاسيين جميعًا في ترونت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تبين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقي لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوى ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التى شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المناورة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتال فى كتابه مناهل الصفا ، رأى سعد كان ينتظره المغرب فى القرن العاشر المجرى أكبر من سعده بهم فى تطهيرهم لسواحله من البرتغاليين ما عداه طنجة فى الشمال . وخلف محمدا المهدى ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك فى الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان والعمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالثوكل ، وكان لأبيه أخوان تفربا فى الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نبلية ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح فى أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمدته واليها بكيفية من الجيش التركى استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فر ابن أخيه الثوكل وبإيعامه الناس وتلقب بالمتعصم سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المتعصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظم الجيش على طريقة الجيش التركى وما يتبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذى لُقّب بالثوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه فى منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سياستان ، فوضع يده فى يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهاز الفرصة ملك البرتغال وجهز جيشا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضم إليه محمد الثوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون فى ميناء أصيلا ، ورأى عبد الملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا فى داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادى أمر بهدمه ، ثم لقيهم فى جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالى سحقا ذريعا وقتل ملكه سياستان ونصيره محمد الثوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المجتهد وفاة طبيعية

لأنه كان مريضاً وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يديرها، وكنتم خبير وفاة أخيه عن الناس حتى لا يعرّك عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درساً أن لا يفكرؤ مرة ثانية فى إزّال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطئ المحيط وأحياناً كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكسب لنفسه فخر النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبأمره الناس متهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكماً عظيماً كبير المهمة بصيراً بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع - ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات - للنظر فى الشؤون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعاً فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى توات وتيكرارين فأرسل إليهما جيشاً قوياً أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تآخض فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرتُو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشاً ضخماً فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوباً إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجسّى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضرّون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفاً وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارتها وأهلها هيّأ لها ازدهاراً فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وتنفق عليه أموالاً طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطاناً فى فارس وبنى فارس سلطاناً فى مراکش ، وتغاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فارس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطاناً سنة ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدث طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة المحيط سنة ١٠١٨ هـ / ١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطاناً ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدبر الحكم في أكثر أجزائه المغرب الأقصى .

(ب) الطرق^(١) الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر في المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجري ، مثله في ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفي أو لصوفي كبير ومصلّى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرهاء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية في أواخر عهد الدولة المرينية وضعف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين في القرن التاسع الهجري أخذ أهل المغرب الأقصى يلودون ببعض أصحاب هذه الطرق آمليين أن يجدوا عندهم الحماية للذود عن دار الإسلام وإيقاظ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتفّ كثيرون منهم حول صوفي شاذلي صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازل ضارية . وبذلك حول الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة في سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين الصارى ، وانتصر عليهم بمن آزره من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليفف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها الوسائل أن يستردوا كل ما أخذته البرتغاليون واستولوا عليه من مولى المحيط الأطلسي ومنه كما أسلفنا وقد نازلهم في معركة وادی المخازن كما مر بنا ولم تلبث الحركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبحة كبرى للبرتغاليين ، فردّوا إلى صولجهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربي على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل في أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم - وهو المأمون - لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة المحيط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم في العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو في المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهدية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة في الشمال وكذلك عن الجديدة في منطقة دكالة وأزمور . وشق ذلك على المغاربة . ولأذوا - من جديد - بالمصوفة بأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسباني فينضوا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ، وطمح كثيرون - حتى بين المصوفة أصحاب الزوايا - أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

لأخبار دول المغرب الأقصى للسخاوى ونشر الثنائى
لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادري تحقيق محمد
حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

(١) انظر في الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كبه
الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلائية ودورها الدينى
والعلمى والسياسى (طبع دار البيضاء) والاستفصا

الاحتضار . ونكفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مبلتي كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفلس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتسلكما وأقام الدولة الدلائية ، وقامه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وغير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدى للإلبان حتى خلص منهم مدينة العرائش ، كما خلص منهم مدينة أزموور فى جنوبى تامسة وخلص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المنعم النظيف . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٢ م .

(ج) العلويون^(١)

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتي الإدارة والسعديين ، ومؤسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب ، وكانت أسرتهم تيش من قديم فى منطقة سجلماة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة فبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحرابه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكته ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماة وتعبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمداً الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فلس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر
التانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، والاغتصا
لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة
بمآثر الملوك العلويين بفلس الزاهرة لابن زهدان ونزعة
الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفرقى وتاريخ الدولة

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان مارده الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربوا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت يبعته سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٥ م وكان قد تولى لايه وأخيه على مكناش فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ / ١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأنيج ، وفتح منطقتى المبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى عمر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها بقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م على مراکش من يد أعراب الشبليات ، ولم يلبث أن فتح مدينة تروذنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من اللالاية فى الشرق وقبائل حسان والمغقل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعنتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكرن للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتمى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربون فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لهذه فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطئ المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كازينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدي الإسبان إلى أيدي الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المصورة (المهدية) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلعها منهم المياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول لبتهاجا بمودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أخذته سوداء فلما استردّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالم الصفراء المغربية . وفى سنة ١١٠٤ هـ/ ١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتي أصيلا والعراش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفاجئة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم فى البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى - كما أسلفنا - سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع لئياته على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يخلل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن تفقد البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذى خلف أباه سنة ١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م وكان قد أظهر فى عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتي مراكش وآسفى فى دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقر الأمن فى السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وتجوّل فيها متفقدًا لشئونها وحصن المدن الكبرى والثغور وشيّد بهما الأبراج والحصون وزوّدوها بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدّه بكل ما يلزمه من عتاد حربى ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والرفاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزّلوا فى ميناء الجديدة (المصورة) شمالى سلا سنة ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٩ م فطردهم منها ولتتى ميناء الصويرة فى منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى فى عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦ هـ/ ١٧٩٢ م وتولاها أخوه سليمان لحق ثلاثين عاما ، ومضى فى أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ، وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم فى موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجبالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل للبعث إلى أوروبا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد - فى رأينا - افتتاح العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

الفضل الثاني

المجتمع المغربي

٨

عناصر السكان

البربر هم الناصر الأصيل الذي عاشت قبائله وبطونه وعشائره - منذ آماذ سحيقه - في المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه وودياته من برقة إلى المحيط الأطلسي واختلف مؤرخو العرب ونسبة البربر في الأصل الذي انحدروا منه اختلافات نشى استقصاها ابن خلدون في الجزء السادس^(١) من تاريخه ، فقيل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لحم وجذام وقيل بل هم مضربون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كتعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة في أصلهم اختلفوا في موطنهم الأصلي وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قبل أخرجهم داود - بوحى نزل عليه - إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فأرّبن إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فتمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها واتساحوا في المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذي أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقش أحد ملوك التباغة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم في هجرتهم إلى المغرب حيان يمينان : كتابة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله^(٢) : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جابا من الأرض لا تكون متقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذي يجوزنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم » . ولبن خلدون حق في عد كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء في ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو في محاولة التعرف على الأصل الذي نشأت منه وتناقلت ذريتهم . والذي يؤكد النطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا يبنى التحويل على غيره فى شأن البربر فهم من ولد كنعان بن حام بن نوح - وأن اسم أيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقيش - فيما يقال - هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطلتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يفهم كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سماها بها أنفسهم وشعوبهم ، أما القول بأن العرب هم الذين سماها بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة فبعبد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتى أو الأثر ، وتجمع شعوب البرانس عند النسلين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكشامة ، ولزداجة ، وأوريفة ، ولطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة - السوس - مراكش - جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والمهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء ورلوه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشؤ مدينة الجزائر . وشعوب لطة وهسكورة وجزولة كتبت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هواره من أوريفة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهواره ، وضريمة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضفرة ويسكنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكاسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبها ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زنانة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها بفرن وواسين ومنها بنو مرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده - وكانوا شعبا ملاحيا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسو سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وتشاءوا عليها ملنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولابد أن أثروا بمحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنماثلها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولابد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أنقذها منهم كثيرون : وتنشأ منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثاني حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكسب النصر لروما ، وتوَّول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقيّة ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الرقاق مدينة سبتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هي سلا ، ومدينة ثاية أو موقعا هو أنفة (الدار البيضاء) ويتوغلون في الداخل وينشئون مدينة وليلي . وظلوا في المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعي أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة في المدن التي كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحي حاولوا نشره في البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر - وخاصة في المغرب الأقصى - كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شيء من ثقافتهم ولا حضارتهم في البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثاني في المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد في الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاية القرن الأول الهجري أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون في الدين الخفيف أفواجا . حتى إذا تكاثرت المسلمون منهم في عهد واليهم حسان بن النعمان كوّن منهم كتيبة عداها اثنا عشر ألفا وولّى على قبيلة جرّاة في الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاية القرن الأول الهجري في المغرب من المساواة بين العرب والبربر في الجهاد والحكم . ويتسع ذلك في عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يوّلي على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتفاسم شرف هذا الفتح عربي هو موسى بن نصير وبربري هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد في ديار المغرب أي فارق بين عربي وبربري ، غير أننا لا نكاد نمضي في القرن الثاني الهجري حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاية جبارين يظلمون أهلها في الخراج وغير الخراج وغير تعاليم الإسلام في المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والتمته بوالى طنجة أن يصرح بأنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقي إنما هو في اعتناق دعوتيهما التي تسوّي بين المسلمين في جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية في المغرب الأقصى كثيرون وكوّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومربنا - فى الفصل الماضى - أن قائدین صفرين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ - ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراءة والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مذهبها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجعلت عاصمتها عدوتين : عدوة للمغاربة سمها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحديث الهجرة الأعرابية الكبرى لبى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوا نحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليونا أو يزيدون ، ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، واتساحوا كسيل عَرم فى رقعة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكلما وجدوا فى كل ذلك ما يفتنهم عن الانسحاب فى المغرب الأقصى واكتساحه . ولا يمضى على هذا الطوفان للهلاليين وبنى سليم نحو قرن حتى يستجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدین لاستيلاء النورماتدين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينفذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ييجاية أن القبائل الحلالية ، وهى الأتبيج وزغبة ورياح وقرة تتجمع مع صنهجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازحا ثلاثة أيام ولتتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراكش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراكش أمر أن يكب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلتهم حملة ختمها بأبيات من نظمه استلها بقوله :

أقيموا إلى العلياء هُوجَ الرُواحِلِ وقودوا إلى الميجاء جُرّة الصّواهِلِ

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب^(١) فأنزل طائفة بنو احمى قرطبة وطائفة بنو احمى إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م وقد على الخليفة بعده ابنه يوسف حدثاً كبير من قبيلة رياح وضوا أنفسهم تحت تصرفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قصصه وقبلى واستعادها خرجت عليه فى هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الحلاله وأخواتها من قبائل جشم والأنبج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكف عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصعدوا لأمره ، فأنزل بنى رياح فى مناطق الميط وأنغار وفاس مما على سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بنى جشم فى تاسنة وما وراءها من الأراضى ، وأنزل الأنبج فى منطقتى دكالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن^(٢) الوزان فى القرن العاشر الهجرى أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي ميناها أسفى على المحيط وأن فروعا أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أنجب تحول شمالا وسكن أنغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوبا وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب ضح لعامة العرب نوميديا أى الصحراء فى جنوبى الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء فى المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية فى نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتفخل إلى وادى ملوية شمالا ووادى أو نهر درعة جنوبا . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القليل لهذا العهد (فى القرن الثامن الهجرى) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى ويتجهون إلى البحر المحيط من الغرب » ، وبطونهم كثيرة ، وتستولى على ملوية كلها إلى سبلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادلة وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى واتجمعت فى الرمال إلى مواطن المثلثين^(٣) ، ونلتقى بسليم قرب وادى درعة ، وتستغل بالتجارة^(٤) وتذهب مع سلمها فى قوافل إلى تمبكو ، وأهلها أثرياء ولم أملاك وأراض زراعية كثيرة فى درعة . وكل القبائل التى ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربيا دينا ولغة .

والعنصر الثالث فى المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا فى الهجرة إليه منذ عهد الحكم الرضى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الرضى المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم فى الوقعة ألونا ، وذهب

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

(١) انظر فى استنار عبدالمؤمن للأعراب المعجب ص ٢٩٤ وانظر فى استنار يوسف ويعقوب لهم وليكان يعقوب لقبائلهم للمغرب الأقصى ابن خلدون ٢٠/٦ ، ٢١ ، ٢٤ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وتأسيساً فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشد كبير اتجه إلى فارس في المغرب الأقصى وكان إدريس الثاني بينها فجعلها عدوتين : عُدوة للمغاربة وعُدوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمئة أسرة سوى من نزلوا في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجري تسقط - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قرطبة وبلنسية وديانة وإشبيلية في حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثين لها عن موطن جديد في فارس وفي غير فارس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم في أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطناً ثانياً لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٥١٨ هـ/١٦٠٩ م قراراً بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطئاً نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا - من قديم - بمن نزل بينهم لعهد الحكم الرشيد ثم لعهد سقوط المدن الكبرى في القرن السابع الهجري ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائماً كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراعيون منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانها وتلالها ، وارتقوا فيه بطرق الري والزراعة والفرس التي ألفوها في الأندلس سواء في السهول والوديان أو في التلال أو في مرتفعات الجبال ، واختار كثيرون منهم - منذ سقوط غرناطة - منطقتي الريف والمغرب في الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قرصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقلوا من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسي . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضارياً وثقافياً فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا في الشعب المغربي اندماجاً تاماً . والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم في المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكرر نزولهم فيه بعد تخطيط القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنق بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى في أثناء المدة الفينيقية والرومانية ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامي ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية في إقامة شعائهم مع المعاملة الحسنة ، وربما تزح إليهم في المهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذت ترحل إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرار فيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ، ولاحقوهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا في مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفي كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن في مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم في منطقة حاحقة بمدينة تندست مائة بيت يهودي وبمدينة آبت دواود كثير من الصنائع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفي درعة وسجلماسة كثير من صناعهم وتجارهم . ويقول الوزان لهم في تازة خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمر من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين في فاس منذ القرن الثامن الهجري ، إذ يذكر الحسن الوزان في حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون في فاس القديمة ونقلهم السلطان المريني أبو سعيد عثمان الذي تولى الدولة بين سنتي ٨٠١هـ / ١٣٩٨م و ٨٢٥هـ / ١٤٢١م إلى مدينة فاس الجديدة التي بناها مؤسس دولة بني مرين سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م وهم يشغلون فيها - كما يقول - شارعا طويلا جدا وعريضا للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط في زمنه لأوائل القرن العاشر الهجري بعد سقوط غرناطة فلا بد أن أعدادهم في فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا في القرن الحادي عشر الهجري ونزاهم - منذ الدولة المرينية - محاولون أن يكون لهم شيء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيرا منهم يسمى هرون فارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا في الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا في أن تتخذ منهم سفراء إلى أوروبا وبعض من يمثلونها في الصفقات التجارية الكبرى . ولا بد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أي التحام ، فقد كان عنصرا دخيلا عليهم لغة ودينا ويقول الوزان في حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوما عنصرا من عناصر السكان في المغرب الأقصى إذ كانوا دائما وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات في مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان في حديثه عن فاس : نجد بعض أسماء الأعياد التي اعتاد النصارى الاحتفال بها والتي لا يزال الناس يعملون بها اليوم (في زمنه) ولا يدرى أحدثشيا عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففي كل مدينة مغربية يُحتفل ببعض الأعياد والمعادن التي خلفها النصارى منذ الزمن الذي كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية . ويدخل المغرب الأقصى في الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلا . ونمضي إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان في حديثه عن مراكش أن

المصور الموحى بنى فى القصة قصرا للحرس من الرمة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسرون أمام موكب الخليفة حين يتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نفل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلمون فيها - كما أسلفنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرّ بنا من صنع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمال التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصتهم ويستجلبون عبيدا ، وكان كثير منهم يلم ، فيتتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدنا بمنطقة المحيط وجدناها وافر الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أرغار ، وبها كثير من الحبوب والأفوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مشرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورد والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوروبا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورد وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتحرق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخجل للناظر إليها من بعد أنها غلبة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهى خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقميط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل فى الصيف ومثلها فى الشتاء . وتوجد فى حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعشاب وهى شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع فى سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التى تبدو عجيبة فى حجمها ونوعها لأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهما غزير جدا ، ويؤتى العنب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكميات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضى المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت ويتفح بها لتغذية دود القز . وأراضى منطقة تامسة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والقمح والمسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبحوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج المسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من الموز وقليل من الضأن والبقر والغنم . وتليها إلى الداخل منطقة مراکش وسط سهل خصب ، وكان فى المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا ملئ بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر فى وسطه عمود يحمل أشداً من رخام منحوتا نحاً دقيقاً يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفى كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش يقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والثيروس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من الموز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو فى سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والحوز ، وجنوبى حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر فى أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية - وخاصة فى بعض الأنحاء - وافرة جدا وبالتالى يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط فى أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر فى بعض الأنعام - مثل لزغار على المحيط - أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . ويجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والقمح والشعير والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبى غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت فى بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المز والخيول والبغال . وجنوبى الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتكثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقى منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والحوز والتيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطمعه طيب . ويكثر الغنم والمز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقى السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراعى واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقى منها منطقة درعة ، وشمالها على نهر زيز سجلماة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من الثمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيها أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب فى المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صيادها يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم فى سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذى يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغشة إتهم صيادون وملاحون . ولايد أن كان كثير من سكان الريف والميط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها فى المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسيان واضطروهم إلى الخروج من موطنهم فى الأندلس . وضعت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه فى بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر لم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزموز بمنطقة دكالة ، وكان يكثر فى مياهه نوع من السمك

يسمى - كما يقول الوزان - الألوز وكان موسم صيده يبدأ فى تشرين الأول (أكتوبر) وينتهى فى أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فتمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكالة أيضا فى حوض الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الخنكليس ، وسمك الشبوط وأسماك أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسموننها اللمت والبر الوحشى ويسمونونه ودّان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحداة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة أمجاد مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالنجم وشئونه يتن بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والتاجيل والبلطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستثنى عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحْدَى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجلبون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وستصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفراى فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمخبر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز فى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأولى الخزفية ويبيعونها فى فاس . وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولاً بين جبال الأطلس المحاطة ببلات ضخمة يتج الفحامون هناك مائة حمل من الفحم ، وتلتقى بمثل هذا الفحم فى مدينة العرائش . وفى قصر المراتيق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإلئمد (الكحل) وتلقنا فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالتل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الهبط خشب البقص فى جبل بنى واغرافت وتضع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تليح السردين إعدادا لبيع ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة والأواح ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرادات فى هذه المنطقة ومنطقتي الهبط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحيك السكان - وخاصة فى جبل مغنة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى بازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساوهم أقمشة كالحرير ، ويمدبتي نفزة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساوهم ماهرات - كما يقول الوزن - فى شغل الصوف ، ويصنّعون منه برانس وخيمارات جميلة جدا ، وبذلك يربح من المال أكثر من رجلان إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى نتصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع فاعات فسحة كفاعات القصور ، وتحوى كل فاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصارى (مبيضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر ليل الخيوط ودقها . وتجهز هذه المصانع بالكثير من المراحل والخيولى المبنية لغلى الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولا بد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمثها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى الهجرى تبنى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحدامتها وفنادقها ومارستاتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتداء بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، وبقيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجاريتها بالفسيفساء وطلاء سقفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويستترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوجد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول - مثل الأزهر - إلى جامعة ضخمة . ويسط القول فى المدارس والمعاهد والمؤسسات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، وبطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة - فى أثناء حكمهم - يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، وبطيل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته خليفتها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، وبطيل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البناء والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه وتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور - كما مر بنا - بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلافا من العمال والمهندسين والبنائين والحدادين والنجارين والزواقين المرينيين للمبلى بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديمة . وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمته من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبعثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعد لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى قُشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلقهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارتها إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط في العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنوئين ماتنى ذاهبة إلى موانئ البحر المتوسط آية منه محملة بحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنوئين تعبر الزقاق إلى موانئ المغرب الأقصى على المحيط لتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنوئين والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنوئين يفسدون فيها ويعقدون فيها صفقات مهمة ول هؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فارس وسلا ، وكانوا يقيمون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبى شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنوبا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته في فارس ثلاثين سنة حتى توفي . ولابد أن كان للجنوئين والبنادقة مستودعات مماثلة في موانئ المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة في الموانئ التي احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تجر مع السودان ، هي السوس وكانت تحمل إلى أهله الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذى كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أواني النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأفقال وتعود قوافلها محملة بالبثير والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بشاء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايس بالقمح وأواني النحاس وفي منطقة جزولة تقايس أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود الثيران والشمع بجبل بني زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين في سوق فارس .. لتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهي تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكنا للمكبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأواني النحاسية ، خمسون دكنا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكنا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكنا لباعة القطن ، فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحريز ، فصناع أعمدة السيوف والسكاكين فباعة الأواني الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجومات والأعنة والسروج ولهم ثمانون دكنا فحظيرة يباع فيها الجزر واللنت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق المشلين للقمييط وتوابع الخضضر الأخرى وبه أربعون دكنا ، فباعة الزلاية ، فباعة اللحم المقلل والسماك المقلل ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكنا للجزارين وتُنْبَحُ

الحبوبات فى مسلخ خاص ويخصها المحتسب ويصنع لسرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيف وخنجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خبوط الكنان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل نصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيا ، حيان للإسكافين أو الحدّائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحيى لباعة النطاقيات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحيى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيدالة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّاتين والصّبّائين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق مرحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكتس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكايل وآلات الملحج والبرادة ، وباعة المحارث والدواليب وعرائش العريات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعا داخليا وخارجيا .

٣

الثراء - الرفه - الموسيقى - المرأة

(أ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثر فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثالين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجهه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزله كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظفل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير - كما يقول الوزان - من الصدقات ، ويساعد أهل بلده بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلده إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثاني في مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان قبلهم أميرها ، وهو - كما يقول الوزان - وجه أسمى سخي سخله كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والتمر ، يستمد منها دخلا كبيرا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السن . ويجاور ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموتى ، إذ كان تجارها يثرون من تجارتهم وحتى المدن التي كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبي تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكنوا يتفوقون كل التفوق في ملابسهم . وما بالك ب كبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة في فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل في الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يفضل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتجهز جميعا بترك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير في إيطاليا أبنية تماثلها إلا في قصر الكردينال في دُير الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تطل على ممشى ، ويشيد بالقصور التي بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرُّنا في حديثنا عن المرينيين في الفصل الماضى ، وقد اتفق سلطانها المرينى أبو غنان على إنشاء معهد - كما يذكر الوزان - أربعائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية . ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطون والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازنيه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلبيها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثني عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطورته من مائة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجبى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكه يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب
الذهب ، ولذلك لُقّب بالمصور الذهبى .

ويتوقف الوزن مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن
منطقة بولوان فى منطقة دكالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة
فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة
من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد
الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكالة
فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود
المغرية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من
نواحي منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا نفزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب
تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخط منه
إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة
مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكى الرائحة ورومان يخلو من البذور وعُقاب بديع مع
وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة المبط غنية لكثرة مواتيها
التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس
وسجلماة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما يتجون
من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماة تمورهم
والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغرية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة
والمنتجات المغرية وما يصنعون من ألوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب
وريش النعام والرقيق ، ويدّر ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرّفة

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار
وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرّفة . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن
ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلأها يجده يقول إنهم أناس معتمرون يلبسون فى الشتاء
ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من ستر (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم
لها نصف أكمام ، تمرّر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من
الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشاية ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخط من
أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ،
وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تَطَوَّى مرتين حول الرأس وتر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون فى أقدامهم خفًا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزن إن عامة الشعب يلبسون ستره ويرتسًا بدون الثوب (القشاية) الذى تكلمنا عنه . وربما كان أدق من ذلك ما ذكره فى بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزن : « للنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن فى الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن فى الصيف قميصا يطوِّفه بزنا ، وعندما يخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخيمارا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن فى آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريفات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزن فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تنزىن بحلى فضية ، وكأنها كانت هى الحلى الشعبية الشائعة ، ومرَّبنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريمية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقيات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة للملابسهن وكل أنواع العطارة والروائح الفاتحة .

ويتحدث الحسن الوزن عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وجِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغذاء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتي الشطرنج والنرد يتسلون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبيادق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكسب النصر لإحداهما كما فى الحرب تماما . أما النرد فتدل خطوته الأربعة والمشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارتها السود والبيض هى الليالي والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وتأسس ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسultan فَنَاصِرُ جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفِّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد - كما يقول الوزن -

حرًا في الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يعتلئ غضبا ويشتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحي عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حرية تنتهي بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تغرقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهي اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرج ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دناتير وكسوة جديدة .

(ج) الموسيقى^(١)

أول زمن للنهضة الموسيقية في المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقي بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن في القرن العاشر الهجري المقابل للسادس عشر الميلادي ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية ميكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهلها هناك واستمعوا إليها ، وكأنا ننظر المغرب الأقصى حتى اكسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجري واتسعت هذه الهجرة - كما مر بنا - في عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادي عشر الهجري ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسي المريني الملقب بالغالب (٩٦٤ - ٩٨١ هـ / ١٥٥٧ - ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهي رمل المائة - المائة - رصد الذيل - الأصبهان - الرصد - غرية الحسين - الحجاز الكبير - الحجاز الشرقي - عراق العجم - العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيفار كبير هو الحاج علي البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسي ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ تغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أو أقسام ، وهي

لحمد بن الحسين المالك (طبعة مصورة لورثة الحاج عبد السلام القرقرقي . طبعة ١٩٨١ م) .

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وراجع كتاب المالك

البسيط والقائم والبطاحي والندام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات بنسجها موسيقار منفرد، وخاصة في الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوي وهي فيها تكون من رقيق أشعار التصوفة مثل الششتري، وفي غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحياناً تكون غزلاً. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين. والطبوع مفرداً طبع وتقبل في الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة في موسيقى المشرق العربي، ومنها مفرد وهو انشاق واحسين واحسار والزرزركند والأصبهان والمزوم والرمل والرصد والعجم والمجنّب، ومنها مخزّج، وهو عراف العرب وعراق العجم والحجاز المشرقي والصيكة أو سلم الرست.

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسين المرينيين تكملة التوب كما رأينا عند للموسيقار الحاج علي البطلة بإضافته برة الاستهلال المغربية الجديدة. ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين - وكانت أربعة - ميراً جديداً هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبي المردد في حلقات الذكر بالزوايا. وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية، من ذلك الآلات النحاسية في بعض الحوق العسكرية بالوكب السلطاني. واستمرت الآلات الوترية وفي مقدمتها العود والقانون، والآلات النقرية وفي مقدمتها الدف والزرزوق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفخ وفي مقدمتها الناي والمزامير. والفضل الأول في تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذي أثاره الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لأحلافها وأتباعها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/ ١٨٠٠ م لتأليف فيها « كناش الحائك » مسجلاً فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج علي البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التي تتألف منها أجزاء النوبة، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك، وبذلك كان عمله في كناشه مزدوجاً فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية.

(٥) المرأة^(١)

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية، وهي حرة قلماً حظيت بها أختها في المشرق، وكان لذلك أثره في الحياة السياسية والثقافية، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين القهريّة التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

كتاب الذيل والكلمة لكناش الموصول والصلة لعمد من عبد الملك المراكشي (طبع الرباط) .

(١) انظر في المرأة المغربية مواضع مختلفة في الجزء الأول من كتاب البرغ المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد الله كون، والقسم الثاني من السفر الثامن من

القرويين بفلس الذي سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفلس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن
 تاشفين سيدة حسيبة وكانت تدبر معه دفة السياسة والحكم ، وكان رأبها دائما صابا واتسع
 بها في حياتها في تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا بالهزة زنب
 بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت
 تميز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسي فيها قصيدة طائفة ، ولها أعمال بر كثيرة .
 وعلى شاكلتهما تميحة بنت سيد المرابطون يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات .
 ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أمي بكر الذي ظل واليا
 على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ . وكانت تقيم في قصرها ندوة أسبوعية تحاضر
 فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطايا كثيرة ، وللأعشى
 التطلبي في مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته في كلبنا عن الأندلس . ومن السيدات
 الفضليات في عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن
 عمها أمي زيد بن أمي حفص تلمذت في علم الكلام لأبي عبد الله بن إبراهيم الأصول وكانت
 عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب غيرونة الأشعرية ولها فضل في نشر المذهب
 الأشعري بين نساء مراكش ، ومنهن في علم الحديث مريم بنت أمي الحسن صاحب المدرسة
 بسبنة ، ومن المتصوفات - وهن كثيرات - مية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأدبيات من بيت
 الحكام الموحدين ربيعة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أمي محمد بن الحسن السبينة
 وحفصة بنت القاضي أمي حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسي وكانت أديبة شاعرة .
 ومن السيدات الفضليات التابغات زمن المرينيين في العلوم الدينية الفقهية أم هانيء بنت محمد
 العبدوسى والفقيهة أم البين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنان والدة الشيخ ابن غازي
 وغيرهن كثيرات في الفقه والحديث النبوي ، ومن الأدبيات أم الحسن بنت أحمد الطنجالي
 وصفية الزفينة من بيت الزفين وصبح زوجة أحمد بن شعيب الجزنائي ، واشتهرت في الطب
 عائشة بنت الجبار السبينة . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بني زهر كما كان الشأن في
 عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات في العصر المريني . وبذكر
 الوزان الذي زار منطقة درعة في عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م أن
 نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر في عهد
 الوطاسيين السيدة عائشة بنت علي ابن راشد مختط مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى
 سبنة ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفى فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط
 وتصدت لنصارى سبنة بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعته السلطان أحمد الوطاسي
 فاقرن بها سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م .

ونلتقى في عصر السعديين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الأستاذة يشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنتها عبد الملك بكية عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجلتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . ولبثت أخته مرهم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسمودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشأتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة ، واشتهرت بالعلم والتفوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر الموزع المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعدين العريفة بنت خجور ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خنانة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حبيفة تحسن ليداء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثر فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه طلالكى بينما كان زوجها المختار بن أنى بكر الكنتى يدرسه للرجال ، وترجم لها فى كتاب واحد ليهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والثالدة فى مناقب الشيخ الوالد والشيخة والدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلو حى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النشء ونشر المعرفة .

٤

المالكية - الصفرية - المعتزلة - الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماءها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تَعُدُّ دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمتة ، يلقى فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون - وفى مقدمتهم عبد الرحمن

لبن القاسم - فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتعلموا على أئمة الفقه المالكي بعده في مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكي في إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب في المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذي فرغ فيه فروعا كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه في موطنه ونسبت إليه باسم مدونة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسي يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكي بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم في المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكي ويشيعونه بين الناس في بلدانهم ، وأظن ظنا أن إدريس منشئ الدولة الإدريسية ومن خلفه من أئمة وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم في المغرب الأقصى بناس وغير ناس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفضى الناس بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وفي السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان وإلى المدينة مالكا وجرده من ثيابه ، وضربه بالسياط عقابا على فحواه . وفر عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عنه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبيعيا أن يرعى مالكا الفقيه الكبير فحواه لابن أبي ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكي يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجري .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه في الفقه المالكي الذي يدرسه في المدن وفي القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هرون البصري الذي أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكي المصري إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبي القاسم بن عمرز فقيه الماشين وعثمان بن مالك فقيه فارس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل القاسي تلميذ أبي بكر بن البلاد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكاشي تلميذ فقيه القيروان في النصف الثاني من القرن الرابع : ابن أبي زيد وأخذ عنه كلياته : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى في دارسة الفقه المالكي لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكا مع كل والٍ للملاءمة الأحكام في عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكي لهذا العهد في الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط في عصر الموحدتين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهري ، وسنخص هذه العناية بمحدث في غير هذا الموضوع ، ويعود إلى المذهب المالكي نشاطه وازدهاره في العصور التالية حتى العصر الحديث .

(ب) الصفرة^(١)

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط في القرن الأول الهجري ولاية عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام الفاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ / ٦٩٠ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يَدْخُل من قومها في جيشه كنية من اثني عشر ألف رجل تجاهد مع العرب في سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فبه ولى أكبر أبناء الكاهنة على قومه في جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودلوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإداري للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هي المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم بعد هناك فارق بين أن يكون الوالى لأى ولاية عريا أو بربريا مغريا ، وكلفه بأن يفتح إيبريا ، فأعد جيشا أكثره من البربر نحو اثني عشر ألف جندي ، وضع الله له الجزء الجنوبي من إيبريا وحلفه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم في عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين في حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد في سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حريا لجناء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الخفيف وما ينبغي أن يستمره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة في إعلاء كلمة الله .

وُسِّيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى في القرن الثاني الهجري ليسوا في مستوى أمانة الحكم التي ينبغي أن يتحملوها ، فقد ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولى على المغرب يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج قتمصف مع البربر في جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى في عهد أخيه هشام بن عبد الملك (٧٢٣ هـ / ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) ولاية ليسوا في مستوى المهمة ، كان آخر المتصفين منهم عبد الله بن الحبحاب فأرق المغاربة هو وعمله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صرَّ المغاربة يكاد ينفذ إذا بدعاة مذهبي الصفرة والإباضية يتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول في عقيدتهم التي تناقض عقيدة حكام بنى أمية ونرى في استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغي أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر في ملعب الصفرة الملل والجمل للشهرستاني.

بربريا بل لو كان عيدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعالمهم ووصفهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذرائعهم . ومر بنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضفرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض الفشيرى ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفرين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورعجومه الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشئ بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنعام .

(ج) المعتزلة^(١)

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحداية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثلته شيء ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاة مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إيفاء وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكثرت المرجحة تعدد مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وتفنن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون انتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدره الجدلية على الدعوة للمبادئ الاعتزالية ، وفرقتهم

وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ،
١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ .

(١) انظر فى المعتزلة المثل والنحل للشمسرى ص ٣١
وكتابتا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصاري في مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شَمبِ الصَّيْنِ فِي كُلِّ ثَغْرَةٍ إِلَى سَوْسِهَا الْأَنْصَى وَخَلْفَ الْجَبَلِ
رَجَالٌ دَعَاةٌ لَا يَفْلُ عَرِيْمَتَهُمْ تَهْكُمُ جِبَارٌ وَلَا كَيْدُ مَاكِرٍ
وَأَوْنَادُ أَرْضِ اللَّهِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَوْضِعُ قُبَاهَا وَعِلْمُ النَّشَاجِرِ

فهو قد أرسل دعائه الذين يفحسون خصومهم بالبراهين السديدة وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا نَظَرُوهُمْ أَوْ جَادَلُوهُمْ ويقول إن منهم دعاة تغفلوا في بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفي كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أتفد إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبي جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزل قتل معه في موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفي الكتاب نفسه أن للمعتزلة في بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعَزِّفُونَ بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون في طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذي أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله في الاعتزال وكان الدولة كتبت دولة معتزلة ، وأظن في ذلك ضربا من المبالغة وكتبوا كثيرين في بلاد إدريس الثاني ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا بنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومربنا في الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك في دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية^(١)

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهري ينسبون إلى أبي سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان في أول أمره فقيها شافعيا يتعصب لمذهب الإمام الشافعي تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهباً سمي مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أسسه إنكار القياس في الفقه ومائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهي ولا يحتكم في الإلهي أو ما هو إلهي إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكنى لبيان الأحكام التشريعية ما في القرآن الكريم والحديث النبوي من عموم ، وتأسيساً على ذلك ينفي الوقوف عند ظاهر الكتاب

ص ٣٥٤ وما بعدها وروايات الأعيان لابن خلكان :
ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

(١) انظر النصوص الواردة في المباحث للنوشرسي (طبعة
حبرية بفاس) ٣٦١/٢ وروى القزطاس لابن
أبي ذرع ١٩٥ والمحب للراكنسي (طبعة القاهرة)

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التي تبنى عليه . وكتب لهذا المذهب أن يتحسس له عقل فندلسى هو عقل على بن أحمد بن حزم التوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعى ثم أثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهرى ، ولابن حزم فى الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التى يأخذون بها ، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهرى فى عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذها مذهبا فقهيا لما من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كون فى الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كآفته بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبطل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الوئرشيسى فى كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهرى وأن ابن أبى زرع فى روض الفطاس فى سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أى أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعاً وهى نفس نظرية المذهب الظاهرى ، وفى المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجذ : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى الفقه المالكي) فقال لى : يا أبابكر أنا أنظر فى هذه الآراء التشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرايت يا أبابكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأبى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأبها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتحت أبى له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى - وقطع كلامى : يا أبابكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو السيف . » ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبى زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرازعى وواضحة ابن حبيب وماجئس هذه الكتب ونحوها . ولقد شاهدت - أنا يومئذ بمدينة فاس - يومئذ منها الأحوال فوضع وتطلق فيها النار » ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده فى الجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

يرفض غرور الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يقتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحداً من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتنا قاطعاً أن دولة الموحدين كتلت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمر العلماء برفض ماعده من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فارس : « إن ملوك الموحدين قد غلبوا بالمذهب المعروف لهم من إبتكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعاً على محض الظاهرية ، وجرّوا على ذلك سنين بطول إيااتهم (حكمهم) إلى أن افترضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكي فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهد - المصوفة (أ) الزهاد

المسلمون من قديم - يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملأ فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرئ على ما قدمت يده ، فإن كان عمله صالحاً وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفوراً وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتح ، فهم لا يفتحون البلاد طلباً للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائماً نسمع بينهم عن كثير من الأنبياء ، فالآخرة هى التى تهيمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهداً متطرفاً ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالباً زهداً معتدلاً يحتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم يتفوقون أموالهم فى أعمال البر وغرّون الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعاً فى العالم الإسلامى . وقليلًا قليلاً أخذ الناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضاً كثيرون من هؤلاء الصالحاء الزهاد ، ونضرب مثلاً لهم القاضى ابن عسود^(١) الحوارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهداً فى الدنيا مقبلاً على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقبّ يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلاً ثانياً بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدي الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

حرزهم وعثمان السلاجى وبكر . ومن مراجع تراجمهم الشوف وجذوة الاقتباس ورسالة الأنس .

(١) انظر فيه ونهين بيه من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٢٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ - ٢٧٢ وفى هلش القرطاس مع ابن عسود وفى جبل وفى

دينار أنفقها كلها في سبيل الخير ، وأصلبت أهل مدينته : فارس مجاعة وكان عنده ألف رَسَق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلَمَّا حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثائق جميعا في الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن في حلٍّ ، فأتى ما بعث لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . وبتعش الزهد في عصر المرابطين ، ونشعر لُزَاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف في المغرب الأقصى مثل أبي جبل التوفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وكان كثير السباحة في الأرض . ويتكاثر الزهاد في عصر الموحدين مثل ابن حرزهم التوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبي عبد الله السلاجبي الأصول التوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومثل يسكر الفنجومي التوفى سنة ٥٩٨ هـ وكان ورعا فاضلا ومثل أبي عبد الله المعروف بلبن تخمست التوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكثف كتاب الشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراکش ، غير أنه لم يترك بلدا في المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجلا ، ويسميه في مقدمته صلحاء ، وهم في جمهورهم زهاد ونساک المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا في دواوينهم على نحو ما نجد عند أبي الريح الموحدي . وكما بقنا كتاب الشوف على الزهاد في عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف في العهد المريني بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفي الجزء الثاني من كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد في عصر المرينيين ، وظل مطردا في عصر السعديين ويذكر الأستاذ كون منهم المبطي الطنجي عبد الله بن محمد التوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى في الزهد واتباع السنة والآنزولة عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجرو التوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م ويظل للزهد رجاله المشهورون في عصر العلويين .

(ب) التصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها بالغون في نسكهم فاضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة في التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواثقين المتوكلين يهتملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعي له يفضي إلى فقدان التوكل والثقة في الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطنا (متلفة) » . وأخذ هذا التعمق في التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذي أودع فيها فكرة الحب الإلهي ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م . ولم يلبث أن ظهر الحلاج في مطلع القرن الرابع الهجري وظهر معه التصوف الفلسفي وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا في القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري ، وأصلحا ما بين الفتنين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفي به إشاعات من أفكار الحلاج ، وتصوف سني أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن بركان وابن العريف ، ثم عند الشاذلي وابن عربي وابن سبعين والششتري على ما نحو ما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإما شاع فيه التصوف السني وما يعتله من مثل طريقة أبي الحسن الشاذلي .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لناسكه ، وكان جمهورهم - في رأيي - ناسكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء في كتاب النبوغ المغربي ابن حزمهم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفي المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبي . ونظن أنه كان عبدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبي مدين أنه أخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق الصوفي لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته في يومه والباقي يتصدق به ، وكان ناسكا وزده القرآن يتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، وكان باراً بالنامي والمساكين . وهي حياة زاهد في رأيي لا صوفي . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسني وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظلما أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستكبرا أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإثارة الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهي إجابة زاهد لا صوفي ، وإن كان قد درس على يده الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربي أنه لقيه في كتابه « معاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربي له لا يدل حتما على أنه صوفي ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفي الحقيقي في عصر الموحدين يلتزم بين ميمون أبو يعزى^(١) المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا في الجبال بمنطقة مراكش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثلثي عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر في أبي يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقباس لابن القاضي ص ٣٥٤ .

الأرض . وإلما نرجح أنه كان صوفيا لأن مترجمي نبي مدين الصوفي المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ نبي يزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين فى عصر المرينيين للشيخ زروق^(١) التوفى سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا فى التصوف منها قواعد التصوف وعدة للربد وعلى شاكلته أحمد الصومعى فى عصر السعديين وله فى نبي يزى كتاب بعنوان : المعزا فى مناقب الشيخ نبي يزى وعدة مؤلفات أخرى فى التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجرى فى التصوف حتى يصبه فى المغرب الأقصى ما أصابه فى البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفى فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخل كثير من منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التى يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل التبع مقبوعين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغاني على الذكر تصور الوجد المتأف . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذى اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . وما زاد فى خروج الصوفية عن الجادة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامية^(٢) الإبراهيمية بينهم وهو مذهب كان معتنقه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يمدحهم وما ينجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن يقتنعوهم بأنهم لا يتسكعون بنواحيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحقرهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامية أى أهل الملامة ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر فى عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبى رسالة إلى السلطان مرادخان العثماني يهتبه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو فى المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامية فى المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثير من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطى الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التى شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والناسك التمسكين بأوامر الدين ونواحيه مثل المبطى الطنجى المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد وحل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

المغرب الأقصى ٦٩٠/٣ وما يبعثها وراجع تاريخ الأدب العربى فى إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص ٥١٧ ..

(١) راجع فى الشيخ زروق كتاب السوغ المغربى ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) انظر فى الملامية كتاب الوافى بالأدب العربى فى

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرُّبنا - فى الحديث عن الثقافة بالجزائر - أن فتوح العرب للمغرب حوَّكته بعد قرن واحد إلى شعب عربى ، وقد نزل الفينيقيون دياره وظلُّوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى - وخلفهم البيزنطيون نحو قرن - ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحى وحضارتهم . وكلُّما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب - مهما اختلفت أقطاره وتباينت - هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يبتغون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يبتغون نشر الدين الخفيف ، مما جعل جماهيرهم تستجيب إلى معلمين يحفظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادئ العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السَّماح يسوِّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استتازف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون فى الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا ورله فوج .

وكان هذا الدين الخفيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، "ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تفتن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا فى مثل : ﴿وقل رب زدنى علما﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولذلك لا تعجب إذا رأينا الفاتحين فى الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادئ الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس فى غرف ملحقة بالمساجد أو فى المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتائب ، وكتبوا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء اللواعظ فى المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شيء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم في الأقطار المغربية - مثل بقية الأقطار العربية - معتمدا على الكتابات لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروساً في التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا في القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتابات والمساجد مؤسسة جديدة هي المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها والمساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ، حتى إذا كنا في القرن الثامن المجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهي مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتابات - المساجد - المدارس - الزوايا - المكاتب

الكتابات

انتشرت الكتابات - منذ القرن الأول المجرى - في كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة في الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته في الفصل الخاص بتعليم الناشئة في الكتابات : « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول : « إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الانتصار على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة في أثناء دراسته برسم ألفاظه ، ويقول إثمهم لا يخلطون ذلك بتعليم شيء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبية (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون في تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتابات في المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشيء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان في حديثه عن الكتابات بفاس إن بها مائتي كتاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا في كتاب معين ، وإنما يستعين بألواح خشب كبيرة تكب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشئة القرآن في نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجابة جزء لا بأس به من القرآن يقدم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه في الكتاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة - مثل طلاب المعاهد - يومين في الأسبوع للراحة لا يخلطون فيها إلى الكتابات .

ويذكر الأستاذ كتون - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن المرأة المغربية هي التي كانت تقوم في ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَتَّى من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة في إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللاتي يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة في المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تنجه إلى حلقات الشيوخ في المساجد لتلتقى ما يُلقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوي وتعاليم للشرعية ودراسات للعلمية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس في هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادئ في هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن تفقوا المبادئ واستوعبوا وخاصة في الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى في كل مكان ، ولتلقى بها في كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازة وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن في فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزودة بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تليطها بالرخام أو ما يشبهه من المورقى .

وفصل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى في عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ويُعدّ أقدم جامعة علمية في العالم العربى . وعلى نحو ما أحدث الأزهر في القاهرة من نهضة علمية في مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا في فاس وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسى من مختلف الأنواع ، يلقى منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية في أمور دينه وشرعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته في العلم والفكر المغربيين في مختلف الأزمنة . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دون تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيّد له منارة في متهى

الروعة كمثارة الخير، التي شيدتها في جامع إشبيلية، وترى زوجته بعد أن شيدتها أن تباع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها، وتأمر - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - أن يصنع بشمها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تملو قمة المنارة ليكتمل رونقها. وطبيعي أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين في عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسوا جامع القرويين في الحركة العلمية، وتنافسهما الجوامع الكبرى في سجللماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسلا. وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدر عليها ما يفي بالثففة على شيوخها وتلاميذها.

المدارس

معروف أن أول من أنشأ نظام المدارس في المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) إذ شيد طائفة منها في بلدان مختلفة بالعراق وإيران، ووقف على كل مدرسة أوقافا كثيرة تفي بنفقات أسانذتها وطلابها ومكباتها وعيّن في كل مدرسة أسانذة في مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية، وأشهرها نظامية بغداد، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية. وطارت شهرة هذه المدارس النظامية في العالم الإسلامي منذ تأسيسها، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطون الحصيف (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت - كما يقول الأستاذ كتون في التبوغ المغربي - باسم مدرسة الصابرين.

ونظن ظنا أنه لا بد أن شيد مدرسة ثابتة في عاصمته مراكش. فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنوني يذكر في كتابه: «حاضرة الموحدين»: أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس في مراكش مدارس، منها مدرسة لإعداد الموظفين في الدولة، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين، وأسس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة، وعنى حفيده يعقوب الموحدي بتأسيس المدارس لا في المغرب الأقصى فحسب، بل أيضا في إفريقية التونسية والأندلس. ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيدت في عهد الموحدين - ولعلها شيدت في عهد يعقوب - بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة، إذ يلحق بها مساكن للطلاب، وفي رأيه أنه كان بها مساكن أيضا للأسانذة. ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تلقى فيها الدروس في الماضي، وكان التلميذ في هذه المدرسة يُعفى من المصاريف، ويُعطى كسوة، وكان الأسانذة يتقاضون راتبا شهريا فيها بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس التي يقومون بها. ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة. ويقول الوزان إنه كان بها في الماضي عدد كبير من الطلاب، وقلوا الآن أى في القرن العاشر الهجري قلة شديدة، ويقول في القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

ولبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشاذلي السبتي التوفى
فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبته ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما ينفى بالإفاق
عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشيد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن
السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبى سعيد والد أبى
الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقة بفاس وأن أبى الحسن ابنه أنشأ
مدرسة الصهرج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف
باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من
بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس
وتازة وسبته وأتة وأزمور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافا كثيرة وألحق بها
مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى
عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ،
ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس
لهذه ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره
وبيان دلالات كلمه مضيئا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور
الطلاب ويتناقشون فى معنى النص ودلالاته ، ويشارك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار .
وواضح أنه لم يته العصر المرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قد اكتظ
بالمدارس وبما تخرج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يمتنون
بالحديث عما أنشأ السعديون والملوك فيما بعد من مدارس إذ كانت سنة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمصوفة والنسك قبل القرن السابع الهجرى
إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع
بعض رفاقه كما مر . فى حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب
الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة أسفى على
البحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن
الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن
وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر
بـسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائلى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدعوة فى القرن الثامن

المجربى باسم زاوية سيد الناس محمد رحمه الله . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر المجربى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكثرت المغاربة يسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ التصوف أملى أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائهم الخاسين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مباني لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فتها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقراض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومربنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتكليف بهم ، وطبيعى أن يمدد فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصادها . وعد الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدا كبيرا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكثرتها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخها ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجي فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعد برما كثر أربع مكتبات وزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعد من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الفريديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسي التوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعة الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جداهم فى القرن الرابع المجربى بكار بن عيسى الفريديسي شرقا عظيما إذ كان أول من حل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

تأخذ الحركة العلمية بالنمو فى المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس فى عهد إدريس الثانى كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الرضى ويقال إليهم كاترو نحو أربعمائة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمي بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة ، حتى إذا كنا فى منتصف هذا القرن وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهرية جامع القرويين فى عدوة فاس المغربية للقبلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون فى تعليم الشباب الفاسى ، ويظل لهذا النشاط العلمى آثاره فى المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويعود هذا النشاط بقوة فى عهد المرابطين الذين قاموا بإنفاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كقبائى الصفرية فى سجلماسة وبعض الأغناء وكالمعتزلة فى البصرة والشمال الغربى وكالبغرطاوية فى تامسة وكالبجلية الشيعية الروافض فى تروندت بالسوس وبذلك وحدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثن فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديار الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة فى الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية فى المغرب الأقصى نموا واسعا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يقدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماءه يقدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م) من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » وفى موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء فى القطرين قضوا شطرا من حياتهم فى وطنهم والشرط الآخر فى الوطن الثانى . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم . واتخذ - حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت - عشرة مع خمسين من الأسيخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يمدّون للدعوة إعداداً علمياً . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منه كما يقول - إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيراً من أجزائها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجمع للملك قبله من ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء الثقلين أبو بكر محمد بن طليل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبّه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للملكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده نحو مذهب مالك وحلّ الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسنن البزار وأبى شيبة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يملأه بنفسه على الطلبة يأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاز العلمى والأدبى بين القطرين الغربى والأندلسى حتى لرى كتاب التراجع الأندلسيين حين يؤلفون كتاباً يعزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعاً على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلة لابن بشكوال التوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشييد المدارس وفرض الرواتب فيها للأستاذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطلق الوزان الوصف لمعهد بناء السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م - ٧٥٨ هـ / ١٣٥٨ م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مستوفة تتحلّى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدة منمنقة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفيسفاس والذهب الحسانى وبالألوزرد ، والسقف من خشب مجزّع ، ويختتم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائة وثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشرع المغاربة بتعمق تهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فى حجر الإسبان إخوة تجمعهم لؤامر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعور مجتمعهم منذ عصر دولة المرينيين غير أنه ازداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوتهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشي حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكلي الموصول والصلة بجملة قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٥١٨ هـ / ١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية في أواخر أيام المرينين وزمن السعديين أثر بعيد في نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأ كبيرا في قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية في المشرق العربي ونعمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضي في كتابه عن المنصور الذهبي السعدي (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوه الأستاذ عبد الله كنون في الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربي بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفي كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادي ومعنوي .

٢

علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراكش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء^(١) بن عبد الملك بن زهر ، وله في الطب تصنيفات متعددة وقد أمر السلطان علي بن يوسف حين توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م بجمع كبة الطبية ونسخها في السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله في مراكش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) نظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطون ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف^(١) بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م - ٥٨٠هـ/١١٨٥م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكما لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طييبه الفيلسوف ثابا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠هـ/ ٩٦١م - ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمانه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأنظار ويثبته عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضره على إكرامهم والتزويدهم بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلومه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد- وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للزئالى ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . وأخذت كتبه تدرس فى الجامعات الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الآخرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوروبى . وهى يدّ لآين رشد لا على الفكر الأوروبى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ، وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسين^(٢) المتوفى سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فرّجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١هـ وله كتاب^(٣) لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(١) انظر فى يوسف وأتباعه مع ابن طفيل وابن رشد (٢) راجع الذيل والحكمة لابن عبد الملك المراكشى المعجب فى مواضع متفرقة (راجع المراجع) .

(٢) انظر حضارة الموحدين للحنونى ص ٧٤ .

يعقوب الموحدي في قصة مراکش والمسجد الذي بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعمد وغير عمد ومآذنه البديعة على أنه كان بمدينة مراکش حيث ذكر كثير من المهندسين المواطنين والمجلوبين من الأندلس المستوطنين فيها ، وما أحدثوه في المسجد الكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بمجالات في أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة^(١) .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حيث أبو علي الحسن المراكشي مؤلف كتاب المبادئ والغايات في علم اليقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف في هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذ عبد الله كنون أن أبا علي المراكشي رتب هذا الكتاب على أربعة فصول هي الحسابيات في نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الأسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها في أربعة أبواب أو فصول^(٢) .

ونمضى إلى عصر المربنين وندت في علم الفرائض أو الموارث - وكانوا يلحقونه بالرياضيات - بإبراهيم بن أبي بكر التلمساني نزيل سبعة الذي مر بنا في الجزائر وله في الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت في ستة وغير ستة مرا ، ولابن الشاطئ المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م « غنية الرائص في علم الفرائض » . وتلقى مفعرة المغرب في الرياضيات ابن البناء^(٣) أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م وقبيل الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية في العلوم الفلسفية ولا سيما في الرياضيات والفلك ، وله في الحساب والجبر التلخيص في أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب في جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته في حياته وقصده الطلاب من كل فج ، وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الأبي محمد بن إبراهيم التلمساني ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م . ولابن البناء في الفلك كتاب اشتهر في عصره وبعد عصره سماه البسارة في تعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائي الفاسي عبد^(٤) الرحمن بن أبي الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م في الرياضيات والمهية أو الفلك وقد ابتكر أسطرلابا يلصق في جدار ، والماء يدير شبكه على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أي كوكب ليلا .

جذوة الأقباس ونيل الانهاج ودرة الجمال وأزهار

الرياض . ونظر في مؤلفاته التبرغ المغربي ٢٣١/١ .

(٤) انظره في الدررة لابن القاضي ٨٢/٣ والجذوة

٤٠٢/٢ . وكون ٢٢٤/١ .

(١) انظر المتن من ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من التبرغ المغربي لكون من

١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة في الكتب السالفة مثل

وإلقانا بعده عبد^(١) الرحمن الجادري المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م مؤلف جامع الفروع - بفلس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة فى العصر المريني ابن ليون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الإكسبر فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكباً على كتاب إقليدس بحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م شرح باسم فتح الخير بحسن التدبير لفك رموز الإكسبر لابن ليون السالف^(٢) . وللبعيل^(٣) لمى زيد عبد الرحمن الجزولى المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م شروح فلكية على السيارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجاردى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ومحمد^(٤) بن قاسم بن القاضى المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الرودنى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله إسطرلاب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف^(٥) مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطاً فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبيعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرّب بنا أن أباه الملاء^(٦) بن زهر الطبيب كان طبياً ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراکش لرعايتهما الصحية ، ونزولها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبياً للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبياً بينما اتخذ ابنه يعقوب أباه بكر بن زهر طبيبه الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحياً بزوجته يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأخصى الأستاذ المنونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين^(٧) طبياً وصيدلياً أندلسياً

- | | |
|---|--|
| (١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون ص ٢٢٠ . | (٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كون ٢٩٤/١ . |
| (٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ص ١٥٧/١ . | (٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأطلس ص ٧٩ . |
| (٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله ككون ٢٦٤/١ . | (٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المنونى ص ٨٨ وما بعدها . |
| (٤) انبوغ ٢٧٠/١ . | |

نزّلوا مراكش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أنقذوا الطب والصيدلة في عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، والشريف الإدريسي المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية ، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشء بسنة والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م . وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف اليمارستان الذى شيّده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين ديناراً كل يوم للإلتفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدلى البجائى كان أول رئيس لليمارستان كما يفهم من ترجمة ابن لى أصيصة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى يته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية سنة^(١) من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيباً فى البلاط المرينى زمن السلطان لى سعيد عثمان وابنه لى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكان طبيباً بارعاً كما كان شاعراً بارعاً . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفاً مجهولاً لكتاب « بلغة الأمانة ومقصد الليب فيمن كان بسنة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة^(٢) بنت الجبار ، ويقول :

« قد كان بسنة فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجّارين - يريد الصيدالة المشلّون - سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكنة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء ياحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيدالة ، ولابد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستات بديمة وعدة مارستات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيدالة .

وبعرض الدكتور محمد حمى مؤلفات^(٣) الأطباء والصيدالة ، ويبدأ بالوزير الفسلى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م وما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر انتفاضة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى (٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٦٠/١

وما يهتدا .

فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٢٥/١ .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول شديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواص النباتات ، شرح فيه الأدوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب نبي الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

وينبغ فى عصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد^(١) القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشفرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد^(٢) الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦م وهو من أسرة فاسية اشغلت بالطب ، وإليه انتهت رئاسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد^(٣) الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩م وله فى الصيدلة كتاب بلسم كشف الرموز فى الأعشاب الطبية وكتاب فى الطب بلسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما بصور - بوضوح - عناية المغاربة ببحر الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياها ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماءهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب - كعلماء المشرق - فى مدارسته وشرحه لطلابهم . ومن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد^(٤) الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينتسب الغبريني بأنه النطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد^(٥) بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

(٤) نظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبريني ص ٢٢٣ .

(٥) الإعلام بمن حل براكش وأغامت من الأعلام ٢٨١/٤ ونظرة فى بنية الوعاة للسيوطي .

(١) البوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .

(٢) البوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .

(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .

بها التوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرنى . ويذكر الدكتور محمد^(١) حجبى فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسى التوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقل المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخصرى الجزائرى التوفى سنة ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجبى لمحمد بن عبد الله الحبطى باحث الكلية والجزية .

ويمرض الأستاذ عبد الله كتون طائفة^(٢) كبيرة من المنظومات والشروح والحواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادري التوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج التوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشرح سلم الأخصرى الجزائرى اليوسى التوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشرح السلم أيضا بنلى . ومن الحواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأخصرى لابن منصور الشفشاوى التوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنلى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعنى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية ويُنسبها بناس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قولها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارس ما ألف فيهما مما هيأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتابات ومقرئى القرآن فضلا كبيرا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض ألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا تغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغوين ونحاة وترمز إلى ذلك فى عصر المرابطين بمروان بن عبد الملك بن سَمَّجُون التوفى بطنجة سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدّر قديما لإقراء القرآن ، وكان مقرئا مجودا ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التقدير^(٣) وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

(٣) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى

٣٧٢/٢/٨ .

(١) راجع حجبى ١٥٩/١ .

(٢) البوغ المرنى ٣١٤/١ .

ونمضى فى عصر الموحدين وملتقى بمحمد^(١) بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمي مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وكتبه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيرث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حُرِّثَتِ العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديتها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزبيدي الأندلسي فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطته لما فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تنقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وباب لما جاء لشعيتين أو لأشياء تقصروه على واحد وباب لما تشلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من ابرء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمي بجلب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملئ بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مفصولة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقنا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب^(٢) بن محمد بن مسعود الخشنى الجبائى الأصل المستوطن لناس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أديبا وكفاه شرحا لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد^(٣) بن عيسى بن أصبح المشهور باسم أمى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م وكان فقيها نظارا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئا من الأدب شاعرا مجيدا مرجزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهب فى نظم الصفات من الحلى والشيآت » وهى أرجوزة ثلثية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثلثية سماها المعقبة لكتاب المذهب فى الأنعام والطباء وحرر الوحش والنعام وما يتعلق

(١) نظر فى ابن هشام اللخمي الكلمة ٣٧٠ رتبة

. ٦٣٦

(٢) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى

الوعاة ٤٨/١ .

. ٣٤٥/٢/٨

(٣) انظر ترجمته فى الكلمة : ٧٠٠ وجذوة لإقبلى

بها . ومن لغوي عصر الموحدين يوسف^(١) بن موسى المواري التوفي بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول لمن عبد الملك إنه كان ماهرا في علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا وبذكر له أبياتا في ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى في ترتيب حروف الصحاح للجوهري .

ونضى إلى العصر المريني ولتقى بالشاعر مالك^(٢) بن المرحل التوفي سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لنزيب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ، ولا نلبث أن نلتقى بلهى القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسن التوفي سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجنى سماه : « رفع الحجب المستورة عن علمن المقصورة » وهو منشور ، وملتقى بلهى زيد المكودى القلمى التوفي سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م وله البسط والتعريف فى علم التصريف ونظم العرب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والممدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المرينى تؤلف كتب مختلفة فى غريب الحديث مثل « تحفة الناظر فى غريب الحديث » للرعى القلمى ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخارى وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوى السجلماسى . وتكاثر الشروح والحواشى فى العصر السعدى للقصائد النبوية مثل البردة والمهزبة للبوصيرى ومقصورة المكودى فى المدح النبوى وبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهري وبعض القصائد المشهورة مثل لامية العرب ولاية المعجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنسى ، وشرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافى لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات فى التأليف اللغوى طوال عصر العلويين ، ويؤلف لمن زاكور^(٣) التوفي سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحا على حسانة لى تمام باسم عنوان النفاسة فى شرح الحسانة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس الفتاوى فى شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقى التوفي سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب الزهر للسيوطى باسم المسفر عن خبايا الزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزبادى باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة النواصى للحريرى وبعده الأستاذ عبد الله كنون شرحا وحواشى أخرى فى اللغة لكثيرين^(٤) .

وكان النشاط فى النحو لا يقل عن النشاط فى اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوى كبير نلتقى به فى عصر المرابطين الحسن^(٥) بن على بن طريف التوفي سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٣) فطر النبوغ المرينى ١/٢٣٢ .

(٤) راجع النبوغ المرينى ١/٣١٥ .

(٥) النبوغ المرينى ١/١٠٠ .

(١) راجع فى يوسف لمن عبد الملك المراكشى

٤٣٧/٢/٨ .

(٢) انظر فى أعمال مالك والشريف الحسنى والمكودى

والرعى والمغراوى النبوغ المرينى فى مواضع متفرقة

ظلّ يدرس النحو طوال عمره بسبته ، وهو أستاذ القاضى عياض وغيره من علمائها فى عصر المرابطين ، وملتقى بعده يعلى^(١) بن محمد الجذامى المالقى الذى سكن سنة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وكان يقرئ بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد^(٢) بن الخطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م إذ كان مقرئاً للذكر الحكيم كما كان نحوياً . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نخبة ، إذ كانوا يحفظون الصبيان ويقفونهم على حدود العربية كى ينطقوا بأى الذكر الحكيم نطقاً سليماً .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى^(٣) الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فقد حج ومُرّ بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجى ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياها وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكرامة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحوى الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجى » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القفطى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضاً : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعون من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفاً لما لخلت مما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذاً باراً لأستاذه ابن برى ، فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئاً ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلويتى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

المدرس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن

عبد الملك ٥١٧/٢/٨ .

(١) انظر فى عبد الملك المراكشى ٢٨١/٥ .

(٢) راجعه فى إنباء الرواة فى طبقات النحاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباء الرواة ٣٧٨/٢ وكنا

فيه تلامذة حللوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ، منهم ابن ربحون عبد الرحمن بن محمد المصمودي ، وكان من علية شيوخ سبعة ، توفي سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدري الفاسي المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م .

ونلتقى في أوائل عصر المرينين بمحمد^(١) بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى في الغرب الأقصى تعنى - كما يقول ابن عبد الملك المراكشى - أن لباه كان قولا يبنى في المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفي سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م . وما تلبث فارس أن تخرج إماما نغويا مهما هو ابن آجروم^(٢) محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقي أبا حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه في طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته في العالم العربى بمتن أو مختصر في تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر - إلى عهد قريب - يجعله أول ما يدرس لطلابه في علم النحو لإلمامه بقواعد النحو في ترتيب بديع ، ويقول السيوطى في ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين في النحو لأنه عبّر عن الجر قسم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبّر الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنى كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم في رأى البصريين . وأول من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال في التوليع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى في مثل بازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولأما ولام الجحود وحتى والغاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضرة بعدها ، وبذلك أخذت في وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرها . ولم يهتم بعض الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعتها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أول طبعتها عندهم في روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن المددى معاصر ابن آجروم في قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان ابن^(٣) هانيء اللخمي السبتي معاصرها المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(١) الذيل والتكملة ٥٢٠/٢/٨ .

(٢) نظره في النبوغ للمرى ٢٢٠/١ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبي القاسم الشريف الحسنى السبى المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد^(١) بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدى ووصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رياسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم^(٢) بن محمد بن القاضى المكتاسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله نيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : قى وعى^(٣) :

يُرى أقول لمن تزجى وقابته قى المستجير قياؤه قى قينا
وإن هم لم يبقوا قولى أقول لهم ع القول ريك عياه عوه عى عينا

وبكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح^(٤) الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المعنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للبيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشف للزمخشري وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للزهرى ، ويفيض الأستاذ عبدالله كنون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والخواشى ومؤلفيها فى العصر بجاتب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون - أو يعرض كثير منهم - على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شيء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرحل الذى مر ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزة

(١) انظر فى القدومى درة المجال ١/ ١٥٦ روضة الآس للمقرئ ص ٣٤ .

(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الآس ص ٢٢٥ (٤) راجع التبوغ المرينى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى والصنفة للمرينى ص ٩٥ والمتقى المنصور على مآثر وغيرها من مؤلفات العصر .

فى علم العروض ورسالتان^(١) فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزنين للرباعيات أبو الدويب كما سماها الإبريتيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فَعْلُن والوزن الثانى فَعْلُن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متنا أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسعى شرحه باسم رياضة الأئمة فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر القهرى السبتي الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكتور حجي للصهر السمدى كتابين^(٢) فى علم العروض : كتابا لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد يجرى أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، ويبحرهما أو يوزنهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، ويقرأ وزن الدويب أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول فُتُها بدأت مع بشار وفُتُها كثرت عند أبي نواس وأبى العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتخذ لها وزن كما أسلفنا وبين ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكتور حجي كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرُّسْموكى . ونلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات النفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما نلتقى بمحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والياقوتى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشري والسكاكى وابن أبى الإصيص ، مضيفين إلى ذلك مدارة بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العملة لابن رشتى ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجنس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارع الذى لا تزال كُتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئا

(١) انظر تعريفا بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث من

مجلة المورد بغداد .

(٢) انظر الحركة الفكرية ١٥١/١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أُملي كتابه في البديع أو أنه تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصراً لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء في حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفي العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقولتين الرياضة ضبط قواعد النحو في كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع في كتابه : « الروض^(١) المربع في صناعة البديع » والمربع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز في كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور اليبيلة من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية في علم المعاني ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل المعارف وتأكيده المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعاً وكان الزمخشري أول من ميز بين علمي البيان والمعاني كما جاء في مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذليلاً لهما كما يقول السيد الجرجاني في شرحه لكتاب المفتاح للسكاكي . وبهذا التصور كتب السكاكي وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم الثلاثة : البيان والمعاني والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧م في كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء - تعنى علوم البلاغة من بيان ومعاني وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبي الإصبع في كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة وثيقاً ، وبلغت في كتاب ثان له باسم : « تحرير التجبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسة وعشرين قاعدة . وكثما رأى ابن البناء بعقله المنطقي أن ييسر تصورهما على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين في قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريماً ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة - أو كما نقول الآن بتمهيد - يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلاً : « غرضي أن أقرر في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفاً غير مخجل ، وتأليفاً غير محل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته في زيادة المنه ، وفهم الكتاب والسنة » ويريد بزيادة المنه زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والتبوية وتل ذلك ثلاثة أبواب : الباب الأول مقدمات في الدلالة والكلام والبديع وهو في ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى في أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرن في الدرر البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثانى فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومتنوع ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطبة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالة على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعذوبته فى السمع ، والصناعة المتكئة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القولتين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضاً فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والافتات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظر والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتشثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخير مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفصح لمسألة لغوية هى وصف المؤثر بصفة المذكر والعكس مثل امرأة صور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرماني حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أو الكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أو الكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهار وهو استغناء القول عن تكملته ومجيء الصفات أو النعوت للتخصيص بعد التكرار وللتعين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتسيم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أو العكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أو للتأكيد أو للمقابلة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيانى ، ومنه التجنيس وفرعه نحو اثني عشر فرعاً . ولما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أو البلاغة للمنطق ، وإن يجعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن فني الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقاً سديداً وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بشقرون رادًا كثيرًا من مسأله إلى كتب المشاركة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل الاخرى على المصطلحات البديعية ألف مطهر لابن البناء هو أبو محمد القاسم السجللمسى كتبه :
« للترغ البديع فى تجنيس أساليب البديع »^(١) وكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء وابن أبى الإصبع وابن المتر - تشمل كل صور البيان وألوان البديع وعسنان المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كل لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البين الثانى والثالث فى كتبه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز - التخييل - الإشارة - المبالغة - الرصف - المظاهرة - التوضيح - الاتساع - الانتشاء - التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويدخل فيه لحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجللمسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفروع ينقسم إلى فروع أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميز هذه الأقسام الثلاثة والتنوع بأسماء تمييزها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلام : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكثيرها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وإتتهاك ، والاتتهاك أنواع . وهى صموية واضحة فى الكتاب ، غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . وترك جنس الإيجاز إلى جنس التخييل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو بقليل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخييل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتبه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أو حذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقبيلها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حسان - طوال - رخصن - شمر غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة - فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضاً فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كسمية السب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشئ بأولاه ويعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ حلال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التفسير والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضي . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهي الجنس باللفظ المماثل ، والكافأة وهي الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقابلة في مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ ويسميه ابن أبي الإصبع في كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهي بنفس الاسم عند ابن أبي الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبي الإصبع في كتابه تحرير التحرير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل التردد وهو بنفس الاسم عند ابن أبي الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغي أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديها ، ولذلك سماه الرملى حسن البيان وفي رأى أن السجلماسى تابع في ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع في الفصل الرابع أو الكلية الرابعة الخاصة بتفصيل شيء بشيء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعاً لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبي الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء في الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثاني في كتابه ، ولم يتبع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الانشاء ، وهو بتوابعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثاني عند ابن البناء وهي الخروج من شيء إلى شيء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرع عنه إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبي الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن و ص ١٠٢ من تحرير التحرير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبي الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبينها يحتاج إلى مقبلات ونفصيلات لانسعاها هذه الدراسة . ولما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة في دراسة البديع ، مع الاشتراك في أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفي كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكان ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية - على هدى علم المنطق - إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وتوابعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضايه ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) وما لا ريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمتنع البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفرعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكثير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذبوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ غلال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودرسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى - بعد السجلماسى - عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى - مثل مصر والشام - بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٨٩ م ولعل الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعنى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى . ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح بشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى - من قديم - بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه - قبل عصر المرابطون - أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبعة

النبوغ المغربى لمد الله كون وحضارة الموحدين لمد المنون ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالمصر المغربى لمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمد حوى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخصر .

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمكلمين طبعات القراء لابن الجزرى والذيل والنكسة لابن عبد الملك المراكشى والدياج لابن فرحون والتفتى للتصوير على آثار خليفة المصور السعدى وما وضع عتقه فى هوائيه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . وتلقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سنجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وكلى الصلاة والخطبة بسنة وتصدّر قديما لإقرء القرآن وكان - كما يقول ابن الجزرى - مقرئا مجودا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزىل سنة المتوفى سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م وأبو بكر محمد الفلتنى نزىل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقرء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين على بن محمد بن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت رئاسة الإقرء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكلتى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقرء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسايد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدّر للإقرء بسنة فى مسجد زقاق الخشيلين نحو من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان مقرئا مجودا عذنا متسع السماع ، ويحى بن محمد الموزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م تصدّر للإقرء بسنة وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله - كما يقول المراكشى - فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك فأخذ بلبه طيب نعمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية . ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هتاء محمد بن على اللخمى السبتي المتوفى شهيدا ببجل الفتح سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمان فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن نبي جمعة الخطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التي يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا في المغرب الأقصى إلى الآن في كتابة المصاحف على ما وضعه ودونته في هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/ ١٦٠٧ م إتقان الصنعة في قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣١ م شرح على مورد الظلمات في حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء في عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وله منظومة في القراءات السبع ، ومنظومة ثانية في رسم المكي في القرآن ، وكتاب في قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظلمات لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسي المسمى الطراز في شرح ضبط الخراز في رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظلمات للخراز ، ومحمد بن عبد السلام الفاسي حاشية على شرح الجعبري على الشاطبية المسماة حرز الأماني ، وله كتاب في تجويد القرآن ، وكتاب ثان في طبقات المقرئين وكتاب ثالث في مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد في تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا في عصر الربيعين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبي بكر السبتي محمد بن يعلى الماغري خال القاضي عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربي لتفسير الذكر الحكيم في عصر الموحدين مثل عبد الجليل القصري من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع - فيما يقال - في ستين مجلدا ، ولبن مصالة الفازاوي المكناسي المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م وكان طوال حياته معنيا بتفسير القرآن ، وأبي الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصاري الفاسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م سكن سنة ومراكش وغيرها وله النسخ والنسوخ في القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة في إعجاز القرآن وتشد له ابن عبد الملك المراكشي فريدة رائعة في اثنين وعشرين بيتا نظمها في المدني والمكي من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغي المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٨ م أقرأ بسبته وفاس وولى الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيظ مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين في عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمي الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م وهو تلميذ لابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما في كتاب السهيلي : التعريف والإعلام بما أبيهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن علي بن الملبد الأنصاري الفاسي نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشف للزمخشري مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفي سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرياضين والبلاغين الباء فى البسلة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصة وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشري . وتلتقى فى القرن التاسع الهجرى بئى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله الباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشية على الكشاف للزمخشري وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلميذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرها حمدون بن الحاج التوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير أبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البضاوى ، ولعبد الرحمن الحائلك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدينة أصيلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحج فلقى بمكة سنة ٣٥٣ أباً زيد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواة ، ولقى بها الأبهري رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضاً عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجاني ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأثنى العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليوناني الدمشقي فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها في المبالغة واتخذ حرف (ص) رمزاً له طوال مقلباته على نحو ما يتضح في طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده بىكار بن برهون بن عيسى الفرديس السجلماسى ، وكان قد حجّ ولقى بمكة بأبذر المروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يحمل رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها البيهقى في مقلباته لإخراج نسخه من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب في المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايته أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الفرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ م مما يجعله أول محدث كبير يلقانا في عصر المرابطون . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملقوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م وحضر ابن الملقوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثاً على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة . وسمع ابن الفرديس وأخذ عنه . وتنهى سبته في عصر المرابطون القاضى عياض إلى علوم الحديث وروايته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش في عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسنة سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م وله في الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرق هذا الكتاب وغرب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقل المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيحات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران في عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غرارهِ ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع في كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) إنه كان إماماً في الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين في عصرهم أبو عبد الله بن النازى السبتي محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستقضى ببلده سنة ، توفى سنة ٥٩١ هـ / ١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وكان محدثاً

راوية مكررا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي
 المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م رحل في طلب الحديث النبوي إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد
 المصرية ودمشق وكان عدنا حافظا ذاكرة للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته
 « اللعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء في الحديث ، ومنها
 تحفة الطالب ومنية الراغب في الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل
 محمد بن عبد الله الحسيني القاضي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا
 لشئونه بصيرا بعلمه عارفا برجالهم وطبقاتهم وتواريخهم ، عنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث
 ببلده فاس واستدرك على عبد الحق في كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن
 ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م كان مستجربا في علوم
 الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجالهم مميزا صحيحه من سقيم ، وله في الحديث مصنفات نافعة ،
 منها نفع الغلل في الكلام على أحاديث السنن لأبي داود في ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب
 في الرد على ابن حزم في كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع
 فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة في
 نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث في فضل التلاوة والذكر ، ومقالة في نعت المحدثين الحديث
 بأنه حسن . ومن محدثي عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبي السبتي المتوفى بالقاهرة سنة
 ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م تجول كثيرا في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي والمشرق واستقر أخيرا
 في القاهرة وأُسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ،
 ومن مصنفاته الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفى
 في أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشي قديما الفاسي حديثا المتوفى سنة
 ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه
 أبي الحسن بن القطان في نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة
 الحديث وعلمه مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشاربي على بن محمد المتوفى سنة
 ٦٤٩ هـ/ ١٢٥٢ م وكان عدنا راوية مكررا ثقة عاكفا على العلم جماعة لفائس الكتب اتقى
 منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبته ، ووقف عليها من أملاكه ما يفي بنفقاتها
 ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهي منبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرالقاضي
 الموحدين في بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٤ م وكان محدثا راوية
 ثقة فيما يحدث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين في عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدي محمد بن عبد الله السبتي المتوفى
 سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم
 رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحران والموصل

وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلدته سنة فروع عنه كثيرون من أهلها ونزلاتها ، وكان رواية مكررة ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازي السبتي المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السنن الأئمة في السند المعتبر والمحاكمة بين مسلم والبخاري ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أقرأ - عمره - بمدينة سبته ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرح كتاب الشفا للقاضي عياض غير محدث ، ومنهم في القرن التاسع الهجري الزموري وابن السكك المتوفى سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م اختصار فتح الباري على صحيح البخاري لابن حجر . ومن المحدثين الكبار في العصر السعدي سُفَيْن العاصمي السفيلي عبد الرحمن بن علي القصري المتوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م رحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصاري وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول في السودان الغربي ورجع إلى فارس سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ م وأخذ في إلقاء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ويذكر في فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات في الحديث أخرى مما حمله عن المشاركة والمغاربة ، مما يدل على اتساعه في الرواية . ومن محدثي العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٤ م ، وكان إماما في رواية الحديث وكان يقرئ تلاميذه صحيح البخاري ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخاري .

ومن المحدثين المهمين في عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمي ومسند ابن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي ومسند البزار ومعجم الطبراني الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثي العصر إدريس بن محمد الحسيني الفاسي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذي ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطي وتخريج أحاديث الشهاب القضاي والدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودي بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م وله زاد المجد الساري لمطالع البخاري ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى - منذ القرن الرابع الهجري - في الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا أطلقنا الفقه في أي بلد مغربي ولم نخصه فقه يراد به الفقه المالكي ، إذ عملت أسباب

مختلفة في أن يصح مذهب مالك هو المذهب الفقهي المنتشر بالمغرب في كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعي ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهب المالكي والشافعي يتنافسان فيها ، وربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعي ، وقليل جدا من كانوا يعتنقون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكي نلتقي به في المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجري دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين ثوبا الحسن القنيسي وابن أبي زيد تنلمذا له ، كما يقال إنه هو الذي أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبي حنيفة الذي كان يدعو إلى اعتناقه الأغلبية في القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف باسم ابن العجوز السبتي المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبي زيد القيرواني مدة وسمع منه كلياته : النوادر والمختصر ، وملتقى بلقي عمران الفاسي المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رئاسة الفقهاء في القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صاحب ابن أبي زيد بالقيروان وتفق عليه ، وكان يعاصرها عثمان بن مالك الفاسي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى في وقته ، وله تعليقات على مدونة سحنون .

وبدخل عصر المرابطين ومن فقهاء مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده علي بن القاسم رأس أسرة بني القاسم بن عشرة بسلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجه أهل بلده استقضى بها وأورث عقبه سوّدا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمي الفاسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضي عياض الذي انتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطون في عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن علي بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقراها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ هـ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجي المتوفى بمراكش وهو قاضيتها سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م وكان عالما بالأحكام مقدما في معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق في الفقه المذهب الظاهري وتدعو إليه ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . فقد ظل المذهب المالكي حيا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهري ، إذ تترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأؤمن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهرى يوضح ما نزع أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المتصور يعقوب ، فإنه فجر - على هدى المذهب الظاهرى فى الفقه - أكبر ثورة على سبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُخصّص من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . ولبن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله - كما قلت فى تحقيق الكتاب - بالفقه الظاهرى وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع - كما أدى فى النحو - إلى ركام هائل من الافتراضات .

ولما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهرى وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتقدون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم - كما قلت - لا توضح ذلك ، ولما أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن آتين الظاهرين بينهم ، وأول من نفق عنده لبن الرامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعى المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيا . وولتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمى الفاسى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيا كما ينص على ذلك لبن عبد الملك المراكشى ، وكان من أهل الفتوى وألف كتابا فى المذهب المالكى .

ويلقنا بعده عمر بن عبد الله بن صمع القرشى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم لبن مضاء قاضى القضاة الظاهرى ، ويقول لبن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكى مصنفا ، ولا ندري هل كان مالكيا أو كان ظاهريا يتتبع مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول لبن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميلا إلى النظر والاجتهاد مفتتا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعى إليها المذهب الظاهرى وأصاره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ولتقى بعده بلقي عبد الله بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد لبن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه لبن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه علي بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية في عهد الموحدين بأبي الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بني عبد المؤمن وأنه حظي كثيرا عند المنصور فإنه الناصر فالمنصور بن الناصر فبعد الواحد أثنى المنصور فالمتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طليتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعائهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويفسر لهم ما فيها من مبادئ الدعوة . وأيضا لما يؤكد ظاهرته وانتصاره للمذهب الظاهري ما ذكر من أن أبا علي بن الطوير المراكشي عمر بن محمد الصنهاجي معاصره الفقيه المالكي ألف كتابا في إثبات القياس الذي ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي ولبن حنبل ، فردّ عليه باسم الظاهرية منكرا القياس بكتاب سماه المنزع في القياس المناضلة من سلك غير المذهب (الطريق الواضح السديد) في إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقّف في القضاء العمل بالمذهب الظاهري وعاد للمذهب المالكي سلطانه كاملا في القضاء والفقه ، ومن فقهاه حينئذ محمد بن إبراهيم القسلي التاجر بمدينة آسفي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد القراخ من مجلس تدريسه الموطن والسير والنحو بقصد في حثوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصغير الزرويلي علي بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضي بتازة ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطلي محمد بن علي بن سليمان المتوفى غريفا في أسطول أبي الحسن المريني سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب في الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصري في البيوع ويقول ابن فرحون في الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضا شرح قواعد الإسلام للقاضي عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسي في كتابه الميعار . ومنهم محمد بن الفتح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذي أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازي المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بين فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشكلة في مختصر خليل ، وله أيضا تكميل التقييد أكمل به تقييد أبي الحسن الصغير علي المدونة .

ومن أهم الفقهاء فى عصر السعدين اليسينى الفاسى محمد بن أحمد التوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسين بالباء أو بالناء وكان فقيه فاس ومفتيا ، ومنهم مبارك بن على الجزولى التوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضى إن قراءته لمختصر خليل فى الفقه المالكى بصورة تحرير المسائل فقط كمادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن على المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبى وأجازه إجازة عامة فى فهرسه ، وله فى الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى التوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مستحضرا لمسائل خليل دءوبا على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسى التوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وشيئا من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المحيين فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى التوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الدلائى محمد بن أحمد التوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القضى فى الرد على من أنكروا مشروعيتهم فى صلاتى النفل والفرض ، وصرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو على الحسن بن رجال التوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشى عليه ، وله أيضا حاشية على شرح ميارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودى بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقانى المصرى لموطأ مالك ، وإتعااف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبى الحسن على بن قاسم الزقاق الفاسى التوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير - وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية - إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير فى ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقص ظاهرة المحاماة والمحاميين بجانب القضاة ، وهى التى استبعت فى المغرب كما فى الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهى توضح كيفية كتابة العقود فى المعاملات وغيرها كالمرارعات واستجارات العقار . ويكرر الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم فى عهده لأوائل القرن العاشر الهجرى^(١) .

وأن أن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا فى الفصل الماضى حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة فى القرن الثانى الهجرى وأن

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا في عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء ولهم أيضا استطاعوا - فيما يقال - إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية في عقيدتهم ، وأن محمد بن إدريس الثوري بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء للذكرى وأصل البصري مؤسس الاعتزال في البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال في المغرب الأقصى أخذ - فيما بعد - يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعد لها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادئ هي - كما مر بنا في الفصل الماضي - وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضاً وحدانيته في صفاته بحيث تُعَدُّ نفس ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده في النعيم ووعدته في الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار في إرادته وأعماله وأن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوّل فمثل ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تؤمن بها حسب الظاهر ولا تعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامي جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب في مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصنعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة في تأويل الآيات التي تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هي عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعري فيها برأي أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين في مسائل أخرى (انظرها في كتاب العصر العباسي الثاني ص ١٧٧) . وعمم مذهب في العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسي وأبو عمران الفاسي ، وأصبح هذا المذهب : مذهب الأشاعرة المذهب الكلامي السائد في البلدان المغربية .

ونجد في عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبي القاسم المعافري السبتي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ومثل أبي بكر السبتي المار ذكره بين المنسرين . وتدخل في عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادئ من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدي الذي يصلح العالم في آخر الزمان ويسمى الإمام المهدي ومبدأ

المصحة من الوقوع في الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدي المصوم ، وكان يرفع لذلك نسبته إلى الرسول ﷺ كما في المعجب للمراكشي . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأي صورة من الصور وما جاء في القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤول على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة في اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمتد هذه الوحدانية إلى الصفات - كما مر بنا - فهي عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرية فمثلا الله عليهم جميع بصير أي أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أي أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بخلافه ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته - كما يقول صاحب المعجب - على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أحد مبادئ المعتزلة المذكورة آنفا . وله في الدعوة إلى غلته مصنفات هي : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيهقي وله مصنف فيه ومصنف ثان في دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بنهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعائهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكاسي وله مصنف في إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعائهم أبو الحسن بن الإشيلي على بن محمد بن خليل اللخمي نزيل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشي ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدي سنة ٥٤١ هـ للهجرة ، فحظي عنده ورقاه إلى رتب عليّة نال بسببها دنيا عريضة^(١) ، ولعل الكتاب كان في الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يستندون إليه القيام على إرشاد دعائهم المسّين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة في كتبه المن بالامامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهي المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقراءة أبي عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارئ كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشيلي غامضها وفتح ألقاها على الطلبة حتى يذلّلها ويبينها أتم بيان^(٢) .

ومن خلفوا أبا الحسن بن الإشيلي وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين في طلبتهم أو بعبارة أدق في دعائهم أبو الحسن^(٣) بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعني هذا أنه كان يقوم على إرشادهم - فكان

وما بعدها .

(١) الذيل والتكملة ٣٠٤/١/٥

(٢) نظر ترجمته في الذيل والتكملة ١٦٥/١/٨ .

(٣) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الحادي النازي ص ١٦٠

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس فى الأحكام الفقهية والاعتصار على الكتاب والسنة . ومن علماء الكلام فى عصر الموحدين عثمان السلاجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م وله فى عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية فى العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م وكان ماهرا فى علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج نموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م روى عن السلاجى البرهانية . وكان ميرزا فى علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله فى علم الكلام مصنف مفيد ومقالة فى الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاتى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م وكان ميرزا فى علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام فى عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلاجى سماه : المباحث العقلية فى شرح معانى العقيدة البرهانية . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين فى العصر السعدى البسيثى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة فى خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى فى التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى فى التوحيد للسوسى ، وتكاثرت شروحهما فى العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المار ذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ومحمد المهدي الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/ ١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومرأ بنا توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

٥

التاريخ

نشط المغرب الأقصى فى كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الفرائطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو -

وإن كان غرناطيا - نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر في ترجمته أنه كان من موظفي أمرائها ، وتوفي سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متحما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفي القاضي عياض السبتي المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب في أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب في شيوخه باسم الغنية .

وتكاثرت في عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب لللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم في مولد النبي العظيم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفى من أسماء المصطفى ، والابتهاج في المعراج ، وله التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق ، وله في التاريخ العام التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، وتاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر المين في المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى في تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخي الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيهقي وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة . ويكتب مؤرخ رسمي ثان من حواشي الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجري كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح في قسمه الثاني الذي بقي لعصرنا من تاريخه والذي تحتفظ به مكتبة البودليانا في أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادي التازي مع مقدمة قيمة ونشره في دار الغرب الإسلامي . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمي هو عبد الواحد المراكشي الذي كان حيا في العقد الثالث من القرن السابع الهجري ، وله كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصل القول في دولة الموحدين بقلم مؤرخ حبيب دون المبالغة التي نلسمها عند الييذك وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمي الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبي الحسن على بن القطان التوفى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وكان من رجال الدولة ، و مر بنا ذكر أبيه أبي الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعائهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعائهم كما سيوضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور عمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكمهما مجسمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ وبطيل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدي الواجب اتباعه وكفر من لم يطعه ولم يصل عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعابة سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولابد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة في الدعابة للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه في بيروت . ونشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين في طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامي في بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتي المرابطون والموحدين . ومن كتب التراجم في هذا العصر كتاب المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وروحان العارفين في ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلاوة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي المتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ولابن المواز المار ذكره بين المحدثين شيخ الدارطنتي ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسي لابن الزبير في كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حلوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينين ونلتقى بئى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى التوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكلبى الموصل والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزاءها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشرية ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بابن لئى زرع الفاسى التوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقبل بل توفى سنة ٧٤١ هـ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هتية اللخمى السبئى المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الفرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرها أبو الحسن الجزائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالمضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسنة من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسنة من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م وبلغنا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض المتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منه ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بابن عسكر التوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجى . وبلغنا أحمد بن القاضى التوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة المجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والقراض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى التوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبئ أن انضم إليهم أحمد بابا التنبوكسى السودانى نزىل مراكش التوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تنزيل لكتاب الدياج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتبه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرئ التوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسية : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب « ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لفته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرنجى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضاً « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية لمن الطب القادرى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م وله نشر الثانى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذيل على كفاية المحتاج لأحمد بلبا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء

(أ) عرب المغرب الأقصى

مر بنا . في الفصل الثاني - أنه كانت تعيش في بلاد المغرب - من قديم - سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلها قبل الفتح العربي الإسلامي عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوي مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربي مثل الإغريق والرومان والفندال . وفي الفتح نزلها عرب من أسيا قحطانيون يماثيون وعدنانيون مضريون ، ونزلها معهم من كان في جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعريبهم وحسن إسلامهم . ولم يفتنحو جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طبيئاته وخيراته ، وإنما قسحوه ابتغاء نشر الدين الخفيف ، فهم فاتحون ومجاهدون في سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه في أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا في تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربي الفاتح من الحقوق في شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقينة من الظلم التمس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحل مكان ذلك كله العدل التام الذي يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوى بينهم في مواجهة الحياة بقمطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم في الدين الخفيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التي ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها في ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة في المسيحية ، إنما هو إله واحد يدبر الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربي . لذلك لا تعجب إذا رأينا البربر في القرن المجري الأول يقبلون جماعات ووحدا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الخفيف .

وصَدَرَ ولاية القرن الأول الهجرى عن تلك التعاليم فى معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ - ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كية عددها اثنا عشر ألفاً ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولَّى على تلك القبيلة ابناً للكاكشة التى هزمها فى معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب فى الجيش العربى ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماماً ، وكان من تدبيره السياسى الحكيم أن وزع على صفار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعّم العرية إذ دوّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى مخاطبتهم مع الحكومة العرية وولائها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شتاير الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءاً لا يتجزء من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسناً موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ - ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وحصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الوردفجوى ، وأبقى معه - فى قول بعض المؤرخين - تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفاً من العرب واثنى عشر ألفاً من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس - أو بعبارة أدق - إيبيريا ، فجهز جيشاً عدده اثنا عشر ألفاً اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطراً كبيراً من إيبيريا ، واستمد موسى ، فجهه موسى بجيش ، وأتما معاً فتح إيبيريا .

وأتما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعاً منذ القرن الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العرية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاية المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك غشاً لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانوي في جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادتهما وما تقرّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالي بربراً وغير بربر في شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى في تولي الخلافة ، فينبغي أن يتولاهما أكفأ المسلمين عربياً أو بربرياً أو عبداً حبشياً . واعتنق المذهب الصفري كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولّى زعامتهم مسيرة ثم خالد بن حيد الزناتي ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مراراً ، وتسحب منهم مملوكين واسول فكانت دولة صفرية في سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، أما صفرية الشمال في طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة في عهد بني العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادئ الخوارج في النصف الأول من القرن الثاني الهجري دليلاً على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطئ أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوماً في رفض دينهم الحنيف الذي اعتنقوه ولا في رفض العربية التي تغلغلت في أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف في جمع الضرائب المجحفة التي ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربي المسلم والبربري المسلم في الحقوق للمالية وغير المالية ، ثورتهم إنما كانت مطالبة شرعية بتطبيق مبادئ دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عرباً وبربراً وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتحرب أن نجد قبائلهم جميعاً تحاول كل منهم - منذ القرن الثاني الهجري - أن تلقى لها نصيباً يصلها بالعرب ، ومر بنا في الفصل الثاني أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبئر ، وكلت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطانيين ، بينما كانت القبائل البئر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم في المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة وُلِّي ويُنزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمهم إكراماً لا مزيد عليه ويطلبه على سره وثمة يريد أن يؤسس للعلوين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وصمعت به قبائل زواغة ومكاسة وغمارة وعشائر من زناتة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشاً نازل به تادلة جنوبى ولى وتامسة على المحيط ، وكان بعض أهلها لا يزال وثنياً أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعاً . وبذلك تأسست دولة الإدارة في ولى وسرعان ما أسس إدريس الثاني خليفة أبيه إدريس مدينة فاس في سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست في المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثاني وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م ينشرون الإسلام السنى في تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثاني أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدة القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الرضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوهم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدة القرويين، وسمى لذلك العدة الأندلسية . وأخذ الأدارة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتائب فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ فى المساجد سريها حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لمعهد الأدارة وبعد عهدهم ، ولايلث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيقدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلداتهم يعلمونه فيها ، وما يكاد يتتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماء وفقهاء وعُدته الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره لى جيدة وغيرها كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القرويين أو جامعه الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنت هذا الجامع فاستحال - من حينئذ - سريها إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونشروها تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . وتمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليعلمهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجلماة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكون من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيف والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سموها باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجل الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأنشاع فيها نخلة المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين واتصم عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسة ونازل فيها يرغواطة التى كانت قد اعتنقت نخلة زائفة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان على أمرها - حين وفاته - أبو بكر بن عمر اللتوني ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراکش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوסף فقطم أمره وشأته . ومن سياسته الرشيدة أنه كعب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمره الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فغير الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يتدمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يقدون على جامعة الفرويين ومساجد مراكش وستة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعريبها .

وتتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى - أن القبائل الحلالية بالجزائر : الأنيج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شيء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بمحلبهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكعب إلى أمره تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الحلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية متويا بنظره الصائب أن يمددهم عن الجزائر حتى تتخلص من غيظهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية ولبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجوز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم - كما يقول صاحب المعجب - جمع ضخم ، فأترل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم - كما مر بنا - تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأنيج فى الجزائر على ابنه يعقوب وردها إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأترل قبيلة رياح منطقتى الحبط وأزغار ، وأترل قبيلة جشم منطقة تامسة وقبيلة الأنيج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساج داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى ملوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواطئ الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادا لجهاد الإسيان الصارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الماثلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كعبة بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة - فى بدء عهدها - بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشتهرت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا - والبربرية لا تزال منتشرة فى المغرب الأقصى - على إيصال عقيدة الدولة إلى العامة المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى المجرى إذ كان بين أمراءها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ - ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب النكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع المجرين ، حتى إذا كان القرن الخامس المجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتي ويحى بن الزيتونى الفاسى وللنقى أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمرأ الطوائف ، وأن آخرهم أنتجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره ونثره ما يستخف رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس المجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زبياع والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهائى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطىن ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى وعمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرفا الفاسى وعلى بن يقظان السبىى القاتل :

أحسنُ إلى مصرَ حينَ منبرٍ بها مستهَامَ القلبَ محرقَ الكبدِ

وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ولبن الياشين المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ولبن تولى القرشى التيملى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ولبن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ولبن الخبازة ميمون الخطلى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ولبن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م ولبن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ولبن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م .

ورعت الدولة المرينية الحركين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت الربىى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطاني أبى الحسن ولبنى عنان وأخيه عبد العزيز ، وملتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وعبد العزيز المزورزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ومالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م ولبن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ولبنى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبىى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ولبن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م ولبن شبيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن للكردى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجرؤم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكاسى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصرف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسى وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ولبن بجيش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م وفى نفس السنة الغزفى الفاسى وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوتشرىسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبى الغاية فى ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها فى حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء فى الفقه وفى الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان - كما يقول ابن القاضى فى كتابه درة الحجال - له قدم راسخة فى كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعاتى والبيان والأصولين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والميعة والمهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمّ بنوالة الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهد هذه الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . وتلتقى فى عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصرى الفاسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدى المتوفى بعده بقليل وأحمد النجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م ومعاصره داود الدغوى ، والزمورى المتوفى سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسنى وأخيه أحمد المتوفين سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م وعلى بن منصور الشيطمى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م والزرونى المتوفى سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ومحمد بن على الفشتالى المتوفى سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م وأحمد بن القاضى صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م وعبد العزيز الفشتالى وعلى بن أحمد الشامى المتوفين سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م ومحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م ولبن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م ولبنى عبد الله المكلاشى المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م ومحمد المساوى الدلائى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م والطيب بن المساوى المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م . ومن ذكر أيضا فى عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسى مفتى الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوى سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسنى سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآبسى سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م

ولقي على المسفيوي سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م وبسوق المقرى أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتبه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراکش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والحوزالى وابن القاضى ، ومن لم يتقدم ذكره أحمد بن الفرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المرید المراكشى وأبو القاسم الوزير الفسلى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان التجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزياتى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدا محمد بن محمد بن لمي بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م وأحمد الدغوى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ / ١٠٧٩ م والرودتى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م ومحمد البوعناني المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م وعبد السلام القادري النسبة المتوفى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م والحسن بن رجال المعدائى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ ومحمد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م ومحمد بن زكري المتوفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وعلى مصباح الزرويل المتوفى سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وعبد الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م وأحمد الملالي السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م وابن الزنان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادري المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمتار وأحمد بن المهدي الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م والثاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م ومحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٤ م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م وابن عمرو الراباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م .

شعراء الموشحات والأزجال

(أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ - منذ عصر دولة المرابطين - علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أم تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانيا إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدون أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحدىها فى كتابه : « توشيح التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبنة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدتها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بنى الوشاح الأندلسى نزىل سلا - بجوار الرباط على المحيط - على بنى عشرة قضائها ، وكانوا بحورا فياضة فى الجود فغمره بعباياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى لى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحسن اختيار الألفاظ وأخذ ينشئ على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك ثورا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدين التالى لعصرهم على لسان ابن غرلة ، وسنفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل لى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصصه بترجمة - ولنلتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكاسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدتها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور المقرئ فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله^(١) :

(١) نظر المتلقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢/٢٢٩ .

يا غَرْيَبَ الحَيِّ مِنْ حَتَّى الحَيِّى أَنْتُمْ عَيْدِي وَأَنْتُمْ غُرُيى

وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المدح النبوى وقد عارض بها موشحتين قفلهما سبني
لاين سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظلى الحمى - وجادك الغيث . وفى
نهاية الموشحة يقول :

| | |
|---|--------------------------------------|
| هَيْتُ فِى أَطْلَالٍ كَلْبَى وَأَنَا | ليس فى الأطلال لى من أَرْبِ |
| ما مرادى رَامَةً وَالْمُنْحَنَى | لا ولا كَلْبَى وَسُعْدَى مَطْلَبَى |
| إِنَّمَا سَوْلى وَقَصْدَى وَالْمُنَى | سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْقَرْبِ |
| أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهْ مَنْ سَمَا | الشَّرِيفُ بْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْسِ |
| خَاتَمُ الرُّسُلِ الْكَرِيمِ الْمُتَمَى | طَاهِرُ الْأَصْلِ زَكَى النَّفْسِ |

فهو إن هام صباية بأطلال لى ليس له من أَرْبِ فيها ولا فى تغنية برامة والمنحنى حيث
اللقاء المأمول ولا مطلبه لى ولا سعدى ولا غيرهما بمن يذكرهن إنما سَوْله وقصده وكل مناه
رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاروت
موشحا على غرارهِ ختمه بهذا الابتهاال لربه :

| | |
|------------------------------|--|
| طامعٌ فى رحمة الله وما | خاب عَيْدٌ طامعٌ لم يَنَاسِ |
| يا لى جُدْ عَلَيْنَا كَرَمًا | يا كَرِهُمَا قَبْلَ أَخْذِ الْأَنْفَسِ |

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبى ، وكان
واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أدبيا شاعرا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى
بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه
وعطاياه ، وبنوه المؤرخون غربا وشرقا به ، وعليه قصر ابن القاضى كتبه : المتنى المقصور
على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسه وحسبه وشيوخه وخلائقه وسياته وشماله
الحميدة وتمظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ،
ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبى فى غصنها الأخير^(١) :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| قُلْتُ لَهُ وَقَدْ نَهَضْتُ | وَجَدْتُ فِى حَرْبِي ^(٢) |
| وَعَلَبَ الظُّلُمَى الْأَسَدُ | فَقَازَ بِالْغَلَبِ |
| الشمسُ بَرَّجَهَا الْأَسَدُ | فَانْجَحَ إِلَى قَلْبِي |

وهو يستغل ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبه وقد اكتمل

(٢) نهدت الجارية : اكتمل شبلها .

(١) المتنى ص ٦٦٢ .

لها شباها وجدت في حربه غلب الظبي الأسد ، إذ الظبي شمس سنا جمالا ، ولابد أن نخل
الشمس في برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكتنئ عنها بالظبي وعنه بالأسد نظرفا . وكان
أحمد بن القاضى وشاحا ، فتشده المقرئ في ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس »
موشحا نبويا ، استعمله بقوله (١) :

لاحتراز البان وقتَ السَّحَرِ هامت الأرواحُ
وقيان الطير فوق الشجر تجلب الأفرانج
يا شقيقَ الروح هاتِ القدحا من دنان الحان
قهوةً تُكسِبُ قلبي الفرحا تطربُ النشوان
كل من دارت عليه شطحا من يديّ وسنان (٢)

وواضح أنه استعمل المدحة النبوية بالحدث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها
الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغان تجلب الأفرانج . وبلغت إلى ساقى الخمر الصوفية
في السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشبع في قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت
عليه كئاما يغيب عن نفسه فيشطع شطحات متوالية . ويتجه في الغصن الأخير من الموشح
للرسول منشدا :

يا رسول الله غوثٌ ومذدٌ يا منيع الجار
أنت - والله - الكريمُ المعتمدُ لنزع الدار
كن شفيعى يا نبيا لا يُردُّ إنك المخضار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو النيث المدوار ، ويضرب أن يكون
شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته في أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلويين فلتقى
بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، وبلغنا بمدح محمد بن الطيب العلمى تلميذه ،
وموشحاته تموج بالمدح ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا
للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن (٣) غرلة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجأ به في عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ / ١١٣٠م -
٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته في عصر المرابطون ، وهو أول
مغربي تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفي الدين الحلى في كتابه : « العاقل الحالى » إنه

الحل تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب (راجع

الفهرس) . ونظر موشحه في النبوغ للمغربي ٣٢٠/٣

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .

(٢) زستان : فائر الطرف .

(٣) انظر في ابن غرلة كتاب العاقل الحالى لصفي الدين

كان ينظم الموشح والرجل والمزمن فى القئين أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الرجل ، والمزمن من الزمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والرجل الزمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الرجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزمنة الموشحة الطنقة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرميلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدين ، وقد قتل بسببها لما وقع فى نفسه من مظلما وما يليه من اجتماعها بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكلت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفاتقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يَصِدُّ صَيْدًا / فليكن كما صَيِّدِي ،
صَيِّدِي النَّزْلَةَ / من مراتع الأند
وَأَتَقَنَّتْ وَخَشِيئَةً / كيف لا أصول
فِي رِدا سَوْيَّة / ظيئة تجول
نَهَى شَيْه حَوْرِيَّة / صاغها الجليل
تَنَشَّى رُوَيْدًا / إذ تَمِيسُ فِي الرَّدِ
تَمَعِّنُ الْغِلَالَةَ / والرُّدا مع النُّهْدِ
زُرَّتْهَا وَقَدْ نَامَتْ / رَبُّ ذَاتِ لَيْلَةٍ
وَالنَّجُومُ قَدْ مَالَتْ / والرَّقِيبُ فِي غَفَلَةٍ
عِنْدَ ضَمِّهَا قَالَتْ / رَمَتْ مِنْهَا قُبْلَهُ
فَرَّ قَرُّ وَإِهْدَا / لا تَكُنْ مُتَعَدِي
تَكْمِيرُ النَّبَالَا (١) / وَتَقْرُطُ الْعَقْدِ

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن اختيارها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطره الثانى والرابع : « لا تكن متعدى - وتقرط العقد » والأصل : « لا تكن متعديا - وتقرط العقد » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزمن ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقبل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أشدها من نفس وزن هذا الموشح يستجده بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

(١) النبالة : الأساور بالترمية المدروسة .

بَدَتْ مِنْهُ قُورَارُ
سَلَّ مِنْهُ بَنَارُ
فَهَلْ يُؤْخَذُ الشَّارُ

خَذَهَا الْأَسِيلُ
طَرَفَهَا الْكَحِيلُ
هَا تَأَى الْقَيْلُ

قَدْ أُسِيرَتْ عَيْدًا وَلَمْ أَكُنْ بِالْبَعْدِ
مُتُّ لَا عَمَالَهُ فَاطْلُبُوا دُمَى بَعْدَى

وفى كتاب العذارى الماتيات فى الأرجال والموشحات لفليب الخازن موشح لابن نباتة ص ٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثلث لابن غرلة ص ٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص ٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع متفق على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاة اللفظ المذهب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن الصباغ ^(١)

يقول المقرئ فى الجزء الثامى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى » ويذكر المقرئ أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعها للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م - ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فقتب المقرئ منها غرراً من الموشحات وهى اثنا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمساً وجميعها فى المدح النبوى وأتم ما أورد له قوله :

تَرَكْتُ اسْتِدَاحَ الْعَالَمِينَ وَلُذْتُ مِنْ مَدَائِحِ خَيْرِ الْخَلْقِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
سَاجِدُهَا كَهْفَى وَجْهِنِى وَمَلْجِى لَعَلَّى بِالْأَمْدَاحِ أُسْتَوْجَبَ الْبَيْتُ

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المدح النبوى ، وهو يث فيها هياما ملناعا لأنه لا يستطيع للثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكحال عينيه بنوره . وبشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائماً أملاً حاراً فى القرب منه ولفاته كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائماً يمتنى وقعة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائماً يتجدد شوقه ويتجدد صلبته ويتجدد هيامه ، ويرسل ألقاه وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أول موشحاته :

أَلَفَ الْمُضْنَى الشُّجُونَا وَارْتَضَى الْأَحْزَانُ دِينَا
فَوْقَ صَفْحِ الرَّجْتَيْنِ أَرْسَلَ الدُّمْعُ الْمُشُونَا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

بَقَطْعُ الْأَيْسَامِ خَزَنًا وَبُكَاءُ وَعَوِيلًا
 فَارَحُوا صَبًا مُعْنَى قَلْبُهُ يُذَكِّي غَيْلًا
 مَلْهَبَ الْأَخْشَاءِ مُضْنَى بِالنَّوَى أَضْحَى عَلِيًّا
 ذَابَ شَوْقًا وَحِينًا وَسَقَامًا وَفِينَا
 وَشَوْنُ الْمُقَلَّتَيْنِ تَسْكَبُ الدُّمْعُ لِلْمِينَا^(١)

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا في الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عريى يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وَبَلَيْنَا وَبَلَيْنَا وَاشْرُ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا
 قُمْ بِنَا يَا نَوْرَ عَيْنِي نَجْعَلُ الشُّكَّ يَقِينَا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هي نفس خرجة ابن بقی للموشحة الثامنة في جيش التوشيح وهي موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقی في أول أغصانها :

قُم بِنَا نَجْلُو الْكُوسَا تَحْتَ أَطْلَالِ السَّحَابِ
 تَعَاطَاهَا عُرُوسًا حَلِيهَا دُرُّ الْحَبَابِ
 قَهْرَةٌ تَغْطِي النَّفُوسَا عَزُّ أَيْسَامِ الشَّبَابِ

وكان ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقی عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت في أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية في التشويق إلى مكة وطية على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائي منشدا كما يقول عند المقام النبوي :

تَفَرُّ الرُّسُلُ الْمَوَاقِفَ حَيْثُكَ مِنْهُ يَلْتَسِمُ

وكان نزول ابن البلغة الوشاح الأندلسي بيجابة لم يذهب هذرا ، فقد نشأ بها - فيما بعد - ابن خزر على غرارها . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن البلغة فإن ابن الصباغ نشأ - في رأينا - على غرار ابن بقی الذي أقام طويلا في سلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرئ هل ابن الصباغ مغربي أو أندلسي ويؤكد أنه مغربي أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائي يدل أو يؤكد أنه مغربي ، وموشحاته إنما عرفت في مراکش بتقدمها للمرتضى الموحدي . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقی في التغني

(١) شون المين : مجارى الدمع . المين : السائل الغزير .

بمدح بنى عشرة فضاءها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقی جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتنى رَنْلَه على شَطْطُ الْبَحْرِ يا لبني أو أطوم^(١)
وترى عينيْ مَذ تَفْلَعُ سَحَر لبلاد السروم

والخرجة ذكر أولها في نهاية موشحة لبن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهي كاملة في موشحة دينية مكفرة عند ابن عري^(٢) - وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند لبن الصباغ ولبن عري^(٣) وتجرى على هذه الصورة :

جَنَّانُ يا جَنَّانُ إجنْجْ مِنْ البُشْتَانِ اليَاسَمِينُ
وخَلُّ الرِّيحَانُ بحرمسة الرُحْمَنُ للعاشقين

وقال الذكور سيد غازي إنها خرجة لابن بقی في إحدى موشحاته^(٤) . واجتماع لبن الصباغ ولبن عري في اقتباس هاتين الخرجتين من لبن بقی قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند لبن الصباغ فاتحة لموشحة لبن باجة في مدح أبي بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المربطى :

جَرَّرِ الذَّيْلَ أَيُّما جَرُّ وصيل الشُّكْرُ منك بالشُّكْرِ

والشطر الثاني في الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعذله لبن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوي . واستعار لبن الصباغ خاتمة الموشحة الثلثة عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعج مع شيء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانُ إن زُرْتَ حَيِّي إقْبِلْ اذْنُو بالرُّسَيْلا
ليشْ أَخْذْ عَنقَ الخُشَيْفِ وسَرِّقْ قَمَّ الحُجَيْلا

وأصل المطلع عند البعج :

يا ليتني إن رِبْتُ حبيبي إقْبِلْ اذْنُو بالرُّسَيْلا
ليشْ أَخْذْ عَنقَ الغَزَّيْلِ وسَرِّقْ قَمَّ الحُجَيْلا

والرُّسَيْلا هي الرُّسَيْلة تصخير رسالة أي تؤدِّد وتمهل ، يريد أن يمر . حبيبه في ترفق معاتباً له ، والخشف ولد الطيبة والحجلة طائر في حجم الحمام . والنودحات حب وهيام

(١) أطوم : سلخفة . (٢) راجع ديوان لبن عري ص ٨٦ .

(٣) انظر ديوان لبن عري ص ١٢١ وكتاب في أصول

(٤) انظر في أصول التوشيح ص ١١٠ .

توشيح نذكتور سيد غازي ص ١٠٨ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصيلة استحالت عند ابن الصباغ تراتيل بديعة ، إذ استقر حب الرسول في قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن^(١) زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، ولد حوالي منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأكب على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمي ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومتقى الفريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاة ، وشرح على قلائد المعيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشع غزل مطلعته :

مَنْ عَلِمَ الْغَزْلَانَ الْفَتَكَ بِاللَّيْلِ الْجَرَى
وَسَلَّطَ الْعَيْنَانَ عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ

يا ضرة الشمس . الله فى الصب الكيب
يا منية النفس . هجرتك للنفس مذيب
حدثنى حذى تسلكو للب سلب^(٢)

عارض بهذا الموشع الغزلى موشعا لابن سهل ، وقد جعل مطلعته : « ليل الموى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشع جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب ويروق دون تكلف أو تعنع . ويقول منزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاساتين خمر اللّمس يا لها من راح تحكى الجنان^(٣)
واسقنيها خمرة تجلسو النفس علنى أرتاح من حرّ الأوّل^(٤)
يلقى ظنّى رمانى بهام ريشها الأهداب تبرى الأفسده^(٥)
مُرّق القلب الكليم المستهام إذ رنا واتساب سيف جرده^(٦)
عنبرى الخال مكى الخيام يذهل الأبواب در نفسده

- (٣) اللّمس : سرة جميلة فى باطن الشفة . الجنان : زهر الرمان .
(٤) أوّل الحب والار : شديهما .
(٥) تبرى : تحت .
(٦) الكليم : الجرج .

- (١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كحون متنا من ديوانه وانظر فيه وفى موشحاته الوانى بالأدب العربى فى العرب الأنصى للأستاذ محمد بن تاروت ٧٧٩/٣ وكتون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .
(٢) حدى : ظنى وفرسى .

هَمْتُ وَجداً من سناه المنقَبِ من سنا الإصباح
لاح حين انقَرُ نَفْرُ كالقَبِ نَزْهُرُ وضاح
أدكي زَنْد ناز^(١) أو بدر أنار

والكلمات لسمة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثالثة . وله في مطلع موشحة بصف فيها الربيع :

| | | |
|--------------------|--------------------|------------|
| قد اكسى العريان | من مائس الأغصان | بالنس |
| وطررُ البستان | بالورْد والرَّيحان | والترجس |
| هَبَّتْ به الأزهار | بنسمة الأسحار | من الوسن |
| وهاجت الأطيار | برائق الأشعار | أم الحسن |
| تسبح الجِار | لواحد القهار | مولي المين |

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعمتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا في موشحاته هذه اللغة المذبة المصفاة المتفتة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها في الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو في اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقليل للموشحة ، وقد نشأ بعدها في الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطون كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الخلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُرْلَه ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلقا في زجل نظمته في ابن غرلة قاتلة :

مَشَى السَّهْرَ حيرانَ حتى رأى إنسانَ عَيْنَى وَقَفَ

ويتحدث ابن خلدون^(٢) في مقدمته عن الزجل في الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه في المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كاللوشح نظموا فيه بليتهم الحضرية (يريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بغلي يعرف بلبن عمير ، وسنفر له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملمبة والغزل ، ويذكر من كبار زجالهم ابن شجاع التازي

(١) نَزْهُرُ : مضى . وضاح : مشرق . أدكي : أوقد . الزند : الحبر أو العود الذى يندح به النار . من ١٣٥٧ .

وستترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهوني المكناسى ويقول إنه أبدع فى مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا فى رحلة السلطان أبى الحسن المرنى بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض فى وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم واخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شركا فى القيروان ودارت عليه الدوائر وعمى أمره على شعبه ، واترى الكفيف الزرهوني يعب عليه فى زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش فى القيروان ، ويمزى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول^(١) :

| | |
|---|--|
| عَكَرُ فاس المنيرة الفسراً | وَبِن سَارَت بُو عَزَامُ السُّلْطَانُ |
| أَحْبَاجًا تَخْلَلُوا الصَّحْرَا | وَدُّوا سَرَحَ الْبِلَادِ مَعَ السُّكَّانِ ^(٢) |
| عَنْ جَيْشِ الْغَرْبِ حَيْثُ نَسَّالَكُمْ | الْمُخْلُوفَ فِي إِفْرِيقِيَا السُّودَا |
| لَوْ كَانَ مَا بَيْنَ تُونِسَ الْغَرْبَا | وَبِلَادِ الْغَرْبِ سُدَّ الْأَسْكَندَرُ |
| لَا بَدَّ لِلْعَلِيرِ كَانُ يَبْجِي بِنَا | أَوْ يَأْتِي الرِّيحُ عَنْهُمْ بِفَرْسَدِ خَيْرِ |
| مَا اغْوَصَهَا مِنْ أُمُورٍ وَمَا شَرَا | لَوْ تَقَرَّا كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الْوَيْدَانِ ^(٣) |
| لَجَرَّتْ بِالْدَّمِ وَلَصَدَّ حَجَرًا | وَهَوَتْ الْأَجْرَافُ وَجَفَّتِ الْغُدْرَانُ |

وهو يبكى عسكر فاس الفراء وتقرير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحاوى عن الجيش التالف فى إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سُدَّ الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المرنى الذى لتهب أمره ، وما أصعبها وشرها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف المضارب والجيال وجفت الغدران فيالهلول المصاب وبيا لعداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى فى هذا العصر الوسيط الذى نعتى بدرسه بزجال كبير يعد الكفيف الزرهوني ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازى .

ابن^(٤) عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالملوح نظموا فيه بلنهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولموا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم وكثر شيوخه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ ونظر النبوغ الغربى ٣/٣٣٧ .
 (٢) ودُّوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودولها .
 (٣) الويدان : يريد الآذان .
 (٤) انظر فى ابن عمير العاقل الحال (راجع الفهرس)
 ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأرجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بلبن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أرجال له وجزءا من زجل لبس مطالعا ونعتقد أنه كان أئامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أُتَكَرْتُ شَيْبَى مَنْ بُلِيَتْ بِهَا كُلُّ مَنْ عَاشَ شَيْبَى
إِذَا هِيَ مَلَا حَسَةَ الْبَسْتَانِ بِالسَّوَارِ الْعَجِيبِ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الوار فى كلمة « السَّوَارِ » فلم ينطقها شديدة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أرجالها التى أُنشدتها له فى ص ٥٦ قوله :

يَا حَبِيبَ قَلْبِي تَعَطَّفْ بَعْضَ هَذَا الْمَجْرِ يَكُنَّا
دَمَوْخَ عَيْنِي مَا تَرَفَّا وَلَهَيْبَ قَلْبِي مَا يَطَفَّا

ولاحظ صفى الدين أن كلمة يَكُنَّا معروفة عن « بكفى » بقلب الباء ألفا لتمائل الألف فى كلمة « يطفئا » . وأُنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطلعه :

| | |
|---|---|
| لُبِكُنَى بِشَاطِئِ النَّهْرِ نَوَاحِ | عَلَى الْغُصْنِ فِي الْبُسْتَانِ قَرِيبَ الصَّبَاحِ |
| وَكَفَّ السَّحَرُ تَحَوَّرَ بَدَادُ الظَّلَامِ | وَمَاءُ النَّدى يَجْرَى بِشَفْرِ الْأَفْصَاحِ |
| بَاكَرْتُ الرِّيَاضَ وَالطَّلَّ فِيهِ افْتِرَاقُ | سَرَّ الْجَوَاهِرِ فِي نُحُورِ الْجَوَارِ |
| وَذَنَعَ النَّوَاعِزُ يَنْهَرُقُ فَهَرَاقُ | يَحَاكِي تَعْلِينَ حَلَقَتْ بِالْثَمَارِ |
| لَوَّارًا بِالْفُصُونِ خَلَّخَالَ عَلَى كُلِّ سَاقِ | وَدَارَ الْجَمِيعِ بِالرُّوضِ دَوَّرَ السَّوَارِ |
| وَأَيْدَى النَّدى تَخْرُقُ جُيُوبَ الْكِمَامِ | وَتَحْمِلُ نَسِيمَ الْمَسْكِ عَنْهَا رِيَّاحُ |
| وَعَاجِ الضُّيَا يُطْلَى بِمَسْكِ الْغَمَامِ | وَجَرُّ النَّسِيمِ ذِيلُهَا عَلَيْهَا وَفَاحُ |

والزجل مكشط بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشمر الأتخوان بالثر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يساقط والجواهر كثتها مسرورة بمكثتها من تحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرف الدمع مدرارا وكثما يحاكي الماء فى قنواته أفناعى تريد أن تغلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأبدى الندى فى الصباح الباكر كثما تخرق كمام الزهر بل جيوبه ، وتعمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطل بمسك الغمام ، وجرَّ النسيم ذيل رده عليه وفاح وسطعت راتحه سطوعا شديدا . وتمتلى بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . ونحن

كما يقول ابن خلدون استحسن أهل فلس لرجال ابن عمير وشغفوا بها وفتوا فتنه شديدة ومضوا ينظمون على نهجه وطريقته .

ابن^(١) شجاع التازي

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجاجيين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أشهد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعي ، وفيه يقول :

| | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| المال زينة الدنيا وعز النفس | ينهي وجوها ليست هي باهيا |
| فها كل من هو كبير الفلاس | وكؤه الكلام والرتبة العاليا |
| يكبروا من كثر ماله ولو كان صغير | ويصغروا عزيز القوم إذا يفتيز |
| حتى يلتقي من هو في قومة كبير | بمن لا أصل عندو ولا لو خطر |
| أدى صارت الأذنب أمام الرؤوس | وصار يستمد السواد من الساقيا |
| ضغف الناس عمل ذا لو فساد الزمان | ما يذريو على من يكثرُوا ذا العتاب |
| أدى صار فلان اليوم يصح بوفلان | ولو ريت وكيف حتى يرود الجواب |

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعز النفس حتى ليضفي البهله على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرى في الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيرا ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذنب الرؤوس وترى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقب بمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والرجل الثاني الذي ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستله على هذه الصورة :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| تعب من تبع قلبو يلاح ذا الزمان | امل يا فلان لا يلقب الحسن بيل |
| ما منهم مليح عاهد إلا وخان | قليل من عليه تحيس وبجيس عليك |
| يتبهوا على العشاق ويتمنوا | بتمعدوا تقطيع قلوب الرجال |
| وان واصلوا من حينهم يقطعوا | وان عاهدوا بخاتوا على كل حال |
| ومهدت لسو من وسط قلبي مكان | وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك |
| وخون عليك ما يعتربك من هوان | فلا بد من هول الهوى يعتربك |

وما يمدحا والنبوغ للنرى من ٣٣٥ وما يمدحا .

(١) انظر في ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨

وهو يدعو في أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يخنن من يعاهدنه ولا يحسن
أنفسهن على من يصفيهن الرد ، ودائما يتهنن على عشاقهن ويتمنن ويجدن متاعا في تقطيع
قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبثن أن يهجرن ، ولا عهد لمن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح
يقول إن واحدة منهن صبت وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد
هوان !

٣

شعراء المدح

المدح من أقدم موضوعات الشعر العربي ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، وزراه
دائما على ألسنة الشعراء في كل قطر وعصر ينتنون بالأمجاد التي يحققها الخلفاء والحكام ،
وزراه في المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول - كما عند أبي عبيد البركي -
إبراهيم بن أيوب من نكور في الشمال الشرقي للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها في
إدريس الثاني :

أبا أُمي الذي لُبني وسولي ودُنِيَّاي التي أُرجمو وديني
أَحْرَمُ من يمينك رِي نَفْسي ورزقُ الخلق من تلك اليمين
وَيُحَجِّبُ عن جَبِينِكَ طَرْفُ لَحْظِي ونسورُ الأرض من ذاك الجبين
وقد جَبَّتْ المهامة من نكور إليك بكل ناجية أُمون^(١)

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ في مديحه ، إذ يجعل نور الأرض - في المشارق
والمغرب - يستمد من جبين ممدوحه الإدريسي . ونمضي بعد الأدارسة في عصر أمره الطوائف
ولا نجد إلا شظايا متائرة من بعض المدايح ، ونجد ابن القابلة السبتي يمدح قائدا ولعله من
قواد المرابطين في أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما نقشه ابن بسم في الذخيرة من قوله
في بعض انتصاراته ووصفه لقتله^(٢) :

تركهم نهبَ الفلاة ووخشيها شعورهم شئت وأوجهم غبر
تظل سياج الطير عاكفة بهم على جثث قد سل قفصها الذعر
وقد عومتهم من قبور حواصلها فبا من رأى مينا يطير به قبر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلمها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه
قبل السيوف ويقول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لئلا ، وكثما لم يعد التراب

(١) للمامة : الغفار والغوات . ناجية : ناقة سريعة . (٢) الذخيرة ٢٨١/١/٤ .

أمون : لا تمثر ولا تنثر .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحرب غدتهم لبانٌ تُدبُّها وما استعذبوا منهن إلا العلقما^(١)
يمشون للهيجاء جرّداً سلاحيها ويضنون في البداة بزلاً صلابا^(٢)
إذا طعنوا بالسهمربة خيلتهم ضراغم تُنْزى بالفلسوب أراقما^(٣)
وإن كُرّ منهم ذو لئام مصمّم غدا لقم الهيجاء بالسيف لائما^(٤)

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعدين منها العلقام وأشدها مرارة كناية عن حسن بلائهم في الحروب الضارية ، ولهم ليحئون لها خيلا جرّدا مقدما ويضنون في البوادي إلا متينة صلبة ، وإنك ل ترى الرماح في أيديهم يدسونها - كفها أفاع - في قلوب أعدائهم ، وإنك ل ترى المثلث منهم إذا صمم وكرّ كأنما يريد أن يقتل الحرب بسيفه ، الذى يستأثر منه بكل مشاعره . وتشد المقرى في الجزء الرابع من أزهار الرياض للفاضى عياض السبى مقطوعة بديعة بهنى بها - كما نظن - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ول عهده تاشفين على عروسه منشدا :

ليهنّ العلا أن زُفّت الشمسُ للبدر وحلّى جيد الملك بالأنجم الزُفر
وفرّت عيونُ المجد آيةَ قِرّة يوم تعالَى أن يكونَ من الدهر
لأنّ ساعةً أنضتْ إلى كل بغية كما اعتلق الغواصُ بالدرة اليكّر
قرانٌ كلا السعدَيْنِ فيه تلاقيا كما يلتقى فى القفلة الشفّر بالشفّر
لتَجرّ المنى فى حَلْبَتِهِ مُبْدّة فحقّ لها فى مثل ذلك أن تجرى^(٥)
يسعدُ أميرُ المسلمين تطلّعتْ أساريه تندى بماتية البشر^(٦)
تمناه نجلُ الملك حظا ممتعا بيمز إلى عزٍّ وقدرٍ إلى قُدرٍ

وهو يقول : لهنّ العلا فقد زُفّت الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزين جيد الملك بالأنجم المتألقة ، وأصبح المجد قرير العين يوم زفاف تسمى على الدهر ، حين أتيت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرة اليتيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى فى العين الجفنان ، وتَجْر المنى فى حلبتيه وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سمد أمير المسلمين ، وتلك أساريه يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه تجله حظا سعيدا هاتنا بمرز

(٤) ذو لئام : كان المرابطون يضعون لئاما على وجوههم ، ولذلك سماو المثلثين . لائما : مثالا .
(٥) منة من أغد السر إذا أسرع فيه .
(٦) أساريه الوجه : محاسنه . مائة : رونق .

(١) العلقام : جمع علقم : شديد المرارة .

(٢) جرّدا : قوية . سلاحيها : طويلة . يضنون :

يهزلون . بزلاً : بلا ناضجة متينة . صلابا : صلبة .

(٣) السهمربة جمع سهمرى : الرمح . ضراغم : أسد .

أراقم : جمع أرقم : أعثب الحيات والأفاعى .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربي من نهضة منذ عصر المرابطين ، واسترجع لاهن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين وتلقى بابل جيوس شاعر عبد المؤمن والجزاوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرده لكل منهما ترجمة . كان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكبه ، ثم جرت له محنة معه فرجأ به فى عيابه السجن وقته ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطنه ، أليانا شرعية افتتحها بقوله^(١) :

| | |
|-------------------------------|---|
| عطفنا علينا أمير المؤمنين فقد | بان العزاء لفرط البث والخزن |
| قد صادفتنا سهام كلها غرض | ورحمة منكم أوفى من الجن ^(٢) |
| من جاء عندكم يستنى على ثقة | بنصره لم يخف بطلنا من الزمن |
| أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم | من دون من عليهم لا ولا تمن |
| ونحن من بعض من أحييت مكارمكم | كلنا الخيانتين من نفس ومن بدن |
| وصيبة كفر أخ الوزق من صيفر | لم يألوا التوح فى قرع ولا فن ^(٣) |
| قد أوجدتهم أبساد منك سابقة | والكل لولاك لم يوجد ولم يكن |

وهى أليات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبراً وإشفاقاً ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يكن له ولا أخذته فيه رافة ولا رحمة ، وظل غاضباً عليه حتى أذاقه حظه . وكان ابنه يوسف محبها من شعبه وكان عالماً واسع المعرفة وقرب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أشدها القرى فى أزهار الرياض استهلها بقوله^(٤) :

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| الله حبك والسبع الحواميم | تغزو بها سبعة وهى الأقاليم |
| سبع المثاني التى لله قمت بها | عليك من سيرها نصر وتقديم |
| وأنت بالسور السبع الطوال على | كل السورى حاكم بالله محكوم |

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأتاليه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثاني وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدفق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

(١) النبوع المغربى ١٦٦/٢ .

(٢) الورق : الحمام . فن : غصن .

(٣) الجن جمع جنة : الوفاة .

(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

واقدمه فى الحرب وشده على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن ينجوا على الركب إعظاما ليوسف . ويحق يمجّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حربا بلى سعيده أن ينشد القصيدة كاملة فى كلبه النصوص البائعة ، وما أنشده قوله ليعقوب^(١) :

أطاعتك الذّوابل والشّفارُ ولّى أمرك الفلكُ المدارُ^(٢)
 يشرى مثل ما لتهجت رياضُ وسخّذ مثلما وضع النهارُ
 وقبح مثلما انفتحت كيمامُ وشقّت عن صدور مَهّا صدرارُ^(٣)
 وأنال كما مدّت ظلالُ وأنفال كما مدّت بحارُ
 وأعلامُ بنصرك خافقاتُ لها فى كل جوّ منطارُ
 لتهنى أرضُ أندلسٍ بدورُ من السّراء ليس لها سِرارُ^(٤)

وهو نصر عظيم فى الأرك طوّق يعقوب بجمد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرة كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نكب كعب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونهم كعب القروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كعب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحفل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مدحهم ، من ذلك قول قاضى قضاته لى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى النصوص البائعة لابن سعيد^(٥) :

نُصِرْتُمْ لأن الحق آن ظهوره وناصيره فى الله ما كان يُخذلُ
 قطعتم فروعا قد أضرت بأصلها ألا هكذا من كان بالمدل يُشغلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى النصوص البائعة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قطع المنصور الاشتغال بكعب القروع أى كعب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله^(٦) :

أُصِلْنَا قد وردتُم بنا سواردة كنا عليها نحومُ
 نبذتم مقالة هذا وذا فزال المراء وقلّ الخصومُ

(٤) السّرد : أنزل لى فى الشهر يريد فيها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يبقها أى ظلام .

(٥) النصوص البائعة ص ٣٠ .

(٦) النصوص البائعة ص ٤٧ .

(١) النصوص البائعة فى مجلس شمره المائة السابعة ص ٩٦ .

(٢) الذّوابل والشّفار : الرياح والسّيف .

(٣) الصدر : ما تلبه المرأة على صدرها .

وَأَنْتُمْ قَسُولٌ مَنْ لَفْظُهُ هُوَ الشَّرْعُ وَالْحَقُّ مِنْهُ يَقُومُ
فَلَا زِلْمٌ لَكُمْ أَلْهَى وَأَحْيَاءُ دَارِسِ دَرَسِ الْعُلُومِ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء في أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هي كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ، فجمعوها له فكان يملئها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرتين وأول شاعر كبير نلتقي به في عهدهم مالك بن المرحل ، وهو شاعر أهم سلاطينها في أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) وله بهته بافتاحه مدينة مراكش^(١) سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م :

فَتَحَّ تَبَسَّمَ الْأَكْوَانُ عَنْهُ فَمَا رَأَيْتُ أَمْلَحَ مِنْهُ تَبَسُّمًا وَقَفَا
فَتَحَّ كَمَا فَتَحَ الْبَتَانُ زَهْرَتَهُ وَرَجَعَ الطَّيْرُ فِي أَغْصَانِهِ نَغْمًا
فَتَحَّ كَمَا فَتَحَ صَبَّحٌ فِي قَمِيصٍ دُجِيٍّ وَطَرَفَ الْبَرْقُ فِي أَرْدَانِهِ عِلْمًا
أَضْحَتْ لَهُ جَنَّةُ الرُّضْوَانِ قَدْ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَفَوَّادُ الدِّينِ قَدْ نَعِمَا
الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا مَا وَعَدَتْ بِهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَلَّى الدُّنْيَا وَمَنْ حَكَمَا
لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدًا كَانَ وَعَدُهُ فَاشْكُرْ بِمُضَاعَفِ لِكَ الْخَطِّ الَّذِي قِيمَا
سَحَابٍ مَنْ بِجَمِيعِ الْفَضْلِ أَفْرَدَهُ وَمَنْ حَبَاهُ السُّجَايَا الْغُرُ وَالشُّبَمَا

وهو يمجّد فتح يعقوب المرتين لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد لبست لفتحه الأكوان ، كما يفتح البتان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فوّاد الدين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمّد الله أن تحقق ليعقوب كل مأمله من ربه ، بما لا يسمعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلّ في علاه جدير بكل حمد إذ أفرد بكل فضل وحياه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا يفتحه مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربي لجهاد نصارى الإسيان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفي كل مرة كان يحققهم سحقاً ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين في غرناطة والمعدّة الأندلسية ، وكان كل ما يضمنه يقدّمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفسه راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والمملك العابد لربه . وللقاضى ففى عبد الله القشتالى يستمنع^(٢) لها عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) :

(٢) التبرغ للفرى ٢٢٠/٣

(١) قطر التبرغ للفرى ٢١٢/٣ .

أَيَا إِمَامًا نَدَى كَفَيْهِ قَدْ وَكَّفَا
وَكَيْفَ أَصْرُفُ رَجَعَهُ الْقَصْدُ عَنْ مَلِكٍ
مَا إِنْ شَكُوتُ بِمَا أَضْنَى تَطْلُبُهُ
وَلَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مَتَهَى أُمْلَى
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ تَجْدِيدُ عَارِفَةٍ
وَلَيْسَ مِمَّنْ يَمُرُّ أَنْ لَا يَبُحَّ يَدَا
حَسْبَى اعْتَصَامِي بِحِلْمِي مِنْكُمْ وَكَفَى
مَا صَدُّ عَنِّي سَنًا بِشِيرٍ وَلَا صَرَفَا
إِلَّا وَجَدْتُ بِهِ لِي مِنْ ضَنَائِي شِفَا
إِلَّا قَضَى وَطَرَا مِنْهُ وَمَا وَقَفَا^(١)
مَهْمَا انْقَضَتْ هَذِهِ لِهَذِهِ انْتَفَا^(٢)
حَتَّى يَقَامَ لَهُ بِشَكْرِ مَا سَلَفَا

وهو يقول لأخي عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى
أعصم منك بمهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقنى
يشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا
منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ،
وإنك لتقدم أنفضالك غير متظر على فضل شكرا . وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان
ترجمة . ولحمد بن أحمد الشوكى يمدح أبى فارس المرزبى قائلا^(٣) :

هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ أُمِّ سَاحَةِ
وَمَنْ تَخَلَّفَ جَهْلًا عَنْ إِجَابَتِهِ
قُلْ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْ جَرَائِمُهُ
زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الِيمُونِ طَالَعُهُ
فَطَبَعَهُ الصُّفْحُ وَالْمَعْرُوفُ شَيْعَتُهُ
جَادَتْ عَلَيْهَا بِجَدَوَاهَا قَامَلُهُ^(٤)
سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَالُهُ^(٥)
وَعَقَلَهُ عَنِ الْقَلْبِ مَعَاوِلُهُ^(٦)
تَحْطَى بِمَا أَتَتْ فِي ذُنُوبِكَ أَمَلُهُ
وَالْحِلْمُ وَالصُّونُ وَالْتَقْوَى شَمَائِلُهُ

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعباياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه
خيوله وجبوشه ، وما أخرى من أبعادته عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقلة أن
تبسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصفح والغفران وشيمته زرعُ المعروف والحلم والصيانة
والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى
المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين
ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ،
ومن قاتل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قاتل كان مائة ألف ، أسير أكثرهم ، وقتل
ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبد الملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى .

(٤) أم : قصد . جدواها : عطاياها .

(٥) صواله : خيله .

(٦) عقله : حسبه .

(١) وطرا : مأبىا .

(٢) عارفة : مكرومة . انتف : استأنف .

(٣) البيروغ الغربى ٢٢١/٣ .

وللشعراء في هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد النعم الدغوغى ، وفيها يقول (١) :

جَنَا النَّصْرُ مَا بَيْنَ الظُّبَا وَالْكَثَائِرِ
وَمَاذَا يُفِيدُ الْجَيْشَ إِنْ كَانَ رُؤْيُهُ
يُسْرَبُ نَعْسُ الْفَرَسَيْنِ جَسَدُهُ
وَحَيْمٌ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ وَغَيْثُهُ
وَشَبْتُ لَطْفِي الْحِجَاءَ لَيْسَ وَقُودُهَا
وَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ يَذَرٍ وَصَيْنُوهُ
لَقَدْ ذَاقَ فِيهِ الْبُرْدُفِيزُ مِنَ الرُّدَى
عَلَى سَابِقَاتِ الْمَذَكِيَّاتِ الصُّوْافِرِ (٢)
كَمِيسَطِيَّانَ عِنْدَ وَادِي الْمَخَازِنِ
كَمَثَلِ الدُّبَا عَنْ مَآخِرَاتِ السَّفَاتِنِ (٣)
لَمَّا كَثَرَ الْحُمُرَاءُ لَا لِنَطْوَانِ
سَوَى نَفْسِ الشَّجْعَانِ وَسَطِ الْمِيَادِنِ
حُتْنِ بَأْيَدِي الْمُؤْمِنِينَ الْمِيَامِنِ
جَزَاءَ مَنَاحِسٍ خَرَابَا مَلَاعِنِ (٤)

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائس السهام على سابقات الخيل الفتية القارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سبستان غند وادى المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن مآخرات المحيط ، وحيمٌ في تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراکش لا على تطوان أو غيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون ولته ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وعصوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أمنافا عقابا وتنكيلا لمناحيس مستخرين . ومعركة ثائية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبي لكن لا في الشمال ، وإنما في الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات في الجنوب الشرقى للمغرب وإقليم تيجوارين شمال إقليم توات ، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل في السودان وألقى في حجره بذهب كثير أثرت به الدولة ، وفي هذا الفتح يقول الشبظمي (٥) أحد قواد المنصور :

سَهْمٌ مِنَ الْغَرْبِ قَدْ أَصْنَى الْأَسَاوِدَ إِذْ
وَحِينَ صَمُّوا عَنِ الْإِنْسَادَارِ أَصْحَمَهُمْ
نَرَاهُ يَنْفُثُ مِنْ أَفْوَاهِهَا بَرْدًا
مَدَانِغٌ أَبْطَلَتْ لِلْسُودِ حِكْمَتَهَا
وَمَا اسْتَفَامُوا إِلَى أَنْ جَرَّدَتْ لَهُمْ
صَمُّوا وَهُمْ حَيْثُ بَحْرُ الْبَيْلِ مَرُودُ (٦)
صَوَاعِنًا يَبْدَاهَا الْمَسُوتُ مَعْقُودُ
يَنْقُضَ حَيْثُ فُؤَادُ الْقِرْنِ مَرْصُودُ (٧)
فَلَمْ يُفِيدْ مَعَهَا نَفْثٌ وَتَعْقِيدُ (٨)
بَيْضٌ وَأَشْرَعَتْ السُّرُرُ الْأَمَالِيدُ (٩)

(٥) الروافى بالأدب العربى لابن تاروت الطنجى ٦٧٨/٣ .

(٦) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمروا .

(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .

(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تماويز السحر .

(٩) ببيض : سيوف . سمر أماليد : رماح لينة فاتكة .

(١) البوغ المغربى ٤٣/٣ .

(٢) جنا : شجرة . الفضا : السيوف . الكنائس جمع

كنانة : وعاء لنهام . المذكيات : الخيل القارحة .

الصوافن جمع صافن : يريد التأمية للحرب .

(٣) الدبا : الجراد . مخرت السفينة : شقت الماء .

(٤) البردفيز : البرتغاليون .

والشيطنى يتصور كأن سهما اتصبَّ من المغرب فقتل على السودانيين إذ أصلهم - وهم حاشدون على نهر النيل - ما يشبه الصمم ، فلم يسمعوا إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أنفواها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تمويزات ، وسرعان ما قومتهم السيوف والرماح واستلموا خاتمين . وشعره المنصور كيرون وسترجم لشاعريه الهرزالي وأحمد بن القاضي .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدي البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم - وهو المأمون - عن مدينة العرائش ، للإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهديّة . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدي البرتغاليين كما استولوا على الجديدة ولزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة في مقاومة البرتغاليين والإسبان ، واتعمشت الزاوية الدالية في تادلة إلى أن دثرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفي مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها في مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدّى - ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين - للإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش ولزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ / ١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله - فيما بعد - على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاشى مصورا بحبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الخفيف^(١) :

| | |
|----------------------------------|---|
| حديثُ الملا عنكم يسيرُ به الركبُ | وينقله فى صحيفه الشرقُ والغربُ |
| وحجُّكم فرضٌ على كلِّ مسلم | تُقال به الزُّلفى من الله والغربُ |
| وتنت ربيعٌ من أصولٍ رفيعةٍ | نجومُ الدياجى فى الأنام لها سربُ ^(٢) |
| سمى رسولُ الله ناصرُ دينه | تجلّى بكم عن أفقه الشكِّ والريبُ |

وكما تفضى الشعراء طويلا فى المهدى السعدى بانتصارات المنصور الذهبي كذلك تفخروا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ / ١٦٧٢م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧م) فقد استرد المهديّة من الإسبان سنة ١٠٩١هـ / ١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ / ١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفرة . واتخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(٢) سرب : جماعة .

(١) الواسى لائن تابت ٢٢٩/٢ .

تدور من حوله مدائح وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لفتى فارس عبد الواحد البوعناني وسنخصه بكلمة . واستأثره عبد السلام جوس إسماعيل حتى يسترد سبة من يد الإسبان كما استرد المراثي ، يقول ^(١) :

رفعتُ منازلَ سَبَّةٍ أقولها تشكروا إليكم بالذي قد هالما
فلقد قضيتُم للمراثي حاجةً مع طنجية فاقضوا لذي آمالما
إن لم تكونوا أخذين بثارها من ذا يفك من الوثاق جبالما
فاهبَّتْ لها أهلُ الشجاعة عاجلا حتى تراهم نازلين جبالما

وليوسف بن محمد الشوذري أرجوزة صور فيها معركة المراثي مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله في وصف الخطة الحربية ^(٢) :

قد حلَّ نصفُ الجيوشِ أرضَ الساحل مقابل المُرْسَى لمنع الداخل
ونصفه حلَّ على سورِ البلادِ طوقها بأنسرها طوقَ القِلَادِ
لما رأى الكفَّارُ ما أذهلهم وشدة الأمرِ العظيم هالم
وكان بالمُرْسَى مراكبٌ لهم موثوقة دارت بها حبالهم
ارتقبوا الليل وقد جنَّ الظلام واختلسوا في زورقٍ مثل السهام

وهو يقول إنهم قرؤا ليلة خلسة في زوارق حملتهم في الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن زُباع ^(٣)

من أهل طنججة كما يقول الفلقسندی ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بمحلفات العلماء حتى أتمن العلوم الدينية والعربية وعلومها اليلية واللغوية ، وترجم له الفتح بن غاتان في القلائد ، ومن قوله في التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع في الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتمعقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

تأريث ٣١/١ وما بعدها والبرغ المغربي للأستاذ عبد الله
كون ١٠١/١ والتعريف بالناضي عياض لابنه محمد ،
تحقيق د . بشرقية (طبع الرباط) .

(١) الوافي ٨٤١/٣ .

(٢) الوافي ٨٤٥/٣ .

(٣) نشر في ترجمة ابن زُباع وشعره القلائد (طبع
تونس) ص ٢٥٩ وصح الأعشى والوافي للأستاذ ابن

صديقه عياضا قاضيا فى سبته . وحكى ابن الفاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بآيه أن ثأ الحسنى بن زبناح كان بينه وبين آيه فى الشببة إثناء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساء ، فعابته واعترف لى زبناح بالفضل له . وفى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على حسن خلقه . وربما نقله المربطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدل ، ولكل منهم جهاد وضوحات عظيمة ، ويقول ابن زبناح مجدا بطلا من هؤلاء الأبطال للدولة المربطون منوها بفتح تم على يده :

| | |
|-----------------------------|--|
| لذا تُصان السيوفُ فى الخيلِ | وفى فخر الخطُ بالفتا الذليل ^(١) |
| وتُكرَّمُ الخيلُ فى مربطها | بر الفتاة العروب بالرجل ^(٢) |
| وتُقطَفُ النبعُ كالحواجب أو | أُخْنى وتُهمى السهام كالقفل ^(٣) |
| ويؤثر الشرُّ الكمى إذا | خبر بين الدروع والحلل ^(٤) |
| فتح به أثارت البلاد كما | أشرفت المقربات بالنهل ^(٥) |
| هدت له السروم هذه ملات | قلوب أبطالهم من الوجل ^(٦) |
| فما أطاقوا الوسج فى نفق | وما أطاقوا الصمود فى جبل ^(٧) |
| كانهم والرماح تغفرهم | جزي فصال سلكن فى الوجل ^(٨) |

وهو يقول لئلا هذا النصر تصان السيوف فى أغمدها ، ويفخر الخط برمائه الفتاة ، وتكرم الخيل فى مربطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعرفتها وبرها ، وتقطف أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح فيئاً كآقواس الحواجب ، وترفق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفتاة إلى القلوب ، ولئلا هذا النصر يؤثر للشجاع حمى الحرب وهوها إذا خبر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح ميين أدركت

- | | |
|---|--|
| (١) الخلال جمع غلة : غمد السيوف . الخط : أرض | (٤) الشر : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : |
| كانت تسب إليها الرماح الخطية . الفنا : الرماح . | الشجاع . |
| الذليل : الحادة . | (٥) أثارت البلاد : أدركت لها آثارها . المقربات : الخيل |
| (٢) مربطها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة | العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول . |
| الأصيلة . | (٦) الوجل : الفرع . |
| (٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب . | (٧) الوجل : الدخول . |
| تمهى : ترقق منها السهام وتسدد . | (٨) فصال جمع فصيل : ولد الناقة أو البقرة . |

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإيها تستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أيها ستهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سحِق الروم سحقاً ملأ قلوب أبطالهم بالوجل والفرع فما استطاعوا الدخول في نفق ولا الصعود في جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون في وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات في شباك الأسر . وبطولة ثابتة صورها لمعركة أخرى من معارك المرابطين ، وفيها يقول :

| | |
|--|--|
| سَلِ الحَرْبَ عَنْهُمْ وَالسَّيْفُ جَدَاوِلُ | تَدْفُقُ والأَرْماحُ رُقْطُ تَنْضِيضٍ ^(١) |
| وبالأَرْضِ - من وقع الجياد - تَمُدُّ | ولكنه - فيما تسروم - تَنْبُضُ |
| وبالأَفْقِ لِلنَّفْعِ المَثَارِ سَحَابٌ | مَوَاضِيضُ لكنْ بالصَّوَاعِقِ تَمْخَضُ ^(٢) |
| وقد سَهَكْتَ تحت الحديد من الصَّدَا | جِسْمٌ بما عُلْتُ من المِسْكِ تَرْخَضُ ^(٣) |
| وأَشْرَفْتَ البَيْضُ الرِّفَاقُ على الطَّلِي | لتكْرَعُ فيها والرَّءُوسُ تَخْفَضُ ^(٤) |
| فلست ترى إلا دماءَ مَرَاةٍ | تَخَاضُ إلى أَكْبَادِ قَوْمٍ تَخْضَخُضُ ^(٥) |

وابن زباج يقول سل الحرب عن شجاعة المرابطين وبأسهم ، والسيوف في أيديهم كأنها جداول تدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تمتد ، وهي في الواقع تَطْوِي طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحاب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربي وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدا بما تغسل به من المسك مرارا ، وفي أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرؤوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تَفْتَحُمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب فلانده العقيان أن يضيف في ترجمة ابن زباج إلى هاتين البطولتين للمرابطين ما وصفه من بطولات أخرى لم يلم في الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغي أن يورد قصيدتي البطولتين اللتين ذكرهما كاملين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زباج بقصيدتيه وموقعيهما الحربيين ، وستلقى بلبن زباج في عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتضح شخصيته الشعرية .

الثاني بعد النهل . ترخص : نفسل .

(١) البيض الرفاق : السيوف . الطل : الأعناق .

كرع : شرب .

(٥) مراقة : سائلة . تخاض : تنعم . تخضخض :

خوض في أكبادهم

(١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه يقع مثل السر .

تنضض : تلوك .

(٢) التفع : غبار الحرب . مواضض : حوامل .

تمخض : تحمل .

(٣) سهك الشيء : تغيرت راحته . علت : الشرب

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حُبوس ، ولد بفارس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وبها نشأه ومراه في الكليات وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح مفتناً في الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة في صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش في عهد المرابطين وأصبح في طليعة شُعرائهم ، وندت منه تُرُهاث جعلته يرحل مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التي كان يلقها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدتها صاحب نظم الجمان لعلها أول مدائح له ، وفيها يقول :

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| بخليلة المهدي سِدنا اغتدى | نَهجُ العلوم مِعْداً ومذلاً |
| وافيتُ حضرته المقدس تَرْبها | فاذا الذي بُصرتُ لن يُتْخِلا |
| وسمعتُ كلَّ مذاهب الحق التي | ما إن تَرى عن مُقتَضاها مَعْدِلا |
| وبصرتُ بالطوسي يَهْفُ حوله | ولبي المعالي مُجْبِلا ومفصلاً |
| فالحق بحضرته السنية واستمع | للقول واحذر - وَهَكَ - أن تتقولا |
| فيها كمال الدين والدنيا معاً | وسمادة الأرواح في أن تكملها |

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهداً ومذلاً بفضل عبد المؤمن خليفة المهدي ، ويصف حضرته بأن ترباه مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التي لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغازي الطوسي وبيانه الغزير الرائع وبلي المعالي الجويني إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحق به وبحضرته ودعوته التي تحقق لك كمال الدين والدنيا معاً .

وبذلك لم يكن مادحاً لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضاً داعية لمبادئ الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعر ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه في حركاته وسكناته ، وإن سار كان في ركابه ، على نحو ما نراه معه في فضحه ليجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وله في حصار عبد المؤمن لما جيمية يقول في مطلعها مخاطباً حاكمها الحمادي يحيى بن العزيز :

كوديرا (رقم ١٠٥٥ والطرب لابن دحية ص ١٩٩
والن بالامنة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت)
ص ٧١ والواقي بالأدب العربي في المغرب الأقصى
للأستاذ ابن تايوت ٩١/١ - ١١٥ والبرغ الغري
للأستاذ كعون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

(١) انظر في ترجمة ابن حُبوس وأشعاره الفيل والفكيلة
لابن عبد الملك المراكشي ٢٩٣/١/٨ ، وزيد المسافر
لصفوان ونظم الجمان لابن التطان تحقيق د . محسود
سكي (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمحبب للمراكشي
(طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والفكيلة لابن الأبار (طبعة

شُدَّتْ إِلَيْكَ عَلَى الرِّيحِ سُرُجٌ آمِنَ الْفِرْلِ بِأَهْلِكُمْ يَا جُوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عَصَفْتُ بِدَعْوَتِكَ الرِّيحَ الْمَوْجُ وَسَطًا بِأَمْرِكَ ذَلِيلٌ وَوَشِيجٌ^(١)
وَتَقَدَّسَتْكَ إِلَى الْعَدُوِّ مَهَابَةٌ يَشْفَى بِهَا فِي سُدِّهِ مَاجُوجُ

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء في سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وقهما مفسدون في الأرض وأن قومهم لجنو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلُّ شأنه : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَا جُوجُ مَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وكان إفسادا كبيرا خلُّ بجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الدميم ، ويسمى الشاعر بحمى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بجاية ، ويعود إلى عاصمته مراكش ، ويستقبل في شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراكش ، ويمتدحه ابن حبّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

| | |
|------------------------------------|-----------------------------------|
| سِشْكِرَ الْمَصْحَفُ إِكْبَالَكُمْ | عليه إذ أوجده الْفَقْدُ |
| مصحف ذى النورين عثمان ما | كان لكم عن صونه بُدُ |
| ما اختار شيئا موتًا غيره | حين أتى - واقترب - الوَعْدُ |
| أوسعتم الدنيا أطراحًا وما | كان لكم إلا به وَجْدُ |
| يمحو عليه العطف منكم ولا | يُبَيِّهه الْإِشْفَاقُ وَالسُّودُ |
| ألبسوه حِلَّةً لم يكن | يسمح للكف بها السَّرْدُ |

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراكش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذته مؤسسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإيكم لتشفقون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مدح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبّوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدنّى المصحف وتخليتها بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهديّة وطرابلس واستنكث

(١) ذليل : سيف . وشيج : رح .

أهلها بعد المؤمن فللهم بجيش جرار قلم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهدي سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهتته ابن حبوس بفتح المهدي مقارنا في مطلعها بين المهدي العبيدي الذي بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذي خلصها من النورمان :

بطالع الأسد اختط البناء بها لكنك الأسد الدامي الأظافر

ويقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهدي سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م فارق ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فأس فاستوطنها » ويدور أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله في إحدى مدائحه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ أَضَاءَ الـ زَمَانُ بَنُورِ عَدْلِكَ وَاسْتَنَارَا
لَكُمْ شَرْقًا الْبِلَادُ وَمَغْرِبًا وَأَمْرُكُمْ مَعَ الْفَلَكَ اسْتَدَارَا
وَمَنْ قَدْ فُرِّعَكُمْ مِنْ عَدُوٍّ فَتَحَوْكُمْ إِذَا يَبْنَى الْفَرَارَا
وَأَسْرَ خَوْفُكُمْ أَعْلَامَ رَضْوَى لَمَّا سَكَنْتَ وَلَا وَجَدْتَ قَرَارَا

والمبالغة واضحة في الأبيات ، فالملك يجرى طوع أمره ، ومن فر عنكم لابد أن يفر إليكم إذ تملكون عليه جميع مسالكة ، وحتى لو خوف عبد المؤمن جبال رضى الراسخة في المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب حق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبهه بلبن هاتئ في مدح المزع الفاطمي وما يضمنه من تهويلات وتمقعات . ونراه يرافق عبد المؤمن في أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرقا جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفي مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله في قصيدته :

بَلِّغِ الزَّمَانَ بِهَيْبِكُمْ مَا أُمِّلَا وَتَعْلَمْتُ أَبَاسُهُ أَنْ تَعْدِلَا
وَبِحَبِّهِ أَنْ كَانَ شَيْئًا قَبْلًا وَجَدَ الْهَدَايَةَ صُورَةً فَتَشَكَّلَا
وَلَأَنْتُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُفْتَرَى فِيهِ وَلَيْسَ بِجَائِزٍ أَنْ يُجْهَلَا
وَلَأَنْتُمْ سِرُّ الْإِلَهِ وَأَمْرُكُمْ مَلَأَ الْعَوَالِمَ مَجْمَلًا وَمَفْصَلَا
عَزَلْتُ وَلَاةَ الْحَيْسُ عَنْ إِدْرَاكِهِ فَهُوَ الْمَتَرُ حَسْبُهُ أَنْ يَعْقِلَا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر ومدروحه وسمعناه لظننا أنه ابن هاتئ بمدح المزع الفاطمي لدأيت للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وأنه للحق الذي لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وأنه ليعز على الحس أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة في دعوة الموحدين والزهدي والتمسك به ، وفيها هاجم الفلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بدعية في الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م .

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، وبها منشؤه ومرياه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثه ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة لى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نالها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة بحث فيها الأعراب الحلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطت بنفايات الغلا والمفاسخ على قدم الدنيا هلال بن عامر

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهناه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصر بكل سعادة مقرون نالت به الدنيا لنا والدين

ويفتح عبد المؤمن المهدية مستردا لها من أيدي النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طويلا ، ويهته الجراوى بتائية يقول فيها :

هنا إمام الهدى فالمدل منبسط والدين منتظم والكفر أشتات

ويتنصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتاب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحصى بلقون ، ويهته الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليت دين الواحد القهار بالمشرقة والقنا الخطار^(٢)

لوراء موسى ما فعلت وطارق زرتما بما لهما من الأنار^(٣)

أتممت ما قد أمّلوه فقاتهم من نصر دين الواحد القهار

بجرباب خيل فوقهن أعارب من كل مقتحم على الأخطار

وهو يبالغ بمبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زباد فانغى الأندلس العظمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الحلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الخطى لديه ، وكان لا يرح مجلسه ،

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢٧ ، ١٣٦ وزاد السافر والقصص الياقوتة والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الرافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ١١٦/١ ومبعدها والبرق الغربى ١٧٩/١ ،

٢٢/٣ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) التناخطار : الرياح شديدة الطعن . المشرقة : السيف .

(٣) راه : رأى .

وزراه في ركبته حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازل محمد بن سعد بن مردنيش ، ونزله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فباع لبناؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجراوي يمدحه في هذه الأثناء بقصيدتين يقول في إحداها مشيراً إلى المتبردين عليه :

تَسَالُ المَارِقُونَ بِكُلِّ أَرْضٍ وَلَا طَارَتْ - وَلَا نَقَلَتْ - خَطَاها
ويقول في الثانية :

لو كانت الجوزاء من أعدائِهِ لَمْ تَنْجُ مِنْ غَارَاتِهِ الْجُوزَاءُ
وكانت آخر معارك جيش الموحدين في الأندلس لمهد يوسف معركة البيوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر لحليف للموحدين ووقف الجراوي بين يدي يوسف بنشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عَنْ أَمْرِكُمْ بِتَصَرُّفِ الثَّقَلَانِ وَبِتَصَرُّفِكُمْ بِتَعَاتِبِ الْمُلُوكِ^(١)
وَبِمَا يَسُوءُ عَدُوَّكُمْ وَيَسُرُّكُمْ تَحْرُكُ الْأَفْلاكُ فِي الدُّورَانِ
جَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَنَهَضْتُمْ بِحِمَايَةِ الْإِيمَانِ
وَتَرَكْتُمْ أَرْضَ الْعِدَى وَقُلُوبَهُمْ فِي غَايَةِ الرَّجْفَانِ وَالْخَفْقَانِ
وَزَغَاهُمْ الدِّينَ الْحَنِيفِيَّ الَّذِي كَيْبَ الظُّهُورُ لَهُ عَلَى الْأَدِيمَانِ

والبيتان الأولان من نوع مقالة ابن هاتمي في الميز الفاطمي ومدح ابن حيوس في عيد المؤمن مما مررنا وأشرنا إليه . وهو يصفى على يعقوب - كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن - غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانية في بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قصعة جنوبي إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفي سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربي الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهناك الشراء بهذا النصر المين ، وقشده الجراوي قصيدة يقول فيها :

إِبَابُ الْإِمَامِ حَيَّةُ الْأَمَمِ تَسَوَّلَى السُّرُورُ بِهِ وَتَنْظُمُ
وَجَادَ بِهِ الْأَرْضَ صَوْبَ الْحَيَا وَجَلَى الظُّلَامُ بِهِ بَنَرُ نَمِرِ^(٢)
فَشَكَرَا لَخَيْلٍ وَفَلَكَ ذَنْتَ بِمُتَأَمِّلِ الظُّلَمِ مَاحِي الظُّلَمِ
إِذَا حُلِّ فِي بَلَدِي أَمْرَعَتْ فطاب جَنَاهَا وَفَاحَ الْمَشَمِ^(٣)
وَقَامَ بِأَنْطَارِهَا عَدْلُهُ وَصَوَّبَ نَدَاهُ مَقَامَ الدَّيَمِ^(٤)
سَلَّ الدُّعْرَ عَنْ بَطْشِهِ بِالْعِدَا نَجِبَ مِنْ وَرَلِهِ الدُّرُوبِ الْعَجَمِ

(٢) أَمْرَعَتْ: أُنصبت. جَنَاهَا: ثمرها. الْمَشَم: الشمل.
(٣) نَدَاهُ: كرمه. الدَّم جمع ديمة: المطر يطول في سكون.

(١) الثَّقَلَان: الإنس والجن. الْمُلُوك: القبل والنهار.
(٢) صَوْبُ الْحَيَا: تمسك بالثبات. بَنَرَم: يهرم في الكهولة.

ولباب بمقوب - فى رأى الجراوى - ليس حياة لشبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يهود الأرض غيث منهم ، وبضياء الظلام بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا متناصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلام بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب ويضوح شذاها حين يحل فيها ، ويتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه وبعمم الكرم الفياض . وسل للدهر عن قهره للأعداء تجبك من وراء الدروب جموع إسبانيا مترجمة عما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإيبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ م / ١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن مقوب يعد لمحنة كبرى لاستغفر فيها المغاربة وأعراب الملالية وأهل الأندلس فاستصرخ البلبا وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلة . وسحق جيش مقوب تلك الجموع سحقاً ذريما ، وفر ألفونس على وجهه لا يلقى حتى طليلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشراء بها ويطلها بمقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولاهما :

| | |
|---------------------------------|---|
| هو الفتح أعيا وصفه الظنم والنرا | وعمت جميع المسلمين به البشرى |
| وتجدة فى الدنيا وغار حديثه | فراقت به حسنا وطلبت به نشر ^(١) |
| تميز بالأخجال والغرر التى | أقل سناها يهجر الشمس والبدر ^(٢) |
| لقد أورد الأذفونش شبحه الردى | وسانهم جهلا إلى البطشة الكبرى ^(٣) |
| حكى فعل يليس بأصلحه الألى | تبرأ منهم حين أوردهم بئرا |
| فدارت رضى الهيجا عليهم فأصبحوا | هنيئا طحينا فى مهب الصبا يذرى ^(٤) |
| يطير بأشلاء لمس كل قشعر | فما شئت من نسر غدا بطنه قبر ^(٥) |
| يؤمن الإمام الصالح المصلح الرضا | نضا سيفه الإسلام فاستأصل الكفر ^(٦) |

والجراوى يقول إنه فتح أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت نباشيره الدنيا بهضابها وسهرها فازدلت به حسنا وطلبت نشرها وعطرا ، وإنه لفتح عجلى أغر يهر ضوءه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليلة أقصاره مورد الردى والملاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقه قريش يوم بدر ، إذ دارت رضى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبت منهم الضباغ والسباع ، وغدت بطون النور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك يمين طالع

(١) أنجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشرأ : راحة عطية .
(٢) الأحجال : يابس فى السنان . الغرر : يابس فى الجباد .
(٣) الردى : الملاك .
(٤) الهيجا : الحرب . بئرى : بئر فى الهواء .
(٥) قشعر : نرسن .
(٦) نضا : سل .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا الرضى الذى سلَّ الإسلام سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه بقية .

وتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هَيَّ يِعَّةً أَحِبَّاءَ إِلَهِهَا الْوَرَى وَحَمًا بِهَا دِينَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى

وهو دائماً يردُّد فيه وفى آياته أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشعرون فيها من العدل والكرم القياض ، ودائماً يردُّد أنهم حماة الدين الخفيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على ميروقة من يد ابن غانية فيهنه بقصيدة مطلعها :

لَكَ النَّصْرُ حَرْبٌ وَالْمَقَادِيرُ أَعْوَانُ فَحَسْبُ أَعَادِكَ اتَّقِيَاذَ وَإِذْعَانُ

كما يهنه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م .

ابن عبد^(١) المنان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكاس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المرىنى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م - ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م) فاتخذته كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلطين : ففى بكر السعيد لمدة عام فعمه ففى سالم إبراهيم بن ففى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م ففى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م ولبنه ففى زيان سنة ٧٧٤ ففى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م . ونوره به ويشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاروت من وصف تلميذه ابن جابر الغسانى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأحفل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمرابا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان ففى عنان ، ونزله حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

القاضى ١٢٤/١ وأبضا درة المجال ٥٣/١ والنبوغ
المفرى ٢٣٨/١ ١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ ، والوفى
بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

(١) انظر فى ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نشر
فرائد الجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص ٣٤٨
وجذوة الاقتباس فمن خلَّ من الأعلام مدينة قاس لابن

ملكُ ملوك الأرض أوحدها الذي
غمَامُ التَّدَى المطَّالِ والجوُّ أغبرُ
إذا ما تراءى البدرُ يومًا ووجهه
لممرى لقد زنتِ الخلافة فاعدت
. وراقت بك الدنيا جمالاً وبهجة
وهشت عيْدَ النُّحْمِ والفتحِ إبه
بقيت لدين الله رِذْءًا وعصمة
به عَلتِ العلياء واتخر الفخرُ
وليثُ الفِذا والبيضُ قاتية حُمرُ
تَحيرت الأبصارُ أَيْهَمَا البدرُ
يقصر عن أوصافها النظمُ والثر
فاظلامها صَبَحٌ وإصباحها بَشَرُ
لك العيدُ منه والعدا لهم النحرُ
فما غيرَ عَلَيَاك الزمانُ له دُخْرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذي سمى به العلياء واتخر الفخر ، إبه غمام الكرم
المنهمر في الأيام المجدبة ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القلبي . وحين يطلع على
الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مدح
شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لما . وحسنت بك الدنيا وزدات حتى غدا ظلامها صبحا وصبحها
طيا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو
له أن يظل معيناً وعصمة للدين الخفيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيما . وفي إحدى مدائحه
يصف الساعة التي نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بناس . وأهم منها قصيدته التي مدحه
بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعقدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينال الأسد
ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مختال في أكرة مستديرة من خشب
معدة لذلك بمحركها شخص في وسطها ، وفي يمينه حديدة يطن بها الأسد حين يهجم عليه
طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المختال ، فتدور به مع الأكرة وتجهز
عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد في الفلاة وإحضاره للمنازلة
الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المفصولات منذ منشئها ابن دريد ،
وخاصة في وصفه للثور والأسد والمختال وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر
بعض ألياته في المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

وسدربُ الروّتين أصفرُ فاتحُ
ما زال يدعو للزال أمانة
ولقد أراه مكان مضرعهِ وقد
وعدا له والظنُّ بقضى أن يُسرى
جالت عليه صدمةٌ من حارثٍ
راق السواظر نضرةٌ لما بدّ^(١)
ولقد أشار بظلفِهِ لما دعا^(٢)
أومى بساحِ القصرِ ينكتُ في الثرى^(٣)
وقد اعتلّاه فكان عكسا ما قضى
تسبك صدمةٌ حارثٍ يوم الوغى^(٤)

(١) ينكت : ينفذ الفري بمخافه .

(٢) حارث : من أسماء الأسد - الوغى : الحرب .

(١) الروّتين : الثورين .

(٢) أمانة : من أسماء الأسد وقتلته .

أعجب بها من صدمة قد عفرت^(١) يَدَ الإِهْزِيمِ وأوهنت^(٢) منه القوى^(٣)

وهو يشيد بقرنى الثور المدبرين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للزوال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سُبْحَرُغَ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أمى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تسليك صدمة البطل حارث يوم الحرب الصارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدها يَدَ الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيته . ويعرض علينا نزال المقاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

| | |
|--|---|
| وَضَارِمٌ رَحْبُ اللَّيْلِ نَقْلُهُ | صُهْبٌ مَتِينٌ خَلَقَهَا عَجَلُ الشَّوَى ^(١) |
| يَفْتَرُ عَنْ نَابٍ كَأَطْرَافِ الْقَنَا | بَيْضًا وَيَنْضُو مِخْلَبًا حَادًّا الشَّبَا ^(٢) |
| وَمُخَاتَلُهُ فِي جَوْفِ دَائِرَةِ طَوْتٍ | أَضْلَاعُهَا مِنْهُ عَلَى شَهْمٍ قَتَى |
| يَحْكِي بِهَا رَأً أَبْيَضَ سَبَبٍ | لَمْ تَفْرَجْ عَنْهُ فَتَقْذَهَا كَوَى ^(٣) |
| يَمْشِي الْمُوَهَّبِيَّ وَسَطَهَا فَتَقْلُهُ | غَذَرَا وَمَا إِنْ تَشْتَكِي أَلَمَ الْوَجَى ^(٤) |
| حَسِبَ الْفَضْفَضُ مَرْتَفَاعَهَا كَمَةً | فَدَنَّا يَطِيلُ بِهَا الطَّوْفُ وَتَدَسَّى ^(٥) |
| أَسَى صَرِيحًا وَالدَّمَاءُ سِلَافَةً | أَتَرَاهُ سَكْرًا مَالٍ مِنْ تِلْكَ الطَّلَا ^(٦) |

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفترق منه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مخلبا حادّ الشبّة كأطراف السيوف وأسلها الفاتك . وينازله فى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فتقذ بها كوى وتقوبا - ويظل يمشى بها فى نزوة - وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كمة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويعلق بحديدة فتأها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمايته . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لحذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

(١) الرّأى : ولد النعام . السبب : القفلة .

(٢) نقلة : تحمله . الوجى : العرج .

(٣) الفضض : من أسماء الأسد .

(٤) الطلا : الخمر .

(١) المزهر : أيضا من أسماء الأسد .

(٢) ضارم : من أسماء الأسد - رحب اللان : واسع

الصدر . عجل الشوى : مفتول الأطراف .

(٣) ينضو : يسلك . الشبا : الطرف .

هو محمد بن علي الموزالي شارح ديوان المتنبي الملقب بالنبغة ، ترجم المقرئ في كتابه « روضة الآسر » لأبيه علي وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة القاسية وبنت بيت صلاح ودين ، وقُشد نبذة من أشعاره ، وكنيته ورث ابنه عمدا الشعر ، وقد أُكِبَ في شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتهما المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم النائر نلبغة زمناه ، أخذ عن أبي العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضي سكاتنة » وذكره عبد العزيز القشتالي في كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضي شاعر الدولة مفتي الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجي في مقامته التي عرف فيها بأدباء عصره : « أخو علقمة وليد ، وذو المقول المحيي المبد ، جزائه في وصف المهامه والقفار وذكر الرُخِّ والتمار ، وعلى ذلك فرعه في المدح مقوم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبي) وحبيب (أبي تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة علي في الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهل الفحل وليد أحد شعراء الملققات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفياثي والقفار ، ورعه لذلك في الشعر رخ متين لا يقصر فيه عن شاعري العصر العباسي الكبيرين المتنبي وحبيب . وجمهور شعره في مدح المنصور ، ويستعمله بوصف بطولته في واقعة وادي المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التي مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف - فيما يقال - فسحقهم جيشه المغربي بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور في المعركة وهو يصول ويجول مجنحاً للبرتغاليين ومنظماً لكائب جيشه قائلاً :

وقد سَقَرَتْ بين الكُماة المداعس^(٢)
كما رُئِسَ المرجانُ في السلك رابِس^(٣)
بها الشُّركُ حتى آخَر الدهر ناعس^(٤)
عبيدُ القَصَا ما ناسٍ في الأرض ناس^(٥)
يرمئهم صُلْبُهم والكتائبُ
تفخرس في الأديار تلك النواقر^(٦)

لعمرك لا أنساه يوماً شَهِدته
يرمئس للإقدام كل كَيِّفَة
وحسبك في وادي المخازن وقعة
بها عرفتُ أبناءَ عِصرِ بَلْهَم
فدناؤا له حتى توقعَ بطشه
فلا زالت التلثُ تُفَرِّغُ باسمه

(٢) الكُماة : الشجعان . للمداعس جمع مدعس . الفرج

العليل الحاد

(٣) يرئس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عِصر : يرمد البرتغاليين . عيد العسا :

مسترقون نزلوا . ناس : متحرك .

(٥) التلث : يرمد عتيدة التلث عند النصارى .

(١) انظر في ترجمة الموزالي وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضي ٢٣٣/٢ وكتابه المتنبي ص ٦٧٢ وما بعدها والمناهل للقشتالي نشر كون في صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والنبوغ المغربي لكون ٢٦٣/١ و٢٢٣/٣ والرواني لابن تاروت ٦٥٥/٣ ، ٦٧١/٣ والحركة الفكرية في عهد السعديين لحجي ٤٠٨/٢ .

واللهو زالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجّد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

| | |
|---|---|
| لَمْ يَأَلُ بِسَيْتَانُ فِي اسْتِصْرَاعِهِ | صَهَبَ الْأَعَاجِمُ مِنْ بِلَادِ شُشُرٍ ^(١) |
| فَنَجَّشُمُوا الْبَحْرَ الْمَحِيطَ وَمَا دَرَزُوا | بِمَحِيطٍ بِحَمِيرٍ مِنْ عَوَالِ شُرُوعٍ ^(٢) |
| وَكُتَّابٌ حَقَّقَتْهُ مَنُصُورِيَّةٌ | تَفَادَ بِالْأَسَدِ الْغَضَابَ الْجَوْعَ |
| صَبَّتْ عَلَى الْكُفَّارِ - صَبًّا - عَارِضًا | هَاطِلًا وَلَكِنْ بِالْأُسُومِ النَّفْعِ ^(٣) |
| فَرَكَنَ عِبَادَ الْمَسِيحِ كَثَمَهُمْ | أَعْجَازُ نَخْلٍ بِالسِّيُولِ مَفْلَعِ |
| لَا زَلَّتْ فِي أَفْسَقِ الْخِلَافَةِ نِيرًا | نَخْتَالُ بَيْنَ كَوَاكِبِ لَكَ خُضْعِ |

واللهو زالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولئوّه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شُرُوعٍ مسدّدة ، تحفه كتاب المنصور بقودها أُنْدَ غَضَابِ جَوْعٍ تريد أن تقضمهم قضما ، صَبَّتْ عليهم سحبا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناقما قتالا ، وإن ساحة الحرب لتتلى بقتل عِبَادِ الْمَسِيحِ ، وكَثَمَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحفّ به الكواكب من قواده وكِثَمِهِ . وبعد هذه الموقعة بانتهى عشرة سنة عام ٦٩٨ هـ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مرّ بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهد ، وبهتّى اللهو زالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتابه :

| | |
|--|--|
| غَدَتْ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزَّوَامُ بِحَوْطِهَا | وَبِكُنْفِهَا يُنَسِّنُ بِشَيْعِهِ نَصْرُ ^(١) |
| فَحَلَّتْ بِأَرْضِ السُّودِ لَمْ يَنْ عَزَمَهَا | مِهَالِكُ صَدٍّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذَّعْرُ |
| لَقَدْ ذَكَرَ الْحَبْشَانُ مِنْ وَقْعِهَا بِهِمْ | وَقِيعَةُ يَوْمِ الْفِيلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ |
| هِنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى | عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاكَ أَسْبَافُكَ الْبُتْرِ ^(٢) |
| وَذَمَّ لِفَتْحِهِ يُنْتَحَتُ لَيْلُهَا | إِلَى كُلِّ قَطْرِ مَكَ ذُو لَجِبٍ مَجْرُ ^(٣) |

وهو يصور الكتاب تحمل الموت الزوام بحوطها وهو يصور الكتاب تحمل الموت الزوام السريع بحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكتها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكمبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل حين وجهها أبرهة إلى مكة والكمبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل

- | | |
|---|-------------------------------------|
| (١) بستيان : سلبتيان : ملك البرتغاليين . | (٤) الموت الزوام : العاجل السريع . |
| (٢) عوال : رماح . شرع : مسددة . | (٥) البتر : الحادة الناطقة . |
| (٣) عارضا : سحبا . السوم النفع : الهلكة . | (٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج . |

عليهم قضاء مرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . وبهتّى المنصور بقتصار كُماته وفرساته ، ويدعو له أن تدرم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الهوزال حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غزء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بهتته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٤ م .

أحمد^(١) بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بلبن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراکش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كتابه : « المتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائمة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زروق ولم يكف بذلك ، فقد ألف لخزنته كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثمانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والمهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م وكما كان

وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى دراسته له التى عدم بها تحقيقه للمتقى ونظر الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأئتماره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر التامى ٢١٣/١ وصفوة من انشر ص ٧٧ وساهل الصفا للفشتالى بتحقيق كون

عالمًا بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبي بكثير من شعره منذ أن كان في الأسر ،
إذ أرسل إليه قصيدة حيثذ ، يستطفه بها لتخليصه من أسرهِ ، وفيها يقول :

بمَنى الذى أولاك ملكا فَجَنَى من المَلِك يا قَصدَ الأسير المَكِيل
وكنْ يا إمامَ العدل فى عونِ خاتمِ نسيرِ كسيرِ دى جناحِ مَذَل

ومنذ عاد ابن القاضي إلى حضرة المنصور الذهبي ، وهو يلزمه ويقدم له مداحه فى كل
نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تروح ذاكرة البرتغاليين وكانوا
لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا
أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، قرأوا أن ينسحبوا
منها ويتركوها للمنصور . وبهنته ابن القاضي بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن
يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| يا أيها المنصورُ بُشِّرْ بالعلا | اللَّهُ بُلغْ فى العِدا المأولا |
| أُضاحكمُ سيفا لُحُف عِدائِهِ | وبكم غدا سيفُ الرُدى مفلولا |
| وهزمتُ الشُرك المَين بعزمكم | من غير ما سيفُ يُرى مسلولا |
| وأذنتُ كَيْدَ الخيِث مَهابةً | وفتحتمُ آرامه أصيلا |
| وغدت من ناقوس صِفرا بَلَقَمًا | يُنلَى بها قرَنُنا ترتيلا |
| بُشِّرْ لولاءِ الفتح معنودَ لكم | واشكرْ إلهك بُكْرَةً وأصيلا |

وهو يشير المنصور بمعال لا تنتهى ، فإله حافظه ويلبغه فى عِداه كل ما يأمل من نصر
وفتح ، وقد منحكم سيفا لُحُف الأعداء ، وفَلَّ لكم سيف الردى والملاك فهزمتُ الشُرك
بعزمكم دون سيف سَلتَموه ، وذاب كيد الخيِث الصليبي مهابةً ، ففتحتم عقر داره : أصيلا
وأصبحتُ خلاء من ناقوس النصارى ترتلُ فيها آى القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم
فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، وبهنته بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها يشد :

| | |
|------------------------------------|--------------------------------|
| بشراك بِالْفَتَح المين المتاح | قَطَفْتَه بين القنسا والصُفاح |
| وَلِيَهْنَكِ النَّصْر الذى حُرِنَة | دون الملوك فى مغنى الكفاح |
| واسمَعْدُ فقد دانت ملوك الورى | لما رَأَتْ فى الانقياد النجاح |
| والطاهرُ المنصور من هاشم | واسطةُ العقد وبِحَرِ السباح |
| رُجِبَتْ بلادُ السود من جُنْدِهِ | واثْبَحَتْ بالسيف أَى افتاح |
| فَنَحَّ مِينَ هو تاريخُه | ينمو على الأرض مدينة الجناح |
| لا زالتِ الأقطارُ تَعنو لكم | من سَعْدكم طسولُ المذا تُنْباح |

وهو يهنيء المنصور بالنصر الذى قطنه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإته لحرى أن يسعد فقد دلت له الملوك وألفت له عن يد صاغرة ، وإته للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيت النبوى ، وإته لجوهرة العمد الفريدة وبحر السباح وغيثه المدرار ، وإته لفتح سبيل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأفطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده . العظيم الذى لا يحد . وقد أشار فى الآيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائحهم مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبحَ ثابتَ الأسرِ بلبنِ النسيِّ الطاهرِ الأنفلسِ
يروى أحاديثَ العلا عن مُرتلٍ طهرتْ خللاته من الأندلسِ

وكانت الأسرة السعدية تنسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يديء فى هذا النسب الشريف ويبعد منها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى^(١)

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومروا بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والداكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وعلاياها ما يكفيهم من مئونة . وأنها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتخلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحف به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى مواقفه العلمية وجهاده نصرة للمدين الحنيف ، ويصوره زعيما دينا أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى الفنايل المتبذبة إذ تستجيب له مذعة مستشعة له الولاء ، ولدعاته الذين يهنونهم عن اقتراف الآثام والثوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لمبد الحواد السفاد طبع الرباط ، وراجع فى الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجي عنها (طبع الرباط) .

يا أَلِمْ الحِلماءَ أَحْزَمَهُمْ إِذَا مَا الرَّأْيُ رُدُّ إِلَى مَشُورَةِ حَازِمٍ
صَلَّ وَأَغْلَطَنَّ فِي اللَّهِ وَاسْطُ مَجَاهِدًا بِحَسَامِ عَزَمَكَ ذِي الذُّوَابِ الْحَاسِمِ
وَاقْطَعْ جِبَالَ خِبَالِ كُلِّ مَعَارِضٍ وَمَعَانِدٍ لِلْحَقِّ غَيْرِ مَوَاتِمِ
فَالَامِ تَبْرَحْ فِي الضَّلَالِ قِبَالُ مَنْ عَزَبَ مَغْرِبًا سُدَى وَأَعْجَامِ
وَالِ سِيَادَتِكَ السَّنَةِ يَتَهَى نَصْحُ الْوَرَى وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ عَالِمِ
وَالدِّينُ أَنْتَ إِمَامُهُ وَرِيسُهُ وَالذَّهْرُ عَبْدُكَ وَهُوَ أَطْسُوعُ خَادِمِ

والدغوى يصور محمد بن أبي بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدّة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتنظ في الدعوة لله وتقهر خصومها بحسام عزمك الحاد وتلفض على كل معارض لك ومعاند للحق لا بدعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التي لا ترح مهالك الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التي لا يصلها دعائه ، وينزه ببيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار في الصحراء أبو الحسن السملالي وعاث فيها فسادا ، ففرغ إليه كبراؤها وسادتها يستجدون به لإحباط ثورته ، ففكر في جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعائه السملالي وحقت الدماء ، فأنشده الدغوى قصيدة منها بصنيحه ، وفيها يقول :

كَمْ وَلَدَةٍ لَوْلَاكُمْ فِي بَلَدَةٍ يَحْتَمُ وَغُودَرِ الْوَاطِنِ عَائِيَّةُ
وَلَكُمْ بِكُمْ عَمَرْتُ مَوَاطِنُ طَلَالَا أَقَوْتُ وَتَأَلَّفَهَا الذَّنَابُ الْعَاوِيَّةُ
هَذَا لِسَانُ الْحَقِّ يَنْشُدُ إِيمَا شَمْسُ الْهَدَى لِلْمُهْتَدِينَ دِلَالِيهِ
بِكَرْيَةِ الْأَبْرَاجِ مَشْرِقُ سَعْدَهَا بِمُحَمَّدِي الرُّشْدَ غَرَبًا بَاقِيَّةُ
وَلَعَلِمِهِ وَلِحَلْمِهِ وَلِحُكْمِهِ حِكْمُ تَفُوقِ الْحَصْرِ لَا مَتَاهِيهِ

وهو يصف محمد بن أبي بكر الدلائي بأنه دائما يحمي الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتسّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُفقر في عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلالية المواطن بكريّة الأبراج ، مشرقها دائما في المغرب أو الغرب بمحمد بن أبي بكر ، وينزه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمال تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينزه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بثل قوله :

يَا مَنْ إِذَا تَرَبَّثَ بِمَعْنَى كَانَ لِي نَشَرْتُ نَاهٍ غَنِيٌّ فَلَسْتُ أَعْوَلُ^(١)
مَا الْمَالُ مِنْ أَمَلٍ إِلَيْكَ أُمَانِي حَسْبِي رِضَاكَ فَهَلْ إِلَيْهِ وَصُولُ
فَرَضَاكَ كُلُّ غَنِيمَةٍ فِي ضَمِينِهِ حَتَّى الثَّرَاءُ بِهِ رِضَاكَ كَفِيلُ

(١) أعول : أفقر .

ولقد أفادني الفصاحة جودكم وثنا امرؤ خصر اللسان كليل
فعمزت عن نظري بحسن كمالكم وكذا سوى فما عاه يقول

والقطعة تصوره مریدا وتلميذا لشيوخه محمد بن أبي بكر ، وثمة ليشعر في عمق حين يحول
ويفتقر أن شاء على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلم أنه يمدحه لا لمطايه ، وإنما
طلباً لرضاه ، فراضه كل ما يريد من غنمه ، وثمة ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلم أن
جود ابن أبي بكر هو الذي حل عقدة لسته وكان غنياً قليلاً فأصبح فصيحاً ، ومع ذلك فثمة
يعجز عن بيان كمال أستاذة ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصوره . وكان ابن أبي بكر
يختم صحيح البخاري مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشد الشعراء مدائح مختلفة ،
وينشد الدوغري في أحد احتفالاته :

نال البخاري منه سبحا وغوصاً مرانة
فناى في السبح عنه وقام غوصاً مقانة
أكرم بسوق بديع للمكرمات أقامه
فيه الناء عليه وثقاً إذا الغير سانة
فجوهراً الفضل فرد ثلئى المال اتسامه

وهو يقول إن صحيح البخاري حظي منه بسبح في أحاديثه وغوص ما يماثلها سبح
وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقاً عظيمة ، جعلت الناء وثقاً عليه دون غيره ممن قد
يتبعه ، إذ جوهراً الفضل فرد ، وثلئى المال أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو
كان الدوغري شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعناني^(١)

هو عبد الواحد بن محمد البوعناني مفتي فاس في عهد المولى إسماعيل العلوي
(١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفي
عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستمادت البلاد ذكرى واقعة وادى
المخازن ضد البرتغاليين في أوائل العهد السعدي إذ آذن المحتلين الأوروبيين للبلدان المغربية
بحرب تسمق ضلوعهم سحقاً . وأخذت تلك البلاد تسقط في حجره وحجر المغاربة واحدة
تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها - كما تقدم - المهدية سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨١ م وتلتها
طنجة سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م ثم حاز المراتش سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م واستدار العام
فحاز أصيلاً ، وكان حرباً أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسة وملحمية كثيرة . وربما

(١) انظر في البوعناني وصيدته كتاب الواني بالأدب
العربي في المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والبوغ المغربي

كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعلتى بشيد فيها بنتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتحها بقوله :

ألا بُشِّرْ بهذا الفتحُ نورُ
وطيرُ الشَّد نادى حيث غنى
وقد وافتكمُ الخيراتُ طرًا
وجاهدتُمُ وفاتلتُم فتنم
وأطلعت صوارمكم نجومًا
وَأنت البدرُ يوم السُّلم حُنا
قد انتظمت بعزمكمُ الأمورُ
قد اشرحتُ بفتحكمُ الصدورُ
وطابَ العيشُ واتصل السرورُ
لديسن الله أقمارَ تَبيرُ
لدى هيجاءِ صاحبها كُفورُ
وفى يوم الوغى الأسدُ المصورُ^(١)

والشاعر فرح بهذا الفتح المين ، حتى ليراه نورا يغمر سناه البلاد والعباد ، وكل شيء من حوله فرح ، فالطير تنغى ، وقد اشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أُنقال كانت تعاني منها عناء شديدا ، وأى أُنقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّت إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور يفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتهم لدين الله الحنيف ، وكنتكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنا سيفكم نجوم تحف بكم ، وللك لبدر المنير فى السلم حسنا وفى الحرب الأسد المصور ، وبمضى منشدا :

وفى ثغر العرائش قد تبدى
فهرتهمُ بأبطال عظام
وكم رأسٍ من الكفار أُمسى
وكم أسرى وكم قَتلى بأرض
تمرُّ بها الطيورُ فتتقيها
وأضحى الناسُ كلُّهمُ نشاوى
لقدركمُ على الشُّغرى الظهورُ
على الميجاء كلُّهمُ جَسورُ
فطيحَ الرأسُ مجرورا بِخور^(٢)
وكم جَرَحَى دماؤهمُ نفور^(٣)
وبات الذئب وهو لها شكور
على طربٍ وما شربَتْ خمورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واضحا لقدركم فى ثغر العرائش النصر المين ، فقد فهرتم العدو بالمغارة الأبطال عن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسر على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أُمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخط فى دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحصى سوى الجرحى ودماتهم المتدفقة ، ولكنتك أقيمت للطير مأدبة تتخير منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهى تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

(١) المصور : المنقرى .
(٢) رأس : يرعد رئيسا - يخور : يصيح .
(٣) نفور : تندفق .

نشأوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاتوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر
فرحا وسرورا . ويقول :

فَبُشِّرَاكُم بِهَذَا الْفَتْحِ نَوْرٌ وَبُشِّرَاكُم بِمَا مِنْ الْغُفُورِ
بِهِ زَادَتْ مَآثِرُكُمْ عَلَواً وَقَدْ عَظُمَتْ بِهِ لَكُمْ الْأَجُورُ
أَلَا يَا أَهْلَ سِنَةِ قَدْ أَنَاكُمْ بِسِيفِ اللَّهِ سُلْطَانٍ وَقُورُ
إِذَا مَا جَاءَ سِنَةٌ فِي عَشَى تُزَفُّ لَهُ إِذَا كَانَ الْبُكُورُ
وَوَهْرَانٌ تَسَادَى كُلَّ يَوْمٍ مَتَى يَأْتِي الْإِمَامُ مَتَى يَزُورُ
فِيهِزَمْكُمْ وَيَقْتُلْكُمْ وَيَسْبِي وَسِيفُ الْحَقِّ فِي يَدِهِ يَنْوَرُ^(١)

وهو يشير المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور من عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأجسادكم
سما ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبنة لما تفتح ، فشر بها تهب في وجه الإسبان
مهدة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذي لا يفل أبداً ، وكأنا حين يأتيها مساء
تزعف إليه بكوراً منكلاً بالمختلين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه
صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذي لا يزال يضيء في يده ، ويختم قصيدته
بقوله :

أَيَا مَوْلَايَ قُمْ وَتَهَضَّ وَشَرَّ لَأَنْدَلُسٍ فَتَتْ لَهَا الْأَمِيرُ
وَجَاهِزْهُمْ وَحَارِزْهُمْ وَفَرِّقْ جَمُوعَهُمْ فَرِّكْهُمْ النَّصِيرُ
وَلَا يَمْنَعْ بِفَضْلِ اللَّهِ مِنْهَا كَمَا قَدْ قِيلَ بَرٌّ أَوْ بِحُورُ
بِقُرْطَبَةٍ تَسَالُ الْمَجْدَ طُرّاً وَيَأْتِي الْعِزَّ وَالْمَلِكُ الْكَبِيرُ

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعتبي حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحته
لا على أخذ سبنة وهران فحسب ، بل أبضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا
بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والمجاء

(أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربي القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حياً فيه على توالى العصور ،
والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعضيته
القلبية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زنباع

(١) بنور : يضيء ويبرر .

فى عصر الرباطين ، وهو يفتخر فى بعض غزله لصاحبه بأنه يمتنى من حمير ولهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأنهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحددين : ابن حُبوس شكل نصائح يوصى بها الشراء بل معاصريه جميعا أن يتمثلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله^(١) :

ردَّ الطَّرْقَ حتى توافى النِّمرا فربُّ عسيرٍ أتّاح اليِّسرا^(٢)
وأرسلَ قُلُوصَكَ طورا شمالا وطرورا جنوبا وطرورا دُبوراً^(٣)
وطيرٌ حيثُ أمت قوئى الجنا حرٌّ لا عذرٌ عندك أن لا تطيرا
ولا تَفْعَنُ وتُت السِّلْب ثم حيث تضاهى المهبطُ الكسيرا
وذو العجز يَرَضَعُ ثدياً حَذُوراً وذو العزم يَرَضَعُ ثدياً دُرُوراً^(٤)

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلا بد له من الماء ولا بد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تفتح على مصاربعها ، ولا بد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهبط الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرا ، وكأثما العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارأ له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السُّلَمى التوفى سنة ٦٠٤ للهجرة^(٥) :

نهائى جِلْمى فلا أظلمُ وعزُّ مكاتى فلا أظلمُ
ولابدُّ من حاسدٍ قلبه بنور مآثرنا مُظلمُ
رحمتُ حسودى على قته يقاسى العذاب وما يَرَحَمُ
هجلنا اقترأ ولسنا كما يقول ولكن كما يعلمُ

والقطعة ردُّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسجو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سجو المكاتة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجو اقترأ . وضمن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(٤) حدورا : شحيحا .

(٥) النبوغ للفري ٧١٨/٣ .

(١) النبوغ الفري ٧١٧/٣ والوافى ١١١/١ .

(٢) الطرق : الماء العكر . النمر : الماء الصافى .

(٣) الدبور : ربع تهب من الغرب . القلوص : الناقة .

ولكنه كما يعلم من منزله الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن علي الملقب رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي يعقوب المربني^(١) :

| | |
|---|-----------------------------|
| والفضل ما اشتملت عليه ثيلي | الزهر ما ضربت عليه قبلي |
| والمسك ما أهداه نفسك كليلي ^(٢) | والزهر ما أهداه غصن يراعتي |
| والمعزم يلبي أن يضام جليلي | والمجد يمنع أن يراحم موردي |
| بجميل شكرى أو جزيل ثولتي | وإذا حدث صنعة جازيتها |
| مجرى طعابي من دمي وشربتي | وإذا عقدت مودة أجريتها |
| نأرا فأوشك أن أنال طلالتي | وإذا طلبت من القراقد والسها |

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر الحر كلما ضرب الشاعر عليه قبله فأصبح ملازما له لا يعاديه ، ومثله الفضل الجاثم في ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكبه يراعه أو قلعه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يراحمه في مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنبه بأى ضيم وإذا قدم له شخص صنعة أو جملا جازاه بشكره أو بثوبه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت في دمه مجرى طعابه وشربه . وهي صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب نارا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو علي اليوسى اللداني المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة^(٣) :

| | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| إننا أناس لست تبصرنا | تحنن الطعّم التي تزرى ^(٤) |
| يقرى الفتى ويجوع وهو يرى | متجلا بالصبر والبشر |
| والحرّة الشماء رثما | جاعت ولم ترضع على أجر ^(٥) |
| والحر لیس حياته بسوى | عزّ الجناب ورفعة القدر |
| لا بالطعام ولا الشراب ولا | استلقاته بأرائك وتري ^(٦) |

فهو من قوم لا يتحننون المطاعم التي تزرى بمن يطعمها ، وإن الفتى ليقرى ويجوع ومع عزّه وجوعه يرى مژدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحرّة ترى شماء متسامة وتجوع ولا تأكل بنديها فذلك موت زوام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متناع من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة . ولعمري^(٧) الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م :

(٥) الشماء : المرفقة النسائية .

(٦) أرائك وثر : مقاعد متحركة .

(٧) البيوغ المغربي ٤٩/٣ والحياء الأدبية في المغرب

للكور محمد الأخضر ص ٣١١ .

(١) البيوغ المغربي ٤٢/٣ .

(٢) نفس : مداد .

(٣) البيوغ ١١٧/٣ .

(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .

قل لمن يَنْقُلُوْا عَلَى النَّاسِ
ليس من شَقِيٍّ فَخَارٌ
ما فَخَارُ الْمَرْءِ إِلَّا
بِعِلْمِهِ زَاخِرَاتِ
وَسَجَايَا وَمَزَايَا
وَهَبَاتِ وَأَفْرَاتِ

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية في القابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوفرة ، ويقول ابن زكري الوائلي حاثا على اقتحام الصعاب في طلب المجد^(١) :

المَجْدُ حَيْثُ مَدَارُ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
هِيَهَاتَ يَدْرِكُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَلْمِي
وَهْمَةُ الْمَرْءِ لَا تَعْدُو بِصِيرَتِهِ
بِقَدْرِ نَظَرَتِهِ يَسْمُو إِلَى الطَّلَبِ
كُلُّ لَهْ أَرْبٍ لَكِنْ أَخُو قَصَرٍ
فِي الْهَمِّ لَيْسَ لَهُ فِي الْمَجْدِ مِنْ أَرْبٍ
إِنْ كَانَ لَا يَدُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَسْلٍ
فَلْيَأْمِلِ الْمَجْدَ فَوْقَ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

وهو يقول إن المجد ليس شيئا هينا ، بل هو شيء في منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لا بد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السائرة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشر بشمم ولها لا حد لها . ويذكر أن كل شخص يحصل في دنياه على ما يطلبه بقدر همة ، ويقول إن مَنْ همة قصيرة لا ينال مأربا كبيرا ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتنناه ، فَلْتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا في الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الشاذلي الدلائني وقصيدة بديعة له في الفخر .

الشاذلي^(٢)

هو محمد بن أحمد بن الشاذلي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه في عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكب بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر في أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة في الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضي على هذه الشاكلة :

مَا إِنْ يَمِيكَ فَقَدْ خَلَّى وَالْخَلْلُ
إِنْ أُمْتُ بِالْجَمِّ السَّمَاءُ كَتَّ مَلَى
وَرَبُّ جَاهِلِيَّةٍ هَبَّتْ تَعَاتِبُنِي
أَنْ كَتَّ عَنْ غَمْرِ عَيْشٍ - مَوْثَرِ الْوَشْلِ^(٣)
قَالَتْ رَأَيْتُكَ ذَا قَوْلٍ مَجْبُورُهُ
أَزْهَى مِنَ الرُّوضِ غِبِّ الْوَائِفِ الْمَطْلِ^(٤)

القليل.

(١) الوائلي ٨٥٦/٣ .

(٢) محمّدة : منقته . غب الواكف المطل : عقب السحاب المطر .

(٣) انظر في الشاذلي كتاب الشعر الدلائني (راجع الفهرس) والبرغ المغربي ٤٧/٣ .

(٤) غمر العيش : رافقه ورواسه . الوشل : الماء الضحل

وفى الملوك له كُفءٌ فأمهم ولتُ أضنى وإن لجئت لتعدل بي وإن من كرمي بخلى بشعري عن وهو يقول إن الشخص لا يميح فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتني لانصرافى عن رافه العيش واكتفائى بالوشل القليل منه ، بينما أملك بيتا مليئا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الماطل ، وتقول فى الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه لا يصنى لئل هذه العاتية مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمرءته ، وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مدح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث أن يعلن لماذكه قوله :

ولن ترينى مذبلا - ما حيث - له فى غير ذكر الوغى والأعين النجل^(١)
 نلنى لىأتى وأبساتى وبغف لى مجد أناف - ولم يفتح - على زحل^(٢)
 نفس الكريم تعاف الوردة يصحبه ذل على ظمأ فى الجوف مشتعل
 لو كنت سائل غير الله لم أسأل غير المذاكى وغير البيض والأسل^(٣)

وهو يقول لصاحبه إنه لن يتذل شعره إلا فى الحماسة والحرب الضارية وإلا فى النزول بالحصان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آتأتى وليأتى يأتان أن أمنهن شعري وأمينه فى مدح أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل فى ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان ظامنا ومهما كان الظمأ يشتعل فى جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضى فى قصيدته منشدا :

لا ترَضَ بالعيش فى ظلّ الهوان وخَضَ لئيل عر غمار الموت والشكل^(٤)
 فليس يذكرك بالجنس البقاء ولا الإقدام يقضى بما لم يقضى فى الأزل

وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بميش فى ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا فى سبيل العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجنس ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب فى الأزل وقدّر على الإنسان . ويستمر قائلا :

(١) أمهم : أقصدهم . يحول : خدم وعيد .
 (٢) مذبلا : مجذولا ومهينا . النجل : الورقة الجميلة .
 (٣) أناف : أشرف .
 (٤) المذاكى : الخيل . البيض والأسل : السيف والرمح .
 (٥) الشكل : فقد الأمل والأحبة .

حَلَّتْ شَطْرِيْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَطَلٍ
فَمَا بَطُرَتْ لِإِثْرَاءٍ وَلَا حَسِيٍّ يَدُوتُ بِهِ خَلَّةٌ تَتَابُ مِنْ خَلٍّ^(١)
وَكُنْتُ إِمَّا - بَدَأَ لِي مِنْ حَلِيٍّ عَطَلٌ أَلْقَيْتُ مِنْ حَلِيٍّ فَضْلِيْ غَيْرَ ذِيْ عَطَلٍ
رَشِيٍّ الْمُهْنَدُ يَدُوْهُ فَرَقَ صَنْحَتِهِ يَغْنِيهِ عَنْ شَيْءٍ الْأَغْمَادِ وَالْحَلَلِ
وهو يقول إنه طالما جُربَ صُرُوفُ الدهر وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه
بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل في حبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حَلِيٍّ
الغنى شعر أن حَلِيٍّ فضله يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذى يزينه يبدو على
صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة
في كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعاني .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربى ، الموعظة فى القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلى
من آلمته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من
اللعنات إلى الذم بالصفات المردولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق
إلى مناظرات واسعة فى أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه فى كتابنا : « التطور
والتجديد فى الشعر الأموى » . ومنذ العصر العباسى الأول أخذ الشعراء يفتنون فى وصف
المهجو بالدناءة والفساد ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين .
وظل كثيرون من الشعراء - على مر العصور - يكثر من بحث يمكن تلقبهم بجماعة
المجائنين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ،
إذ كان الشاعر المغربى يلم به فى لحظة من لحظات غضبه ثم يتصرف عنه إما رعا للذمام
والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلقنا منه فى أول الأمر أهاج لبعض من كانوا ينتشون
ويثيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام
المصمودى فى هزيمة برغواطة مع متنبها لى عفير^(٢) :

قضى قبل التفرق فآخبرنا بقول صادق لا تكذبنا
بأمر بربرٍ خسروا وضلوا وخابوا لا سقوا ماءً مِنّا^(٣)
يقولون النبىُّ أبو عُمَيْرٍ فأخزى الله أُمَّ الكافينَا
ألم تسمع ولم تر يومَ هَيْبَةٍ على آثار خيلهم رَبِنَا^(٤)

مياه عذبة .

(١) بهت : مكان الحركة .

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشئ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٥١/٣ .

(٣) ماء معنا : من مياه الجنة أوليل الشاعر يريد كل

رَبَّنَا الْبَاكِيَاتُ بِهِمْ نُكَالِي وَعَاوِيَةٌ وَمُسْقَطَةٌ جَنِينًا^(١)

وهو يعيرهم بيوم « بهت » الذي هزموا فيه مع نبهم ألى غير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخلبوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متبنا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الخفيف ، فأخزاهم الله ، وحرّمهم مياه الجنة المعين الصافى العذب . ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفراستهم إذ قتلوا شرفا ولما بنسائهم يمولن ويكيّن ويندين من فقنتهم من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهم أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنتهن فزعا ورعبا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجرأوى - وقيل إنها لغيره - بنى غفجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول^(٢) :

يا بن السيل إذا مررت بتادولا لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها المدؤ فلن نرى إلا مجاوية الصدى لليوم
قوم طورا ذكر الساحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ فى أموالهم وتوالهم للسائل العافى ولا المحروم^(٣)
لا يملكون إذا استيحي حريمهم إلا الصراخ بدعوة المظلوم
يا ليتنى من غيرهم ولو اتنى من أهل فاس من بنى الملجوم

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم ، وإنما لأرض كريهة خربها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح اليوم وأصداءه ، ولقد طووا راية السحاحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللوم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استيحي حريمهم ما ناروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح ، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعل النساء والمظلومين . ويقول ليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللوماء ، وهى سخريه لاذعة . وكاد المهاجئون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراکش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرها من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولم فى المهاج طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبوس شاعر الموحدين لفنه الشرى قائلا^(٤) :

يا غراب الشعر لا طير ت وثيت الوقوعا
فإذا استيقظ شهيم فريم زدت هجوعا
هبك لا تقصر عزا لم تنقصت الخضوعا

(٣) السائل العافى : طالب للمعرف .

(٤) الولى ١١٠/١ .

(١) نكال جمع ناكل : فائقة الزوج أو الولد .

(٢) النبوغ للنرى ٢٥٣/٣ .

رمت أن ترقى سرهما فرددت سرهما^(١)
 ربما اصطاد بُغْت شيماً واصطدت جوعاً^(٢)
 ولقد غال حَيِّياً منك ما غال صرهما

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يشاء به العرب ، وكأنه مصدر شوم كبير ، ولذلك يمتنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطلق المجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتنع عزا فلماذا يقتنع الخضوع ، مهما أُمِّل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صرهما . وقد يهيد شوهر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يخاله المدح كما اغتال بُا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواتي الشعارين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهما . وكان ابن جوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والمهاجرين والعيّين الذين يكثرون بين الناس منشد^(٣) :

أعِدْ لنايحك عصا وأنضم ما ضييك حصا^(٤)
 وغمض عينك النجلا ء حتى تُنعت الحوصا^(٥)
 وهز لمشر سيفا وهز لآخرين عصا
 لقد رخص الإخاء وأهد حون الأغلاق ما رخصا
 وقد ذهب الوفاء فلا يقول منالط نقصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصا لكثرة النايحين حوله الذين يتكرون فضله ، ويقول أطمع من بمضغون لحكم هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وتلك لاثكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقى بالسيف وصنف يلقى بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى لبذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . ومالك بن المرحل المرنى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدتها قبيحة بالغة القبح ، ويطلق فى وصف ما قبل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاة فطساء صماء بكماء عرجاء ، ويقول إنه ولّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى المزول والمجاة .

(٤) أنضم : أطمع . ماضيك : الذين بمضغونك

فامين .

(٥) الحوص : الأحوص وهو ضيق مؤخر العين .

(١) ترددت : سقطت .

(٢) البغت : طير صغير .

(٣) البرغ للمرنى ٢٠٢/٣ .

الشعراء والشعر التعليمي

الشعر التعليمي من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأول بتأثير اتساع الثقافة ورفق الفكر العربي ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم في التاريخ وبعض العلوم ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم عن الفارسية قصص كيلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصره نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذي ينظم مع وزن الرجز ، وتتحدا القافية به في شطري كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمي يشيع في البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنظم به كثير من المتون العلمية ، وألفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماءها في نظم هذه المتون وفي وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى في ذلك مشاركة خاصة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمي محمد بن أحمد بن غازي من العصر المريني ، وله فيه منظومات تعليمية في التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية في علم الحساب . وكثر هذا الشعر في العصر السعدي ، ونجد المقرئ في كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة في مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى - في مختلف العصور - شعر كثير في الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة في الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية المعجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهملنا في العرض الأدبي لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامة في الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز المرزوقي وابن الونان .

عبد^(١) العزيز المرزوقي

مكناسي الأصل وأكب^٢ منذ نعومة أظفاره على التنقف بالعلوم اللغوية والشعر العربي حتى فتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المريني فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكفى بمدحه العام له ، بل ينظم فيه وفي أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمة الكبرى : « نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك » وهي منظومة تاريخية يمرض فيها التاريخ من أعنت الأزمنة ، حتى زمن يعقوب المريني ، وفي فاتحتها يقول :

الحمد لله منبت الدهن بالملك المنصور من مَرِين

ولا يلبث أن يقول :

المغربى ٢٣٦/١ ، ٢٩/٣ .

(١) انظر في ترجمة المرزوقي وشعره التاريخي لإحاطة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافي ٣٦٥/٢ والنبوغ

سميتها من حسنها نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك
وأذكرُ الأمر على الترتيب مختصرا بأحسن التقريب
من عهد آدم إلى زماننا أختتمها بالفُر من أملاكنا

وهو بعضى فى سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكنها
يعقوب المنصور أخذ يفصل الحديث فى تاريخه وأحداثه ومجاليه ، وكثما هو الغاية المبتغاة
من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد أليس الوقار والسكينة وحلّ فى مكينة مكينة
حتى إذا ما حان وقت الظهر قام إلى بيت الندى والفخر
يقى إلى وقت صلاة العصر يأتى بقصد نفسه والأمر
فينصف المظلوم من ظلمه ولم يزل إلى صلاة العتمة^(١)
ولئن الغرب من الفساد ونشر العدل على العباد
وخضعت مرين تحت قهره وأذعنوا لنهيه وأمره
ورفع الظلم عن الرعية وقمع الطغاة فى البرية

وهو يصور يعقوب المنصور المرينى بحفاً به الوقار والجلال والسكينة ، ويحلّ فى مرتبة
رفيعة ، حتى إذا حلت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتى بعد صلاة العصر لإبرام
أوامره ونواهيهِ وإصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن فى البلاد
وأخلّاه من الفساد ، ونشر العدل فى الناس ، وخضعت له قبايل مرين وأذعنّت له ، ورفع
عن الرعية كل ظلم عانت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلماً فادحاً .

وينظم الملزوزى قصيدة تاريخية ثلثة فى المنصور يعقوب وجهاده لإسبانيان فى ديارهم نصرة
لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة
مرينية كما مر بنا فى الفصل الأول ونكل بإسبانيان ، وعاد إلى هذا الجهاد مراراً سنة ٦٧٧ وسنة
٦٨١ واستولى على بعض حصونهم سنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلداتهم ،
يقدمه إلى بنى الأحمر فى غرناطة متنازلاً عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى إسبانيان بقصد تكوين
دولة عربية جديدة فى الأندلس ، وإنما يجاهدهم لتتصاروا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون
عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ يتنازل إسبانيان
بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزى يبدأ قصيدته بحمد الله جلّ فى علاه
وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتاً يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم
الرسول ﷺ وما خصّه به من الإسراء والمراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

وينوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اتفقوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه تستحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسيان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه - كما يقول - إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المصور المريني ، فإذا هو بنازل الإسيان بقواته المرينية وقواده من بُنائته ولُبنائه رعيته نزالا ضاربا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملوزي تنحى بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسيان ، وتفصل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسيانية هو ولُبنائه وقواده وما أقرلوه بهم من هزائم ساحقة في نحو مائة بيت ، يستهلها الملوزي بقوله في يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

وَلَمْ يُعَلِّمْ جِهَادًا لِلْأَعْدَى يَهْدِي الْأَرْضَ يُحَسِّبُ احْتِسَابًا
إِلَى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ فِيهِ لِيَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بَلَاءًا
لَوْلَا أَمِيرُ الْعَدَلِ مَلِكُ بِهِ تَسَلَّيْتُ يَدَ الْكُفْرِ تَسْلَابًا
وَلَمْ نَرِ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مُلْكَأ أَرَانَا فِي الْعِيدِ الْعَجَبَ الْعُجَابَا
دَعَا اللَّهُ دَعْوَةً مَطْمَئِنًّا لِمَوْلَاهُ دَعَاءُ مُسْتَجَابَا
فَلْيَبِ اللَّهُ دَعْوَتَهُ وَسَيُّ لَهُ الْحُسْنَى وَجِبُّهُ الصُّعْبَا^(١)
فَنَجَّازَ الْبَحْرَ مَجْتَهِدَا مَرَارَا يَقُودُ إِلَى الْعِيدِ الْخَيْلَ الْبَرَابَا^(٢)

وكثرت بالملوزي حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسيان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم في عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أقرلوا بهم في الأرك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له في الجهاد بابا بل أبوابا ، وبشيد بمدله وعقه لجيوش الإسيان عفا ، وكثما دعا الله أن يتصره واستجاب دعاءه ، فيسر له الحسنى من الفتح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصلية فآلبسهم هو وبنوه وقواده ذلا ملبعه ذل . ويترسل في ذكر الوقائع وقواده وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسيان حرقا واتنهبا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هَيْبَا يَا مَرِينُ لَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى الْأَمْلَاقِ بَأْسًا وَاتْنَجَلَا^(٣)
وَفَاخَرْتُمْ بِمَوْلَانَا الْبَرَابَا فَأَعْطَوْكُم قِيَادَا وَاتْنَجَلَا
لَيْعَدُ الْفَنَسِ وَلِهِنِ الْفَوْنِسِ يَخِي رِضَاكُمْ لَا يَخَافُ بِهِ الْعُتْبَا^(٤)

(٣) اتنجلنا : نجاة واصطفاه .
(٤) يريد الفونس العاشر وابنه شاتو .

(١) سنى : مهر
(٢) العرب : الكريمة الأصلية .

فحزبُ مَرِينٍ حَزْبُ اللَّهِ يَحْمِي حَمَى الْإِسْلَامِ لَا يَخْشَى عَقْلًا
إِذَا سَلَّوُا السَّيْفَ تَرَى الْأَعَادَى وَقَدْ حَلَّوْا الرُّيَّ مَدَّتْ رَقَبَا

وهو يعني، مَرِينٌ بهذا المجد الحربي الذي سميت به على الأملاك شجاعة وانتجاليا ، وقد فاخترموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلولين على أسرهم ، وهذا ألفونس العاشر ولينه يمدان يديهما للصلح . وإن حزنكم لحزب الله الذي يحمي ديار الإسلام ، وبمجرد أن يتنازل أعداء الدين يلتصمون الرى هلمنا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفي شعر الماززوي - كما رأينا - غير قليل من النضاعة والسلاسة ، وقد لبى نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن^(١) اليونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد اليونان الحميري القاسي من نابهى شعراء العصر العلوي ، تألق اسمه في عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن اليونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن اليونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبهُ يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يَا سَيِّدِي سَيْطَ النَّسِي أَبُو الشَّمَقْمَقِ لَبِي

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة في ٢٧٥ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة في مجاهل الصحراء واصفا رَكْبَ الترق الذي كان فيه ، وظل في أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديا طالبا إليه أن لا يكلفها في السير بما لا تطيق جامعا لها في وصفها كثيرا من أولبد اللغة . ويصف صاحبة له في ٢٥ بيتا ويورد في وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فيشتر على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل في فخره ببلّاه وقيبلته اليمنية في نحو خمسة وثلاثين بيتا ، وبفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم في نحو تسعين بيتا ، وهي لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمي ، ويمدح الشعر وشاعرية أبي الشمقمق ، وكأنا الأرجوزة كانت متتية في هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة في الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكون ،
ونظروا في البرغ للفرى ١٧٨/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن اليونان وشعره الوافي ٨٦٢/٣
والحياة الأدبية في المغرب عند الدكتور الأخضر ص ٢٩٨

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في ألياته . وهو ما جعل أدياء العرب يهتمون بكتابة شروح لما متعددة ومن أهمها شرح السلاوي وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها ألياتا سهلة لدل بها على غصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها كُنِي :

| | |
|---|---|
| تَسَى بِغَيْرِ أَشْنَبٍ وَمَرْشِفٍ | قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقَفٍ مَعْتَقٍ ^(١) |
| وَزَادَ مَسْكَ الْخَالِ وَرَدَّ خَدَّهَا | حُسْنَا وَقَدْ عَمَّ بِطَلِبٍ عَقِيْ |
| وَقَبِلَتْ أَقْدَامَهَا ذَوَائِبُ | سَوْدُ كَقَلْبِ الْمَاشِقِ الْمُحْتَرِقِ |
| كَمْ أَوْدَعَتْ فِي مَقْلَتِي مِنْ سَهْوٍ | وَأَضْرَمَتْ فِي مَهْجَتِي مِنْ حُرْقٍ |
| وَلَا يَمُزَالُ فِي رِيَاضِ حُسْنِهَا | يَمْرَحُ فَكْرِي وَيَجُولُ رَمْفِي |

فهى تخب من يراها بفمها الجميل وريقها الذى كله من خمر متقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبّلت ضفائرها أقدامها وهى شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت فى مهجته حرقا متفددا ، وإن فكره ليسرح دائما فى رياض حسننها ويجول معه ما بقى من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصورة والأخيلة . ومن قوله فى الأرجوزة مفاهرا :

| | |
|--|--|
| سَلِّ لِبْنَ خَلْدُونِ عَلَيْنَا فَلَنَا | يَمْنٍ مَّا تَرَّ لَمْ تُنْحَقِ |
| بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ زِدْتُ مَقْخَرَا | بَأَذْبَى الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقَى - |
| وَزَانَ عِلْمِيْ أَدْبَى فَلَنْ تَرَى | مَنْ شِغْرُهُ كَشِعْرَى الْمُنْمَقِ |
| فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِّحِيْ يُشْنَقِ | بِهِ كَمَثَلِ الْقَسَلِ الْمُرَوِّقِ |
| وَأِنْ هَجَوْتُ فَهَجَاتِيْ كَالشُّجَا | يَقْفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلِ الشَّرْقِ ^(٢) |

وهو يقول سل لب ن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه وآثارهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشرعى المنمق ، فإن مدحت فمدحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعترض فى الحلق ويشرق أو يهض بها المهجؤون . وتوفى لب النون سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدر القارىء ويوجه فيها إلى كثير من الشرخ والبيان .

(١) ثمر : ضم . أشنب : رقيق . مرشف : القم وما به (٢) الشجا : ما يخرس فى الحلق . الشرق : القصة . من ريق : قرقف : خمر .

الفصل الخامس طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربي ، وقد نظمته شعراؤهم في جميع عصورهم وأقاليمهم مصورين فيه عاطفة الحب الإنساني وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه في وصاله ووداعه ، وتارة شقي محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتخنى شاعر عربي بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربي مجلداته في هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الحنية من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهم وتصرافهم عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقي به منهم في عصر المرابطون بالمائة الخامسة للهجرة ابن القليلبة السبتي إذ يقول^(١) :

ووجه غزالٍ راقٍ حُسْنًا أديمةً يَرَى الصَّبُّ فيه وجهه حين يَتيصِرُ
 تعرَّضَ لي عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من عيَّاه تَقَطُرُ
 ولم يتعرَّضَ كي أراه وإنما أراد يُريني أن وجهي أصفر

وهو يقول : بلغ وجه صاحبه من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهي غزال أو رشا بكاد عيَّاهما يقطر خمرًا يتشهى به مبصر وجهها كما يتشهى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تعرَّض له ليرى ما في وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له في قلبه من شدة الخفقان وفي وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وإبهارا . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر^(٢) :

لَهْؤُكُ في قلبي كريقك في فمي غَيْرِي يقول الحبُّ مرُّ المَطْمَرِ
 فأورِّضْ عليْ بِمَقْتَلِكِ كَوَسِّهِ حتى يدبَّ خمارُهُ في أعظمي^(٣)

(٣) الخمار : الاكشاء بالخمر .

(١) الذخيرة لابن سبأ ٣٨١/١/٤ .

(٢) قتادة النخعي ص ٢٦٤ .

إن التلدد في هوائك تلدد
 يا أيها القمر الذي إنسائه
 لم ألبد حبك غير أن جوائحي
 لا ذنب لي عليم الذي أسرته
 تلافني قبل التلاف فيني
 لو كان أختل من زعاف الأرقم^(١)
 يرمى قلبا لليسون بأسهم
 فاضت به فيض الإناء المغمى
 نظرا ولم أرز ولم أتكلم
 من حيمر وسأخذونك في دمي

وهو يخاطب صاحبه فيقول لها : غيري يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك في قلبي
 حلو كريقك في فمي ، ويتمنى عليها أن تدبر كوسه بعينها الفاتنتين ، حتى يتشى بخماره
 المتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب في حياها له في نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان
 قاتلا مثل سم الأفعوان . ولها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفدة الرجال ، ويقول
 لها إني لم أفسد حبك غير أن جوائحي اكتظت به حتى فاضت به فيض الإناء المملوء إلى حوافيه ،
 ولا ذنب لي كما تعلمين فإني أسررت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أقبه به أحدا . ويتوسل
 إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حير ، وإن لم تستجب له وتركه
 يهلك فيسدركون فيها نار الأسد الضرغام . ويقول القاضى عياض^(٢) :

يا راحلين وبالفؤاد نعملوا
 أما الفؤاد فندكم قباؤه
 أترى لكم علم بمترح الكرى
 أودى بهزمه صبره ولماه
 ما ضركم ، وأضنكم بتحبه
 إن الخيل بلحظة أو لفظه
 أترى لكم قبل المساء قفول
 ولواعج تتلبه وغلبل^(٣)
 عن جفن صب ليئه موصول
 طرف أحم وبسم مصقول^(٤)
 يحى بها عند الدواع قتل
 أو عطفة أو وقفة لبخيل

والقاضى عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبه ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به بماته
 ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألم علم بالثوم
 الذى نزع عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصيره ولماه عين
 ذات سواد جميل وهم يترسم عليه إنسام لطيف ، ويقول : ما ضرهم لو نؤروه ما طلب
 وما أبخلهم بتحبه ترد الحياة إلى قتل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظه وداع
 أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكون لها حيا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكأثر
 الغزل في عصر الموحدين ويريزه أبو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدي وأبو حفص

(١) التلدد هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعالب .

(٢) نظر التعريف بالقاضى عياض لأبه محمد ، تحقيق

(٣) لواعج : آلام .

(٤) أحم : أود .

د . بنشره .

عمر بن عمر السلمي ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعره العصر ابن عبدون الكناسي
المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله^(١) :

| | |
|-------------------------|--------------------------------------|
| يا جبرني ومن استجرت بهم | من جسور عزهم على ذلي |
| عوضتموني بالسوداد قلى | وكهدتم الإنصاف بالمطل ^(٢) |
| ما هكذا فعل الكرام بمن | منهم تعود أجمل الفيل |
| علقت حبل عثي بكم | بحياتكم لا تقطعوا حبل |
| ما كان لذي ظل عشنا | إذ كان متظما بكم شمل |
| عودوا إلى عادات وصلكم | لا تحرموني لذة الوصل |
| وإذا أيتم غير جوركم | فالجور منكم غاية العدل |
| إن شتمت قلى فما إذا | لا تحذروا من طالب دخل ^(٣) |

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبه وشعورها بالهزة على ذله وهوانه فقد أبدله بالمودة
بغضا وبإصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عودته أجمل الفعل ويذكر
أنه علّق محبة بها أو بهم - كما يقول - فلا تقطعوا حبل ، وما كان أجمل عشنا حين كنا
نتظم معكم في جماعة واحدة . ويضرب إليها - أو إليهم - أن لا يحرموه لذة الوصل ،
وحاشاكم أن تعقبوا الإحصاب والود بالجذب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يمدّه
غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس ورأه من يطلب ثأره . ونلتقي في
أوائل العصر المرنيني بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومر بنا أن
الأستاذ هلال ناجي نشر له في المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين في عروض
الدوبيت أو الرباعيات ، غنى في أولاهما بوزنه على فعلن متفاعلين فعولن فعلن ، وفي ثانيتهما
بوزنه الثاني فعلن فعلن مستفعلين مستفعلين ، وتشد له الأستاذ عبد الله كتون في عروض الوزن
الأول للدوبيت مجزوءاً غزلية يقول فيها^(٤) :

| | |
|-----------------------|----------------------------------|
| يا عاذلتني إليك عني | لا تقربُ ساحتي المواذل |
| مهلا قدمي له حلال | ما أقبلُ فيه قول قاتل |
| قد نم به شذا الفسوال | إذ هب ونمت الغلال ^(٥) |
| والسحر رسول مُقَلِّبِ | ما أقرب عهده بيابل |
| والرؤس يُعمر وجنتيه | ورزدا كهواي غير حائل |
| يسيك برقة الحواسي | عشقا ولطافة الشمايل |

(١) الروائي ٣٣٧/١ والنويع المرنيني ٦٨/٣ .

(٢) قل : بنضا .

(٣) دخل : ثار .

(٤) النويع المرنيني ٦٩/٣

(٥) النوال جمع غالية : الطيب . الغلال : الثياب .

وهو يقول لعاذله لبتدى عني، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمي لصاحتي حلال ولا أقبل فيه قول قتال. وإن روائح النوال أو الطيب لتراتفها وتنم عنها ثلبها، وإن عينيها لثرسلان سحرا كته مجلوب توا من بلبل بلدة الساحرين هاروت وماروت، وكفني بالروض بمر وجتيتها وردا بديما لا ينبل أبدا كحبها، وإنها لتسيك بلطفها ورقها ولطف شماتها، مما بهملك تمسقها عشقا متصلا. ويقول عبد المهيمن الحضرمي الوزير المريني المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة^(١):

| | |
|-----------------------------------|---------------------------------------|
| كانوا نعيمَ فؤادي والحياةَ له | فلأن كلَّ وجودٍ بعدهم عَدَمٌ |
| باتوا فسادَ نهاري كله ظَلَمًا | وكان قُرْبُهُمْ تُمْنِي بِسَهْ ظَلَمٌ |
| والصينَ مِنِّي لا تَرْقًا مدامُها | كُتْمُهَا سَحْبٌ تَهْمِي وَتَسْجَمٌ |
| تبكي عهدَ وصالٍ منهم سلفتُ | كُتْمًا هُنَّ فِي إِسْنِهَا حُلْمٌ |
| لئن ضحكْتُ سرورًا بالوصالِ لقد | بهكت حزنًا عليهم والدموعُ دَمٌ |
| هم علّموني البكا ما كنت أعرفه | يا ليتهم علّموني كيف بُنِمٌ |

وهو ينفذ بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرة كان يئس بوصلهم، وكانوا نعيم فؤاده وحياته، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كته عدم، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحي بقرهم كل ظلمة وكل ظلام، وإنه ليبيكهم ولا تجف دموعه كُتْمُهَا سَحْبٌ تَهْمِي مدرارا، وعينه تبكي عهدا يبدو في إسْنِهَا وكُتْمًا كان حلما، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يبيكهم بدموع قاتية كُتْمُهَا دماء مفعحة، ويقول إهم علموه البكا ولم يكن يعرفه، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يتسم إذا نزلت به الحن والخطوب. ونمضى إلى العصر السعدي وتلتقى في كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة، وله من قصيدة غزلية^(٢):

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| إن الرشاقة واللطافة والسببا | حاة والحلاوة والملاحة والخوز |
| صيفتُ لمن أهوى وأبسى سُدسًا | منها ودياجبا عليه قد ظهر |
| وإذا نظرتُ لوجهه ولعينه | قلت الجمال من الخدود قد اتفجر |
| عيني وأذنى في النعيم بنظرة | وللفظة منه وقلبي في سَفَر |
| هل عطفة أو زورة أو وقفة | أو لفظة تقضى بإدراك الوطر |

وهو يجمع لصاحبه فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحرور العين الفاتنة، وكُتْمًا صيف لها من كل ذلك سندسا ودياجبا لبسته، ولئلك لتخال كُتْمًا الجمال اجتمع بكل قِته في وجهها، وإنه ليخال كُتْمًا عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغي لها، كُتْمًا هما في نعيم الفردوس، ينما قلبه في جحيم من الحب ولوعاته، ويتمنى عطفة منها إليه

(٢) روضة الآس ص ٧٤.

(١) البرغ ٧٢/٣ والواقي ٣٣٢/١.

أزوررة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة في وداعه الرائع^(١) لزوجه :

ولم تَسْهَى بِقِطْآنَةِ الْهَمِّ فِي الْحَسَا مَبْلِلَةَ الْأَشْجَانِ وَشَفَاةَ الطَّرْفِ
تَقُولُ وَقَدْ خَلَّ الرَّحِيلُ أَهْكَذَا تَحْمَلُنِي ثِقْلُ الْفِرَاقِ عَلَى ضَعْفِي
أَتَرَكْتُ أَفْرَاعًا كَرُغَبِ الْقَطَا وَمَا رَحِمْتَ بَنِيكَ إِذْ سَلَوْتَ عَنِ الْإِلْفِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهَا كَفَى الْمَلَامُ فَأَعْرَضْتُ كَخِشْفِ النَّفَا تَنْفَرُضُ الدَّمْعَ بِالْكَفِ^(٣)
فَوَدَّعْتُهَا وَالْقَلْبُ مُنْطَبِقٌ عَلَى أَنَاهُ وَدَمْعِي لَا يَمْلَأُ مِنَ الْوَكْفِ^(٤)
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا زِمَارَةَ بَيْنَنَا مَعَ الْبَعْدِ إِلَّا أَنْ أَزُورَ مَعَ الطَّيْفِ

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجتها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالققة بطرفها ، وتقول له وقد أُرِفَ الرحيل : أتتركني أتعلم أنفصال الفراق على ضعفى . أتترك أبناء صفارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظللت تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلم عليها ، وهو يقول فى نفسه إن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكاثر الغزل فى المصر العلوى ، ومن مختاره قول لى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة^(٥) :

مَنْ لِي بِهَا تَخَالٌ فِي حَلِيهَا كَرُوضَةٍ تَخَالُ فِي زَهْرَهَا
فِيْشَرُهَا أَرْحَبُ مِنْ بَشَرِهَا وَنَشْرُهَا أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِهَا^(٦)
وَخَدُّهَا أَهْيَجُ مِنْ وَرْدِهَا وَنُورُهَا أَطْفُفُ مِنْ نَوْرِهَا^(٧)
وَقَدُّهَا أَرْغَبُ مِنْ غُصْنِهَا وَوَجْهَهَا أَفْيَضُ مِنْ فَجْرِهَا
الْعَيْشُ وَالْجَنَّةُ فِي وَصْلِهَا وَالْمَوْتُ وَالنَّيْرَانُ فِي هَجْرِهَا

وهو يحب لصاحبه أشد الحب ، ونترأى له فى حليها تخال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فيشهرها وتهلّل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدها يفوق وردها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفا وحسنا ، وقدها نخيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(٥) البوغ المنرى ٩٢/٣ .

(٦) نشرها : شذها وعطرها .

(٧) النور يفتح النون : الزهر .

(١) البوغ المنرى ٨٧/٣ .

(٢) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .

(٣) خشف النفا : طيبة الرمل .

(٤) الكف : تقاطر الدمع .

وحري بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الريح الموحدي وعمر السلمي .
أبو الريح^(١) الموحدي

هو أبو الريح سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عني أبوه بترتيبه، فنشأ أدبيا شاعرا ، ولا يُعرف تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالي منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب في أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأذاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة يابن عمه والدولة يعيش في رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخمريات كما جعله يمشي لمواطفة الشخصية وخاصة في الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتل الحب مَصْرَعُهُ وَحَسْبُهُ مِنْهُ مَا تَحْصِيهِ أَضْلَعُهُ
قالوا تَمَزُّ وقد بَلَّغُوا فقلت لهم كيف العزاء وأدنى اليزر أوجعه
لا عَذْبُ الله قلبا بالفراق ولا سقاء من صلب ما يَبْتُ أَجْرَعُهُ
لا تَمْدُلُونِي فما أَصْنَى لِعَذْلِكُمْ صَمْتُ عَنْ الْعَذْلِ أَذْنِي لَيْسَ تَسْمَعُهُ

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وماتحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعشا يستطيع ذلك ويقول الناس له تَمَزُّ عن صاحبك حين رحلت ، وبهيجهم كيف أتمزى ومواقع الين أخذة يتلاصق ، ويدعو الله أن لا يعذب بالين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المر والمذاب ، ويقول لمذاله لا تمدلوني فلست أصنى إلى عذلكم إذ أصاب أذني صم فلا تسمعه .
ويقول:

كيف التَصْمِيرُ والأشواقُ تزدادُ والدارُ تَنَاقَى وما للوصل ميعادُ
وكلما فَرِثْتُ منى دياركم ينأى المزار كأنَّ القرب إبعادُ
والقلبُ في حَرَقٍ والجفنُ في أرقٍ وللبلابل إصدارُ وإيرادُ^(٢)
بني وإن فانتى عَيْدُ برنعمكم حسي بلفيلك أعراسُ وأعيادُ

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبه ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبتعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما فرت منه نأت الزهارة ، وكأنَّ القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه في حرق من الحب ، وجفنه في أرق والبلابل لو الشجون تغلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد في ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

(١) انظر في ترجمة أبي الريح الموحدي وأشعاره الوثائق
ص ١٨٤ - ٢٢٧ ومقدمة للدكتور علي العمري ،
وديوته منشور .
(٢) اللابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواج ورجوع .

الشوقُ يزداد إذ تدنو بك الدارُ
ما باختيارٍ نأتُ بي الدارُ يا أملي
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةَ
ولا نظرتُ إلى شيءٍ فأعجبني
الله يعلم أن القلب عندكم
ما ضر طيقكم لو زارني بدلا
الذنبُ للنوم لا للطفِ يا سَكى
فهل على الشوقِ أعوانٌ وأنصارُ
وليس غير ذنوبي منك أختار
إلا وفي النفس من تذكركم نازُ
مذ فارقتُ وجهك المحبوبَ أبصارُ
وإن تناوتُ به عن إلفه الدارُ
منكم وطيف حبيب النفس زوارُ
وكيف يطرفني والنوم فسرارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكثما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه ، إذ يختار دائما دنوها وقربها ، ويقول إنه لم يسر ميلا ولا مرحلة إلا ارتشلت ذكراها في نفسه ، ولم يشغل نظره بشيء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لا يزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين ، ويعتذر عنه ، فالذنب للنوم لا للطف ، لأنه لا ينام إذ يبيت دائما سهدا لا يفكر في شيء سواها . ويقول:

يا مزعم البين في ترحالك الأجلُ
إني لأعظم أن تمضي وتركني
فلا تروغ فوادا أنت ساكنه
لم يدر قومك ما ذا في ترحلهم
سروا - بزعمهم - ليلا وما علموا
وأنت لاو بحب البين مشتغلُ
والدمع يهوى ونار الوجد تشتعل
بالين منك فإني والة خيلُ
من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
بأنهم في فوادى حيشا نزلوا

وهو يخاطب صاحبه المصممة على الرحيل ، ففي رحيلها موته إذ سترحل بحبيرة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتركه لعذبه ، والدمع بهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروعي فوادى بالين فإني في غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما في ترحلهم من الذنوب والآثام بسببي ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما في فوادى أذكرهم وأذكرك ذكري متصلة . ويقول :

أقول لركب أذلجوا بسخيرة
وأملأ عيني من محاسن وجهها
فإن هي جادت بالوصال وقعمت
وققت بها أشكو وأسكب غيرة
فأومت برخص من بنان مخضب
وقالت أيكى البين من قد أراده
قفوا ساعة حتى أوزر ركبها
وأشكو إليها أن أطالت عيها
ولا فحسى أن رأيت قيلها
على غير تنو ما عرفت فسكبها
وحطت على البدر النير نقلاها
وشكو النوى من قد أثار غربها

وهو يضرع إلى ركب صاحبه الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركبها ويملأ عينه من علس وجهها ، ويشكو إليها طول غلبها ، فإن هى نعمت بالوصال فيها وإلا فحسبه أن رأى قبلها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير ين ، وكثما عطفت عليه فأومت بينان غصن مخضب وقد وضعت نفلها على وجهها المير كالبلر فى اكماله ، وعاتبته قائلة أبكى من اللين وقت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وقت الذى أثرت غربه . وواضح أنه يتميز بموسيقى غنية وقلما يفتنى فى شعره أو فى حبه ، لأنه أسير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر^(١) السلمي

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمي ، ولد بأغامت سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصاحبه معه وهو قاض بفلس فأكب بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاة فى تلمسان وفلس وإشبيلية . وكان مع إحسنه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذ عليه بعض المترمين ولم يصنع لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينة عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

| | |
|------------------------|---|
| أعيذك يا سلمي من سليم | قلت فتاهم وهو الزعيم |
| قتيل الحب لا يودى وعلي | ه لا يفدى ولا فيه الخصوم ^(٢) |
| ومالى طالب يترات قلى | إذا قتل الغرام فلا غريم |
| فؤادى سار غولك عن ضلوع | بها يا ريم حبك لا يريم ^(٣) |
| ودادك صح فى قلب سفير | كطرفك صح ناظره القيم |
| إذا أعرضت تسود الأمى | وإن أقبلت تبيض الموم |
| وما حبي لها إلا عذاب | عليه من نضارتها نعيم |

وقد اختار لصاحبه اسم سلمي ليحتسب بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لما إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتل الغرام ، وجها مستتر بين ضلوعه لا يبرحها .

المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

(١) نظر فى ترجمة السلمي وأشعاره أزهار الرياض

٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى

٢٢٢/١/٨ والنصرون البانمة لابن سعيد والوافى بالأدب

العربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والبرق

ولما سماها في البيت الرابع رمزاً ليجلس بين اسمها والفعل في آخر البيت ، ويقول إن قلبه
سقيم مثل طرفها ، ويعني في البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأملئ وليضاض الموم ،
ويقول إن عذله في حبا عليه آثارة من نضارتها . وفي رأيي أن السلى لم يكن على طبيعته
حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألواناً من التكلف . ويقول :

أَعَارَ عَلَى الصَّبِّ مَنْ ثَبَّةٌ هُوَ الْحَبُّ مَنْ يُطْفِئُ الْمَهَّةَ
نَأَى الْقَلْبُ عَنِّي وَشَوْقِي مَعِي فَلِلَّهِ أَمْرِي مَا أَعْجِبُهُ
يَحْسُنُ فَوَادِي إِلَى قَاتِلِي كَذَاكَ الْمَوَى عِنْدَ مَنْ جَرِيهِ
يَجُودُ لَأَسْخَطَهُ بِالرَّضَا وَيَطْلُبُ رَاحَةً مَنْ أَتَعَبُهُ
إِذَا شَفَّ قَلْبِي غَرَامُ الْمَوَى دَعَا بِالنِّعَمِ لِمَنْ عَذَّبُهُ

وهو يقول إن شخصا نزل بالمحب ثبته ، وكثته لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب
بالثيب أو باللوم يُشعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبه ولا يزال ما كان يختلج فيه من
أشواقه معه ، وإن فواده يحسن دائماً إلى رؤيته صاحبه قاتله شأن المحبين جميعاً . ويجود المحبوب
بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أضنى قلبه وشفه دعا
بالنعم لمن عذبه . وهي رقة واضحة في الغزل . ومن قوله في جمال الأعرليات بالقياس إلى
الحضريات مستلهما المتنبي وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَهَا الْقَفَرُ لَا ذُنْبُهُ الْمَرْمَرِ وَفِي الْعَرْبِ لَا فِي بَنَى الْأَصْفَرِ (١)
بِنَفْسِي يَحَافِيزُ تِلْكَ الْخِيَامِ وَمَسَرَّحُهَا فِي النَّفَا الْأَغْفَرِ (٢)
مَلَاعِبُ يَحْشُرُ إِلَيْهَا الْحَكِيمِ وَيُطَلِّبُ فِيهَا فَوَادُ الْجَسْرِ
وَفِيهَا الظُّبَاءُ بَنَاتُ الْأَسْوَدِ غِيَارِي مَتَى بَغَمَتْ تَرَارُ (٣)
فَغَيْسُ الْهَزْبِ كِنَاسُ الْغَزَالِ بِهِ الشَّيْلِ نَاشٍ مَعَ الْجُودِ (٤)
يُخَالِسُهَا نَظْسِرَا تَحْتَهُ غَرَامٌ بِهِ الْحَى لَمْ يَشْغُرْ
وَبِالْحَظِّ يُقَدِّحُ زَنْدُ الْمَوَى فَطَرَفٌ غَيْرُ وَفَوَادُ بَرِي

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفي أن يسميها دمية فليس
فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها
في الرمل المخبر . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجريء الشجاع ،
فيها الظباء كرىمات الرجال الأسود اللائي إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكثما بيت هذا

(٣) بنت : صاحت .

(١) بنو الأصفر : الروم وأتاهم من الإسبان .

(٤) غيس المزهر : أجمة الأسد . الكلس : بيت

(٢) البهائم جمع يهيمور : الظبي وولد البقرة الوحشية .

الغزال . الجوذ : ولد البقرة الوحشية .

النفا : الرمل . الأصفر : المشوب بالغمر والتراب .

الغزال أجمعة أسود ، به الشبل ناشيء مع بنت عمه التي تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يخلس النظر إلى الآخر تعبيراً عن غرام مكثراً لا يشمر به الحى ، وبالحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يبرى به وفؤاد لا يزال طاهراً بريئاً . وهى لوحة بديعة لغتيات البادية . ومن قوله متزلاً :

هذا فؤادى أقصدته الأسهم من ذا يرى تلك الجفون وتسلم^(١)

يا غرةً حكيمَ الجمالِ لها على شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم

يُضحى الخلى إذا رآها عاشقا والمقل توقظه اللحاظُ النُومُ

وكان قانتها ونفمةً لفظها غصنٌ عليه بلبلٌ يترنم

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عيني صاحبه ، ويقول إن أحداً لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلى الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقاً للحاظها الفاترة الجميلة ، وبسطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قانتها المشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل - ويقول :

همُ نظروا لواحظها فهاموا وتشربُ غفلَ شاربها المُدامُ

يخاف الناسُ مُقلتها سولها أيقزُ قلبَ حاملِهِ الحُمامِ

سما طرّنى إليها وهو بأكٍ ونمت الشمسُ ينكبُ الغمامِ

وأذكر قَدْما فأتوحُ وجداً على الأغصانِ تتدبُ الحمامِ

وأعقبَ يَئنها فى الصدرِ غمّاً إذا غرمتُ ذُكاءُ نى الظلامِ

وهى قطعة بديعة بصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكرُوا وهاموا كشارب للخمر لم يُبق له من عقله شيئاً ، والناس لفتنة عينها يخافون من النظر إليها وطبعى أن لا تخاف لأن الحمام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكياً ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قَدْما المشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها نشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقيل وفاته سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م نظم أشعاراً زاهدة كثيرة .

٢

شعره الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيواتها وصحرائها وزروعها حتى إذا تعصروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار
والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأقطار والطيور . وكما وصفوا السهول
والوديان وصفوا الجبال والكبان والأشجار والغلات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر
المربطين ، من مثل قول القاضى ابن زباج فى وصف الربيع^(١) :

أُبدت لنا الأيام زهرة طيها وتسرلت بنضيرها وقشورها
واهتزت عطف الأرض بعد خشوعها وهدت بها السماء بعد شحورها
وتطلعت فى عفوان شلها من بعد ما بلغت عتق مشيها
وقفت عليها السحب وقفة راحم فكت لها بعينها وقلوبها
فجبت للأزهار كيف تضاحكت بكتها وتباشرت بقطوبها
وتسرت حللا تجسر ذبولها من لذنها فيها وشق جبينها^(٢)

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، وليست أروع حللها
وأجدها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جفنها ، وترأت السماء فية بعد شحورها ،
وتطلعت لمفاتها فى عفوان شلها بعد أن كانت شلت وبلغت من شيخوخة الجذب عتقا ،
فقد وقفت عليها السحب راحة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارا ، ويقول إنه عجب للأزهار
تضحك وتتهج لبكتها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سلخه بما حدث لها من ضرب
الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضى عياض مغفولا من سبتة إلى مراكش
ومر بواد يقال له « داي » سمع قمرية تسجع ، فقال^(٣) :

أقمرية الأدواح بالله طربي أخا شجن بالأنوح أو ببناء^(٤)
فقد أرقنتى من هذلك رنة تهج من برحى ومن برحالى^(٥)
لعلك منلى يا حمام فتنى غريب بداى قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة وخرق بعيد الخافقين قولوا^(٦)
يدكرنى سح المياه بأرضها دموعا أريق يوم بنت وراى
ويعجنى فى سهلها وحزونها خمل أشجار ترف رؤوا^(٧)
لعل الذى كان التفرق حكمه سيجمع منا الشمل بعد نساء

وهو يقول لقمرية الأشجار طربي أخاهم وشجن بالأنوح أو بالبناء فقد أسهرنى من غنائك
رنة هيجت من شدايدى ، لعلك منلى غرية تنوحين على فريك وأولادك ، وكم من فلاة بين

(١) فلان المدان ص ٢٥٩ .

(٥) برحى وبرحالى : شدايدى .

(٦) خرقة : مفارقة . قواه : مقفر .

(٧) ترف : ناضرة . رواه : منظرها جميل .

(٢) لدم : ضرب .

(٣) المتنى لأحد بن القاضى ٥٤٧/١ .

(٤) الأدواح جمع دوحه : الشجرة العظيمة .

دأى وسنة وكم من مفازة متباعدة الجاتين مقفرة ، وإن سح المياه بأرضها ليذكرني دموع زوجتي وأولادي ورائي يوم رحلت ، ولبي لتعجبنى خمائل دأى الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذي حكم بالتفرق بيني وبين أهلي يجمع الشمل بعد فراق ويهدى بهد . ويقول أبو الريح الموحدي في وصف الريح^(١) :

حَيُّ الرِّيحِ بِمَا وَشَتْ أَزَاهِرُهُ وَنَظَّمَتْ مِنْ أَكَالِيلٍ عَلَى الشَّجَرِ
وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَتَنِ الرُّوضِ مِنْ حُلَلٍ وَنَمَّمَتْهُ بِالْأَلْوَانِ مِنَ الزُّمَرِ
مِنْ نَرَجِسٍ سَاحِرِ الْأَلْحَاطِ ذِي غُجَبٍ وَمِنْ أَقَاحِ ذِي الثَّنَرِ ذِي أَشْرٍ^(٢)
بِمَا تَضَوُّعِ رَوْضِ الزَّهْرِ غِبُّ حَيَّا تَأْكُدُ الشُّكْرَ لِلنَّمَى عَلَى الْبَشْرِ
لَا يَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّ الرُّوضَ فَاحٌ لَهُمْ طَوْعَا وَلَكِنَّهُ يُنْثَى عَلَى الْمَطَرِ

وهو يطلب من كل قارئ له أن يحى الريح بما وشت ونقشت أزهاره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نَمَّمَتْهُ بِالْأَلْوَانِ من الزهر : من نرجس مدل سحر الألفاظ ومن أقاح ذى حروز نقى الثنر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمة مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكراً للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتي المشهور بالفرزاطي المتوفى سنة ٧٦٠ في ناعورة^(٣) (ساقية) :

وَذَاتِ سِيرٍ إِذَا حُنَّتْ رَكَائِبُهَا حَتَّى فَرَّقَتْكَ فِي مَرَأَى وَمُسْتَعِمٍ
كَأَنَّهَا فَلَكْ دَارَتْ كَوَاكِبُهُ عَلَى الرِّيَاضِ بِنُوءٍ غَيْرِ مُنْقَشِعٍ
تَمَاطِلُ السُّحُبُ صَوْنًا بَلْ تَخَالِفُهَا إِذَا اسْتَهَلَّ حَيَّا الْمُتَلَقَّةُ الْهَمِيمُ^(٤)
هَذَى مِنَ الْمَاءِ تَعْلُو كُلَّ مُنْخَفِضٍ وَتَلْكَ تَنْزِلُ مِنْهُ كُلُّ مُرْتَفِعٍ

يقول إنها إذا أسرع دواليها سمعت صوتا فيه حنان فرائتك في منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبها أو دواليها على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا ائتمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال واللال . ويقول في وصف سفينة تمخر به البحر :

وَعَرِيَّةُ الْإِنْشَاءِ سِيرْنَا فَوْقَهَا وَالْبَحْرُ بِمَكْنُ تَارَةٍ وَيَمُوجُ
عُجْنَا نَوْمٌ بِهَا مَعَاضِدٌ طَالَمَا كَرَمَتْ فَجَاجَ الْأَنْسُ حَيْثُ تَمُوجُ
وَأَسْتَدُّ مِنْ شَمْسِ الْأَصِيلِ أَمَانَا نَوْرٌ لَمْ يَرَأَى هُنَاكَ بِهَيْجٍ

(٣) انظر في هذه الأبيات وتاليها الوافي ٤٣٥/٢ .

(٤) المتلة المسم : السحابة المطلة .

(١) الوافي ٢٠٥/١ .

(٢) أنش : حروز . والشعراء يشبهون الثنر بالأقاح .

فَكَانَ مَاءَ الْبَحْرِ ذَاتَبُ فَضَّةٍ قَدْ سَالَ فِيهِ مِنَ النَّضَارِ خَلِيجٌ

وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يهوج ، وعرجنا نَوْمُ أَمَاكِنَ طَيِّبَةٍ وَعَرَجٌ مَعَهَا الْأَنْسُ ، وامتد أماننا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكان ماء البحر فضة ذاتية امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النضار أوالذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة في وصف السَّحَرِ وتبثاق أضواء الفجر^(١) :

تَرَاهِي سَحَرِي وَالنَّسِيمُ عَلِيٌّ وَلِلْفَجْرِ نَهْرٌ خَاضَهُ اللَّيْلُ فَاعْتَلَتْ
وَلِلْفَجْرِ نَهْرٌ خَاضَهُ اللَّيْلُ فَاعْتَلَتْ فَزَقَّ سَاجِي اللَّيْلِ مِنْ شَرَارَةٍ
فَمَزَقَّ سَاجِي اللَّيْلِ مِنْ شَرَارَةٍ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الرُّوْضِ عَنْهُ لِبَسَامَةٌ
تَبَسَّمَ ثَغْرُ الرُّوْضِ عَنْهُ لِبَسَامَةٌ وَمَالَتْ غُصُونُ الْبَيَانِ نَشْوَى كَانَهَا
وَمَالَتْ غُصُونُ الْبَيَانِ نَشْوَى كَانَهَا وَغُنَّتْ عَلَى تِلْكَ الْغُصُونِ حَمَائِمٌ
وَغُنَّتْ عَلَى تِلْكَ الْغُصُونِ حَمَائِمٌ إِذَا سَجَعَتْ فِي لَحْنِهَا ثَمَّ قَرَّرَتْ
إِذَا سَجَعَتْ فِي لَحْنِهَا ثَمَّ قَرَّرَتْ وَلِلنَّجْمِ طَرْفٌ بِالصَّبَاحِ كَلِيلٌ
وَلِلنَّجْمِ طَرْفٌ بِالصَّبَاحِ كَلِيلٌ شَوَى أَهْمِ الظُّلُمَاءِ مِنْ حُجُولٍ^(٢)
شَوَى أَهْمِ الظُّلُمَاءِ مِنْ حُجُولٍ وَخَرَّقَ سِتْرَ النَّيْمِ مِنْهُ نُصُولٌ
وَلَفَّضَتْ عَيُونُ لِلْفَمَامِ هَمُولٍ^(٣) يُدَارُ عَلَيْهَا مِنْ صَبَاهِ شَمُولٍ^(٤)
لَحْنٌ خَفِيفٌ دُونَهَا وَهْدَبِلٌ^(٥) يَطْلُحُ خَفِيفٌ دُونَهَا وَثَقِيلٌ^(٦)

وهو يقول إن السحر تراهي ومعه نسيم رقيق وأصاب طرف النجم بعض الكلال ، وكأما الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء يياض في قوائمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرق ستار النيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الفمام بسيل من المطر ، وتنتشت غصون البان وكأما يدار عليها ككوس من ريح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يبنى على الغصون ، ويُسَمِّعُ حفيفه وهو يسقط على الأغصان وترتيبه ، ويقول إن الحمام إذا ترنمت ورددت صوتها فاق لجمالها الخفيف والثقل بما يبلحنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشُّفَّاءَوِي المتوفى أيام النصور السعدي سنة ١٠٠١ للهجرة في روض^(٧) :

أَمَا تَرَى الطَّيْرَ بِالْأَذْوَاحِ سَاجِغَةً تُحْكِي مَزَامِيرَ مَنْ لَانَ الْحَدِيدُ لَهُ
تُنْفِي عَنِ الصَّبِّ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ كَرْبٍ وَالْبَيَانَ يُرْقِصُ مِنْ تَرْجِيمِهَا طَرِبَا
وَالْمَاءَ مُنْسَكِبٌ وَالظُّلَّ مُنْسَحَبٌ وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ الطَّيْرَ يَتَرَنَّمُ فِي الْأَشْجَارِ وَقَدْ أَدَمَّتْ أُنْمَالُهَا الْحَمَرَاءُ مَا تَقِفُ عَلَيْهِ مَتَفِيَةً مِنْ

(٥) هديل : صوت الحمام .

(٦) قررت : رددت . يطح : يسقط .

(٧) النبوغ المغربي ١٣٧/٣ .

(٨) الرصد والزبدان : من ألحان الغناء .

(١) الواضي ٤٤٦/٢ .

(٢) شوى : أطراف ويريد التوائم . حجول : يياض .

(٣) همول : دافقة .

(٤) شمول : ضمير .

أوتار العبدان تحكي بضاهاها مزامير داود الذي ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزبدان ، وتنحى عن الحب ما يقبله من كُرب الحب بل تجعله كُنه أسير لحيه يردد صلاته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهو بضحك عن ثبور لؤلؤة ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، وهب نسيم منمش . ونمضي إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة^(١) :

إن بين الغمام والزهر الفد ضُ لِرُحْمَا قَدِيمَةً وإِخَاءَ
بان إلفَ عن ألفه فتورى فى الثرى ذا وذلك حلُ السماء
فإذا ما الغمامُ زارتُ جَنَابًا آذنتُ فيه بالحبيب اللقاء
ذكرتُ عهده القديمَ فحننتُ عند لقياه فاستهلَّتْ بُكَاءَ
فترى الزهرَ بارزا من خبايا هُ يحى الوفودَ والأصدقاء
راقصًا والصبا تهنيه والورُ قُ غولى القبان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر تورى فى الثرى والغيث تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكُنه يرقص وريح الصبا تهنيه ، والحمام قبان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا^(٢) :

مُدُّ للتلوان أشراكَ النظر فى ابتهاج الروض من وجَدَ المطرُ
وتلقُ الأنسَ عن آسِ الرُسى وارو طىَّ النورَ عن نشرِ السحرِ
وارتشفَ نَفَرَ أفاحِ باسمِ واضطجع بالطلُّ من كأسِ الزهرِ
والتيثمُ وجةً بالنسي منبشرا حيث رامَ الفصنُ ثقبيلَ النهرِ
وجلا السوردَ حدودًا أثريت خمرة العقبانِ من فرطِ الحفرِ
وحيا الخيرى أنفاسَ الصبا نفحاتٍ فتمشَّتْ ميثَ الفكرِ
وتبرى السرسنُ يُهدى ذهابا فى صحافِ مَرَعَاتٍ من دررِ
نظمتُ فى جِده أمدَاؤه عقدَ دُرٍّ كلما ماسَ انتَرِ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدُّ فيه جِالات النظر لملك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقُ الأنس فيه عن آس الرى البديع ، وتمتع بروائع النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من نثر الأفاح الباسم .

(١) النبوغ المغرى ١٤١/٣ .

(٢) النبوغ المغرى ١٣٩/٣ .

ولكن صيحوك بالطل تتم برؤيته في كوس الزهر ، ولثلم وتقيل وجه الأملئ مستبشرا ، حيث كل شيء من حولك بنعم بالتقبل كما تقبل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيرى أنفاس الصبا بنفحات تحيى ميت الفكر ، وأخذ زهر النسر ينهدى ذهبا فى صحاف ملينة بالدرر ، ونظمت الأنداء فى جبد الروض عقد لآلء كلما تحرك لشر . وحرى بنا أن نتحدث عن وصاف كبير فى العهد السعدى .

عبد^(١) العزيز الفتشالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفتشالى ، آباؤه من قبيلة فتشالة فى الشمال الغربى لفلس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتوفى سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م ، وتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ الشعر والنثر حتى نضجت ملكة الأديبة ، مما جعله يلحق بدواوين الدولة السعدية ، وأعجب به المنصور الذهي ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش يقدم له مدائحهم ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرئ فى كتبه : روضة الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الولد من البلاغة والبراعة النهل الأحلى ، نشأة الدولة المنصورية (دولة المنصور الذهي) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافى من قبتها ومستمد أحرارها ، المقدم فى الفضائل والمحسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه فى كتبه نوة المجال : « فقيه أدب ، نائر ناظم ، على الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى الشيم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين والبراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعرا كاتبا أو أديبا كان عالما مؤرخا لدولة المنصور وترجم لمعاصره فى كتبه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى ترجع إليها فى العصر . وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمرثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ، وجانب ذلك له أشعار فى وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقبه وما ازدان به من التماثيل والنقوش ، مما يدل - بوضوح - على مدى الحضارة الثرثرة التى اتصف بها عصر المنصور الذهي . وفى الإشادة بقصر البديع يقول عنه فى كتبه : « المناهل » : إنه من الآثار التى لم يخلق مثله فى البلاد .. وإنه المثل المضروب فى الأرض عظمة وضخامة ، وجلالة وفخامة ، وتفتنا وتثقا ، وفى وصف مبانيه يقول :

والنوغ للغزيرى ١/٤١٢ ، ٣/١٢٨ وما بعدها والوافى ٣/٦٨١ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق السيدة نجاة الربى .

(١) انظر فى ترجمة الفتشالى وأشعاره روضة الآس ص ١١٢ ودرة المجال ٢/١٣٠ والمتنقى (انظر الفهرس) ونشر المتن ١/٢٤١ وخلاصة الأثر للسحى ٢/٤٢٥

سَلَبَتْ تَمَائِلُهَا الْحِجَابَ لَمَّا اخْتَدَتْ تَزْهَوُ بِمَحْنٍ طَرِيزَهَا تَذْهِيبًا^(٥)
وَلَقَدْ تَشَامَخَ فِي الْمَلُوفِ سِمَاكُهَا فَجَرَى عَلَى الْفَلَكَ الْمَسِيرَ جَنِيًّا^(٦)
وَسَمَا إِلَى الشَّهْبِ الزَّوَاهِرِ فَاخْتَدَى الْفَ إِكْلِيلُ مِنْهَا تَاجُهَا الْمَنْصُوبُ^(٧)
أَخْضَى الْغَزَالَ حُنَّهَ حَسَدًا لَمَّا لَهَدَى عَلَيْهَا لِأَحْمِيلٍ شَحُوبًا^(٨)
وَانْقَضَتْ الزُّهْرُ الْمُنِيرَةُ إِذْ رَأَتْ زَهَرَ الرِّيَاضِ بِهِ يَنْوَرُ عَجِيًّا^(٩)

وهو يقول إن تمائلا (تمائلا والصور المنقوشة في القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طريزها المذهبة ، وقد تماهى في الارتفاع سماكها حتى غدا القصر ككته مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل في ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح ككته المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا ككته تاجها المنسوب . وناهيك بحسنه ، فقد أخضى الشمس وبدا شحوبها واضحا في وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضيئه ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بهو في القصر بمرمر أسود في مرمر أبيض :

لِلَّهِ يَهْوُ عَزٌّ مِنْهُ نَظِيرُ لَمَّا زَهَا كَالسَّرُوضِ وَهُوَ نَضِيرُ
رُصِفَتْ نَقُوشُ بِنَاهِ رَصَفَ فَلَاتِدِ قَدْ نَضَّدَتْهَا فِي النُّحُورِ الْحَوْرِ^(١)
فَكَتَبَتْهَا وَالتَّيْرُ سَالِ خِيَالِهَا وَشَى وَفَضَّةُ تَرْبِهَا كَافُورِ^(٢)
شَاوُ الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنْ وَصْفِهِ سُبُلَانِ فِيهِ خَوْرَنْقُ وَسَدِيمِ
فَإِذَا أَجَلَّتْ اللَّحْظُ فِي جَنَابَتِهِ يَرْتَدُّ وَهُوَ بِمَحْنٍ مَحْشُورِ^(٣)
صَفَّتْ بِضِفَتِهَا تَمَائِلُ فَضَّةٍ مَلَكَ النُّفُوسَ بِمَحْسِنِهَا تَصَوِيرِ^(٤)
مَا بَيْنَ آسَادٍ يَهْجِي زَيْرُهَا وَلِأَسَاوِدٍ تُسَلِّي لَهْسَنُ صَغِيرِ

وهو يقول ما أروع بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفِّتْ نقوش بنائه تصفيف فلانيد سوئها على النحور فاتنة أو فائتات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمى على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسديم اللذين كانا بقرب الحيرة في الجاهلية ، وحين تجيل البصر فى جواربه يرتد حسيلا كليللا لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بصفة هذه النقوش صور فضية تخلب الأبواب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزلزل وجماعات

- (١) تمائلا : تمائلا المنقوشة في القصر . الحجا : (٥) بهو : بخصيه .
العقل . (٦) نضدتها : نضفتها .
(٧) التير : الذهب . (٢) جينا : مماذبا له .
(٨) محشور : كليل ضعيف . (٣) الشهب : النجوم . المنقود .
(٩) الغزاة : الشمس . (٤) تماثل : تماثل ونقوش .

من الطير كثفها تصفر صفيرا متصلا . ويترشح في وصف قبة التصفر ، وما تشرف عليه من
النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرُ البدرِ دونيَ وانعطأ
وصنعتُ من الإكليل تاجا لفرقي
وأصبح قرص الشمس في أذني قرطا
ونطقت بي الجوزة في عنقي سبطا^(١)
ولاحت بأطواق الثريا كثفها
وعديت عن زهر النجوم لأنني
وأجريت من فيض الساحة والندى
خليجا على نهر المجرة قد غطى

والقبة تقول إني سموت وتعاليت في السماء ، فسقط البدر دوني وأصبح قرص الشمس
في أذني قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لفرق رأسي ، وتعلقت نجوم الجوزة في
جيدى عقدا ثمينا ، ولاحت في الأعلى الثريا ونجومها وكثفها ثبات فضة تعقبت لقطا ،
وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه زحل ، وأجريت من الساحة والندى
خليجا غطى على نهر المجرة في السماء وفاقه . ويترشح في وصف النهر الذي تشرف عليه
القبة :

تَنَضُّضُ ما بين الفُروس كُثَّة
حواليه من دَوَّح الرياض خرائد
وقد رقرقت حصاؤه حبة رطبا^(٢)
وغيد تجسر من غمائلها مِرطبا^(٣)
جنى الزهر للاح في ذوابها وعطبا^(٤)
كما مال نشوان تشرب الإسفطا^(٥)
سولة لديها الفيث أنكب أم كبطا
بحارا غدا عرض البسط لها شطبا^(٦)
هي الشمس لا تخشى كسوبا ولا غمطا^(٧)
سنا البدر حل من نجسوم السما وشمطا^(٨)

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الفروس كثة وقد تيدت حصاؤه حبة رطباء ،
وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد المستنورات اللاتي يتنقن في ثيلهن ، ويخل إليك
إذا فتحت الزهر في أعالي فروعهما اللدنة كثة وخط شيب يجمع فيه السواد والبياض ، ويميلها
النسيم مترعة إذا مر بها كما مال مخمور شرب غمرة الإسفط المتعقة ، وإنه ليشق رياضها بهطل

(١) نطقت : علقت . نواصيا . وعطبا : شيا .

(٢) نطت : علقت . سطا : عقدا .

(٣) الإسفط : حجر متعق .

(٤) كيوان : كوكب زحل .

(٥) اللجين : الفضة . البسط : المبط من الأرض .

(٦) تنضض : مال . رقرقت : لمعت . رطباء : بلونها تظ .

(٧) الفسط : الانقاص .

(٨) غمطها : حللها . مرط : ذبل طويل للتوب .

عليها جود المنصور الذهبي وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقي في تسكبه أو لبطاً ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً (انتقاماً) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتأثر حولها من حباب الماء كالبدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشداً :

| | |
|--|---|
| إذا غارتْها الشمسُ ألقى شعاعها | على جسمها الفضي نهرها بها لُطاً ^(١) |
| توسَّتْ فيها من صفاء أديهما | نقوشاً كأن المسك يَنْقُطُها نَقْطاً |
| إذا اتسقت يِضُ القِيَابِ فَلَادَةٌ | فبني لها في الحسن دُرُّها الوُسْطَى |
| تَكْنُفِي يِضُ الدُّمَى فكَتْهَا | عَذَارَى نَضَّتْ عَنْهَا الثَّلَاثُ والرَّيْطُ ^(٢) |
| قدودٌ ولكن زادها الحسنُ عُرْبُها | وأجملُ في تَجمِيعِها النَحْتُ والخَرْطُ |
| نَمَتْ صَعْدًا تِيجَانُهَا فَكَسَّرَتْ | قَوَارِيرُ أَفلاكِ السَّمَاءِ بِهَا ضَغَطُ |
| فِيَالِكُ شَأْرًا بِالعَادَةِ أَهْلًا | بَأَكَافِهِ رَحْلُ العِلا والمُهدَى حَطًّا ^(٣) |

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلت كأن نهرًا من الضياء والنور التصق بها متبالاً للنهر الذي يجري بجوارها ، وحُيِّلَ إلى من صفاء يياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء في أعالي القصور العظيمة فَلَادَةٌ كانت دُرُّها الوسطى وقتها الثريدة التي لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بي عازية ، وكأنها عذارى خلعت عنها الثلاثة والياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسنا ، والنحت والخرط نعومة وورشاقة ، وتعالَت تِيجَانُها صاعدة في السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قبة شامخة أهلةً بالعادة وقد هبط في أكافها وجوانبها رَحْلُ العِلا والمُهدَى ، ويمضي منشداً :

| | |
|---------------------------------|--|
| وكعبةٌ مجدي شادها العزُ فانبثرت | تطوف بمفناها أمانى الزرى شوطاً |
| ومسرح غزلان الصريم كناسها | حنايا قباب لا الكيب ولا السُّفَطُ ^(١) |
| فلكن به ما طاب لا الأثل والخنط | ووسدن فيه الوشَى لا السدَر والأرطى |
| سراه من المسك الفتي ملبر | إذا ما زجته السحب عاد بها خيلطاً |
| وإن باكرته نسمة سحرًا سرى | إلى كل أنف عَرَفَ غَبره يَسْطاً |
| أفترت له الزهراء والخلد وثنت | أولوين كسرى الفرس تَقطعه غَبَطاً |

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعاها العز في عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

(١) المريم : الفطح . كسبه : ينه . السط : منقطع الرمل .

(١) لُطُ بها : انتصت .

(٢) الرِيط : ملاءة .

(٣) الشَّارُ : الحمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .

شوطا وأشواط رجاء أن تحقق على يد النصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كتابا أو بيوتا للفرلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وفيها لثلوك ما طاب لها لا ما تلوكه فرلان البوادي من شجر الأثل والخطم ، وفيها لتوسد الوشى المنق لا شجر البوادي من السدر والأرطى ، ولما الترى نقه من قنات المسك وإن المطر ليخط به حين يسقط فيصبح غيلطا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتا ، ويقول إن قصر الخلد يبتدأ وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أولوين كسرى لتخطه . ولعل فى كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده - منذ الجاهلية - يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأين لذكر فضائل الميت تصورا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أمى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول^(١) :

أتانى نعى ضاق صدرى بحمله وصدرى - كما قد تعلمان - رحيبُ
فمر بقلب لم تدمل قروحهُ كما مر بالجمر الدفين هوبُ
فحتى متى ترى الرزايا سهامها وتفصلنى عمدا بها نصيبُ
وحتى متى ألقى رزايا ممضةً يكاد لإحداها الحديد يذوبُ
ولكن قضاء الله حتم فليس لى سواه على حمل الخطوب حبيبُ
يقولون لى صبرا ونصار تلهفى لها بين أحناء الضلوع رَجِيبُ

وهو يقول لصاحبه إن نعى أخيه أنه ضاق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزانه وكأنه ربح عاصفة ، وأصاب قروحه التى لم تبرا ، فعادت تأله ، ويقول إلى متى تفصلنى الرزايا بسهامها ففصلنى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذنته غير أنه قضاء الله المحتم وينبى للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أختى تضطرم وتلدغ فى أحناء ضلوعى . وهزى يميون الخطيلى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجدة عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله^(٢) :

(٢) النبوغ للمرى ٢٧٣/٢ .

(١) الرانى ١٩١/١ .

أَرْجَتْهُ الصَّبَقُ يَوْمَ التَّفْنِخِ فِي الصُّورِ أَمْ دَكَّةُ الطُّورِ يَوْمَ الصَّبَقِ فِي الطُّورِ
أَمْ هَذِهِ الْأَرْضُ إِظْهَارًا لِمَا زَجَرَتْ بِهِ الْخَلِيقَةُ مِنْ لِيْفَاعٍ عَذُورِ
أَمْ الْكَوَاكِبُ فِي آفَاقِهَا فَتَثَرَتْ وَبَاتَتْ الشَّمْسُ فِي طُلُوعِهَا وَتَكْوِيرِ
مَا لِلنَّهَارِ تَعَرَّى مِنْ ثِيَابِ سَنَاءِ وَشَلَّةِ اللَّيْلِ فِي أَتُوبِهَا وَتَجْوِيرِ
أَصْبَحَ لَسَمْعٍ مِنْ ثَبَاتِهَا نَبَأٌ يَطْلُو مِنْ الْأَنْسِ فِيهَا كُلُّ مَنُورِ
وَإِنِّي مَعَ الْعِيدِ لَأَعَادُتُ مَضَاجِئَهُ فَشَابَ سَلْسَالَهُ الْأَصْفَى بِتَكْدِيرِ^(١)
نَسْرُورَةٍ عِنْدَمَا رَأَيْتُ بِدَوْحِهَا أَهْوَتْ إِلَى التُّرْبِ مِنْ بَيْنِ النَّوَارِ
جَارَ الذَّبُولِ عَلَيْهَا عِنْدَ مَا مَلَأَتْ مَعَاطِسَ الدُّهْرِ مِنْ طَيْبٍ وَتَطْطِيرِ

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجعة الصق يوم بنفخ في الصور ، فيصق من في السموات والأرض ويهتفون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنها الأرض هذت وتناثرت الكواكب وكوّرت الشمس ، كما جاء في الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهي مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرى من ثياب ضيائه وغطاء الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرفف سمعك لنبا طوى كل ناس وكل سرور ، نبا وإنني في أواخر رمضان مع العيد ، فكثير كل صاف فيه ، وما النبا ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى التراب من بين أحواتها من الزهرات والنواير ، وجار الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزله لمن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فاني ، فينبغي أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شيء يفنى بتلير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين محو وميتور ، فلا تخدعك الليالي ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له في خاتمة قصيدته : سلم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد التنوفي حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه^(٢) :

شَابَ تَوَى شَلَبَتْ عَلَيْهِ الْمَفَارِقُ وَغُصِّنَ ذَوَى تَأَقَّتْ إِلَيْهِ الْهَدَائِقُ^(٣)
عَلَى حِينِ رَاقٍ النَّاطِرِينَ بِسُوقِهِ رَمَتْهُ سَهَامٌ لِلْعِيُونِ رَوَاشِقُ^(٤)
عَمَدُ إِنَّ الصِّرَ فِيكَ مُصَارِمُ عَمَدُ إِنَّ الْوَجْدَ فِيكَ مَصَادِقُ^(٥)

(١) بسوقه : ارتفاع شأنه .

(٥) مصارم : مقاطع .

(١) مضاضته : آله .

(٢) الوافي ٣٩١/٢ .

(٣) توى : هلك .

ونالقه مالى بعد عيشك لذة ولا راقنى مرأى لعينى رائق
فإن ألفت فالشخصى للعين مائل وإن أسمع فالصوت للأذن طارق
وإن تفرع الأبواب راحة فارغ يطير عندها قلب لذكرك خائف
فيا واحدا قد كان للعين نورها وكل ضياء بعد بئسك غاسق^(١)

وهو يكي ليه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرؤوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تنوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبله وذكاؤه ، وكثما رمت سهام للعين سريعة أنيل ممن ترميه ويقول له إبنى لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقى ، ولم أعد أجد فى عيش بعلك لذة ولا عاد يروقنى شيء بمجب العين . ولأنك لئلا كل ما حولي ، فإن ألفت أشعر كأن شخصك مائل أمامى ، وإن أسمع أشعر كأننى أسمع صوتك ، وإن يفرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذى يقرعها فيخفق قلبى ويطير ، كأنه يريد أن يلقاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلم لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبى التوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤمن العالم الجليل مواطنه ابن هاتىء وقد استشهد فى حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م^(٢) :

| | |
|----------------------|----------------------|
| قد كان ما قال البريد | فاصبر فحزنك لا يفيد |
| أودى لىء هاتىء الرضا | فاعتادنى للشكل عيد |
| بحر العلوم وصدرها | وعميدها إذ لا عميد |
| قد كان زينا للوجود | في فيه قد جمع الوجود |
| العلم والتحقيق وال | توثيق والحسب التليد |
| أودى شهيدا باذلا | مجهوده نعم الشهيد |
| فلن يلىء فإن ذك | رك فى الدنيا غص جديد |
| وتمهدتك من المهيد | من رحمة أبدا وجود |

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهد ابن هاتىء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هاتىء الذى كان تمثالا للرضا والتفاعة ، فنزل بي من فقدته ما يعتادنى من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يسير غوره وإماما أو عميدا لا يمثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكثما جمع فيه الوجود ما شئت من علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفى شهيدا باذلا

(٢) النبوغ المرقى ٢٧٧/٣ والوفى ٤٥٨/٢ .

(١) غسق : مظلم .

رُوحه في جهاد أعداء الدين ، نعمة الوفاة ونعمة الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكره
ستظل تجدد خالده . ويدعوه له به أن يتممه برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفي
النبوغ المغربي للشيخ القصار في رثاء أبوه مرثية ، يقول فيها^(١) :

| | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| زُرْ والدك وقفْ على قبريها | فكُنْني بك قد نُقِلْتُ إليهما |
| كنا إذا ما بُصرنا بك علةً | جزعاً لما تشكو وشقاً عليهما |
| كنا إذا سمعنا بُيِّنَكَ أنبلا | ذنبهما أسفاً على خدَّيهما |
| وتمنياً لو صادفنا لك راحةً | بجميع ما يحويه مُلْكُ يديهما |
| بُشْرًا إن قدَّمْتَ فعلاً صالحاً | وقضيتَ بعض الحق من حقَّيهما |
| وقرأتَ من آي الكتاب بقدر ما | تسطَّيحه وبعثتَ ذاك إليهما |

وهي مرثية للأبوين فريدة في العرية ووصية لكل ابن توفي أبواه أن يزور قبريهما فليته
موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كنا عطفين عليك عطفاً لا حدَّ له ، فكنا
إذا رأوك مريضاً تشكو جزعاً لشكوك جزعاً ما مثله جزع ، وإذا سمعنا بُيِّنَكَ من علة ذرفا
دموعهما على خدَّيهما مدرارا ، وتمنياً لو أُتيحت لك راحتك بجميع ما يملكون في دنياهم .
وَبُشْرًا بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلاً صالحاً وقضيت بعض ما لوالدك من
حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ،
ليقبلهما الله قبولاً حسناً . ويقول ابن زاكور المتوفي سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م في مصر
الملوى برمي سيدة فاضلة من أهله^(٢) :

| | |
|--|--|
| سَمَى الرحمن قَبْرًا صَمَّ شَخْصًا | تَسْرَبِلَ بِالْمَكَارِمِ وَلَزَنَدَهَا |
| وَنَضَّرَ مَضْجَعًا لِفَتَاةٍ صِدْقٍ | حَوَى غَرَّرَ الْفَضَائِلِ إِذْ حَوَاهَا |
| لَقَدْ كَانَتْ تَحْضُرُ عَلَى الْمَعَالِ | وَتَنْدَبُ لِلْمَكَارِمِ مَنْ لَهَا |
| وَأَلْبَسَهَا الثَّوْبَ حُلَى كَسُوفٍ | فَهَلَّا فَعَّلَهَا الْوَفَايَ حَسَاها |
| فَكَمْ أَحْبَبَتْ مَوَاهِبَهَا كَيْفًا | أَحْلَتْهُ التَّوَابُّ فِي جِوَاهَا |
| وَكَمْ رُبَّتْ بِقَمْعِيهَا بَيْنًا | قَلَّتْهُ لُئِمَّةٌ حَتَّى سَلَاها |
| لَنْ مَاتَ فَمَا مَاتَ حَلَاها | وإن لَوَدَّتْ فَمَا أودَى عَلاها |

وإبن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التي ليست حلال للمكارم أن
ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضُرَ مضجعا ويملاهُ رونقا ، إذ هي فتاة صدق وفضائل عظيمة ،
ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالي والأعمال السلية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربي ٢٨٠/٢ .

(٢) النبوغ المغربي ٢٩٩/٢ .

الساطة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحييت مواهبها وعطاياها تيمناً وأقذته مما يخرم من كآلة وهم ، وكم خنت على بيم ورعته حين نهذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزنها من أفضال وسعولا نظير له . وفي زيارة مقبرة يقول الطبيب بن مسعود المريني المتوفى سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م^(١) :

| | |
|---|-------------------------------------|
| أَتَيْتُ الْقُبُورَ أَذْأَىٰ بِهَا | فَسَاوَةً قَلَىٰ الَّتِي أَجِدُ |
| وَقَمْتُ نَسَائِلَ عَنْ أَهْلِهَا | وَهِيَّاتَ لَا خَيْرَ يَوْجِدُ |
| رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِزَّةً | تُذِيبُ حُشَاةً مَنِ يَشْهَدُ |
| أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا | وَعَلَبُوا بِالْقَوْدِ مَا وَعَدُوا |
| دَعَاهُمْ عَلَى الرَّغْمِ دَاعِيَ الرَّدَىٰ | فَلَبَّوهُ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ |
| وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ | وَعَبَّرَ عَيْشَهُمْ الْأَرْغَدُ |
| وَحَلَّوْا بِطُونَ الثَّرَى تَحْتَهُمْ | تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جَلَمَدُ |

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها فساوة قلبه ، وأخذ يسأل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خير عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لذوب روحه أسى ، فقد أقاموا في دنياهم ورحلوا عنها وغلبوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعي الهلاك فلبَّوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُذِلَ عيشهم الرغد المفنى وحلوا بطون الثرى ، تحتمهم تراب وفوقهم صخور ، فحرى بالإنسان أن يبتسر ويحتظ . ولعل مصباح الزرورلى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأييد الفقيه جسوس الشهيد^(٢) .

| | |
|---|---|
| حَلٌّ بِالْدِينِ يَا لِقَوْمِ بِلَاءٍ | أُحْجِمْتَ دُونَ وَصْفِهِ الشَّرَاءُ |
| قَتَلَ الْيَوْمُ أَعْلَمَ الْأَرْضِ ظُلْمًا | فِيهِ لِلْإِسْلَامِ حَقُّ الْمِزَاءِ |
| قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ أَمَّا | ذَا أَعَزَّتْهُ السُّنَّةُ الشُّنَاءُ |
| قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ لِلشَّرِّ | عَ حُسَانًا تَهْلِيهِ الْأَمْرَاءُ |
| قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلْحَقِّ قَرًّا | لَا وَمَا إِنَّ تَضَلُّهُ الْأَهْوَاءُ |
| يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ سَارَ فِي الْأَر | ضِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ بِهَا الْأَنْبَاءُ |
| عَمَّتِ الْمُسْلِمِينَ رُزْءًا فَاضْطَحَّتْ | كُلَّ عَيْنٍ مِنْهُمْ عَرَاهَا الْبِكَاءُ |

والزرورلى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حل بالدين الحنيف ، فقد قتل ظلما أفقده الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنبياء وطارت

(١) النبوغ المريني ٢٩٨/٣ .

(٢) النبوغ المريني ٢٨٤/٣ .

كل مطار في الأرض وفي السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . وتوقف قليلا لتحلث عن شاعري الرثاء : ابن شعيب الجزناني وأبي على اليوسى .

ابن^(١) شعيب الجزناني

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزناني ، منشؤه ومباه في مدينة تازا ، ووجد على مدينة فاس فُرفُف فضله ، والتحق بدواوين أبي سعيد المريني ثم ابنه أبي الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه في فتحه لتونس ، وبها توفي سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة يعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعاليمي الفاضل الطيب الأديب النبأى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية في قرض الشعر وإمام في التعاليم (علوم الأوائل) وواحد في المعرفة بالأشجار والنبات » . وفي الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وإليه تسرى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجولرى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحب لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يُرى إلا في تأوه دائم ، وله أشعار بديعة في رثائها ، ومن قوله فيها :

| | |
|------------------------|-----------------------------|
| أُعلِمتُ ما صنع الفراق | قُ غداةَ جَدُّ بها الرِّفاق |
| ووقفتُ منهم حيث للـ | خطرات والدمع اتساق |
| سبقتُ مطاياهم فما | كُبطا بنفسك في السباق |
| أولى بجُحُمتك أن يـ | قُ ودمع عينك أن يُراق |
| أما الفؤادُ فعندهم | دَعَه ودَعَوَى الاشتياق |
| وهاً لسالفة الشبا | بِ مضنْ بأيامي الرِّفاق |
| لُبقتُ حرارةً لوعَةٍ | بين الترائب والتراق |

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بي غداة أسرع بي الرفاق ، لقد وقتت منهم أفكر في صاحبتى وأطيل النظر وعيناي تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركتني إلى غير أبواب فأولى بجسمي أن يعضني صلبة بها وأول لعيني أن تسيل دموعها سيلاً لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتي على أيام الشباب السالفة التي ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لي إلا حرارة لوعة في صدري بين الترائب والترائب لا تبرحنى ، ويكي صبحا في مرثية أخرى قاتلا :

٣٧٥ والوفى ٤٢٤/٢ والبرغ المغربى ٢٣٧/١ ،
٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين
بن الخطيب ٢٧٢/١ ونيل الأبحاج للتيكى ص ٦٨
واللسند في ترجمة أبي الحسن المريني لابن مرزوق ص

يا صاحب القبر الذى أعلانه درست ولكن حبه لم يذرس
ما اليأس منك على الصبر حامل أبانتى فكنتى لم أبأس
لما ذهب بكل حسن أصبحت نفسي تملئ شجون كل الأنس
يا صبح أبهى ليال كلها لا تجلسى عن صبحك المتفسر

وهو يخاطب صاحبه قائلا إن ما حول قبرك من معالم درست وأنت ولم يدرس حبك ولم يمتح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقاتك لا يحملنى على الصبر ، وقد أبانتى من لقاتك وكنتى لم أبأس ، ولما ذهب بكل حسن وجمال أصبحت كئيبى لأجل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبتاتهم الحسانات ، ويقول لما إن أبهى كلها بعك أصبحت كئيبا ليل متصل لا يتفس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبر صبح حل فى لك لمهجنى أسنى الأمل
وغدوت بعد عينها أشهى البقاع إلى العيان
أخشى النية إليها تنصى مكثك عن مكثى
كم بين مقبور بفا من وقبر بالقبروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حل فى أجمل الأمل - كنت - لمهجنه وروحه ، ولقد أصبحت بعد عبقها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، ولما لأخشى الموت أن يبعد بين مكثك ومكثى ، ويقول إنها توفيت بفلسى وكان فى القبروان مع أبى الحسن المربى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبه قوله :

يا غائبا فى الضمير ما برحا دنى محل الهوى إذا نرحا
لم تضمر الصبر عنك جارحة ولا فؤادى لسورة جنحا
مستغبر الزن فبك أدمه يظل يبكك كلما سقحا
ولا أرى البرق عاد متسا بعك بل زند شوقه قدحا
وما تننى الحمام من طرب بل يملن النوح كلما صدحا

وهو يقول لصاحبه إذا غبت ونزحت لا تزالين دمية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضمر الصبر عنك جارحة أو أن يهجن فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى الزن أن تسيل حتى تفيض أدمه ويظل يبكيك غيبها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يمتنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل ماتم صاحبه صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفلسه الأخيرة .

أبو علي^(١) اليوسى : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل فى طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماسة . وفى نحو العشرين من عمره استقر فى الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م ، وهى السنة التى استولى فيها السلطان الرشيد العلوى على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما فى الخزائن من الكتب ، وأمر شيوخها: اليوسى وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدهما ولم يبق منها بقية . وأخذ اليوسى يحاول استعادة مكانته العلمية فى فاس ، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظى برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارئته سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الأخاذ بسحر بيته الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

| | |
|--|--|
| كُلُّهُ جَفَنَ الْعَيْنُ أَنْ يَشْرَ الدَّرَا | فِيئِي وَبِعَاضُ الْعَقِيقِ بِهَا جَمْرًا ^(٢) |
| وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكُمِ الْوَجْدَ سَاعَةً | فَيُفْشِي وَإِنْ اللُّومُ آوَنَةً أُغْرَى |
| وَكَلَّتْ عِمْرُونَ الْحَادِثَاتِ غَوَافِلَا | زَمَانًا وَخَطْبُ الدَّهْرِ كَانَ بِنَا غُرًّا ^(٣) |
| عَدَّتْ غُدْوَةً أَيْدَى الْحَوَادِثِ فَاخْتَلَتْ | خَلَاهَا فَعَادَتْ بَعْدَ نَضْرَتِهَا غُبْرًا ^(٤) |
| وَلِكَيْلَنْ مَأْسُوسَ الدِّيارِ وَأَهْلَهَا | بُوحْشٍ وَحَوْكُنَ الْأَهْلِلَ بِهَا قَفْرًا ^(٥) |
| فَلَا جَفَنَ إِلَّا وَهُوَ مُغْفَضٍ عَلَى الْقَدَى | وَلَا عَيْنٌ إِلَّا مِنْ نَجِيعِ الشُّجَا حَمْرًا ^(٦) |

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تشر لآلئ الدموع على الزاوية الدلائية فلبثا إلا أن تشر دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، وبسألها أن يكما الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكان اللوم يبرى على الإنشاء أكثر فأكثر . وكان الأحداث كانت غافلة عنها ، وكان خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذا أيدى الحوادث تأتى

(١) انظر فى ترجمة اليوسى وشعره : عبقريّة اليوسى للدكتور عيسى الجبرارى والزاوية الدلائية للدكتور محمد حبشى ص ٩٧ وكتاب الشعر الدلائي لعبد الجواد السفاط (انظر الفهرس) والنبوغ الغربى ٢٨٥/٣ والوانى ٧٤٠/٣ .
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .

(٣) غُرًّا : غافلا
(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .
(٥) الأهيل : الأقول بالكان .
(٦) النجيع : الدم . الشجا : الحزن .

عليها وعلى ما حولها من الكلأ والنبات فإذا هي أرض جردة بل لقد أصبحت قفرا ، ولهدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفن إلا وهو ملء بالقذى ولا عين إلا وهي من الحزن حمراء كالدم . ويكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

| | |
|-------------------------------|--|
| رياض إذا بُهرتها ونشقتها | فلا تذكرن نجدا ولا تذكرن شجرا ^(١) |
| فمن لى بوادها إذا فاح رندة | ومن لى بمرعاه إذا أطلح المشر ^(٢) |
| ومن لى بروضات يفوق ضياؤها | على الشمس حسنا كلما لبتجت زهرا |
| وهل نفعة تكفينى المسك فاتحا | وهل شربة تكفينى الشدة مستمرا ^(٣) |
| وهل وقفة بين الطلول التى قضت | صروف الليالى فى معالمها نذرا |
| هنالك إخوان الفؤاد رفقة | هم للحشا خمرا فما يطلب الخمر |
| وتأى عجالا عنهم مثلما تأى | لبو صبية عنهم إذا بهم القبرا |
| بها هامت الأرواح من قبل خلقنا | ومن بعد ما كا واذ نبلغ الحشرا |

وهى رياض إذا بُهرتها ونمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبية ولا ديار الشجر بجوار حضرموت ، ومن لى بوادها إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفعة منها كالمسك فاتحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أتم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعنا عنهم سريرا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يدوها بأن الدهر لا يقنى على أحد ، وكم من عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكم من ملك أصله بالأرزاء وقهره وأذله . وقديما دارت صروفه على دارا ملك القرس وأذل بنى ساسان بعد عز لا يماثله عز ، وجر ذيله على الفساسة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتصم بن عباد المنفى إلى أعماق براكش ، فهل يشك أحد فى صولات الدهر ؟ . إنه دائما يصلح حتى على المحين إذ يحيل الوصل بينهما هجرا . ويقول :

| | |
|------------------------------|--|
| فلا تركبن للدهر إن نيمته | ظلال سحب يمسح السهل والوفا |
| ملول فما باقى على عهد خلّة | ولا مستديم فىك يمرا ولا عسرا |
| ولا تأتن لبناءه إن تمبوا | إليك فمن يشبه لبناءه فقد برأ |
| متى ما ارتجوا رغبة منك تقرؤا | إليك ولهمدا خالص الود والبسرا ^(٤) |

(١) شجرا : مرعا سائنا .

(٢) المشر : لغاه : أنية .

(٣) الشمر : إقليم على المحيط بمرتب عمان .

(٤) المشر : لغات الأعصر .

وَأَخْفُوا ذَمِيمًا كَانَ فَيْكٍ وَأُظْهِرُوا
وَأَنْ لَمْ يَرْجُوا مِنْكَ خَيْرًا رَأَيْتَهُمْ
إِذَا مَا رَأَوْا ذَا الْوَفْرِ لِأَذْوَا بِذَيْلِهِ
وَأَنْ يَحْصُرُوا بِالْمَلَقِ اهْتَرَأُوا بِهِ

وهو ينصح من يفروه أن لا يعول على الدهر ويكرن إليه . فإن نعيمه كظلم سحاب لا يلبث أن يزول ويصحى ، وهو ملول الطبع لا يقى على شيمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يؤمنون حتى لو تخبوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن عاسكتك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنى ذو الوفر فإتهم يلوذون به حتى لو لم يصبوا منه قطرة من خير ، وأما الملقى الفقير فإتهم يهزءون به ويعرضون عنه مفاضين . ويستمر ناصحا قائلًا :

وَأَنْ الْغَنَى بِالنَفْسِ لَا اللَّبْسَ مَجْدُهُ
وَأَنْ الْغَنَى مَا أَوْرَثَ الْمَرْءَ فِي الْوَرَى
وَأَنْ تُعْرِضَ النُّفُوسُ فَبُحْدٍ بِيَشَاشَةٍ
وَمَنْ لِلْهَوَى الْقَى الْقِيَادَ فَقَدْ هَوَى
وَمَنْ يَصْطَنِعُ عُرْفًا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ
وَمَنْ لَا يُجَبِّ قَوْلُهُ دَنْسَ الْخَنَا
وَمَنْ يَذْخِرُ تَقْوَى إِلَالِهِ وَذَكَرَهُ
وَمَنْ يَغْنُ بِالْمَوْلَى فَلَنْ يَخْدُمَ الْغَنَى

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشبه كدورة أصدانه ويذكر أن الغنى الحقيقي للمرأة هو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلماء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يذل لضيوفه من الثرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتنع

الغاية .

(١) لا تمري : لا تجحد .

(٢) المجر : الكلام الذىه النعيم .

(٣) النظر الشرد : النظر بمتوخر العين كتابة عن الازدراء

(٤) اللجين : النضة . النضر : يبرد اللحم .

والغضب .

(٥) النسر : كوكب . وطىء النسر : كتابة عن بلوغ

ولا يضيق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقي هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . ولما سقا بعض أليات من هذه القصيدة ، وهى تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الخفيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه الميعة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرهم ، حتى لا يكونوا عالة وعجبا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يوترون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان - ولا يزال - مما أضرم جذوته وغطت الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامى ، فهم يندرون ويخوفون من عذاب الجحيم ، ويشيرون الأنقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعباد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنسك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يفتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، وأهم منهممكين فى العبادة لربهم على رؤوس الجبال كالجبل^(١) الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأبضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجىء للعبادة ، تبنيا لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلحقة بها مبانى للشيخ والطلاب وتكفيهم متونهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونسكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . وبهنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السلالجى عبد الله بن عثمان التوفى - كما فى روض القرطاس - سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وتشد له صاحب الوافى هذه الأليات^(٢) :

(٢) الوافى ١ / ٣١٥ .

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

إذا العلمُ لا تَنَشَى غرائبه قلى
ولا أنا ممن جاوز الدُّرْبَ ناهضا
ولا كان حظيُّ منه إلا حكايةُ
ولا تَرْضَى بالخطِّ الخسيرِ سفاقةُ
تجلفوا عن الدار التي أصبحوا بها
وإن كان لا ينجيك إلا ركبُها
ولا شاقى منه إلى المنهل العذب
إليه ، ولا أَرْضَى مقامى من رعى
على الناس أتلوها فحسى إذن حسى
فمثلك مَنْ قد حلَّ فى المنزل الرُحْب
على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب
فماذا التجانى عن مجاورة الرُربُ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إبنى بعيد عن درب النساك وإنه لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقى الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم - أو بمبارة أدق - النسك الذى يحياه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الآيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كتبت إرهابا لما سيُشيع فيه من الحركة الصوفية . ومن كان يتزعج إلى الزهد فى عصر المرابطين القاضى عياض ، وله يقول مبتهلا إلى ربه^(١) :

إليك بَسَوْتُ بَذْنِي فاغفرْ خطاياي رُبى
واسنُّ عَلَى بلطفٍ تَجَبَّرَ بِهِ صَدْعُ قَلْبِي
فقد رَكِبْتُ ذُنُوبًا سَوَّدَتْ مِنْهُنَّ كَتَبِي
وجئتُ أطلبُ تَوْبًا إذ ضاقَ بالذنبِ رَحْبِي
فاتَّيَلَّ بِفَضْلِكَ تَوْبِي واغفرْ بِرُحْمَاكَ ذَنْبِي
وعافيتُ واعفُ عَنِّي فُلَّتْ بِأَرْبِ حَسْبِي

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنباً آملاً فى أن يغفر له خطاياه ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوبا كثيرة ، سَوَّدَتْ كُتُبَهُ التى سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعا إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحماء ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قبل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقر أعند القاضى عمر الفاسى للار ذكره فى الغزليات^(٢) :

أَيُّهَا الْمُسْتَرُّ بِالزَّمَنِ فى هَوَاهُ خَالَعَ الرُّسْنَ
حُبُّكَ الدُّنْيَا وَزَيْتُهَا قَتَنَ عَمَّتِكَ بِالْفَيْزِ
ظَلَّتْ وَالْحَالَةُ شَاهِدَةً عَاكِفًا مِنْهَا عَلَى وَقَرِّ

(١) التَّحْرِيفُ بِالقَاضِي عِيَاضٍ ص ٩٧ .

(٢) الرُّوَايَةُ ١ / ١٧٩ .

فأهجرَ زيتها إن زيتها زينة شئتَ ولم تَزِنِ
خدعتنا إنها قبحت باطنا في ظاهرٍ حسنٍ
ولتقدم ما تُسرُّ به قبل طول البَثِّ والحزنِ
فكأنَّ أخراك مبرحت وكانَ دنياك لم تكن

وهو يخاطب الذى غره الزمن وغرته الأيام ، فأكب - غير مُزعجٍ ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالغ الرسن ، والكلمة كناية عن إكبله عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزيتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تنغره زيتها ، فهى زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعتنا ظاهرها البراق ، وهى فى غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسرُّ به فى المستقبل لا ما يحزنك ويملوك فى آخرتك ، فخلاص شئتَ قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الربيع الموحدى المترجم له بين الغزلين يخاطب نفسه^(١) :

يا نفسُ حسبك ما فرطتِ فازدجى عن الذنوب فإن القبرَ مثواكِ
خافى الإله لما قدمتِ من زللٍ واعصى هواكِ فإن الله يراكِ
إن الهوى قلما تجدى هوائه وهو الذى عن سبيل الرشد أفضاكِ
لشدُّ ما تعلمين الفرق بينهما ما كان أخراك بالأجدى وأولاكِ
إلى مَ تلهين عن قولى مغالطة وتوقنين بئسى غير أفلاكِ^(٢)
أضنى إلى فما فى الأرض من أحدٍ ألقى إليه صريح النصح إلّاكِ
تسوى إلى الله إن الله يقبلها واستنى بجهلك فى تحسين عُفاكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرطت من الذنوب ، وينبى أن تقلعى عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذى أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أخراك أن تتمسكى بالهدى ، وحى متى لا تسمعين لنصحي وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصفى إلى وإلى نصحي ، فإتق أقرب شيء إلى وليس فى الأرض من أسدى إليه النصح سواك ، خوى إلى الله نوبة حقة حتى يقبلها منك ، واعمل بجهلك على أن تحسن عُفاك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسى المراكشى الفاسى الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(٢) فتاك : كذّاب .

(١) الوائى ١ / ٢١٩ .

بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفترا فيما نظم
فى التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله ^(١) :

ذهب اللطامُ وأنت جذعٌ راقدٌ وأتى الصباحُ وأنت صخرٌ جامدٌ
وخلتْ على الإظلامِ منك مناسكُ وخلتْ على الإصباحِ منك مساجدُ
وأولوا التهجدَ ليلهم ما منهمُ لله إلا راكمُ أو ساجدُ
وهجمتُ - يا مغرورُ - ليلك كله وعليك من عين الإله شواهدُ
فانظرْ لنفسك قبلَ حينِ مماتها إن الماتَ على البريئةِ وابدُ
وتذكرْ السفرَ البعيدَ وطوله من غيرِ زادٍ والمجالُ فدائدُ ^(٢)
واذكرْ نشورك بعد موتك فجأةً وصحائفُ الأعمالِ منك تشاهدُ ^(٣)

وهو يهيب بالغافل عن نيك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ،
ويقول له إنك تمام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصباح ، وكثك صخر جامد لا حس
ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك
صباحا ، وأصحاب التهجد يُخيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك
أنها الممرور المذموم ، وإنه لحرقى بك أن تنظر لنفسك وتمتددها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل
من عليها فاني ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر :
واذكر بئتك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى
بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب
تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصرفه وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد
اتسع فى تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه - كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب
من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل »
مما جعل تراجم الكتاب تسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ،
وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه
سيخصه بمرآكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب
المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوقال زهاد المغرب ومتصرفه حتى
نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل
أبى الحسن بن حرزهم وأبى يمزى بن نور بن ميمون ، ويذكر بعض أشرارهم كهذه الآيات
التي ذكرها لابن تاحميس المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

(١) الذيل والشملة لابن عبد الملك المراكشى (٢) فلفند جمع فلفند : الغلاة .

(٣) نشورك : بئتك .

ولما ركب البحر نحوك قاصدا ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتك بالإخلاص والموج طامع بصدق وداد لم يكن قبل متعلا
أيا منفذ الغرقى وما ملهم التقى وما صمداً يقى إذا أذهب الكلا
لوجهك ذل التبر والبحر خاضع وحق لهذا الخلق أن يالف الذلا

وهو يتهلل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالا سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه قائلا : يا منفذ الغرقى ليس سواك ينجى يا ملهم المتقين تقواهم ، وما مقصودا يقى بعد أن يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس أن يتذللوا لك تذلا ما بعده تذلل فئت المنجى والمنقذ ومنغيث المستغيثين .

ونلتقى في أواخر القرن السابع بعد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف المحاذية للبحر المتوسط شمال المغرب الأقصى ، وكان كتبه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة أهل التصوف الذى عنى - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرف فيه بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بآيات يصف فيها زهده أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وآماله^(١) :

زهدا يريدون النجاة وأصبحوا وطعامهم فى الأرض نبت يلس
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما لهم سوى التوفيق شئ حليس
فجنتهم من كل شهو سالم ولتقم عن كل عيب نابس

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم مما نبتت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه على وجه الأرض من النبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شئ يحسبهم سوى عبادة ربهم ، وأذهلتهم بريرة من كل سهو ولستهم لا ينس بمب . وبجانب هذه المقطوعة من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية تنعود إليها فى حديثنا عن التصوف ويلقنا أبو العباس الشريف السبتي المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقتة بريرة^(٢) :

وثقت بالله رضى وحسبى الله حسن
والله كافٍ وواق دافع كل خطب
ولست أخشى إذا ما وثقت بالله رضى
بلغت فيها مرادى مهنا مع صحن

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافيني وحاميي وواقيني ودافع عني كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حد لها ، ثقة بلغت فيها كل مرادى وكل ما أؤمله في حياتي ، مما يحق لي أن أعتا بها مع صحبي الذين يثقون في ربه . وثقتي بلبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن بجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله في معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور فى تونس^(١) :

| | |
|----------------------|-----------------------|
| اشتدنى أزممة تنفرجى | قد أبدل ضيقك بالفرج |
| مهما اشتدت بك نازلة | فأصبر فقسى التفرج يجى |
| مولاك ارغب فاجابه | للمضطرين على درج |
| وألج عليه بمألية | فهو الجواد فكل وهج |
| أخلص فيما تدعوه وتل | يسر عسرى وأزل حرجى |
| لا حيلة لي لا قوة لي | إلا بك يا محي المسج |

وهو مؤمل فى رآيه ولا يئس أبدا ، ولذلك يقول أينما الأزمة المارة بى اشتدنى ومهما اشتدت فلا بد من الفرج وانخسارك عني ، ويتجه إلى قارته ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فمضى الفرج يأتيك سريرا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلطف بك فاجابه للمضطرين قرية النبال ، ولتدعه وتلج عليه فى الدعاء ، إذ هو الكريم الذى لا حد لكرمه ، فسله وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص فى دعائك والزلفى إليه ، وقل رب يسر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمى ، إنه لا حيلة لي ولا قدرة إلا بك يا محي المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه^(٢) :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| نسر العيب تغفر الذنب تعطى | تمنع العبد ، كل حكمك عدل |
| تجير الكسر تبدل المسر يسرا | تكشف الضر كل ذلك بذل |
| لم تزل محسنا غنيا كريما | أنت هو الخالق المزر المذل |
| فقراء وأغبياء على الباء | ب وقوف لهم خضوع وذل |

وهو يذكر الله صفاته الربانية ، فهو يسر العيب ويغفر الذنب ويعطى من غير حساب ويمنع لا راد له ، وكل أماله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذى لا يمكن جبره ، ويدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(٢) الوافى ٨٣٥/٣ .

(١) الوافى ٦٠٥/٢ .

نزل بحسنا لعبادك غيا جوادا ، فأنت الخالق المزم المذل ، وقد عم امتناتك وعمت عطائك كل الخلق ، وها هم فقراء وأغنياء يقفون بيلك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الماللي في العصر العلوي الترفي سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م هذا الدعاء^(١) :

لك الحمد كل الحمد يا راحم الضعف
لك الحمد ثم الشكر دون نهاية
إليك مددنا الكف كما تبيننا
نفاع ودافع وأحم يارب وأكفنا
وأبق علينا السر في كل حالة
وأعظم وأعز - يا عزيز - جنبنا
وزدنا من الخيرات فوق مرامنا .
بفضلك - يا مولى - تعالى عن الكيف

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء وبها دائم الإحسان وبها يطوى فيه من الرفق واللطف ، لك الحمد والشكر الذي لا نهاية له على نعم أسبقتها على ، وهي تجل عن أن تمد أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كي تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامتحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدم علينا السر في الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعز حملا وحطنا برعايتك من الخذلان والضميم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بال مخلوقات . وأشعار الزهاد في المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف - في حقيقته - مبالغة في الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعد كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالتصوف من بالغ في زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلنا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفي بها في الحب الإلهي حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج في القرن الرابع الهجري ثم من تابعه أمثال ابن عربي . ومن حين إلى حين يلتقنا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك في الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون في المغرب ، وهو ما هيا لظهور أمثال أبي مدين . غير أن هؤلاء في رأيي كانوا شذوذا على الطريقة السنية

(١) البوغ المغربي ٣٠٨/٣ .

التي اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجري الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبي الحسن الشاذلي . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السني القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المرفطين على ألسنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسّع في كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناطقا لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ في المساجد أيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل - كما أسلفنا - في ازدهار الزهد ونزعة التصوف السني في المغرب ، ولذلك كثر في كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بلبن الحجام محمد بن أحمد اللخمي المكناسي وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذا حظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص في وصاياه وتذكيره ، فنفع الله به خلقا كثيرا في بلاد شتى .. وله كتاب حفيظ في الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين في مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبه لربه التي تعد أس التصوف وجوهه^(١) :

| | |
|----------------------------|--------------------------------------|
| غريبُ الوصف ذو علم غريب | عليلُ القلب من حبِّ الحبيب |
| إذا ما الليلُ أظلم قام يكي | ويشكو ما يُكنُّ من الوجيب |
| يقطعُ ليله فكريا وذكرًا | وينطق فيه بالمجب العجيب |
| به من حبِّ سيده غرام | يجلُّ عن التطبُّب والطبيب |
| ومن يك هكذا عبدا محبًا | يطيب ترابه من غير طيب ^(٢) |

وهو يقول إن وصفه وعلمه في حبه لربه غريب ، ويشكو في حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما يكي ويشكو من شدة حبه ولحيه ، وأنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطيب ولا طيب ، كما يقول إن من يجب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه في حياته وفي قبره من غير طيب . ووعظ بإشيلية في الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره في الناس وإتقان القلوب لتذكيره بمقام نكل العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته في إشيلية ، وقد ندب الناس إلى ابتكالك أسارى لدى النصارى ، فصارح الناس إلى بذل ما حضروهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فمهدي بها قد تراكت أمام منبره حتى كادت تعجبه عن الأبصار ، سوى ما وعد به من الحاضرين ، وتجمع من أئمان تلك الثياب مال جسيم .

ولو قال ، « نطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لغداي
هنا الخطأ .

(١) الليل والفكلة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط في البيت

« يك » مجزوما وجوبه « يطيب » مرفوعا

ويعقوب المنصور الموحدى التوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حاضرنه مراکش ليستمروا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . وملتقى فى أواخر عصر الموحدين بصوفى كبير هو ابن المحلى وسنخصه بترجمة مفردة . ومر بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المربى وكتبه - المار ذكره - عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لسنة وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكله يهدم جميعا من التصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بآيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرنا تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تايوت فى كتابه الوافى^(١) ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصيان الفاسى :

الأنس بالله العظيم وذكره مما يزيد أولى التقى إيمانا
من كان نور الحق أيده غدا ولها من شغب به هيما
سر الحقيقة لا يفوز بنبيله غير امرئ مستنزل كمانا
لا يحرز الفضل المين سوى الذى ملك العلوم مطهرا جثمانا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلو به وتسيبه وذكره مما يزيد الثقين إيمانا برهم ، ويصف الصوفى الذى يؤيده نور الحق جل جلاله فإنه يصبح به شغوفا ولها هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه من يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر التقى الورع . ونبعت المتصوفة ويعرف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستنى البطيوى :

علم اليقين أنالهم ما أمثلوا فذروا به عين اليقين وحقه
سلبوا فغلبوا عن وجود نفوسهم فوجودهم محو بلازم محقه
لم يعرفوا هجرا ولا وصلا ولا معنى بين قربه أو سخره
وكنما أسرارهم بقلوبهم در مصون لا يفارق حقه

ويقول إن الصوفية هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، وبذكر أنهم سلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغلبوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكنما

وجودهم الممحي لسماء تلم ، فلم يمدوا يمشرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا فى جلاله ، وهم بذلك محبون حباً من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء فى الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها فى حفاق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى فى ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه الزمة منشدا :

أهل الحقيقة إن نظرت وجدتهم متربلين بكل فضل باهر
قهروا نفوسهم ففازوا بالمتى من جود رب ذى جلال قاهر
وتجوهروا بلطائف فكلفت تيجانهم بزرجد وجواهر

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرضتهم حق المعرفة وجدتهم مزدتين بمثل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوى ففازوا بأمتيهم من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكثما بث فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألفة ، بل كثما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسن التوكل فى القفار أقاله حالاً بها قد سره ما ناله
جعل الآلة له سيلا فى الفلا سببا فحقق فى الخلاص مثاله

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه فى القفر بما سد رمقه وسره فى حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات وتلتقى بلبن جليز محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله (١) :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى فلم أر فيه غير الله وحده
فبقي بالله وأرج الله وأعمل للقاء الله تأمن كل شدة

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحمل فى كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما وثقا فى الله لا يرجو ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على الله حق التوكل :

على قدر نيّة أهل التوكل لى يعطيهم الله منه المعونة
فإن صحح العبد إيقانه كفاه المهيمن هم المشوكة

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح بيقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المنطوعة وتاليتها كتاب المتوفى لابن القاضى ٤٠٥/١ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شيء . ويقول عمر الفاسى
 المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة^(١) .

الْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِى أَمْرِ تَحَاوَلُهُ وَلَبِثَ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَوْلٍ وَمِنْ حَيْلٍ
 وَكَلَّ إِلَى اللَّهِ كُلَّ الْأَمْرِ وَاعْتَصَمَ بِهِ عَنْ سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ وَلَى

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويبرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل
 عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكف به عن سواه ، فإنه خير المعين على تحقيق
 الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى عمدا بن عبد السلام بن ناصر
 الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ
 الجلالة ، وفيها يقول^(٢) :

لَهُ فِى الْخَلْقِ مَا اخْتَارَتْ مَشِيتُهُ مَا الْخَيْرُ إِلَّا الَّذِى يَخْتَارُهُ اللَّهُ
 إِذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسْلِمَ لِقُدْرَتِهِ مَا لَأَمْرِى حِيلَةً فِيمَا قَضَى اللَّهُ
 تَجْرِى الْأُمُورُ بِأَسْبَابٍ لَهَا عِلَلٌ تَجْرِى الْأُمُورُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ
 إِذَا بَلَّيْتُ يَتَّقِ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ إِنْ الَّذِى يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ
 إِنْ الْأُمُورُ إِذَا ضَاقَتْ لَهَا فَرْجٌ كَمْ مِنْ أَمْرِ شَدِيدٍ فَرَجَ اللَّهُ
 اللَّهُ لى عُذَّةٍ فِى كُلِّ نَائِبَةٍ أَقُولُ فِى كُلِّ حَالٍ خَسْبَى اللَّهُ

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغي الاستسلام
 لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجري
 بأسباب ولها علل قد تغيب مرضتها عن الإنسان فيما قدّر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن
 يتقن فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غمة البلوى عنه ، ولا يئس أبدا فإن الأمور
 مهما ضاقت ومهما اشتدت لا بد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى
 كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسيبه . ونقف قليلا لتحدث عن
 صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن الخليل .

ابن^(٣) الخليل

هو محمد بن حسن بن عمر الفهري ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوْلاً يهتدى فى المحافل
 والأسواق - والتبليّس بذلك يعرف فى المغرب بالخليل - وقد ولد له عمدا سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م
 ونشأ نشأة أدبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أديبا بليغا ناظما وثائرا ،
 فقيها عاقدا للشروط نحوها ماهرا برع فى الأدب ودرّسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(٣) راجع فى ترجمة ابن الخليل وشعره الصوفى كتاب

صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب اللؤلؤ والتكملة

٢٨٩/١/٨ والوفى ٣٤٩/١ .

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة الطوبى

للككتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .

(٢) نظرد . محمد الأخضر ص ٣٧١ .

الشرعة ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يهبط الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلاوى ستة ، وولى القضاء بها سنة ١٢٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يلبه عمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمقت التزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[هل يرح] العشق قلبا أنت مطلبه أو يذهب الشوق روحا أنت مذهبه
وكيف يرجو وصلا من تبعده أو كيف يخشى البعد من تقربه
يا مَنْ أتاجبه والأشواق توهمنى نيل الوصال كأن الشوق يوجه
كم طيبة لك بالألطاف توجد لها عند اللقاء وضائى فيك أطيبه
ومنة الجود تلتيه فتؤنس وخشية الرد تقصيه فتخجبه
مناى أنت وحسى أن تكون منى يا ولها رغبائى قبل أرغبه
كُن كيف شئت فما لى عنك منصرف فالمد ليس سوى مولاه مطلبه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يرح فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعده ، بل كيف يخشى البعد من تقربه . ويقول إنه يتأجبه ، وتوهمه أشواقه أنه سيبله الوصل كأن مجرد الشوق يوجهه ، ويعترف بأنه يشر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيع ما تفضل به ربه عليه فثأره فيه ، فهو يفتنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقربه من ربه منحة الجود ، فيشمر بأش لا حد له ، وفى الوقت نفسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مناه وحسبه أن يكون أمنته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول فى قصيدة أخرى :

فؤادى منقاد إليك مذلَّل
وهل من سبيل أن أطير إليك
وأوحشتم فالكل فى الأذن نائح
خربت عن الشكوى إليكم مهابة
وما عجباً نفس أسير ونسى
إذا هز أرباب السماع تواجد
وها أنا عند الباب متوا أو اطرودوا
ومالى - إذا لج العذول - جِمَاحٌ
وقد حصّ بى ريش وقصّ جناح^(١)
لدى وأفاق الوجود فساح
والسن حالى بالفراغ فصاح
فأشدكم أن لا يتأج سراح
فحظى منه زفرة وصياح
فما لى عنه - كيف كان - براح

(١) حصّ : خلق وتنف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه منذل لحبه ، وليس له - إذا لج العذول اللاتم - جماع عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليمنى أن يطير طيرنا إلى الذات العلية غير أن ريشه حص وجناحه قص ، يكتى بذلك عن أنه مقصر فى نسكه ، ويقول إنه طال نأى الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له فى وجده وما يجد فى غمره بهه . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبه مهابة وحياه ، وهو يذوب حبا وغرلا ، ويحبب أنه أسير ، ويتأشد ره أن لا يسرجه ولا يرد إليه حرته ، بل يظل فى أسره . ويذكر أنه حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفى تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هاتما بحب ره ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء من الله عليه بالقبول أو حرمة وطرده ، ولن يرحها أبدا ، ومن قوله فى إحدى قصائمه :

| | |
|----------------------------------|---------------------------|
| غرامى دَعَاى والعذولُ نهلى | فوجدتُ وعذلتُ كيف يجتمعان |
| أما علما نى على الشخط والنوى | مقبم ولقى والموى أخوان |
| يقولان لى : من ذا دعاك لما نرى ؟ | فقلت دعلى حبه فدعلى |
| أغلغل نفسى بالسلو تعللا | وتلك أمان ما بهن أسلى |
| إذا خفق البرق اليملى بأفقكم | أقبل ذاك الخفق بالخفقان |
| رعى الله جيران العذوب وأهله | وإن آترعننى من هوى وهوان |
| لئن حجبوا عن ناظرى فكأنهم | لقبلى براهيم فيه رأى عيان |

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستفراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والموى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحبه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجلبهم دعلى حبه ودعلى أو اتركاني ، ويذكر أنه يعمل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أتى له . ويتحدث كشاعر عنرى فيقول إنى إذا خفق البرق اليملى بأفقكم خفق قلبى معه ، ويدعو لجيران العذوب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الموى والموان ما ملأوه ، ويقول إنهم إن غلبوا عن ناظرى فإن قلبى براهيم متجسدين فيه رأى عيان . ويستمر منشدا :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| أورى بسلع والعذوب وحاجر | وتلك مغان ما لمن معلى |
| وأذكر سكان العذوب تسترا | وما ذكر سكان العذوب بشلى |
| ولكن بقللى من هو الحب كله | ومن ذكره فى خاطرى ولسلى |
| حبيب إذا لاحظت لم أر غيره | على أنه إذ لا أره برلى |
| ومن فضله وجدى به وتولئى | ومن جوده ما أشتكى وأعلى |
| وطرأت على حى له وكفما | برلى لمنى الحب حين برلى |

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التي يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهي فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحبوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بهه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرمى ، ومن فضله على هيامى به وتولى ، ومن كرمه ما أشكى منه فى حبه وأعنى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه يراه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء الملائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتغنون بحبته و مناقبه ومعجزاته ، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته . وإذا كان قد تغنى بمدحهم أفراد فى حياته ، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمالته فى كل بلد وكل عصر . والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثر من التغنى بمدحهم ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون ، على نحو ما يلقنا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمد بن عيسى بن المناصف القرطبى الأصل المتوفى بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجله شغفا بالسيرة النبوية الكريمة وفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «الشفاء» فى السيرة النبوية العطرة مشهور . وله فى زيارة الرسول ﷺ :^(١)

| | |
|---|---|
| قِفْ بِالرَّكَّابِ فَهَذَا الرَّيْغُ وَالِدَارُ | لَا حَتَّ عَلَيْنَا مِنَ الْأَحْبَابِ تَوَارُ |
| بُشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قَبْلَهُمْ | فَنَزَلَ فَقَدْ نَلَتْ مَا تَهْوَى وَتَخَارُ |
| هَذَا النَّبِيُّ الْحَاجَزَى الَّذِى شَهِدَتْ | لَهُ بِتَقْدِيمِهِ رُسُلٌ وَأَنْبَارُ |
| هَذَا الشَّيْخُ الَّذِى تُرْجَى شَفَاعَتُهُ | لِلْمُذْنِبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتِ النَّارُ |
| بَادِرٌ وَسَلَّمٌ عَلَى تَوَارِ رَوْحَتِهِ | قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَا تَشْغَلْكَ أَعْدَارُ |
| يَا خَيْرَةَ الرُّسُلِ يَا أَعْلَى الْوَرَى شَرَفًا | قَدْ أَثَقَلْتَنِي آتِلَمُ وَأَوْزَارُ |
| فَكُنْ شَفِيعِي لِمَا قَدِمْتُ مِنْ زَلَلٍ | وَمِنْ خَطَايَا فَإِنَّ الرَّبَّ غَفَّارُ |

وهو يستوقف الركب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أقوال من قبله

(١) الرانى ٥٦/١ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشارك فقد لاحت قباب الضريح النبوي ومسجده ، وينبئ أن نزل من فوق بهيري ، فقد نلت ما أهوى وأوتر ، فهذا النى المجازي الذي نهفو إليه القلوب والذي بشرت به الرسل وأخبار الكعب السماوية ، وهو الشفع للمؤمنين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التي قال فيها النبي ﷺ : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ، وينبئ أن يزورها ويكمل بأوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الوري شرفا أثقلتني آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعي لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإله للغفار العظيم . ومن توسلات القاضي عياض الطريفة قوله متوسلا بالرسول الكريم^(١) :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| إليك مددت الكف أستمطر الفضلا | وأنكشف البلوى وأستمطف الطولا |
| دعوتك مضطرا فعبجل إجابتي | بتفريع كرب طالما واصل المولا |
| وقت ملاذى يا مرادى وسيدى | فساغ مسينا قد جئني الجد والهولا |
| نداء من الأعماق يا فائق النوى | ويا سامع النجوى ويا من هو الأعلى |
| يتيم من الطاعات عفوك يرتجى | فيه الفقر والإفلاس والفسد والذلا |
| بجاء رسول الله فارحم تضرعى | وتفس مومى كلها الفرع والأصلا |
| لجأت إلى باب الكريم لغاتى | فليس لنا مغن سواه ولا مؤلى |
| وصل على قطب الوجوه عمدي | صلاة نعم الرسل والصحب والأهلا |

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستزل الفضل طالبا كشف ما نزل بي من البلوى مستعطفا التفضل الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريع كرب طالما شقيت به وبلغ بي هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدي رسول الله ملاذى وملجئ ومقصدى ، فسامعنى : سامع مسينا طالما تجئني في جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إله نداء من أعماق الأعماق في نفسى يا فائق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربى الأعلى إبنى يتيم من الطاعات ، والذنوب تنقل ظهري ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفرج مومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أبها الكريم لغاتى وإليك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . رضى صل على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة نعم الرسل وصحبه وآله .

ونمضى إلى عصر الموحدين وتلقى بيمون بن علي الصنهاجي الفاسي المشهور باسم بيمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بلمن خبازة ، لللازمة إياه وله مدحة نبوية طويلة . وسترجم له عما قليل . وتدخل في عصر المرينيين ويلقنا في أوائله مالك بن المرحل ومدائحه النبوية ومنخصه بترجمة ، وتلقى بلمن العباس العزفي المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سبتة الذي أنشأ في بلدته - وبالنال في المغرب الأقصى - الاحتفال بالمولد النبوي وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبوري صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذي أُلهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى في الحروب الصليبية بالشرق واحتفال المسيحيين به في الأندلس . واستمر أبو العباس العزفي أن ينشد الشعر له فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها في احتفال أبي العباس العزفي . وتعنى الدولة المرينية - طوال القرن الثامن - بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان في كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم في أزهي أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوي فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب في مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلون يلقون في هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفي نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المريني يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصنا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » . ويقول الوزان تمة لذلك إنه كان ينادى في أيامه أوائل القرن العاشر الهجري على الشاعر الذي ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام^(١) . ولا ريب في أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تايوت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدري في أواخر القرن السابع الهجري وميلادية لمحمد بن يحيى العزفي أنشدها في احتفال لأبي سالم المريني ، ويذكر لعبد الرحمن المكودي المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة وبأخذ في تحليلها . وفن المقصورات قديم بدأه ابن دريد بمقصورة في مديح أمير سامتي ملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجني مقصورة في مديح أبي زكريا الحفصى .. غير أن المكودي أول منرى نظم مقصورة من الرجز في مديح للمصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف في مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألم بذكريات شبيهة في موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التي أدال الله منها للإسلام مثل دولتي الأكاسرة والقياصرة وعرج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله في مديح الرسول ﷺ :

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس دُخْرِي غير مدح أحمد
وأصبح الدين القويم قِيَمًا
وسمى له من آية نِيَّةٍ
ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويقلب على المنصورة السرد مما يفقدها في كثير من جوانبها الجمال الشعري . وكما مدح
الرسول في العصر الربيعي بالمدايح الشعرية مدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة لمن سجد
المكناسي المذكورة في الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوي وخاصة حاكمها المنصور الذهبي ، وتكثر
فيها المدايح النبوية المسماة بالملاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مدح الحاكم ، ويقول
المقرئ في كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل في المولد النبوية التي احتفل لها هذا الخليفة
المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها
في فارس ، حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها في ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة
من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة في السماء كالنارة ، وبحشر الناس إلى
ذلك ، ويُذغى النشدون للأشعار وتشر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكسوة وجوائز
قد تبلغ الآلاف^(١) . ويضيف عبد العزيز الفتشالي في كتابه مآهل الصفا إضافات كثيرة في
هذا الاحتفال الذي كان أشبه بعيد ضخم يستند طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال
الرسمي به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للخيل والمآذن
في الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمراء أرجوانية وخضر سندسية ، ويغص السرادق
المنسوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من
فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح
الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل
الذكر بالرقين من كلام الشيخ الصوفي الأندلسي أبي الحسن الششتري ، ثم يُنشد الشعر .
والشعب في الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع بنيه الشاعر عنه في إنشاد قصيدته ، ويعود
الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفتشالي الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلوات
الشعراء وعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفتشالي بعض ما كان ينشد في
هذا العيد لعهد هذا الخليفة^(٢) . ويكتاب روضة الآس للمقرئ نحو عشرين ميلادية لشعراء
مختلفين نُشدت في هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفتشالي شاعره وكتابه ،

ص ٢٢١ وما بعدها .

(١) روضة الآس ص ١٣ .

(٢) انظر مآهل الصفا تحقيق الأستاذ كرون

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيفاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويحنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه الفريحة بنظرة يغمرها النور النبوى ويحى روع مكة والمدينة القدسية التى نلت بها الملائكة أفئتين ذكر وقرآن ، ثم يقول (١) :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرَاهَا وَسِيدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
وَمَنْ بَشَّرْتُ بَيْتَهُ قَبْلَ كَوْنِهِ نَوَامِيسُ كَهَانٍ وَأَخْبَارُ رَهْبَانِ
وَإِنْ كَتَبَ اللَّهُ أَعْظَمُ آيَةٍ بِهَا انْضَحَ الْمَيِّتُ وَبَنَى الشَّقِيُّ (٢)
نَبِيُّ الْهَدَى مَنْ أَطْلَعَ الْحَقُّ أَفْجَمًا عَا نَوْرَهَا أَسْدَافُ إِقْكَ وَبَهْتَانِ (٣)
لَمَزْتِهِ ذُلُّ الْأَكَاْسَةِ الْأَلْسَى هُمْ سَلَبُوا تِيجَانَهُمْ آلُ سَاسَانِ
وَأَحْرَزَ لِلدِّينِ الْخَفِيَّ بِالْظُّبَا تَرَاثَ لِلْمُلُوكِ الصِّدِّ مِنْ عَهْدِ يُونَانِ (٤)

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرت بآته مبعوث شرائع الكهان وأخبار الرهبان ، فقد كان العالم يتظره لينقذه مما يعنيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل فى يده وصدره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة شائقة ولا لاحقة ، وبها انضح الكذابين المقترون والحادقون الشاكون . نبي الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولمزته ذل الأكاسرة السليتيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملك الدين الحنيف بالظبا والسيوف ترث سادة الملوك الفياصرة من عهد يونان والزمن القديم . وللتاساتونى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أروعها بيت ، يجعل مقدماتها للمدح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المدح النبوى بثلاثمائة بيت من ذلك قوله (٥) :

أُبْخَاطِيبُ الْعَيْدِ الَّذِي لَعِبْتُ بِهِ شَهَوَاتُهُ صَنَزَ الصَّدُورِ الْأَوْحِدِ
نَكُنْ تَحَقُّقُ بِالْأَدْلَكَةِ عِنْدَنَا لَا شَخْصَ أَحْلَمَ فِي الْوَرَى مِنْ أَحِدِ
أَنْتَ الْمُؤَمَّلُ فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا أَنْتَ الْجَوَادُ الْفَيْثُ لِلْمُسْتَرْغِبِ
أَنْتَ الَّذِي مِنْ أُمِّ يَتِّكَ رَاغِبًا وَلَوْ لَقَضَى أَمْرًا عَظِيمًا يَسْعَدُ
أَنْتَ الَّذِي سَعِدَتْ بِكَ الْأَشْيَاءُ قَا طَبَّةٌ وَمَنْ يَقْصِدُ سَعِيدًا يَسْقِدُ

وهو يعجب - لكثرة ذنوبه - من جراته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم من على وجه الأرض ، ولذلك قصده وهو يعلم أنه حليم كريم أملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنيك

(١) شعر عبد العزيز القشتال تحقيق نجاة الربيعي

(٢) إنيك : كذب .

(٤) الصيد : ذوى السلطان .

(٥) الواقي ٧٧٢/٣ .

(٦) المان : الكاذب . الشقيه : البضى .

المؤمل المرجو في الشدائد والكوارث كلها ، وثلك الغيث المدرار الذي يجزل العطاء لمسترفده ومطالب البرمه . ويقول له إن من قصد يتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وثمت مصدر السمادة البشرية فليس غريبا أن من يفصلك يسعد في الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ في العصر العلوي . ومن أجمل التوسلات توصل أنفسه الأستاذ ابن تاروت للشاعر محمد البوعصلى ، وفيه يقول^(١) :

| | |
|-------------------------------|--|
| سُحِّي بدمع كالعقيق محاجري | شوقا لطيفة والعقيق وحاجري ^(٢) |
| تلك المصاهد حين أظهر دينه | ربُّ البرية بالرسول الطاهر |
| سرُّ الوجود عمدٌ خيرُ الورى | والمستقى من كل أصل طاهر |
| من قد تجلّت طيبة الزهرا به | وزهت ففقت كل روض زاهر |
| وسمت على الفردوس حقاً واكتست | حلل السنا من شأه المتواتر |
| وتواضعت لمالم المهادى بها الـ | أنفاق كالفلك المحيط الدائر |

وهو يقول لصينه انظرنا دما أحمر كالعقيق شوقا لطيفة ومنازلها مثل العقيق وحاجر التي كانت قائمة حين بعث الله برسالة الكبرى ، ولله لسر الوجود خير الورى المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلّت به طيبة : المدينة وسقت جميع المدن ، وزهت حتى فقت كل روض ناضر ، وحق لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلال الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لترجم لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون^(٣) بن خبازة

هو ميمون بن علي الصنهاجي الفاسي الساكن بأخرة في مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بلبن خبازة لللازمة إياه . من شعره عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشي في كتابه « الذيل والتكملة » : كان أديبا شاعرا مقلدا من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التي لا يجارى فيها والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة في علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزي في بعض فصوله فأجاد . وعبر إلى الأندلس وظل في رعاية والي إشبيلية أبي العلاء بن المنصور زمنا ، وله فيه مدائح كثيرة وله في غيره مدائح مختلفة

والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢
ونحفة القادم ١٥٤ ودرة المجال رقم ٣٧٢ والنبوغ
للنمري ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ ، والوفاء ٣٢٢/١ .

(١) الوافي ٨٢٣/٣ .

(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع في المدينة .
والحاجر : منزل في طريق مكة .

(٣) انظر في ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل

وكان يأتي في مدائحهما لم يسمع قبله ولا يطمع في لحاقه ، سرعة ارتجال وحسن اقتنان ورعاة إنشاء ، وتولى حصة السوق في مراکش لعهد الخليفة المأمون الموحدي ووقف معه في ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله بهجوه لمن تومرت :

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثلها
فأسر حسوا في ارتقاء ينفي بمحاله نسجا على ينوالها

وأسر حسوا في ارتقاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفي ابن خبازة في أوائل سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ، وله مدحة نيهرتالمة دوت شهرتها في عصره وبعد عصره ، يقول في مطلعها :

| | |
|--|------------------------------|
| لُنْفِي في مَذْح الحبيب المعالي | حقيق علينا أن نجيب المعالي |
| ونعشده في ذات الإله القوافي ^(١) | ونجمع أشات الأعراف حبيبة |
| لنصر الهدى والدين تُردى الأعادي ^(٢) | ونقتاد للأشعار كل كنية |
| تلوح فجلو من سناء الدياجيا | لنطلع من أمداح أحمد أجمنا |
| سجودى لجبرى كل ما قلت ساهيا | سهوت بمدح الخلق دهرا فهذه |
| وألبيته برّدا من النور ضائيا ^(٣) | رسول براه الله من صفو نوره |
| ينير به الله العصور الخوالي | وما زال ذلك النور من عهد آدم |

وهو يقول إنه ينبغي أن نستجيب للمعالي فأنفي في مديح الرسول الكريم سيد الوجود المعالي وأجمع أشات الأشعار احسبا لله وأحشد القوافي إخلاصا له ، وأتاد كتاب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديته ، ولنبدي من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجي المظلمة . ويعتذر عن تمضية عمره في مديح الحكام والأمراء ساهيا عن مديح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صفو نوره وألبيته من النور حلة ساهية ، وظل هذا النور المحمدي الباهر ينير العصور الخوالي . وتطل من الأبيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التي تنفي بها الحلاج والتصوفة بعده ، وهي حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم في خلقه المعنوي أو الروحي من خلق الأنبياء . ويقول ميمون في قصيدته : بفضلته تاب الله على آدم وتقد نوحا وخلصه من الموج العاتى وحمى لإبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله اتدى إسماعيل الذبيح . وحين وضع أمه له حفت به الأملاك وأعول إليس اللعين وتنبئت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يعضى في الحديث عن سيرته منذ كان في المهد ، وحلته السيدة حليلة لترضعه ويذكر

(٣) ضائيا : غلما .

(١) حبة : احسبا لله .

(٢) تردى : نهلك .

ما رُوي من شق جبريل وميكائيل لصدره ولإداعهما فيه النور الهادي ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولفاته لجيرا الراهب ونسطور راهب بَصْرَى الذى بشره ببعثه ، وما كان من تحته فى جلاء واختيار الله له كى يبلغ رسالته ، ويذكر أسراءه ومعرجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حرله حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

| | |
|--|---|
| وَأَيُّتُسِهْ جَلَّتْ عَنِ الْعَدُوِّ كَثْرَةٌ | فَمَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهَا |
| وَأَعْظَمُهَا الْوَحْيُ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ | فَبَلِّغْ عَنْهُ آمْرًا فِيهِ نَاهَا |
| تَحْدَى بِهِ أَهْلَ الْبَيَانِ بِأَسْرِهِمْ | فَكُلُّهُمْ أَلْفَاهُ بِالْعَجْزِ وَتِيَا |
| وَجَاءَهُ بِهِ وَحْيًا صَرِيحًا يَزِيدُهُ | مَرُورُ اللَّيَالِي جِدَّةً وَتَعَالَا |
| تَضْمَنَ أَحْكَامَ الْوُجُودِ بِأَسْرَهَا | وَحُكْمَ الْقَضَاءِ مَثِيَا فِي نَافَا |
| وَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ أَوْهُوَ كَانَتْ | يُرَى مَاضِيًا أَوْ مَا يُرَى بَعْدَ آتَا |
| وَمَا كَبَتْ يَمَنَاهُ قَطُّ صَحِيفَةٌ | وَلَا رَى يَوْمًا لِلصَّحَافِ تَالِيَا ^(١) |
| عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ لَا زَالَ رَاتِحًا | عَلَيْهِ مَدَى الْأَيَّامِ حَقًّا وَغَادِيَا |

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يمثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلية . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطُ صحيفة يمينه ، ولا شوهد يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته وعبديه .

مالك^(٢) بن المرحل

سَنِيَّ النَّشْأَةِ وَالْمَرِي ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

والجنوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفع الطب (انظر الفهرس) والنبوغ المرمى لكون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مخلقة والرواى ٣٣٨/١ وما بعدها .

(١) روى : نَقَى .
(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأعماله الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك للمراكشى والصلة لابن الزبير والإساطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣

بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفضيح ثعلب ، وله نظم في الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل في بلدته ستة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبني مرين مرات في غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له في حياته إذ توفي سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إته كان مكثرا من النظم مجيدا سريع الديهة مستغرق الفكرة في قرضه ، لا يفتر عنه حينما من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إته لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهيجيرا (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المكدين (السائلين) وطرارز أوراد المؤمنين » . وذكر له ابن عبد الملك في الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين في مثال النحل النبوى . وله في مدح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ تمامًا ثلاثة : النمط المعروف في القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشريني لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات في النمطين الآخرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول في العشرينية المهرية الأولى :

| | |
|--------------------------------|---|
| إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى | فيا طيب إهدائى وحسن إهدائى ^(١) |
| أضفتُ إلى ميلاده غزواته | وما غنَّ لى من أبسة وأبائى ^(٢) |
| أردتُ رضا ربى بها فهو أرتجى | وربى كريم لا يُضيع رجائى |
| إمام هدى صلى النبىون خلفه | وصلى عليه أهل كل سماء |
| أضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى | إلى الشمس والأقمار كل ضياء |
| أتانا بقرآن كريم مفصل | جلا صدأ الأذهان أى جلاء |
| أترجون فى يوم القيامة غيره | إذا قبل هل للناس من شفاء |
| إليه يشير إن التسلول إذا رأى | ضجيج السورى فى حيرة وعناء ^(٣) |

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فباطليه ويا طيب هداى وطريرتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وألمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

(١) هدائى : هداى وطريرتى .

(٢) أبائى : جمع آية أى معجزة .

والملائكة فى كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ويقول إن الدنيا أضواء بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهى أن كل نور فى الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق فى خلقه للمعنى أو الروحى لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التى جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التى تجلو - بحق - صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله فى بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعة . ويقول فى عشرية هزبية :

أما إلى قبر النبىِّ مبلغٌ ثناءً فقد أفنى الزمان ذمائي^(١)
أمنىُّ كانت لي زيارة قبره وأرضى روض يانعٍ وسمائي
إمامٌ جميع المسلمين عمداً وأكرم مبعوث من الكرماء
أمان الوزى مما يخافون حبه فيا حب شغيع أدمى بدمائي
أما الأسى عبنى وسعّر أضلعي فخذ يدي يا راحم الرُحماء^(٢)

وهو يقول : أما من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذمء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبلجى أن تكمل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهادىهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسول بعثه الله للخلق رحمة بهم، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمى بدمائى شوقاً إليه وشغفاً به ، فقد ملأ الحزن عيني بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعي ، فخذ يدي وأعنى يا أرحم الرحماء . ومالك - مثل ابن خبازة - فى الذروة من شعراء عصره .

أضلى : أوقدنا ناراً .

(١) النماء : قوة القلب وبقية الروح .

(٢) أما الأسى عبنى : ملأها دموماً كالليل . سر

الفصل السادس

النثر وكتابه

١

الخطب والمواظ

طبيعى أن تكثر الخطب والمواظ في المغرب الأقصى كثرتها في بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرر في كل مسجد أسبوعيا في صلاة الجمعة وبالمثل في صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هي السبب في أنه لم يتجرد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قالمها بعض الحكام أو بعض كبار الوعاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثانى فى دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلا^(١) :

« اللهم إني أعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباحة ولا مفاخرة ولا سُمعة ولا مكبرة ، وإنما أردت أن تُعبد فيها ، ويُتلى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكنتها وقطائعها للخير وأعنيهم عليه ، واكفهم مشقة أعدائهم ، وأدرهم الرزق ، وأعمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إني على كل شيء قدير » .

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثانى إنما هي قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباحة ولا ابتغاءا لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحقق سريعا نيته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الرضى فى الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغريبة ولم يلبث أن شُيد فى مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع فى إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُنى الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت فى جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدهم بعونه ويكفيهم مشقة أعدائهم ، ويوفر الرزق لهم ويقهيم الفتنة والشقاق .

(١) التلوغ الغربى ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتي فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرُّ بنا في نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التي كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا الثام على وجوههم شعاراً لهم ، ولذلك يسمون المثلثين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قديمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى - كما مرُّ بنا - الشيخ عبد الله بن ياسين ليقتفهم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى البائسة . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت - منذ الأيام الأولى لدولة الإدارة - خارجة على الإسلام ، وتبأ فيها متنبشون وآمناء بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، وما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه^(١) :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى مَيِّت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تغفلوا فتذهب ربحكم ، وكونوا أَلْفَةً وأَعولوا على الحق وإخواننا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحسد على طلب الرياسة فإن الله يُؤْتِي ملكه مَنْ يشاء وَيَسْتَخْلِف فى أرضه مَنْ أَحَبُّ من عباده . ولقد ذهبَ عنكم فانظروا من تقدّمونه منكم يقوم بأمركم : يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فَيُفَكِّم ، ويأخذ زكّاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصره الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العرية مرض مثله ، ويقول إن الله يُؤْتِي ملكه من يشاء فلا داعى للتحسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختاروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

(١) البرغ الحبرى ٣٤/٢ .

نسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين
ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودي مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة
الشعبة الإمامية التي تعرّف على مبادئها أثناء مقامه بالمراق ثلاثة مبادئ هي أنه إمام ومهدي
ومعصوم ، واقترض من مبادئ المعتزلة التي تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعني نفى التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية
نفياً باتاً معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التي يفهم منها التشبيه
مع الإيمان بترك ذلك لله جلّ شأنه . ومن خطبة لابن تومرت قوله^(١) :

« إن الله - سبحانه وله الحمد - منّ عليكم أيها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل
العصر بحقيقة توحيده ، وقبض لكم من أنفاسكم ضلّالاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون
معروفاً ولا تنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان
أضاليل ، وتُرهبات ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهذاكم الله بعد
الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلّة ، ورفع عنكم سلطان
هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبه أيديكم وأضرته قلوبهم ،
وما ربك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت في هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدئين تمتقهما جماعته هما المبدآن
الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصهم من بين أهل العصر بحقيقة
توحيده ، ويقصد - كما قلنا آنفاً - أنه منزّه عن التشبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصهم
بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطون وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه
المذكور في القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول
المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالي الثانی الذي أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه
دائماً من أن خصوم جماعته من المرابطون لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، أما أتباعه
الموحدون فهم - في رأيه دائماً - يأثرون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم
- لعدم أخذهم بهذين المبدئين - مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينفي حربهم ومحو سلطاتهم ،
ويبعد أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ في الفقه بمذهب داود الظاهري القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ المغربي ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقل في الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كبة ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، واتصرو للموحدين كبريون من الشراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى فى حفص عمر السلمى خطبة يتصبر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول^(١) :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإتبعهم عن عقولهم حدثوا ، أتوا من الاختراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار عجوبة . الأبياء ونورهم - لا الأغبياء وغرورهم - عنهم يتلقى ، وبهم يُذكر السؤل : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) للدين عند الله الإسلام ، والعلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضَرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بهما . »

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وتجاوزهم جميعا ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلانا ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له^(٢) : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، ما أنضل المعطاي والمنة . »

ونلتقى بالنصورالمربى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م وكان بطلا مغوارا وكأما نذر نفسه لحرب نصارى الإسبان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال بعد العدة من الخيل والصلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلبا لغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيما ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونزالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة بحث فيها جيشه على الجهاد^(٣) :

« يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلبها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

(٣) النبوغ المنرى ٣٨/٢ .

(١) النبوغ المنرى ٣٧/٢ .

(٢) أزمهر الرباض للمنرى ٣٥٩/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشمروا عن ساعد الجِدِّ ، معاشر المسلمين ، فى جهاد المشركين .
فمن مات منكم مات شهيدا ، ومن عاش عاش غنما مأجورا حميدا ﴿اصْبِرُوا وَاصْبِرُوا﴾ وصلبروا وربطوا
واقنوا الله لعلكم تفلحون ﴿﴾ .

وهى كلمة فصلت من قلب مجاهد صادق أبلى فى سبيل دينه ونصرته بلاء عظيما ، ويشتر
جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين
المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيدا فاز برضوان
ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنما كبيرا ، وأتابه الله ثوابا عظيما . ويذكرهم بآية كريمة
تدعو إلى الصبر فى الحرب والمربطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أثار من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبى عبد الله محمد الرهونى الفقيه المالكى الكبير
المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة
فى خطب الجمعة ، ومن خطبة له فى التذكير والترغيب ^(١) :

« أيها الناس : حَصِّصْ ^(٢) لكم الحق فيصبروا ، وتبين لكم الرشد من النِّيِّ فالزموا الطاعة
وتذكروا ، وحِيلِم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخروا ، وحُدِّزَم من العدول
عنه فخافوا الله واحذروا ، وأُسبِت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقها واشكروا ،
واعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ، وإياكم والتقصير فى العمل فلن تَسْمَدُوا مع التقصير
أو تَعْتَدُوا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فابصروا ، وتليت عليهم آيات الله فتدبروا ،
ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشربوا من كؤوس حبها حتى سَكروا ، وقطعوا أعمارهم فى
اتباع شهواتها فخابوا وخسروا ، ولتَهْجُوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا
أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفوا أنفسهم عن سوء ولزجروا ، وسمعوا ما أعد الله
لأوليائه فى الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهونى يحسن رَصَفَ السجع فى خطبه ، ويحاول أن يستم جرسها بما التزم
فى نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام
التقابل فى نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلفظه فيختار لها ألفاظا رصينة
جزلة تحسن وقعها فى آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخبها يوفر فيها
ألوانا من الطباق المستحسن مثل : « بين لكم الرشد من النِّي » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا »
وقوله : « وأسبِت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب فى أن الرهونى كان خطيبا فذا

(٢) حصص الحق : ظهر .

(١) التبرغ النمرى ٤١/٢ .

وكان يوتر بخطابته ووعظه في سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربي من خطباء كبريين
كان لهم نفس هذه اللوعة في الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر في المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة
المرابطين واستدعائه لبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المتمدن بن عباد وتكليفه برئاسة ديوانه في
مراكش عاصمته ، وكان آية في البيان والبلاغة ، فأرسى في الديوان المراكشي تقاليد الكتابة
الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ،
وظلت له رياسته في عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن
بسام برسالتين^(١) له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاها موجهة إلى صاحب قلعة
بنى حماد في الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمد بن محمد بن علي حين ولي القضاء بقرطبة
سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استهدى الله يديك ، واستعن بالله يُعينك في صدرك وورذك^(٢) وتول القضاء الذي ولاه
الله بجِدٍّ وحِزْمٍ ، وجَلَدٍ وعِزْمٍ ، وأُضْرَ القضاء على ما أمضاه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ،
ولا تبالِ بَرغمٍ راغمٍ ، ولا تشفق من ملامة لائمٍ ، وأسر^(٣) بين الناس في وجهك وعلدك
ومجلسك ، حتى لا يطمع قوًى في حَتَفِكَ ، ولا يئأس ضعيف من عدلك . ولا يكنْ عندك
أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، واتصَحْ
لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن
يُسَلِّمُوا لك في كل حق تُمَضِّيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تُقَضِّيه . ونحن أولا وكلهم
آخرنا مذ صرت قاضيا سلمون منك غير مترضين عليك في حق . والعمال والرعية كافة سواء
في الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر في رسالته إلى القاضي ابن حمد بن رسالة أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حين يدعوه إلى المساواة بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه
حتى لا يطمع قوًى في حيفه ولا يئأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكنْ عندك
أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن
الطريف في الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضي فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

(٢) أمير : سؤ .

(١) الذخيرة ، القسم الثاني من ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق في أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فنجد صار ابن حمدى قاضى الجماعة فى فرطية أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جالب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وغنى الذكور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المربوطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها^(١) :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فُوضنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دقّه وجلّه ، وقّله^(٢) وكثّره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نَمْضى ما وقّعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاهُ كأننا ما كان إلا أن يتولاهُ ، ولا نَرْضى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعضاً فى جَنَاننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسبِّدُ ويُلْجِمُ^(٣) .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير - مثل على بن يوسف - يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تتنظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغي أن ينصح الولاة - مع ذلك - بالمدل مع الرعية ونصفه المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسموا شكوى كل مظلوم أو مظلّم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار^(٤) ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَفَ عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كئلى القاسم بن الجند المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أئبهم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحق له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٣) يُسبِّدُ ويعلم : يسج .

(٤) للمجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

بمدريد .

(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى^(١) ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدياء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصوبه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » وتذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عزم على غرض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا - أعزكم الله بتفواه ، وكثفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حُسنه - من حضرة مراکش - حرسها الله - يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا بمنّ الله فانحمتا وعقباه . وقد قرعنا الظنائب^(٢) ، وأشرعنا الأنابيب^(٣) ، وضمرنا اليعاسب^(٤) ، واستغفرنا البعيد والقریب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جلابة أن يُضام ، أو يناله من عدوه اهتضام^(٥) . ونحن - وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستهضنا من الأجناد ، ما يُجرى على الحصر والتعداد ، فلما نعتقد اعتقاد يقين بقول ربّ العالمين ، فى كتابه المبين : ﴿ قُلْ ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الشاء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل^(٦) من الأدواء . »

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » لذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثه عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبي^(٧) : إما أن تفتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدعى له بما يليق به ، ثم يوتى بالسلام ، ثم يوتى بالعبدية والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والترضية عن الصلابة ثم عن إمامهم المهديّ ، ثم يوتى على المقصود ، ويختتم

(٥) اهتضام : ظلم .

(١) المعجب ص ٢٢٧ .

(٦) أعضل : أعجز . الأدواء : الأمراض .

(٢) قرع الظنائب كتابة عن الإسراع إلى الحرب .

(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/١ .

(٣) أشرعنا الأنابيب : سلطنا الرياح .

(٤) ضمرنا اليعاسب : فلنا الخيل للحرب .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه . ويمثل الفلقشدي لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبي جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسعود إليها عما قليل . والأسلوب الثاني في المكتبة لعهد الموحدين - كما يقول الفلقشدي - أن تفتح المكتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدي . ويمثل لهذا الأسلوب الثاني برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ - ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبي الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه : « المعجب » كتاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده - كما يقول - أبو القاسم عبد الرحمن القالي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقلم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة^(١) . وكتاب الإنشاء في عهد ابنه يوسف - كما يقول المراكشي - هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالي كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بلبن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالي إلى أن مات فكسب مكانه^(٢) . وواضح أن ابن محشرة والقالي من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما في الجزء الخاص بالجزائر . وكتاب ابنه يعقوب - كما يقول المراكشي - أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشقة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتباً له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف^(٣) (المستنصر) إلى أن توفي سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمون حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيح ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبي جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وسنفرده لترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبي عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشي بين كتبه ، وثلاث أخرى لأبي الحسن بن عياش أولاهما عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريتان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبي الحكم بن المرغني عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشي أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن ولبنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) المعجب للمراكشي ص ٣١٦ وما بعدها .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار في ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالمغرب استكبه في سنة ٥٨٦ هـ فقال دنيا عريضة^(١) إذ كان صاحب القلم الأعلى - كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة - على عهد المنصور وابنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرُّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام مغرب . ويقول المراكشي في المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته^(٢) : وفي رأينا فهم اتبعوا طريقته في الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطون كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له في مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهي تتبع الأسلوب الثاني للذي ذكره القلقشندي مبتدئة بالعبدية على هذا النحو^(٣) :

« أما بعد حمد الله الذي عمَّ بنوالة ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيئات الحكمية ، في كافة أقالمه وأعماله ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا في بلوغ مرضاته مساعفة مؤتية - من حضرة مراكش - حرسها الله - وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدها الأعلى^(٤) ، وتوجب على [أهل]^(٥) الاتصال حظوة الامتثال^(٦) لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا^(٧)] حتما مفضيا ، ووعدا [حتما^(٨)] مأثريا بين خير الآخرة وخير الدنيا . ويثبت هذه القاعدة تستوثق^(٩) أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة » .

وفي جميع الرسائل في هذه للجموعة الموحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدي المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرُّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش) أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله) يشير بذلك إلى المبدئين التضمنين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته - في رأيه - إنما هي دعوة الموحدين بمبادئها التي ذكرناها . والرسالة

-
- (١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
 (٢) المعجب ص ٣٣٩ .
 (٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
 (٤) القدح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأسله أهم قدح .
 (٥) زيادة للسباق .
 (٦) في الأصل : الاحتيال .
 (٧) زيادة بدلالة السباق .
 (٨) في الأصل : تستوثق .
 المسر .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم في غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستصل شأقتهم وجذورهم . ولأبي الحسن عبد الملك بن عياش رسالة^(١) عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف ببن مردنيش الثائر في شرقي الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٤ م إلى الدخول في طاعة الموحدين ، وهي في فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذي ذكره القلقشندي ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته - إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد - أمدّه الله بتوفيقه ، وأعزّه بطاعته ونقاؤه - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فلما نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على سيدنا محمد نبيّه ورسوله ، والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة ، وعصمة الغيا والممات ، دعاة يأخذون بالحجز عن النار ، ويقبضون لمن ضلّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون في إيلاغ حجته ، وإيضاح حجته^(٢) ، يبالغ الإنذار والإعذار ، ويصرّفون بما أودعوا من سرّه المكنون ، ليثّ في الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليفة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المحيّر^(٣) بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سيرٌ هذا النبا السيار وارث ذلك المقام الذي هبّت تباشيره بأسماع ذوى الإصاحبة^(٤) لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضي قدماً في التصميم وإنفاذ العزم^(٥) على أمر طلق ولبعد مضمار ، الممان فيما دعا إليه ، وثبّ عليه ، بالعصمة التي لا تضره معها إباءة^(٦) ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممثلي أمره العزيز على ما له^(٧) من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلّوة للمحفوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجّه إليه داعية الاستبصار . »

وهو محمد الله في فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميه دعاة ، ويقول لهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقبضون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل موحدة ص ١٤١ وما بعدها . (٥) في الأصل : العزم .

(٢) في الأصل : نجته . (٦) في الأصل : كنهه .

(٣) في الأصل : المخير . (٧) في الأصل : ماله .

(٤) في الأصل : الإصاحبة .

منار حتى لا يضلوا الطريق السوي المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها في السهول والجزون وكل مكان حتى يسعد الناس في الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لآلئ تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدي المعلوم . والرسائل الموحدة جميعا تذكره في فاتحتها وتضمني عليه هذه الصفات التي أضافها على نفسه مقترضا لها من بيعة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها في الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هده وما وضع للدعوة من المبادئ والمراسم المحفوظة . ونراه يقول في وصف آئنه تومرت في الرسالة : « إن رسول الله ﷺ ينشر بعلامات المهدي وأخير عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان آئنه تومرت لفق له نسباً - كما يقول المؤرخون - يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم في آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلد (تلث) الحيرة وتموج الفتنة وارتفاع العلم وفشو الظلم . فظهر لما خصه الله به من الهداية ، وعلمه من الحكمة ، وأحلّه مقام العصمة ونوره^(١) من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يده من الآيات ، ما صدق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة آئنه عبد المؤمن الناشئ لدعوة آئنه تومرت والحامل العباد على طريقته التصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدة تبيء وتعيد في فواتحها بالإشادة بآئنه تومرت وأنه الإمام المهدي المعصوم إلى أن تولّى المؤمنون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لآئنه تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع في الدولة رسالة بذلك من إقامته ، يقول فيها^(٢) :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين آئنه أمير المؤمنين آئنه أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم^(٣) الله شكر نعمه الجسم ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام^(٤) ، ولما كتبناه إليكم - كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا - وللحق لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يمد ، وظلال على الأفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم في المهدي) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كنت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحة ،

(٣) أوزعهم : ألههم .

(٤) الوسام : الحسن .

(١) في الأصل : نواه .

(٢) البرغ للنري ١١١/٢ .

فما الظن بمن لا يدري بأى يد يأخذ كتابه ، أف لم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار .

غير أن عهد المؤمنو سرعان ما تقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدي المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول الفلقشندي بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكتار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم^(١) » وفات الفلقشندي أن يذكر أيضا الإكتار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن ركب الحجاج المغاربة ومصحف خطه يده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة^(٢) :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العُدوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العُدوتين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين وسلطان العُدوتين أبى يوسف محقوب بن عبد الحق ، منح الله التأيد مقلمه ، وفسح - لفتح معاتل الكفر ، وكسر جحافل الصُفر - أمامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد الرابط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأبعد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حاتم ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعوله ويسلم عليه قائلا : « أبى الله ملكه موصول الصولة والافتدار ، محمى الحوزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زك عميم ، تُشرق إشراق النهار صفحاته ، وتنبق عن شذا الروض المطار نفحاته ، يخص إخوانكم المل ، ورحمة الله وبركاته . » وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعدين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كون طائفة كبيرة

(٢) مجموع للمرى ١١٠/٢ .

(١) صبح الأعشى ٤٤٦/٦ .

منها وينشرها باسم رسائل سعدية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفتشالي صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء في عهد المنصور الذهبي وهي موجهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربي الذي تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاده واستيلائه عليها وخلفه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول^(١) :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتديرها ، والمرجوع إليه - عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأئيل^(٢) الأحفل - الأمر - سكية - وصل الله كرامته ، وجعل التقى سنته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهل المرام ، وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذئبين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجنب الكريم (جناب المنصور الذهبي) بالمر السامي المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإننا كتبناه إليكم من حضرة فارس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة المبوب باليكر والآصال ، والله المنة » .

ويذكر الفتشالي بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح في بتغازي (بين تمبوكتو ودرعة في جنوبي المغرب الأقصى من إباله المنصور الذهبي وفي حكم إمامته وأنه يختص بيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التي تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق العساكر الأجناد ، التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتدناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محبا له في الرضا عن دفع بتغازي لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى روايتهم من هذا الخراج هم « جنود الله التي لولها - وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستصاال حماته وقصاره ، ومنارته على الدوام في غفر داره - لفاض عليكم طوفاته السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب^(٣) هاطل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نتم في كفالتها آمين ، وفي جياطتها وادعين ومطمئين » . ويطلب إلى سكية الإسماع وإلسماع وأن لا يسمي فيما يطل هذه الفريضة من الخراج التي تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله في مواصلة لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة في كتاب رسائل سعدية لكون (٢) الأئيل : الأصل .

ص ١٣٢ . (٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة في لغة رصينة امتاز بها الفشتالي - في شعره كما مر بنا - وفي رسالته ونثره .

وتظل في العصر العلوي الرسالة الديوانية محبرة بمسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التألق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدنى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشيء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العماروي المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوي عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول^(١) :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا ، وحملهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم ، وحبث طويبتهم ، وانكالمهم على حوْلهم وقوتهم ، وما رأوا منا ليئا وسداذا ، إلا ازدادوا شدة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا نطاولا وعنادا ، وما أخرنا الفقة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وإلغا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طمَسَ الإعجاب منهم بصرا وسما ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعي أن تكثر الرسائل الشخصية في المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجري لاكتظاظه بالكتب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقي به في القرن السادس رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفا في طلب العلم ، وهي تمضي على هذه الصورة^(٢) :

« إلى ولدي .. هداة الله وصلاته ، وجملته بالعلم والتقوى وزنه . كتبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تيسر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا وجدتمكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء - جازيتكم بما يرضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنيتكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تنال بالراحة ، وأن العلم ، لا ينال براحة الجسم ، فادرس تزوس ، واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق . وبهما ركنت إلى الدعة كنت في

(١) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (٢) النبوغ للمغربي ١٦٥/٢ .

للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .

أهل الضَّعة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَنده فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّه فاجتنبته ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المسرء إلا حيث يجمل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجمل ،

والرسالة من والده فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكون له مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يمتناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوى للكلام ، ويذكر له أن ما يمتناه الشاب فى المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق فى الدرس حتى يأتى يوم تروى فيه أقرانك واحفظ التون والعلوم تحفظ ، وأكب على القراءة يرق فكرك وترقى بين الناس ، أما إذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانحطاط والخسة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شيء وحده فاجتلبه واكسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شيء فاجتنبه وابعد عنه . ويقول له إنه ينبغي لك دائما أن تتخذ لنفسك فى الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلومك أحد على الإفراط والمبالغة فى شيء ولا على التفريط والتقصير فى شيء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه فى المنزلة التى يختارها لنفسه ، وينبى أن تضع نفسك دائما فى خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف فى العهد المربنى قصيدة مع رسالة فى شبهة إلى ابن هاتى السبى الذى مر بنا أنه توفى شهيدا فى جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ / ١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هاتى برسالة طويلة جاء فيها^(١) :

« هذا - بنى - واصل الله لى ولك علو المقدار ، وأجرى - وفق أو - فوق إرادتك وإرادتى لك جاريات الأقدار ، ما سنع به الذهن الكليل ، واللسان القليل ، فى مراجعة قصيدتك الغرلة ، الجالية السراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيبة^(٢) والأسلوب ، المتحلية بالخلى السنية ، المريقة المتسب فى الملا الحسنية .. وإليك واحد حلبة البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القيد ، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقَّ فصاحة ألفاظ أجدها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزنتها حين وزنتها ، وبراعة معانٍ سلكها حين ملكها ، وأصلتها^(٣) حين فصلتها ، ونظام جملة بجسد البيان قلبا ولمعصمه قلبا^(٤) ، وهضرت حدائقه غلبا^(٥) ، وارتكبت رؤيه صبا .. بنى ! كيف رأيت للبيان هذا الطور ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدريس ، ومحل

(١) الشرح المربى ١٥١/٢ .

(٢) للمهج : الطريق البين .

(٣) أصلت : نهرز .

(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .

(٥) مصر : جنب ومثال - غلبا : كثيرة الأشجار .

دعواه بين رحلة ونعميس^(١)، كم بين ثغاء بقر الفلاة وزهير ليث الفريس^(٢)، كما أتى أعلم قطعاً وأقطع علماً، وأحكم قضاء وأفضى حكماً، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة، وفريدتك الحالية الفائقة، المأرضة بها قصيدته، المتسخة بها فريدته لذهب عرضاً وطولاً، ثم اعتقدك اليد الطولى، وأقرّ فارتفع النزاع، وذهبت له تلك الغابات والأطماع، ونسى كلمته اللؤلؤة، ورجع عن دعواه الأدبية، واستغفر ربّه من الألفية .

ويدور أن ثباً القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة، وسوا قصيدته القصيدة اللؤلؤة، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانيء السبئي ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب، ويشيد بيلاعته وأنه واحد حلبة البيان، والسابق يوم الرهان، إذ هو الأرسخ قدما بما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانيء بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من يملك، ويبالغ فى ذلك قاتلاً إن يئنه كنفاء أو صياح بقر الفلاة بينما يملك كزثير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤة، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكاتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر نارة، وبالرسائل نارة أخرى، وعن أرسل إليهم إحدى رسائله ليسانجله أبو جعفر الجنان المكناسى محاولاً أن يحرك قريحته الأدبية، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيئته، وفيها يقول منوهاً برسالة إليه^(٣) :

« جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد، واقتصت بشوارد بديهتك من المال أولبد شوارد، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد، ثم كلفتني من إجراؤه ظالمى فى ميدان ضليعها^(٤)، مقابلة الشمس التيرة بالسراج عند طلوعها، فأخذت^(٥) إخلاد مهيبى الجناح، وفررت فرار الأعزل عن شاكى^(٦) السلاح، وعلمت فنى إن أخذت نفسى بالمقلبة، وأدليت دلو قريحتي للمساجلة، كنت كمن كلف الأيام رجوع أمصها، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك - يا سيدى -

(١) تعمير : إقامة .

(٢) الفريس : الأعرج . الضلع : القوى المين .

(٣) أغلغ : سكن وفكر .

(٤) شاكى السلاح : كمل السلاح .

(٥) تعمير : ما يفتقر من الحيوانات .

(٦) البوغ الفريى ١٠٥٠/٢ .

لا يُجَلَّ وثيقٌ مَبْرَمه ، ولا يَحُلُّ نَسْخُ حُكْمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد في نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، لُبَّك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وقصًا لخاتم الحماد والمفاخر .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب في رسالته ، ومعلوم أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجmate ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه في جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالما أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه في نورها يبين ، وسكن عسًا كأنه مهيب الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدل دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أسماها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء يديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضاه عن ضعفه في البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وقصًا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب في عصره يُعَدُّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد القل ، ومعه الرسالة التالية^(١) :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصنا من خطئ القول وزلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأسال . هذه أوراق ضمتها جملة من بنات فكري ، وقطعا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الإضراب ، ولزمت في دفتها وإخفائها دين الأعراب ، ولكنى آثرت على المحو الإثبات ، وتمثلت بقولهم : « إن أحسن ما أوتيته العرب الأبيات . وإذا هي عُرضت على ذلك المجد ، وسألتها كيف نجت من الزاؤ ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم إلى معرر وقيل^(٢) ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنم قليل الهدية متى إن جهد القل غير قليل ، فحسبها شرفا أن توثت في جنبك كنفا ودارا ، وكفاها فخرا ومجدا أن عقدت بينها وبين فكرك عندا وجوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا متع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محوا ، غير أنه عاد فأثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرضت

(١) النهار .

(٢) البرغ المرعى ١٧٦/٢ .

(٣) معرس : ميت . مقيل : مكان في القلولة بنصف

عليه ، وسألنا كيف نجت من الواد عرف أنها آوت من حرمة إلى ظل ظليل ، وحلت من فناء داره وساحتها إلى خير معرّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يفضى عن عيوبها ، وحسبها شرفاً أنها نزلت من جنبه داراً ، وكفاها مجد وفخراً أن اتمقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شيرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبي الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتحها بقوله^(١) :

« أطال الله بقاء أحنى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مُداراتهم ، وللمستقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أعلامه مُشرعة^(٢) لصرم^(٣) الأجل المُنسأ^(٤) ، مَعْدَةٌ لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصلصال والحمأ ، فمن مَبْتُ يُفْسَل وآخر يُفْتَر ، ومن أَجَل يُطَوَّى وكَفَرٍ يُنْشَر .. وكلما خربت ساحة ، نشأت فى الحائوت راحة ، وكلما قامت فى شَيْب^(٥) مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأمولاك ، ويقول عن التوفى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأزجل أَعولته تَدِبَ إلى الأسفاط ديب الصغر إلى الحجل^(٦) ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووَزَن بالأرطال ، وكيّل بالأقداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرّف يشرف فتسقط سبّحته ، وتقسّم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكّه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى المهددين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخاباً يروق ويروع .



القامات والرحلات

(أ) القامات

القامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون الشعر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذاني فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أفاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(٤) النأ : المزجل .

(٥) شيب : طريق .

(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

(١) البرغ المغربى ١٧٧/٢ .

(٢) مشرعة : مصونة .

(٣) صرم : قطع .

عصره بالسائين الذين كانوا يحترفون الكُذبة أو الشحاذة الأدبية في الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وجيلهم في أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ بدمع الزمان لمقاماته أديا منسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندري وراوية يروى أقاصيصه وحبله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته في العالم العربي . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعتقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدلى بدلوها في هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما بلغنا من ذلك في المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى في عهد أبى سعيد المرينى ثم في عهد ابنه أبى الحسن التوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسراء ، وطويلة وقصيرة ، وسيمية ونخيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصيبة . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها في حسنها . وقد لقين - كما يقول في مفتاح مقامته بوادى الجوهر في إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت للمناظرة جارية يفوق ضياء وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت^(١) :

والحمد لله الذى جعل البياض طراز كل جمال ، وشرف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبعد ، وصبر السمر لهم عبيد ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبك يا ذات السمر ، أعندك يا سمر ما عندى ، وليس قدك كقدى ، ولا خدك كخدى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائى^(٢) كقطع الزجاج^(٣) ، ورشح عرقى كمسك أذفر ، يرشح من تحت البرد والجفر ، وثرى أبقوان^(٤) ، ودياج وجهى أرجوان^(٥) ، وإن أسبلت^(٦) شرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قُلْ للذى لَزَزى بأهل البياض ما أنت إلا باطلُ الإعتراضِ
فورْدُ خَدَى بُدَا زَاهِرُ
يا حاسدى مُتْ كَمدا بِمِسا تَجْنى المُنَى من الخدودِ الفُضاضِ^(٧)

وتقدمت السراء ، وحطت اللثام ، عن وجوه شهي الكاثام^(٨) ، وأبلغت فى السلام ، وأفصححت فى الكلام ، وقالت :

(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .

(٦) أسبلت : أسبلت .

(٧) الفُضاض : الناضرة .

(٨) لكاثام : من يد القتل .

(١) التبرغ المرعى ١٩٥/٢ والواقى ٤٤٩/٢ .

(٢) ذوائى : ضفارى .

(٣) الزجاج : حمار أسود يصنع منه اللباد .

(٤) يشبه السمره الثغر بالأبقوان ، وكأن تلك الزهرة تشبهه .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرق بين الصور والألوان ، وزين الأبيض بشره كالنفس^(١) ، وبسواد الحاجبين وسواد الحدق . وأجل ما يقف له العاشقون إعجالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالا : مسكة الخال ، وعقرب الدلال . ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شيء بجين الروم .. ما زال طعامك قليل الملح ، وجفك كثير الرشح ، ولبنك أذى ، وعسل ثما غذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم الثمر ، ثم أنشدت :

الحمد لله ليس الثبر كالورق قد أحسن الله فى خلقى وفى خلقى^(٢)
فالجسم منى نضار صيغ منظره بمسكة فسادا طيبا لتثيق
يا من يعيرنا باللون إن لكم جهلا يفسود إلى الطين والحمق
كم أسمر قلبه كافورة وله من السعادة نجم لاح فى الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرعت بنقلها ، وسلمت على الصنفين ، وثبتت أسرار الكفئين .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القد والخد والجين والضاغتر المخرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بوردها وقه يحيل حدودها رياضاً ناضرة . ويظن كثرتها ضيق طرق الكلام على صاحبها السمرله . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة فوهم : شعر كسق الليل وإعجلهم بسواد الحاجبين وحدق العينين ، وبدليل إشادة السمرله بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدل إلى الخدود كثة العقرب ، وتقول صاحبها إن اللين الأبيض المشبه لك كثير ، أما الصل الأسمر المشبه لى فكثير غذا ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها السمرله ، ثم أنشدتها شعرا يرفع الثبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ - كالسك - سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السمر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جارتان طويلة كاملة وقصيرة ، وما تقول الطويلة للقصيرة : « يا زريعة بأجوج وأجوج ، إن الحل على القصار كالدر فى محور القروء ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النشير (حبل الغسيل) .

وبلى ذلك مشهد السينة والتحفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السينة لصاحبها إلك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حُرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها التحفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية وما تقول الجارية العربية : نحن ربّات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . وما تقولوه الحضرية : إن رُغبان الجمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحضَرِ عَليَنا مِنّا وفَينا ظَهَرُ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : الحمد لله راحم الشيب ، وستر العيب ، وما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعري الفاحم ، ونفري الباسم ، وغصني الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفي أفضالك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لمن : « سأقول بينكن مقالة إصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهن كلمة أرضتها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمي لم يحاول أن يحاكي بديع الزمان ولا الحريري في مقامتهما فإن مقامته تُمدّ طرفة أدبية بديعة .

ولتلقى في العصر السعدي بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدياء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجب ، ونذكر لذلك مثلاً إذ يقول (١) :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الفرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم (٢) والتمريس ، فعلٌ سؤدده غير مَقِيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رزده وغراره (٣) ، فلا تسئل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضاح ، والمجد الصراح ، والأدب المزرى بالراح ، بمزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به ونساء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدياء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمي السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفطة والمغالطة وقلب المحسن

التمريس : الإقامة .

(٣) الرند والمرل : من أزهار البوادي .

(١) انظر فى هذه القائمة كتاب الوافى بالأدب العربى

فى الغرب الأقصى ٦٩٩/٣ .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتمال .

مساوئء لغرض الإنعام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المِكَلاتى التى كتبها فى أواخر العصر السعدى تحية لمحمد بن أبى بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة^(١) » الزهرية فى مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ فى السحر بين الضياء والنش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهجه من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ فى الاتخار بحسنه ، ويجاذبه القفر زهر النمام فعود البان الذى طالما وصف الشعراء بقده قدود عجوباتهن الحسان ، والرجس يقول لنصن البان مفاخرنا ورواصفا نفسه :

« أما رائق الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا الترجس ، ولو يوما فى السنة ، فلما غذاء الروح ، لمن يندو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرة دخان السراج ، وأخيف على العشاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يارب فلتك من عيون الترجس
يعترض زهر البنفسج ناثرا مفاخرنا ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من رد ، وينشد قول ابن الرومى فى تفضيل الترجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
للترجس الفضل المين وإن أبى وحاد عن الحقيقة جاحد
وما يلبث أن يدخل الورد فى المعركة للرد على ابن الرومى ومن فضلوا عليه الترجس ، يقول المِكَلاتى :

وتدخل البنفسج « فأقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته وينوده ، عمرم الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الورد يلطم خده ويقول وهو على البنفسج يحق
لا تقر به وإن تضوع نشره من يئكم فهو العدو الأزرق^(٢)

وكيف يفخر الترجس من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلطين :
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما وضحت عليه دلائل وشاهد
فانظر إلى المصفر لونا منهما وافهم فما يصفى إلا الحاسد

(٢) تضوع نشره : فاحت رائحته .

(١) انظر فى هذه المقامة البرغ المرقى ٢٠٨/٢ .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضل النرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ ترمى
أما ترى السورد غدا قاعداً وقام فى خدمته النرجس

أنا مشرف الربيع . ومظهر ما له من البديع ، أتعش الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافع
ذكية^(١) ، وروائح شذية^(٢) ، أبدت ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فنى الأبيض
والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قاني^(٣) ونصفه ناصع ، وبالمند
منى شجر يخرج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله حمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك
ملوكها ، ووسط عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلة وفضلى على كل الرياحين ظاهراً
زمتنى على الأزمان بى مشرف وفخرى لمن يبنى التفاخر قاهراً

وفخر الورد بديع ، وقد أشد فيه المكلاى مائل من الأشعار التى تنسى على الورد وتفضله
على النرجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف
المكلاى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعانه بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ
نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حماسة مطوقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ،
تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فتنها ، وقالت : كل يحاول جهده ، ويقول بما عنده ،
إلى لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكر ، وفروعكم لخطباتنا منبر ، ولقائنا ستائر ،
أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكمة ، وإنما على ما زعمتم بنا من
الجوى^(٤) وتبارجه ، آخذون فى ذكر الله وتسيحه ، شغلنا بذلك فى الأسحار ، والمعنى
والإبكار ... ونشأت غمامة تصانح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ،
يحدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد (وينشد) :

وكان صوت الرعد خلف سحابة حاد إذا ورت الركائب صاحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها كى تهتدى مصباحا
جادت على الثلعات فاكست الرى حلا أقسام لها الربيع وشاحا^(٥)

فشرت بالأرض جواهر تنار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبأت والنحور ،

(٤) الجوى : الوجد .

(٥) الثلعات جمع نلعة : ما لرتفع من الأرض .

الوشاح : شريط عرض مرصع بالجوهر .

(١) ذكية : ساطعة .

(٢) شذبة : عطرة نسة إلى الشذى .

(٣) قاني : شديد الاحمرار .

واختفت بعدما تجلّت ، وآلقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأسواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالندو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحيا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فز اهترت وريت وأثبتت من كل زوج بهيج) ففلائدها مدبجة ، ورروس أشجارها متوجة ، ولولاي لم يكن لكن مرعى ، ولا مسرح فى الأرض ولا مسعى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالت : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح^(١) ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاي ما جرت الأنهار ، ولا تفتقت الأزهار . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فظاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنبه بهذه الفكاهة .

ولما أكرت الانتباس من هذه المقامة لأدل بوضوح على روعة ما جلبه فيها المكلانى من أشعار وإبداء فى نثرها المسجوع سحجا يحفظ بالعدوبة مع ماكن فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهترت وريت وأثبتت من كل زوج بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطتها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يكي فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخربها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو بطيل الحديث عن متزهاتها ورياضها وأنهاهاها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشمر بحزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول^(٢) :

« منازلنا خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغريان واليوم ، والحمام تنوح فى أطلالها ونحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كبير . »

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول^(٣) :

(١) يوح : اسم للشمس .

(٢) للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

(٣) انظر للمقامة فى النبوغ للغزيرى ٢٤٣/٢ .

• مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النُّور (الزهر) حُشِدَت ألوانها وحُشِرَت :

والأرض تُجَلِّى عروساً فى ملابسها وثُتْ حُلَاها بِدُ الأنواء بالزُّهر^(١)
والنسيم قد عَطَّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فتازعها المطارف والأردية ، وجَرَّ ذيل
دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلِطُمُ فيه أُرْدافَ الرُّبى مرحاً وتلُمُ أوجَةَ الأزهارِ
ومنايِرُ الأغصان قد قامت بها خطباءُ مفصَّحةٌ من الأطباءِ

.. والناظر الأديب التامل ، ينشد قول المجنس المثل .

إن هذا الربيع شىء عجيبٌ تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهبَ حيثما ذهبنا ودرٌ حيث دُرْنَا وفضةٌ فى الفضلاء

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملاً الفضاء ويُفِصُّ الفِجاج ، ويقوم فيكون
هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسُورٌ حفظٌ لا يُعْرِفُ له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعدَّدت
ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصفوفه .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورويق العذوبة ، مع حسن
البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلانى والحضرمى -
كما دلت الرسائل والخطب السابقة - على نهضة الشعر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة الغير النبوى - من قديم - لمسيرة القوافل سنوياً من المغرب
الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضاً
فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز
بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافتهم ، وكثرتوا يشعرون أن من واجهم التحدث
عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحياناً فى بعض المجالس
من حوار علمى أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر
البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعُنى بعضهم بوصف رحلته ووصف
البلدان التى نزحوا وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

(١) الأنواء : الأمطار .

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء التلى من كتبه « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البليغى أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أدبياً خطيباً بليماً ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوّد الشعر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيوخ ومجالسهم وأخذ عنهم ، وسماها : « ملء الغيبة (الحقيقة) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجهية إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعاً خالصاً كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحداً بمن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرهما العذب ، والمنفرد بحمل رابتهما أميراً فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حماد^(٢) راويتها وحمل أوقارها^(٣) .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمه : بهاء الدين بن النحاس الحلبى الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درساً له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جواً (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سبّة » فكان أول ما فانتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتبه اليتيم إلى ، يريد شرحه

النوى . انظر أزهار الرباض ٣٤٧/٢ .

(٢) حماد هو حماد رابوة الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

(١) نظرها فى الوافى ٣٨٥/٢ وما بعدها . وتوسع المقرئ فى الحديث عنه وعن رحلته وشمالته وشيوخه غرباً وشرقاً وتأليفه ويقول إنه كان ظاهرياً ثم بطن على ذلك بأن المعروف أنه كان مالِكياً وبذكر عاينه بالحديث

لكتاب الإيضاح للفارسي .. ثم قال لى : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمل (للرجاجى)
والإيضاح والكتاب (لسيوه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى
جواره) وتلكأت فى هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرُّ على أن أعبُر إليه ، وعبرت ،
فأقمَدنى إلى جانبهِ ، فجلست مُغضياً (منكشاً) حياءَ منه ، فقال : اجلس متسماً ، فجلست
وتماذى فى الإقراء ، فاختلست الكلام - أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء
عليهم - مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وسألت من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ،
والثقت الشيخ إذ رَقى وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعتك ، فقلت : يا مولانا
لم يعرف الملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فغزم
على فى الغود إلى مجلسى ، فعدت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأنت .

ولوصف لمن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من
عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل غلم النحلة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل
الملس فى العلم الذى يلقبه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبُر الحلقة ويجلس بجواره رغم
صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب
الأقصى شابا أو شيخا ، وكانوا يتعلمون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض
مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات
العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، ومن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكى
والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العيد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين
فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء
الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى
هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبته وأقرأ بها العربية طوال
حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى لمن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح
لأبى على الفارسي يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أبهى سيدنا » ثم يعود فيقول لابن
رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تلمذ عليه مثل لمن رشيد ، ولكن لأنه قرأ
له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم
بعض مؤلفاتهم فينتهونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى
مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تايوت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة ربلغ
بالحجاز ، يقول :

« غربة عنت لنا فى ربلغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأنت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
ليلوكنكم الله بشئء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم لعلم الله من يخافه بالغييب ﴾ وذلك أنه

صحبني في الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رليغ ، رأيت عجا من تغلل الوحوش والفرال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلسست .. فقال لي ذلك الشيخ تأمل تر عجا ! هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُذْنَا عَمَلَيْن لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لي من معنى الآية ما لم يكن عدى بالمشاهدة .

ويثر لمن رشيد في رحلته ، بعض نيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقا من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية في البلدان العربية وشيوخها لزمنه .

(ب) رحلة^(١) القبدري

هو أبو عبد الله بن محمد القبدري ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهي منطقة وعرة تمتلئ - كما يقول الحسن الوزان - بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ في حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديبا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائما في رحلته ، وقد بدأها - كما يظن - في العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالي الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومر منها بالمدن في الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقنطرة المصرية بادئا منه بالإسكندرية وأعجبه فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعلا من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا في وصفه للبلدان يبالغ في الثناء تارة ، وتارة ثقية يبالغ في الذم والقذح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة في الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مفضرة ، أشرفت من كتب على وادي (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، في روضة جمعة الأزهار والطُرف . فرعت (امتدت) في سفح جبل حمى حياها أن يرام ، وشُرعت في أصل نهر يشفى المقيم من الهمام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورُشْ به - لأفاق - المصروع ، وكأن حصاهه

(١) انظر في رحلة القبدري كتاب الرافعي ٣٩٣/٢ وقد

نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسي وهي مطبوعة

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليانة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملء بالينابيع ومنغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحائك والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كنت القاهرة لم تعجب العبدى فإن الإسكندرية أعجبتة وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف واللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلٌ عنها ظُفر الزمان ونبله ، وقُلٌ منها جيش الحِذَّان وأحزبه ، فلم تبت عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها فى معاملاته سلمة ولا بضاعة ، ولا وقتت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحَلُ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير متآد^(١) ، آخذة من الكفر وأحله بالخنق^(٢) ، حتى أبدلتهم من الصافى المروى الكدر المرتق^(٣) ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمخلق^(٤) ، ودجا عليهم ليل هم ادلم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنان ، تُسفر عن مُحجَّات جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج^(٥) أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نور ، كأنه لم ينب عنها شخص الإسكندر^(٦) ، بما ساس فيها من عجائب مباتيها ودُبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسناتها غيرها وحجب ، ووفى فيها الإنفان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الأعلام ، وصرت^(٧) به على المهرق الأعلام » .

وكان العبدى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالاً ، ويمثل الأستاذ ابن تاريت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غلبة الخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قائمتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والمواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

(٥) ساج : ساكن .

(١) غير متآد : مستقيم .

(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس

(٢) الخنق : موضع الخيل فى الخنق للخنق .

الإسكندرية .

(٣) المرتق : الزرد الكدر .

(٧) صُرَّت : صرت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

(٤) كرم جامل مدحه الأعشى بأن الكرم بيت مده .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم - دون ريث وتأن - البلد التى تآوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الشتاء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغداة الحسناء فاق جمالها فقالت يميناً لا خطبتُ على زَوْجِ
إذا الغنابات ارتدَّنَ وصفَ بعولته فما بى ولا فخرٌ - إلى الزَّوْجِ - من حَوْجِ
وفى لمكدودى الحجيح استراحة فهم يردونى الدَّهر فوجاً على فَوْجِ
ولسى - إلى البيت العيسق - كلُّم به يرتقى مَنْ فى الحضيض إلى الأَوْجِ

رحلة^(١) العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به حفظه القرآن الكريم وثقفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأُرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعراً وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنورة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأننا دخلناها - كما تقدم - فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولاً فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها ولبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وثران - كما تقدم - وكان يقيم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولى إصباحه وكسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولأه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، واتنفع بالباقي ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها . »

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلًا حراً طليقاً فى أكثر جواتب الرحلة ، وكثما أخذ العياشى

(١) اطر فى رحلة العياشى الوائى ٧٦٣/٣ والحياء
الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ .
وطبعت الرحلة قديماً بفلس ، وعنى بطبعها وتحقيقها
الدكتور محمد حجي وألحق بها فهرس مهمة .

فى القرن الحادى عشر يرد على ما كتبه المبدى عن طرابلس فى القرن السابع وضمه لها وقده
فها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/ ١٦٥٠ م وبصفها قائلاً :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى
مدينة صاحبها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعابها
قليلة ، ثيقة البناء ، فسيحة الفناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، ولسعة طرقها ، سهل
طرقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاة الأوصاف ، وجميل الإحصاف ، وسماحة على المعتاد
زائدة ، وعلى المتعافين بتأواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ،
ولو لم يستحق ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العالدين ،
فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . وهذه المدينة بلبان : باب
إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير
متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو - دمرهم
الله - وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما
أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزلهم الله خيرا ،
وأعطهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين . »

رحلة^(١) ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بجمكروت (قرية بوادى درعة جنوبى
مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/ ١٦٤٧ م وعنى بهريته وتثقيفه ،
واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكثت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/ ١٧٠٩ م
وبعد هذه الحجة كب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ،
ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى
وصف موجة للحرارة علانها مع رفاقه فى أحد شعاب الهجاز :

« نزلنا غربي الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ)
هبت على الناس ريح السموم ، من نضيج البخوم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ،
وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كل ، ولا يُبغى شربه ،
بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له .
فبركت الإبل وفرت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

وما يعلما .

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص للقبس منها كتاب

الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٧٢

تقوم ولو قُطعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرت الغرر ونفريت ، واسودَّ لَيضها وتكرت ، فترى الرجل لا بأس به (سليما) فإذا به يُخشى عليه الموت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، خافت في القلوات ، وذهبوا بأنفسهم في طلب النجاة . يومٌ يذكرُ بالموقف والعرض ، (في يوم القيامة ، وضاعت الدنيا على سعتها في الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السيل إلى باطن الأرض ، للناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالمعش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له في حجته الأخيرة إنما حدث له في حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تضمن أهم المشاهد التي رآها أو صادفها في رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعهم في مشهد هذا اليوم الحار وهي طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفي سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة^(١) الوزير الفسافي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الفسافي وزير السلطان إسماعيل العلوي المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان في سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض في اقتداء الأسرى المسلمين ومحاولة استرجاع الكعب العريية الباقية عندهم في المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه في المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير في اختكالك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا في الفترة التي زارها فيها ، وهي مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله في استقبال الملك الإسباني له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل المورودوم .. فسلم ورحب ودخل بنا الدار .. فجمعنا نمرَ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حده ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة يلبها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحى فلقينا أحسن الملائقة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفي هذه القبة وجلنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هي عوائد ملوك المعجم ، إذ هي عندهم بمثابة

(١) انظر في هذه الرحلة الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهي مطبوعة بطبعة .

التاج ، وعن يمينه طيلة من ذهب مرصعة أعدّها - وصنعها - أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليحمل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى .

رحلة^(١) محمد بن عثمان الكناسي

ولد محمد بن عثمان بكناس في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وتوفي سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م وكان أدبيا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوي كاتبا في دواوينه ، ثم اختاره حاكما لسطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م لافتكك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير في فكك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أدبيا شاعرا وكتبا ومن قوله في وصف مَدرّيد :

« هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على روبة يبلها وادي (نهر) متناسر زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وثناء ، وقد غرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه في غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيتون ظلها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادي المذكور على أكداشهم (دولبهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجله . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلّاق أضعاف من تلقّا بغارجها ، فسرنا في سكك منسعة وديار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دار شراحيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزجاج عليها شليك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعته من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥

كبار الكتاب

(أ) القاضي عياض^(٢)

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبئي علامة عصره ، استقرّ أجداده قديما في مدينة بَسْطَة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد الفاطميين المغرب في القرن الرابع الهجري ، وكان أول من نزلها من أجداد

(طبع الرباط) وكتاب زُهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والبرغ المغربي ١١/٢ وفي مواضع متعددة والوافي ٥٢/١ .

(١) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر في سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضي عياض تحقيق الدكتور محمد بن شرفية

القاضي عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهي المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا ودبارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه - كما يقول ابنه - معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكاته وإكبله على الدرس إلى أن برع في زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهد وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان - كما يقول - من أئمة زمانه في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخرجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدونة سحنون ومختصر ابن أبي زيد القيرواني ، وكان غويا رئيسا من الأدب شاعرا مجيدا من أكعب أهل زمانه خطيبا مفوها ، مقداما على الأمراء في استقضاء حوائج الرعية عندهم ، عبقيا في قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مرسية في أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصديقي فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام^(١) الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء في بلدته سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م . وفي بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سنة فرد جيشه أهل سنة ومعهم القاضي عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتي فاس وتلمسان بايع أهل سنة عبد المؤمن ، ولقيه القاضي عياض في مدينة سلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سنة - برأى القاضي عياض كما قيل - وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضي عياضا ، فأخذ من سنة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعد المؤمن في مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنثوره عفا عنه على بُر وجهه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزله عنده تزداد كل يوم سما ورفعة إلى أن توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فصلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب في العالم الإسلامي إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك في خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة في الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكي الصقلي محمد المازري دفين النسيري بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له في النقد والبلاغة سماه « بنية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاروت فصلا في ترجمته

متعددة .

(١) راجع في هؤلاء الشيوخ كتاب ابن السكيت ص ١١٩ وما بعدها والجزء الثاني من أنهار الرياض في مواضع

بالجزء الأول من كتابه الوافي بالأدب في المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفي أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعة ، وروى له ابنه في التبريد به خطبتين ، يقول في إحداها حاضا على التقوى :

« أيها السامع قد أبقيتك صَرَفٌ ^(١) القدر من سِنَةٍ ^(٢) الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأمل حدوده وتدير محكم آياته ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مِثْلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ^(٣) أين الذين عَتَوْا على الله وتعظموا ، واستطالوا ^(٤) على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقَدَّرَ عليهم حتى اصطَلَبُوا ^(٥) ، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ غرهم الأمل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق البَئْرِ ^(٦) ورَبِّ الْمَوْتِ ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ - حتى إذا رَأَوْا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ فهذبوا - رحمكم الله - سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ واحذروا نعمته ولا تَفْصُوا واعتبروا بوعيده ﴿ قُلْ كُلُّ مَرْغُوصٍ خَرِصُوا ، فستعلمون من أصحاب الصُّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ وأنهبوا لطاعته هذه المهم العاجزة ، وارْكُضُوا في ميدان التقوى تحوزوا فصب خَصْلَهُ ^(٧) الفائزة ، وادْخِرُوا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلِمِ نُنَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ذلك يوم تدخل فيه الأبواب وترجف القلوب رجفا ، وتبدل الأرض وتسنف الجبال ينفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرقا وخشير المجرمون يومئذ زرقا ﴿ وَغَرَضُوا عَلَى رُبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ فرادى ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ إن أحسن الهدى هدى محمد نبينا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهديه ، وتأذّب بأدبه ومن الذين قالوا : ﴿ سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ اللهم اتقنا بالكتاب والحكمة ، وارحنا بالمهابة والعصمة وأوزعنا ^(٨) شكر ما أوليت من نعمة ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأماني

(٥) اصطلموا : استأصلوا .

(٦) البئر : الأحداث .

(٧) خصله : فضله .

(٨) أوزعنا : ألهبنا .

(١) صرفه : أحدث .

(٢) سنة : غفلة .

(٣) ملتحدا : ملجأ .

(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى .
وتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معنى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة
تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . وبأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى
كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياح كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع
فى خطبه وأيضاً فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبتته وسجله منها ابنه عمده ، من ذلك رسالة
يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أَلْتَحِبُّ أم أَعِيب ، وأَعْرِف بالذنب أم أَذْنِب ، لا جرم لو علمت لنفسى
جُرْماً لَجَعَلْتُ عليها بَرْدَ الشراب حراماً ، ولَسَلَبْتُها لذيق النام غراماً^(١) ، حتى يَفْقَى إليها
من وجدَّ عليها^(٢) ، ويرضى عنها التظلم منها ، بهلائكما ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدعياته
من الوفاء ؟ أحين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرُحال ، ودعا بنا داعى الرُماع ،
ومَجَلَّتْ^(٣) عين ويدّ للوداع ، اتخذتلى ظهرياً ، وصرت عندكما نسيّاً منسياً ، لا أعلم
لكما علما ، ولا ألقاكم إلا حُلماً ، كأن شَمَلْنَا لم يزل مُصَدَّعاً ، وكُنَّا لطول افتراق لم
نَبْتَ ليلةً معا ، ماذا يُرِيب الغريب فى إغياب^(٤) الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤتمّة
الأوطان ، أتى المجد من ذلك وليت ، ولنا ما يَتُّ بالملء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه
ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدته من غلظ تلك الخلال ، وقتما ! من الذى
يُغْطِى الكمال ؟ أم تَمَّ ذَنْب يوجب الصدود ، ويؤدى بوذّ الودود ، أسمعا ، لأرجع إلى
الحباب ، عن العتاب ، ولبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأغزير ولا أعذل^(٥) . وأنصف من
نفسى وأعدل والسلام . »

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات
والكنائيات ، مما يدل - بوضوح - على أن القاضى عياضاً كان يبحر أعماله الأدبية فى رسائل
وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حساً مرفهاً ، لا بما يورد فيها من سجع قصير
يطير عن الأنواء بخفة ، بل بما يصور من حمه الدقيق ، بمثل تعفيه على ما يظن أصحابه به
من غلظ الخلال بقوله وقتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون
ريب كان القاضى عياض أديباً كبيراً . ومن طريف ما نقرأه فى مقدمة كتاب الشفاء تكميده
لربه وتسجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأسمى^(٦) ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : حرماً .

(٢) وجدَّ عليها : غضب منها .

(٣) مَجَلَّتْ : انقضت .

(٤) إغياب : الأسع .

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : حرماً .

(٢) وجدَّ عليها : غضب منها .

(٣) الرُماع : للمضى فى الأمر . مجلت : كُتبت كتابة .

عن الشيوخ وفى الأصل : عجلت .

ولا وراءه مَرْتَمَى ، الظاهر لا تخيُّلاً ولا وهماً ، الباطن تقدُّساً لا عُدْماً وَسِعَ كل شيءٍ رحمةً وعِلْماً وأَسْبَغَ على أوليائه نعماً عَظِماً^(١) ، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم أَنفُسَهُمْ عرباً وعُجْماً ، وأَزْكَاهُمْ عِتْداً وَمَنَى ، وأَرْجَحَهُمْ عَقْلاً وحِلْماً ، وأَوْفَرَهُمْ عِلْماً وفهْماً ، وأَقْوَاهُمْ بَقِيَّةً وعِزْماً ، وأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، زَكَّاهُ رُوحاً وجِسْماً ، وحَاشَاهُ عِيَاً وروصْماً ، وآتَاهُ حِكْماً وحُكْماً ، وفتح به أَعْيُنًا عَمِيًّا وقلوباً غُلْفاً^(٢) ، وَأَذَلَّاهُ صُغْراً ، فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّزَهُ ونَصْرَهُ من جعل الله له في مِغْصَمِ السَّعَادَةِ قِسْماً ، وكَذَّبَ بِهِ وصدف^(٣) عن آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ خُتْماً ، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ صَلَاةُ تَنْمُو وَتَنْمَى ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً .

والتحميد والتمجيد في لغة عذبة سلسة ، سوله في الألفاظ أو في الأشجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق للمصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر^(٤) أحمد بن عطية

أول كتاب المغرب إلأقصى التلبيين في ديوان علي بن يوسف بن ناشفين وابنه ناشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م وكُتِبَ كُتِبَ فِي هَذَا الدِيَوَانِ قَبْلَ الْعَشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ ، وفيه تعرف على تقاليد الكتابة الديوانية التي أرساها في الديوان المغربي كتاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة ولبن أبي الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطون فرَّ وغير هيته ، وكان محسناً لرمي السهام ، فانتظم في الجيش الموحدى الذى خرج إلى مدينة سوس في الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقُتِلَ الثَّائِرُ ونَهَزَمَ أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إيتي كاتباً يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فذُلَّ على أبي جعفر ، وكُتِبَ لَهُ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصانة رأيه ، كما يقول المراكشي . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفي كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن ناشفين ، وكان أخوها يحيى فارساً وقبلى بلاء شديداً في مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

والإحاطة لابن الخطيب ١٣٢/١ - ١٣٩ والنيوخ
المغربى ١٦٦/٢ والروانى ٢٥١/١ - وانظر في رسالته
مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنة
(طبع الرباط) .

(١) نعماً عما يتبعها كثرة .
(٢) غلظاً : جمع أغلظ : كأن على القلب غلظاً .
(٣) صدف : أعرض .
(٤) انظر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عطية كتاب
المعجب لمبد الواحد المراكشي ص ٢٦٦ - ٢٦٩

فجعل عبد المؤمن قائدا على من دخل في عقيدة الموحدين من لثونة قومه ، ولم يزل مكرما عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك في مجلسه فخشي لئلا جعفر أحد بن عطية على صهره يحى من فثك عبد المؤمن به ، فقال لزوجه قول لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوانه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللاحاق بجزيرة ميورقة فليفلعل (وكان صاحبها أارجا على الموحدين) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسر إليه ما بلغه عن صهره أي جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالتبض على أي جعفر وأخيه أي عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، واعتقل يحيى وظل في سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن في أي جعفر وصاحبيه رأفة ولا شفقة ولا رحمة .

ولئلا جعفر أحمد بن عطية يُعَدَّ في الذروة من كتاب عبد المؤمن ، وبشهاد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله في تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها في تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ هـ أن تلزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أي جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبة كى يلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين - أهذه الله بنصره وأمدّه بمعونه - إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسببة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة - وفقهم الله وسدّدهم - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مؤلى الرغائب ، ومُسْتَسْنَى الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعين من حمده الواجب ، ونصلّى على محمد نبيّه العاقب^(١) ، وعلى آله وصحبه أولى المفاخر السنية والمناقب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المحرز شرف المبادئ ، والعواقب ، المجلى بنوره الناقب حُجْبَ الظلام الواقب^(٢) .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مراكش على أتم أحوال الظفر واليمن ، وعُدْنَا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتماصها ، وإطفاء نار الفتنة بيزد الهدنة وسلامها ، وإلصاق أتراف الكفرة المرتدين برغامها وقطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة - وفقكم الله - بهذه الفتح المميعة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزىي بحلته البهية

(١) الواقب : الشامل .

(١) معنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهديّ - رضى الله عنه - العجب العجائب ، وفاض فيها من بركاته الفيض للناس ، ودرّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين . الخاسرين ، فمحقهم وطبّسها الشديد الغلاب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والثناء . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبته : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبد المؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الخفيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهديّ ابن تومرت الذى أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة للمكوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانبة صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يصوّر عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) - وفقكم الله - هو أمر المهديّ - رضى الله عنه - حقّ تأمل ، ومع معالجه الجلاء فلا تظنّ ولا تخيل . والمهديّ - رضى الله عنه - قد بشر به النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودلّ على اسمه وزمته وفعله ومكانته بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى - رضى الله عنه - كما نعت النبى عليه السلام - ووصف ، وقال - صلى الله عليه وسلم - فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والالتصام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبين الصبح لذى عينين ، وجَدع الحق أنف الكذب والمين ، وتجلت^(١) الهداية ضد الضلال والرين^(٢) » .

وعيد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهديّ من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الخفيف ، ويقول إهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جواب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تيمّنت حين زار قبر المهديّ فيها لشهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ . وهى أشبه

(٢) الرين : النفس .

(١) فى الأصل : جلت .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغي أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجُّ به عبد المؤمن في السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بآيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة^(١) :

« تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح ، في الفلك إلى نوح ، وأمرت لاحتطاب نار الخليل حبلا ، وبرئت لقدار ثمود عاتر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فبذتها ، واقرت على المنراء البتول ففدتها ، وكسبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظهرت الأحزاب بالنفوسى من المذوة ، وأبغضت كل فرسى ، وأحببت لأجل رخصى كل حبسى ، وقلت إن يعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبه ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ، وقتل تقاتلوا رغبة فى الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على التريد الأغفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيا ، ثم كت بغفرة المصوم لاثنا ، وبغير المهدي - رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقاتلى أن تسمع ، وأن تفقر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ، وبالذنب محترف :

وعفوا أمير المؤمنين فمن لنا برد قلوب هدها الخفاف

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أنى سخرت بكل من فى الوجود من خلق الله ، واستنكت لإبليس من سجوده لآدم وتكررت أن الله أوحى إلى نوح فى فلكه ما أوحى ، وأمرت للمحططين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدار ثمود عاتر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التى أمتها الله لظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين لبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أنى السامرى الذى قبض على شىء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسرائيل لعبادة العجل فى غيبة موسى ، وكسبت على السيدة مريم المنراء البتول ففدتها ، وكسبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظهرت الأحزاب وعاونتهم فى حصار المدينة ، وأبغضت كل فرسى وأحببت لأجل رخصى

المنبرى للأستاذ كون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية فى الإحاطة .

(١) انظر فى هذه الرسالة كتاب روض القطر لآين فى زرع (طبع الرهاط) ص ١٩٦ وكتاب النور

الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد كل حبشي ، وقلت إن يعة السقيفة لا توجب إمامة أبي بكر وخلافته ، ولو أتى شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شعبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشعبة في حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على درهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعل بن أبي طالب خضيا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيا لبقرع السن - كما قيل - في ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بخفرة ابن تومرت وقبره لقد أن أن تسمع لقولي وتنفر لي خطيئتي وتغفو عني . ولم يكن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجديدة لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتباً بارعاً وأن رسائله تعد في الذروة من الشر المغربي في مختلف عصوره .

(ج) ابن^(١) بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة كانت تشغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت في بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه - وكان فقيهاً - بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه للدراسة الفقه المالكي واستوعب ما عند شيوخه في نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده في الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقاً إلى الجزائر ونزلاً سنها الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وغرر فيه فقهه فأقاموه قاضياً بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبادها وتعرف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إني أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فأجبه : نعم . فقال له : « لا بد لك - إن شاء الله - من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فبلغهم منى السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكنّا تيّباً له أنه سيصبح رحالة كبيراً يطوف بلدان العالم الإسلامي حتى أنقاصها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمماً وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد في الوجه البحري مثل دمنهور وقوة بالقرب من رشيد ودمياط والمحلة الكبرى . وفي قوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدي ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى في منامه حلماً عجيباً : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به في سمت القبة يتيامن ثم

وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين موسى (طبع دار المعارف بالقاهرة) .

(١) انظر في ابن بطوطة ورحلته البوغ المغربي ٢٢٢/١ ورحلته ابن بطوطة للدكتور شاكور خصبك (طبع بغداد)

يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يمد في طيراته إلى ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركها بها . ويقص حمله على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تنجح وتزور النبي ﷺ وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له في الهند والسند والصين إرهاسا ليصبح رجالة بل ليصبح أعظم رجالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصيد ويعذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدة معطلاً لخروج قبائل البجّة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول في بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنورة فسكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل في النجف وواسط والبصرة وشيراز في إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلداتها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وطفار وعمان ودخل الخليج العربي وبعض بلداته . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكنت تابعة لسلطان مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول في بلاده وفي بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب في أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأتى به السلطان محمد أوزبك وبعده من أعظم ملوك الدنيا ، وأرسله في ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها في القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ورحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجول في بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند في سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ويكرمه سلطان السند أو النجاف محمد شاه ويوليه قضاء دهلوي ويقم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان في وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليبوط إحدى ثغور الهند في الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذية المهل (المالديف) جنوبي الهند ، وتولى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول في بلداتها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويبحر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر ببردانية وتلمسان ، ويصل إلى فارس سنة ٧٥٠هـ ويرحب به سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول في بلدان إمارة بنى

الأحمر بفرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جَزَى أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جَزَى يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جَزَى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . ولبن جَزَى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعمدهُ لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسآكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعملتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لآبن جَزَى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنسآك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقتطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رَحْل الضميف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٌ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع نبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتزوج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجدد على طول العهد ، وكوكب تعدلها لا يرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور وهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان عمارته إذ أعيد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجابهة (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلدتها ويصف مشاهدتها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكمائها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًا يتعانون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمى « الأُخِيَّة » ويصفه قائلًا :

ذكرُ الأُخِيَّةُ الفتيان : واحد الأُخِيَّةُ أُنحى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالفرمان من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحاجات والأخذ على أيدي الظلمة . والأُخِيَّةُ عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزب والتجردن ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجمع لهم ، فيشترتون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنَّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالفدوة (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمُّون الفتيان ، ويسمى مقدمهم - كما ذكرنا - الأُخِي . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحبُّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلَّمه فيما بعد) وكان عليه أبواب خلفه ، وعلى رأسه قلنسوة بُد (صوف) فقال لى الشيخ أعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأُخِيَّة ، وهو من الخرازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدَّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صلَّيت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالسُّبُط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أبوابٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشمع المذاب ، وإلى جانبه آتية نحاس ملأى بالشمع وفيها مقراضٌ لإصلاح القنيل ، وأحدهم موكلٌ بها ، ويسمى عندهم الجراغجى . وقد اصطفى فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأتية وفى أرجلهم الأخفاف (جمع خف) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلائس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخلى (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المظهر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الفناء والرقص فرأنا حالهم ، وطال عجبنا من ساحتهم وكرم أنفسهم ، ونصرفنا عنهم آخر الليل .

وبهذا الأسلوب المرسل فى حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة فى رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته فى هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وأحيانا كانوا لا يتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلوات ، ودائما - كما دته فى كل بلدة نزلها - يذكر حكايات النساك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . ويتنقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذخيله لزيارته فى عاصمته « السرا » شمالى بحر خوارزم وكان معسكرا بهيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد ، وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتكسى بالبد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيقتان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب وهو فى حال سيرة .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعد من أعظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذى كان يتخذ فى كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب » . ويفيض فى الحديث عن كل زوجة وجواربها ، وبما ليكها وما أحدثته . ويعرف السلطان رغبته فى زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل فى إقليمي وبسوا وبيورا (روسيا) فى شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالى ويسمىها أرض الظلمة . ويعدل عن ذلك لعظم الموتة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا فى عجالات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة نبها الجليد فلا يثبت فيها قدم آدمى ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار نثبت أقدامها في الجليد . . ويصف العجلات التي تجرها الكلاب ومسيرتها .
فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائمه . وتزور إحدى زوجات محمد
أوزبك أبها ملك القسطنطينية فيرسله في رفقتها يتجول في بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى
حاضرة السلطان ، ويؤنه بفتية يسمى نعمان الدين الخوارزمي كان السلطان يزوره كل يوم
جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفع عليه حتى إذا حضره
المساكين والفقراء تواضع لهم وكلهم بألف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول في التركستان ويعر بلدان خراسان وأفغانستان
إلى الهند ، وعينه الواسعة ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وجوب
وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم
بالنار وتغريق النساء مع أزواجهن حين يموتون وتقرهم إلى إلههم بالفرق في نهر الكنج المقدس ،
ولا يكفى برواية ذلك بل يعرض في تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديما . ويحتفي به الأمراء
والقضاة والفقهاء في بلاد الهند حتى يصل إلى دهل (دلهي) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها
ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحن ، وفي صحنه الشمالي صومعة (منفذ)
لا نظير لها في بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفتحاتها (رؤوس أعمدتها) من
الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهل ونسائها
وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث
عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلي والذهب ، ويقول إن سريره أو
عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ،
وعرضه نصف ذلك ، ويطلق وصفه . ويخلع عليه الخلع السنيّة وينعم عليه بوظيفة القضاء
في عاصمته ، ويظل يتولاها ثمانى سنوات كما مرُّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر في الهند
ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذية المهل (الملديف) ويفصل القول عن سكانها
وملابسهم وعاداتهم في الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة
ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان
الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون في أغصانها . وأما شجرة
الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في
داخل الأنابيب . وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه
كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، والمجلوب منها إلى
بلادنا هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل فهو الذي يسقط من زهره وهو شبيه
بزهرة النارج ، وثمر القرنفل هو المعروف في بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته . »

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكانهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازاً يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جداً وأنهم لا يتباهون بالدينار والدرهم إنما يجمعهم وشراؤهم يورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوه ببراعتهم فى التصوير وبطيل الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أذى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعاً أو أقساماً مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد^(١) بن على الفشتالى

من قبيلة فشتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م وتركها مبكراً للترود من حلقات العلماء فى فاس ، وفتحت موهبته الأدبية سريعاً ، فكان شاعراً كاتباً وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رئاسة القلم بديوانه ، واستعان فيها بيلديه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو ينسب عليه كثيراً فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بدعية فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : « درة الحجال » : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسرادة^(٢) ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، موثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المتقى مراراً بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدر^(٣) ، الملئ ، الكاتب الأعظم ، والخصم المنظم ، الناظم النائر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة العثماني مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة

الحجال ١٩٠/٢ والمتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا

للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنويع للمغرى ٢٧٥/١

لكون وكتابه رسائل سعدية وقرافى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدر الملئ : أكثر أقناع القصار نصيباً وبكى ٤

المكافئة الرقيقة .

صاحب كتاب الرحانة والتعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي - وقد أعجب به - يترجم له في كتبه ، وفيه يقول : « وزير مولاي أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلانها الأكياس^(١) » ، تقدم فيها متقلدا قلادة إيشائها ، فاتفا برسائله على سائر أديبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماك ، ورياض مشور تغرد حمائم قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائري . ويقول الأستاذ كنون في تقديمه لتلك الرسائل إن محمد بن علي الفشتالي منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلا^(٢) :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والمطاء ، المصروف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي سنّ تجهيز البعث لتدوين الأقطار ، بتوالي تكاتف القبائل والقطار^(٣) » ، والرضا عن آله وصحبه الذين اغتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتموا نشر نسبه الليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيد عزاء وظهورا ، ويجمله في عين الوجود نورا ، فلما كينه إليكم من حضرتنا العلية ، ومجمع المفاخر القرية والنصيّة : حراء مرأكش ، حرسها الله . هذا ولما نهى إليكم - عرفكم الله عوارف آله الجسم ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحة القسام - بأنه لما انصبّ عزما الميمن في سالف التاريخ ، وتاقت جيمنا العلية لتدوين بلاد السودان بأنتم وجوه التدوين ، وجئنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة^(٤) ، جملة يتكفل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونُبذة نُشرت عليها من ألوتينا الظافرة كلّ فتحاء^(٥) قاهرة ، أطارها اليمين كلّ مطار ، ولجج بها الإقبال لجج القفار ، تخوض الآل^(٦) تترام أمواجه ، وتفتح بلبا طالما طلسم رتاجه^(٧) ، فاتحهم العساكر أحياء وجللا^(٨) وارtedy من المهابة وبعد الصيت برودا وحللا ، حتى أدخل رنقة^(٩) طاعة هذه الإيالة^(١٠) من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوبرية من أعاريب الكراع^(١١) ، التي لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهي التعداد بهم على حكم ما أدّره من الزكاة الشرعية لسنة وأربعين ألف خيمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعض من كلّ ، وجزء من جلّ . وانتهى القوم والإبعاد ، بما وجّهناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحضيف .

(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .

(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق منتظم .

(٤) المنيفة : المتسليمة .

(٥) فتحاء : غناب .

(٦) الآ : سرها .

(٧) الرتاج : الباب العظيم .

(٨) الحلال جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .

(٩) رنقة : حبل .

(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .

(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَقَرَّةٍ من ثمانين مرحلةً فى المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأعناء التى جَنَّا^(١) طاعتها لهذه الإيالة - إن شاء الله - دان ، فنأهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف^(٢) على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأغلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرْهُم لَبْصُول ، وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان بالزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مَسَّهُم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأَفْنَى جَلَّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفَّر من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سيمائة رام ، وقُرْبَ عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة عمارسا ، فهبَّ عليهم من رياح النصر كل صبا ، واتخذوا الشهامة والجلاد سبيلا ومذبا ، فخفقت الألوية العلوية بالنصر والظفر ، وأُنْبِتَ^(٣) - بحمد الله - سِيلَك انتظامهم واتشر ، وأتى الحَيْنُ والأسرُ على جموعهم فى الحَيْنِ ﴿ فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولما ذكرنا هذه الرسالة يتامها لنذل على أسلوب محمد بن على الفشتال المسجع ، ولَمَّه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بلبا طالما طَلَسْم رتاجه ، فأتحم المسكر أحياء وجِللا ، وارندى من المهابة وبُعد الصَّيْتِ برودا وحَلَلًا » . ويقول عن أهل السودان الغربى فى محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرْهُم وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالزول » . ولعل فى هذه الاستعارات وما يماثلها فى الرسالة ما يدل على أن الفشتال كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا فى وفاة السلطان مراد خان ، وهى تستهل على هذه الصورة :

• الوزارة العظمى التى تُجال بأنظارها المسددة قِداح التدبير الجلائل ، والمنزلة التى لها وفور الاختصاص من أثره^(٤) الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التى ضَمَعَتْ عروش عظماء المشركين وطاطات رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذى عليه فى دولة بنى عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجل ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الحظير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعتر ، المشتهر ، الحظي ، السرى^(٥) ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخص ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأتقى ، الأطهر ، الأطهر ، الخليل ، الحفيل^(٦) ، سنان باشا أبقى الله حوزته^(٧) محروسة ، وربوعه بالسررات مأنوسة ... هذا

(١) جَنَّا : الشرف .

(٢) ينيف : يزد .

(٣) أُنْبِتَ : الغافل . الحفيل : الخفى به .

(٤) حوزته : دياره .

(١) جَنَّا : شرف .

(٢) ينيف : يزد .

(٣) أُنْبِتَ : قَطَّعَ .

(٤) أثره : خلاصه .

وقد طُنَّ بهذه الأقطار ، نبأً فطّيع التذكار ، فُتت الأكباد ، وأذكى^(١) - على الثنائى - لواعج
 القواد . خطبٌ جلل ، ورزّةٌ قلّ ظُبا^(٢) الصفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى
 فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البسطة فى السلطان ، والملك
 الموطن بتمهيد الأركان : الخاقان^(٣) الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين
 الكبار .. وليس بمستكر كونه - رحمه الله - لأهل التوحيد يدا ، ولهم المسلمين مددا ..
 ولنا لله ولنا إليه راجعون من مواراة الحفر منه بدرًا طالما ، وإغماؤها سيفا كان فى حياة الدين
 قاطعا ... واللجأ فيه إلى الصبر الجميل ، والضراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لبقاء
 لمخلوق مع نهى رواحل الليالى والأبام .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت
 سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترن بأخيه ، فى
 سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه
 منها بهنى سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ،
 فقد آسى^(٤) الدهر به . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ
 المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة
 للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة
 لرسالته إليه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع
 فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشبه الجموع
 نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم
 والاشتغال والتنازع والنواسخ . وثلثى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، وبذكر عن
 المنصور إقامته للرسم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقه فى الدين ولحملة
 الرواية فى حفظ سنة سيد المرسلين . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية
 وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول
 المنصور :

« وهؤلاء عُدّام جانبنا العلّ واردون على تلکم الدیار برسم جلب ما لعلکم تستفرون فيه
 الوُسْع من الکسب لخزائنا العلمیة الحافلة .. وأما التشوق لموضوعکم (لشرحکم) على مختصر
 خليل فشیء لا یکفی ، ومعهود لا يحتاج أن یعرف ، وبودنا أن یکون من خزائنا الحافلة
 بحیث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة . »

(٣) الخاقان : لقب سلاطين الترك .

(١) أذكى : أوفد .

(٤) آسى : عزى وولى .

(٢) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .

والمصور في هذه الخاتمة لرسائله يقول للقرافي شيخ المالكية في مصر أنه مرسل له يبعثه علمية ليتقى لها كتباً نفيسة ، عما ينبغي أن لا تخلو منها مكيبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصري في الفقه المالكي ، وكانت له شهرة مدوية في البلاد المغربية . ولعل في كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أن محمد بن علي الفشتالي كان كاتباً بارعاً ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م .

(هـ) محمد^(١) بن الطيب العلمي

من الكتاب الشعراء في أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفي الطريق صعدت روحه إلى بارئها في القاهرة سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربي بعده لا في فاس مسقط رأسه وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتائب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكب على حلقات العلماء في جامع القرويين ، وفتحت موهبته الأدبية مبكراً ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مدح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسطعات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبي على نحو ما يتضح في كتابه « الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أبناء المغرب » وقد عرض فيه اثني عشر أديباً من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذي أرسخ في أرض الفصاحة أقدامه ، وأكر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف في الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقرع^(٢) الرجال ، في ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجماته وما يختار لها من أشعار وبجناسته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربي الشرقي ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذي طلبت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراغ ، وبلغت الروح التراقي وظن أنه الحين وقيل : من راق ، فكرت فيمن يفك من يد الأشواق أسرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبالبدر لم يطلع وبالبليل لم يسر

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح

والدكتور الأخضر ١٧٧ .

(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

(١) انظر في ترجمة ابن الطيب العلمي ورسائله ومفاته

التبليغ المغربي ١/ ٣٢٤ ر ٢٢١/٢ والوفاي ٣/ ٧٨٩

فما عثرت بعد معاناة التَّيْنِ ، ومعاناة الدهر المفرق بين المحبَّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استخرجت من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت أدخرتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتها بعد السرور بكونها وفي الليلة الظلماء يُفقدُ البدر
فما زالت تذكّرني أيام الوصال ، وتقطع من غرائب الين وتخرسه إن صاح أوصال :
ذكرت بها بعد التفرق ما مضى زمان النقا والشيء بالشيء يُذكرُ
إلى أن استولت على يد الضياع ، وأعقب لي ذلك الأمن بالارتياح ، فأصبحت من فراقك
ملئنا بلوعتين ، واحترقت بهجرتين ، والتدغت من جُحر مرتين :

وكنّت كذى رجلين رجلٍ مريضٍ ورجلٍ رماها الدهرُ يوما فشلت
غير أن الآمال كلّت تشوّفتي^(١) ، والليالي لكلك تشوّفتي ، فكنت أصدّق فيك الأوهام ،
وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدقتُ وهي في الحديث ولم أقل خيرٌ رواه الوهمُ وهو ضعيفُ .

وهو في مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنَى وزيادة) كما يقتبس من سورة
القيامة : ﴿ إذا بلغت التراقي وفيل : من راق ﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوي : « لا يلدغ المؤمن
من جحر مرتين » ويتمثل بآيات تنضح فيها رهافة ذوقه وبصره بالشعر العربي ودقة اختياره ،
ولغة الرسالة وأساليبها تكثظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات
والاستعارات . وكل ذلك يرفع من ثمره وبلاغته فيه . ومن آثاره الثرية مقامة بديعة سماها
« مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء وأنا أوجزها في السطور التالية :

استهلّها بآية جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذكرون ما مرّ في أيام الشباب ،
وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أن شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسأله
عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخبركم بخبر عجيب ، فقد صليت يوما صلاة الاستخارة ،
فوجدتني مثالا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حائونا بسوق التجار ، لبيع
القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان .
فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد في طريقه جماعة من النسوة يتنهن فتاة جميلة ، فبعثتها
حتى دخلت دارا ثيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخطط الشاب في دكان . ويذكر الشاب أنه
احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح في عقدها ، فثأب أن ثابها خطيب البلد ، وهو
كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوّفتي : تجملى أطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فذله على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأبأته منها ، فقال لها إني لا أريد منها سوى قُبْلَتين ، وأعطاهما من الذهب ما أَرْضَاهَا ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنعتها بلقاء الشاب المقيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجّام ليستم حسن مظهره ، فوجد الحجّام شارب طويلا ققص أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجّام درهما أعطاه لارتبائه دينارا ، فطار صوبه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنائره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا منجد ! مغيث والعجوز راجفة والبنت واجفة^(١) ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجّام يصيح : يا سيده ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجّام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيس فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بثرا فرمى نفسه فيها ليختبئ عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجّام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجّام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه بموّهة عليه : دخلت لكى أَسْرِقَ ، فَحُمِلَ إلى الوالى على أقيح حال وأسوأ شأن ، وأمر بسجنه ، وبقي فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبِسَ من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجّام للشاب فضله على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أنقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاروت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أعلّاهما - كما ذكر الأستاذ ابن تاروت - من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والمذوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةً إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كُتِّها قضيب البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأُبصرت من تحت الثقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بلبها ، على سعادة أربلبها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياطٌ يخطط فى دكان ، وعنده من الصناع والأعوان ، ذوو أذقانٍ ومُردان^(١) ، صِنُون^(٢) وغير صنون ، فقلت فى نفسى : من هذا الخياطُ أَسْتَفْهِم ، عما على لبهم . فرجعت إلى دكلى ، ثلبا عتلى ، وأحضرت عِلَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حاتوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآمسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجلت له من الأجرة ما يحصل به الانتماش ، ففرح بمحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلى من ضيق الحال والسَّعْب^(٣) ، وتشدنى نفسه من شره المستعذب :

نأ الخياطُ لى رزقى ولكن أرى حالى من الإغلاس عِزّه
فراعى فيه من فقري بقصٍّ ورزقى خسارٍ من عِزِّ لِهْزِه

فاستحسن نظمهُ ، وحملت همُّه وسألته عن صنَّاع دكانه ، ودهار جبرته ، فمازال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويهرقنى تفصيلها وإجمالها ، حتى أنفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وفصدى أن تنضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتؤدة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بن جنبه ، والسواد الذى فيه نور عينه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج .
والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الانسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضروبا من التلازم الصوتى بين العبارات ويحسن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتساب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العذب القراح .

(٣) السب : الجوع .

(١) مردان : جمع مُرد : شاب .

(٢) صنون : شقيقان أو صئائلان .

القسم الثالث

موريتانيا

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

تقع موريتانيا فى الشمال الغربى من إفريقيا جنوبى المغرب الأقصى والجزائر ، وفى أقصى شمالها الشرقى الصحراء الغربية ، وبجاذبيها فى الغرب المحيط الأطلسى ، ويشغل الشرق منها دولة مالى ، وتحاذيها فى الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التى نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالى .

وهى تشغل الجزء الغربى من الصحراء الكبرى التى تمتد حزاماً بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتأثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، وتلتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد نُقِضَ مائة كيلومتر دون أن نعر على بشر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها فى حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآية منه ، وسطحها رمال سائلة وكثبان متقلبة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت - على مر العصور - كثير من القرى والبلدان ، والجو - وخاصة فى الصيف - شديد الحرارة ، ويمتد فى المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريج السيروكو الحارّة والحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتتعدى فى بعض الأنحاء . وقد تصبح الصحراء جافة جداً وقاحلة جداً كالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما فى رمال كالحة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجارى إلى تمبوكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلاّ ، ويزرع تحت النخيل فى الخريف الشمير والدخن والذرة وأحياناً القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السّدر والطلح .

وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التى أُسِّسَتْ سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

وكتاب الوسيط فى تراجم أدياب شفيط للأستاذ أحمد بن
الأمين الشنقيطى

(١) انظر فى جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا
للحسن الوزان فى مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة
فى أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان الغربى

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شيدت بواحة تيمير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا - من حيثذ - تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السامسة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكتت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها - كما يقول الحسن الوزان - رقعة صالحة للزراعة فيها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا وذخنا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى - إلى ذلك - كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على واديين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سبخة إجّل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحمّل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلّت محل مدينة تغازى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يخفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة ككُفها قد نُحت ووضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويأخذ الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهباً وفى مالى بتلاتين مثقالاً ، ويُقطع قطعاً يُباع بها كما يُباع بالذهب والفضة ، وقرية تغازى يتعامل فيها بالقطاير المنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجلب لهم من تمبكو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوماً من تغازى ، وماء تبارها صالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقى مدينة ولأته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حلاق نخيل وثبتت بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتسمى المنطقة - كما يقول - من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العبرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

٢

التاريخ^(١)

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم في الشطر الغربي من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدلية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هي تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senegal ثم أصبحت Senegal . ويقول ابن فني زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لحونة وكدالة ومسوفة ولطة وبنو وارث وسندلة ، وفي كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زراعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون في السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش في الحزام الصحراوي الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على قدامها وألبقها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رؤوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سموا اللثمين . وأخذت أصوله الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهري وولايته على الديار المغربية (٥٠ - ٥٥ هـ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانيين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام في عهد موسى بن نصير (٨٦-٩٦ هـ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم في البلاد المغربية (١٢٧-١٣٧ هـ) غنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

إفريقيا ، في مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة في حديثه عن ولأته وكتاب مناعل الصفا للقتال ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنقيط ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالي الإسلامية للدكتور ليرلهم طرخان .

(١) انظر في تاريخ موريتانيا المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب للكبرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن فني زرع (طبع الرباط) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربي في كتابه : صورة الأرض ، وراجع كتاب الحسن الوزان : وصف

غربي الصحرله الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلنامه فى جنوى المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربى آباراً للفواقل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء فى مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريما إلى بلاد السودان الغربى عن طريق القبائل الصنهاجية فى موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب إن بنى أمة أرسلوا جيشا لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه فى بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع فى شرقى السنغال الحديثة وجنوبى مالى الحديثة أيضا ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديما إلى ديار السودان الغربى الدين الحنيف وبغى هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء فى صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا فى أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية - وخاصة لتونة - تتجمع فى مدينة أودغست جنوبى منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة - ويسمىها بعض جغرافى العرب مملكة - ويذكر ابن أبى زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها - كما يقول - تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها كلها عامرة ، وكان يركب فى مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخمة من الإبل ، وكان فى زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس (١٣٨ - ١٧٠ هـ) وطال عمره إلى أن توفى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له - كما يقول ابن أبى زرع - تزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكا بالمضى الحقيقى لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ - أو سادة - قبائل ، وأكبر الظن أن فى هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن ونسو بن نزار اللمتونى الأودغستى فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥ هـ) وكان يركب - مثل تيلوتان فى مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين فى مثلها ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان - مثل تيلوتان - يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم انفرقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تمون بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تمازى ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبى عبد الله محمد بن تيفات المعروف باسم تاوشا اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والنج ، وظل أميرا على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد فى إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تآوشا اللمتوني صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان ببنى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م وعرفه بما فى صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الخفيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليصبرهم بأمر دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاف بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالي ، وقبلها فقيه تقي ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالي إلى قومه الصنهاجيين بعد الله بن ياسين فأخذ يحفظهم القرآن الكريم ويقفهم على تعاليم الدين الخفيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفتوا حوله ، وبعد فترة ازوروا عنه ، وتوفى حاميهِ يحيى الكدالي فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لشونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والتسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلا معها سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للتسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشرف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُقبلوا من قلة ، وقد تمعن علينا - أيها المرابطون - القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملتئمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، وقُتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م يدعون إلى الإسلام فى سودانيى التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غلة وغير غلة . وفى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحاهما كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لحما النصر ، وأزالا ما بالبلدتين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المفارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لشونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م وقدم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متينا الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آردار وحصى لركى وأودغست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلداتها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجليّة نسبة إلى عبد الله البجل الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدي الشيعي الإسماعيلي إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أول حسنات أبي بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذوا يتغلغلان فيه شمالا واستولوا على أغصان وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م كما استولوا على نادلة وإقليم دكالة ، وعرفوا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبئون لبتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة - وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا ولزمور وآفغة (الدار البيضاء) فى ساحل إقليم تامسة ، وأخذوا ينازلانها منازل ضارية ، وفى بعض المنازل والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبُنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأنتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثالثة لأبي بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتي لتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراکش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدي بنى يعلى الخزريين ، وتوغّل شرقها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسيان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسيان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المترصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا الإدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وساجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالكروور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حاس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غنة ونشر الإسلام فى أنغاثا ، ويقال إن أميرها السنكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنى فى حوض النيجر الأوسط ، وحققا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدي التجار والقبائل الصنهاجية قبل نبي بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فقه أحاطا بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى نهد الآبين . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذاً آزكى وأودغست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك بحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما بحسب لها ما أدته من خدمات جللى فى الأندلس وحماتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإسيان . وطبيعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جللى وسع بها داره الإفريقية وعالاه الضخم .

وأبو بكر - دون ريب - هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكائنها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطون وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة نبي بكر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولائه ، وانتسب حكامها - كما يقول الإدريسى - إلى الحسن بن على بن نبي طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمال ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وفر من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يفرز بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان (٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه فى موطنه وارتفاعه فى بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم إذ يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخّر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل مدينة ولانة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالى ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالى منذ عهد مارى جاطة (٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م - ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م) الذى وسّع حدود دولته - كما أسلفنا - إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولانة » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمه وأودغست ، فطبعي أن تدين جميعا له وللمالى بعده وحكامها التالين . ويذكر ابن بطوطة عن ولانة أنها شديدة الحر وبها يسير نخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ ، ولحم الضأن بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموا وفى مقدمتهم قاضيا وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولانة فى عهد دولة مالى ، وكانت قد أخذت فى الضعف بينما أخذت صنغى فى حوض النيجر الأوسط شرقى السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالى ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا فى القرن التاسع الهجرى ، وبلغت غاية قوتها فى عهد أسرة إسكيا واستولى « سَنَ عَلَى » ملكها على تيمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيمت يفرّون منها إلى ولانة واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالى ومدّت سلطتها ونفوذها إلى ولانة وإقليمها فى موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متسكنين بالإسلام ، مما زاد فى تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن فئى بكر (٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م - ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م) الذى اتخذ مدينة تومبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولانته فى عهده وقال إنها تلبه لملك تومبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها فى جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول فى هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكف بولاء ولانته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحد المنصور الذهبى سلطان الدولة السعدية فى المغرب الأقصى (٩٨٦-١٠١٢ هـ) فصمم على منازلها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٧٩ م فى عهد حاكمها إسكيا داود وتغلّطت الحملة فى بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بنفائهم كثيرة وسعم بالحملة صاحب برنو شرقى صنغى وكثما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل فى أواخر سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٨٢ م ببعثته للمنصور الذهبى مع هدية كبيرة

من خيان العيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعانه ، وأعد لذلك جيشا جرارا بقيادة جؤنر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضنية فى فيافى الصحراء وقارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فونديى شمالى جاز ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جؤنر إلى توميكو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قبل له إن مناجم الذهب التى يقتصدنها لا تزل بميدة جدا بُعد للغرب الأقصى عن تميكو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكيا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الخلى والذهب وعاد الجيش عملا بغير قليل منها ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » ويثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سمي المنصور الذهبى .

وأهم ما عاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم فم رفع يد دولة صنى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجلا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولما من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شقيط ، وإليها ينسب إدوعيش سكان تكنت وأبناء أحمد من دمان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرليش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولانه وكان قبائل حسان تغفلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبا كبيرا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تعرب من حيثذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعودوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بترية الإبل والخيل ، وظلوا يقدون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتبه الوسيط وتراجم أدباء شقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكنت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دمان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أنفلت منها راغب فيها أو كاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر المجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم نعلمها وحدة بين قبائلها وسكان مملكتها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سيلية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد - منذ المنصور الذهبى - تستثمر شيئا من الولاء لدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم للدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى فُزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية إسلامية فى البلاد .

الفصل الثاني

المجتمع والثقافة

١

المجتمع^(١)

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع فى موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال فى الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك فى المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان ونزوله بتغازى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادرى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أبقاعهم متنقلين فيها ورله الكلال ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمون بها سنوات الخصب ، وتسمى فيها أبقاعهم وللمهم ، حتى ليرفحون عن ضرورهم ما يشدون بها من نسيج الخيال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفصائل ترضع أبقاعها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع حلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكثر التفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لستين ونحوها ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تبت الإبل ، كما يبت المطر النبات . وطبيعى

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا
للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب الوسيط فى تراجم أدياب شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى .

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأبضا فى منطقة الحوض غربها .

(ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المغنل وخاصة قبائل حسان والبرليش وأودية فى مدن موريتانيا ، وكانت قديما تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول تبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليفتاتوا من تمره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تيشيت إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيرا ودخنا فيقومون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا يبت فيها سوى النخيل ، ويزارول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والغنم ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدخن والذرة . ويقول أحمد بن الأيمن عن شقيط إن بها نخلا كثيرا ، ويبيض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللويا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعا يسمى فندى وهو بطيخ ليض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقا يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كبير النخل وفى شمالها مزارع للفندى والدخن ، ويقول عن تكلت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويمدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شئ يصدر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالا من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عادتهم أكل الخبز أو هم غالبا لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاما ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلا عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

(ج) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا - فيما بعد - يستخرجونه من آجل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة المالك منه ، ويتجر فيه أهل شقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكالت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهباً . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمة إن الحمل منه أى حمل البعير وهو - كما قال - لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازى ، ووجده فى مالى

ياع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قرية من تغازى فما بالنا بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزروع والعبيد كانوا يبيعونه - أو يبادلونه - بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس ودية » وبنائى والفول المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، وبهجنه أهل القبلة من الأنعام التى يكثر فيها الفئاد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكتلوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه للملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشتري بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون النفوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يذبغون اللقراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يخبطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أولى الخشب ، وكل تلك صناعات بدوية أولية .

(٥) حياة بدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كتلوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائهم يطبقونهم ، وكتلت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكتلوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكتلوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حكم رضى المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يفتى رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عندهم - ولا يزال - على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذ البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى وليّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتَحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد في كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٧

الثقافة^(١)

(أ) نشاط ديني تعليمي كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلداً إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

.. ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن افتتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتبا لتحفظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشء القرآن ورتلّه أو جودّه تحوّل إلى حلقة أحد العلماء في المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية . كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وأدبها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك في المدن يحدث في أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم في المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامي وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نخاة ولغوين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث في موريتانيا مع انتشار الإسلام في بلداتها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الخفيف ، واتسع ذلك في القرن الخامس الهجري حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين في قبائل لتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولمطة ، وسمى أتباعه هناك المرابطين أي المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللتوني ثم مع أخيه أبي بكر يدعو أهل السودان الغربي - كما مرّ بنا - إلى الإسلام ،

الثقافة العربية الإسلامية في كتاب الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد إياه وكذلك كتاب دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا .

(١) انظر في ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنتط سواء في التراجم أو في حديثه عن التعليم والعلما والطلبة ، وبالتل راجع فصل مظاهر

وتوفى - كما أسلفنا - فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحوّلت كثرة من جيشه ، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدرّى - دوى النخل - بآى القرآن الكريم ، وكانوا - بعد ترتيله أو تجويده - يلتحقون ببعض العلماء ، ولكن ليس فى أبدينا شيء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تلتقط - منذ القرن السادس الهجرى - أخبار العلماء وأسمائهم التفاض ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ، ولا نعود نسجع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوه بإكرام أهلها وقاضيه له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيخزوسن على ملك صننى تبكو ويشمل فيها التيران ويقتل خلفا كبيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد آيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيها ومحدثا الإمام الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للفاضى عياض السبى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م ، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهاؤها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦١ م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م ويقول إنه كان غابة فى الزهد والورع . وكان يهاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للفاضى عياض ولا بد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ، غير أنه ليس بين أبدينا شيء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون .

(ب) التعليم والطلاب والشيخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعريبها بفضل قبائل المقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إياه فى كتاباته أخبارا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبي إذا بلغ خمس سنوات من عمره في حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا في تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطي أن كثرة معلمى الصبية في هذه الدورة كن من النساء ، مما يدل على أن النساء في موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان في حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللاتي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبي القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ في الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف في نوع العلوم التي يبدأ الصبي بتعلمها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتي آدرار وتكانت ومن حذا حذوها يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك في متن مختصر لعبد الرحمن الأخضري الجزائري ومنظومة لابن عاشر في الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبي زيد رئيس المالكية في القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكي المصري وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسي الجزائري في علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمنون - في أحيان كثيرة - علماء بمعينين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتاني إذن ، يقول الشنقيطي إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب ليل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناولون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كلبه أو لوحه ، ويقرأ في الكتاب أو يحفظ ما في اللوح ، وبالمثل يتناولون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء - مثل الطلاب - لا يتفق عليهم أحد ما يستعينون به في حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يكتبون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن في موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاضر متشرة في مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفي الحوض جنوبا وفي الصحارى الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متشقا في ملبسه بالمراعى وبالمثل في المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوههم إلى بيته أو يلتقى بهم في مسجد ، وقد يلقي الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقرئهم ويعلمهم أشاتا ، وهو الغالب ، فالطلاب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس عشرة من الطلاب ألفية لمن ماله وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا في الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا في مختصر خليل في الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية لمن ماله ، ثم إلى درس في علم التوحيد أو في علم المنطق أو في العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق في الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر لينى بها بئرا ، وينهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ ينى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة في بعض الأمهات والأصول من الكتب .

(ج) أمهات الكتب والمون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا في كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شيوخها يتلقى العلم عن أساتذته في البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعى أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان متشرا في مكبات البلدان والقبائل في القراءات كتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني وقصيدة « حرز الأملنى في القراءات » للشاطى الضيرى القاسم بن فيره وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول لمن خلدون : « استوعب الشاطى ما دوته الداني في القراءات بقصيدته ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون في التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب في التفسير وسماه الوجيز في التفسير تواضعا وهو في مجلدات ضخمة ، ويقول لمن خلدون إنه لخص فيه التفسيرات المتأخرة كلها وتحرى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو في عشرين مجلدا سار فيه على نهج لمن عطية السنى .

وكانوا يتداولون في الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجي الأندلسي ، وخاصة كتابه المتقى فى شرح الموطأ وتخریجه لما فيه من الأحادیث ، ويذكر أن الموريتيين عوا عناية خاصة بكتبه وشعره وأدبه .

وكانوا يكتفون فى الفقه المالكي على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تميز به المالكية وكتاباته فى الفقه المالكي وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عوا فى الفقه المالكي بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعوا بألفية ابن مالك وشروحها وكتبه لامية الأفعال ، وعوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعوا فى علم الكلام والتوحيد بالمقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضافة الدجئة للمقرئ ، وكنوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلام الشتمرى للشراء السة : امرئ القيس والبالغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغنى لأبى الفرج الأصبهاني والأمالى لأبى على الغالى والكمال للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا - وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية - فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

(د) أعلام العلماء فى موريتانيا

توقف قليلا لنعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضاً تاريخياً موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقلى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالباً موسوعيين ، ولذلك كثيراً ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوي ، وتمازى أى مجموعة من العلماء تضمه فيها ، أو يقال مثلاً إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولفه ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لنل على أن النشاط كان متسماً فى مختلف العلوم .

(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقنا من علمائهم قرأ الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبى بكر من ولاته المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى وكان ملازماً لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبى بكر التواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرهما لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيدىلى كان قارئاً بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التواجيوى .

ويذكر كثيراً عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعاً ، وكثيراً ما يذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديلمى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقنا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسلة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجملى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرئ صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعاً وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجزى بروايتها جميعاً من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفا ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقرآءة نافع برواية قالون ، توفي سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شفيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م وكان يقرئ صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا مبنين فى كل بلد وكل حى من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتيكى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجبى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفي سنة ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى نشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن لمى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفي سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن لمى بكر النلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفنوى فى النوازل مطلعا على كتب الفقه المالكى المتعمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفي سنة ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون اثبتوا فى أنحاء موريتانيا توفي سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغيد فقيه نشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى (المترجم له فى المغرب الأقصى) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قررة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفي سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م . ومنهم محمد بن لمى بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفي سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رئاسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض (المواريث) حجج فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفي سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغيد فقيه نشيت ، توفي سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجملى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغيد ، توفي سنة ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغيد ، وكان إماما عالما ، وكان المنزع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفي سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغيد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرئ طلابه رسالة ابن لمى زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يومها الطلاب فى نشيت ، وكان يدرس للرجال نهاراً وللنساء ليلاً ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/ ١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حَمَى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/ ١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الرقاق فى مجلد ضخيم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/ ١٧٥٩ م ومنهم سنير قاضى أروان وكان بحرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرئ الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى رسا بلغوا فى حلقة المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/ ١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديلمى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الخوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكة ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا يأتيا مقنيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزنة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٧ م . ويكثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد ييب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان ابن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الدياتج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظراتهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م وكان ابنه التجلى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السُر والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى لزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات فى المال إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أليه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدى الأكرى الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هتك أستار المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٥ م .

(و) أعلام النحاة والمكلمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقاناً حسناً ،
ومن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فراراً من سُنْ على حين استولى
على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء
مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . وتزدهر
الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى وتلتقى فى صدره
بمحمد بلبا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه
المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفي سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . ومن تلتقى به بعده من
النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويًا فقيهاً منطقياً
ونظم كتاب فطر النُدَى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفي سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م
وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيهاً نحويًا لغويًا أصولياً يلبيا
عروضياً منطقياً ، وله فى النحو أوراؤه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف
التغاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رتن الحجر العلقى فى
أصول وفصول المنطق » توفي سنة ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م . ومن غاة القرن الثانى عشر منير بن
حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح لبن هشام ، وكان يقرئ الألفية
لابن مالك ، توفي سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيهاً نحويًا
لغويًا محققاً ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفي سنة
١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسي كان هو
وأخوه من العلماء النجباء ، وكان يقرئ تلاميذه ألفية ابن مالك مستفيضاً فى الشرح والتحقيق ،
توفي سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر م الولاتى ، كان نحويًا لغويًا أديباً أخذ
الناس عنه العربية وكان يقرئ طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولايته فى التصريف قراءة
بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفي سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م .
ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفاً بأصول الدين قارئاً فائقاً فى العربية
وعلمو البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى النحو للقراءات السبع
والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح
على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة باتت سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على
نظم التلخيص للقرزوبى وشرح أخرى كثيرة ، توفي سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م . ومنهم
محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويًا لغويًا عروضياً متكلماً ، وكان يقرئ طلابه فى
النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولاية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخرجية ،
توفي سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتابا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٦ م . وتعاينت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تلمذ له بُلّا البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلّا عبد الودود بن عبد آل ، وهو - كما يقول الشنقيطى - نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسرارها ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيويه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٣ م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهاءهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، ومن ألف فى علم الكلام مبكرا محمد بن أحمد الحبائى المعلى ، وله فيه شرح الصغرى للسوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعريّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلا وتعلما ، وكان يقول : لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلّمها ، وكان يقرئ فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرئ عقيدة السنوسى المعروفة بأمر البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن ينفور قاضى تشيت ، وكان يقرئ طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهباً الأشعريّ اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقه والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيبل الولاتى والحساب والفلك عن التنداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهره الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٨ م .

ومرّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصنيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعرَف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء مورتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلاً ثانياً لولاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرئ تآليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونظّم كتاب التلخيص فى البيان والمعانى للقرظبى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعانى ، وله تآليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ/ ١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى يعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما بصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى مورتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درسته لشباب مورتانيا على مر الحقب والأزمنة .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على ألسنة بنى وارث الصنهاجيين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع (٥٠ هـ/ ٦٧١ م - ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م) وأخذ الإسلام يتشرب بين الصنهاجيين فى صحراء موريتانيا لعمد موسى بن نصير (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م - ٩٦ هـ/ ٧١٥ م) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون المجرية الثنى والثالث والرابع . وكان يعتمد حيثذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مربطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلىة والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حيثذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبنى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأى أن قلة من الصنهاجيين الموريتانيين حفّت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدثها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل - كما مر بنا - فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل ببلده سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٣ م ونوه بأخ له مدرس ، ويغزوسن على تمبكو ويشمل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقبت مما أتاح لها أن تكون مركزاً لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعب .

وبعد أكثر من قرن يرسل النصور الذهى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشاً ضخماً للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدرار وتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البريش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعريبها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصحى كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتعاريف لاختلاطهم قروناً متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحفظ بالثنى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضاً ما كانت تنظمه فى مواضعها من الملاحم والأنشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماة والهجاء والثناء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعرباً حسانياً ، فالألفاظ هى ألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لا تزال تحفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لا تزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أمم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصاحتها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصاحتها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرعى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر المجرى - وربما قبله - عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فبِقَدْر نادر بحيث لا يوجد فى الملة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكان الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فيها - هى والبلدان الموريتانية - كانت تسارع إلى التعلم ، بدل على ذلك فى مدنية ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين ككرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تراجعا فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر المجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيّل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

٢

شعراء المدح

أكثر من يوجه إليهم المدح فى موريتانيا السادة والشيخوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثيبا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيوعهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفين ، كما يمدح الشيخوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى للترفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م للمجيدى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرا ، واتصل بالسلطان المغربى محمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيرا إلى منزلته منه : وكان يباحته فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه للموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسطاليسى والنهى عن دراسة^(١) :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٣٣ .

بَلَاهُ أَسِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمَدُ
وَقَدْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ بِالنَّصْحِ رَاعِيَا
وَلَكِنْ يَبَادِي الرَّأْيَ أَوْ بِإِشَاعَةِ
وَمَا كَانَ فِي كُلِّ الْعَقَائِدِ لَوْ ذَرَوَا
قَعُوا فَتَنْظَرُوا فِي نَكْرِهِ أَعْقَائِدُ
أَبَانَ السُّيُوطِيُّ نَهْجَهُمْ فِيهِ جَمَلَةٌ

واليعقوبى بنوه بتركهم السلطان محمد بن عبد الله العلوى له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول
إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة - عن قوس
واحدة - بأنه منحرف ، مع أنه متمسك بكل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمة
السلفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ،
وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويرى أحد
شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مدح حُرْمِ بن عبد الجليل العلوى
واسمه محمد^(١) :

أَعْمَدُ أَمْ لَيْثُ غَابٍ مَقْبِلُ
قَاضِي قَضَايَا قَدِ نَمَتَ مَشَايِخُ
سَهْلُ الْجَنَابِ يَلِينُ مَا لَا يَتَنَبَّهُ
بِمَنْ سَمَا فَوْقَ الْكَوَاكِبِ مَجْدُهُ
وَجِبَّةُ أَمْ عَارِضُ مَتَهَلَّلُ^(٢)
يَسْمُو بِوَحْسٍ وَمَجْدُهُ غَدَمْلُ^(٣)
وَإِذَا يُسَامُ الْخَسَفُ لَيْثُ مُثْبِلُ^(٤)
النُّجُومِ وَإِنَّ السَّمَاءَ الْأَغْرَلُ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَتَتْ الْأَكْمَلُ
إِنَّ الْكَمَالَ إِذَا يَفُوزُ بِهِ امْرُؤُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجمله لىث غاب شجاعة وضرارة ، كما يجمل جيبه
سحباً متهللاً كناية عن كرمه المردار ، ويشيد بلبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل
الجناب سخى ، ولين مع مَنْ يُلَانُهُ ، أما إذا سامه شخص خَسَفًا أو ظُلماً فإنه يصيح لنا
هصوراً . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجوم والسماك الجنوى
لا يبلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فتت الأكمل الذى لا يبارى
ولا يجارى . ويقول محمد مولود المراكى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مدح
محمد بن كمال^(٥) :

- (١) الفخر : ما بين الإبهام والسبابة فى التمسك .
(٢) السمر : الاختيار .
(٣) السمر والشعراء فى مورتلتها ص ٢٣٩ .
(٤) عارض : صاحب محضر .
(٥) عمل : قديم .
(٦) سامه خسفاً : أذله أو ظلمه . لىث مثبلاً له أنشال
وأولاد .
(٧) السمر والشعراء فى مورتلتها ص ٢٧٢ .

يَلْقَى الْعَفَاةَ بِوَاضِحٍ مُتَبَلِّجٍ مَبْنُومٍ يَنْشِيرُ اسْتِهْلَالَاً^(١)
وَاللَّهُ إِذْ قَسَمَ الْمَكَارِمَ فِي الزُّرَى أَوْفَى لَهُ مِنْ حِطَّةِ الْبِكْيَالِ
لَوْ وَاجِهَ الْبَدْرُ النِّيرَ بِوَجْهِهِ لَعَدَا بِهِ الْبَدْرُ النِّيرُ هَلَالاً
أَوْ قَبِلَ الشَّمْسُ الْمُضِيئَةَ بِالضُّحَى صَحْوًا لِلْبَيْسِ وَجْهَهَا أَجْلَالاً^(٢)
وَلَوْ أَنَّهُ وَلَزَنَتْهُ بِلَدَائِثِهِ وَزَنُوا الْيَمُوضُ وَوَارَنَ الْأَجْبَالُ^(٣)
فَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامَ وَالْإِفْضَالَ

وعحمد مولود يمجّد في محمد بن كمال كرمه الفياض الذي يجعله يلقي الساتلين بوجه مشرق سمح مبسم منشبر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم في الناس وفي له حظه منها . ويعمد إلى المبالغة في مدحها ، فلو أنه واجه البدر النير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قبل الشمس المضيئة ضحي والسماء مصحبة لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بآثره لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فبارك الله الذي تفضل عليه بكل هذه العطايا والنح الجزيلة . ويقول علي بن الأ من شراء القرن الثالث عشر المجرى في مديح بنى شعبان^(٤) :

اليَوْمَ أَصْبَحَ قَدْ تَفَرَّدَ بِالْعُلَا وَالْمَجْدِ سَادَتُنَا بِنَمُو شُعْبَانِ
النَّازِلُونَ مِنَ الثُّغُورِ مَخُونَهَا وَالْقَاتِلُونَ هَلُمُّ لِلضُفْيَانِ
وَإِذَا الْأُمُورُ تَعَاظَمَتْ وَتَشَابَهَتْ فَصَلُّوا الْخُطَابَ بِحِكْمَةٍ وَبَيَانِ
كَمْ فِيهِمْ مِنْ نَاشِئٍ ذِي بَهْجَةٍ يَلْدِي دَقِيقَ الْفَهْمِ بَيْنَ مَعْنَى
حَفِظَ الْمَسَائِلَ وَالْعَقَائِدَ فَرَّغَهَا وَالْأَصْلَ بَعْدَ فَصَاحَةِ الْأَلْحَانِ
وَحَوَى حَدِيثَ الْمُصْطَفَى بِنُصُوصِهِ وَشَرُوحَهُ وَمَعْنَى الْقُرْآنِ
فَوَمَّ إِذَا مَا أُسْتُوا جَادُوا كَمَا جَادَتْ سَوَاكِبُ صَيْبِ التُّهْنَانِ^(٥)

وهو يقول إن بنى شعبان تفردوا بالعلل والمجد والنزال الضاري في الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة في لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادهمت وأشككت نطقوا بفصل الخطاب في حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئهم ، فكم من ناشئ دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معنى القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إهم إذا ما أجذبوا سنة استحالوا في الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

(١) العفاة : الساتلون - متبلج : مشرق .

(٢) أجبال : جمع جبل : غطاء .

(٣) الأجبال : جمع جبل .

(٤) الشعر والشراء في مورتاتيا ص ٢٧٥ .

(٥) أُسْتُوا : أُجلبوا . الصيب : السحاب المطر .

التنهان : الساتل بزرارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام (١٨٢٤ - ١٨٥٩ م) قائلا^(١) :

| | |
|-------------------------------|---|
| خليفة مصباح الهدى وحفيده | وعفى لعافى رثمه المتفادم ^(٢) |
| غبور على يضياء سنة السنى | ليحت لها - لولاه - كل محارم |
| أنام عيون الناس تحت عدالة | وقت رجل سارى الليل لدغ الأرقام ^(٣) |
| فأصبح نثر الأرض سوقاً وأصبحت | ماسدا مرعى المخاض السواهم |
| حماها - حماه الله - أن تنيحها | من اعدائها دهم الدواهى الدواهم |

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ريع الهدى القديم ، وإنه غبور على السنة التى لولاه لأیحت لها كل المحارم . وقد شملت عدالته كل الرعية وعملها أمن واسع وقى الناس لدغ الأفاعى الشريرة ، حتى لأصبح نثر الأرض الحبرى سوقاً آمنة ، وأصبحت المأسد المخيفة بأسدها مرعى آمناً للتروى الحوامل ، وحوى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى الفاشمة . وملتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م وقد أكثر من مدح الشيخ سيدياً ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه^(٤) :

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| شيخ سنأه وصيته ونداه مـ | ملء الأيدى والأبصار والآذان |
| شيخ تجرد للجميل فذل به | نفع الأنام وطاعة الرحمن |
| ولعم مرتاد الأرامل أنتم | والشعث والأيتام والضيفان |
| ولأنت أكرم ما حوت أقطارها | بل ما عليه تعاقب الملوان |
| آلى الزمان إلیه مبرورة | أن لا يكون من الوزى لك نعى |

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيدياً إن نداء أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعداته نفع الناس بكرمه الفياض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغزون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسماً مبروراً صادقاً أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . وتتوقف قليلاً للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(٣) الأرقام : الأفاعى .

(١) الوسط فى تراجم أدباء شنفط ص ٥٣ .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

(٢) عافى : دارس .

هو عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي عبد الله المعروف باسم ابن رازكة ، وهي أمه ، كان جده قاضي البراكة الحسين ، ولد لأبيه في أرض القبلية جنوبي موريتانيا ، وبها نشأه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل في تلقها إلى شيوخها الأوائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلية موطنه إلى مكانة في المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوي النابغة إسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازكة ووسع له في مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطائيه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربي ، ولا ريب في أنه كان لما أعمق الأثر في ثقافة قبيلة ابن رازكة وثقافة موريتانيا عامة ، وتشد الشنيطي قصيدتين لابن رازكة في مدح الأمير محمد بن إسماعيل وفي أولاهما يقول :

| | |
|--------------------------------------|---|
| فني يستقلُّ أبحرَ جودٍ بناته | على حالة استكثارِ حاتمِ الرُّثَا |
| وآياتُ علمٍ أعمدَ الجهلِ نورُها | وغاياتُ جدِّ ليس تطلُّها مَرَحَا |
| ورأى يُرميه اليَوْمُ ما في حَشا غَدٍ | ويكشفُ عنه من دُجى ليلٍ جُنْحَا ^(٣) |
| وعزَمَ بهزُ الراسياتِ ثباته | وعزَمَ يحاكى الزندَ ماضيه فذحا ^(٤) |
| ولم تَدعنِ الأعداءُ مَحَضَ مودِّه | إليه ولكنَّ إمسا كرهوا القَرَحَا ^(٥) |
| مواصلةً جَلَّ الجهادِ جِياذه | ووقفَ على غزو العدا عَذْوُها ضَبَحَا ^(٥) |
| فلا زلتَ للإسلامِ عيدًا منغصًا | تنغصُ حُناهُ السُّعَلينِ والفِصْحَا |

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بناته قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل في المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يصطره بما يأتي به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكى سيفه الماضي الزند بشواره المميت ، مما جعل الأعداء تدعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياذه لتواصل الجهاد والعُدو في غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(٣) الماضي : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجره بهضمها بعض لاستخراج النار منه .

(٤) القرح : الجرح والمزمنة .

(٥) ضبحا : عدوا شديدا .

(١) انظر في ترجمة ابن رازكة الوسيط للشنيطي ص

١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشمراء في موريتانيا

ص ٤٧ ، ٢٢٩ .

(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .

النصارى مثل عيد الشحاتين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

| | |
|--------------------------------------|--|
| هو الوارثُ الفضلُ النبِيُّ خالصًا | من العلم والعليا ومن طيبِ مَخْدٍ ^(١) |
| نمالُ اليتامى والأيتامى مُوَكَّلٌ | بتفريج غَمَّاءِ الشَّجَى المتكسِّدِ ^(٢) |
| أغرُّ المحبِّ طاهرُ البشرِ طاهرًا | سُجا يا كريمُ اليومِ والأُنسِ والغدِ |
| حميدُ المساعى سار فى الرُّتبِ العُلا | من المجد سِرِّ السَّابقِ المتفردِ |
| حَوَى شَرَفُ العلمِ الرفيعِ عِماذُهُ | إلى شَرَفِ البيتِ الكريمِ المصْدُرِ ^(٣) |

ويقول محمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

غروبُ عروسِ الزرى أندلسيةٌ من الأدبِ النضِّ الذى روضه ندى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعليا وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيتامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غمَّ الحزين المملوء نكدا وهما ، أغرُّ المحبِّ أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه يسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد غلّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانتهم . ويذكر ابن رازكه فى أواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشمع الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى ألبى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . وتكفى بما أسلفنا من مديح بديع لابن رازكه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣٢ م .

محمد^(٤) البدالي الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه - كما أسلفنا - « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب ولبيهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء موريتانيا ، وكان صديقا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

(١) محد : أصل .
(٢) شمال : غوث . الأيتامى هنا : النساء غير المتزوجات .
(٣) المصدر : المنصود لقضاء الحوائج .
(٤) انظر فى ترجمة البدالي وشعره كتاب الوسيط ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ، ٢٣١ .

| | |
|--|-------------------------------|
| لِسُدَّةِ الْجَهْلِ جَالٍ ^(١) | قَاضِيَ الْقَضَا سِرَاجٌ |
| لِ الزَّيْبِغِ وَالْإِعْتِرَالِ | وَسَيْفٌ حَقٌّ عَلَى أَهْدٍ |
| أُبْهَى حُلًى وَجِلَالٍ ^(٢) | بِهِ الْمَلُومُ تَحُلَّتْ |
| يَخْطِرُ لِأَنْسَرٍ بِمَالٍ | قَدْ نَازَ مِنْهَا بِمَا لَمْ |
| بِ وَالْعَقَائِدِ عَالٍ | مَقَامِهِ فِي الْأَعْلَاءِ |
| وَكُلُّ سَحْرِ حِلَالٍ | وَفِي الْبَلَاغَةِ نَظْمًا |
| وَفِي عِلْمِهِ الْأَوَالِي | وَفِي الْمَلُومِ جَمِيعًا |

واليدالي يمدح ابن رلزكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل ويهددها وأنه سيف حق في قضائه وأحكامه على أهل الزيبغ والضلال وفي آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدادت به العلوم ولبست أحل حُلَّيْهَا وأُبْهَى حُلَّهَا وثيلها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه في أعراب موريتانيا وفي العقائد عال رفيع ، وبالمثل في الشعر الساحر الخلاب وفي العلوم جميعا وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة . وأجابه ابن رلزكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحله للنواميس المشكلة في الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعري ماض في ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء في موريتانيا والمغرب جميعه تحتق العقيدة الأشعرية . وكان اليدالي ينشد :

لَيْسَ مِنْ أَخْطَأَ الصَّوَابَ بِمُخْطِئٍ إِنْ يَوْبُ لَا وَلَا عَلَيْهِ مَلَامَةٌ
إِنَّمَا الْمَخْطِئُ الْمَسِيءُ الَّذِي إِنْ وَضَحَ الْحَقُّ لَجَّ يَخْشَى كَلَامُهُ

وهو يقول إن المخطيء هو من يتماذى في خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالي في مدح أحمد بن هبة البركني الحسني قوله من قصيدة طويلة :

وَرَثْتُ الْعِلَّا وَالْعَزَّ وَالْمَجْدُ أَحْمَدُ وَبَذَلَ النَّدَى عَنْ هَيْبَةٍ مَفْخَرَةِ الْعَصْرِ^(٣)
وَلَيْكَ أَسْمَاءُ عَلَوُا وَرَفَعَتْ بِمَنْطِقَةِ الْجَوْزَا وَمَنْطِقَةِ الْبَدْرِ
وَأَيَّامُكُمْ خَضَرَ جَنِينًا ثَمَارُهَا بِأَيْدِي النَّاسِ مَا بَيْنَ أَوْرَاقِهَا الْخَضِرُ
وَقَاكَ إِلَهَ الْغَرْشِ يَا أَحْمَدُ الرَّؤْيَى وَجَنَّتْ أَسْوَاغُ الْمَكَارِهِ وَالضَّرُ
وَأُولَاكَ رَبُّ النَّاسِ فِي تَفْسِيكِ النَّاسِ وَلَيْكَ وَالْأَوْلَادِ وَالْمَسَالِ وَالْعُصْرِ

وهو يقول لأحمد بن هبة إن العلاء والعز والمجد ورثها جميعا عن أبيك مفخرة العصر ، ولذك أسمى المشيرة البركنية رفعة وعلوا في منطقة برج الجوزاء الصاعد في السماء ومنطقة البدر النير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدى الناس من بين أعوادها وأوراقها

(٣) اندى : الكرم والجود .

(١) سدفة : ظلمة .

(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .

الخضر ، ويدعوه أن يقيه إله الكون الهلاك وينجّيه عنه أنواع المكاره والضرر ، ويعطيه ما يحمّاه
 في نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفي سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٣ م وسنود إليه في حديثنا
 عن الفخر والرّاء .

حُرْمُ^(١) بن عبد الجليل العلوي

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه في أرض القبله ، وبها نشأته ، وشغف
 بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتي شفيط وآطار . وهو من تلاميذ المخار
 ابن بون في العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه انتفع خلق كثير في النحو والفقه ، وكان
 شاعرا يوتر في شعره الانسياب مع الطبع والسهولة في اللفظ ، على نحو ما نرى في قوله بمدح
 بُلّا الشقراوى الحسنى مشيدا بعلمه وشعره :

| | |
|---|---|
| إِنْ بُلّا مَشايخَ حِينَ تَفَرُّو | شَارِدَاتٌ تَفَوَتْ أَزْكَى الْعُقُولِ |
| مَنْ فَوَيْ شَيْ تَغْنَى الْمَعَالِي | مَنْ عَوَيْسَ الْمَقُولِ وَالْمَقُولِ |
| يُسَيِّفُ السَّالِّينَ عَنْهُ بِمَا فِيهِ | لَهُ لَذَى غَلِيَّةٍ شَفَاءُ الْغَلِيلِ |
| إِنْ يَسِيرُ لَا تَصْلُبُ مَجْدُ رَعِيلٍ | كَانَ بُلّا دَلِيلُ ذَلِكَ الرَّعِيلِ ^(٢) |
| شِعْرُهُ مَطْرَبٌ حِمَاهُ تَسْرَى | فِي عِظَامِ الْجَلِيسِ مِثْلُ الشُّبُولِ ^(٣) |
| يَنْفُثُ الدَّرَّ وَالْيَوَاقِيتَ إِلَّا | أَنْ لِلدَّرِّ قَسْوَةً فِي الْبَلِيلِ ^(٤) |

وحرم يقول إن بُلّا ليس شيئا واحدا بل هو عصبه من المشايخ وفضله يدور حين تلم
 شاردات من العلوم لا تستطيع أزكى العقول أن تفقه عويس المقول والمقول فيها ، فسرعان
 ما يشفى ظمأ السالين بحله لعريصها وتذليله ، وما من سلقين يسرون في ليل مدلم إلى
 مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاجه
 في عظام السامع سريان الخمر في الجسد ، وإنه ليلفظ الدرر واليواقيت الممتعة لقارته دون
 أى عناء . ويقول في مدح شعر الشويمر الحسنى :

| | |
|--|--|
| مَعْنَاهُ رَاقٍ رَاقٍ حَسَنًا لَفْظُهُ | لِلَّهِ فِكْرٌ جَالٌ فِيهِ وَيَقُولُ ^(٥) |
| يُبدى وَيُلْهِمُ فِي الْبَلَاغَةِ حَاتِكًا | حَلًّا يَبْدَى بِهِ الْقَرِيضَ وَيَرْفُلُ ^(٦) |

(٥) مقول : لسان .

(٦) بدى من السدا وهو الخيوط طولا ، ويلهم :
 من اللصة وهي الخيوط عرضا . وبدى ويلهم أى
 يسج . يرقل : يجر ثوبه متبخرا .

(١) انظر في ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص ٢٤

والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) الرجيل : السلقون في الجماعة .

(٣) حماء : شدته وسورته . الشبول : الخمر .

(٤) البليل : المنق .

أغناه عن تمب التعلم طَبَّةُ إن التَّوَصُّلَ له يَهْـوَنُ وَيَسْهَلُ
 إن البلاغة في البليغ غَزِيْرَةٌ لا بالعلاج يَهْلِكُ المَـتَطَفِلُ
 هل مثلُ أخلاق الكرم تخلُقُ لا ، لا ، ولا كَحَلِّ الجفون تكحلُ^(١)

وهو يقول إن معنى شعر الشوهر راقية وألفاظه راقية ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحرك في شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجا ويجرُّها متبخرا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف في شعره ، وعومسه يسهل عليه دون أى عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليقة فيه وفطرة لا يوجددها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعي والتكحل ، وكنته يمر عن منهجه في الشعر . توفي سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه في شعر الفخر والحلماسة .

٣

شعراء الفخر والمجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر فن شعري قديم تنفى به الشاعر الجاهلي مصورا فيه مثاليته الخلفية من الشجاعة والكرم والجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تنفى بمكارم قبيلته ومجدها وبأسها في الحرب . وظل الشاعر العربي - بعد العصر الجاهلي - يفتخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر في الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسي في الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده في مورتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالي مفاخرها بقومه بني ديمان الحسينيين^(٢) :

ونحن ديمانَ أَقْطَابُ الرِّحَى وَنَبُوْ
 نحن اكسينا المعالي وَالْعَلَا حَلَلَا
 ونحن كنا على وَجْهِ الْعَلَا غُرَرَا
 وكان منزلنا فوق السَّمَاك كَمَا
 حَزَنَّا المَكَارِمَ وَالْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ وَالـ

ديمانَ خيرُ بني حَسَّانَ أَذْيَلَا^(٣)
 حمرا وَدُرَّا وَياقوتَنا وَمَرْجَلَا
 وفوق هام الندى والعِزُّ تيجَلَا^(٤)
 كُنَّا على وَجَنَاتِ الدهرِ خِيَلَانَا^(٥)
 حلياة من سالف الدُّهْرِ إلى الآنَا^(٦)

(٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .

(٥) السماك : برج أو نجم - خيلان جمع خال :

الحسنة على الوجنة .

(٦) المؤتَل : الأصل .

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا يبطى عليه .

الكحل : سواد الجفون خلقة .

(٢) الشعر والشعراء في مورتانيا ص ٣٤١ .

(٣) أَقْطَابُ الرحى : السيادة .

فَلَا تُدْ الْمَجْدُ فِي أَعْنَاقِنَا نَظِمْتَ عَقْدًا وَكُنَّا لَتَيْنِ الدَّهْرُ إِسْنَانًا^(١)

لَا يُلْفَنُ مَدَانَا مَن يَفَاخِرُنَا فَضْلًا وَعِلْمًا وَإِيمَانًا وَاحْسَانًا

يقول إنا قبيلة دهمان أنقلب السيادة وخير قبائل بني حسان تقوى وصلاها ، وقد اكسبنا حلل المعالي والعلا وحليهما من در وباقوت ومرجان ، وارتسنا على وجه الملا غررا يضاء مشرقة وفوق رؤوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك في أعلى عليين ، وارتسنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلواء إلى اليوم . وقد نظمت في أعناقنا قلائد المجد ، وكنا - ومازلنا - إسان عين الدهر وجوهرتها الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعلمًا وفضلًا وإحسانًا . وكرر هذا الفخر في قصيدة همزية . وملتقى بعده بالمختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذي سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شفيط وقد انتصروا في حرب على أهل وادان^(٢)

سَمَّا لِلْمَعَالِ مَن تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَيَسْتَوُ عَلَى آثَارِهِ مَن تَأَخَّرَا

مَاتَرُهُمْ حَلَّى الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مَصُورَا

وَكَمْ مِنْ قَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ وَيَهْزَمُ مِنْ تَجَادٍ وَادَانَ عَسْكَرَا

وَيَجْمَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مِهْنَدَا طَرِيرَا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابَا مَطَرُرَا^(٣)

يَحِبُّ الرُّدَى يَوْمَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مَعْمُرَا

وهو يقول إن جميع الرجال في قومه شبلنا وشيا يسمون للمعالى وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان لينحلى بها ، ولو كان إسانا لانتضحت مصورة على صدره ، وإن فتاتهم لملء يروقك في السلم علم كل قتي منهم ، بينما هو في الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل في إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفي اليد الأخرى كتابًا بهيًّا . وإنه ليضحى بنفسه في سبيل قبيلته ، حتى لكانه يريد الموت في الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدًا في ذاكرة قومه . ويقول الأحوال البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م في الحروب التي وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم في بعض المواقع^(٤) :

هَمْ جَلَبُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ فَلَمْ نَزَلْ نَبِيدُ وَنَقْصَى مِنْهُمْ كُلُّ جَانِبٍ^(٥)

لَدَى مَشْهَدٍ دَارَتْ رَحَاهُ فَجَرَعَتْ صَنَادِيدُهُمْ حَقًّا مَرِيرَ الْمَشَارِبِ^(٦)

وَوَلُّوا سَرَاعًا مَدِيرِينَ كَثْمَهُمْ بُغَتْ تَهَاوَى مِنْ صَقُورٍ دَوَارِبٍ^(٧)

وَقَهَرًا طَرْدَانَهُمْ وَخَضْنَا جِمَاهُمْ وَهَجْنَا هُمُومَ الْمُغُولَاتِ التَّوَارِبِ

(١) إسان العين : جوهرتها الباصرة .

(٢) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .

(٣) الوسيط ص ٢٩ .

(٤) دارت رسي الحرب : نشبت وحيت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط في الشجاعة .

(٥) طريرا : ماضيًا . مطرورا : عليه بهاء ووروق .

(٦) بئث : طائر صنير . تهاوى : طار مسرعا .

(٧) الوسيط ص ٣١٠ .

أَلَا إِنَّا نَحْمِي الْحِمَى وَنَحْوُهُ وَزَادُوا صَبْرًا تَحْتَ كُلِّ السَّوَابِ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ عَوَاقِبَ مَعْشَرَ جَنَى خَرْنَا بِزَجْرَةِ سُوءِ الْعَوَاقِبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التي لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا تزال تقتل فيهم ونقصى بعض كتابهم فى مواقع حامية الوطيس جرعت شجعنتهم موتا مريرا ، فولوا مدبرين كأنهم بفاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدبرة ، وقد هزمتهم قهرا وتغلطنا فى حماهم وهجنا نساءهم وأعلن يديهم . وإنا لنحى حمانا ونقيه ، وتزيينا الحروب صبرا وشجاعة ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ عَوَاقِبَ مِنْ غَارِهِمْ ومدى ما جتته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من سُوءِ الْعَوَاقِبِ . ويقول محمد بن الطلبة البغوي المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦ م مفائرا بينى عامر^(١) :

وبنو عامر هم القوم كلُّ ال قُوم والرُّؤسُ والذُّرى والرُّؤى
وبهاليلُ كالمصليح زهَرُ من كهول جَحَاجِعِ وشباب^(٢)
دينهم حفظُ دينهم وعَلامهم وعلومُ الكُتاب والآدابِ
لا هم يَفْرَحُونَ للخير إن مَ سرٌ ولا يَجْزَعُونَ عند المصائبِ
صحب الله جمعهم وجابهم بالرُّضا عنهم وحسن المسابِ
وسقى الله حيث أَسَوا وساروا من حَيَا المزن مُدْجِنَاتِ الذُّهابِ^(٣)

وبنو عامر - فى رأى محمد بن الطلبة - هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرؤس والقمم والكتبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصليح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلوم القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يهزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعوا لله لم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند مآبهم وعودتهم ويسقى منازلهم وسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن ييب التوفى سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٦٠ م مفتخرا^(٤) .

أَلَوِى بِصَبْرِكَ لَاعِجُ الْأَشْوَاقِ إِنْ الْأَحْبَةَ آذَنُوا بِفِرَاقِ^(٥)
بَا مَنْ بِسَابِقِنِى وَيَطْلُبُ غَزْرَتِى يَمِى - لَمَعْرُكٍ - سَابِقِ السَّاقِ^(٦)
وَإِذَا الْمَسَائِلُ أَحْجَمَتْ وَتَمَنَعَتْ وَلَبِثَ مُشَاكَلُهَا عَلَى الْحَذَاقِ^(٧)

- (١) الشعر والشعراء فى مورخاتها ص ٣٤٦ .
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومنها جحاجع .
(٣) حيا المزن : مطر السحاب . الذهاب : جمع ذهبة : السحابة .
(٤) الوسيط ص ٣٦ .
(٥) ألوى : ذهب . لاجع : والله . آذنا : أعلوا .
(٦) غزرى : خطفى .
(٧) أحجمت : تكلمت وتمنعت .

أَعْمَلْتُ سَيْفَ الْفِكْرِ نَحْوَ عَوِيصِهَا فَحَنَنْتُ عَلَى خَوَاضِعِ الْأَعْنَاقِ^(١)
فَتَبَوَّحَ لِي بِسَرَّائِرِ مَكْتُومَةٍ حَتَّى عَنِ الْأَسْطَارِ وَالْأَوْرَاقِ

وهو يقول إن وائد الأشواق في صدره ذهب بصره ، فإن الأحبة على وشك الفراق .
ويأخذ في الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسأله وينافسه ويطلب عشرته وخطأه إنه سابق السابق ،
وإن المسائل إذا استصعبت وتمنعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف
فكره في عويصها فتجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكومة عن ظاهر المكتوب في السطور
والأوراق . وتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

المختار^(٢) بن يون

ولد ونشأ في منطقة تجككت الموريتانية ، وتعلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ،
وكان يمتز في أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة في العربية وجاءه الطلاب
من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهي من أهم قبائل الزوايا في مدارس العلوم ،
فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجازي
فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات في بعض العلوم كان يقودها تلميذه
محمد المجدي ومولود بن أحمد وعادوا إلى استماعه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان
إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفَيْضَ الْكَافِيَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ ﴾ فاجلبهم بما أجاب به يوسف
إخوته ، إذ قال ﴿ لَا تَرْيِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . وعاد إلى موطنه
وئثال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم بجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر في
أرض تجككت ، فشرعوا ينون الأخصاص لسكنائهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا
إلا بتعليمهم . وله في النحو منظومة تسمى الاحرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك في
الألفية وكتابه التسهيل وطبعت في مصر ، وله في النحو أيضا مقدمة ألفها - كما مر بنا -
للمبتدئين ، وتكونت له في النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بلأ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا
عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يحتب فيها على قبيلة إديقب اليعقوبية وتلميذه
محمد المجدي ويغافر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكروني آل يعقوبٍ واذكروا ليالي أجلو ما على الناس أظلما
وحين أحلى منكم كل عاطلي يذرى وأسقى باردى كل أقيما^(٣)

(١) حنت : مالت وعطفت .

ص ٢٤٢ .

(٢) الأهم : المطشان عطشا شديدا .

(٣) انظر في ترجمة المختار بن يون وشعره كتاب

الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء في موريتانيا

وهو يقول لهم لا تتكروني بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا خَلَى لطلابكم المشكلات التي استصعبت ونبهت ، واذكروا ما زنت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظلمتهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرنا بقبيلته وقومه :

وغي ركب من الأشواف منتظم أجلُ ذا الخلق قدرا دون أدنأ
تلو كتاب إله العرش كل مسأ وكل يوم ومن تلقى توقنا
ومن تكن همة الأقدار نصرته لم تقدر الناس أن توهم له شأ
وهمة دونها هأم السماء ومن هيئته دونها هأم السما ذاك^(١)
وهيئة ملكت منها القلوب فلو نظرت شزرا إلى أقصى الورى حقا^(٢)
ولا ينهنه عن حاجة جزع ولا ألسن وإن ذو لؤس لانا^(٣)

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكيون على كتاب الله يتلون مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قيل أن يضعفاه شأنا وهم مهليون هبة ملكت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مضطرب هلك خوفا وفرعا ، ولا يحتره إزله حاجة يريدها جزع ، ولله صلب لا يلين ، إنما يلين الضميف الواهن . توفي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وقيل بل قبل ذلك بسنوات .

محمد^(٤) بن سيدى الأثيرى

كان أبوه سيدى جوادا جودا عظيما إذ كان غنيا مدارا ، وكان عالما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذ أقرانه ، وشغف بالتصوف فنشد رحاله إلى الشيخ المختار الكتفى الصوفى ولازمه ستة أشهر ، توفي عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع فى التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطى عن محمد بن سيدى إنه نشأ فى نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوى الأديب ، ويتوسع فى ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، وما أشده قصيدة له يسخر فيها من برزدون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المخيرين على السواحل الإفريقية

(٤) انظر فى ترجمة محمد بن سيدى الوسط للشنقيطى

(١) دان : عر .

ص ٢٤٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٧ ، ١٨٩ .

(٢) شزرا هنا : مضطرب . هلك .

(٣) ينهنه : يكفى - لوعة : ضعف وحزن .

المغربية ، وكلته كان يُعَدُّ شبيب قومه لئلا تزل فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلا :

وفتيان يرون الضيم صلبا وطعم الموت غرطوما عَقَاراً^(١)
أحبوا الملة البيضاء فكأنوا عليها من مرادها غياراً
بأيديهم مذبذبة طوال ترى الأقران أعماراً قصاراً^(٢)
جموع تهزم الأعداء قهراً فتركهم جديساً أو زاراً^(٣)
بنصر الله وثقة يقينا فلا تخشى من الخلق الجذارا
لها إعلاء كلمته مرأى فلا غنماً تسروم ولا اخصاراً

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرابه ، أما الموت في ميدان الحروب فيروونه لهذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الخفيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بوسائل بأيديهم سيوف ماضية ، ترى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعودوا النصر على أعدائهم حتى ليبدوهم عن آخرهم فيصبحوا في عداد الأمم البائدة مثل جدس وريار ، ودائما يتفنون في نصر الله لا يخشون أحدا ، وقصدتهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض في قصيدة طويلة مذكرته لزملاء أجدله يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبي الأشعرى وإمام الحرمين الجويني ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم في النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنبغة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقسين الأكبر والأصغر والأعشىين : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا ولأبا العلاء ، ولأبا نولس والمتنبى . وهي وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتاني من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمالته :

ومن يك راعيا في القرب مني يجدنني دون ماء المقتلند
ومن يوتر قلاي فلنيس شيء يواصل بينه أبدا وبينى
ألاحظ من خليطي كل زعمو كما أغضى له عن كل شئو
ولا أصفى إلى القولء حتى يرى أتي أصم المسمعين^(٤)
وما جهل الجهول بمستغزى ومالي بالنيسة من يكتسب

(١) الضيم : الحزن . الصلب : المر . الخرطوم .

(٢) عَقَار : الخمر .

(٣) مغربة : من ضرب السيف والفرع : صار ماضيا .

(٤) الأذن .

وهو بفجر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينه ، ومن يؤثر بغضه يقطع كل صلة
تصله به ، ولا أرى من حديثي إلا ما يزيه وأتقاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصنى إلى كلمة
سيئة تقال عن أحد ، وأرى - حين تقال - كئى أصم لا أسمع شيئاً ، ولا تستغزنى حماقة
الأحقق ولا أترف عملاً سيئاً ولا خبيساً ذمياً . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفي سنة
١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م .

(ب) شعراء المهجاء

المهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصيرونه على خصومهم وخصوم قبايلهم ، ولم يكن
يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنافسات . وبمقدار
شرف القبيلة وأسمائها ومآثر ساداتها وفرسلها ومناقبهم يكون هجاءها وما ينزل بها من
سهامه ، واتصل هذا المهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيراً فى موريتانيا
بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحاً يفض من شأن القبيلة المعادية
وساداتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكثر منه فى كتابه الشعر
والشعراء فى موريتانيا خوفاً من إثارة الحفيظة فى المجتمع الموريتانى المعاصر ولم يصرح بذلك
الشنقيطى فى كتابه الوسيط فى تراجم أدياء شنقيط ، غير أنه - فيما يبدو - كان يرى رأى
الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجاء كبير من
شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور
بلقب يوفمين^(١) المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إهدا
بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أحسب أن لا يزار الأسدُ الورْدُ ذئابٌ عَوَتْ لما تغافلَتِ الأسدُ^(٢)

ومنها :

وعقلُ الذى منهم يشدُّ عمامةً كعقل الذى منهم يشدُّ له المَهْدُ^(٣)

ولا يضيف إليه أبياتاً أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوماً عند قبيلة إيتاب
فى موضع يقال له إيجول فلم يكرموا ولا اكرثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهاير لا أقمتُ فيه لدى إيتابٌ يوماً ولا يقربُ إيجول^(٤)
يومُ الإقامة فيهم خلته ظمأً يومُ القيامة إذ يحكيه فى الطول
حتى تذكرتُ أن الناس قاطبةً إذنُ نَسألُ وأنسى غيرُ مسئول

(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .

(٤) دهر الدهاير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .

(٢) الورْد : الأشقر .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إيتاب ومنازلها في إيجول ، وقد أقام لديهم يوما خاله لطلوله - وقد ظمى فيه ظمعا شديدا - يوم القيامة ، وظن أن الناس ذهبت تسأل وبقي وحده . وقال في إذوداي إحدى عشائر بني ديمان - وقد نزل عندها - يهجوها :

يا رَبُّ لَيْلٍ بِهِمْ لَيْلٌ دَاجٍ قَدْ بَتَّ فِي ضُبْعَةٍ لَدَى إِذْوَاجٍ^(١)
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا الْإِصْبَاحُ نُبْهَنِي وَغَدَّ عَلَى لُقْمَةٍ فِي قَفَرٍ مَجَاجٍ

وقلب الياء من قبيلة إذوداج جيما عاكاة لبعض لغات العرب في هذا القلب ، وهو يقول إنه بات في ليل بهم مظلم أشد الظلام بضيمة عند إذوداي ، حتى إذا اقرب الصباح نبهه وغد لهم على لقمة غير سائلة في قمر ياء يمج ما فيه ويلفظه لسوته .

ويسوق الشنقيطي للمأمون اليعقوبي المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة البعقوين وصاروا جميعا يدا واحدة عليه كما مر في ترجمته ، وله يقول موهنا علمه بمنطق أرسطو وأحاديث الرسول^(٢) :

أَكْثَرْتُ حَزْكَ لَوْ دَرَيْتَ مَقْصِلَهُ فَادْرِ الْمَفَاصِلَ قَبْلَ الْحَزِّ وَاسْتَفِقُوا^(٣)
مَا الدِّينُ إِلَّا الَّذِي تَسْمَى لِتَوْهِنِهِ آيُ النَّبِيِّ وَأَثَارُ الْمَدَى الْعَبْقِي^(٤)
لَا كُلَّ خَيْطٍ عَنِ الْيُونَانِ مَبْتَدِعٌ قَدْ سَنَّ بَيْنَ أَصُولِ الدِّينِ مُخْتَلِفُو
تَحْصِي قَوَاعِدَ رَسْطَالِيْسَ تَحْسِبُهَا دِينًا لَكَ السَّوْبِلُ تَبْهَنُكَ فَاسْتَفِقُوا
إِنْ كُنْتَ تَوَرَّدَ نَسْخًا أَوْ مَعَارِضَةً لِذِي الْأَحَادِيثِ فَادْكُرْ مَا تَرَى وَسُقِ
وَأَنْ تَكُنْ قَاصِرًا عَنْ كَوْنِهَا ثَبَتَ فِيمَا حَوَى شَرْحَهُ الْحَفَظُ فِي الْوَرَقِ
فَاعْرِفْ مَقَامَكَ فِي ذَرَكِ الْعُلُومِ وَلَا تَعْرِضْ لِمَنْ خَاضَ فِيهَا شَاسِعَ الشُّقَى^(٥)

وهو يصفه بأنه أكثر الحز ولا يصب الفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحز ، ويقول له ما الدين إلا الذي تسعى في توهينه من معجزات الرسول وآثار هده العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذي تزجون به في أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسططاليس المنطقية وتتخذونها ديناً لكم وشعاراً . ثم يقول إن كانت الأحاديث التي تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذا ذكر ذلك وسق أسئلتها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها في كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك في معرفة العلوم ولا تعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده في هذا الهجاء فلم يكن المختارين بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجابه بمنطق أرسطو لا يشبهه ، فقد كانت دراسته عامة في جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطي في ترجمته بأنه « تاج

(١) الحق : العطر .

(٢) بهم : مظلم . ليل : شديد الظلمة . داج : محم .

(٣) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٤) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٥) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٦) الشنقيطي ص ٢١٧ .

العلماء.. ولا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسندهاته .



شعراء الرثاء

لرثاء عند العرب - منذ الجاهلية - ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التلحين ورسم فضائل الميت ليان خسارة القبيلة أو المجتمع فيه ، وصورة العزاء ويبان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تخلط هذه الصور فى المراثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقنا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور عماد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرنى أعمر آكجيل التروزي^(١) :

| | |
|--------------------------------|--|
| هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربة | وَحَوْضٌ زُعَافٍ كُلُّ من عاش شَارِبُهُ ^(٢) |
| وما الناس إلا واردوه فاسين | إليه ومسيوق تَخْبٌ نَجَائِبُهُ ^(٣) |
| يحبُّ الفنى إدراك ما هو راغِبٌ | ويدركه - لا يَدُ - ما هو رَاهِبُهُ |
| وكم لابس ثوب الحياة فجاءه | على فَجْأَةٍ عادٍ من الموت سَالِبُهُ |
| وما صان حَيْرًا علمه وكتابه | ولا ملكا أَعْلَاهُ وكتابه |

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف مصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كل من عاش على ظهر الدنيا لا يد شارب ، والناس جميعا واردوه ، ساقين إليه ومسيوق تعدو به ركبته . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس ثوب الحياة يفجؤه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلمه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك رايته وكتابه . ويرنى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤنثا^(٤) :

| | |
|-----------------------------|--|
| فناثا ومفتينا المصيب وشيخنا | ونيرلنا فيما بهم يُؤنث ^(٥) |
| بصيرٌ بكل المشكلات كلنا | يكاشف عن أسرارها ثم يكشف |
| تملك أطراف القضاء وفقهه | وما هو إلا مالك أو مطرف ^(٦) |

(٥) نرلى : مصباح . يهدف : يظلم .
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى
صناء للشهر .

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .
(٢) عضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .
(٣) تخب : تعدو . نجايبه : ركبته .
(٤) الوسيط ص ١٨ .

وهو يصفه بأنه المفتي المصيب والمصباح الذى يضيء ظلمات المشكلات العلمية ، وكثما يُكشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك ثاوى القضاء وفقهه فى أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضى صنعاء . ويقول عمده البدالى الذى مرت ترجمته مؤثرا المختار بن الفاضل^(١) :

لحقى على لَوْدَعِي^(٢) ذى نَدَى وتقى وهبة تملأ الأفكار والحدقا^(٣)
وذى معارف ربانية وهدى وهبة علت العُيُوق والأفقا^(٤)
علم الحقيقة والشرعة اجتماعا له فأضحى يرمى من به التحقا
وبحر جود وعلم زاهر وإذا ما مُتَّفوه أُنسوه فاض وتدفقا^(٥)
شيعاره البر والتفوى وذبدنه رضا الإله ، خديم الضيف إن طرقا^(٦)

والبدالى يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تملو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشرعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يرمى تلاميذه ، وهو بحر زاهر للعلم والجود . وإذا ما أُنسَ سألوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتفوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل فى رثاء مولود بن أجفج العيقوى^(٧) :

أُتَمَرَنَ مولودا وما انقضَّ كوكبٌ ولا فارق النورَ الفزالةَ والبدرا^(٨)
ولا زُلْزِلَتْ زِلْزَالُهَا الأرضُ يَوْمَهُ وما أُبْدَتْ الأشرافُ آياتها الكبرى^(٩)
وما شغل الناسَ البكا عن أمورهم كأنَّ صروف الدهر ما أحدثتُ أمرا^(١٠)
لقد غيبتَ مَنْ غابَ عند مغيبه فواضلُ شتى لا نطيق لها حصرا
وطوئى لغيرِ أودعوه عظامه فيا ليت تى كان صدرى له قبرا

وحرم يندب صديقه مولودا ويتفجع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقضَّ كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زُلْزِلَتْ الأرض ولا أُبْدَتْ الساعة أشرافها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكا على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صروف الدهر ونوابه ما أحدثت شيئا ، مع أنها غيبت من لا يستطيع أحد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٦ .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٤ .

(٢) الفزالة : الشمس .

(٢) لودعى : عالم ذكى . ندَى : كرم .

(٣) الأشراف : علامات الساعة .

(٣) الميوق : نجم .

(٤) صروف الدهر : خطوبه ونوابه .

(٤) محتفوه : سألوه وطالبو جوده .

(٥) دهبته : دأبه وعادته .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبراً ، وهو يترافع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٨ م - وكان شيخ طريقة وعالماً فى الفقه والعربية والبلاغة - رثاها الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلاً^(١) :

| | |
|-------------------------------|---|
| سهرتْ جفونكُ والمصاب مسهدُ | برئى ليلتكُ السليمُ الأرمَدُ ^(٢) |
| ورثتْ لك الخساء ، بعدُ متممُ | ورثى ليدُ يوم فارقُ أرمدا |
| لمصيبة صدمتْ فؤادى صدمةُ | كادتْ بناتُ الجوف منها تصعدُ |
| وجرى الدموعُ على الخدود كأنها | نظمَ جرى من سيلكه متبددُ |
| وتصدعتْ كبدى لها وكثما | بجوانحى منها حريقُ موقدُ |
| وإذا بكيتُ شجى عليه فقه | تبكى وتنبه جموعُ حفدُ ^(٣) |
| ويكى عليه ليله ونهاره | والصومُ يكى والتهجدُ يرعدُ |
| وبكتْ بقاعُ كان يبعدُ رأسه | فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ |

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكثما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكفته لدغ لمرات ، وكان تفجع الخساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نورية ، وبكاء ليد لأخيه أريد ، كل ذلك كان رثاءاً حاراً للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أوعاؤه منها تصعد ، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حباته ، وتشققت كبده ، وكثما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكىه ، ويكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهاراً وتهجده ليلاً ، ويستمر يذكر أن كل شيء يكيه ، تبكىه صلاته ووضوؤه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكاناً مكاناً ، ثم يقول - كما فى البيت الأخير - إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلاً . والمروثة بديدة . ومحمد بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود قال منشداً^(٤) :

| | |
|----------------------------------|---|
| ما لراجى الخلود نيلُ الخلودِ | إن وردَ المنونَ حَمُ السرودِ |
| أُتَظيَّبُ الحياة والشيخُ أُمسى | غَيَّبَتْهُ مَغِيَّاتُ اللُّحودِ |
| إنْ مالى من اصطبارِ تولى | إذ تَوَلَّى إِنْسانٌ عَمِدَ الوجودِ |
| طودُ علمٍ يَنْحُوهُ كلُّ مُريدِ | من جِماه يَفِرُّ كلُّ مُريدِ ^(٥) |
| وإذا سُدَّ بلبُ علمٍ عويصِ | كان مفتاحُ بلبه المسدودِ |
| عِلْمُ الأَصْلِ والفروعِ إلى أنْ | ليس فى العلمِ يَتَنَفَّى من مزيدِ |

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .

(٥) مرید : شيطان .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .

(٢) السليم : اللدوخ . الأرمَد : من أصاب عينه الرمد .

(٣) حلد : حاشدة .

وهو يقول إن الخلود لا يتاله أحد ، إذ كلُّ وارِد على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وَغِيَّتْ اللحود ، وقد تولى عنى صبرى إذ فارقتى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يؤمه مرهون كثيرين ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المرید ، وإذا سُدَّ باب علم عوبص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاريعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنيج التدغى . ويقول الشيخ سيدنا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة^(١) :

جادتْ سحابُ رَأْفَةِ الرحمن بهوِاسِلِ التَّكْرِيمِ والرُّضْوَانِ^(٢)
وبوصفٍ بِمَحْضِ الْوُدِّ والزَّلْفَى عَلَيَّ جَدَّتَيْنِ حُلَّ حِشَامِ الشَّيْخَانِ^(٣)
لَا حَا وَأَخْلَاكَ الْجَهَالَةَ فَخْمَةً ومَلَابِسُ الْبِدْعِ الْجِدَادِ مِثَالِ^(٤)
وَالدِّينِ مِنْهُدَمِ الْقَوَاعِدِ مُرَكَّسٌ بِأَخَابِصِ الطُّغْيَانِ وَالْمَعْصِيَانِ^(٥)
فَعَدَا مَنَارُ الدِّينِ بِعَدِّ تَهْدِمِ ثَبَتَ الْأَسَاسُ مَشِيدَ الْأَرْكَانِ

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهضى عليهما سحاب رَأْفَةِ الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنيهما ظهرا ودجى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المخذلة لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركسٌ بباطن أقدام الطغيان والمعصيان ، فأصبح بفضلهما منارُ الدين راسخُ الأساس رفيعُ الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيدنا الكبير^(٦) المذكور آنفا :

أرى الْمَلَّةَ الْبَيْضَاءَ جَلَّ مُصْلَاهَا ففَاضَتْ مَاقِيهَا وَطَالَ انْتِعَابُهَا^(٧)
وَقَاسَتْ بِفَقْدِ الشَّيْخِ وَجْدَ مَصْلَاهِ بِوَاحِدِهَا مَا تَوَلَّى شَبْلُهَا
وَأَظْلَمَ وَجْهَ الْأَرْضِ حَتَّى كُنَّا تَرَدَّتْ مَدَادَا غُوطِهَا وَجِدْلُهَا^(٨)
وَزَلْزَلَ أَقْطَارُ الْبِلَادِ فَأَصْبَحَتْ شَوَاهِقُهَا مَهْتَزَّةً وَهَضْبُهَا
وَزَغَرَعَ أَطْلَامُ الْمَدَى وَحَصُونُهُ وَقَوَّضَ فَسْطَاطُ الْعِلَا وَقِيلُهَا^(٩)

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيدنا مصاب كبير لشرعة الدين الخنيف ، وكُنَّا قلستُ حزن سيدة فقدت واحدا أو ولدا الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موروثها ص ٣١٦ .

القدم .

(٢) الشعر والشعراء فى موروثها ص ٣٢٣ .

(٣) هوامل : مسائل .

(٤) الملة البيضاء : الدين الخنيف وشرعته .

(٥) جدتين : قبرين .

(٦) غوطها : رياضها . حدلها : كتبها .

(٧) مثان : تكرر ويتردد .

(٨) القسطلط : الخيمة الكبرية .

(٩) مركس : مضروب . أعاصيص جمع أعصص : باطن

وكبائها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أعناء البلاد واهتزت جبالها وهضبتها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدَّتْ خيام الملا وقبلها . وهى مبالغات شديدة فى الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذى أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفى . وتتوقف قليلا لِرثاء أحد شعراء الرثاء .

باب^(١) بن أحمد ييب العلوى

كان لُبره عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه - كما يقول الشنقيطى - فى بلده وجبله ، ملحوظا بعين التعظيم فى معشره وفيه . ويقول عن باب إنه العالم الأوحى الذى أغار ذكره وتُجدد . ومُرُّ بنا أنه أكمل كتاب الدياج فى تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفِّ عنه - وكان قاضيا - ثلَّبه عنه فى قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرِّم الذى مرت ترجمته فى مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطى عنه : قلما مات أحد ممن يشار إليه فى قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

| | |
|--|--|
| كان عبد الإله بَرًّا تَقِيًّا | نَزَّ النَّفْس طَاهِرَ الْأَنْوَابِ |
| صَحْبُ الصَّالِحِينَ وَهُوَ صَغِيرٌ | لَمْ يَنْلُ مِنْهُ عَنَوَانُ الشَّبَابِ |
| كَانَ بَرًّا بِأَمِّهِ وَلَيْلِيٍّ | وَرَفِيقًا بِجَارِهِ ذَى الْجَنَابِ ^(٢) |
| وَهُوَ فِي لُزْبَةِ الزَّمَانِ رَبِيعٌ | ذُو جِفَانٍ كُنْهَنُ جَوْلَى ^(٣) |
| كُلُّ يَوْمٍ تَرَاهُ يَدْرُسُ عِلْمًا | وَهُوَ بِاللَّيْلِ قَاتِمُ الْخَرَابِ |

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصفات طاهر الأنواب ، صحب الصالحين ناشئا فى شبابه ، وكان بارا بأمه ولَّيَّه ورقيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجذب يصبح ربيعا للناس وتكثف مائدته لهم بقصاع كالخياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

(٢) ذى الجنب : يريد العميد .

(٣) لُزْبَة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة . الجولى جمع جليلة : المحوض .

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسط

ص ٣٤ والشعر والشعر له فى مورتها ص ٣٠٦ وما بعدها .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فأرضَ ما فعلاً
واذكُرْ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تَمَلُّ بها
به تَنِيَمُ - إذ أُوذِيَ - بنو حِمْيَرٍ
لو ساعدتني القوافي ما تركتُ لمن
رَمَى بِقَلْبِكَ شَجَوًا أو رَمَى جَذَلًا^(١)
إِذَا عَلَيْكَ مُصَابٌ مَعْضَلٌ نَزَلًا^(٢)
يَتَمُّ لِمَنْ يَوْمِينَ وَالصَّافُونَ وَالزُّرَلَا^(٣)
يُرْمَى مَقَالًا وَلَا يَشْفَى لِي اللَّغْلَا^(٤)

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة في خير الخلق رسولها الكريم يحمل كل فرد فيها يتعزى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتم من يعلم من بني حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافي ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يمكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول في رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

مِمَّ تَأْوِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا هَجَمَا
أَضْحَى الْفَوَازُ بِهِ مِنْ لَوْعَةٍ خَيْلًا
يَكِي عَلَى مَرْيَمَ يَوْمًا وَحَقُّ لَهُ
يَا لَيْلَةَ يَتَهَا جَنْبَ الْمَلِيحَةِ لَمْ
حَتَّى دَعَاها إِلَى الْمَوْتِ الْمُهِيْمِ مَا
يَا رَبُّ مَرْيَمُ قَدْ وَافَقْتُ وَافِدَةً
قَدْ بَاتَ مِنْهُ بِرَاعِي النَجْمِ مَكْنِيًا^(٥)
وَالْعَيْنُ تَسْكُبُ مِنْ تَدْرَافِهَا دُمْعَا
أَنْ لَا يَزَالَ عَلَيْهَا بِأَكْبَا وَجَمَا
أَهْنَا وَقَدْ نَامَ عَنِ الْقَوْمِ مُضْطَجَمَا
يَدْعُو الْمَلُوكَ وَيَدْعُو الْأَعْصَمَ الصَّدْعَا^(٦)
فَاجْعَلْ لَهَا جَنَّةَ الْفَرْدُوسِ مَرْتَبَا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شابهها في سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن هُما ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يرعى النجوم في غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته خجل ، وعينه تذرف الدمع مدلرلا ، ويكي على مريم بكاء حارًا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى رها الموت الذي يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتية ، ويدعو لزوجه ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر في القصيدة ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصل عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون في صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

والحزن .

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .

(٥) مكنا : مائلا إلى الغروب .

(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .

(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتي القوي .

(٣) الصافون : السائلون .

(٤) الغل جمع غلة : حرارة العطش وتشمير لائر الوجه

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

فلما يخلو شعر شاعر موريثي من أبيات ومقطوعات - وأحيانا قصائد - تصف تعلقه بفتاة في شبابه ، غير أن شاعرا لم يمش لوصف الحب وتبارجه ، مثل شعراء الغزل العذري في عصر بني أمية من أمثال قيس بن ذريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبي ربيعة والقرجي ، إنما هي خواطر تلم بالشاعر الموريثي إزاء عاطفة الحب الخالدة في الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب في التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظمان وما يتخلل ذلك من النيب . ولن نقف في عرضنا للغزل الموريثي عند هذا الجانب لأنه - في واقعه - محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير المودة الحقيقية إنما نعرض طائفة بدبعة من أشعار الغزل التي انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إياه في كتابه الشعر والشعراء في موريتانيا ، ومن أشد له مقطوعات وقصائد طريفة في الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة^(١) :

| | |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| فيمن أهيْمُ بها لاموا | فيمن أهيْمُ بها لاموا |
| هام الفؤادُ يَمُنْ لولا ملاحظتها | هام الفؤادُ يَمُنْ لولا ملاحظتها |
| تلك التي بينَ لَمَّاها مَسْنَى لَمْ | تلك التي بينَ لَمَّاها مَسْنَى لَمْ |
| نَسَمَ الأَخْلَاءُ عن ليلِ وأرْقَنِي | نَسَمَ الأَخْلَاءُ عن ليلِ وأرْقَنِي |
| مَنْ لِي بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما | مَنْ لِي بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما |
| إن تمنع الوصلَ أبامَ لنا فَمَسَى | إن تمنع الوصلَ أبامَ لنا فَمَسَى |

وهو يقول إن من حولي يلمونني في هيلي بصاحتي ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلي وكفوا من لومهم ، وقد هام الفؤادُ بها لحسنها ولولاه ما سَفِهَتْ عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هي التي مَسْنَى من جمال شفتيها وفتتها ما يشبه الجنون وأصابني من سقم أجفاتها ما لا يحد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو موزَّق مسَهَّد لأنه عاشق ،

أو شدة .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لَمَّاها : سمة شفتيها . لم : طرف من الجنون

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويمنى وصل صاحبه ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها
الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فمضى أيام أخرى تسمح
باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسفرد له ترجمة . ويقول المختار^(١) بن محمد الحسنى
من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأنُ المحبين أن يكوا وأن ينفقوا بين المنازل فلبكوا بينها وبقوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سرفٌ بل البكاء على غير الموى سرفٌ
إن لم تكن عبراتُ العينِ واكفةً فيها قفى أى دارٍ بعدها تكفٌ^(٢)
والعينُ ما يرححُ من فيضِ غيبتها يسأفها يخفى طورا وينكشف
تُصنى القلوبُ بسَهْمَى لحظها عَرَضًا إن القلوبَ لسَهْمَى لحظها هَدَفٌ^(٣)

وهو يقول لصاحبه إن عادة المحبين إذا أُلوا بديار محباتهم أن يستوقفوا الركب ويكوا
نفقوا ولبكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تسيلْ عبراتى ، قفى أى دارٍ غير دارها تسيل وإن
عبراتى لتهمى حتى ليخفى إسان عيني وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، ولها لتصيب القلوب
بسهم لحظها دون قصد حتى لكان القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد^(٤) بن حبل الحسنى
المرضى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م :

اسْكَبِ الدَّمْعَ وَالْعَبْرَى النُّومَ عَيْنِي صَرَّتْ حَبْلَ الرُّضْلِ لَمْ حَكِيمٌ^(٥)
تلكَ مَنْ جَرَعَتْ فَوَادِي كُوسًا من هَوَاهَا تُبْتِئِي كَالْكَلِيمِ^(٦)
لَا تَنْظُرُ الظُّنُونُ أَنَّ مَقَامِي بِالْبَيْتِيعِ لَأَطْلَابِ الْمَلُومِ
بَلْ لَغَرِيْبَةٍ نَهَبُ غَشِيًّا بِثَنَاهَا فَأَشْتَفِي بِالشَّيْمِ
وَأَرَى عَيْنَ مَنْ رَأَاهَا فَأُطْفِئُ لَهَبَ الْوَجْدِ مِنْ حَشَائِ الْكَلِيمِ

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرنا ، فقد قطعت أم
حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعت كوسا من حبها جعلته بيت
طوال الليل كاللدوغ . ويذكر أنه يبنى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالبيوع من
أجل طلب الملو ، وكان شغوفًا بها ، إما هو من أجل استرواح الريح الغريبة التى تعمل
عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا
أحشائه . وتوقف قليلا لإزاء بعض شعراء النزل .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .

(٥) صرمت : قطعت .

(٦) الكليم : اللدوغ .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .

(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .

(٣) تصنى : تصيب .

الأحول (١) الحسنى

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالما باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين اغتاز فيها إلى قومه وسلّ معهم سيفه ، ونظم فيها أشعارا كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملا سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م وتُشد له الشنيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

| | |
|----------------------------|--|
| شدوا المهازى بأكوار وأحداج | وأدلجوا تحت ليل الليل داج ^(١) |
| فأصبحت دورهم قفرا مطلة | تبكى دواعى هدبل شجوها شاج ^(٢) |
| تلوح آثار من بتوا بممهدها | مثل البرود وشتها كف نسا |
| فما علمت ولم أشعر بينهم | إلا يحزن من الغرابة شجاج ^(٣) |
| تيا ليسر نأت عنا بناعمة | غيدلة رقيقة الحجلين مضاج ^(٤) |

والأحول يقول إن أهل صاحبه شدوا لإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والموداج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها المدبل وحلماته بكاء بهير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكثتها ثياب زينها نسا بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى بينهم وبينهم إلا نيب غرب شديد السواد . ويقول هلاكا لإبل بمدت عنا بحسنا مختلفة الخلخالين ذات دلال يزيدنا حسنا ، ويقول :

| | |
|-------------------------------|---|
| أست معاهد سغدى بالوى ذرنا | من صوب وذق النوادى بكرة وسنا ^(١) |
| كم حلورتنى بها حوراء أمة | غررة من حاورته منقلا نسنا ^(٢) |
| ألو سغدى وسغدى لا يخبها | نم المريدن تخبنا من الجلنا ^(٣) |
| بيضاء من مد فيها العين فاقبست | تحت الدجى من سناها أنكر القنسا |
| بل لوراهأ أهالى يوسف قطعت | منهم قلوب رجال لا أكف نسا |

وهو يقول إن ديار سغدى صاحبه أصبحت عافية من طول ما اتسكب عليها من أمطار السحب صباحا ومساء ، ويذكر صاحبه اللطيفة الحسنة وأتته بها وأحاديثها حين كانت

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنيطى ص ٣٠٤

والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مرائع مختلفة .

(٢) المهازى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأحداج :

الموداج . أدلجوا : صاروا ليلا . قبل : شديد السواد .

(٣) هدبل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج :

كثير الحزن .

(٤) بينهم : يحزن . جون : أسود . شجاج : يحزن .

من النيب والصباح .

(٥) العيس : الإبل . غيداء : حسنا . رقيقة الحجلين :

مختلفة الخلخالين . مناج : ذات دلال .

(٦) ذرنا : عافية . ودق : مطر . النوادى : السحب .

(٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء :

بيضاء .

(٨) يخبها : يخدعها . المريدن : المصين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجيين الثمانيين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قيس من جمالها المضيء ما يفوق قيس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم انتائا بها . ويقول :

غُرَاءُ لَا يَرْقُبُ الرَّاءُونَ وَجَنَّتْهَا إِلَّا تَنَى النَّوْرُ مِنْهُمْ حِدَّةَ النَّظَرِ
لَمْ تَنْزِرْ هَلْ هِيَ مِنْ شَذَرٍ مَرْكَبَةٌ أَمْ مِنْ صَرِيفٍ لُجَيْنٍ أَمْ سَنَا قَمَرٍ^(١)
كُلُّ تَلَابُسٍ إِلَّا أَنْ يَمَيِّزَهَا مِنْ ذَا وَمِنْ ذَيْنِ وَسَمِ الدَّلِّ وَالْخَفَرِ

فهى بيضاء لا يرمى المصورون وجنتها النيرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياة اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

محمد^(٢) بن الطلبة اليعقوبى

عشيرة اليعقوبيين أو قبيلتهم فى شنيق وراعى نيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز اليعقوبيون بالتمعق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يدرس للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرئ القيس وزهير والنبغة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النلهيون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقرؤه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حذرة والشماخ وأضرلهم من الجاهليين . وهباً لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيتها كانت تشبه البيعة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحْل وراء المراعى ومساقط الفيث ، ويليلها وقعامها الراعية وتبارها الأجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زابلوها . وكما يحكى الشاعر الجاهلى من قطع المنافوز على ناقه كذلك يحكى الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حياته الذى لا يختلف عن واقع حياة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

(١) شلر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضة .
سنا : ضوء .
وقد نشد فى كتابه ممرضاته جميعا وكثيرا من شعره ،
وراجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقلى ص ٩٤

فى تيرس ومراعيها وربفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الطاعنات عجوبته ، كما تغنى طويلا بمحولات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها عمداً بن الطلبة وغيره من شعره مورتانيا ، وكثما أراد أن يثبت مدى صحراوية فى شعره فاختار قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحليين تكيطان بالغريب ويوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها ووطنها وعارضهما معارضة رائمة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لنزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحجن ما ينظمه مبتكراً بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطباً عجوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلد لا تجلدُ بعدما شطُتْ بأَمِّ المؤمنين نواها^(١)
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى قد شَفَّ نفسى منكُم وِسراها^(٢)
ما كان ضَرْكُ لَوْ رَدَدْتَ حَيْجَةً فيها لنفسى - لو رددتْ - شفاها
واها لما أبْدَى لنا يَوْمَ النُّوى منها السوداعُ وقُلْ مَنَّا واهَا^(٣)
بأليت شمرى والفسراقُ موكلٌ بالماشقين متى يَكُونُ لقاءها

وهو يقول كيف التجلد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النوى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شغوف نفسه وضنا جسمه بمجها ، ويقول إنه حباها ولم تحبه ولو حبه لشتت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتمنح متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أمِّ المؤمنين سلا ولا أرى عاذلاني تترك العذلا^(٤)
بل لا أرى لوم من يَلْحُو ومن عذلا إلا يزيدُ على الهَمِّ والخِلا
ولا أرتى أرى رَسْمًا ولا طَللا إلا وساءلتُ عنها الرسمَ والطللا
هى التى أنا لا أبهى بها بدلاً وتبلى الوصلَ منها تبلى الأملا

فهو لن يسلو صاحبه مهما لامت اللاتيمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيدُه هما وجنونا بمجها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طلالا إلا سألَه عنها كَثَمًا تملأُ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبنى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق .
(٢) عوجى : توقيى وميل . برها : نَحَلها .
(٣) واهَا : كلمة تقال فى الضجع وفى العجب .
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إِنْ قَلْبِي مَيْتٌ بِالْحَسَنِ مِنْ ذَوَاتِ الْأَخْصَابِ مِنْ حَسَنِ
كُلُّ يَبْضَاءَ خَذَلَةٍ السَّاقِ رُودٌ تَشْتِي كُنْهَهَا غُصْنٌ بِلَانٍ^(١)
جَعَلَتْ فَرْقَ نَخْرِهَا الشَّدْرُ وَالسُّدْرُ وَنَاطَتْ قَلَانِدَ الْمَرْجَانِ^(٢)
غَيْرَ نَمِي مَا إِنْ وَجِدْتُ كَأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ الْعَرُوبِ فِي النُّوَانِ^(٣)
وَلَهَا مَنْطَقٌ لَوْ أَصْنَى لَهُ الرُّهْبَانُ أَصْبَى مَشَايِخَ الرُّهْبَانِ^(٤)

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل خاة يبيض منها ممثلة الساق شابة فاتنة تمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق غرها شذور الذهب واللؤلؤ وفلائده ، وفاتتتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذي لو أرفف الرهبان السمع إليه لأصباحهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزليات كثيرة . وقد توفي سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م .

يقوى^(٥) الفاضل

ذكر الدكتور محمد المختار في كتابه الشعر والشعراء في موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين في القرن الثالث عشر المجري وما لم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسي والمأمون اليعقوبي ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسني والهادي العلوي ومحمد بن بلكر ، وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضل الذي ذكر عنه أنه توفي سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأتشد له قصيدتين غزليتين ، وفي أولاهما يتنزل في صاحبه سليبي منشدا :

زَعَمَ الْجَاهِلُونَ أَنَّ عَهْدًا أَوْ مَنَحْتُ الْوَدَادَ غَيْرَ سَلِيمٍ
مَا تَمَيَّرْتُ لَا وَلَكِنْ عَدَلِي وَمَهَارٍ تَهَابُ - إِنْ نَظَرْتُهَا -
قَدْ تَجَسَّمْتُ هَوْلًا أَتَخَطَّى لَسَلِيمِي حَتَّى دَخَلْتُ حِمَاهَا

موريتانيا ص ٩٩ وما بعدها ونظر في وقته وتاريخها
ص ٧٤ .
(١) عدلي : شغلي .
(٢) مهار : جمع مهوى يبرد مفايزات يسقط فيها
الإنسان ويهلك الجليل القوي : التحمل للشفقة
بسر . السرى : السر لئلا .

(١) خَذَلَةُ السَّاقِ : ممثلة . رود : شابة جميلة .
(٢) الشَّفْرُ : قطع النعب . الدر : اللالء . نَاطَتْ :
علقت . الْمَرْجَانُ : حجارة كريمة يبيض وحمره .
(٣) عَرُوبٍ : لطيفة .
(٤) أَسَى: جعل مشايخ الرهبان تصلي وتكفل للموى .
(٥) انظر في غزل يقوى الفاضل الشعر والشعراء في

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لما ظنوا أنه نسي ما كان بينه وبينها من عهد أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدها لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقاءها من مفازات مهلكة ، بهاب الجليد الجريء الصابر السرى والسير فيها ليلا ، وقد تحمل هولها متخطيا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وجماها ، يقول :

وتَمَيَّزَتْهَا فَدَلَّ عَلَيْهَا فِي الدُّجَى طَيْبُ نَشْرِهَا وَبُزَاهَا^(١)
فَعَلَّتْنِي مَهَابَةٌ وَوَجُومٌ مِنْ لِقَائِهَا وَمَا عَلَانِي غَلَاهَا
وَأَشَارَتْ بَأَنَ فِي الْبَيْتِ نَاسًا يَنْشُرُونَ الْحَدِيثَ عَنْ أَتَاهَا
قُلْتُ لَأَلْهَمًا وَصَلْتُ قَالَتْ تَنَحَّ قَبْلَ دَهْيَاةٍ مُعْضِلِ أَفْهَاهَا^(٢)
وَصَفَا بَيْنَنَا الْحَدِيثُ وَقَالَتْ لَا تُعَذِّبْ بَيْنَهَا وَأَلْقَتْ عَصَاهَا^(٣)
ثُمَّ بَقِيَ اللَّيْلُ نَلْهُو بِأَحَادِيثَ لَا يُعَلِّ جَنَاهَا^(٤)

وهو يقول إنه بحث عن سلمي ودله في الليل طيب عطرها وأصوات أسرارها وخلائجها ، ويذكر قهوما حينما تلاقيا علتها مهابة ووجوم وأشار إلى أنه في البيت ناسا يذيعون الخبر عن أتائها وتخشاها ، فقال لما لقد تحملت مشاق حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل ينعمان بأحاديث شتى . والقصيدة سلسة مثل هذا الحوار بينه وبين سلمي . ويقول في قصيدته الثانية :

مَغَانِي سَقَانِي الدَّهْرُ فِيهَا عَلَى الظُّلُمَا كُوسَ الْمَنَى مِنْ كُلِّ أَحْوَرٍ أَهْيَا^(٥)
لَعَمْرِي لَنْ أُمَسَّ عَفَاءً لَنِي الْحَشَا لَهَا مَنَزَلٌ لَمْ يَغْفُ قَطُّ وَمَا عَفَا
وَنَاهِدِي تَجَلَّوْا أَغْرُ كُنْهًا يَبْرِيَانِيهَا صَبُّ الْمُهَيْمِنِ قَرْقَفًا^(٦)
عَلَى وَجْتِهَا قَدْ جَرَى مَتَحِيرًا وَلَبَّيْهَا مَاءُ الْمَلَاةِ وَالصَّفَا^(٧)

يقول إنها مغاني أو منازل طالما سقاها الدهر فيها - وهو ظلمي - ككوس المنى من كل بيضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبه ودارها في حشاه لا يهفو أبدا . ويصف صاحبه بقها شلبة تفتقر عن ثمر مشرق وكُنْهًا امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحة والصفاء يجري مترقفا على وجتيتها ولَبَّيْهَا الجميلة .

-
- (١) نشرها : عطرها . البرى : الخلائيل والأساور .
(٢) دهاية : داهية . معضل : شديدة .
(٣) ألقت عصاها : أطلقت واستسلمت .
(٤) الجى : الثمر الحلو .
(٥) أهيف : ضامر . ذكر الصفة لضرورة الشعر .
(٦) ناهية : شلبة . أفر : أبيض يبرد تقرأ أبيض .
(٧) قرقف : خمر .
(٨) لبها : موضع القلادة من الصدر .

شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالانخاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلوله فيهم ، ومذهب سنى يقف عند أدله الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبة عبدة صادقة . وطبعى أن لا يمتلئ الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السنى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى نبي الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكنت أكثر شيوعا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها ويمؤسها ويدافعون عنها دفاعا حاراً ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منها بطريقته وولايته^(١) :

طالع جواهره واصحب رسائله وما يث من الأنوار والحكم
تجد ولايته لاحت معالمها كما نرى فى الدجى نار على علم

وهو يشيد برسائله فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره ورده الذى يُقرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعا عنه ضد خصوم طريقته^(٢) :

مَنْ كَانَ فى مذهب التجاني مُتَمَرِّبًا فإني لكمال الشيخ معتقد
مَنْ يَنْظُرُ الكُتُبَ التى أفاد بها ينظر كلام حق كله رشد
أما الذين تعاطوا ورده فلقد أعيا على العد حصر منهم القد

(٢) الشنطى ص ٢٨٩ .

(١) الشنطى ص ٣٣ .

فهو من المعتقدين في إمامة أحمد التيجاني الصوفية وقطبيته ويقول إن من ينظر في رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقته وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته وبقراءته ورده يفوتهم العبد والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوي^(١) :

إِذَا حَمَاةَ طَرِيقِ أَحْمَدَ شَيْخِنَا وَنَجِيبُ عَنْهُ الْمُنْكَرِينَ وَمَنْ جَفَا
وَنُعِيدُ لِلْعَادَى عَلَيْهِ صَوَارِمًا وَأَسْوَدَ غَابٍ فِي الْكَرْبَةِ زُحْفًا^(٢)

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجاني أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضاربة . ونقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

المختار^(٣) الكنتي

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطي عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم تر أحدا يطن في ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لما بلغه من أن الشيخ الكنتي يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاحظات ، ويقول الشنقيطي : « على أنه لا يوجد ولي إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر في كُتبه سواء كانت في الحقائق الصوفية أو غيرها يبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وَأَخْرَجَهُ ذُرُ الْعَرْشِ لِلنَّاسِ نَائِبًا عَنْ الْمُصْطَفَى وَالْأَمْرُ فَاشِرٌ وَذَائِعُ
مُرِيدًا وَلَمْ تُرَضِّعْ كَذَلِكَ الْمُرَاضِعُ

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس ، وهي مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون المهود عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفي سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استمدادا للأخرة :

أَبْقِظْ جَفَوْنَكَ إِنْ الْقَلْبَ وَسَنَانُ
وَجِدْ شَوْقًا إِلَى أَخْرَاكِ مَبْتَدِرًا
وَأَعْمَلْ لِدَارِ بِهَا اللَّذَاتِ قَاطِمَةً
ظِلٌّ وَمَاءٌ وَأَزْهَارٌ مَفْتَقَةً
فِيحَانُ مَسْكٍ بِهَا الْأَنْهَارُ جَارِيَةً
وَصُمِّرِ الْعَزْمَ إِنَّ الْعَزْمَ كِسْلَانُ^(٤)
إِنْ اللَّيْلِبَ إِلَى أَحْسَرَاهُ حَسَانُ^(٥)
رَوْحُ وَرَاحٍ وَرَاحَاتُ وَرِثَانُ
عَنِ الْكَمَائِمِ أَشْكَالُ وَالْهَوَانُ
خَمَرٌ وَمَاءٌ وَمَاذَى وَأَلْبَانُ^(٦)

(٤) وسنان : نائم .

(٥) حنان : مشفق .

(٦) ماذى : صل مصفى .

(١) الشعر والشراء في موريتانيا ص ٢٧٨ .

(٢) صوارم سيوف قاطمة .

(٣) انظر ترجمة المختار الكنتي وشعره في الشنقيطي

ص ٣٦١ والشعر والشراء في موريتانيا ص ٣٩٠ .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزما صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عيقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل فى وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

يَبْضِي نَوَاعِمُ بُكَارٍ مَنَعَةٍ نَحَارُ فِيهِنَّ أَلْبَابٌ وَأَذْهَانُ
تَمْرٌ فَلَنْ مِنْ سُندُسٍ الْفِرْدَوْسُ فِي حُلٍّ مِنْ فَوْقِهَا حُلٌّ مِنْ تَحْتِهَا بَانُ^(١)
نَشْأَنُ وَنُطْ مَقَاصِيرِ مَزْخَرَةٍ لَمْ يَطْمِئْنِ بِهَا إِبْسٌ وَلَا جَانُ^(٢)
رَيْقٌ لَذِيذٌ وَأَنْفَاسٌ مَعْطَرَةٌ وَمَنْطِقٌ سَاحِرٌ الْأَنْفَاسُ قُتَانُ
مَهْوَرَهْنُ صَلَاحٌ دَائِمٌ وَتَقَى زَهْدٌ وَصَبْرٌ وَإِخْلَاصٌ وَإِيمَانُ

وهو يستمد فى وصفه للحور العين من سورة الرحمن فى القرآن الكريم ، فيقول إيهن يَبْضِي نَاعِمَاتُ بُكَارٍ مَرْفَافَاتٍ نَحَارُ فِي جَمَاهُنَّ الْعُقُولُ وَالْأَلْبَابُ يَتَخَتَرْنَ فِي حُلِّ الْفِرْدَوْسِ السَّنْدِيَّةِ ، وقد نشأن فى غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إِبْسٌ وَلَا جَانُ ، رَيْقُهُنَّ لَذِيذٌ وَنَفْثُهُنَّ شَذَى وَعَطَرُ ، ويتحدثن حديثا ساعرا فتنا ، ومهْوَرَهْنُ صَلَاحٌ وَتَقَى وزهد وتقشف وإخلاص لله ودينه الخفيف وإيمان صادق .

الشيخ سيدنا^(٣)

هو الشيخ سيدنا (بتشديد الياء ومدّها) بن المختار بن الهيب التندغى الألبيرى ، يقول الشنقيطى : « هو العَلَمُ الذى رُفِعَ عَلَى أَهْلِ قَطْرِهِ ، وَاسْتَظْلُ بِهِ أَهْلُ دَهْرِهِ .. اِشْتَمَلَ فِي شَبَابِهِ بِالْعُلُومِ وَبَرَعَ فِيهَا بِمَلَازِمَتِهِ لِأَسَاطِدِهِ حَرَمَ بْنِ عَبْدِ الْجَلِيلِ الْعُلُوِّ . وَلَمَّا تَضَلَّعَ مِنْ عِلْمِهِ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى الشَّيْخِ الْمُخْتَارِ الْكَتْبَى بَارِزِوَادٍ .. وَلاَزَمَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ مَاتَ الشَّيْخُ الْمُخْتَارُ فَبَقِيَ عِنْدَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ خَلِيفَتُهُ فِي الطَّرِيقِ الصُّوفِيِّ ، وَلاَزَمَهُ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى بَرَعَ فِي مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ ، وَرَجَعَ إِلَى قَبِيلَتِهِ أَوْلَادُ كَيْسَرٍ فَنَلَقَوْهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَاعْتَرَفُوا بِفَضْلِهِ . وَلَمْ تَزَلْ فَضَائِلُهُ تَنُمُو حَتَّى أَذْنَعَتْ لَهُ قِبَائِلُ الرُّوَايَا وَحِصَانٌ وَصَارَ مِثْلَ الْمَلِكِ بَيْنَهُمْ فَلَا يَرُدُّ أَمْرُهُ ، وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ كَرَمًا وَحِلْمًا وَعِلْمًا ، وَلَمْ تَزَلِ الدُّنْيَا تَنَالُ عَلَيْهِ . وَجَعَلَتِ الْعَرَبُ مَنَزَلَهُ فِي أَرْضِ شَنْقِيطٍ حَرَمًا أَمْنًا ،

(١) برقلان : يتخترن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .
(٢) يطمئنها : يطمئنها .
(٣) انظر فى الشيخ سيدنا الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع منفردة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم
ومأربهم . وكان تلاميذه ومريده يحاولون أن يقلل من هذا الكرم القباض فلا يستمع إليهم
إلى أن توفي سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعا ، وله من قصيدة :

| | |
|---|--|
| رَضْتُ إِلَى مَوْلَايَ جُلًّا شَكْنِي | وَلَمَكْتُ نَشْلَ عَصَاكَ مِنْ بَلْنِي |
| بَلِيْتُ وَهَلْ يَتَلَى مَرِيدٌ بِمَثَلِ مَا | بَلِيْتُ بِهِ مِنْ حَبْسِ نَفْسٍ غَوِيَّةٍ |
| حَجَابٌ غَمَّاهَا عَنْ شُهُودِ صِفَاتِهَا | بِهِ حُجِبَتْ عَنْ مَشْهُدِ الْأَحْدِيَّةِ |
| لِذَلِكَ أَفْنَتْ جِدَّهَا وَاجْتِهَادَهَا | وَمَرَّغَتْهَا فِي لَفَقَاتِ الدُّنْيَةِ |
| صَحَّتْ مِنْ سَحَابِ الْوَلَدَاتِ سَمَاوَهَا | بِصَفْرِ رِيَّاحِ الْمَاجِسَاتِ الرُّودِيَّةِ |
| مَدَدْتُ إِلَيْكَ الْكَفَّ يَا خَيْرَ وَاهِبٍ | فَلَا تَحْرِمْ الْخَيْرَ الْمُنَافِضَ يَدُنِي ^(١) |

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بلية ، وهل يتلى مرید عب
ر به بمثل ملئ به من نفس خبيثة ممعنة في النوايا إيمانا حجبها عن مشهد الصوفى لأحدثه
والتحاده بره ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها في المتاع الفاني ، بما جعل الولادات
الربانية تنحسر عن سماتها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرب إلى ربه ماداً كفيه أن لا يحرّم
يده من خيره الذي يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفتاة
فيه . وله دعاء طويل يستهله بقوله :

| | |
|---|--|
| يَا وَسَّعَ الرَّحْمَاتِ يَا فَاحُ | يَا مَنْ دَعَا لِبَلِيٍّ مَفْتَاخُ |
| يَا بَرُّ يَا رِزَاقُ رِزْقِكَ شَامِلُ | تُغْذِي بِهِ الْأَرْوَاحَ وَالْأَشْيَاخُ |
| يَا فَارَجَ الْمَهْمِ الْمُرَبِّ وَكَاشِفَا | كَرْبِ الْعَبِيدِ إِذَا دَعَوْكَ وَابْحَا ^(٢) |
| فَرَجَ كَرْوَبِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ | وَأَغِثْ بِمَا لَمْ بِهِ إِصْلَاحُ |
| فُتِّ الْمَغِيثُ وَفُتِّ ذُو الرُّحْمَى الَّتِي | بَنَزَلَهَا شِدْدُ السَّوْرِ تَزَاخُ ^(٣) |
| تِلْكَ الْأَرْضَى وَهَذِهِ وَنَجَاذُهَا | جُرَزُ بِهَا تَخَافُ الْأَرْوَاحُ ^(٤) |

وهو يدعو ربه قائلا : اشمئني برحمتك الواسعة واتح لي باب الرزق الملقى ، يا من يستجيب
للداعين ، يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج المهم المقيم وكاشفا غم
العبيد فرج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فُتِّ المغِيث الرحيم الذي برحمته نزول
كل الشدائد . ويصور الشدائد في شقيط ومرامى تيرس وريغها ، فالأراضى منخفضةا
ومرتفعاتها أعلجت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(١) جز : مجلبة . تتخاف : تضطرب . الأرواح :
الرياح .

(٢) يَدُنِي : تصغير يد .

(٣) المرَب : القيم .

(٤) شد جمع شدة .

وأصبحت عجافاً مهزولات ، ويضرع إلى ربه طويلاً أن يرسل على البلاد سحياً تندفق بالمطار ،
 فينبت الزرع ويمتلئ الضرع ، وتنشأ الرياض وتجدو الأشجار ويروى الظمان ويشبع الجائع
 ويمر رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

٣

شراء المدايح النبوية

بدأت هذه المدايح في حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة
 وكعب بن زهير وأضرليهم ، وأخذت تتكاثر في العصر العباسي على لسان أهل السنة مصورين
 في الرسول المثل الأعلى للمسلم في تقواه ونسكه ودعوته لرسائله وجهاده العظيم في نشرها ،
 وبالمثل على السنة الشعة مرددين أن نوره المهدى سرى في أمتهم . وأخذ المتصوفة - منذ
 الخلاج - يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحي للحياة البشرية ،
 بل مبدأ النور والوجود في الكون . ويشيد المادحون له دائماً بمعجزاته المبثوثة في كتب السيرة
 النبوية ومعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة
 منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر في موريتانيا نرى شعراءها - مثل
 شعراء الأقطار الإسلامية - يتغنون بمدح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته
 الباهرة وجهاده الرائع في نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه في غفران ذنوبهم
 والشفاعة يوم القرض . وتكثر هذه المدايح في الشعر الموريتاني ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة
 لبعض من برعوا في نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسني - من شعراء القرن
 الثاني عشر الهجري - في مدح الرسول ﷺ :^(١)

| | |
|------------------------------|--|
| فإن لم تكن لي خيمة حول رمي | فهذا هواه في فؤادي خيماً ^(٢) |
| ويا ليت خدي كان موطىء نعلي | وصدري ضرباً جامعاً منه أعظماً |
| وما مثله البحر الخضم تكررماً | ولا كتناياه البروق تبسماً ^(٣) |
| ولو قستته ضوئاً وجوداً وجراً | بشمس وضرغام وولل متى همتي ^(٤) |
| لكنت كمن قد شبه الشمس بالسها | وبالطلل وكافاً وبالمر ضيفاً ^(٥) |

وهو يقول إن لم تكن لي خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيم في فؤادي واستقر
 به ، ويتحنى لو عاش في زمنه وكان خديه موطىء نعله وصدره قبراً لأعظمه العطرة ، ويقول

(٤) ضرغام : أسد . ول : مطر غزير . هي : سال .

(٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل .

وكاف : مطر منهزم . ضيف : أسد .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٤٣ .

(٢) رمه : قبره .

(٣) الخضم : الواسع الزاخر .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرمًا ولا البروق المضيفة تماثل ثنابها تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السَّهَّا الضئيل ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارقال البوصادى - من شعره النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى - مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما^(١) :

محمَّدُ سَيِّدُ الْكَوْزَيْنِ سَيِّدُ مَنْ يَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَافٍ وَمُتَمِّلٍ^(٢)
 عَمَدُ سَيِّدُ الْأَقْطَارِ سَيِّدُ مَنْ حَازَ الْعُلَا مِنْ ذَوَى الْأَمْصَارِ وَالنَّقْلِ^(٣)
 مَنْ لِلْعَصَا شَفِيعٌ لِلْمَصَامِ جَمِيعُ اللَّسْتَيْنِ رَيْبَعٌ كَالْحَيَا الْمَطْلِلِ^(٤)
 لِلْمُهَنْدِسِينَ سَنًا لِلْمُرْمِلِينَ غِنَى عِلَاوُهُ فَسَوْقُ كُلِّ الْمُرْسِلِينَ عَرٍ^(٥)
 بَدْرٌ حُلَاةٌ بِهِ الْآفَاقُ حَالِيَةٌ لِلْمُشْتَكِينَ مَنَى لِلْمُرْسِلِينَ وَلى^(٦)

وغالى يقول عمده سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومتعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيح العصاة حمى لهم ، وللمجندين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهنددين ، وغنى للفقراء المغوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إله بدرٌ ازدادت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها^(٧) :

قُدُوةُ الْأَنْبِيَاءِ قُطْبُ رَحَى الْكَوْزِ وَبَشِيرُ الْوَزَى مَقْلَةُ الْإِبْهَادِ^(٨)
 وَسِرَاجُ الْوَزَى الْمُنِيرُ الْمُحْيَا وَبَشِيرُ الْوَزَى النَّذِيرُ الْعِبَادِ
 وَكَسَابٌ عَلَيْهِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ
 بَشَّرَتْ آيَةُ وَقَدَّرَتْ النَّاسُ مِنْ بَوَعْدِ الثَّوَابِ وَالْإِبْهَادِ
 وَفَنُونَ مِنَ الْبَلَاغَةِ تُغْنَى بِلَغَاءِ الْجَوَابِ فِي كُلِّ نَادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثل للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسان عين الإيجاد والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إله سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يشرهم بثوابه وينذرهم بإبعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلاغة فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله^(٩) :

- (١) الشعر والشعراء فى مورخاتها ص ١٥٠ وما بعدها .
 (٢) الكوزين : الدنيا والآخرة .
 (٣) ذور النخل : البدو الرحل .
 (٤) اللستين : للمجدين . الحيا : الغيث .
 (٥) سنا : ضوء . للمرسلين : للفقراء .
 (٦) حالية : مردقة . ولى : سيد .
 (٧) الشعر والشعراء فى مورخاتها ص ١٦٥ .
 (٨) الشعر والشعراء فى مورخاتها ص ١٧١ .

شهر النبي أَحْمَدُ

شهر العلاء والسُّودْدُ

أهلاً بشهر المَوْلِدِ

شهر ربيع الأولِ

وقائدِ وحادِ

لمهج الرُّشادِ

أهلاً بِشَهْرِ المَهادِ

إلى الطريقِ الأَمَلِ

وطيبِ ذلك السَّحَرِ

فيه ويومهِ الأَعَرِ

أهلاً بليلِ اثْنِ عَشَرَ

ونورِ أَفْقِهِ الجَلِيِّ

والمُدَّةُ بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبي : شهر العلاء والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادي إلى الرشاد والقائد والهادي إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثاني عشر ، وما نشر سَحَرُها من طيب عطر ونور متشر في أفقه بل في كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيدي الأبيي خليفة أبيه في الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله^(١) :

| | |
|---|---|
| أَهْلًا بِمِلَادِ مَوْلُودٍ بِهِ كَمَلْتُ | بُشْرَى الْبِشَائِرِ لِلْبَادِ وَلِلْقُرَى |
| أَكْرَمَ بِهَا لَيْلَةَ غُرَاءَ ضَاحِيَةٍ | فِيهَا يَتِيْمَةٌ سَيِّطُ اللَّوْلُؤِ الْأَرْوَى ^(٢) |
| أَكْرَمَ بِهَا لَيْلَةَ غُرَاءَ مَظْهَرَةٍ | سِرُّ الْوُجُودِ الَّذِي فِيهِ الْوُجُودُ طَوْرِي |
| لَوْلَا مَا أُنْزِلَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَلَا | الدِّينُ الْقَوِيْمُ وَلَا مَا فِي الصُّحُوحِ رُؤْي |
| وَلَا أُقِيْمَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ قَاعِدَةٌ | وَلَا بَدَأَ فَضْلُ سُنِّيٍّ عَلَى حَسْبِي |
| وَلَا بُنِيَ بِلَتِيٍّ مَعَانِيهِ | وَلَا نَحَا النَّحْوُ نَحْوِيٍّ وَلَا لُغْوِي |
| لَوْلَا لَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ الْفِلَاحَ وَلَا | مَلُوكَ سَانَ تَيْمِيٍّ وَلَا عَدُوِي |

وهو يهلل لميلاد الرسول الذي به تمت بشرى البشائر لكل بدوي وحضري ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضية يتيمة عقد اللؤلؤ الفريد المنتمى إلى لؤي بن غالب جدّ الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرت سر الوجود ومبدأه الذي استمد منه الوجود وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول في خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوي هو لب الوجود الكوني ووجود حسي مادي حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولاه ما أُنْزِلَ القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رُوِيَتْ أحاديثه في كتب الصحاح الستة : صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ولولاه ما أُقِيْمَتْ قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السنّي على

(١) غالب جده صلى الله عليه وسلم .

(٢) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٨٩ .

(٣) ضاحية : مضية . اللأوى : نسبة إلى لؤي بن

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كلمه التى اعتدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الروم الأقوياء وملوك الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية^(١) :

ألا قد أقرُّ الكونُ أنَّ عمداً لكلِّ فروع الفضل أصلٌ مقدَّم
فمنه استفاد الحسنُ كلُّ يتيمةٍ من السُّرِّ بِكُساها غزالٌ منعم
ومنهُ استفاد الضوءُ وجهُ غزاةٍ جَنَى الضوءِ منها زَهرقانٌ ويزرَمُ^(٢)
ومنهُ استفاد الأقحوانُ نضارةً وحُسنَ جَمالٍ التفسرُ إذ يتَسَمُّ

وهو يقول إن الكون أقرُّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسن كل درة يتيمة فى عقد على لُبَّة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقحوان نضارته واستفاد كل ثمر لسيدة من جماله حين يتسَّم . وتكفى بما قدمنا من أمثلة المدح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

مولود^(٣) بن أحمد الجواد العقوبى

يقول الشنيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعره الفخر ، ويقول الشنيطى أيضا : « كان مدحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

لَزَكَيْ صَلَاةٍ وتَسْلِيمٍ على قمرٍ ياربُّ صَلُّ عليه دائما لُبِّدا
دينٌ حَنِيفٌ مَحَا الماحى به وعفا
تُت الذى لَزَلَفَ اللهَ الجِسانَ لمن
لو كان ذا الكونِ إِبْسَانًا لَكنتَ له
تُت السراجُ النسيرُ الَّذِ آثارُ به
بدرٍ به قد أثارَ اللهَ أَكُوْفَةً
ما حلُّ أَعْرَاضُ هذا الكونِ أَعِيَتَهُ^(٤)
آثارٌ مَنْ كانَ فى خُصْمٍ وأَدْبَاقِهِ
والى وأُبْرِزَ للعادِيه نيرَتَهُ^(٥)
طَرَفًا ولو كانَ طَرَفًا كُنتَ إِبْسَانَهُ^(٦)
نورُ السمواتِ والأرضينِ أَكُوْفَتَهُ

(١) لأعيان : المسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول والياض .
(٢) لَزَلَفَ : قَرَّبَ وقدم .
(٣) الطرف : العين . إِبْسَانُها : سوادها البصر .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .
(٢) الغزاة : الشمسى . الزهرقان : البدر . للرزم : نجم من نجوم المطر .
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنيطى ص ١٩٠ وما بعدها .

وهو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أنار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وينزهه بالإسلام وأنه دين حنيف بما به الماحى (من أسماء الرسول) آثار الخسران والذهبات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعدائه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه البصرة ، أو لو كان عينا لكان إسناتها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجة ، فهو منبع كل نور . ويقول :

| | |
|---|--|
| ما سُدُّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ | فاقرَعْ تجذِّ بابَ مولى الأنعمِ فَنُفِرْجَا |
| وارغَبْ إلى رُكِّ الأعلى ليجعلنا | مُنَّ على النهجِ نَهْجِ المصطفى دَرَجَا ^(١) |
| نهجِ الذى أنزل الله الكتاب هُدًى | لنا عليه ولم يجعل له عِوَجَا ^(٢) |
| منه استفادَ النُّبُوءُ النبوةَ إذ | مما له ما لهم منها قد اختلجَا ^(٣) |
| ألا طَهِرْتُ أَلَا بَقِيَ طَهِرْتُ إلى | مَنْ حُبُّهُ مع لَحْمِي والسُّدْمُ امتَرَجَا |
| مَنْ لِلنَّبِيِّنَ مَنْ لِلرُّسُلِ أَيْسَنَ لَهُم | مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ مَرَاجُ كَا عَرَجَا ^(٤) |

وهو يقول اقرع باب الرب الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا من سار على نهج المصطفى وكتابه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول مشتملا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معارجه الذى خصه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

محمد^(٥) بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عفتوانه فى العلوم وصرف همه إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلنا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطانها عبد الرحمن العلوى (١٨٣٤ - ١٨٥٩ م) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(٥) قطر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥١ وفى مواضع متقطعة .

(١) درج : شئ وسار .
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .
(٣) اختلج فى النفس : اضطربت به ، ومنه الخوارج .
(٤) قاب : قدر . عرج : صعد .

إنه توفي سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦ م ويذكر الشنيطي أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدحا بارعا للرسول ﷺ ، وفي إحدى مدائحه يقول :

وَجْهَتْ وَجْهِي إِلَى خَيْرِ الزَّرَى وَأَرَى
وَجْهَتْ وَجْهِي إِلَى مَعْنَى الْفَقِيرِ أَلَا
وَجْهَتْ وَجْهِي لَذِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَذِي
وَجْهَتْ وَجْهِي لِمُحَمَّدٍ الْمَقَامِ وَمَدَى
مِنْ آيِهِ وَكُنْفَى الْقُرْآنِ مُعْجَزَةً
يَكُنْكَ أَنْ إِلَهَ الْقَرَشْرِ مَرُورُهُ كَمَا يَشَاءُ وَمِنْهُ صَوْرُ الصُّورِ

ويدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها في طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهي إلى خير البشرية ، وفي ذلك فوزي وظفري بكل ما أطلب إذ وجهت وجهي إلى معنى الفقير روحيا ، وإلى لمن أنقر الفقراء إلى معرفته . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤتل عديم النظر ، صاحب المقام المحمود والمقصود في نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر في البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صورته الله فيها صورة رقيقة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صور الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقولوه فى مدحة مولدية :

إِنْسَانُ عَيْنِ الْكَوْنِ غُرَّةُ وَجْهِهِ
بَابُ إِلَهِهِ وَمُصْطَفَاهُ لَسَرُهُ
مِنْ خَصَّةِ بِحُلَى الْكَمَالِ إِلَهُهُ
يَا مَوْلَدَ الْهَادَى لَشَهْرِكَ نَفْحَةٌ
أَكْرَمَ بِمَوْلَدِ ذِي الْخِتَامِ يَوْمُهُ
حَاوَى التَّغَرُّدَ بِالْمَقَامِ الْأَرْفَعِ
وَسَرَّاجُ حُجَّتِهِ الَّذِي لَمْ يُفْشَعْ^(١)
وَالْكَوْنِ وَاقِعُ أَمْرِهِ لَمْ يَوْقِعْ
أَرْجَ الزَّمَانِ بِنَشْرِهَا الْمَتَضَوِّعِ^(٢)
وَبَشِيرُهُ وَبِعَامِهِ وَالْمَوْضِعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسان عين الكون وغرّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرته ومصطفاه لسره ورسالة وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبداً ، وقد خصه بالكمال الأسى قبل حدوث الكون وخلقته . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقة المحمدية الأزلية التى خلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

المتضوع : الشديد الراحة .

(١) فُشِعَ هنا : تنحسر أضواؤه .

(٢) أَرْجَ الزمان : تعطر . نشرها : شغلها الطيب .

يقول الشنيطي في ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر في اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى في البيان . وكان حرصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات متقطعا لطلب اللغة » ، ويُقدِّم الشنيطي له قصيدة في مدح الشيخ سيِّدًا حضًّا فيها على طلب العلم ومدارسته حضًّا شديداً ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيِّدًا عارض بها مقصورة أبي صفوان الأسدي وما تصور من حيوات الصحرى وطيرها وما تحمل من أفاظ بدوية أبدية مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، ويُقدِّم له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة في نحو مائة وثلاثين بيتا ، وهي نبوية رائعة ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طَه الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُحَمَّدٌ تَاجُ الْخَلَائِقِ سَيِّدُ الْأَبْرَارِ
أَصْلُ الْوُجُودِ وَخَلْقُهُ وَغَدَاةُ وَمُقِيسُ بَحْرِ الْجُودِ وَالْأَنْوَارِ
نُورُ السَّرَاجِ وَكُلُّ نَجْمٍ طَالِعٍ مِنْ نُورِهِ وَالشَّمْسُ وَالْأَقْمَارِ
وَالْحَوَاقِ وَالْوَلَدَانِ فِي غُرَفَاتِهَا وَالْدَّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَالْأَزْهَارِ
وَالْقَرْشِيُّ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَلْوَابُ وَالْأَبْصَارِ قَلَامُ الْأَنْفَهَامِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْمَسْكُ فِي فَارَاتِهِ وَالنَّدَى فِي أَحْقَاقِهِ وَالرُّوضُ ذِي الْأَنْوَارِ^(٢)

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذي لا ينحرف أبداً تاج الخلائق سيد النساك . وبأخذ ابن حنبل في ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينه وغلته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور في السراج وفي النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال في حور الجنان وغللتها وفي اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود في العالم العلوي من عرش وكرسي وألواح وأقلام وفي العالم السفلي من أنفهام وأبصار وهو طيب المسك في أوعيته وطيّب النَّدَى في حِقَاقِهِ وَشَدَا الْأَزْهَارِ فِي رَوْضِهَا الْمَوْقِ . ويستمر ابن حنبل في نفس الفكرة قائلا :

وَبِهِ نَجَا فِي الْفَلَكِ نُوحٌ وَأَهْلُهُ وَنَجَا الْخَلِيلُ مِنَ الْتِهَابِ النَّارِ
وَأَقَامَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ وَزَوْجُهُ وَبَنِيهِ قَبْلَ الْإِلَهِ مُتَبَهُ
وَبَنَاهَا فِي الْبَدَنِ وَنَحْلُهَا فِي الْبَدَنِ وَنَحْلُهَا فِي الْبَدَنِ وَنَحْلُهَا فِي الْبَدَنِ

(٢) غارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الغرار : يليس .

(١) انظر في ترجمة ابن حنبل الحسن وأسماءه الشنيطي ص ٣١١ والشعر والشعراء في موروثها ص ١٧٨ وفي مواضع مختلفة .

ونجا الذئبُ بذبذبه من بعد ما
وبه سَرَى موسى الكليمُ بقومه

فتحى عليه بهصاره بِسَارٍ
وبه انفلاقُ الخضرمِ الزخار^(١)

وهو يردُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسول إليه وكذلك كلُّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسل مستمد منه ، فيه نجا نوح ومن آمن به في الفلك من الفرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كرم آدم وزوجه بمقامهما في الجنة وأغواه إبليس فقبل الله يمينه توبته وأكرم ذريته في البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، ويمينه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الآخر فكان كل فرق كالجلج العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل لمن حبل في بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود في الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل يمينه وفضله . ويتحدث عن القرن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وأتي بكل مهيمٍ ما إن بقي
لُسُنُ المناطقِ منه بالمشار^(٢)

آيات عيسى والكليم بجنبه
كالطُلُ جنبَ مَزْمَرِ هَارٍ^(٣)

سَوَّرَ كَأَشْيَاءِ الرِّيَاضِ تَضَوَّعَتْ
بَشْدَا الْعَبِيرِ وَجَوْنَةُ الْعَطَارِ^(٤)

وتناسقت ألقاظها وتناست
آياتها كتاب القصار^(٥)

وطولها كقصارها وقصارها
كالدُرِّ يَمُرُّ في غُحُورِ جَوَارٍ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجلب معجزة القرآن الخارقة التي ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمنظر القليل بجلب السحاب المرعد الذي تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألقاظها متناسقة تناسق اللآلئ في القلادة البديعة ، وطولها مثل قصارها تشبه الدرر في غحور الجوارى الفاتنات .



الشعراء والشعر التعليمي

عرضنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن رقي الحياة العقلية حينذاك أدَّى إلى استحداث فن الشعر التعليمي ، وكان من السابقين إليه بُهَان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليلية ودمنة عن الفارسية إلى العربية في نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .

(٢) مهيم : قاهر معجز . لسُن المناطق : ألسنة البلغاء .

(٣) الطل : المنظر القليل . مزمر : سحاب ملء .

(٤) تَضَوَّعَتْ : فاحت . شدا : عطر . العير :

(٥) القصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظم مزدوجات أخرى في التاريخ والفقه . ومن حيث شاع هذا الفن الجديد في العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته في الأندلس والمغرب ، وتأخذ في الظهور بمورثتها في القرن الثاني عشر الهجري وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة في القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها في أواخر القرن الثاني عشر نظم المجتدي لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولا مهلسين مثل طاووس وناقوس^(١) . وثلثي بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٦ م وله في النحو نظم سماه الاحرار ذكر فيه من تسهيل لابن مالك ما لم يذكره في الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة^(٢) . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع في أصول المذهب المالكي للسبكي وسمى نظمه مراقي السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطي : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف في علم البيان نظمه « نور الأقاح » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتاح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبدع الدر الثمين ، ألقى فيه الفث وأخذ السمين ، وله في مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا^(٣) ولابنه محمد منظومة في الأفعال جمع فيها ما في التسهيل لابن مالك وما في لاميته وما في شرح بحرق اليماني للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوي بارع ، ويقول الشنقيطي معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به^(٤) . ولعبد الله بن أحمد الغلاوي معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه في العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات^(٥) متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، أشد الشنقيطي من فاتحتها قوله :

ولم أكن جَذَلًا هذا الفنُ وما على كَوْنَةٍ لأنِّي^(٦)
شَغَلْتُ بالنَّحو والبيانُ و (إنَّ هذان لساخران)

ويذكر الشنقيطي أنه نظم متنا في الفقه لعبد الرحمن الأخصري الجزائري صاحب متن السلم المشهور في المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإله الشنقيطُ يشتري بعقده المنظوم نَيْرَ الأخصري

وقال إنه نظم أيضا متن الخرجية في العروض ، واستهل نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجِي مسائل العلوم بالتدرِجِ

(٥) انظر ترجمة الغلاوي عند الشنقيطي ص ٩١

وما بعدها.

(٦) جذيل : خبير .

(١) الشنقيطي ص ٢١٥ .

(٢) الشنقيطي ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) الشنقيطي ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) الشنقيطي ص ٨٣ .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطي إنه همّ بنظم مختصر خليل في الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف^(١) .

وللتجني بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة في أزواج النبي ﷺ وأولادهن منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطي شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجويني إمام الحرمين في علم الأصول^(٢) . واشتهر أحمد البدوي المجلسي بمنظومتين^(٣) : منظومة في أَسْباب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمداً لمن رفع صيتَ العربِ وعصمهم بين الأنام بالنبي

والمنظومة الثانية في غزوات الرسول ﷺ ، ويهوه الشنقيطي بجودة نظمها وثمها تدل على تبحره في السيرة النبوية ، افصحها بقوله :

حمداً لمن أرسل خيرَ مرسلٍ لخير أمةٍ بخير الملل

وأفضل الصلاة والسلام على ألباب صفوة الأنام

وتُشد له الشنقيطي قطعتين في غزوة الخندق وغزوة حنين . ومن أكثروا من الشعر التعليمي في النحو عبد^(٤) للودود بن عبد آل من نحاة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وشعرائه ، وله مقطوعة في مد المقصور استهلها بقوله :

ومدٌ مقصورٌ خلفه اشتَهَرُ وفَصْلُ الفَرَاةِ تفصيلاً بهَرُ

ومضى في المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطي : « له قصيدة غزلية في المصادر الثرية ، وما ترك مسألة عويصة في النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن أَلْمَا ، يقول الشنقيطي : توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة في النحو^(٥) ، ومثلها الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريباً من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنقيطي : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كبه بالحمرة لا لبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه في مسائل نحوية^(٦) .

(١) الشنقيطي ص ٩٢ .

(٢) الشنقيطي ص ٧٠ .

(٣) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٥٠ .

(٤) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٧٤ .

(٥) الشنقيطي ص ٢٣٩ .

(٦) الشنقيطي ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

القسم الرابع

السودان

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

السودان جنوبي مصر في القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبي نهر النيل من وادي حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهي مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولاً وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضاً . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوض نهر السوبات وبحر الغزال ، والسودان الجنوبي الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبي لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعاً .

والصحراء تطل على جانبي النيل في السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما في السودان الأوسط جنوبي الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهول ، ويمتد السهل شرقاً حتى مرتفعات الحبشة وجنوباً شاملاً السودان الجنوبي حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملاً ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففي شرفه حتى تلال الحبشة سهل طسمى خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثالثة ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتوجد فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة في دارفور وما ورله وأيضاً حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراعى واسعة يتجول فيه أهله صيفاً وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويوزعون في بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفي الشرق الاقليم بين حوضي النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

للدكتور إبراهيم رزقة ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في جغرافية السودان كتاب السودان وادى

النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراعى واسعة ومناطق زراعية على شواطئ النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطئ النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجة وتكثر فيه المراعى وبميش سكاته على الرحلة وراء أعنامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر فى الصيف يسقط فى الداخل ، ويزداد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشارين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل المشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والمشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، ولبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السيلط وبحر الزوال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، وينحول فى الجنوب إلى مستنقعات تغطيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل النحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الزوال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب النحدرة مياهه شرقا إلى بحر الزوال . وتجربى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكنتها قراهم ويرعون أعنامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . ويجلب الزراعة أحيانا والمراعى بصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠ °م ويزيد الجو الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالمهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحر شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

التاريخ

(أ) السودان في العصور القديمة

يرتبط السودان في تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حفاظ تلك الأسرات على الأمن في جنوبى مصر وعلى طريق التجارة . وفى أخبار الأسرة الرابعة أن سفروقام بحملة فى الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات فى عهد الدولة الوسطى بفرض السيطرة على أرض النوبة فى الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع فى عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسببت الأراضى المحتلة إلى ذلك الشلال - منذ ذلك الحين - باسم أراضى النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصَرَّت تماما فى عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطولبع الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة فى أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائباً للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطرودون منها ، ويسمى حكمهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حيثش ثلاث دول نوبية : الأولى فى الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية فى الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبى الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى علوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية للمسيحيين فى مصر فرُّ كثيرون من معتقى المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحى واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية فى روما دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت فى نوباديا البعثات التبشيرية ، ومن اشتهروا بهذا النشاط التبشيرى تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحى كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحى فى عهد الإمبراطور جوستيان (٥١٧ - ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد الفئاتين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهرها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برئاسة جوليان ، ووصلت

والحديث لنوم شقر والسودان فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تاريخ السودان بالصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة (نشر وتوزيع دار الثقافة بسبوت) وانظر تاريخ السودان القديم

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهازها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة في مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستنيان ، وتوفي جوليان فعين مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجينيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة في الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر في طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها في المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبعين في المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت في التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك في التنصر تدريجا على مذهبها يعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبعين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت في مملكة المقرة ولم يمد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبل الإسلام أو بعده بقليل .

(ب) السودان^(١) في العصور الإسلامية

ذكرنا في حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لغنائم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تنزل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القاطنين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصل فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذكرنا وإنا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية في مصر بمملكة مقرة النوبة قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجة السودانية تنزل في الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى ذهلك (مصوع) وقامت بغارات على أسوان في عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأمل عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم - قبل هذا التاريخ فيما يبدو - قبائل أو بعبارة أدق جماعات

عبد المجيد عابدين (طبع جامعة الخرطوم) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسد وكتاب الرمية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقرئى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيبة ص ٢٥ وما سبقهما وكتاب دراسات سودانية للدكتور

من قبيلتي بليّ وجُهينة للرعى وللنجارة ولإستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أبدي العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويوزر بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة نعى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري واشترك فيها كثير من قبيلتي ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقرئى أن ابن طولون جند من التوئين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولابد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم . وبدون ريب هبّا نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويوزر بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسواقى ، ويروى المقرئى عنه أن المسلمين هناك معززون وفى حالة استقرار وأن كثيرين من التوئين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى - بتشجيع منها - خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة - فى العهد الفاطمى - مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كثر الدولة وعُرف قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أبدي الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثمر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحول الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م أغار التوئيون على ميناء عيذاب ونهبوا مناجمه وقلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكندة متظلما منه ، وانتهاز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشاً مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماسته وهرب ، وتوج شكندة (إسكندر) ملكاً على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكندة سنة ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمامون ملكاً على مقرة ونائباً لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمامون لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيدير والى قوص ، وهُزم سمامون وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيدير .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمامون الملك الجديد نائب قلاوون وأيدير إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمامون سنة ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففر سمامون أمامه متوغلاً فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنُصِّبَ ابن أخته بدنقلة ملكاً على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمامون ثانياً إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهداً له بأداء كل الالتزامات ، وقبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمامون عن أدائه الجزية والضرائب ، وجهاز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونُصِّبَ مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نائباً له فى دنقلة وملكاً مسلماً عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونُصِّبَ شيخ ربيعة نفسه ملكاً على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جداً . وتلك حسنة واضحة لاحتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضي النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائياً على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلطين المماليك بولائه ، وحين كان يهوى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويُقرُّ إلى الأبواب كان كثيراً ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية ، إذ قُطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مقرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلهم عدديا على سكتها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحي منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثني .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومرُّ بنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطيين بقيادة أبي بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلُّفه به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكنم ، وكان ملوك الكنم من الطوارق الملثمين المسلمين وكنوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يسيطروا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداي ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجمادنة والحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداي بين سنتي ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطته الكنم بجانب واداي وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م - ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر - كما رأينا - بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

(ج) دولة الفونج^(١)

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

القديم والمحدث لعم شفر وكتاب قتال من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبة وقام الفونج .

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كتاب الشونة فى تاريخ السلطة النارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة وانظر تاريخ السودان

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقول إنهم من إقليم الرنو دخلوا السودان من غربه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالي النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم يسيرون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكانهم تغفلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهة وشيخ قبائل البدلأب ، وكان يسود المنطقة من التفاه النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة واتصرا عليها انتصارا حاسما ، وغرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذلوا فى سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م وأقاموا فيها حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يفتح العثمانيين بآته ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أواخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعداها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا (حاكما) معلوما وقنن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبنا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يعنى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ/ ١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدث فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والمبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وهزم جيشه وغرت أسرته من عاصمته « قرى » إلى دنقلة ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرياب عند عدلان وداى فأقام المجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك هادى سيد القوم

وخلفه الملك رباط وفى عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٧١٨ م اكتفت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/ ١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والمهم المالية ، وقد غزا النيل الأبيض وقتك بسكاته المعروفين بالشوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تبلىا لملكة الفونج . وبنى بمصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهري وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جلتُ عن القَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونس ود ناصر ، وفى عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمال السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلأب وبالتالي عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى القروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجب أمير العبدلأب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكي وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيي سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشعب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/ ١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش منجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إلهم وأتباعهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدا فلما بلغته الخزيمة أثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك فقرح بنصرة الإسلام والدين . » ولم يحاول الأحمش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءا شديدا وغير كثيرا من القوانين واستعان بأهل التوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبا شديدا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفوننج - منذ هذا التاريخ - ألعوبة فى أبهى الوزرء من الحمج ، وكانوا جماعة أو قبىلا واضحا فى سائر : وكان منهم الوزرء الأول لى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشىخ محمد أبو لكىلك ، أما جماعته وهم الحمج فىقال إىهم من الجملىن الذىن كانوا ينزلون شمالى قىاتل العىلاب ، وفىقال بل هم من أهل النوبة الذىن أسكنهم الملك لى بى دفن فى قرى حول سائر وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى اتحد منه الشىخ محمد أبو لكىلك يرجع إلى جعل ، تزوج من نساء الأبواب . وقد مكته مجموعة أنواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتلبيره . وعزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعىل ، وتوفى الشىخ محمد أبو لكىلك وتولى المشىخة لى ود رجب ، وبدأ التنافس سرىعا فى جماعة الحمج ، إذ أخذ غير واحد يستمن بمجموعته أو عشيرته لىستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلىة فى الدولة إلى أن دخلت جىوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعىل كامل .

٤

محمد على والسودان - عهد إسماعىل

(أ) محمد على^(١) والسودان

تزوج بعض المفرىبات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شىباه من الإخلاص والطاعة وشلة البأس ، فمضى لو أتىحت لجيشه كىبه أو كىاب سودانىة بدلا ممن فىه من الترك والأرنتوط والألبان . ومن أهم المفرىبات أن الممالىك الذىن اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبحة القلعة المشهورة فر كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكونوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ، فرأى أن يطمعهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاطوغل بتجهىز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرنتوط والألبان وعربان البوادرى ، ورحل الجيش إلى حلفا وعىن محمد على ابنه الثالث إسماعىل كامل قائدا له وعىن معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قىاتل الشابقىة تسليم خىولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إىهم يدفعون ضرىة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خىولهم وأسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعىل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولت وجوهها

الرائى ، وتارىخ السودان القديم والحديث لتوم شقر ، ودائرة المعارف الإسلامىة .

(١) فطر سخطوطه كىاب الشرة : تارىخ السلطة السىارىة والإدارة للصرىة ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شىكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن

إلى مدينة شدى وفيها سلموا له ، وطمعهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المالك قد تسحبوا إلى شدى وأثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلم له الشايقة وحكام دنقلة وبربر وشدى والجليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقر أم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير البدلاب وسلم له فى أوائل رمضان سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقبه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقبه ملك الفونج فأنته وكساه ودخل مدينة سنار فى الثانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدت للإسلام والعروة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعد حملة بقيادة محمد بك الدفردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليعُدّ العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فغضبوا غضبا شديدا فاضطر إلى تخفيضها . وأحس بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدنى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل - بعد غيابه عن القاهرة مدة ستين - أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنصر ملك شدى والجليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م . وأعقب ذلك حملات انتقامية للدفردار قتل فيها آلاف غير من أميروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التتكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقة للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فر إلى الحبشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقي وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ورعى خورشيد إلى رتبة الميرمران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذي أنقذهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصبب ذلك على الأهالي جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تمدى المساكر على الفلاحين في تسخيرهم في الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالي وزادت العمارة وكثر الخير ونحسبت الأراضي ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة في نفسها » . وتوفي أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد علي تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأساً إلى مصر ، ويتعاون المديرون في المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائي مصوع وسواكن إلى السودان وأجابه إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين في الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون في الطريق أو في معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قومية وتحسين الري والزراعة وزيادة الإنتاج الحيواني وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواني وحفر الترغ .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد علي سنة ١٨٤٨ وفي عهده أنشئت القنصليات في الخرطوم ، ومع أنه أغلق في مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة في السودان وعين رفاعة الطهطاوي ناظراً لها . غير أن سعيداً حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفي عهده أبطلت تجارة الرقيق السوداني نهائياً وزار السودان وأمر بإصلاح الأدلة الحكومية في جمع الضرائب وخففها ، ورأى أن تبقى كاتيب الجند في السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق في منازلهم .

(ب) عهد إسماعيل^(١) (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م)

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدي حاكماً للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك الناصر السوداني في الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسار وظل في وظيفته إلى أن توفي بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانيين الإداريين ، وطلبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران في السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وتفتت في السودان

(١) تقرر في السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر

القرن لمكي شبكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعي

زمن حكمدارية موسى حدى خمس مدارس فى عواصم المديرات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بمآجتها من الكتاب والمحاسين وعمال التفراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإفناق على المساجد وكتائب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جمفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الزغال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الزغال وعين الزبير السودانى مدبرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٤ م وفر مشايخهم إلى سلطان دارفور فنزله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الاستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزين أحدهما مكشف مهم هو صموئيل بيكر مكشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والثلى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٩ م بسمية ول عهد المملكة الإنجليزية ، فترف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الاستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بكير وحرر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الاستواء ظانا أنه سيخدم مضر ، وأسر صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجمل منطقة خط الاستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصب عينية تأليب السودانيين على مصر والمصريين ، وقفت الحملة ثمانمائة ألف من الجنهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مطنونا ، وكل ما جته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث معطات هناك فى غندوكرو وفاتيكرو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستاة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل لينمم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الاستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحس بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقمه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده . وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٥ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنى ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعالي النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطة حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٧ م بمحضور وزيره شريف باشا ويحببه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكامداراً عاماً على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكمدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانين وفكر فى الاستعانة بإتجليز وأرويين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وإن ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل منتعماً بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدماً فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحياتية وازدهاراً فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

٥

حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي

(أ) حركة (١) المهدي

المهدي هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجاراً فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوباً ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمال أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخاً صوفياً من أتباع الطريقة السملية وعنه تلقن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

عهد الاحتلال لهد الرحمن الرامى ومآثره المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تلك الحركة كتلى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شفيق ومصر والسودان فى أوتل

واقصر في كهف بها على شاطئ النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفي الشيخ محمد شريف إذ وجده يحتفل في ختان أحد أبنائه بصور من اللوح لم يَشْفِهَا تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقتة السمانية جدد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدي المتظر الذي بشر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيلازمه ، وأخذ مريده من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدي أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعد على التحصن ضد القوة الكبيرة التي سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة نقل في كردفان ونزل في جبل قدير واستقر به ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رؤوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان الرلييون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلبي ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدي سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م في مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه في الجزيرة ولكن الحكومة أخذت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلبي المدعو . وفي سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولي الله ».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندي بقيادة هكس باشا الإنجليزي وهاجمت المهدي في الأبيض وأبيدت لمادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدي غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تغد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدي وأخذ النساء في الأفراح وفي أعمالهن من احتطاب وغيره يتفنن بالمهدي ومناقبه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفي ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدي الضابط المساوي سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصر شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال في أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة في إنجلترا أن غوردون هو الذي يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظلالا أنه يتمتع بشخصية شعبية في السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التي أشعلها المهدي في نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل نوا إلى المهدي خطبا يمينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيع تجارة الرقيق ، وأنجاه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالاً ذاتياً تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدأ أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأُرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدي الأنصار أو المهديين ، وأُرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدى فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدى يمد جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقاءُ ثباتٌ والموتُ فى شأنِ الإلهِ حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طاية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدى فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقناً للدماء . وبلغ المهدى أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت التمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وتكوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدى حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أساساً واضحة ستحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والانتهال والانكسار واتسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقاتك » .

(ب) عبد الله التعايشى^(١) خليفة المهدى

استخلف المهدى - وهو مختصر - عبد الله التعايشى يده المني فى دعوته ، ونقل عاصته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدى مبكراً وهو لا يزال فى جزيرة لها وبابه ، وأخذ المهدى يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبع أن يعمد إليه بخلافه ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعلين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدي أسرة المهدى وسُموا الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضياً للحكم بين الناس

وتاريخ السودان القديم والحديث لحرم شقر ومصر
والسودان فى أوقات عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافى .

(١) انظر فى التعايشى وخلافه للمهدى كتاب السودان
عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة

بموجب الكاب والسنة ، وقسم السودان إلى عملات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكماً ، يسيطر على الجيش والإدارة ومع كل حاكم عدد من الموظفين يساعدونه فى أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميتهما من ميناء مصوع فاحتلها الإيطاليون واحتلوا أيضاً إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشى وعين على مدينة القلايات عاملاً ناولاً الأحباش وقتل فى إحدى المعارك ، وبمسل إليها قائده لبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندي لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومضى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قنطرة (غوندار) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الزغال دون حاكم يشرف على شؤنه ، وبالتل حديرية خط الاستواء وكانت سقطت فى أيدي أتباع المهدي سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمتها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يفصل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلايات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتفوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح فى المعركة جرحاً مميتاً واتسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والحوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية فى الأنصار إلى الذروة . وصمم التعايشى على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وأعد لذلك فى نفس السنة جيشاً بقيادة عبد الرحمن النجوى ، وهو من الجميلين ، وسار إلى الشمال متوجهاً إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أقرلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائياً . وفى السنة نفسها انتشرت فى السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشى يحاط بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشى قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية فى الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة فى طاعته ، وكان ذلك تعويضاً له عن خسائره فى الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقة قائد التعايشى بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد منليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأزول الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشى من خطر الطليان . غير أن خطراً أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد روى إنشاء خط حديدي من وادى حلفا إلى مدينة أمى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/ ١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرت الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى نوى حرد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كشنر بالجيش واتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التمايش إلى الغرب يريد أن يحتسى به ، وظل أشهراً بعدة للقاء كشنر ثلثة ورفع كشنر العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التمايش وبين بعض متعقبه من جند كشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

الحكم^(١) الثانى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثانى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢ شمالا حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولنشوراته حكم القنون ولا يسمح لتثثيل تقصى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن المحاكم العام يكون إنجليزيا وترشده الحكومة الإنجليزية ، ومنح سلطات كبيرة تجعله حاكما مستقلا . ورأى كرومر أن تكون مناصب المدبرين والمنفذين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والأموريات . وربما كتلت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعين كشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثقوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وانتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأُنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تُعين السودان ماليا حتى سنة ١٩٥٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية والتعليم

والسودان أوائل عهد الاحتلال للرسمى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) نظر السودان عبر القرون للذكور مكي شيكة وتاريخ السودان للقدم الحديث لعوم شفيق رولبع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كشنر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م ، وقُشىء - حسب الاتفاقية الثانية - مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعُنى الحكم للتقنى بالمواصلات والبرق (التلغراف) ومُدّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وقُشىء خط ملاحية نهزى من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدرامة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجُرّبت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأُسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ، وأُنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفء ، وأُنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخدم ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائيا ويصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد - بحق - بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

الفضل الثاني

المجتمع السوداني - الثقافة

١

المجمع^(١) السوداني

رأينا في الفصل الماضي كيف أن الإسلام أخذ ينتشر في السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكبيرة التي نزلت في حوض النيل جنوبى حلفا وفي شرقيه بقبائل البجة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة في الدين الحنيف وقامت في دفلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبى دفلة بالكيسة يعقوبية في الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره في غربى السودان أسرع بفضل كثرة من نزل من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأبضا بفضل تجار البرنو والكتم ، وتكونت سريعا في دارفور ووادى مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجرى .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا في مملكة علوة وفي جبال النوبة وعلى شاطئ النيل الأبيض وفي جنوبى السواط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتأسس سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م دولة الفونج الإسلامية في مدينة سنار على النيل الأزرق وتنتشر سلطاتها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة نقي في جبال النوبة .

(أ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه في الانتشار بأنعامها وكان أول من حاول نشره في ديارها الشيخ تاج الدين البهارى البندادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان في أثناء حجه ، وأتته بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى الحسينى نسب المتوفى ببغداد

محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحدث لنوم شفيح والثرية في السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة ومنشورات المهدى .

(١) انظر في المجمع السودانى كتاب الطغفات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها في تملك الوحدة القومية في السودان المعاصر للدكتور

سنة ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والفتنة لطالبي الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م أشاعتها بغداد في العالم العربي ، ويقول ابن تفرى بردى عن الجيلاني إنه « أحد المشايخ الذين طُنَّ ذكرهم في الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ/ ١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادق فى إقليم سوكنى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب المتجلكل جد المبدلأب وعبد الله دفع الله المركي جد العركين وبان النقا الضرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهاري قلَّده شعار الرئاسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورثوها أبناءهم ، وارثال الشيخ البهاري إلى تولى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترملى مع جماعته . وترعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السملية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزل أحد أتباعها المغاربة - وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعائها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ/ ١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لما الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ/ ١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمال الخرطوم وسُميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشرعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخلفاءات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيون يأخذون طريقتهما الصوفية عن حجلزين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

أتمنا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد
 الشبكاوى نسبة إلى تمسكه على النجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ،
 والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش
 الأحمر ، ويصمّم باليشان الفاخرة ، ويتخير بالموء المندى ويمطر ، ويجعل الزباد الحبشى فى
 لحيته ويأليه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريفته فمى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ،
 فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجيب والمرقمات فقال : ثلبى تقول للخلق : أنا غنية
 عنكم ، وليهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج (٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م - ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م) النزعة
 الصوفية كل أئمة السودان ، وبحق ما لاحظته الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية
 فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى ولها
 « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء
 من يعتقد أن علم الظاهر لا بد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم
 الحقيقى » وما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله المركبى فقه
 بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غلبة الملاية وشرع فى التدريس وذاع
 صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريفته القادرية الصوفية ،
 فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكاتبة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى
 الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فاسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن
 ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى
 الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دنع الله المركبى
 وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة
 أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ فمى القاسم الوديانلى
 أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله
 ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرأ على علمائها مختصر
 خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويكرر ود
 ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذلك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

وما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يتفنون حولهم
 التفان لم يله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسبا لذوى
 السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة
 فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صورا متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لاتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حيثذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقره (أتباع المتصوفة) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذوروى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويطلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعته . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هية شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهية فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قبل أن أكبر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضرته كانوا كالأطفال من هيته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سائر مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعته وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم وينثونهم كلما ألت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أنواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته ولتتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يئلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يئلب أن يئلف به كثير من الأتباع ، ويأته الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية الميلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فج سودانى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة أهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شئت إليه الرجال وضرت إليه لباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

واقليم النكا في شرقى السودان ، وحطى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضل يتخذ مركز دعوته فى الحلفاية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مرديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزاً لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما هما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايبة ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرئ فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مرديه من موطنه إلى موطن آخر لبث دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض دوى شمالى الخرطوم إلى غلة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

(ب) المرأة ومكاتها فى التصوف

لم نعرض - حتى الآن - للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكافة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى التزمية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنها يتسب إلى خاله بقول المقرئى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شامعا فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرث وكانت هى المشولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمرم من أن النساء اللاتى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كن أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

غرلة ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جبهة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تخضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة - كما يقول ود ضيف الله - فتشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يستمن إليه مثل الرجال .

(ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « وِرد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفتين متقابلين ومنشد أو منشدة بنشدان أشعارا تزيد الذكر حاسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلث فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصل له المنهج الذى يبنى أن يتقيد به ولا يمدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمرهم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والمُعْجَب ، ولا يسمى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المختصين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنّها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته - أو من تعهد له بزواجها - من فاسق أو آثم كالحلاف بالطلاق والمغتصب وآكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بنقض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال منسوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رُمى بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تلبه بمواصلة ذرى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جبرته شكر الله وعبد الكافى والفقيه محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : اتقلوا الجبل فليتهم ينقلونه . »

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملاً لتدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قديمة . وحقا لم تكن كل المهود تشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مرادها بسلوك ديني قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقي واجتماعي سديد في العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنسباء والنفباء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا في الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغنيات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشئ كن فيكون والكبرى درجة القطلية » . وهي شعوعة ، وقد تكون قولاً نسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله في حديثه عن الصوفية ذكر الملائية ، وهي فرقة صوفية خراسانية كانت تستر - في زعمها - بفعل أشياء تنقض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف . وهي فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من احتق مبادئ هذه الفرقة بسوى محمد المصميم الذى زاد في زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين ، وهو لا يعد بذلك من الملائية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذكر عن إسماعيل صاحب الريلة من أنه كان من الملائية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادئ هذه الفرقة في التصوف السوداني وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قديمة .

(د) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج في الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا في الفصل الماضى ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السوداني وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعائها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مر بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقي . واشتهرت بمكة حيث نشأ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتم له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت في السودان الطريقة السمانية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزّلوا في السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر في السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكون حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسمت لكثير من القبايل عملت على إضمااف العصيات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التي ربطت بقوة بين أفراد الشعب السوداني من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقي من جيوب وثنية بالسودان في جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنسب إلى شيخ واحد كقرية المليفون التي كانت تنسب إلى إدريس ود الأرياب ، وقد نزّها وسكنها لعهد سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادي النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هي مدينة الدامر التي دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مرابطه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المرابدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية في زمن دولة الفونج وانتشارها في السودان من حينئذ عمل على إضمااف ما كان به من عصيات قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هي وحدها التي تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت -طويلا- من عوامل الألفة والوحدة .

(هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدي محمد بن عبد الله في جزيرة بُا في النيل الأبيض كما مر بنا في الفصل الماضي وأخذ يكتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدي المنتظر والثف الناس حوله واتسمت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة قهرها ، وترك جزيرة بُا ونزل في جبل قدير بمنطقة تغل ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة قفّض عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلال ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣ م وتعظم شأنه وكرت أنصاره وجاءه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزي لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأبديت لقيادة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور في نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده في أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفي في شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نثين مبادئ دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادئ التي دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد في متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك في بيعة كل صباح له ، إذ يقول في بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويشرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاحتذاء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء ولبنائهم فصار شغلهم - عن الإنابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين - بالجاه والمال والمز والتناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتتروا بنور الحق لأن القلب صار محتلا بهذه الفانيات فلا عمل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخميس » .

والمبدأ الثاني في دعوة المهدي العمل بالدين والشرعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص في عبادته يقول في منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامتثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كالإدين تفصل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادئ دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامي كبير ، ويصرّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنا قصدنا منكم المعاونة في تقويم الدين ، وإني - في ذلك - كواحد منكم » . والمهدي - بذلك - كان يريد أن ينشئ مجتمعاً إسلامياً جديداً على أساس قويم من الدين ، وكان ثورته كانت ثورة إصلاح ديني لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامي إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة في الدين التي هي - في رأى المهدي - أقوى من الأخوة في الأيوين . ولم يقم المهدي في دعوته أي اعتبار لشئ سوى الدين الخفيف ، فلا اعتبار لزرعة قومية ولا لزرعة عصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بقولكم وتفترسهم في قدرة خالفكم .. علمتم أن مخالفتهم شنيعة ، ولا يتبني لكم إلا امتثال أمره واجتباب نهيه والهروب منه إليه .. فهيا إلى ذلك فإن أسلمتم فلکم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونون من ضمن أنصارنا » . فالمدار في دولة المهدي إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربي وغير عربي ولا بين سوداني وأوروبي . وما يدل على أن الأساس الديني في الدعوة كان كل شيء ما يقوله نعم شقير في الجزء الثالث من كتبه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدي جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم في دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهديّة ، وهم بُكّاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزرّوه في جزيرة أبا في النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو في جبل قدير بتقل ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه في الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم في اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث في دعوة المهدي هو الأخذ بالبساطة في الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركي والأوربي في الحياة المادية الحضارية لأهل السودان في العادات والمأكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق في وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوي ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع في دعوة المهدي نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة في السودان ، وبذلك حلّ كل الطرق الصوفية بيلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع يتمون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقبوت ، كل يزعم أن طريقته هي طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الأخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد في السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدي وما وضعه لها من مبادئ .

ومبدأ خامس في دعوة المهدي هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة في فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحال هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يفرق المسلم في لججها وخضمتها الزاخر ، ولا يكاد يبين نور الدين ، إذ حجّجوا عنه الكتاب والسنة ، وزجّجوا به في هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهدى جديد في الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ في دعوة المهدي أنّه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعمل ، ولم يلبث خليفته يوسف بن عبد المؤمن ولبنه يعقوب أن أحرقا أحلاما من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدي إلى الهجرة إلى المواضع التي اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمّى أتباعه بالأنصار اقتداء بسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

وبذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التي سنّها المهدي في المجتمع السوداني ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزاني والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجية والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات وثوين للبر وخمسة ريالات وثوين للثيب ، وجعل وليمة العرس طبقاً من اللبن وآخر من البلع ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه في يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّرَ له أن يتوفى سريعاً في سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يوافق انتصاره الكبير ولا دعوته طويلاً ، ولم يكن لخليفته التعايشي علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كشنر حملة مصرية في أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشي سنة ١٨٩٨ وقام في السودان حكم ثنائي مصري إنجليزي ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدي بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدي إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

٣

الثقافة^(١)

(أ) كتابات - زوايا - مساجد

عرفت السودان مبكرة الكتاب كما عرفت الأقاليم الإسلامية المختلفة في كل قرية ومدينة وتجمع بدوى للمسلمين وقبائلهم التي نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتابات تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذي يمد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويتردد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبي سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبب يكتب به واجبه اليومي ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءاً مما حفظ من القرآن لتثبته في ذهنه .

عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنور شفيق
والسودان عبر القرون لمكي شيكبة وروائع الألباب
المصرية لرفاعة الطهطاوي .

(١) انظر في الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله
وكتاب الثرية في السودان لمبد العزيز عبد المجيد
وتاريخ الثقافة العربية في السودان لمبد للمجيد عابدين
والثقافة العربية في السودان المعاصر لحمد فوزي مصطفى

ويجلب الكتاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتائب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهى أيضا لحفظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كُتُبا ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتائب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابه وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كتبت تُشغَلُ نهارا برعى الغنم والبقرة .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنايته على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينص عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولابد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولصق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عالمه ومدرسه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والوفاء كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ - أو أحد طلابه - فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أُرُخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م فى كتبه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يملنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السوڤتئين الڤين ڤرسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمڤينة .

وكانت الطرقة المتبعة لتخريج الطالب إڤنً شيوخه له برواية ما سمعه منه ، وقڤ يكسب إجازة له فى نهاية المصنف الڤى أڤن له بروايته ، وقڤ يفردھا ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق وڤ ضيف الله صورة إجازة منحھا الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السوڤانى كسبھا بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صل الله عليه وسلم : « قرأ على الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكبلى نسا البربرى بلڤا عقڤتى التى ألفتھا فى أصول الدين والتصوف وشرحھا قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتغنيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقڤ استخرت الله وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسأى من الدعاء بسمادة الدارين .. وكسب فى آخر ڤى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . وعلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزین بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى البڤلاب وولاة علوة يندقون على العلماء . ووثق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هڤايا ، واشتهر الملك باڤى الأول (١٠١٩ هـ / ١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ / ١٦١٦) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هڤايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مڤيح متعددة ، أنشد منها نعوم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السوڤان القڤيم والحڤيث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجیما لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسوڤتئين عامة حبب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المڤينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(ج) سوڤانيون أزهریون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لمعهد دولة الفونج سوڤانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقأى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول وڤ ضيف الله إته اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون المدّة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثاني حتى توفّي عذتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

ومن تخرج فى الأزهر أولاد جابر الأريّة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكي البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكي فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكي ، ويقول ود ضيف الله أنّه أول من درّس مختصر خليل ببلاد الفونج وشدّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخا للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهلاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقتة يلفنون - كما يقول ود ضيف الله - ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . ومن تلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حمونو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنّه كان يقول : محمد يصلح للتدرّس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للتتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . ومن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنّه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عني بأن ينهل من حلقات شيوخ العريّة الأزهرين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه - كما يقول ود ضيف الله - علوم النحو واللغة والمنطق ، وتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العريّة والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته - كما يقول ود ضيف الله - فى النحو والصرف والماتى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقمى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام ومن ندب نفسه لهذه المهمة - كما يقول ود ضيف الله - محمد بن على بن قدم الكيمائى تلميذ الخطيب الشريينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى

أن توفي بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقه الشافعي من مثل الشيخ عبد الله المركي والقاضي دشين الشافعي وإبراهيم بن عبودي الذي اشتهر ببراعته في تدريسه لعلم الفرائض أو الموارث وفيه ألف حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقه المذهب الشافعي أن يعم في السودان ، إنما الذي عم فيه فقه المذهب المالكي للفقهاء المالكية الذين ذكروا أنهم ممن تلقوا المذهب عن أئمتهم في مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكلم والبرنو وغيرهما ومن البين والتونسين والمغاربة في حجهم وتجارنتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكي هو الذي شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهرين الذين رحلوا إلى السودان في عصر الفونج الشيخ محمد الفتاوى تلميذ الزرقاني الإمام المالكي الكبير استوطن مدينة بربر في ديار الشايقية في الشمال ثم جزيرة سنار في الجنوب لأوائل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، وبنى فيها مسجده ودرس فيه رسالة ابن أبي زيد الفقيه القيرواني والعقائد (في التوحيد) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به في عفة ونزاهة ، ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوي نزيل مدينة شندی جنوبى مدينتي بربر وعطيره ، وفيها درس في الفقه المالكي رسالة ابن أبي زيد القيرواني مثل جده ، ودرس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع في حلقة طلاب كثيرون . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشغل بتدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، كما كان يشغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقاني على مختصر خليل وباتل شرح الشبرخيتي المالكي على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر في الشيخ محمد المصرى الذى عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسى الجزائرى التوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م ألف في علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال في مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا في الجزائر وحدها بل في بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامى . وكان الشيخ محمد المصرى يدرس علم التوحيد للشباب السودانى من خلال هذه الأعمال ويفيض في شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتباً شتأها أن تكسب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسى ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسى قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى في عصر السنوسى ألف في العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمداً المصرى يشرحها أيضاً - كما يقول ود ضيف الله -

ويشرح الأجرومية فى النحو . وتلميذه الشيخ مكى النحوى الرهاطلى شرحان على السنوسية :
كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودائين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجي الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يحاثل أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودائين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، ومن نزل من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفاً ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودائى يسمى عمار بن شامى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلاً لتعرف ما الذى كتبت يدروسونه للطلاب فيما عدا التلمسى ، إذ يقول إنه درّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيبه . ونظن ظناً أن التلمسى كان أحد من أشاعوا قرلة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكاتم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودائين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعل المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأرياء والصالحين والعلماء والشعر فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه - كما ذكرنا - لنحو مائتين وخمسين صوفياً وعالمًا وشاعراً فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . وعلى هذا المؤرخ وكتبه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة - والمراد بالشونة مخزن الغلال - وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويدور وأنه كان موظفاً فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار ولإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيبه وقرلته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحوالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السوڤاتين شعب متدين ويعتق مناهج كثر من الطرق الصوفية ، فشجع أصحابها الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسوطى الحنفى والشيخ أحمد البقل الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شؤنه ، وحتى لا يُجبر معتق مذهب (فقهى) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السوڤاتين ورثت لرواق السنارين جراءة أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأنشئ رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أنشئ الجامع العتيق بالخرطوم ، وأريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرس فيه جُلَّة من العلماء ، ومن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السوڤاتية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكى المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحرقى الشاذلى. ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضيا حنفيا، وعادة يكون مصرياً وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

(د) التعليم المبنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشآت عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السوڤاتين إلى القاهرة ليتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتبه مناهج الأبواب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتنوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السوڤاتين تتألف من مائة طالب سافروا إلى مصر والتحقوا بمدرسة المبتدیان .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر محمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتبه مناهج الأبواب المصرية يشيد بالسوڤاتين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن والعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسوڤاتين قلبية للتمدن الحقيقية لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغلهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكبير والجم الغفير ، فيعيته أهل بلدته على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالى يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم . . ويدور أن هذه العادة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وروى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣ م فعين موسى باشا حدى حكمدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديرية : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصلوا - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - العلوم والفنون النافعة ، وأُتشتت مدرسة سادسة فى سواكن . وأخذت - بعد ذلك - بعض الإرساليات التبشيرية تنشئ مدارس لما فى الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع فى نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تآثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث فى السودان وبين التعليم القديم فى الخلوات والزاويا والمساجد من فروق تأثيره بما فى الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة فى كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة فى كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم فى كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشئ من الوجهة التربوية السديدة .

وعين إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حدى حكمدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبث فى مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض فى المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك فى الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم فى الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف والموتىء إذا المهدي يقوم بثورته التى مرت بنا فيخلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية فى المآكل والملبس والأفراح والأحزان ، فتنصاهر ينهى أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة القطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان فى أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والثركية .

وبانتهاء العهد المهدي وقيام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكانتها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حيثذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانيين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدني الحديث

أنشئ فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بنى له مبنى مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعِل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أول ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة علما ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعيّن كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للنشطة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديرية من المعلمين فى معاهدها الإقليلية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ انتصح الشيخ بلكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريمةته واخذت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريماتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدني إنشاء كلية غوردون ، وكان كشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت - كما أسلفنا - نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورؤى - فى أول الأمر - أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وانتحيت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقيون سودانيون ، وفى سنة ١٩٠٥ أنشئ بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأنخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محجوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإتمام دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأنخذت ترتسم أمامه مثل علما فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يحتلون منابرهم مبرزين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعد للثورة سنة ١٩٢٤ وهى - فى رأينا - تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

٨

تعرب^(١) السودان

عرف السودان الجنس العربى قبل الإسلام بمدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطئ الإفريقى ، ويُظَنُّ أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطئ أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطئ المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُمدِّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م حملة تغفلت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها بدفلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة . وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدفلة وخيَّمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلَى وجهينة نزلت فى قبائل البجة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغير قبائل البجة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتغند معها معاهدة تنصُّ على أن لا تهدم البجة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فتُفتح الأبواب على مصارعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

(١) تنظر فى تعرب السودان ما كتبه فى الفصل الأول عن السودان فى المصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عاهد ص ٩ - ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لعوم شغير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمته سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م وبذل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفا من مقاتلة البجة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حامية وتسمى التبدوية ، وكنوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام - ومعه العربية - ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لنتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتدوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعم شفير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة ، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية .

وظلت مملكة مقرة النوبة المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قرونا ، وتغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فبرسل إليها حملة تأديبية ، وتغفل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائباً فى النوبة عن بيبرس ، ويولى عليها نائباً له ملكاً مسيحياً من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكاً مسلماً من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبة قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك تمسحت مملكة النوبة المسيحية نهائياً ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائياً دولة الفرنج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبة إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى تبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عبدلدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكنوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكنتم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المنفرية المسلمة ومن عرب الشاوية (رعاة الشاة) إلى إقليم دارفور ووادى فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكنم ووادى وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التجوور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة ثمى جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجرى إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائيا مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما فى البجة والنوبة وبعض جواتب الغرب فى دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فبقيهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتأسس دولة الفونج فى سنار سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية فى نظمها السياسية والإدارة وأن العربية لغتها الرسمية وكتب بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية فى بلادها التى امتدت شمالا حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوياط وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية - هى دولة الفونج - لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرب فى عهد هذه الدولة . ومررنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست فى جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تغلى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل فى الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينيها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية فى حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست فى دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كثروا من عرب الحلالية الذين اكسحوا تونس فى القرن الخامس الهجرى إذ كثروا يتسبون إلى نبي زيد الحلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ / ١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م وتبعثها وادى ورنو فى عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتى ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويميدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول أننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التى لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة فى أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرل من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها متأخر فى التعرب بالقياس إلى أحوالها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات فى الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة فى كردفان وبنى سليم عند كاككا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا فى بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كثرت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

شعراء المدح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثر من مدح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم في سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودتكوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن بنى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والمطايا قائلا^(١) :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من همّ وتغرين
إن كنت تطلب عزاً لافاء له فلا تقف عند أبواب السلاطين
خلّ الملوك بدياهم وما جمعوا وقم بدينك من فرض وتسنون
استغن بالله عن دنيا الملوك كما است ستغنى الملوك بدياهم عن الدين

والشيخ فرح ود تكوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين لانتظارهم ويقول لهم : رفقاً بأنفسكم وما تعملونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركاً للملوك دنياهم وما جمعوا مع أدله فروض دينه ونوافله ، مستغنياً بالله وما يزرقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المدح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدي الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالاً وانتصارات متعددة وكثما أعاد إليها الروح التى كُتبت فقدها وجعلها تشرم بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتبنون بمدحهم وانتصارات جيوشه بآئين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وقه يأخذ فيها بهدى القرن والسنة النبوية من مثل قول عبد الفتى السلاوى قاضى دنقلة^(٢) :

ما هدّته غير الكتاب وسنة والشاركون لذلك هم كفراء
أجلى الصدا ولزاح أنواع الردى وسمت به فوق السما علياء
أُست به آثار طة ونورها يعلو ولا يعلو عليه سناء
فالمجد فيه موثّل والفضل منه هو موثّل والناس فيه سوء

عبد الرحيم (طبع الخرطوم) ص ٨٣ ونظر شعراء
الروحية للدكتور صلاح الدين الملك (طبع دار جامعة
الخرطوم ، ص ٣٣٦ .

(١) انظر طبقات ودضيف الله (طبع صديق) ص
١٥ وشعراء السودان جمع سعد مبخال (طبع
لقاهرة) ص ٢٦٠ .

(٢) قطرات الرايح فى الأدب والتاريخ والاجتماع لعبد

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَى الصِّدْأ والكُدْرَة عن وجه الحياة في السودان ونَحَى أنواع الملاك والبوار ، ويقول إن علياء علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلم عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وترجم عما قليل للشاعرين من شعراء المهدي هما : حسين زهراء وعبد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقة في شرقي البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشي خليفة المهدي أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجئ عثمان دقة في هندوب ، فكتب إلى عثمان دقة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقة بالجيش الإنجليزي في هشيم ، وفي ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه في قصيدة حماسة^(١) :

| | |
|-----------------------|--|
| هندوب تصرف صَبْرنا | كيف ارتكَبْنَا للمصاعِبِ |
| وهَشِيمُ تشهدُ عزمنا | كيف اذْرَعْنَا للمصائبِ |
| يا طالما صدنا بها | صَيِّدُ النُصْفَرِ للثعالبِ ^(٢) |
| نَحَى لَدِينِ الله بل | في شَأْنِهِ نَلْقَى المعاطِبِ ^(٣) |
| متوسلين إليه بالـ | مهدئٍ ووجهة كل رَاغِبِ |
| وخليفة المهدي عُبِّ | لِالله مفتاح المطالبِ |

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا في الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . ولَمَّا نَحَى للدفاع عن دين الله معرضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلهنا بإماننا المهدي وخليفته عبد الله التعايشي مفتاح كل مطلب للشعب السوداني . ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبير باشا حاكم بحر الغزال للخيدي إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدي ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فَعَفَى عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها^(٤) :

| | |
|-----------------------------|---|
| هو فخر سَنَارِ الذي عظمت به | وجَدَّاه عَمُّ بها جميع السَّاحِ ^(٥) |
| وتواضعت عظاموها لعلاه إذ | علموا بما أوتى من الفتح |
| من فطنة وزاهية وشهامة | وشجاعة في النارة المُلْحاح |

(١) نغاث الجراح ص ٩٧ . وشعراء الوطنية في السودان ص ٣٣٨ .

(٥) جملة : عطاؤه .

(١) نغاث الجراح ص ٩٣ ونظر شعراء الوطنية في السودان ص ٩٠ .

(٢) النُصْفَر : الأسد .

(٣) المعاطب : المهلك .

يَحْصُو عَلَى مَسْكِينِهِمْ بِتَعَطُّفٍ وَيَسُدُّ ثَلَمَهُمْ بِخَفَضِ جَنَاحٍ
فَالَّذِي تَرَاهُمْ يَلْهَجُونَ بِذِكْرِهِ لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ هَذَا الرِّيحِ^(١)
فَالَّذِي يَفِيهِ وَيَجْعَلُ سَفِيهِهِ فِي كُلِّ مَا يَهْوَى قَرِينَ نَجَاحٍ

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سار » الذي أتاح لها عظمة ومجدا ، والذي عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة وزهادة ومروءة . وإته ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطرِبون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفى في كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقي السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية - قائلا^(٢) :

بِكُمْ - آلَ طَمَّةَ مَا حَيْثُ - مَنِيْمٌ وَفِيكَ مَدِيحِي دُونَ غَيْرِكَ يَا عَلِيَّ
وَمَنْ ذَا يَرَى فِي الْعَمْرِ وَجْهَكَ مَرَّةً تَقَرُّ بِهِ عَيْنَاهُ يَوْمًا وَتَمْتَلِي
فِيَسْلُو هَوَايَ آلِ النَّبِيِّ ، وَحُبُّهُمْ جَرَى فِيهِ مَجْرَى الرُّوحِ فِي كُلِّ مَفْصَلٍ
وَأَنَّكَ لِلْإِسْلَامِ رَكْنٌ وَتَوَزَّلْ لِحِفْظِهِ يَا خَيْرَ رَكْنٍ وَمَوْزِلٍ
وَرَّثْتَ كَرِيمَ الْمَجْدِ عَنْ أَكْرَمِ الْوَرَى وَنُورَ الْمُهْدَى عَنْ وَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ

وهو يقول إني منيِّمٌ صلبه بحب آل طه ، حبا يتممقني طوال حياتي ، وإني لأقصر عليك - لهذا النسب الكريم - مدحِي ، وإن من يرى وجهك في حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلي فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبي ، وكيف يسلموهم وجههم يسرى فيه مسرى الروح في أعطاف الجسد ومفاصله ، وأنت لركن للإسلام وحصن لخصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى عمدا ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيء . وتتوقف قليلا لترجم لشاعري المهدي : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

الشيخ حسين^(٣) زهراء

وُلِدَ الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالي سنة ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م بقرية وادي شعير في المسلمية جنوبي الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفي سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م . عُيِّن أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكاؤه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين . وفي نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمي عاد

(٣) انظر في ترجمة الشيخ حسين زهراء فئات الراع

ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص ٦٥
ر ٣٢٢ وما بعدها .

(١) الراع : الخمر .

(٢) شعراء السودان لسمد مختار (طبع القاهرة) .

ص ٢٠٢ .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدي بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدي على حملة هكس باشا الإنجليزية في الأبيض وأبادهها وقد عليه ، فقبله بغير قليل من الخفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه في وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة هزبية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغي على المهدي من عناية بالعلماء من أمثاله وإستاد الوظائف المهمة إليهم . ويدو أن المهدي لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضبا بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رئاسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشي استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتي الحديث النبوي وعلم الفرائض (المواريث) . وعلت وظيفة قاضي القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضي الإسلام ، وكان يحق الحق لا يبالى بأحد ، ففرضت عليه قضية ومعهما فتوى تهم الخليفة التعايشي ، فحكم فيها بالحق الذي يقتضيه الشرع . وعزله التعايشي فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبرا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهزبية في مدح المهدي طويلة ، ومن تلويماته فيها له بما ينبغي في دولته من تقديم العلماء قوله في تضاعيفها :

| | |
|----------------------------|---|
| برج الخفا ما الحق فيه خفاء | وتوالى الآيات والأنبياء |
| بالآية الكبرى التي بظهورها | كمل الرضا وانجلت الأسواء ^(١) |
| مهدى رب العرش منتظر الزرى | والى الولي والأكرمون وراء |
| علماء أمة أحمد ناشدتك | ردوا جوابي إنكم علماء |
| أرضى وترضون الضلال بعيدا | ظهر الهدى وانجلب عنه فضاء |
| ويخبى ظنى فيكم وعشيرتى | أنتم ويقمع جئنا الغبراء ^(٢) |
| جهل الولا أمان دين محمد | وأقبله ماتسوا وهم أحياء |

وهو يهمل لظهور الحق وتوالى العلامات والأنبياء بظهور الآية الكبرى المتجسدة في المهدي والتي كمل للشعب السوداني بها الرضا وتزاحت الأسو له والشرور ، فقد أظهر رب العرش المهدي منتظر الأمة السودانية . ولا يلبث في الشطر الثاني أن يقول إنه يقدم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويمدحهم ورائهم ، ويتأشد علماء الأمة أرضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأفتاء عنه ، ويخبى ظنى فيكم ويقهرنا الغبراء ، ويتأدى الولاة في جهلهم . ويتساءل ثابة أمانت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حلة عنيفة على المهدي وأوليائه وأتصاره الذين يفرهم قري رفيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

(٢) يجمع : يهجر .

(١) أسواء جمع سوء

عمادُ المهدي أسُ الجَدَا معدُمُ العِدَا
مَلَاكُ أَسَاطِينُ الخَلَاةِ كَفَرُوا الـ
إِمَامُ المَهْدَى المَادَى لِكُلِّ ومُرشدُ
بِأَخْبَرْتُ مِنْ قَبْلُ وَقْتُ ظَهْوَرِهِ
بَدا وَإِلَيْهِ النَّاسُ فِي الأَرْضِ نُجِعُ^(١)
مُعَدُّ لَهَا الحِصْنُ الحِصْنُ المُنْعُ
بِهَامَتِهِ التَّاجُ النَّفِيسُ المَرْصُعُ
صَحَا حَ رَوَاهَا هَيْرِزِي وَمَوْضِعُ^(٢)

وهو يقول إن المهدي العماد الذي يقوم عليه المهدي رأس العطاء ويمت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفاء المدد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام المهدي المادى المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان يتاج المهدي النفيس المرصع . ويبالغ حين زهره مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحداث صحاحا بشرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدم مسرع في خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمر جِدُّ والخطوبُ جَدَا
حَرْبٌ بِمَحْرَابِ المهْدَى مِنْ بَاسِهِ
لِمَ لَا وَأَمْلَاكُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا
لِلْحَقِّ جَاءَ وَلِلْمَنَآكِرِ قَاتِلُ
وَجَنُودُ مَهْدَى الْوَرَى أَمْجَادُ
بِشْتَاتِهَا تَنْزِلُزُ الْأَطْوَادِ^(٣)
فِي جَيْشِ مَهْدَى الْوَرَى أَجْنَادُ
وَعَلَى الْفِعَالِ مِنَ الْمَقَالِ مَزَادُ

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدي أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدي من محراب المهدي لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشدله فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم في الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدي لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعالة لأعظم من أن يحيط بها مقال .

الشيخ محمد^(٤) عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا في رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م وتوفي سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة في مطلع شبابه وخسرت تجارتها ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدي بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص في بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية) وشعراء الوطنية في السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدها .

- (١) نجع جمع ناجع : طالب الكلا .
- (٢) هيرزي: شجاع متفهم موضع : مسرع في خطاه .
- (٣) الأطواد : الجبال .
- (٤) انظر في ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره فئات الغرار ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتب

التعاشى ، وقره منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعاشى والدعوة المهدية عينته الحكومة الثنائية قاضيا ثم منشا للمحاكم الشرعية إلى أن لئى نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان فى زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره فى المهدى والدعوة المهدية يحفظ بحماسة قوية على نحو ما نرى فى تائيته التى طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحسبُ صَبْرٌ واللقاءُ ثباتُ والموتُ فى شأنِ الإلهِ حياةُ
والجينُ عارٌ والشجاعةُ هبةُ للمرءِ ما اقترنتْ بها الزماتُ
والصبرُ عند البأسِ مكرمةٌ ومقد دأبُ الرجالِ تهلبُهُ الوقعاتُ
والفخرُ كلُّ الفخرِ بِيَعُ النفسِ للـ به العلىُّ وأجرُها الجناتُ
إن الجهادَ فضيلةٌ مرضيةٌ شهدتْ بِمُحْكَمِ أجزائها الآياتُ
قد حاز هذا الانخارَ جميعَه صَحْبُ الإمامِ السادةِ القاداتُ

وهو يقول لأنصار المهدى عمسالم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة فى نصرة دين الله ، والجين والقعود عنها عار لا يمثاله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالزئمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعان الرجال ، وإن بيع النفس لله العلى فخر لا يمثاله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا فى سبيل الله ودينه الخفيف الذى نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوبه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدى وقواده . ويشيد بجهادهم فى نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمَى الوطيسُ رأيَهم شَمُ الجبالِ ، وللضيفِ حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديدِ وبأسُهم شهدتْ به يومَ اللقا الغاراتُ
وخلوقُهم صَدَأُ الدروعِ ، لحزمهم قتلُ الأعادى عندهم عاداتُ
فى السلمِ تلقاهم ركوغا سَجْدًا أثرُ السجودِ عليهمُ وسماتُ
وتخالُهم يومَ الجِلاَدِ ضراغما لئذُ وأُسلُ رماحهم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شيلو العِدا رزقَ النُورِ ولحمهم أقبواتُ
والأرضُ سالتْ بالدماءِ وما بها غيرَ الجماجمِ والشمسورِ نباتُ

فهم قوم بواصل إذا دارت رحا الحرب رأيهم جبالا شاهقة لا يناها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسيج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم فى قتل الأعادى والتكئيل بهم .

أما في السلم فدائما راكمون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنتها غلبة ضخمة . ويقول إنهم يادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هي إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسل الأرض بدمائهم وكلما أثبتت جماجم ورءوسا لكثرة القتل . ويشيد البنا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدي على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهاد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنيء الشهداء من جيشه ، فالجور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدومهم . والقصيدة شملة من الحماسة الملتهية . وللبنا قصيدة يمتدح بها عثمان دقته قائد جيش المهديين في شرقي السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثت لهم همم الجهاد ملابس النصر العزيز يمدّه التصويبُ
وأمدّهم جيش الملائك ناشرا رايات نصر للبلاد تجوبُ
فسيوفهم مسلولة ورماحهم مسنونة وعدوهم مرعوبُ
وعدوهم دوماً يَغصُّ بريقه والرعبُ منهم للقلوب يذيبُ
إن نوزلوا كانوا الليث ماركاً أو غولوا فعدوهم مغلوبُ
أو حوربوا فالرعبُ من أغوqهم دوماً وعقلُ عداqهم مسلوبُ

وهو يقول : كلّمناهم الجهاد القساء أرسلت إليهم ملابس النصر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها في البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أغمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذهب قلوبهم . وإن نوزلوا في معركة كانوا أسودا وإن غولوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أقصاهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزاهم الضاري .

شعراء القفر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، ونلتقي بالشاعر يحيى السلاوى السوداني يرحل إلى مصر للمشاركة في الثورة العربية ، وسنفرّد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية هدية في حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وسنخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سوداني فخر حماسي ، وهو يتخذ صوراً متعددة ، من ذلك فخر الشخص بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكردى المولود سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤ م^(١) :

إِنِّي لِبْنُ لَثْمِي خُرْفَةٍ عَرَبِيَّةٍ أَبَاؤُهَا بَيضُ الْوُجُوهِ فُحُولٌ^(٢)
 إِنِّي عَرِيقٌ فِي النَّجَارِ وَلُبْلُجٌ فِي بُرْدِهِ كَرَمٌ يَكَادُ يَسِيلُ^(٣)
 تَنْمِيهِ لِلْحَيِّ الْقَلَّاحِ عَشِيرَةٍ وَأَبٌ وَقُورٌ مَاجِدٌ يُهْلَسُ^(٤)
 وَتَنَا امْرُؤُ زَيْنِ الْمُحَافِلِ شَاعِرٌ لِي هِزَّةٌ نَحْوُ السَّمَاحِ تَمِيلُ
 تَفَتَّتْ بِذِكْرِي فِي الْبِلَادِ قِصَائِدِي وَشَدَا بِهِنَّ عَلَى الْفُصُونِ هَدِيلُ

وهو يفتخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فاتقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق في أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، ينسب في عشيرته للحَيِّ لم يَدَنَّ للملوك لُبْدًا ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وأنه لزين المحافل شاعر يهتز للشيم الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره في البلاد لقصائده البديعة ، وغنى بها على الفصون هديل الحمام وكأنه يوردها في تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرها بنفسه فيما يقدم لوطنه^(٥) :

إِذَا نَا لَمْ أَرْفَعْ إِلَى الْمَجْدِ مَوْطِنِي فَلَا سَاعِدِي يَوْمَا عَلَتْهُ مَنَاكِبُهُ
 أَقَوْمِي إِنْ مِتُّ أَذْكُرُونِي فِيمَا حَيَاتِي وَقَفْتُ لِلْعَلَا وَمَرَاجِبُهُ
 وَمَالِي مَقْسُومٌ لِكُلِّ عَشِيرَتِي وَصَدْرِي رَحْبٌ لَا تَضِيقُ جَوَابُهُ
 وَلَا نَا فَعَالَ لَشَيْءٍ يَمْسِينِي وَلَسْتُ بِعِذَالٍ لِحَيْلِي أَعَاتِيهِ
 هَلْ الْخَيْرُ إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِوَأَجِبِ تَسَاعِدُ مَسْكِينًا وَيُعْطَى رَغَائِبُهُ

وهو يقول إنه حرى به الموت إن لم يعش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرى بقومه أن يذكره حين يموت ، فحياته كانت وقفا للعلا وأسبله . ويذكر أن لكل فرد في عشيرته حظا في ماله ، وأنه حلیم لا يضيق صدره بشيء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئا يشينه ، ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يهتب عليه في شيء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدى واجبا فتساعد مسكينا ، وتحقق له بعض رغائبه وأمنياته . ويفخر عبد الرحمن شوقي بجذوده في الزمان القديم^(٦) :

(١) قوم لقاح : لم يدينوا الملوك . يهلول : سيد كريم .
 (٢) شعراء السودان ص ١٨٣ .
 (٣) بيض الوجوه كناية عن حسن أنفاسهم . فحول : متفرون .
 (٤) قطعات الواح ص ١٨٣ .

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .
 (٢) بيض الوجوه كناية عن حسن أنفاسهم . فحول : متفرون .
 (٣) الجبل : الأصل . بلج : مشرق الوجه .

زَمَانٌ تَوَلَّى كَانَ فِيهِ جَدُّونَا
إِذَا لَبَسُوا فَالْخَلْدُ فِي بَسَاتِهِمْ
وَأَن عَصَرُوا عَوْدَ الزَّمَانِ أَطَاعَهُمْ
وَأَن ضَرَبُوا ذِكْرَ الْفِلَاحِ بِزَمِهِمْ
شَمْسٌ سَمَاءَ الْمَجْدِ أَبَانَ أَشْرَقُوا
لَقَدْ نَصَرُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَسَدَّدُوا
وَسَاسُوا فَمَا جَارُوا وَلَا تَبَعُوا هَوَى
إِلَى أَن دَعَا دَاعِيَ الرَّدَى تَلَبَّهُوا
لَبَّيْنَا بِقُدُونِ الْخَمِيسِ الرَّمَزِمَا^(١)
وَأَن عَبَسُوا فَالْكُونُ صَارَ جَهَنَّمَا
وَلَا نَ لَهُمْ عَاصِيَهُ حَتَّى تَقْرُمَا
وَأَوْتَسُوا إِلَى بَنِيهَا ضَهْدَمَا
بَدُورُ الدَّيَاجِي حِثَّ كَانُوا وَأَنْجَمَا
إِلَى الْكَفْرِ سَهْمَا فِي الْفَوَادِ مَصْمَمَا
وَلَا حَمَلُوا النَّفْسَ الضَّعِيفَةَ مَفْرَمَا
نَجُومَا هَوَتْ فَالْكُونُ أَصْبَحَ مَظْلَمَا

وهو يصور المجد التاريخي العظيم لأمتنا العربية في الأزمنة الغابرة ، ذاكراً أن زمناً مضى كان جدودنا فيه أسدا ضاربة ، إذا رضوا ولابسوا فكُنُما تَحْتَ أَبْوَابِ الْجَنَانِ ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عَصَرُوا عود الزمان انصهر لهم ، وإن عصا قَوْمُهُ حَتَّى يَنْعَصِرَ ، وإن ضَرَبُوا ذِكْرَ الْفِلَاحِ بِزَمِهِمْ الْجَبَارِ ، بل لو أَشَارُوا إِلَى بَنِيهَا لَخِرَّ مُنْقَضًا . هم شمس سماء المجد في كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجي في كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصرُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وسَدَّدُوا إِلَى صَدُورِ الْكَفْرِ وَأَفْنَدَتْهُ سَهَامَا مَصْمِيَةً . وسَاسُوا الْأُمَمَ والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحملهم مفرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعي الموت فتلبَّهوا نجوما تهاوت وأصبح الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسي حماسية في الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد تقتصر الطرابلسيون في بعض المواقع ، وفيها يقول^(٢) :

يُروم بنو روما طرُلُلسًا وقد
أثاروا وَغَى دَارَتِ رَحَاهَا عَلَيْهِمْ
أَعْدَوْا لَهَا مِنْ عُدَّةِ الْحَرْبِ كُلِّ مَا
وقد زعموا أَن سَوْفَ يَنْجَحُ سَتِّيهِمْ
لَبَّيْدُوا فَكُنُوا عِبْرَةً لِلنَّاسِ بَعْدَهُمْ
غَزَوْهَا بِجَيْشٍ ضَاقَ بِهِ الْفَقْرُ^(٣)
وَرَامُوا بِهَا فَخْرًا فَفَاتَهُمُ الْفَقْرُ
يَضِيقُ بِهِ التَّعْدَادُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ
ولكنه زعم الأضاليل وَالْمَذَرُ
وَحَلَّقَ فِي آثَارِ مَوَاتِهِمُ النَّسْرُ

وهو يقول إن أبناء روما فصدوا طرللس بجيش كثيف ضاق به الفقر وسُخًا ، ودارت رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا ففاتتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

ص ٢٣٩ وانظر ديوانه .

(٣) فرما : رسما .

(١) الخميس العرم : الجيش الكثيف الكبير .

(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد

العباسي للدكتور أحمد عبد الله ساسي (طبع الخرطوم)

أُيِّدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عيرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثثهم النسر
ولفقت عليها انقضاضا . ويقول مفاخرنا بشيعة الرفيعة وأجداده^(١) :

أَلْقَى بِصُتْرِي حُسَامَ الْحَادِثَاتِ وَلى عَزَمَ أَمَدُهُ بِهِ مَا قَدْ بَلَغَنِي
وَلَا أَتَوَّقُ لِحَالٍ لَا تُلَاقِيهَا حَالٍ وَلَا مَنَزِلُ اللَّذَاتِ يُلْهِبُنِي
وَلَسْتُ أَرْضَى مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ عَظُمَتْ إِلَّا الَّذِي بِجَمِيلِ الذِّكْرِ يَرْضِي
وَكَيْفَ أَقْبِلُ أَسْبَابَ الْمَوَانِ وَلى آبَاءُ صِدْقٍ مِنَ الْفُرِّ الْمَيَامِينِ^(٢)
النَّازِلِينَ عَلَى حَكَمِ الْعَلَا أَبَدًا مَنْ زَيْنُوا الْكُونَ مِنْهُمْ أَىْ تَزِينِ
مَنْ كُلُّ أَرْوَغٍ فِي أَكْسَادِهِ يَبْدُ كَالْيَثِ ، وَالْيَثُ لَا يُغْضَى عَلَى هُونٍ^(٣)

والعباسي يقول إنه يتدرع أو يتسلح بصبر أمام جسام الحادثات فلا تنال منه ، ويصد بعزمه
القوى ما يلقاه من خطوط ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل
يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف
يقبل هوانا أو ضيما ، وآباءه آباء صدق من المشهورين ميموني النقية الذين لا ينزلون أبدا
إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كئنه
ليث حقيقي ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيء . وحرى بنا أن
نترجم الآن ليحيى السلاوي السوداني وعثمان هاشم .

الشيخ يحيى^(٤) السلاوي السوداني

ولد الشيخ يحيى السلاوي السوداني بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م وهو
ابن عبد الغنى السلاوي قاضى دنقلة الذى مر فى شعره المديح أنه كان من شعراء المهدي
وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين
نشبت ثورة عرابي بمصر سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى
مصر ، ويرفض طلبه ، فيرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التاليين :

مَوْلَايَ عَزَزْتُ تَرْحُلِي وَغَدَوْتُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ
فَأَرْشُ جَنَاحِي مِثْلَمَا عَوَّدْتَنِيهِ وَلَا جُنَاحَ

فأُبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترجيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها
اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عرابي أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبها ونشرها

(٣) أكساده جمع كند : مجمع الكفنين .

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونفحات البراق ص ١٣٩

(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوي وقصيدته نفحات

وكتاب محمد سعيد العباسي ص ١٢٩ وما بعدها وانظر

البراق ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ،

ديوانه .

٢٩٩ .

(٢) الفر : المشاهير . الميامين : الباركين .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات البراع إته نظم - تلبية
لعرلى - قصيدة يائية من نسمة وتسعين بيتا عثرا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرلى
والشعب المصرى بها أن طبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة
منها جنيتها ذعبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه
بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

| | |
|--|--|
| شَهِلَ الْيَدَا بَشْتَتِ الْأَحْزَابِ | وَاللَّهُ نَاصِرُنَا بِسَيْفِ عَرْلَى |
| وَالْقَطْرُ فِيهِ مِنَ الرِّجَالِ كَفَاءُ | لِلْحَادِثَاتِ فَهَمْ أَوْلُو الْأَيَابِ |
| وَحِمَّةُ الْإِسْلَامِ تَقْضَى بِالْوَفَا | حَتْمًا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ أَوْابِ ^(١) |
| وَعَجَّةُ الْوَطَنِ الْعَزِيزِ تَحْتُمُ | وَالْفَلَجُ إِذْنُ بَاتِّبَاعِ صَوَابِ |
| وَالْمُشْرِكُونَ خَوَاسِرٌ فِي سَبِيلِهِمْ | هَزَمُوا وَقَدْ نَكَصُوا عَلَى الْأَعْقَابِ ^(٢) |

والشيخ يحى يقول إن الإنجليز شغلوا بشتت جندهم ، وسماههم الأحزاب أسوة بغزوة
كفار فريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف
أحمد عرلى ، والقطر ملء رجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر
كل مسلم أبواب منبتل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضا مملوءون محبة
للوطن تحتمهم على الدفاع عنه وهو دفاع سيتهى إلى النصر المين ، وقد نصرنا فعلا فى
بعض المواقع ، وهو إذن وبشرى بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هزموا
ورجعوا ناكسين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

| | |
|---|---|
| هَيَّا بَنَا يَا أَهْلَ مِصْرَ إِلَى الرُّضَا | وَالْفَوْزِ فِي الْعُقْبَى بِغَيْرِ حِسَابِ |
| أَنْتُمْ أَوْلُو الْمَهْمِ الَّتِي بِسَاهِمَا | كَمْ مِنْ عَدُوٍّ أَبْ شَرُّ إِيَابِ |
| لَا تَشْغَلْنَكُمْ الْحَيَاةُ فَإِنَّمَا | ذَلْ لِمَنْ يَرْضَى بِهَتْكَ جَنَابِ |
| وَلَقَدْ نَرَى إِخْوَانَنَا فِي حَالِهِ | تَحْتَاجُ لِلْأَعْوَانِ وَالْأَصْحَابِ |

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرلى ويشتركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى
الآخرة ويقول إنكم أولو المهمة المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آتوا شر
مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإته لذل لأى
أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود
وقادتهم لئى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرت
عرلى وأمدته بعون قيم .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا يعتزموه .

(١) أواب هنا : منبتل إلى ربه .

والقصيدة وثيقة مهمة في موقف الشعب من ثورة عرلى وتأنيده له في حربه ضد الإنجليز الفاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلى بجيشه الإنجليزى إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغى ، فساعدته على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف التركية .

عثمان^(١) هاشم

ولد في مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التي شاركت بقوة في العلوم الإسلامية ، وهي تنسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمى الديننى بأمر درمان سنة ١٩١٢ والطبيب أحمد هاشم مفتى السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائى في كلية غوردون وتخرج فيه وعمل في الحكومة السودانية موطناً منذ سنة ١٩١٥ . وشغف بالشعر العربى مبكراً فأكتب على دواوينه واستيقظت فيه المهبة الشعرية سريعاً ، ونظم في موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية في بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى في هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشرط كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركى إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقاً ، حتى اضطر من بقى منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه في سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا - بفضل مصطفى كمال - إلى الظهور ببطولتها الحرة القديمة ، وحياه عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له في مطلعها :

| | |
|------------------------------|---------------------------------------|
| ضربت بسيف الحق فاندك باطل | وجئت بما لم تستطعه الأوتل |
| ودافعت عن دين النبى محمد | ولم تن منك العزم تلك القنابل |
| غضبت لدين الله لما رأيته | تمد له من كل حذب غواتل ^(١) |
| فلما توسطت الأناضول صيحت في | بنه ألا هبوا دفاعاً وناضلوا |
| فليتك من أبناء عثمان عصبة | ها في صميم الترك مجد ونائل |
| وهاجوا غيظها كالأسود وأقسموا | بأن يصدقوا بالتفصيل ما أت قاتل |

وهو يقول لمصطفى كمال : ضرت جند اليونان بسيف الحق فاندك حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تنيك قتابل الأعداء ، إذ غضبت للدين الخفيف

(١) انظر في ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

أغضبه ضاربة ، فقد رأيت دواهي كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت في أهله : هَبُوا وناضلوا عن حاكم ، ولَبَّك من لُبَاءِ التُّرك عصابة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياجُ الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك في الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائي العظيم قائلا :

أَحْلَطَ بِكَ الْأَعْدَاءُ حَتَّى كَثُمُوا خِصْمٌ عَظِيمٌ لَمْ يَبْنَ مِنْهُ سَاحِلُ
وَكَمْ سَفَكُوا مِنْكُمْ دِمَاءَ بَرِيَّةٍ وَكَمْ سَفَحَتْ لِلدُّنْيِ مِنْكُمْ أُرَامِلُ
وَمَا هَذَا مِنْكَ حَزْمًا عَزَمْتَهُ وَكَيْفَ تَهْدُ الرَّاكِبَاتِ الْمَعَالِ
فَسَقِيَا لِأَقْوَامٍ سَقَوْا بِدِمَائِهِمْ تَرَى وَطَنِي مُدَّتْ إِلَيْهِ الْحَبَائِلُ^(١)
وَذَاوَدُوا عَنِ الدِّينِ الْخَنِيْفِ بِفِرَةٍ كَأَنَّ صُدُورَ الْقَوْمِ مِنْهَا مَرَاكِلُ^(٢)
هَيْبَةً لَكَ النَّصْرُ الْمُبِينُ وَلِيَتْنَى بِجَيْشِكَ جَنْدِيُّ تَطْرُوعٍ بَاسِلُ

ويقول عثمان هاشم إن حنود اليونان كانوا كثيرين حتى كثفهم بحر زاخر لا تين له سواحل ، وكَمْ أَرَأَقُوا مِنْ دِمَاءِ التُّرك الطاهرة ، وكَمْ بَكَتْ مِنْهُمْ أُرَامِلُ فَقَدْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، وَمَا هَذَا ذَلِكَ مِنْكَ شَيْئًا مِنْ حَزْمِكَ وَعَزَمِكَ ، وَحَقًّا لَا تَهْدُ الْمَعَالِ الرَّاكِبَاتِ الشَّامِخَةَ . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاءً لدمائهم التي سقوا بها تَرَى وَطَنَهُمُ الْمَقْدُودَ ، وَقَدْ مُدَّتْ إِلَيْهِمْ مَصَائِدُ الْمَكْرِ وَالْخَدَرِ ، وَدَانَعُوا عَنِ الدِّينِ الْخَنِيْفِ بِفِرَةٍ وَحِيَةٍ ، حَتَّى كَأَنَّ صُدُورَهُمْ مَوَاقِدَ مُشْتَمِلَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ . ويمضى عثمان هاشم في قصيدته ويختتمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا في جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرًا بقومه :

يَبَى لِمَنْ مَعَشِرٌ طَلَبَتْ أَصُولُهُمْ فَطَابَ فَرْعُهُمْ وَالنَّسْلُ وَالنَّسَبُ
إِنْ نَلِكَ الدَّهْرُ فَاسْتَجَدْتَهُمْ نَجَدُوا أَوْ مَسَكَ الضَّرُّ فَاسْتَنْهَضْتَهُمْ وَثَبُوا
عَرَّ جَحَاجِحَةٌ شُمَّ غَطَارِفَتُهُ صَيْدٌ جَهْلَانَةٌ بِلِ سَادَةِ نَجَبٍ^(٣)

يشير إلى أنه من معشر شريف - إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب - معشر ظلت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والانتساب إليهم ، إِنْ أَصْلَبَكَ الدَّهْرُ نَابِتَةً أَوْ كَارِثَةً وَاسْتَجَدْتَهُمْ نَجْدُوكَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ ، وَإِنْ مَسَكَ ضَرُّ وَاسْتَنْهَضْتَهُمْ

(١) غر : مشهورون . جحاجة جمع جحاجح : السيد السمع الكريم . شم جمع أشم : الترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : الزهر بنفسه . جهلانة جمع جهيد : المحرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

(١) الحذب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الدلعة .

(٢) الحبال جمع حبال : المصيدة .

(٣) مراحل جمع مرجل : القدر . يريد أنها تثل غلبان القدر .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعاً ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهونون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية في الفخر يقول فيها عن قومه :
 قَوْمٌ لَقَدْ طَلَبْتُ سَرَائِرَهُمْ فَلَمْ تَرَ غَيْرَ بَذْلِ نَدَى وَبَسْطِ كَفُوفِ
 هُمْ أَفْضَلُ الْعَرَبِ الْكَرَامِ عَشِيرَةٌ وَأَعَزُّ أُنْسًا وَشُمُّ أُنُوفِ^(١)
 وهُمُ الشُّمُوسُ إِذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمَتْ وَهُمْ الْبَسُورُ بِسُورِهَا الْمَعْرُوفِ
 وهو يقول إن قومه قد طلبت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مداراة في الجود والكرم .
 وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزُّ أنسًا وشُمُّ أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شمسوها المنيرة وبدورها المضيئة .



شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

بأخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي أشكالاً ثلاثة هي النذب والتأنيين والعزاء ، والنذب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلىء بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأنيين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيد ومسدود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مراثيه لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مراثيها ، وخاصة لرجالها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدي ، وهو أهم الشخصيات السودانية في القرن الماضي ، وقد حقق للسودان استقلاله في سنوات معدودات ، ولى سريعا نداء ربه وهو في الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولاوي الكردفاني ، ويستهل مراثيه بقوله^(٢) :

| | |
|---|---|
| كَيْفَ التَّامُّ فُسُودَى الْمَفْطُورِ | وَرُقُوءُ دَمْعٍ عَاجِرِي الْمَفْجُورِ ^(٣) |
| أَمْ كَيْفَ يَنْفَكُ الضَّنَا عَنْ مُهَجَّةِ | أَحْشَاؤِهَا تَصَلِّي عَلَى التَّنُورِ ^(٤) |
| أَسَفٌ عَلَى الْمَهْدَى مِنْ مَهْدِ الصَّبَا | قَدْ كَانَ مَعْصُومًا عَنِ الْمَحْظُورِ |
| تَنَحَّى الْقَتُوحَ وَدُمَّرَ الْكُفَّارُ فِي | كُلِّ الْبَلَادِ بِجَيْشِهِ الْمَنْصُورِ |
| هُوَ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ : بِحَرِّ شَرِيعَةٍ | طَامٍ وَبَحْرِ حَقِيقَةٍ مَسْجُورِ ^(٥) |

وهو يقول إن فؤاده انفطر واتشق حزنا لموت المهدي ولن يرقأ أو يجف دمه المتفجر ،

(٣) الفطور : المنشق . رقوء : انتطاع .

(٤) التنور : الوقد .

(٥) مسجور : مملوء .

(١) شَمُّ أنوف : متعالمون مترفعون .

(٢) انظر القصيدة في شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء

الوطنية ص ٣٣٦ .

ولن ينفك الضنا عن مهجته ، وكأنا تصلى أحشاؤها وتشرق على تنور مشتمل ، وبأسف على المهدي ويقول إنه كان معصوما عن المخطور المحرم منذ صغره ، ودمر جيشه الجيوش التي لقيته . وينته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نُسكا . وبعضى الشاعر فى مرثيته منشدا :

قد كان قَوَّامَ الدُّجَى متَبَلًّا متواصل الإحسان غيرَ فَخُورٍ
 طَلَقَ الحَيَا خاشعا متواضعا كهفَ الفقير وجلبَرَ المكسور
 لا يَتَنَفَّى جاهًا ولا مالًا ولا عزَّ الملوك ولا ارتفاعَ الدورِ
 تَبَكَّى المساجدُ والمُحَارِبُ فَقَدَهُ ومواطنُ الأذكار والتذكير
 يا طيبَ أرضٍ ضَمَّ جِسْمَكَ تُرْبَهَا تَرَى بِعَرَفِ المِسْكِ والكافورِ

وهو يصف المهدي بأنه كان قوام الليل مصليا متبلا لربه ، موصل الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو من ، طلق الحيا بشوشا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجلبرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى النصور المشيدة ، وبكى المساجد والمحارب وباع أذكاه وتذكيره ، وما أطيب الأرض التي ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويكى المهدي الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله^(١) :

دَعَيْنَا دَوَاهِ بِضُرْسِ القَلْبِ نَابِهَا ويوقد فى الأحشاء نارا منابها^(٢)
 غَدَاةُ نَمَى النَّاعُونَ مَهْدِينَا الذى به مِلَّةُ الإسلام جَلُّ مُصْلِبِهَا
 إِمَامُ المَهْدَى المَهْدَى أَفْضَلُ مَنْ دَعَا إلى الله مفتاحُ النجاة وبابها
 أَلَا قَدْ أَصِينَا إِذْ عَدِمْنَا حَيِينَا وضاعت بنا الأرضُ الوسيعُ رحابها
 لَيْلَتُ لِهَ الدِّينِ الحَنِيفُ وَمِلَّةُ أَبَانَ هُدَاهَا حينَ تَمَّ خَرَابُهَا

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه بعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدي الذى جَلُّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أصينا فى حيينا وضاعت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليكن الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكرر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضي المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه^(٣) :

(١) نغاث الرابع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ (٢) بضرس : بعض .
 وشعراء الوطنية ص ٣٣١ . (٣) نغاث الرابع ص ١٥٠ .

لقد آن أنْ تُبكي وأغرى البواكيا ونظّم من حَبِّ الدُموع المراثيا
وأصبغَ عَتراتي دَمًا ليس ناضبًا يخذُ خدودي مُترَعًا والأُمانيًا^(١)
لَمَي ما لَمَي حرُّ كريمٍ وذو وفَا وما كان ذا وجهين وَغَلًا مُدْجِجًا^(٢)
أُمِنَ على سِرِّ الأخلاء حافظًا وكان لإخوان الصفاء مَوسيا
تَبَوَّاهُ مَهْدَ العِزِّ من نَشْأَةِ الصَّبَا وشبُّ على هامِ المكارمِ ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكي ويغري الباكيات بالبكاء وينظم من دُرر الدُموع عقود المراثي ويصبغ عتراته بالدم الذي لا ينضب ولا يجف ، بل يشق الخدود وأماق العيون شقوقاً مملوءة به . وينوه بليته فهو حر كريم وفى ، وما كان يوماً ذا وجهين نذلاً منافقاً ، بل كان دائماً أميناً على سر إخواته : إخوان الصفاء مَوسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبُّ على رءوس المكارم ساميا سمو متصلاً . ويكسى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أبيه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذي ترجمنا له بين شعراء المديح بحرثية مؤثرة ، وفيها يقول^(٣) :

عَنِ الكَمالِ لَهِولَ يومِكَ تَذَرِفُ والمجدُ يَرْعُدُ والشرِعةُ تَرْجِفُ
رَفَاعُ أُلُويَةِ العِلاءِ أَرى المَلا مَهجُورَةٌ طَرَقَتُها تَلْهَفُ
كَشَافُ غَمِّاءِ المَظالمِ بِالهدى حارُّ الهدى لَمَّا تَوَيَّ مَنْ يُنْصِفُ
يا قَوْمَ حامِي السَّرحِ أَقصَدَ الرُّدى بَكَوا لَه بدمِ القُلُوبِ وَنَزَفُوا
حَجَبُوا السَّناءَ عَنِ النَوائِظِ حينما هالَوا عَلَيْكَ مِنَ التَّرابِ وَأَسْرَفُوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدراراً لهول يوم موتك ، والمجد يردد رهبة والشرعة ترجف فزعاً لموتك ، ويخاطبه : يا رافع أُلوية العلاء والشرف أرى العلاء هُجرت طرقاتها وتلفت متلهفة لو تراك . وبما كشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . وتلفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعن حامى الحمى طعنة نافذة فلبكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتنفوه ، ولقد حجبا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يناصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسي ، وتشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثي .

(٣) ديوان البنا ١/١٦٥ .

(١) ناضباً : ناقلاً . يخذ : يشق .

(٢) وغلاً : نذلاً . مدججاً : منافقاً .

ولد بالكوكة على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمتية سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م وعُنى بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولاي وإبراهيم الركابي ومحمد بدوى وأحمد العاقب الرطللى ، ولما أصبح كاشف حاكماً للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين فى تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زلتى ، وفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بخين شديد لبلاده وبواديه التى كان يرئادها فى غربى السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يجوب بواديه منمتما بمنظرها ويصفها فى شعره مراراً وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان - وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان - تأثيرها العميق فى شعره . وقد ظل وفياً لمصر باراً وعجا ، وشعره يكثف بها وبالمواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسي اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التى نجم عنها فاشية العصر الحديث فى السودان ونهاية للعصر الذى نُوِّر فيه للشعر السوداني ، وقد انتقلت إلى الشاعر ريادة الطريقة السمتية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م وهو جائب صوفى جدير بتبعه ودرسته عنده . وبعد أهم شعراء هذا العصر الذى نُوِّر له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله فى رثاء أبيه :

| | |
|---|---|
| إن الليالى ذوات العنْدِرِ راعيةً | ختالةً ونفوسُ الناس مَرعاهَا ^(٢) |
| وكان عهدى بها تسطر على مهلٍ | واليوم صالتَ بينهما ويُرَاهَا |
| بالسيدِّ السَّنْدِ بن السيد السَّنْدِ الـ | سُراقى سماءَ فخيَّارَ عَزْ مَرعَاهَا |
| يمحُضُ الرشد للفاوى ويوضح من | مناهج الحق للقُصَاد أهدَاهَا |
| أزالَ عن مشكلات العلم منطقهُ | براقَ الوهم عن زاهى مُحَيَّاهَا |
| وإن تكلم فى علم السلوك له | فيه عبارات ذَوَّقِي ما أُحْيَاهَا |

وهو يقول إن الليالى الغدرة الخادعة دائماً ترعى نفوس الناس نفساً بعد نفس ، وبذكر

ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث فى كتاب الشعر الحديث فى السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسي ديوان ضخم باسم ديوان العباسي مطبوع بمصر .
(٢) ختالة : غدارة .

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسي وترجمته وشعره فى شعراء السودان ص ٢٨٥ وفتنات البراق ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسي للدكتور أحمد عبد الله ساسي (طبع دار الإرشاد بالخرطوم) وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبو سعد

أن عهده بها تبطش على مهل ، وبراها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أبيه الذى كان سندا
يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح
للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يخون منه الرشاد ، وكان يرفع
حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهى . أما فى التصوف والتقى فكثرت له
عبارات محكمة حلوة . ويكى طائفة من آباءه منشدا :

أولئك آباءى الذين يطولهم طالتْ هدى وسموتْ مَنْ ساملتى^(١)
أولئك هم بصر الكمال وسمته وهم لأهل الفضل كالعنوان
بمعارف وعوارف قدسية كالشمس لا تخفى على إنسان
هم صيروا نهج الهداية واضحا للطلالين قصيهم والدنى
نظروا إلى الدنيا بعين بصيرة فتحولوا عن ذا الوجود الفنى

والمباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شته وسما على من ساماه وفاخره ،
ويقول إنهم بصر الكمال وسمه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم
القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيروا طريق الهداية واضحا للناس
البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياههم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى
دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤثنا :

كشف النقاب عن العلوم فرفها خوذًا تفوق على الحسان الخرد^(٢)
مَنْ للعلوم جميعها ولفقه ما لك والحديث صحيحه والمُسنَد
ويبنيها ويديمها وأصولها فى منطق وعربصها المتعقد
إلى أغزى كل أمة أحمد بمصيبة الحنير الإمام محمد
وعليكم يا دنيا السلام فقد خوت شمس الكمال وغاب بذر السودد^(٣)

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه
كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتألمات الفاتنات ، ويقول مَنْ يحل عمله للغة والحديث
النبوى ولعلوم البيان والبدع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية
فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

(ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ روى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

(١) طول: فضل : طالت : علت وارتفعت . سلمه : فاعره .
(٢) الخرد : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريفة :
(٣) غوى : هوى وسقط .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومي البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنها حين سقوطها في حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بني هلال وسليم في أواسط القرن الخامس الهجري وخربتها . ولم يحدث شيء من ذلك لمدينة في السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مباني بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها في العراء سوى من مات منهم وجرحه السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضت بها كثرة من المنازل ، وعمّ البؤس كثيرا من الأسر ، ومن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول^(١) :

| | |
|-------------------------------------|--|
| يا آلَ عطبرة نعهّد حُيُكم | وتلّ بسارية الدموع هَطُولُ ^(٢) |
| جَرَفَ المنازلُ ثم طوَّحَ بعضها | فإذا بها فوق الفضاء طُلُولُ |
| لَهْفَى على دورِ هَوَى بِنِيّتها | بالأسر فيه لساكنيه حلُولُ |
| لَهْفَى على تلك العروش فَبِها | طاحتْ وأقْوَى رَتْمُها المَاهُولُ ^(٣) |
| لَهْفَى على مالٍ غريبٍ رُبُه | متجلّدٌ وفؤاده متبولُ ^(٤) |
| يا معشر الكرماء هل من رحمة | إن الضعيف لفضلكم موكل |
| إن تُنْفِقُوا فالفضل لا يُنْسَى لكم | أبداً ويحمدكم عليه الجيلُ |
| والله يجزيكم ومن يُجْزَى غَدًا | عن صالحٍ نصيبُه مقبول |

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تمهدا ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التي جرفتها ، وطوّحت بها في الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طولاً خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتها على تلك الدور التي خر بنيناها وتلك العروش التي تداعت وأقفرّت من سكانها ، والأموال التي غرقت في السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لمولاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتوا سونهم به وتنفقونه لن يُنسى لكم أبداً ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البارّ الذي لا شك في أنه عمل صالح ، وسيقبله الله منكم . وتنزل بأم درمان سيول كاسحة ويرثيها مدثر اليوشى ، ومن قوله^(٥) :

(٣) طاحت : نزلت : أقوى : أقصر .

(٤) متبول : مفعول .

(٥) شمراء السودان ص ٣٣٨ .

(١) شمراء السودان ص ١٨١ .

(٢) رمل : مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شدد .

الانصباب .

هَمَزَ الرُّكَامُ فَسَامَ أَزْهَارَ الرُّبَى خَسَفًا وَعَثَ بَرُوضِيَّةٌ وَوَهَادٍ^(١)
 تُذَرَى الدَّمَاءُ عَلَى الْخُدُودِ أُرَامِلٌ يَنْدَبْنَ خَشْبَةً ضَيْعَةُ الْأَوْلَادِ^(٢)
 عَبَسَ الزَّمَانُ بِوَجْهِهِمْ فَأَذَاقَهُمْ مَا لَمْ يُذْقه مَكْبَلُ الْأَصْفَادِ^(٣)
 مَنْ ذَا يُسْرِى هُمُومَهُمْ وَيَرْجِئُهُمْ مِنْ نَقْمَةٍ طَرَقَتْهُمْ وَعَوَادِي^(٤)
 فَالْفَيْثُ قَدْ أَخْطَأَ وَمَا يَدْرِي لُبَا لِأَرْضِ السَّوْيَةِ سَالِ أُمُّ بِالْوَادِي
 لَكِنَّهُ حُمُّ الْقَضَاءِ لَتَعْلَمُوا أَنْ الْحَيَاةَ مَعُونَةٌ وَأَيَادِي^(٥)

ومدثر يذكر أن ركام المطر تنهمر لهما شديدا فنزل بأزهار الربى خسفا وهوتا وعات
 فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويكيين خوفا من
 ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم في وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم
 يذقه المكيّل بالأغلال ، ويهتف الشاعر في الناس : من ذا يزيل همومهم ويرجيئهم من عذاب
 هذه الكارثة التي نزلت بهم ومن عوادي الدهر ونوابه ، ويذكر أن الفيث أخطأ ، وسقط
 دون أن يدري أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف في قومه : لقد حُمُ
 القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة ومن سايقة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم
 درمان أشقاءكم ، وتمينوهم بالثمن والنعيم الوافرة .

الأصفاة : الأغلال والقيود .

(٤) يسرى : يزيل . عوادي : نواب الزمن وكوارثه .

(٥) حم : قضى وقدر .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . ساه خسفا : أنزل به هوتا .

(٢) تدرى : تُسبل .

(٣) عبس : تجهم . مكبل : من كبله أى قيده .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العفيف

مر بنا فى الجزء الخاص بالمصر الإسلامى أن الغزل حيثذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول فى المدن التى تحضرت على لسان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثانى فى بوادى نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذى يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضرى وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذرى النقى الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم فى فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهري المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد فى انتحاه لنبوياته كقوله فى مطلع إحدىها^(١) :

بادِ هواهُ وزائِدْ خَفَقَهُ صَبٌّ تَفَرَّقَ بِالنَّوَى أَخَذَتْهُ^(٢)
 قد خالته حسنُ التصبُّرِ بعدما بانوا ودفَّتْ بِالْبُكَاءِ أَجْفَتْهُ
 عجباً لربِّعِ بِالنَّوَى لَعِبْتُ بِهِ أبهى النَّوَى فَتَفَرَّقَتْ سَكَّاتُهُ
 باطِئنا بطوى الفلأ رفقا فَبَرَّ — الركب ضلَّ من السرى وخَدَّاهُ^(٣)

وقفوا المطى ولو كلمحة ناظر فمضى المعنى تنطفئ نيرانه
 وراحم حبا صدره ضاقت به أسرارُهُ وتزايدت أشجائه

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه يحب ، شئت النوى والبعاد أصدقاءه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد تأييم ورفاقهم وقد تهمرت الدموع من أجفاته ، ويعجب لعبث أبهى الفراق بسكان ربع بالنوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركه بطوى الفيافي أن يرفق به فإن الركب ضل فى الليل بسيره السريع ،

(٣) الوعدان : ضرب من سير الابل السريع

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .

(٢) أخذه جمع خدن : الصديق .

ويقول له قف المطى ولو لحة ليملى بجمال صاحبه ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنشىء ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت فى صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عم البنا فى صدر مدحة قوله منزلاً^(١) :

أبداً يؤرقتى غير شذاك ويزيدنى قلقاً دوام جفائك
ويردنى من حالة العقل إلى حال الخبال تذلى وإياك
ويزيدنا طرباً وحسن مسرة برق تائق من ضياء سنائك
يا ربُّه الحسن الذى تقن الورى أكذا يكون جزؤه من يهواك
عذبتى بالصد والمجران ما ذنبى سوى أنى أروم إفساك

والشيخ محمد عم البنا يقول إنه دائماً مؤرق ، يؤرقه طيب عطر صاحبه وانتشاره ، ويزيده قلقاً وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختل عقله من كثرة تذللها وشدة إياها ، وإنه ليسرّه ويطره شعاع برق يتائق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلاً : ياربُّه الحسن الذى فتت به الناس أهلكاً تجزين من يحبك ، لقد عذبتى بالصد والمجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقنا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون منزلاً^(٢) :

ملك النهى والملك بعض صفاته ريمٌ أغنُ بتيه بين لدياته^(٣)
رشاً شذاً فرعا لأنى رُغته إذ جتته وفرغت من لفتاته^(٤)
نشوان من خمر الدلال حبته هاروت كل السحر فى لحظاته
وسنان كامل يفظيه لكنه كسر الجفون لكسر قلب دعائه
كسلان أنشط من رأيت إذا أحد سر بهائم متعشق لصفاته
ضمت جوانحه اللطيفة صخرة هى قلبه هيهات لى صفاته^(٥)
يا نرجسا ينفى لسروض حدوده فكيف لنجنى السوردة من ثمراته

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبه إنها ظلى فى صوته غنة بته دلالة وجمالاً بين لداته ، إنها ظلى لايزال صغيراً ، ترنم بصوته فرعا لأنه خاف حين رأتى ، وذعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته متشياً من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويؤرى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل الليفة ، وكأنما كسر جفونه - كما يقول - لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذأر أى صباً عاشقاً له ، وقد ضم بين جوانحه قلباً كأنه

(١) رشاً : ظلى صغير . شدا : ترنم .

(٢) الصفاة : حجر ألس عريض .

(٣) شعراء السودان ص ٢٨١ .

(٤) شعراء السودان ص ٢٦٥ .

(٥) ريم : ظلى . أغن : صوته غنة . لفته : أثره .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذرى الذمُّع كأنما يريد أن يسطى روض خدوده ، ويقول له قف الذمُّع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح^(١) عبد القادر :

وعزالِ همتُ فيهِ أنْهَرَ العينَ وناما
ما كفاه الحجرُ حتى حَرَمَ العينَ المناما
هو عمدا نكثَ العهدَ لَمْ يَمُزْغِ الذِّمامَ
لا تلوموا ذا شجونٍ سَنَ للناسِ الغراما
كلما ناسح اشتياقًا عَلمَ النُّزوحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بيزال أسهره ، وكأنما لم يكفه المجران ، فحرم عينه النوم ، وقد نقض العهد ولم يزع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا عما شرع للناس سنن الحب وكلما ناسح اشتياقا وولما وهياما خيل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل . ويقول عثمان هاشم منزلا^(٢) :

يا ظبيُّ هل لأسيرٍ لَحْظُكَ فادى
جَرُدْتُ من لَحْظُكَ غَضَبًا فاتكا
نلتُ المني في الحسنِ أنتَ ولم أَلِ
لولا الحياءُ لقادني لك في الدُّجى
أَمْ لافْكَالُ لَه من الأصْفادِ^(٣)
وهزرتَه ففتكت بالأسادِ^(٤)
من طيب وصلك بُغْيَتِي ومرادى
شوقُ أذاب حُشاشَتِي وفزادى^(٥)

وهو يسأل صاحبه هل يوجد من يمدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقبوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفًا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت في الحسن كل ما تمنيت ، ولم أتل شيئا من طيب وصلك ، ولولا حيائي لقادني إليك في الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسي^(٦) :

بالله يا حُلُوَ اللَّما
صددتُ عني ظالما
هلا ذكرتَ يا رِشا
رفقا بصبٍ راح يَهْـ
إن شامَ من غوْكمُ
ويكتم الوجْدَ وكَم
مالك تجفرو مُفَرِّما^(٧)
أفديك يا من ظَلما
غَيْشا تَقْضِي بالحِمْي
سوى طَيْفِكَ المسلما
برقا أقسام ماَما^(٨)
يَغْلِيهِ أنْ يُكْما

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .

(٣) الأصفاة : الأغلال .

(٤) جردت: سللت. غضبا: سيفاحدا. فاتكا: قاطعا .

(٥) حشاشتي : بقية روحي .

(٦) نغفات البراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥ .

وكتاب محمد سعيد العباسي ص ١٩٧ وراجع ديوانه .

(٧) اللما : سيرة في الشفة .

(٨) شام : رأى .

والنزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمره الشفة ماله
يجفو صباً مفرما به . ومع أنه يصد عنه ظالما يفديه بروحه ، ويذكره بميش وأيام مرت بالحمى ،
ويقول له : ارفق بصب ، لم يعد له إلا طيفك فى الحلم يهواه ، وإن رأى برقالمع من أفقكم
ندب وبكى طويلا ، ويحكم الوجد والهيام وكم يغلبه كملته . ويمضى فى القصيدة منشدا :

لله محسوب رأى حبة قلبى فرمى
أعبيذه من جائر حكمته فاحكما^(١)
لقيته فى أربع يضر كأمثال الدما
شلهن أزهار الربيع مع وحكين الأنجما
وقفت فاستقيته وشد ما بي من ظما
جاء بماء قلت هل حاجة مثل منك ما^(٢)

وهو يشكو محبوه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيده أن يكون ظالما فقد
حكّمه فتصرف حسب هواه ومشيته . ويقول إنه لقيها فى أربع جميلات من حولها كأمثال
الدنى البديعة ، شاتهن أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى
ظما ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعبا : وهل حاجة الصب المرم مثل منك إلى ماء ؟ ! . وهو
يترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ،
فلكت عليه ذات نفسه ، وظل يمجدها ويتغنى بها غناء حارا طوال حياته فى أشعاره وقصائده
الرائعة . وتوقف قليلا لترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته
العفيفة الطاهرة .

الشيخ أبو القاسم^(٣) أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحي الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٦٦ م وهو من بيت شيوخ
دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألفه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرء حفظوه
القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضيا لمدينتها ،
وألفه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلا أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه
الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه
درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علميا عُيّن مدرسا بجامع بربر
واستولى عليها المهدي ففر به منه واتخذة كتابا له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور
الشوش ص ١٧.

(١) احكم هنا : تصرف كما يشاء .

(٢) ما : ماء .

(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى بالسودان عيّن قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولكائته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأنتع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشئ منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة يتألون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتمهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية غفيفة نارة يفردها ونارة يجعلها مقدمة لمداخحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المداخح قوله :

للى بدتْ لما أضَاءَ الكوكبُ فمحتْ ضيَاءَهُ وزالَ عَنَّا الفَيْهَبُ^(١)
واستقبلتْ قمرَ الزمانِ فتاله من حسنِها الكَلْفُ الذى لا يذهبُ^(٢)
وتفرَّدتْ فى حُسْنِها ودلالِها وحوثُ من الأوصافِ ما يُستغربُ
فتزاحمتْ عشاقُ حُسْنِ جمالِها كلُّ لحسنٍ وصالحٍ يتطلَّبُ
والعشقُ صعبٌ لا يطيقُ صُروفه إلا الذى لعذِيبٍ يَشْتَعِبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه للى عا ضياء الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فتاله من حسنها - خفرا وحياء - غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحوث من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكل يمتنى الوصال ، والعشق - بحق - صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذبه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فَوَرَّ بِجَفْنَيْ من أحبِّ سبلى وتوريدُ خديهِ استطارَ جَنَلى^(١)
ورقةً خَصِرٍ واحتشامُ شَمَلِي حكمنَ بأُسْرِي واستنَّ هَوَلِي
وإنْ الهوى المَذْرَى أُنْسِرُ حاله توقُّدُ نيرانِ بغيرِ دخانِ
وَلَمَّ مَذْ عُلَّقْتُ لى بِخاطرِي جفيتُ منامِي وانتقدتُ الأملِي
سلاها فهل قلى سلاها وهل جرى حديثُ سواها فى فمى ولسلى

وهو يذكر أن الفتنور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستن هوائه . وما أشد الهوى المذرى

التفريات .

(١) النهب : الغلام .

(٢) كلف القمر : ما يؤرى على سطحه من بعض

إن أيسر أحواله توقد نيرانه في الصدر والفتاد ، وإنه مذ أحب لي جفاه النوم وقد كل أمانيه
إلا أمنية وصالحا ، وأسألا هل سلاها قلبي وهل نطق فمي ولستى بمحدث سواها ، إنها كل
شغلي في الحياة . ويقول :

بسمت عن ذرٍ فخرٍ مستين منع البدر ضياء أن بين
وبدت للورد في خد نصيب سر فراح الورد مصفر الجين
وأملت قدها فالبان في خجلة يضحك منها الياسمين
ورمت بالخطير منها فأصا بت به حب قلوب العاشقين
فتراهم من جراحات اللوا حظ ما بين قبلي وطمين
هكذا من يشق الخود الحسا ن يذق مر الهوى غنبا ممين^(١)
وكأن الله قد صورها من هوى الأنفس لا ماء وطين

فصاحته أو محبوبته بسمت عن لآلئ نثر واضح منع ضياء البدر أن بين ، وبدا للورد
خدها الناضر فصار مصفر الجين حياء وخجلا ، وأملت قدها الممشوق فخجل شجر البان
المشهور بقده الجميل خجلا يضحك منه الياسمين ، ورمت بسهام لخطيرها فأصابت به أفدة
العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتل وجريح طمين . وهكذا من يشق الفتاتان
الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح في فمه غنبا سائما ، وكأن الله صورها من هوى الأنفس
وعبثها لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إيسى . ويقول متغزلا :

تجنني على مقتوله وتجربا أشأن غزال الحسن أن يهدر الدما
وما حيلتي والقلب أسر لحاظها ومهما رنت مال الضمير مسلما
فإن أقيلت فالجنة الخلد نزله وإن أعرضت قد حل نزل جهنما^(٢)
فكيف خلاصى يا رفاقي ودلها الـ صدود وركن الصبر مني تهديا
وإن قلت إني صادق الود والوفا تقول ألا مت في صدودي متيما
وجرت لأنى لم أجد من غنا الهوى خلاصا فتجو أو إلى الوصل سلما
وحسبي أن أحظى بطيف خيالها إذا هي لم تسمح بوصل تكرما

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبه تجنت على قتلها بسهام عينها ، وهل ذلك شأن
الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتي وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما
مسلم لها مستسلم ، وإن هي أقيلت أحسن القلب كله في منزل من منازل الجنة ، وإن هي
أعرضت أحسن كله في منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودلها دائما الصدود

(٢) نزل : متزلا .

(١) ممين : سائق .

والمجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إني صادق الحب والوفا قالت له : مت في هجرتي ميمى بي عاشقا ، وحار لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بمجها ولا طريقا إلى وصلها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبي أن أحظى بطيف خيالها فى الحلم ، مادامت لا تسمح بوصولها كرها وعطفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ فمى القاسم - كما رأينا - سلسة عذبة . وهى غزليات حب عذرى غفيف نفى سام ، فى لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

٢

شعراء النقد العفيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السوداني الطامح فى الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورا عميقا بالآلام التى تعيشها أمته وأنفالا ، واقرن ذلك فى نفسه يأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السودنى بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صوّر فيه فعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو نارة يعرض على الشباب مجد آبائه الأولين لعله يحاكيمهم ويسترد شيئا من مجدهم ، ونارة ثمانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كى يتخلص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليفة به ، ومن يتردد على لسانهم اللوان من النقد والشكوى من الزمن محمود أميس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد فى حفل للمولد النبوى سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله فى مدحة نبوية^(١) :

زُرِغَ الجفَاءُ بنا وأثمر غرسه فتنافر الأبناء والآباء
وتفاخرت بالموبقات صفارنا وشيوخنا فهاً بنا الأعداء
وتسايلتُ منا النفوسُ حزينه جَرَحَى ونال جميعنا الإعياء
وأما على الإسلام ماذا ناله وهو الشفاء وما سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء نهراً بنا هزءاً شديداً ، وإنما ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتنا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقى فى ذكرى الهجرة بالسنة التالية^(٢) :

وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر فى كتابه
الشعر الحديث فى السودان .

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ .

(٢) نغفات البراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

تبيتُ على الممّ المضّر نفوساً وتمشى على جفّر من الذل أضرمّا
 نائمٌ وملءُ العين همٌ وحسرةٌ وأغنىنا حزناً تفيض لنا دما
 فياليت شمرى هل أرى النيل جاريا طليفا كدمعى إذ يسيل مُقدما^(١)
 وهل سأرى يوماً عن الغاب أسدّه تذودُ إذا ما الليل في الغاب أظلما
 وهل يُرتجى الإصلاحُ والشعب نائمٌ وهل يبلغ الآمال من كان نائما
 ولم لا أرى ما بيننا غير صامتٍ وقد آن للأحجار أن تتكلّما

ونفس عبد الرحمن شوقي ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنا إذا مشيت تمشي على جمر مشتمل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم مملأ بالهموم والحسرات على وطنهم مكظفة حزنا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجري عملا بذهب الطغي الأحر كمداته ، وهل سيدود أسد الغاب عن عربته الذي خيم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملا من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمنيه . ويصرخ في قصيدة ثالثة^(٢):

مضى زمانٌ وقلبي ممتلئ ألما وفى فؤادى أسمى كالنار مضطربا
 حزنا على أمةٍ باليل نائمةٍ تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظلما

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكظظ بالألم وفؤاده ملء بلواعج أسمى مشتمل كالنار الحامية حزنا على أمة النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظلما والماء مدّ أبديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وستترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حبيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد^(٣):

الاتحاد هو الحياة وإنما موت الشعوب تفرق الأفراد
 كم أمة نهضت به ختمت بحياتها من بعد ما استعبد
 ولكم تَرَى من قُوّةٍ ومالكٍ نزل الشقاق بها لشرّ مهادٍ
 تلك الشعوبُ تروم جَمْعَ شتاتها وهنا نبيح الجمع بالآحادٍ
 إني ستمتُ النضجَ غيرَ مؤثّرٍ وعتابَ قسومٍ فى سِنات رُقادٍ

وهو يدعو قومه السودانيين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكَم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمعت بحياتها لتخلصها من نير

(٣) شعراء السودان ص ١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور

الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

(١) مثلما : دما أحر .

(٢) نشأت البراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠١ .

الاستبداد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت في شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سمعت تقديم نصحي لأمتي إذ أراه غير موثر ، وكنتى أُنصح وأُعاتب قوماً نياما . ويقول شاكيها من الزمن وهمومه وتناوبها له هُما من وراء هم^(١) :

أَلِفَ المَمُومَ بَرَعْدَ . وَأَلْفَنَهُ
فَقَدَا بَوَادِي السُّرُورِ بَوَادِي
لَا تَسْتَقِرُّ رِكَابُهُ فِي بَلَدَةٍ
حَتَّى يَنَادِيَ بِالرَّحِيلِ مُنَادِي
وَكَاثِنِي كِرَّةٍ وَدَهْرِي لَاعِبٍ
يُرْمِي بِهَا الْحَدَثَانِ بِاسْتِدَادٍ
لِيَصِيهَا بِبَلٍ بِهَا لِيَصِيئِي
وَالدَّهْرُ أَرْمِي لَاعِبٍ وَمُعَادٍ
لَكِنَّهُمَا ارْتَقَى لَا يَرْتَقِي
لِيَنَالَ مِنْ صَبْرِي بِذَا الْإِسَادِ^(٢)
إِنْ شَابَ رَأْسِي بِالْخَطُوبِ فَلَمْ يَشَيْبْ
عَزَمِي الْفَتَى وَلَا ذَكَايَ فَوَادِي

وكان الشيخ حسب قد وُظف كاتباً في المحاكم الشرعية ، وكان رؤسائه ينقلونه من محكمة إلى أخرى في أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح - منذ توظف - ترباً للمموم بألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنا غدا بوادٍ والسرور بوادٍ آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته في وظيفته ، فلا يكاد يستقر في بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنا أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمي بالنواب والأحداث ليصيبها بي ، بل ليصيبني بها ، والدهر أرمي لاعباً ومُعَادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رماني ليلاً أو نهاراً فلن ينال من صبري ، وحتى لو شاب رأسي لما ينزل بي من خطوب فلن يشيب عزمي القوي ولا فَوَادِي الذكي . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخراً ، وفيها يقول مخاطباً لمرتبته^(٣) :

أُمرَّتْ بِي مَالِي أَرَا كَ قَصُرَتْ عَنِ تَبَلِ المَرَادِ -
أَشْكُوكَ أَمْ أَشْكُوكَ إِلَيَّ لَكِ نَوَازِلُ المَحْنِ الشَّدَادِ
الْجَيْبُ خَالٍ أَيْضًا وَيَبَاضُهُ عَيْنِ السَّوَادِ
إِنْ رَمْتُ صَبْرًا عَزَمِي وَأَمْضَتْنِي طَوْلُ السَّهَادِ^(٤)
أَوْ رَمْتُ قَرْضًا رَدَّنِي عَنْهُ الحَيَاءُ مِنَ العِبَادِ
أَوْ هَكَذَا حَظُّ الْآلِ طَلَبُوا المَعَالِي بِالْمِدَادِ

وهو يذكر لمرتبته أنه لا يكفيه لئيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيُشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من المحن الصعاب ، فجيبه خال أيضاً ليس فيه أى نقود وهو يياض في الظاهر لكنه في حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبراً عزمي ولم أستطعه ، أو فكرت في قرض رَدَّنِي

(٣) شعراء السودان ص ١١٨ .

(١) شعراء السودان ص ١٢٤ .

(٤) عزني : فهرني . أمضيتني : آلتني .

(٢) الإسَاد : السير ليلاً ويريد نزول المموم به .

الحياء عن طلبه من الناس . وتتوقف لترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأمنته ،
ولصالح عبد القادر المشارك فى النقد العنيف والشكوى من الزمن .

الشيخ عبد الله^(١) البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم فى بيته ، ثم انتظم فى مدرسة رفاة الأولية ، وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين فى كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا بالكلية فترة ثم عمل فى مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية فى المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وسرعان ما تألّى اسمه مع علمين فى الشعر هما محمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن وهم شعراء أفذاذ وتسبّم الثلاثة ذروة الشعر السودانى فى النصف الأول من القرن الحالى ، ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تفيدنا فى الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسى بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نورخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميله بعد هذا العصر . ومن أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم فى كتابه فنانات اليراع قصيدته^(٢) فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهل ليلة رأس السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدين حَدِّثْ فإن حديثنا منك يَهْشِفِينِي
خَبِرْ عن الأغصُرِ الأولى لتضحكني فإن أعْجَارَ هذا العصر تُبْكِينِي

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلمة الباكية من أخبار السودان وليناته . ويرفع أمام بؤصار السوءتين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وينداد وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب السودانى منشدا :

متعددة (انظر الفهرس) . وله ديوان باسم ديوان البنا
(طبع الخرطوم) .
(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى
السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبدالله البنا وشعره كتاب
شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب فنانات اليراع
ص ١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور
محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة
وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع

أُحْبِى ودعاءُ الحبِّ رَحْمَةً لَا يُخَزِّنُكُمْ بِالنُّصْحِ تَلْقِي
تَرْضَوْنَ بالدُّونِ والعِلياءِ نَفْسَ لَا تَدِينُ يَوْمًا لِرَاضَى النَفْسِ بالدُّونِ
والمجدُّ يَنأى فَلَا تَدْنُو مَرَاجِيهِ مِنَ الْجَبَانِ وَلَا يَنْقَادُ بِالْمُؤْنِ^(١)
تَفَرَّقْ وَتَوَانٍ وَاتَّبَاعُ هَوًى إِنْ الْهَوَى لِهَوَانٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ
وَلَا اعْتِبَارٌ وَلَا رُقَى لِنَازِلَةٍ وَلَا احْتِيَاظٌ وَلَا رُخْمَى لِمُنْبُونٍ

وهو ينادى قومه قبل تقديم النقد العنيف لهم بقوله : « أُحْبِى » تلطفاً وجذباً لهم كي يستمعوا إلى نقده لهم ونصحه ويصدروا عنه ، ويقول لهم إنه قول غليظ ولكن باطنه الرحمة ويسجل عليهم أنهم يرضون بالدون ، والعلياء لا تخضع لمن يرضى به ، والمجد يبعد عنه إذ لا تقرب مراكبه من الجبان ولا ممن يرضى بالمون والموان ، وهل شأنكم إلا تفرق وتشتت وتوان ، والرجوع إلى الهوى فى حياتكم ، وما الهوى إلا ذل ما بعده ذل ، ولا اعتبار ولا عظة ولا مراقبة لازلة نزلت بكم ، ولا احتياط ولا حذر ، ولا رحمة لمفنون أو ضعيف والهن .
ويهدف بأته :

يَا أُمَّةً جَهَلَتْ طُرُقَ الْعِلَاءِ فَلَمْ تَسِقْ لِنَايَةِ مَعْقُولٍ وَمُخْرُونَ
وَلِلْمَدَارِسِ هِجْرَانٌ وَسُخْرِيَةٌ وَلِلْمَتَاجِرِ ضَعْفٌ غَيْرُ مَوْزُونٍ
وَلِلْمَفَاسِدِ إِسْرَاعٌ وَتَلِيَّةٌ وَلَا الثَّقَاتِ لِمَفْرُوضٍ وَمَسْنُونٍ
وَالنَّاسُ فِي الْفَطْرِ أَشْيَاءٌ مَلْفَقَةٌ فَإِنْ تَكْشَفْ فَنَنْ ضَعْفٍ وَتَوْهِينٍ
فَمَنْ غَنَى فَقَسِرْ فِي مَرْوَةِ وَمَنْ قَوًى بَضْعَ النَّفْسِ مَرْهُونٍ
وَمَنْ طَلَّقَ حَبِيسَ الرَّأْيِ مُنْقَبِضٍ فَاعْجَبْ لِمُنْطَلِقٍ فِي الْأَرْضِ مَسْجُونٍ

وهو يقول لأمة^(٢) جهلت طرق العلاء والشرف ، فلم تجر فيها للوصول إلى غاية معقولة أو مخزونه تنتظرك ، وإليك لتهجرين المدارس بل تسخرين منها ، ولا تهتمين بمزاولة التجارة ، فالتاجر ضعيف ضعفا شديداً ، وتسرعين إلى المفاصد ، بل ما أشد تلبيتك لها ، دون أى الثقات لواجباتك الدينية وما عليك من الفروض والتوافل . ويبلغ بالشاعر السخط أن يسمى أهل السودان أشياء ملفقة ، وكلما تكشف جانب منها ظهر فيه الزهن والضعف ، وهل بها إلا غنى فقير أشد الفقر فى مروءته فلا يمد يداً إلى البؤساء وإلا قوى ضعيف النفس ذليل مهين ، وحتى الحر الطليق يحبس رأيه عن أمته ، وكأنه ليس حراً طليقاً بل سجيناً مكبلاً بالأغلال . ويكثر مثل هذا النقد يوجهه الشيخ عبد الله البنا إلى قومه السودانيين مبعداً عن نفسه السودانية الطامعة إلى أن تأخذ أمته السودانية مكنتها فى العالمين . وهو مهما قرع وصور من عيوب المجتمع السودانى إنما يريد أن يستثير حية السودانيين لكى يتحدوا ويطلبوا كل ما يطلبه النفوس

(١) الهون : الهوان .

الكرامة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملامى والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأمنته ، وحتى لا ينقبض سوداني عن بيان رأيه السديد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة^(١) طويلة بعنوان : دعة على اللغة العربية ، وهو فيها يمرض ازدهارها وعلماءها وشعرها والتابعين ورجالائها فى العصور الماضية ، ويطلب فى بكائها وعويلها على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب بُناءها من النوم والهوان ، يقول :

أُطِلْتُ عَنِّي عَلَى الْأَيَّامِ حِينَ جَنَّتْ عَلَيْكَ فَاسْتَلَيْتُ نُبْهَى مَزَايِكِ
 وَلَوْ أُجَلِّيتُ لَقَالَتْ إِنَّهُمْ نَفَرُوا نَامُوا فَحَالَتْ بِمَا نَامُوا سَجَايِكِ
 وَلَوْ أُجَلِّيتُ لَقَالَتْ إِنْ قَوْمَكَ قَدْ رَضُوا الْهَوَانَ فَطَالَتْ فِيهِ سَكَايِكِ
 لَوْ قَدَّرُوكَ لَعَادَتْ فِيكَ نَاضِرَةٌ رَوْحُ الْحَيَاةِ وَسَرُّ الْكَوْنِ مَحَايِكِ

وهو يقول للغة العربية التى يكيها فى قصيدته إنه أطال عتله على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجبت على هذه التهمة لتعلت بأن بُناءها ناموا على النهوض بها فتفريت روعتها البالية ، بل لتعلت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكانها له معهم ، ولو قَدَّرُوها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناضرة ، وسَرُّ الْكَوْنِ عودُهَا إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينتعهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كثير .

صالح^(٢) عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن شُرِّدُوا وسُجِنُوا فى سبيل الوطنية ، واعتُقل بمصر منهما بالاشتراك فى قتل

الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوشى ص

١١٠ وكتاب درر الأدب فى النضال الوطنى فى السودان

لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نثبات

البراع ص ١٥٣ ، وشعره السودان ص ١٤٧ ، والشعر

السيرل ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُرِدتْ إليه حرته .
وشعره يتوزع بين نقد عفيف لأمنه وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى
قومه : أهل السودان :

قَوْمٌ قِيَامُ الْفَضْلِ بَيْنَ صُدُورِهِمْ كَفَيَاكُمْ هُودٌ بَيْنَ أَسَمَةِ هُودٍ
لَا يَشْعُرُونَ بِمَا أَلَمَ بِشَعْبِهِمْ فَكُنْتُمْ قُدُّوًا مِنَ الْجُمُودِ^(١)
وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَلِينُ وَتِهِمْ لَا يَمَيَّأُونَ بِقَارِصِ التَّنِيدِ^(٢)
يَا أُمَّةً غَفَلَتْ وَطَالَ جُمُودُهَا مَاذَا كَسَبَتْ بِغَفْلَةٍ وَجُمُودٍ

وهو يبالغ فى استثارته لأمنه فيقول إن قومه لا يمكن أن يؤتى الفضل ثماره بينهم فمثله
فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكُنْتُمْ خَلَقُوا مِنْ
صَخْرٍ ، وَمِنَ الصَّخْرِ وَالْحِجَارَةِ مَا يَلِينُ أَمَا هُمْ فَلَا يَلْبِنُونَ وَلَا يَحْفَلُونَ بِأَيِّ تَنْدِيدٍ مَهْمَا كَانَ
شَدِيدًا عَنِيًّا ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَحَالُوا دُنْيَانَا شَقَاءً وَأَغْلَالًا ، وَيَهْتَفُ بِأَمْتِهِ ضَجْرًا غَاضِبًا نَاعَتًا لَهَا
بِالْغَفْلَةِ وَالْجُمُودِ . وَدَائِمًا كَانَ يَشْكُو مِنَ الزَّمَنِ وَمَا يَنْزِلُ بِهِ مِنَ الْكَوَارِثِ وَالْخَطُوبِ ، وَهُوَ
ليصرخ :

أَلَا هَلْ مَعِيْنَ أَوْ مَوَاسِيْ فَاشْتَكِي إِلَيْهِ هُمُومًا بَتَّ عَفْوًا لَهَا مُلْقِي
إِلَى الدَّهْرِ أَشْكُو وَهَوَّ عَنَى مَرَضٌ أَصَمُّ فَلَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَحْسَنِ النُّطْقَا
صَمُوتٌ وَيَقْضَى كُلُّ مَا لَا أُرِيدُهُ فَيَا بَشًّا مَا يَقْضَى وَيَا شَرًّا مَا أَلْقَى
وَأَسْأَلُهُ سَلْمًا فَيَشْهَرُ سَيْفُهُ فَيَا دَهْرًا مَا أَقْسَى وَيَا بَوْسًا مَا يُبْقَى
تَحْمَلْتُ طِفْلًا مِنْكَ كُلُّ عَظِيمَةٍ وَمَا الْعَدْلُ أُنَى بَعْدَ ذَا عَلَقْنَا أُنْقَى
وَتَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَغْصِرَ مُبْدِيَّ فَيَا بُعْدَ مُطْلُوبٍ بِهِ طَارَتْ الْمُنْفَا^(٣)

وهو يمتنى معينا له أو مواسيا ليشتكى إليه هومًا ثقلا باتت جاثمة على صدره ، ويقول
إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى
بكل ما لا أريده ، فذمًا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسألني
في شهر سيفه ويسله لحربي ، فما أقساه ويا بؤس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتي
وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقيني علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد
عونا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعْدَ هَذَا الطَّلَبِ الَّذِي
طَارَتْ بِهِ الْعَنَاءُ إِلَى غَيْرِ مَآبٍ . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

(٣) العنفا : المنفا : طائر أسطوري .

(١) قدوا : خلقوا .

(٢) قارص : لادغ .

لا تَلْمَنِي فَتَكُنْ مَتَّهِمِي إِنَّ عَقْلِي لَمْ يَكُنْ مَتَّهِمًا
وَلَمْ أَدَّهِرْ عَلَى تَقْصِيرِهِ أَخْطَأُ الدَّهْرَ وَعَمْدًا ظَلَمًا
أُبْدَا وَاللَّهِ لَا أَعْذِرُهُ طَالَمَا جَارٌ وَحَقِّي هَضْمًا^(١)
وَطَوَّلَتْنِي فِي زَوَايَاهُ الَّتِي ضَيَّعْتُ نَاسًا وَوَارَثَ أَمَّا
وَلَكُمْ أَرْعَجُنِي مُتَقَمًا وَلَكُمْ وَجْهٌ نَحْوِي تَهَمًا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمني ولا تتهمني فإن عقلي كما عهدته لا يأتي ما يتهم به ، ولم الدهر على تقصيره في حقى ، فقد أخطأ في ظلمي عمدا ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حقى وطولتني في زواياه المظلمة التي طالما طوى فيها ناسا وأخفى أئما ، ولكم أزعجنى بما يصب على من انتقامه الشديد ، ولكم وجه إلى نهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم. منشدا :

مَنْ لِقَوْمِي ؟ إِنَّهُمْ قَدْ أَهْلَوْا مَا بَنَى آبَاؤُهُمْ فَتَهْدُمَا
غَلَبَ الْيَأْسُ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ ضَعُفُوا رَأْيَا فَرَلُوا قَدَمَا
يَا بَنِي قَوْمِي أَفِيقُوا إِنَّكُمْ مَا خَلَقْتُمْ لِتَعِيشُوا غِنَمَا
وَلَقَدْ يَحْزِنُنِي أَنِّي أَرَى وَأَبْكُمْ مُخْتَلِفًا مُتَقَمَا
فَأَفِيقُوا - يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ - وَاطْلُبُوا الْعِلْيَا وَجَارُوا الْأَمَّا

وهو يسأل من يبه قومى إنهم أهلوا ما شاده آبائهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بنى قومى أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لحزننى فرقتكم وانقسامكم شيما ، فأفيقوا من هذا المم الثقيل وانعدوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناعضة فى حياتها العاملة النشيطة .

شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا فى العالم العربى منذ أن ظهرت طرق التصوف السنى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن يعم التصوف فى السودان منذ القرن العاشر الهجرى ، إذ كثر فيه بناء الخلايا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التى أسسها بيغداد عبد القادر

(١) مضم : نغمى .

الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلي لأبي الحسن الشاذلي التونسي المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال - كما أسلفنا - إن الذي أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي . إذ نزل السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية في النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضاً عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعاً شديداً ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعاً مهماً في مدينة الدامر . وبخيل إلى الإنسان أنه لم يكن في السودان أحد طوال عصر الفونج إلا ينتسب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا في الحديث عن تلك الطريقتين في صدر عرضنا للمجتمع السوداني . وأيضاً عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظاراً لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بمصر الفونج كما أسلفنا^(١) :

| | |
|---------------------------------|--|
| كم دودة في عميق الأرض في جُحُرٍ | بأنى لها رزقها في الوقت والحين |
| ألا الزم العلم والتقوى وما تنج | من التمار تفر بالخرَد المين |
| من باع ديناً بدنياً واستمر بها | كلما باع فرْدَوْساً بسجين ^(٢) |
| ولقمة من طعام البر تُشبعني | وجرة من قليل الماء تروني |
| وقطعة من قليل الثوب تسترني | إن متُ تكفيني أو عشتُ تكسوني |

فإنه يوزق كل خلقه حتى الدود في أعماق الأرض فلا تحملُهما لجلب رزق والزم التقوى وعبادة ربك تظهر في الآخرة بالخور جَميلات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوساً بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من فماش تستر جسمه ، إن مات كَفته ، وإن عاش كسته . ومرَّبنا في كتاب الأندلس أن للزاهد أُنَى إسحق الإليري قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفياً سودانياً رأى أن يحاكيه في هذا الصنيع ، فظلم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة تُشدها ودَّ ضيف الله في طبقاته من مثل قوله^(٣) :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| الله لي عُدَّة في كل نائبة | أقول في كل حال حَسْبِيَ اللهُ |
| إلى متى أنت في لُهو وفي لعب | فما مفألك فيما يعلم الله |
| إن الذنوب التي قدمتها كُتبت | إن كنت ناسيتها لم ينسها الله |

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد في جهنم .

وهو يتخذ الله عدة في كل ذنبة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبي الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو في لعب ولهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيان عليه ، وكنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النك والعبادة . وتكرر عند المتصوفة فى عصر الفونج مثل هذه المعارضات لتصادم النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لاثنيته المشهورة قائلا^(١) :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم تهتِكُ أشتارَ إليهم بِرَجْفَةٍ
تلاَّتْ الأنوارُ من نحو خالقي بوقتٍ قياسيٍ أو جلوسى بخلوق

وهى لا تلحق نائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعاني الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أتسده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

(إن كان منزلى فى الحب عندكم) نحولُ جسمي وآلامي وإيلامي
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتُ (ما قد رأيتُ فقد ضيقتُ ألامي)
(أمنية ظفرت روحى بها زما) حتى تركتُ مقامي بين أقوامي
كانت بأيام صفوٍ إذ حلتُ فخلتُ (واليوم أحسبها أضغاث أحلام)

وهو يقول إن كانت منزلى فى الحب الإلهى لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيقت ألامي . وإنما لأمنية فازت بها روحى زما حتى نسيت قومي ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناء ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبلا لربه^(٢) :

يا ربُّ أنت حمايتى فتولئى يا ربُّ أنت من التوائب مفزعى
جذلى - وزينَ ظاهرى - بعوارفِ وبباطنى نورَ المعارفِ أودع
واقبلَ شكابةً فاتتني وتطلبي لنداك وارحمْ ذلتى وتوجع
أنا عبدٌ سوءٍ أوفقتُه ذنوبه فما لاندُ بجيى الرُحساب الأوسع
إن لم تكن لى من ذنوبِ أُنقلتُ ظَهري فما أقوى ، وأفقر مرتعى^(٣)

العباسى للدكتور أحمد عبد الله سالى ص ٥٣ ودويان العباسى .

(٣) مرتعى : معرثنى .

(١) طبقات رد ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد

وهو يضرع إلى ربه قائلاً أنت حمايتي فاحنني ، وأنت ملجئتي من التواب فأغثنني وجُدْ لي
 بإحسان منك أزيّن به ظاهري ، وأودع بدخائل نور المعارف ، وأقبلْ شكوى حاجتي لكرمك
 الفياض ، وارحم ذلي وتوجعي لرأيتك ، إني عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لآئد بحمي
 ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لي وملجئتي من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتمي ومعيشتي .
 وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب ياتبة ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله^(١) :

زائري في الطيف هل من عودة تحيَّ منها مهجتي بل أضغريَّ
 والأصفران : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسي تخميس لبيتين للشبلي الصوفي
 على هذا النمط :

هوائى أنت وهل فى ذلك من حرج أتم ملاذى وأتم فى الدجى سرُجى
 يا سادة قويت فى حبكم حُججى

(لا أبرح الباب حتى تُصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبى وتقصلى)
 قلبى بكم يا سرّة الحى فى شَففى دمعى بمهدى رسوع الطاعتين وفى

بأنّ عطفاً على صَبْ لكم دَنفى

(فإن رضيتُم فيا عزى وبأ شرفى وإن أيتُم فمن أرجو لمصيتى)

والتخميس محكم ، وشطور العباسي الستة متداخلة فى بيتي الشبلي بدقة ، إذ كان بارعا
 فى صوغ شعره وألياته .

٤

شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى
 جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد
 أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى
 لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المدح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوته : « النور
 البراقى فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوته : « رياض المدح » والشيخ
 فمى القاسم أحمد هاشم وديوته : « روض الصفا فى مدح المصطفى » . ولتلقى عند الشيخ
 الأمين الضيرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوة لآمين جابر الأندلسي ، أنشدنا منها قطعة في ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضمر في فواتح مدحته^(١) :

ما للنساء كمثل المصطفى ولد
أعرافه المسك والأفنان وافر
إذ منه مائدة الأنعام والعقل
لمن به توبة كي تذهب الوجلا^(٢)
به ليونس آتس ثم هود هدى
ويوسف حسنه من أجله كمالا

والآيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام في البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة في البيت الثاني وسور يونس وهود ويوسف في البيت الثالث ، واسم السورة ينحتم بمعناه في البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال المطايا ، وهما اسم السورتين بعد الأنعام ، وتوالى السور بترتيب المصحف . ويختم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبي القاسم أحمد هاشم المترجم له في شعراء الغزل العذري مدحة نبوية بديعة يقول فيها^(٣) :

أعمدُ ولأنت أكرمُ مرسل
أعمدُ ما أت إلا رحمة
وأحقُّ من بمدحه يتقربُ
وبشارة ، لك كل خير ينسبُ
يا بن العوالي الشَّم من مُضَرِّ وبا
سيرُ الوجود لك الفناء الأرحبُ
يا سيدى يا خاتم الرسل الكرا
م ومن إليك المتلج والمهربُ
مدحتك آيات الكتاب ونوّهتُ
بفضائل عن ذرك غيرك تُحجِبُ
كلُّ الكمال فئت غايته حده
ما نال ما قد نلتُه متقربُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمدحه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والمتلج لكل خائف فرع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل (وإنك لعل خلق عظيم) ونوّهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم يزل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسمه . روض الصفا في مدح المصطفى ، كما أسلفنا . وكان يعاصره

(٣) شعراء السودان ص ٣٣ .

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .

(٢) الوجل : الخوف .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرده له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما^(١) :

هذا محمد الذى ملأ البلاد هدًى وجاذ

وهو الموصل للطريق المستقيم والسداد

وهو المبشر والمخذر والمحرض للجهاد

وهو الموصل للسلامة فى القيامة والمعاد

والله أعلى ذكره وأذاعه فى كل ناد

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال يجود وبغض ، وهو الموصل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشd والسداد ، وهو المبشر بنعيم الله والمخذر من عذابه وحجيمه والمحرض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلأ الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقنا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وسترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م منشدا^(٢) :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام وبحسن يومك تزدهى الأيام

يا ليلة الميلاد حبلك مفخرا نوراً عليه من النبى تمام

ضاءت به الدنيا وأزهر نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام

شرقا بأحمد خير من وطىء الثرى وله على السبع الطباق مقام

لولاك يا بن الأكرمين لما اهتدت تلك الشعوب ولا استقام نظام

وهو يحى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لما إن الأعوام تفخر بذكرك وتبته بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجِهِ مقاماً فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهتدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لأملك ولا حكم ولا نظام . ويكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أئوامه وشعبه من التخاذل . ويعود إلى نحية العام المحجرى فى قصيدة ثلثة باكيا لإسلام والمسلمين وما عم بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف^(٣) :

(١) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٥٩ .

(٣) شعراء السودان ص ٢١٧ .

غَدَتْ مَلَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْكِي تَأْسًا
تَسُوحُ عَلَى أَيْمَانِهَا وَشِبَاهِهَا
لَقَدْ عَمِلَ الْأَعْدَاءُ كَيْدًا لَسَخَفَهَا
تَذَكَّرْتُ الصَّدِيقَ إِسَانُ مَجْدِهَا
كَأَن لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ مُسْلِمٌ
فِيكُنِي لَهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَزَمَزَمُ
فَهَا هِيَ بَيْنَ الْقُومِ نَهَبَ مَقْسَمُ
فَلَلَهَا سَحٌّ مِنَ الدَّمْعِ مُنْجِمُ^(١)
تَنَادَى بِصَوْتٍ يَقْطَعُ الْقَلْبَ حَسْرَةً
دِرَاكُ أُمِّ حَفْصٍ فَقَدْ كَدَتْ أَعْدَمُ

وملة الإسلام تبكي متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تسوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر، ويكفي لها المسجد الحرام وبئر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرت أبا بكر الصديق العظيم في أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتقول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركني قبل أن يفتك بي الأعداء. وللشيخ مدثر البوشي المولود سنة ١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السوداني، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية، وينشد^(٢) :

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا يَوْمُ مَوْلَدِهِ
حَيِّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ مَشْرِقَةً
حَيِّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ جَالِيَةً
حَيِّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ كَمْ رَقِصَتْ
حَيِّتْ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ إِنْ لَنَا
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ
فَالْكَوْنُ مَبْتَهَجٌ مِنْ نُورِهِ الْحَسَنِ
عَلَى الرَّبْعِ بَوَّجُهُ سَاطِعُ الزُّهْنِ
لِلْبَشَرِ مَذْهَبَةٌ لِلْهَمِّ وَالْحُزْنِ
فِيكَوُ النَّفُوسُ فَحَاكَتْ مَائِسَ الْفُضْنِ
فَخَرَا بِتَجْدِيدِ ذِكْرِي خَيْرٍ مَوْثَمِنٍ
كُلُّ الْوُجُودِ كَصَوَّبِ الْعَارِضِ الْحَيْنِ

والشيخ مدثر يكبر معظما يوم مولد الرسول الذي عمت الكون بهجته من نوره الوضاء ، ويحيى ليلة ميلاده التي استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور وعمت الهم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محامية الفصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إله النبي الذي عمت أنفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الماطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر هزمية اختصر بها السيرة النبوية في ١٢٣ بيتا^(٣) .

الشيخ عمر^(٤) الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن لؤي طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م وتوفي سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م رُزِقَ به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

النبوة كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع
نقات الرباع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان
للدكتور الشوش فى حديثه عن المدح النبوى وشعراء
الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

(١) سح : سبل . مسجع دائم السيلان .

(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .

(٣) أنشد هذه الهزمية صاحب نقات الرباع ص ١٧٥ .

(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به لبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنَى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرته دولة الحكم الثنائى فى منصبه . وكان عالما جليلا وشاعرا مجيدا ، وتُشَدُّ له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوها به ومشيدا :

المتننى المبعوث من بين الورى للخلق طرّاً بِنَسْهِ أَوْجَعُهُ
لولاه ما كان الوجودُ ولم يكن مَلَكٌ ولا مَلِكٌ ولا أَعُوته
حتى ولم يَكُ آدَمُ كَلًّا ولا شَيْثٌ ولا نوحٌ ولا طوفاته
وَنَجَا الخليلُ بجاهه من نارِ نَمَ سرودٍ لعمري إذ جفا خيلائه

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعا من الإنس والجن ، ويستضىء بشعاع ممن نوهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفاته . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . ويمضى فى القصيدة قائلا : بجاهه نجا كلم الله موسى من فرعون وهاماته ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضرر ، فهو سِرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزل ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصَالُ المرسلين له كما جَمَعَ الذى فى كَتَبِهِمْ قُرْآنُهُ
كم قد عفا عَمَّنْ أَسَاءَ وَكَمْ هَدَى من ضَلٍُّ عن طَرُقِ الهدى نَبِيَّهِ
بِمَشَى وَبِكَيْسٍ دَارَهُ وَيَخِيطُ نَوْرُ بَا قد عفا والصنح ذلك شَتَا
يا من علا فوق الطبايق ومن علا الـ رُسُلُ الكرام هو المَكِينُ مَكَتَهُ
يا سَيِّدَ الثَّقَلَيْنِ يا مَجْلَى الصُّدَا يا عَيْنَ هذا الكونِ بل إِسْأَلُهُ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكعب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكَمْ هَدَى أناسا كانوا ضالين يبينه الراجع ، وإته مثال للتواضع كما حكى كتاب السيرة وقالوا إنه كان أحيانا يكس داره ويخيط ثوبه ، وكان دُئِبُهُ الصنح والعفو والغفران ، ويقول إته علا فى معراجهِ فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إته سيد الإنس من الجن ، وإته يجلو الصُّدَا وكل غشاة ، وهو عين الكون

بل إسنه الذى به يصير . وهذه المدحة أروع مدحه الثلاث ، وهو فى المدحتين الآخرين
يعنى بيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .
الشيخ عبد^(١) الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م لأبيه الفاضى
عبد الرحمن بن الأمين الضمير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية
بديمة له ، وعني به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م
ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بلوى حمد ودنفلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه
العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م
بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعين مدرسا للغة العربية
بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى
إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السودان من قُنى وكم لأطيافها من سيخر الخلال

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نُوْرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفئدة من الشعراء
السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهرة مدوية فى عالم
الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى
كثير ، وكل منهم خليف بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى
المدائح النبوية الباع الطويل والقدر المثل » وأشد له نبوية ألفها سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م فى
حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

| | |
|---------------------------------|---|
| نبيُّ كان للدينا جمالا | وذخرا للمديم وللنسي |
| نبيُّ قد يُجير على الليالى | إذا ما جئنا بالأمر القوي ^(٢) |
| لمرَّك ما النبيُّ - فدنك نفسى - | بمنطلقى اللسان على البذي |
| ولا هليج تزعزعه خطوب | ولا مهدي الملامة للمسي |
| ولكن قد عرفناه رءوفا | يرد عوادى الدهر العتي ^(٣) |

فالنبيُّ كان جمالا لا يماثله جمال وكثرا ماديا للفقير ومعنويا للنسي ، وكان يجير على
الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عفا اللسان حتى مع البذيء المذموم ، ولم

(١) طبع دارالمعارف بيروت (ص ٣٣ . وكتاب تاريخ
الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين
(مطبعة الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .
(٢) القوي : المختلج ويريد الخطير .
(٣) عوادى الدهر : نوابه . العتي : الجبار .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره
نفاثات البراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد
إبراهيم الشوش ص ٦٤ وما بعدها وفى مواضع مختلفة
وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبو سعد

يكن جَزَعًا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رفيق الحسّ حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملء فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول في الرسول الكريم :

وَهُوَ أَصْلُ الْوُجُودِ بِلَا مِرَاءٍ وَهُوَ سُرُّ الْحَيَاةِ لِكُلِّ حَيٍّ
أَتَى بِالْمِلَّةِ السَّمْحَاءِ يَدْعُو إِلَى الْأَخْلَاقِ وَالشَّرْعِ السَّوِيِّ
وَأَقْسَمَ مَا سَحَابٌ مَكْفَهَرٌ كَأَن يَرِيقُهُ قِسْمَاتُ مَيٍّ^(١)
يُرْوَى الْأَرْضُ مِنْ غَوْرٍ وَنَجْدٍ بِأَجْوَدَ مِنْ بَنَانِ الْمَاشَمِيِّ
وَمَا أَسَدٌ لَهُ بِالْغَبَابِ زَارٌ يُصَيِّمُ الْأُذُنَ مِنْ قِرْطِ الدَّوِيِّ
بَأَشْجَعِ مِنْهُ فِي الْمَجَاءِ قَلْبًا إِذَا يَرَقَتْ شِبَاةُ السُّمَهْرِيِّ^(٢)

والشيخ عبد الله يستلهم في البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلي للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود في الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الخفيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوى عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المغمم لكثرة أمطاره ويريقه الذي يشبه قسّمات وجهه ممي في ضيائه ، المروى للأرض في ودبائها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائضة بالجلود ، وليس الأسد الغضنفر الذي يزأر في غابه زئيرا يصم دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أتشد منها صاحب كتاب الشعراء في السودان مقدمتها الغزلية وقوله في وصف معجزة القرآن الخالدة :

ثَلَاثِي حَارَتِ الشَّعْرَاءُ فِيهَا وَرَدَّتْ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ
مَنْى مَا يَنْتَلِهَا أَحَدٌ بِنَادٍ يَقُولُ الْمُتَنَذِي هَلْ مِنْ مَزِيْدٍ

والثلاثي يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد في السنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت في روعتها البلاغية وبُهِت كل جبار معاند للرسول ورسائله ، وحين يتلوها أحد بنادٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(٢) شاة السهرى : حد السيف .

(١) المكفهر : الأسود المغمم .

فهرس الكتاب

الصلحة

مقدمة ١٥-٥

القسم الأول : الجزائر

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ٤٩-١٩

١ - الجغرافية ١٩

٢ - التاريخ القديم ٢١

٣ - الفتح والولاء - الأغالبة - الإباضيون - تلمسان ٢٣

٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد ٣٢

٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد ٣٩

٦ - المهد الشملى ٤٤

الفصل الثاني : المجتمع الجزائري ٧٥-٥٠

١ - عناصر السكان ٥٠

٢ - المعيشة ٥٤

٣ - الثراء - الرفه - الموسيقى ٦١

٤ - الدين - المالكية والحنفية - الإباضية والصفرية - المعتزلة ٦٥

٥ - الزهد والتصوف ٧٣

الفصل الثالث : الثقافة ١٠٩-٧٦

١ - الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمر

الحركة العلمية ٧٦

٢ - علوم الأوائل ٨٥

٣ - علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد ٨٩

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ٩٦

٥ - التاريخ ١٠٧

الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء ١٧٠-١١٠

١ - تعرب الجزائر ١١٠

- ٢ - كثرة الشعراء ١١٦
- ٣ - شعراء المدح : عبد الكريم النهشلي ، عبد الله بن محمد التنوخي (ابن قاضي ميلة) ، ابن خميس ، محمد بن يوسف القيسي الثغري التلمساني ، الشهاب بن الخلوف ، محمد القوجلي ١٢٠
- ٤ - شعراء الفخر والمجاء ١٤٩
- (أ) شعراء الفخر : أبو حمو موسى الثاني ١٤٩-١٦٤
- (ب) شعراء المجاء : بكر بن حماد التاهرتي ، سعيد المنداسي ١٥٦
- ٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد الرحمن الأخضرى ١٦٤
- الفصل الخامس : طوائف من الشعراء** ١٧١-٢٢١
- ١ - شعراء الغزل : محمد أحمد الأريسي ، ابن علي ١٧١
- ٢ - شعراء وصف الطبيعة : عبد الله بن محمد الجراوى - إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني ١٨٣
- ٣ - شعراء الرثاء : محمد بن علي بن حماد القلعي ١٩١
- ٤ - شعراء الزهد والتصوف ١٩٨
- (أ) شعراء الزهد والتصوف ١٩٨-٢٠٩
- (ب) شعراء التصوف : أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي ، إبراهيم التازي ٢٠٠
- ٥ - شعراء المدائح النبوية : محمد بن عبد الله العطار ٢٠٩
- الفصل السادس : الشعر وكتابه** ٢٢٢-٢٥٢
- ١ - الخطب والوصايا ٢٢٢
- ٢ - الرسائل الديوانية ٢٢٧
- ٣ - الرسائل الشخصية ٢٣٢
- ٤ - المقامات ٢٣٧
- ٥ - كبار الكتاب: أبو القاسم عبد الرحمن القالمى، الوهراني ، أبو الفضل بن محشرة ٢٤٢

القسم الثاني : المغرب الأقصى

- الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ** ٢٥٥-٢٩٧
- ١ - الجغرافية ٢٥٥
- ٢ - التاريخ القديم ٢٥٨
- ٣ - الفتح والولاة - ثورة الصفرية - بنومدلار - الأدارسة - بعد الأدارسة والمرارين ٢٦١

| | |
|---------|---|
| ٢٧٤ | ٤ - الرباطون - الموحدون - بنو مرين |
| ٢٩١ | ٥ - السعديون - الطرق الصوفية - العلويون |
| ٣٢٨-٢٩٨ | الفصل الثاني : المجمع المغربي |
| ٢٩٨ | ١ - عناصر السكان |
| ٣٠٥ | ٢ - المعيشة |
| ٣١٢ | ٣ - الثراء - الرفق - الموسيقى - المرأة |
| ٣١٩ | ٤ - المالكية - الصغرية - المعتزلة - الظاهرية |
| ٣٢٨-٣٢٥ | ٥ - الزهاد - المتصوفة |
| ٣٢٥ | (أ) الزهاد |
| ٣٢٦ | (ب) المتصوفة |
| ٣٧١-٣٢٩ | الفصل الثالث : الثقافة |
| | ١ - الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمو |
| ٣٢٩ | الحركة العلمية |
| ٣٣٧ | ٢ - علوم الأوائل |
| ٣٤٣ | ٣ - علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة |
| ٣٥٤ | ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام |
| ٣٦٧ | ٥ - التاريخ |
| ٤٣٣-٣٧٢ | الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء |
| ٣٧٢ | ١ - نمرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء |
| ٣٩٣-٣٨١ | ٢ - شعراء الموشحات والأزجال |
| ٣٨١ | (أ) شعراء الموشحات : ابن غرلة ، ابن الصباغ ، ابن زاكور |
| ٣٨٩ | (ب) شعراء الأزجال : ابن عمير ، ابن شجاع التازي |
| | ٣ - شعراء المديح : ابن زبناع ، ابن حبوس ، الجراوى ، ابن عبد المنان ، الهوزالى ، |
| ٣٩٣ | أحمد بن القاضى ، الدغوغى ، البوعنتى |
| ٤٢٨-٤٢١ | ٤ - شعراء الفخر والمجاء |
| ٤٢١ | (أ) شعراء الفخر : الشاذلى |
| ٤٢٦ | (ب) شعراء المجاء |
| ٤٢٩ | ٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد العزيز المازوزى ، ابن الونان |

| | |
|--|---------|
| الفصل الخامس : طوائف من الشعراء | ٤٣٤-٤٨٤ |
| ١ - شعراء الغزل : أبو الريح الموحدي ، عمر السلمي | ٤٣٤ |
| ٢ - شعراء الوصف : عبد العزيز الفشتالي | ٤٤٣ |
| ٣ - شعراء الرثاء : ابن شعيب الجزنائي ، أبو علي اليوسى : الحسن بن مسعود | ٤٥٢ |
| ٤ - شعراء الزهد والتصوف | ٤٦٢-٤٧٥ |
| (أ) شعراء الزهد | ٤٦٢ |
| (ب) شعراء التصوف : ابن الهللي | ٤٦٨ |
| ٥ - شعراء المذاهب النبوية : ميمون بن خبازة ، مالك بن المرحل | ٤٧٥ |
| الفصل السادس : الشعر وكتابه | ٤٨٥-٥٣٩ |
| ١ - الخطب والمواظ | ٤٨٥ |
| ٢ - الرسائل الديوانية | ٤٩٠ |
| ٣ - الرسائل الشخصية | ٤٩٩ |
| ٤ - المقامات والرحلات | ٥٠٣-٥١٨ |
| (أ) المقامات | ٥٠٣ |
| (ب) الرحلات : رحلة ابن رشيد ، رحلة البدرى ، رحلة العياشى ، رحلة | |
| ابن ناصر ، رحلة الوزير الفسائى ، رحلة محمد بن عثمان المكناسى | ٥١٠ |
| ٥ - كبار الكتاب : الفاضى عياض ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، ابن بطوطة ، | |
| محمد بن علي الفشتالى ، محمد بن الطيب العلمى | ٥١٨ |

القسم الثالث : موريتانيا

| | |
|------------------------------------|---------|
| الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ | ٥٤٣-٥٥٢ |
| ١ - الجغرافية | ٥٤٣ |
| ٢ - التاريخ | ٥٤٥ |
| الفصل الثانى : المجمع والطائفة | ٥٥٣-٥٦٦ |
| ١ - المجمع | ٥٥٣-٥٥٥ |
| (أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية | ٥٥٣ |
| (ب) الزروع والمراعى | ٥٥٤ |
| (ج) التجارة | ٥٥٤ |
| (د) حياة بدوية | ٥٥٥ |

| | |
|--|---------|
| ٢ - الثغافة | ٥٥٦-٥٦٦ |
| (أ) نشاط ديني تعليمي كبير | ٥٥٦ |
| (ب) التعليم والطلاب والشيوخ | ٥٥٧ |
| (ج) أمهات الكتب والتون والشروح المتداولة | ٥٥٩ |
| (د) أعلام العلماء | ٥٦٠ |
| (هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء | ٥٦١ |
| (و) أعلام النحاة والمتكلمين | ٥٦٤ |
| الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء | ٥٦٧-٥٩٠ |
| ١ - تمرب موريتانيا | ٥٦٧ |
| ٢ - شعراء المدبح : ابن رازكه، محمد اليدالي الديمتي، حرم بن عبد الجليل العلوى | ٥٦٩ |
| ٣ - شعراء الفخر والهجاء | ٥٧٧-٥٨٤ |
| (أ) شعراء الفخر : المختار بن بون ، محمد بن سيدى الايبرى | ٥٧٧ |
| (ب) شعراء الهجاء | ٥٨٣ |
| ٤ - شعراء الرثاء : باب بن أحمد ييب العلوى | ٥٨٥ |
| الفصل الرابع : طوائف من الشعراء | ٥٩١-٦١١ |
| ١ - شعراء الغزل : الأحول الحسنى ، محمد بن الطلبة اليعقوبى ، يقوى الفاضلى | ٥٩١ |
| ٢ - شعراء التصوف : المختار الكتى ، الشيخ سيداً | ٥٩٨ |
| ٣ - شعراء المدايح النبوية : مولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ، محمد بن محمد العلوى ، محمد بن حنبل | ٦٠٢ |
| ٤ - الشعراء والشعر التعليمي | ٦٠٩ |

القسم الرابع : السودان

| | |
|-------------------------------------|---------|
| الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ | ٦١٥-٦٣٣ |
| ١ - الجغرافية | ٦١٥ |
| ٢ - التاريخ | ٦١٧-٦١٨ |
| (أ) السودان فى العصور القديمة | ٦١٧ |
| (ب) السودان فى العصور الإسلامية | ٦١٨ |
| ٣ - دولة الفونج | ٦٢١ |
| ٤ - محمد على والسودان - عهد إسماعيل | ٦٢٤ |

- ٥ - حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي ٦٢٨
- ٦ - الحكم الثنائي المصري الإنجليزي في السودان ٦٣٢
- الفصل الثاني : المجتمع والثقافة ٦٣٤-٦٥٣
- ١ - المجتمع السوداني ٦٣٤-٦٤٣
- (أ) نزعة صوفية عامة ٦٣٤
- (ب) المرأة ومكانتها في التصوف ٦٣٨
- (ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية ٦٣٩
- (د) طرق صوفية جديدة ٦٤٠
- (هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة ٦٤١
- ٢ - الثقافة ٦٤٤-٦٥٣
- (أ) كاتيب - زوايا - مساجد ٦٤٤
- (ب) حركة علمية نشيطة في عهد الفونج ٦٤٥
- (ج) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون ٦٤٦
- (د) التعليم المدني الحديث وتوقفه ٦٥٠
- (هـ) إنشاء معهد ديني وعودة التعليم المدني الحديث ٦٥٢
- الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء ٦٥٤-٦٧٦
- ١ - تعرب السودان ٦٥٤
- ٢ - شعراء المدح : الشيخ حسين زهراء ، الشيخ محمد عمر البنا ٦٥٧
- ٣ - شعراء الفخر والحماسة : الشيخ يحيى السلاوي السوداني ، عثمان هاشم ٦٦٣
- ٤ - شعراء الرثاء ٦٧٠-٦٧٦
- (أ) رثاء الأفراد : الشيخ محمد سعيد العباسي ٦٧٠
- (ب) رثاء المدن ٦٧٤
- الفصل الرابع : طوائف من الشعراء ٦٧٧-٦٩٩
- ١ - شعراء الغزل العفيف : الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وغزله العذري العفيف ٦٧٧
- ٢ - شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن : الشيخ عبد الله البنا ، صالح عبدالقادر ٦٨٣
- ٣ - شعراء التصوف ٦٩٠
- ٤ - شعراء المدايح النبوية : الشيخ عمر الأزهري ، الشيخ عبد الله عبد الرحمن ٦٩٣